



جامعة الحاج لخضر - باتنة 1



قسم التاريخ والآثار

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قضية 'تحرير المرأة الأهلية' بين الخطاب التاريخي الفرنسي ومواقف النخبة الجزائرية: 1919 - 1954

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الأستاذة الدكتورة:

حسينة حمّاميد

إعداد الطالب:

زهير بن علي

تاريخ المناقشة: 2022/03/09

أمام لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الصفة	الجامعة الأصلية
علي أجقو	أستاذ التعليم العالي	رئيساً	جامعة الحاج لخضر - باتنة 1
حسينة حمّاميد	أستاذ التعليم العالي	مشرفاً ومقرراً	جامعة الحاج لخضر - باتنة 1
بشير فايد	أستاذ التعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة محمد مين دباغين - سطيف 2
جمعة بن زروال	أستاذ التعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة الحاج لخضر - باتنة 1
عبد الكامل عطية	أستاذ التعليم العالي	عضواً مناقشاً	جامعة حمة لخضر - الوادي
مولود قرين	أستاذ محاضر أ	عضواً مناقشاً	جامعة يحي فارس - المدينة

السنة الجامعية: 1442-1443هـ/2021-2022م

بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

'نحن نساء الجزائر لنا معتقلان؛ معتقل الاستعمار
الذي شيد ببتّ الأفكار المسمومة حول المرأة
الجزائرية المسلمة، ومعتقل الجامدين الذي شيدوه
بالعادات والتقاليد الموروثة عن آبائهم الجاهلين لا
عن الإسلام. والمعتقل الثاني أخطر من الأول؛ لأنه
تكأة ووسيلة للمعتقل الأول.

افتحوا عنا باب معتقلكم، فلولا هذا المعتقل لما
بقي الاستعمار يعيش في دماننا إلى الآن، أتركونا
نتعلم كل لغة ونمارس كل فنّ، ونخوض في كل
أمر يهمّ مجتمعنا. إفسحوا الطريق لنصف أمتكم
يجاهد معكم حتى تنتصروا كما انتصر أجدادكم
الأولون بفضل إشراكهم لنسائهم في جهادهم.'

فضيلة أحمد - جريدة 'المنار' 1953

إهداء

أهدي هذا العمل إلى روح والدتي وإلى روح أبي

رحمهما الله وأسكنهما الفردوس الأعلى

إلى من قاسمتني متاعب الحياة، وتحملت معي أعباء هذا

البحث الزوجة الكريمة

إلى ابنتي وقرّة عيني: 'أريج' و 'إسراء'

إلى ابني العزيز: 'آدم'

إلى أفراد عائلتي: 'بن علي' و 'تبّاني' كلّ باسمه

شكر و عرفان

الحمد لله -تبارك وتعالى- الذي هدانا لهذا.. والصلاة
والسلام على خير الأنام

ثم الشكر والعرفان للأستاذة الفاضلة 'حسينة حماميد'
لقبولها الإشراف على هذا العمل، وعلى الملاحظات
الجوهرية والنصائح القيّمة التي أسدتها لنا

الشكر للأستاذة 'Sonia Herzbrun' التي قدمت لنا
الكثير من الدعم خلال مدّة التربص الخارجي

أشكر السادة الأساتذة أعضاء لجنة المناقشة الذين تفضّلوا
بتقييم وتقويم هذا العمل

خالص عبارات الشكر لكلّ من ساهم في هذا العمل من
قريب أو بعيد ولو بكلمة طيّبة؛ ف'الكلمة الطيبة صدقة'

قائمة الاختصارات في المتن والهامش:

1- الاختصارات باللغة العربية:

الاختصار	التسمية كاملة
م.و.د.ب.ح.و.ث.ن	المركز الوطني للدراسات وللبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954
ج.م.د	ديوان المطبوعات الجامعية
م.و.ك	المؤسسة الوطنية للكتاب
ANEP	المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
(د.ت)	دون تاريخ
(د.ن)	دون ناشر
(م.د)	دون مكان نشر

Les abréviations:

2- الاختصارات باللغة الفرنسية:

La Nomination Complète	L'Abréviation
Archives Nationales d'Outre Mer	ANOM
Archives Nationales de Paris	ANP
Jeunesse Unitaire Musulmane Algérienne	JUMA
Direction des Affaires Indigènes	DAI
Commune Mixte	CM
Gouvernement Générale d'Algérie	GGA
Service des Liaisons Nord-Africaines	SLNA
Police des Renseignements Généraux	PRG
Suret� Départemental d'Alger	SDA
Union des Femmes Algériennes	UFA
Union des Femmes Musulmanes Algériennes	UFMA
F�d�ration D�mocratique Internationale des Femmes	FDIF
l'Association 'la Jeune Fille Arabe Alg�rienne	AJFAA
l'Union Franco-Musulmane des Femmes d'Alg�rie	UFMFA
Parti du Peuple Alg�rien	PPA
l'Union D�mocratique du Manifeste Alg�rien	UDMA
Mouvement du Triomphe des Libert�s D�mocratiques	MTLD
Mouvement National Alg�rien	MNA
Centre de Recherches dans l'Anthropologie Sociale et Culturelle	CRASC
Centre de documentation Historique sur l'Alg�rie	CDHA
Sans Date	(S.D)
Sans Lieu	(S.L)
Sans Editeur	(S.E)
L'Entreprise Nationale de Communication, d'Edition et de Publicit�	ANEP

مقدمة

1- التعريف بموضوع الدراسة:

لم تكن مسألة 'تحرير المرأة' عبر التاريخ من المسائل العرضية الطارئة؛ بل إن حضورها في التاريخ الإنساني كان مستمرا وشائكا، خاصة في الأزمنة التاريخية الحديثة والمعاصرة؛ أين استطاعت المرأة الغربية التخلّص من حالة الانغلاق والاضطهاد التي فرضتها عليها المعتقدات القديمة، فبدأت النساء في التعبير عن ذواتهنّ والمطالبة بحقوقهنّ؛ بانخراطهنّ في صفوف الحركات النقابية، ثم تأسيسهنّ وقيادتهنّ للحركات النسوية في الغرب، هذه الحركات التي تبنت مطالب النساء، وسعت إلى تحقيق تطلّعاتهنّ، وجعلت من مطلب 'المساواة' شعاراً لها.

تزامن ظهور الحركات النسائية مع موجة الاستعمار الأوربي الحديث التي اجتاحت إفريقيا وآسيا، فانتقل نشاطها إلى البلاد المستعمرة، أين عملت على نشر أفكارها، والترويج لأطروحاتها الخاصة بتحرير المرأة من خلال استقطاب المرأة 'الأهلية' إلى صفوفها. ولم تكن المرأة الجزائرية بمنأى عن هذا الواقع، لا بل إنّ حماسة وإصرار الناشطات النسويات الفرنسيات على بثّ أفكارهنّ التي تتعلّق بتحرير المرأة 'الأهلية' من سيطرة المجتمع 'الذكوري'، ومن الأعراف والتقاليد البالية وأحكام الدين الجائرة، لا تضاهيها إلا شراسة الحملة الاستعمارية الفرنسية ومشروعها الاستيطاني في الجزائر.

لقد مثّلت قضية 'تحرير المرأة الأهلية' (L'émancipation de la femme indigène)، موضوعا للنقاشات المتحمّسة، وصارت الكتابات حول القضايا الاجتماعية والثقافية التي تخصّ المرأة؛ تأخذ حيزاً واسعاً في الصحافة العربية والفرنسية الصادرة بالجزائر، كما أصبح الرجال والنساء من يشعرون أنّهم معنيون بهذه المسائل؛ فقدّمت المرأة 'الأهلية'، على أنّها ضحية يجب إنقاذها، وهي المهمة التي أوكلت للنظام الاستعماري¹.

¹ - Karima Ramdani: «L'Histoire sociale des femmes 'indigènes' algériennes avant 1954 à travers l'évolution d'un concept clé: l'Emancipation», Dans actes du 5^{ème} colloque international : « Rôle de la femme algérienne durant la révolution 1954-1962 », 25-26 octobre 2010, Université de Skikda, O.P.U, Constantine, septembre 2011, p.p30-48.

إنّ المتمعّن في مضامين الخطاب الكولونيالي حول 'المرأة الأهلية'؛ يجد أنّه توجّه بداية إلى استكشاف كلّ ما يتعلّق بالعبادات والتقاليد وأعراف المجتمع المحليّ، فدوّن الفرنسيون انطباعاتهم عن 'عالم الحرّيم' ضمن أعمالهم الفنيّة الاستشراقية، الرّحلات، الإثنوغرافيا العسكرية، ثمّ انصبّ اهتمامهم في مرحلة ثانية على الأبحاث الأنثروبولوجية، والأعمال الأدبية النسوية، والدراسات القانونية، والأعمال الأكاديمية التي ظهرت بعد تأسيس جامعة الجزائر.

لقد عمل الفرنسيون على دراسة كلّ ما يعبر عن مظاهر وهوية المرأة في مختلف مناطق الجزائر، فشكّلت مواضيع اللباس والزينة، الميراث والملكية، تعدّد الزوجات، الأحكام المتعلّقة بالأحوال الشخصية للمرأة في مسائل الزواج، الطلاق والخلع.. وغيرها، مجالاً خصباً للكتابات الكولونيالية، ثمّ أصبحت قضايا تربية وتعليم البنات، الحجاب والاحتجاب والسّفور.. حقلاً لكتاباتهم؛ لأنّها تعكس وضع المرأة في المجتمع الجزائري، فعمل المستعمرون على تحطيم هذه الرموز، وتحقيق إستراتيجية اختراق المجتمع عن طريق المرأة تحت شعار: 'لنعمل على أن تكون النساء معنا وسائر الشعب سوف يتبع' ¹.

من هذا المنطلق ارتأينا طرح قضية 'تحرير المرأة الأهلية' بين الخطاب التاريخي الفرنسي، ومواقف النخبة الجزائرية، "وإذا كانت المصادر الفرنسية هامة لدراسة البواعث الإيديولوجية لمبشّري ترسيخ الثقافة الاستعمارية؛ فإنّ ردّات الفعل الجزائرية لا تُرى إلّا من خلال الرفض الشامل لكلّ أشكال الاستعمار، وأنّ دراسة البعد المميّز للبنية الثقافية الاستعمارية المتمثّلة في النظام المدرسي وبرامج التعليم من قبل الجزائريين؛ لا يمكن أن يتمّ إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار المصادر الجزائرية للعصر المعين" ².

¹ - للمزيد يُنظر: فرانز فانون: العام الخامس للثورة الجزائرية، تر. ذوقان قرقوط، دار الفارابي - Anep، الجزائر، 2004، ص 23 وما بعدها.

² - يُنظر: عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر دراسة سوسولوجية، ط.3، تر. فيصل عباس، دار الحدّاءة، بيروت، 1983، ص 12.

2- دوافع اختيار الموضوع:

جاء اختيارنا لموضوع: قضية 'تحرير المرأة الأهلية' بين الخطاب التاريخي الفرنسي ومواقف النخبة الجزائرية: 1919-1954؛ لعدة أسباب ودوافع في طبيعتها؛ اهتمامنا الشخصي بالبحث في التاريخ الاجتماعي للجزائر في الفترة المعاصرة، وتاريخ المرأة على وجه التحديد. هذا الاهتمام عزّزته قلة الدراسات التاريخية الأكاديمية الجزائرية التي تبحث الإشكاليات ذات الصلة بقضايا المرأة. وكنا قد ترجمنا ذلك في مرحلة الماجستير بإنجاز رسالة حول: 'قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية: 1925-1954'. ومن هنا تولّدت لدينا الرغبة في مواصلة الكشف عن الجوانب الغامضة في الموضوع، والغوص في العديد من القضايا التاريخية الاجتماعية والثقافية الخاصة بالمرأة الجزائرية (الأهلية) زمن الاحتلال الفرنسي للجزائر، والتي مازالت بحاجة إلى دراسات أكاديمية معمّقة.

كما أن الكثير من التساؤلات حول قضايا المجتمع الجزائري التي تحتاج إلى إجابات من طرف الباحثين في حقول علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا والتاريخ الاجتماعي¹؛ ومنها سؤال مكانة المرأة في المجتمع الجزائري الذي يوصف بأنه 'محافظ' و 'ذكوري'، وهذا كتعبير بشكل آخر عن مسألة 'تحرير المرأة'، وهي -في اعتقادنا- من المسائل التي مازالت مطروحة بالحاح على بساط البحث والنقاش، ومحلّ تناول دائم على جميع الأصعدة السياسية والفكرية والأكاديمية، فالموضوع يعتبر من المواضيع الحيوية والمستمرّة إلى الزمن الحاضر، التي ما فتئت مراكز الأبحاث الأكاديمية الدولية توليها عناية فائقة، وتخصّص لها مخابر وفرق بحث في كبرى جامعات العالم.

¹ - دراستنا هذه تندرج ضمن التاريخ الاجتماعي والثقافي؛ لكن دون إخراجها عن سياقات متّصلة بها وملازمة لها؛ كسياق التاريخ السياسي والاقتصادي؛ لذلك سنوظّف الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية والسياسية والإحصائية والفكرية والاستشراقية... التي تناولت فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر. وهذا ما يفرضه مناهج البحث التاريخي المعاصرة. للاستزادة يُنظر: بول كارتلج: ما التاريخ الاجتماعي الآن؟، ضمن كتاب: ما التاريخ الآن؟، (سلسلة المشروع القومي للترجمة)، تر. قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2006، ص.ص 61-84.

من ناحية أخرى؛ كان إدراكنا بصفتنا دارسين للتاريخ؛ بأن وضع المرأة الجزائرية اليوم، ما هو في الحقيقة إلا نتيجة لترسبات الماضي البعيد والقريب (الماضي الاستعماري)؛ لأجل ذلك ارتأينا أن نبحت هذا الموضوع لمحاولة فهم 'تاريخ المرأة الجزائرية المعاصر'، ومحاولة كتابته بموضوعية، بعيدا عن التشويه الذي اعتراه، والقراءات المغلوطة والمعرضة التي قدّمت له، بين كتابات وطنية وأخرى؛ ذات أغراض قومية ممجّدة لهذا التاريخ؛ جعلت منه صفحة بيضاء ناصعة لا غبار عليها، وبين كتابات غربية مُعرضة حاولت الانتقاص من مكانة المرأة الجزائرية في المجتمع، ودورها البارز والمحوري في مسار المقاومة والحركة الوطنية والثورة التحريرية.

3- إشكالية الدراسة:

إنّ الجزائر لم تتعرّض للاستعمار الأوربي في صورته السياسية والعسكرية فقط؛ بل كان هناك مشروع استيطاني متكامل الجوانب، شارك فيه المفكر والفيلسوف والأديب ورجل الدين، مثلما قاده العسكري والسياسي، كما أنّ أهدافه لم تقتصر على الجانين السياسي والاقتصادي وحتى الديني؛ بل تعدّت ذلك إلى القضايا الاجتماعية والثقافية، التي تمّ توظيفها لخدمة الإيديولوجيا الاستعمارية، ومنها قضية 'تحرير المرأة الأهلية'؛ لذلك ارتأينا التساؤل عن طبيعة الخطاب التاريخي الفرنسي الذي استهدف المرأة الجزائرية، من حيث خلفياته ومضامينه، والتي لم تنفصل بأي حال من الأحوال عن المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر.

كما أنّ القراءات والتفسيرات التي كانت تقدّم من طرف النخبة الجزائرية المثقفة؛ بخصوص وضع المرأة الجزائرية في ظلّ الهيمنة الفرنسية على الجزائر، لم تكن عفوية وإنّما كانت تنبع من منطلقات فكرية وقناعات شخصية وإيديولوجية، فإذا كان الخطاب الفرنسي جاء لخدمة مشروع استعماري متكامل الجوانب؛ وظّف الإيديولوجيا والسياسة والتاريخ والدين لهذا الغرض، فإنّ مواقف النخبة الجزائرية المثقفة بخصوص هذه المسألة كانت تصدّر أيضاً أيضا بناءً على خلفيتها الثقافية والفكرية، وقناعاتها وتطلّعاتها الشخصية.

يتمحور موضوع بحثنا حول مضامين الخطاب الكولونيالي الذي أنتجته مختلف الدوائر الاستعمارية الفرنسية بالجزائر؛ سياسية وعسكرية وفكرية وأدبية وأكاديمية ونسوية، سواء من حيث استيعابه لوضع ومكانة المرأة الجزائرية (المسلمة)، الذي لم يكن لينفصل بأيّ حال من الأحوال عن ظروف المجتمع الجزائري تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي، أو من حيث انسجامه مع السياسة الاستعمارية والواقع الذي كانت تعيش في ظلّه المرأة الجزائرية، أو من حيث قدرته على تقديم قراءة سليمة لهذا الواقع، وطرح الحلول المناسبة لمشكلة المرأة.

كما سنستعرض وناقش آراء النخبة الجزائرية المثقفة بمختلف تياراتها في هذا الموضوع؛ لفهم السياق التاريخي الذي كانت تصدر فيه، والدوافع الفكرية والثقافية والإيديولوجية التي صنعت مواقفها، وردود أفعالها تجاه الخطاب الكولونيالي في قضية 'تحرير المرأة الأهلية'، واستجلاء مساهمات هذه النخب في سبيل الارتقاء بالنت والمراة الجزائرية فكريا واجتماعياً، وتخليصها من حالة البؤس والشقاء والتخلف.

هذه الإشكالية تتفرّع عنها عدّة تساؤلات فرعية تتعلّق بالبحث من بينها:

- كيف كان وضع المراة الجزائرية في ظلّ الهيمنة الفرنسية على الجزائر منذ 1830م؟ وكيف حاول الاستعمار أن يخرق المجتمع بواسطة المراة؟
- ما فحوى وطبيعة الخطاب التاريخي الفرنسي حول المراة 'الأهلية'، وهل حمل خصوصيات تختلف عن باقي الدول المستعمرة؛ بالنظر إلى خصوصية الجزائر بالنسبة للفرنسيين؟
- هل انطلق هذا الخطاب من واقع المجتمع والمراة في الجزائر المستعمرة؛ أم أنّه تأثر بالأطر الحضارية الغربية، والحدود التي رُسمت له خدمةً للمشروع الاستيطاني الفرنسي؟
- ما هي مرجعيات النخب الجزائرية في مسألة 'تحرير المراة الأهلية'؟ وهل استطاعت هذه النخب أن تعبّر فعلا عن مطالب وتطلّعات المراة الجزائرية؟

- ما هي نقاط الالتقاء و الاختلاف في 'مسألة تحرير المرأة' بين الطرح الفرنسي والمتفرنس، والطرح النخبوي الجزائري المحافظ والإصلاحي؟

- هل استطاعت المرأة الجزائرية أن تجد مكانة مميّزة لها في خضم الصراع السياسي والثقافي والأيدولوجي الذي عرفته الجزائر المستعمرة؟

4- أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذا الموضوع -حسب تقديرنا- في أنّه يحاول الكشف عن جانب مهم من جوانب التاريخ الاجتماعي للجزائر في الفترة المعاصرة، وقضية مهمّة هي تحرير المرأة الجزائرية، التي كانت محلّ اهتمام الطبقة المثقّفة (النخبة) المحليّة والأوربية في الجزائر المستعمرة.

هذه الدراسة تدخل أيضا ضمن التاريخ الاجتماعي والنسوي بصفة خاصة، وتحمل الكثير من الأبعاد الفكرية والثقافية، فمن الجانب التاريخي دارت نقاشات مهمّة حول قضايا المرأة عموماً، ومسائل تحرّرها الاجتماعي والثقافي والفكري، وكانت الصحافة الفرنسية والجراند العربية مساحة لإبداء الرأي حول هذا الموضوع، ومنتفّسا للنخب الجزائرية المعرّبة والمتفرنسة للتعبير عن مواقفها بخصوصه، كما نجد في الكتابات التاريخية الاستعمارية ومؤلفات المستشرقين منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، الكثير من الحقائق المتعلقة بطبيعة النظرة السائدة آنذاك تجاه المرأة الجزائرية و 'مجتمع الحرّيم'.

بالنسبة لنا كباحثين في التاريخ الاجتماعي الحديث والمعاصر، يحمل موضوع أطروحتنا أهمية علمية بالغة، ويمثّل فرصة سانحة للتعمّق في تاريخ المرأة الجزائرية، ومعرفة حقيقة أوضاعها في ظلّ السيطرة الفرنسية، وقياس مدى انسجام الخطاب الاستعماري مع واقع المرأة آنذاك، ومدى توفيقه في توصيف حالتها وطرح مشاكلها طرحا موضوعيا. ومن جهة أخرى سنطلّع على مواقف النخبة الجزائرية المثقّفة، ونحاول تحليل مضامينها؛ سواء النخب المفرنسة أو النخب الإصلاحية والوطنية، واستجلاء حقيقة آرائها بخصوص هذه القضية.

5- أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى:

- دراسة تاريخ وأوضاع المرأة الجزائرية في ظلّ السيطرة الفرنسية، وتقديم صورة حقيقية عن مكانتها الاجتماعية في المجتمع الجزائري آنذاك.
- معرفة مكانة المرأة الجزائرية ضمن المشروع الاستيطاني والسياسة الاستعمارية، وانعكاسات ذلك على البنت والفتاة الجزائرية.

- إزالة اللبس الذي ما يزال يكتنف مواقف النخبة الجزائرية المثقفة من بعض قضايا المجتمع الجزائري في العهد الاستعماري، ومنها 'قضية المرأة'، والتي تراوحت المواقف حولها بين من ينادي باندماجها في المجتمع الفرنسي، عن طريق تعليمها تعليماً فرنسياً خالصاً ودمجها ضمن منظومة القيم الغربية، وبين داعي إلى إنقاذها من براثن الفكر الاستعماري التغريبي، ومحدراً من وعواقب ذلك على هويتها وثقافتها العربية الإسلامية، وعلى مستقبل الأجيال الجزائرية الصاعدة حينذاك.

- استجلاء صور النضال والكفاح الذي قدّمته النساء الجزائريات ضمن مسار الحركة الوطنية الجزائرية، وصولاً إلى ثورة أول نوفمبر 1954م.

6- الإطار الزمني والمكاني للبحث:

من المعروف تاريخياً أنّ قضايا المرأة في الجزائر كانت محلّ نقاش دائم منذ مطلع القرن العشرين الميلادي، من خلال كتابات رواد الإصلاح الاجتماعي الجزائريين، أو المثقفين الفرنسيين، لكنّ النقاش حول قضية تحرير المرأة تبلور بشكل واضح بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، ووصل أوجّه خلال عقدي الثلاثينيات والأربعينيات. من هذا المنطلق حدّدنا مجال بحثنا بين 1919 و 1954م، مع الأخذ بعين الاعتبار الخلفيات التاريخية للموضوع، والتي تعود إلى بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، أين ظهرت أولى الكتابات التي تهتمّ بالمرأة 'الأهلية'، وكذلك

إفرازات ونتائج ما كان يدور من نقاش حول القضية، والتي امتدت إلى غاية استقلال الجزائر سنة 1962م، لا بل إنَّ مخلفاته وتداعياته مستمرة حتى اليوم.

من ناحية الحيز المكاني (الجغرافي) للبحث، وعلى اعتبار أن موضوعنا يدور حول المرأة الجزائرية ووضعها تحت السيطرة الفرنسية، فمن الطبيعي أن تكون الجزائر بحدودها الجغرافية المعروفة هي مجال بحثنا. مع الأخذ بعين الاعتبار أيضا ما تفرضه دراسة هذا النوع من المواضيع في التاريخ الاجتماعي وما تحمله من امتدادات جغرافية.

7- المناهج العلمية التاريخية المتبعة في البحث:

بغية تقديم صورة واضحة عن الوضع الذي كانت تعيشه المرأة الجزائرية في ظلّ الاستعمار الفرنسي، وظّفنا المنهج التاريخي الوصفي، حيث استعرضنا ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية، من خلال مجموعة من المصادر التاريخية الاستعمارية التي عنت بشؤون المرأة الجزائرية، وجاءت في شكل كتابات 'انطباعية' حول المرأة والمجتمع المحلي، وأيضا بعض الكتابات التاريخية العربية والمعرّبة، التي أحاطت بالموضوع، ودرست مكانة المرأة في المجتمع، ودورها في المقاومة التي اتخذت عدّة أشكال كما سنرى.

إنّ الحاجة إلى بحث معمّق في الخطاب الفرنسي، وفي مواقف النخبة الجزائرية بخصوص قضية 'تحرير المرأة الأهلية'، فرضت علينا توظيف المنهج التحليلي والاستقرائي؛ بغرض فهم خلفيات ومرامي الخطاب التاريخي الفرنسي، واستقراء نصوصه، وربط ذلك بالسياق التاريخي الذي ظهر فيه، وتحليل مواقف النخبة في ضوء أفكارها، انطلاقاً من معرفتنا بخلفياتها الفكرية.

واستلزم الأمر في بعض مباحث هته الدراسة؛ إعمال المنهج المقارن؛ لعقد مقارنات بين مختلف الآراء الصادرة حول موضوع المرأة 'الأهلية'، ووضعها الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي، وطرح مقاربات بخصوصه، سواء من جانب الخطاب التاريخي الفرنسي أو من خلال أدبيات ومواقف النخبة الجزائرية.

8- خطة العمل المنتهجة:

قمنا بدايةً بدراسة أوضاع المرأة الجزائرية منذ وصول الفرنسيين إلى الجزائر سنة 1830م، مع التركيز على الجوانب الاجتماعية والثقافية والدينية؛ نظراً لصلتهما الوثيقة بموضوع أطروحتنا، كما بينا صور المعاناة التي عاشتها المرأة الجزائرية في مواجهة البطش العسكري الكولونيالي، الذي لم يدخر أيّ وسيلة لتحقيق مآربه الاستيطانية، وحاولنا مناقشة مكانة المرأة في المجتمع الجزائري، وأوضاعها الاقتصادية والثقافية والدينية، وأوضحنا كيف أثر ارتباك السياسة التعليمية الفرنسية لصالح البنات 'المسلمات'، في انتشار الأمية والجهل، وتقهر وضع المرأة في الجزائر، فكرياً وأخلاقياً، كما تطرّقنا إلى مظاهر المقاومة التي أبدتها المرأة الجزائرية في مواجهة المشروع الاستيطاني.

في الفصل الثاني من الدراسة؛ رسمنا صورة عن المرأة الجزائرية في ضوء الفنّ الاستشراقي الكولونيالي، وكتابات بعض الرّحالة والمستشرقين، وما تضمّنته أدبيات النخبة الفرنسية المثقفة بمختلف توجّهاتها ومستوياتها، من أفكار وطروحات حول المرأة المسلمة في الجزائر، كما وجدنا في الإثنوغرافيا العسكرية الكولونيالية، جملة من الدراسات التاريخية التي عنت بشؤون ووضع المرأة 'الأهلية'، والتي شغلت جزءاً مهماً في الخطاب الفرنسي حول المرأة الجزائرية، سيما في القرن التاسع عشر، بالإضافة إلى الكتابات النسوية الفرنسية خاصة منذ مطلع القرن العشرين، والتي اهتمّت بحياة المرأة الجزائرية ويومياتها وقضاياها، فضلاً عن الخطاب الرسمي الفرنسي بجانبه التشريعي والسياسي، كل هذا بغية تحديد طبيعة النظرة الفرنسية للمرأة 'الأهلية'، ومكانتها في الأدبيات الكولونيالية.

أما في الفصل الثالث؛ فدرسنا تجليات الخطاب الكولونيالي الفرنسي في قضية 'تحرير المرأة الأهلية'، بدءاً بالخطاب القانوني الأكاديمي، وما تضمّنه من اجتهادات ومقاربات، كانت تسعى لإحلال منظومة القوانين الفرنسية، محلّ القانون الإسلامي الذي كان يحكم المجتمع المحلي

في الجزائر، والذي قدّم بعض التشريعات والنصوص القانونية تحت ذريعة إصلاح وضع المرأة 'الأهلية' خاصة في منطقة القبائل¹. كما قدّمنا بعض النماذج عن خطاب الحركة النسوية الفرنسية من خلال صحافتها بشكل خاص، والتي حاولت بدورها تبني قضايا المرأة 'الأهلية'، والمرافعة من أجل 'تحريرها'، هذا الخطاب الذي توجّ بعقد 'مؤتمر النساء المتوسطيات' بمدينة قسنطينة سنة 1932م، ثم تأسيس الاتحاد النسوي الفرنكو-إسلامي للنساء الجزائريات في عام 1937م، كما أدرجنا ضمن هذا الفصل خطاب النخبة النسوية الجزائرية المتفرنسة، على اعتبار أنّ خطابها كان امتداداً للخطاب النسوي الفرنسي، ونضالهما كان مشتركاً.

في الشقّ الثاني من الدراسة؛ طرحنا في الفصل الرابع قضايا المرأة في فكر وأدبيات النخبة الجزائرية المثقفة منذ القرن التاسع عشر الميلادي؛ بتأثيرها العروبي الإصلاحية والمتفرنس، فاستعرضنا وجهة نظر الفكر الإصلاحي الجزائري في القضايا والمسائل التي تخصّ المرأة المسلمة، بداية برواد الإصلاح في نهاية القرن التاسع عشر، على غرار 'عبد القادر المجاوي' و 'محمد بن مصطفى بن الخوجة' و 'محمد بن شنب' ومروراً بالشيخ 'عمر بن قدور'، ثم رجال وقادة 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين'، ووصولاً إلى المفكّر 'مالك بن نبي'. كما طرحنا موقف النخبة الجزائرية المحافظة أو التقليدية في بعض مسائل المرأة، والتي عبّرت عنها غالباً من خلال صحافتها العربية في الجزائر، ودافعت عن طرحها الرامي إلى الحفاظ على العادات والتقاليد، وصون النساء المسلمات من الانسلاخ والتميّع.

وكان لكتابات النخبة المتفرنسة أو المتفرنسين حول قضايا المرأة 'الأهلية' في الجزائر؛ النصيب الأكبر في ثنايا هذا الفصل، والتي عبّرت هي الأخرى عن مواقفها عبر صحافتها، التي

¹ - توجّهت إستراتيجية الاحتلال والاستيطان الفرنسي في الجزائر منذ 1830م إلى استهداف منطقة القبائل، والترويج لأطروحة التمايز العرقي واللغوي والثقافي بين 'البربر' و 'العرب'، وأنّ العرب المسلمين الفاتحين هم غزاة لبلاد الأمازيغ، التي هي أرض مسيحية وموطناً للحضارة الرومانية. ولم تحدد الدراسات الكولونيالية التي تناولت وضع المرأة في الجزائر عن هذا الخط الاستعماري، فأولت عناية خاصة بدراسة المجتمع والمرأة ببلاد القبائل، كما أنّ أدبيات الخطاب الكولونيالي مليئة بهذه الطروحات الاستعمارية، التي تقوم على التفريق بين 'المرأة العربية' و 'المرأة البربرية أو القبائلية'.

استمرّت في الصدور طويلاً، ودافعت بشراسة عن نظرتها التي تستند على 'تحرير المرأة الأهلية' عن طريق التعليم الفرنسي؛ أي بواسطة المدرسة الفرنسية، ثم الإدماج والمساواة، هتته المواقف التي تراوحت بين الاعتدال بالنسبة للمتفرنسين، والتطرّف لدى بعض المتحمّسين، الذين لم يكونوا يرون من سبيل لرفقيّ المرأة 'الأهلية' إلا ضمن أطر الحضارة الغربية.

أما الفصل الخامس؛ فخصصناه للتأريخ لمحطات ومسار المرأة الجزائرية ضمن أحزاب الحركة الوطنية بمختلف تياراتها، وللتعريف بالأدوار والمساهمات التي قدّمتها بعض النساء الجزائريات، سواء في مجال تعليم البنات، أو من خلال العمل الجمعي والسياسي النضالي، وحاولنا فهم مكانة المرأة في أدبيات الحركة الوطنية الجزائرية، وكتبنا عن صعود النشاط النسوي في الجزائر عقب الحرب العالمية الثانية، وإسهاماته في الحركية السياسية التي عرفتها الجزائر؛ وصولاً إلى اندلاع الثورة التحريرية عام 1954م، وهو ما مثّل -حسب رأينا- الانطلاقة الفعلية لبداية تحرّر وتحرير المرأة الجزائرية.

في الفصل السادس والأخير؛ وهو فصل تحليلي استنتاجي؛ تساءلنا عمّا حقّقه الخطاب الكولونيالي الفرنسي للمرأة الجزائرية، وقدّمنا تصوّرات تتعلّق بمدى نجاح فكرة الانصهار بين الجاليتين الأوربية والعربية المسلمة في الجزائر عن طري المرأة، كما سعينا لشرح مآل مشاريع إصلاح المرأة والمجتمع 'الأهلي' التي قدّمتها بعض الساسة الفرنسيين، وتبيان مواطن الانشطار في مواقف النخبة الجزائرية العربية والمتفرنسة، وانعكاس كلّ ذلك على موقفها بشكل عام تجاه الخطاب الكولونيالي في قضية المرأة 'الأهلية'.

9- الدراسات ذات الصلة بالموضوع:

بدأت الدراسات التاريخية الغربية تتوجّه نحو البحث في التاريخ الاجتماعي للجزائر، وتفتتت جزئياته، والاهتمام بدراسة 'تاريخ المهمّشون' كالأطفال والنساء، بينما لم تنل هذه

المواضيع حظّها بعدُ في الجامعة الجزائرية، اللهمّ إذا استثنينا الكتابات التاريخية التي تتعلّق بمشاركة المرأة في الثورة التحريرية.

بالنسبة للأبحاث التاريخية-الاجتماعية التي تطرقت إلى موضوع المرأة الجزائرية، أو التي اعتنت بوضع المرأة قبيل وخلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وهي ذات صلة مباشرة بموضوع بحثنا؛ فنذكر:

- دراسة الباحثة ليلي خيراني: "المرأة في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني 1818-1830"، إشراف الأستاذة 'فلة موساوي قشاعي'، وقد رسمت لنا الباحثة من خلال عملها هذا، صورة واضحة عن يوميات المرأة الجزائرية أواخر العهد العثماني، وصيرورة حياتها الاجتماعية، ولو أنّ دراستها اقتصرّت على مدينة الجزائر، ولم تشمل باقي مدن وقرى الجزائر العثمانية، بما لها من خصوصيات، سيما فيما يتعلّق بنمط حياة النساء الريفيات.

- بناحي جارية: دراسة حول "المرأة القبائلية الريفية 1954-1962"، إشراف الأستاذة 'مليكة القورصو'، وقد تناولت الباحثة بالدراسة المرأة القبائلية خلال الثورة، ووضعها الاجتماعي، ومساهماتها في الثورة، ومعاناة المرأة الريفية وتضحياتها بمنطقة القبائل، لتصل إلى رصد التحوّلات الاجتماعية والتقلّبات الحاصلة في حياة النساء باندلاع الثورة التحريرية.

- سعيدة درويش: "مشكلة المرأة في الفكر الجزائري الإسلامي المعاصر"، رسالة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة. وهي في الحقيقة دراسة قدّمت نظرة فقهية تحليلية لمشكلة المرأة في الفكر الإسلامي الجزائري، ورؤية النخبة الإصلاحية لقضايا المرأة في الجزائر.

- دراستنا الموسومة بـ: "قضايا المرأة ضمن اهتمامات الحركة الإصلاحية الجزائرية: 1925-1954م"، إشراف الأستاذ 'سليمان قريبي'، بقسم التاريخ جامعة باتنة. وقد قمنا بدراسة الأوضاع العامة للمرأة الجزائرية في ظل الاستعمار الفرنسي، كما تناولنا موقف النخبة الجزائرية الإصلاحية من قضايا المرأة، ثم مكانتها في المشروع الإصلاحي لجمعية العلماء.

كما تجب الإشارة إلى العديد من المشاريع البحثية الأكاديمية حول تاريخ المرأة الجزائرية، والتي هي قيد الإنجاز سواء في الجزائر أو خارجها، والتي لم تتوصل بنتائجها بعد.

أما أهمّ الدراسات الأكاديمية التي تتقاطع مع موضوع أطروحتنا هته؛ يمكن أن نذكر تلك التي اهتمت بتاريخ الجزائر الاجتماعي خلال فترة الاحتلال الفرنسي ومنها:

- أطروحة الأستاذ مصطفى حجازي: "الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية بمنطقة سيدي بلعباس 1849-1962"، وفيها يتطرق الباحث إلى الوضع الاجتماعي بالمنطقة للأهالي والمستوطنين مذ تأسس مدينة سيدي بلعباس إلى غاية استقلال الجزائر سنة 1962.

- أطروحة دكتوراه علوم للأستاذ الطاهر عمري - رحمه الله - الموسومة بـ: "النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع 1900-1940"، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، وفيها يحلل الباحث مواقف النخبة الجزائرية من قضايا المجتمع الجزائري الطارئة في ذلك الوقت، بما فيها موقفها في قضية المرأة.

- رسالة ماجستير للباحث موهوب مبروك، بعنوان: "التنظيم الاجتماعي في منطقة القبائل وأثره في صمود السكان ضد السياسة الاستعمارية الفرنسية المنتهجة فيها 1857-1914م". حيث استعرض طبيعة التنظيم الاجتماعي بمنطقة القبائل، والسياسة الاستعمارية هناك، ثم أهمّ مظاهر صمود السكان في وجه السياسة الفرنسية، مع التركيز على آثارها الاجتماعية.

- محمد قريشي: "الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى 1945-1954"، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر. ودرس الباحث الأوضاع الاجتماعية للمجتمع 'الأهلي' بعد الحرب العالمية الثانية ومجازر 8 ماي 1945م، وما خلفته من أوضاع بائسة إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية.

10- المادة المصدرية للبحث:

أتاحت لنا المكتبة الوطنية الفرنسية بباريس رصيذا وثائقاً ثريا يتعلّق بتاريخ الجزائر الاجتماعي والثقافي وبموضوع بحثنا، وجاءت هذه الوثائق في شكل ورقي ورقمي ومصعّرات فيلمية، تشمل الكتب ومقالات الدوريات والدراسات التاريخية والأكاديمية. كما تحتوي مراكز الأرشيف الفرنسية على أرصدة ثرية من الوثائق التاريخية التي تعود لفترة الاحتلال الفرنسي بالجزائر، خاصة في أرشيف ما وراء البحار (Archives Nationales d'Outre-Mer) بمدينة أكس أون بروفانس. كما مكّنتنا بعض مراكز البحث والمعاهد الفرنسية من مادة قيّمة في الموضوع، على غرار 'مركز التوثيق التاريخي حول الجزائر' (CDHA)، و'معهد البحث حول العالم العربي والإسلامي' (IREMAM).

وبناءً عليه؛ فقد حاولنا استقاء مادة أرشيفية ثريّة في الموضوع، سيما في جانب الخطاب الكولونيالي حول المرأة الجزائرية، والتي كانت عبارة عن تقارير مدنية وعسكرية، ومراسلات إدارية صادرة عن مختلف المصالح الإدارية الفرنسية في الجزائر، والتي اهتمّت بشكل خاص بتتبع تحركات النساء الجزائريات الناشطات في المجال التربوي التعليمي، والنشاط الجمعي والعمل السياسي النضالي، ورجال الحركة الوطنية الذين كانت لهم صلة بالقضية. كما تضمّن هذا الأرشيف قصاصات الجرائد التاريخية التي كتبت عن النشاط النسوي في الجزائر آنذاك.

قبل هذا؛ اعتمدنا في الفصول الأولى من البحث على المصادر التاريخية الفرنسية التي اهتمّت بموضوع المرأة 'الأهلية'، وعكست طبيعة الخطاب الفرنسي حوله منذ 1830م، وهي مصادر متنوّعة بين دراسات استشراقية عسكرية، وكتابات انطباعية ورحلات، بالإضافة إلى الكتابات الأدبية الروائية النسوية، وقد أفادتنا هذه المصادر كثيراً في تحديد ملامح النظرة الاستعمارية الفرنسية للمرأة في جزائر القرن 19م وبداية القرن 20م.

أما أدبيات النخبة الجزائرية؛ فقد استقيناها من بعض المؤلفات الصادرة عن أعلامها، كما وظّفنا الصحافة العربية في الجزائر التي كانت تابعة لرجال الفكر والثقافة والسياسة، ولتيارات وأحزاب الحركة الوطنية، ومنها صحيفة 'التّجّاح' القسنطينية، لسان حال 'النخبة المحافظة'، وصحف 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين' 'الشهاب' و 'البصائر'، وصحافة النخبة المتحمّسة والمتفرنسة: 'صوت الأهالي' (Voix des Indigènes) و 'صوت المستضعفين' (La Voix des humbles)، بالإضافة إلى بعض مقالات صحف الأحزاب السياسية الجزائرية التي ظهرت عقب الحرب العالمية الثانية.

11- مصطلحات الدراسة:

جاء استخدام مرادفاً لعبارة 'الخطاب التاريخي الفرنسي' في عنوان الدراسة؛ لتمييزها عن الدراسات التي تتناول تحليل مضامين الخطاب الإعلامي أو السياسي...، وقد ارتأينا أيضاً توظيف مصطلح 'الخطاب الكولونيالي' (Le discours colonial) ضمن المتن؛ لكونه صار متداولاً بكثرة في الأبحاث الأكاديمية التاريخية المعاصرة، كما أنّه قد يجلّ الإشكال المتعلّق بتوظيف مصطلحات أخرى مثل: 'احتلال'، 'استعمار'، 'استعمار'... إلخ.

تحمل عبارة 'تحرير المرأة الأهلية' دلالات التحرير والتحرّر بمفهومه الاجتماعي والثقافي والديني؛ مع الأخذ بالحسبان الجوانب السياسية، والتشريعية القانونية، وقد اعتبرنا السياسة الكولونيالية في الجزائر سبباً مباشراً في تدّتي وضع المرأة بالجزائر، فضلاً عن العادات والتقاليد والأعراف المحلية. أما مصطلح 'الأهالي' فقد أطلقه الأوربيون على السكان الأصليين للجزائر، وكان من بين التّسميات التي حملت معاني الاحتقار والانتقاص والازدراء¹.

¹- في عام 1947م صدر قراراً عن وزارة الحربية الفرنسية بإلغاء استخدام مصطلح (Indigène) واستبداله بوصف: 'شمال إفريقي' (Nord-Africain)، كما قرّرت هيئة الإصلاحات التي كان يرأسها 'شاتينيو' (Chataigneau) استبدال كلمة 'أهلي' بكلمة 'مسلم' ضمن المراسلات الرسمية للإدارة الاستعمارية في إفريقيا الشمالية. يُنظر: ANOM, GGA 40 G 100: Ministère de la guerre, Décision n°140, 18 Février 1947. =

من هذا المنطلق فإن استخدامنا لمصطلح 'المرأة الأهلية' لا يخرج عن السياق التاريخي الذي وُظف فيه، ولكون مسألة 'تحرير المرأة الجزائرية' قد تمّ تداولها والتعبير عنها ضمن أدبيات الخطاب الكولونيالي، وفي كتابات فئة من النخبة الجزائرية (المتفرنسة) بهذا الشكل.

لقد تمّ تداول مصطلح تحرير (L'émancipation) المرأة بكثرة في أدبيات الخطاب الفرنسي، وكانت دلالاته واحدة تقريبا لدى كلّ تيارات الفكر الفرنسي الغربي، أما بالنسبة للنخب الفكرية والسياسية الجزائرية، الإصلاحية المعرّبة؛ تقدّمية ومحافظة، فقد حمل دلالات مختلفة، فهو بالنسبة للاتجاهين الاستقلالي والشيوعي كان يعني التحرّر بالمفهوم السياسي أولاً، وبالنسبة للعلماء والإصلاحيين يعني التحرّر من الجهل والتخلف ضمن أطر الشريعة الإسلامية ومتطلبات العصر، أما النخبة المتفرنسة، فقد فهمت دلالة هذا المصطلح على أنّه تحرّر المرأة 'الأهلية' وفق النموذج الأوربي، ووظفته أيضا للتعبير عن تحرير المجتمع 'الأهلي' ككلّ من دائرة التخلف والانغلاق والرجعية، ومحاولة الارتقاء به إلى مصاف الحضارة الأوربية؛ لتحقيق الاندماج.

12- صعوبات الدراسة:

من الصعوبات التي واجهتنا في هذا العمل؛ صعوبة الكتابة في تاريخ المرأة الجزائرية؛ لأنّ هذا التاريخ في غالبه هو تاريخ صنعه الرجال وهم من كتبوه، كما هو الحال مع تاريخ الحركة النسوية عموماً. كما أنّ النساء في البلاد المستعمرة؛ بحكم تدنّي مستواهنّ التعليمي؛ لا يتركن غالباً الشواهد عن مآثرهن، وقلة منهنّ قمن بتدوين مشاهداتهنّ ومذكراتهنّ، فحالة الجهل التام الذي كانت تقبع فيها المرأة الجزائرية تحت نير الاحتلال الفرنسي، حالت دون توثيق تاريخها بنفسها أو رواية أهم أحداثه وفصوله، والمعروف عن الجزائري عموماً أنّه 'يصنع التاريخ لكن

= يُنظر أيضا: ANOM, GGA 40 G 100: Section des réformes, Terminologie: substitution du mot 'musulman' au mot 'indigène', 27 Novembre 1946.

لا يكتبه' كما عبّر عن ذلك أبو القاسم سعد الله؛ لذلك فأغلب وقائع التاريخ النسوي الجزائري بقيت روايات شفوية متناقلة جيلاً عن جيل لا أكثر.

يجب أن ننوّه كذلك إلى أنّ أغلب عناوين الوثائق ذات الصلة بموضوع بحثنا؛ لم تكن واضحة ومباشرة، ولا طالما عاجلت الكثير من المصادر التاريخية موضوع 'تحرير المرأة الأهلية' ضمن كتابات ومقالات تخص الشأن الاجتماعي وقضايا المسلمين الجزائريين بصفة عامة، كما اختفت صورة المرأة الأهلية في ثنايا الكتابات التاريخية الفرنسية التي تختصّ بتاريخ منطقة ما، وضمن أدب الرّحلات وكتب الانطباعات... وغيرها.

كما جاءت حلّ وثائق الأرشيف الفرنسي في شكل تقارير عن الوضع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الجزائر، لكنّها تحيلنا إلى معطيات هامة عن وضع المرأة وحالتها من ناحية المكانة الاجتماعية والتعليم والصحة والحرية في العمل والخروج... وغيره. دون أن يتضمن الأرشيف الإداري الاستعماري حضوراً قوياً للعنصر النسوي 'الأهلي'، وهذا الحال يسري إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث بدأ اهتمام الإدارة الاستعمارية الفرنسية والصحافة الكولونيالية والجزائرية بالمسائل التي تخص المرأة في الجزائر.

تجدد الإشارة إلى المعوّقات التي واجهتنا تزامناً مع الإجراءات المطبّقة في فرنسا للحدّ من انتشار 'فيروس كورونا'، حيث عانينا من غلق المكتبات العامة و دور الأرشيف الفرنسية، أو تقليص أوقات الولوج إليها، وهو ما حال دون اطلاعنا على أرصدة أرشيفية هامة.

وأخيراً؛ فإنّ هذا العمل البحثي هو مجرد محاولة بسيطة لكتابة فصل من فصول تاريخ المرأة الجزائرية المعاصر، بما يعتره كأيّ عمل إنساني من نقصان وأخطاء وتقصير أو قصور، وما توفيقنا إلاّ بالله ربّ العالمين.

الفصل الأول:

السياسة الاستيطانية الفرنسية وآثارها على المرأة الجزائرية:

- العنف الاستعماري في حقّ النساء الجزائريات.
- أوضاع المرأة الجزائرية تحت سلطة الاحتلال الفرنسي.
- الوضع الثقافي والديني للمرأة الجزائرية زمن الاحتلال الفرنسي.
- مظاهر مقاومة المرأة الجزائرية للاحتلال الفرنسي.

نتناول في هذا الفصل الأوضاع العامة للمرأة الجزائرية منذ وصول الفرنسيين إلى الجزائر سنة 1830م، مع التركيز على الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال 132 سنة من الاحتلال؛ لاعتقادنا أنّ دراسة هذه الجوانب سيرسم لنا صورة جليّة عن حالة المرأة في الجزائر المستعمرة، ومن شأنه أن يبيّن لنا مدى قابلية المرأة 'الأهلية' لفكرة 'تحريرها' ببعديها الاجتماعي والثقافي، من منظور الخطاب الكولونيالي الفرنسي، وفي خطاب النخبة الجزائرية. كما بيّنا مظاهر المقاومة التي أبدتها المرأة الجزائرية تجاه المشروع الاستيطاني الفرنسي، حيث تجلّت في مشاركة الرجل في المقاومة المسلّحة ضد الاحتلال، كما اتّخذت من أسلوب المقاومة السلمية (السلبية)؛ تعبيراً منها عن رفضها للخضوع والاستسلام.

1- العنف الاستعماري في حقّ النساء الجزائريات:

كانت المرأة الجزائرية شبه مُعيّبة عن الميدان السياسي، شأنها في ذلك شأن عموم الشعب الجزائري، وحتى المرأة الفرنسية في الجزائر وداخل فرنسا؛ لم تنل حقوقها السياسية إلا بعد عقود من النضال، ولم تحظ بالحق في الانتخاب إلا مع نهاية الحرب العالمية الثانية¹، فما بنا بالمرأة الجزائرية التي كانت تحت نير الاحتلال، وتحت رحمة القوانين العرفية والاستثنائية؛ لذلك سندرس ظروف المرأة الجزائرية عشية الحملة الفرنسية، وخلال عمليات التوسّع والاستيطان، وطبيعة السياسة الاستيطانية الفرنسية تجاهها، وتأثيرات كلّ ذلك على أوضاعها الاجتماعية والمعيشية والثقافية.

¹ - ما فتئت 'الحركة النسوية الفرنسية' تُطالب بالحقوق السياسية للمرأة، ومنها الحق في الانتخاب، وقد ارتفعت هذه المطالب بشكل لافت في النصف الأول من القرن العشرين، خاصة بعد إصلاحات مصطفى كمال أتاتورك، ونيل المرأة التركية الحقّ في الترشّح والاقتراع في منتصف الثلاثينات من القرن 20م. أنظر مثلاً:

M.L: «Vers le vote féminin», La femme Algérienne (journal des sections d'aide familiale de l'union féminine civique et sociale d'Algérie), n°26, Mai 1936.

Voir aussi: A. Butillard : «Pour la réforme électorale», La femme Algérienne, n°50, février 1939.

1-1- وضع المرأة عقب الحملة الفرنسية على الجزائر:

نصَّ البند الخامس من معاهدة الاستسلام التي وقعت يوم 5 جويلية 1830م بين الداي حسين، و الجنرال 'دي بورمون' (De Bourmont) قائد الحملة الفرنسية على الجزائر من على آتة: "سيظلّ العمل بالدين الإسلامي حراً، كما أن حرية السكان مهما كانت طبقتهم، ودينهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعاتهم لن يلحقها أيّ ضرر، وستكون نساؤهم محل احترام، وقد التزم القائد العام للجيش الفرنسي على ذلك بشرفه"¹. ويذكر عبد الرحمان الجليلي أن ملك فرنسا أكد على ما ورد في هذه الوثيقة حينما حضر لديه نخبة من أعيان الجزائر غداة الاحتلال، قائلاً لهم: "...وأنا أبذل جهدي في حفظ دينكم وشريعتكم، وبقاء مساجدكم وتعميرها وإحياء مدارسكم وعلومها"².

لكن الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر صاحبتهما وتبعتهما أعمال البطش والتقتيل الجماعي العشوائي، ولم تسلم النساء والأطفال من ذلك، "فالغازي الفرنسي للجزائر كان دمويًا جدًّا، و تمَّ باستخدام طرق التقتيل المبتكرة حينذاك، وبترع الملكية عن طريق الإغارة والسلب والنهب، بالإضافة إلى الاعتقال والسجن والذبح العشوائي للمواطنين المدنيين العزل

¹ - حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تر. محمد العربي الزبيري، ANEP، الجزائر، 2005، ص.ص 195-196. بعد قرن من الاحتلال؛ يعلّق أستاذ القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة الجزائر 'مارسيل موران' على هذه المعاهدة بقوله: "في الواقع أنّ معاهدة 5 جويلية 1830م هي معاهدة استسلام، تضمّنت تسليم مدينة الجزائر، وقد حدّدت فقط شروط الاستسلام، ولم تتضمّن أي التزام لفرنسا بخصوص باقي القطر الجزائري، كما لم تحدّد الوضع الذي سيكون عليه السّكان، ولا كيفية إدارة هذا البلد، فهي لا تخصّ إلا مدينة الجزائر وسكّانها". أنظر:

Marcel Moran et Autres: *L'ouvre législative de la France en Algérie*, (collection du centenaire de l'Algérie 1830-1930), Librairie Félix Alcan, Paris, 1930, p. 181.

ويروي حمدان خوجة بأنّه حين احتجّ لدى القائد 'كلوزيل' ضد حرق فرنسا للاتفاق المُشترك، أحابه هذا الأخير بأنّ فرنسا غير مجبرة على احترام الاتفاق لأنّه لم يكن في نظرها سوى لعبة حرب. نقلا عن: حديجة بقطاش: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، دحلب للنشر، الجزائر، (د.ت)، ص ص 21-22.

² - عبد الرحمان الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج.3، د.م.ج، الجزائر؛ دار الثقافة، بيروت، 1982، ص 405.

(...)، والنساء الجزائريات لم يكنن بمعزل عن هذا الواقع؛ من خطف واغتصاب جماعي وتصفية جسدية وبيع في المزاد العلني، وإجبارهن على الدعارة والبغاء¹.

ويذكر حمدان خوجة أن الحاج أحمد باي قد أخذ معه في طريق عودته إلى قسنطينة عدد كبير من الناس تحت حمايته، وكان يوجد ضمن هذا العدد حوالي خمسمائة امرأة². ويروي أحمد توفيق المدني عن أمّ السيد عمر بوضربة قولها: "تركنا أيام الاحتلال دارنا، وذهبنا في زيّ الفقيرات إلى سقيفة سيدي عبد الرحمان الثعالبي؛ نتسوّل الناس، وبقينا على ذلك أياماً إلى أن هدأ الرّوع"، ورفع أعيان بايلك قسنطينة عريضة إلى البرلمان الإنجليزي في شهر ديسمبر 1833م ورد فيها: "الفرنسيون لم يحترموا المعاهدة بنفيهم لأشخاص من أهل البلاد بدون سبب، وفصلهم للزوج عن زوجته وأبنائه، واستيلائهم على أملاكهم"³.

لقد أعقب سقوط مدينة الجزائر في يد الغزاة الفرنسيين، تعرّض نساء الجزائر إلى التقتيل على يد الجنود الفرنسيين، وتسخيرهنّ لخدمة الجيش الفرنسي، مع ذلك فضّلن المقاومة والموت دون شرفهنّ، يقول أحد شهود العيان ما جرى قائلاً: "لما رأّت النساء مخائل الاستسلام بدأت تظهر على الرجال؛ ألقين بأنفسهن أمامهم، ورمين بأولادهنّ تحت أقدامهم

1- Naïma Kitouni-Dahmani: «Femmes dans la tourmente coloniale», Confluences méditerranée, N°19, 1996, p.p.39-52.

كانت هذه الممارسات تعني المساس مباشرة بقيم المجتمع الجزائري المسلم الدينية والأخلاقية، وضرب وحدة الجماعة المحلية واستهداف الأسرة المسلمة، وكان تلميح سمعة المرأة الجزائرية يعني أيضاً إهانة وإذلال الرجل وأفراد المجتمع ككلّ، وهو سلاح فعّال استخدمه قادة الاحتلال الفرنسي للتّيل من شرف المرأة (المسلمة) والحطّ من قيمتها ومكانتها بين أفراد أسرتها وجماعتها ووسط محيطها الاجتماعي، وإذلال واستعباد شعب بأكمله. أنظر:

Saadia -et- lakhdar: **L'aliénation coloniale et la résistance de la famille algérienne**, (contribution), La cité éditeurs, Lausanne, 1961, pp.88-97.

² - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص189.

³ - مسعود كواقي: "المرأة الجزائرية والاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر"، ضمن ملتقى (كفاح المرأة الجزائرية: دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة)/ م.و.د.ب.ح.و.ث.ن. 1954، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1998، صص 45، 49.

وصحن قاتلات: نعم ذلك لكم إن كنتم غالبين، وإن غلبتم هجم الأعداء علينا وهتكت حرمتنا فاستعينوا بالله وسيروا، ولكن ذبحكم لنا قبل سيركم أصون لعرضنا"¹.

1-2- العنف النفسي والأخلاقي في حق المرأة والمجتمع:

الحق أن الفرنسيين لم يمارسوا العنف الجسدي فحسب في حق المرأة والمجتمع؛ بل مارسوا أيضاً العنف النفسي والأخلاقي، فقد تم تقنين البغاء مبكراً قبل نهاية السنة الأولى من الاحتلال، وكانت الشرطة الفرنسية تقوم بتسجيل البغايا، كما فتحت مؤسسة للرقابة الطبية للمرأة، وحسب الباحثة الفرنسية 'كريستال تارو' (Christelle Taraud) فإن أول بيوت البغاء للمرافقة العسكرية (BMC)؛ قد تم تنظيمها من طرف الجيش الفرنسي مبكراً، إذ صدر مرسوم عن قائد الجيش إفريقيا بتاريخ 12 جوان 1831م، يضع الخطوط العريضة لتسيير الدعارة في كامل القطر الجزائري، وقبله صدر مرسومين في 27 مارس و 12 أوت 1831م؛ لإنشاء مؤسسات المراقبة الصحية للبنات العموميات، كما تبعتهما عدّة مراسيم بين سنتي 1835 و1852، وضعت الأطر القانونية لبيوت البغاء في الجزائر المستعمرة².

وبحلول سنة 1840م أمر الجنرال 'دو لاموريسيير' (De Lamoricière) قادة الجيش الفرنسي بمنطقة تلمسان باتخاذ كافة الإجراءات التي تسمح بتوظيف عناصر نسوية خاصة، والتي 'ستساعد على إحلال البهجة وسط الجنود'³ الفرنسيين، وهكذا ستشرع إدارة

¹ - أحمد الجزائري: كيف دخل الفرنسيون الجزائر: وصف شاهد عيان، تق. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962، ص.32. أنظر أيضاً: عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص391.

² - Christelle taraud : **La prostitution coloniale: Algérie, Tunisie, Maroc (1830-1962)**, éditions Payot, Paris, 2003, p.20.

Voir aussi: Luc Capdevilla: «Christelle Taraud, **La prostitution coloniale: Algérie, Maroc, Tunisie (1830-1962)**», *Clio, Femmes, Genre, Histoire*, N° 33/2011. Le lien <http://journals.openedition.org/cliio/10128> Consulté le 01/05/2020 à 13 :20.

³ - Julia Clancy-Smith: «**Le regard colonial: Islam, genre et identités dans la fabrication de l'Algérie française, 1830-1962**», *Nouvelles Questions Féministes*, Vol.25, n° 1, (Sexisme et racisme: le cas français), 2006, p.29. Voir le lien: <https://www.jstor.org/stable/40620339> Consulté le 06/05/2020 à 18 :38.

الاحتلال الفرنسي في تنظيم مهنة 'الدعارة' و 'تجارة الجنس' لصالح الرجال العسكريين وأوائل المحتلّين والمستوطنين القادمين إلى الجزائر؛ ليتمّ تحويلها تدريجياً إلى ممارسة تجارية قائمة بذاتها. لقد كانت الآثار الصحية والنفسية المترتبة عن هذه الأعمال تجاه المرأة بشعة، وقلة قليلة من النساء الجزائريات اللواتي اضطرهنّ الظروف على الإقدام على امتهان هذه المهنة كنّ محلّ دراسة قام بها الفرنسي الطبيب 'إدوارد ديشان' (Edouard Duchesne)¹ عام 1853م؛ حيث تابع موضوع الدعارة في الجزائر العاصمة منذ بداية الاحتلال، وخلص إلى أنّ البؤس الحرمان وفقدان الأرض وانهيار الصناعات الحرفية المحلية والبطالة؛ هي من جملة الأسباب التي تدفع المرأة وتضطرها إلى ممارسة هذا الفعل الشنيع². في حين تعتبر 'كريستال تارو' أنّ تلك التنظيمات الخاصة بهذه المهنة؛ هي في الحقيقة وسيلة من وسائل السيطرة العنصرية التي فرضتها سلطة الاحتلال الفرنسي على الفتيات الجزائريات، وتعبيراً صريحاً عن نظرتهم السيئة للنساء 'الأهليات'³.

¹ - طبيب متخصص في النظافة الاجتماعية والطب الشرعي، وخبير لدى المحاكم وعضو أكاديمية الطب الفرنسية. أنظر: تم الاطلاع بتاريخ: 2020/05/07، https://data.bnf.fr/fr/12567365/edouard-adolphe_duchesne/، الساعة: 19:30.

² - Edouard Duchesne: **De la prostitution dans la ville d'Alger depuis la conquête**, Garnier Frères Librairie, Paris, 1853, 213p. بحسب هذا المصدر؛ فإنّ الدعارة كانت تمارس قبل سنة 1830م في مدينة الجزائر (تحدّث عن 3000 فتاة)، وفي المدن الكبرى، وكانت تخضع للقواعد الاستبدادية لـ'المزوار'، ويوصل الفرنسيين قرّروا تقنينها؛ من أجل حفظ صحّة الجنود، وقد أصدرت إدارة الاحتلال عدّة مقرّرات بهذا الخصوص منها: قرار 11 أوت 1830م الخاص بإنشاء عيادة صحية تحت مراقبة الشرطة، ومقرّر 27 مارس 1831م الذي وضع هذه العيادة تحت سلطة رئيس البلدية، ثم قرار 12 جوان 1831م الذي أخضع الفتيات أيضاً لسلطة رئيس البلدية، فضلاً عن عدّة قرارات تحدّد الغرامات المفروضة على ممارسة هذه المهنة خارج الأطر القانونية، والتي كانت تتراوح بين 7 و10 فرنكات في الشهر. أنظر:

Ibid., p.p.21-22.

³ - Christelle Taraud: «**La réglementation de la prostitution, instrument de domination raciale**», in. (Abderrahmane Bouchène et al., Histoire de l'Algérie à la période coloniale), La Découverte, 2014 | pages 416-418.

أما الفرنسيون فلم يكن يعينهم الجانب الأخلاقي كثيراً، ولا حجم العدائية التي أظهرها المجتمع الجزائري بخصوص هذه المسألة، بقدر ما كان يعينهم مواصلة هذا النشاط (المربح) ضمن أطر صحيّة للجنود والمستوطنين؛ لذلك كانوا حريصين طيلة سنوات الاحتلال على استصدار المراسيم والتعليمات التي تقنّن هذه المهنة وتحدّد شروط ممارستها، والتي تحدّ من انتشار الأمراض التناسلية الناجمة عنها، كما هو الحال مع تعليمتي 31 جويلية و 26 أوت 1929م، وتعليمة 18 جانفي 1934 و 12 جانفي 1939م، ثم قانون 31 ديسمبر 1942م، والتي صدرت جميعها للغرض نفسه¹.

لقد ارتبطت هذه المسألة ارتباطاً وثيقاً بالظروف التي رافقت وتبعت الاحتلال الفرنسي للجزائر، وما نجم عنها من تردّي شامل للأوضاع، وسوء الحالة المعيشية للجزائريين، والتهميش الذي عاشته المرأة في المجتمع، كما مثل جشع المستوطنين و المسؤولين في إدارة الاحتلال؛ عاملاً مباشراً في استمرار هذه الظاهرة وتفاقمها. ومع ذلك لم تسع الإدارة الاستعمارية لإيجاد حلّ لها؛ بل كانت تلجأ غالباً إلى اتّخاذ التدابير التي تحافظ على الأمن العام، مع ضمان استمرار هذا النشاط رغم سخط 'الأهالي' الجزائريين؛ لكونه بمسّ بقيمهم الدينية والاجتماعية مباشرة، ويسيء إلى حرمة بيوتهم ومدنهم، مثال ذلك قرار رفض المجلس البلدي بوهران عام 1949م؛ للطلب الذي تقدّم به النواب من الهيئة الانتخابية الثانية (النواب المسلمون)، بهدف منع النساء (المسلمات) من ارتياد المقاهي والحانات، هذا الأمر الذي أدّى إلى اختلاط النساء بالرجال بشكل فاضح، ومجالستهنّ في شوارع مدينة وهران، وهو ما اعتبره النواب 'انتهاك صارخ للدين الإسلامي، ومثال سيء للرجال الشرفاء وأبنائهم'².

¹- Christelle Taraud: **La prostitution coloniale....**, Op.cit, pp.23-24.

²- ANOM, 81 F 1218: Rapport du GGA, Oran, 14 Avril 1949.

من بين الدراسات الأنجلوسكسونية الحديثة الصادرة حول هذا الموضوع؛ دراسة الباحثة: جيديث سركيس. يُنظر Judith Surkis: **Sex, Law, and Sovereignty in French Algeria, 1830-1930**, Cornell University Press, Ithaca and London, 2019, 324p.

ولم يكن الوضع يختلف في الجزائر العاصمة؛ فقد ندد تنظيم 'الشبيبة الموحدّة الإسلامية الجزائرية' (Jeunesse Unitaire Musulmane Algérienne) الذي أسّسه الشيخ 'الطيب العقبي'؛ ندد بانتشار الفجور والإبقاء على بيوت البغاء في الجزائر؛ رغم إغائها في فرنسا والبلدان الإفريقية، وتوظيف النساء في الدعارة رغم وجود قانون 13 أبريل 1946م، ودعا إلى مراقبة النساء اللواتي هنّ ضحايا البؤس والمحكوم عليهنّ بالعبودية والاستغلال المهين، وعلاجهن وتعليمهنّ ومنحهنّ مهنة وحمايتهنّ، وطالب بأن تكون في الجزائر كما في باريس وعدة بلدان؛ هيئة اجتماعية تفتيشية من سلك الشرطة تقوم بالاستجواب والتفتيش والتحقيق، وحماية النساء والأطفال ضمن احترام التقاليد الإسلامية¹.

لقد عرفت السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية انتشاراً فظيماً لهذه الظاهرة بالجزائر المستعمرة، فقد أحصت فرقة المتابعة الطبية بمدينة تيارت لوحدها 303 امرأة يمارسن البغاء غير المقتنّ سنة 1949م²، كما أنّ تقرير محافظ الشرطة بذات المدينة أشار إلى تبعات الدعارة غير المقتنّة، والتي صارت آفة اجتماعية يجب القضاء عليها، وتمّ إنشاء 'فرقة الأخلاق والتحريات القضائية' التي تعمل على مراقبة بيوت التواعد والفنادق وأماكن التوظيف غير الشرعي للباغايا، وإجراء التحقيقات والمتابعات القضائية بهذا الخصوص، وقد تم القبض على 53 امرأة تحت طائلة هذه الممارسة³.

إنّ التشريعات والتنظيمات القانونية التي أقرّها المشرّع الفرنسي؛ لم تنجح في وأد هذه المظاهر؛ في ظلّ سياسة محاربة اللغة العربية والتعليم الإسلامي للبنات والبنين، وانسداد الأفق المعيشية أمام المرأة الجزائرية.

¹ - ANOM 91 4I 185: Préfecture d'Alger: J.U.M.A contre la débauche, 11 Novembre 1951.

² - ANOM, 926 66-67: Police administrative, prostitution 1938-1955, Ville de Tiaret, 26 Janvier 1950.

³ - ANOM, 926 66-67: Police administrative, prostitution 1938-1955, Ville de Tiaret, 13 Février 1950.

1-3- البطش بالنساء خلال عمليات الغزو والتوسّع:

شهدت الحملة الفرنسية على الجزائر عمليات تقتيل وبطش واسعة؛ شملت إطلاق العنان للجنود الفرنسيين ليعيثوا فساداً في مدينة الجزائر العاصمة، وما تبع ذلك من عمليات نهب للأموال والأموال واستباحة للأعراض، وقد عبّرت هذه البداية المشثومة عن طبيعة السياسة التي ستنتهجها فرنسا تجاه الجزائريين، خلال مراحل توسّعها واستيطانها، وهو ما تجلّى بوضوح في العقود الأولى من الاحتلال، حيث سجّل التاريخ مجازر عديدة ضد السكان العزل، بدءاً بمجزرة 'العوفية'، و'غار الفراشيش' وصولاً إلى مجزرة الأغواط وغيرها.

كتب 'شارل روبيير أجيرون' (Ch.R. Agéron) عن الجنود الفرنسيين حاملبي لواء الحضارة والتمدّن، واصفا وحشيتهم في معاملتهم للمرأة: "إنّ النساء اللاتي كنّ يقعن في أيدي هؤلاء الجنود، لا يستطعن أن يهرين من قدرهن المحتوم (...). فالجنود يتعاركون من أجل نيل فتاة جميلة، قطعوا ملابسها، وكل واحد منهم يريد لها لنفسه، وفي آخر المطاف وبعد أن قضى عليها، سلّمت إلى قاضي أقرب مدينة... وأنّ العرب كانوا يجاربون بضراوة أشد لأجل الدفاع على شرف نسائهم"¹. وكتب أحد القادة العسكريين رسالة إلى الماريشال 'سانت آرنو' (Saint Arnaud) خلال عملية اجتياح مدينة الأغواط: "إنّ النساء والأطفال المختفين وراء الأشجار كانوا يستسلمون لنا، ونحن نقتل ونذبح وأصوات المحتضرين والمولولين تختلط بأصوات الحيوانات التي تجأ بجانبهم"².

¹ - يمينة بشي، 'مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال'، مجلة المصادر، ع.3، 2000،

م.و.د.ب.ح.و.ث.ن. 1954، دار الحكمة، الجزائر، ص.213.

² - عبد الرحمان الجيلالي، ج.4، المرجع السابق، ص.256.

دأب المهتمّون بتاريخ الجزائر المستعمرة على تقسيم مراحل الاحتلال الفرنسي في الجزائر إلى مرحلتين: الأولى اصطلاحاً عليها: مرحلة الحكم العسكري (1870-1930)، والثانية مرحلة الحكم المدني؛ أي بعد 1870م، لكن في الحقيقة أنّ العنف والبطش والتقتيل طبع كل الحقبة الاستعمارية؛ لذلك نجد بعض المؤرّخين المحايدين يصطلح على سياسة الاحتلال

يبدو أنّ فرار الجزائريين أمام جحافل الجيش الفرنسي الغازي لم تكن بفعل بشاعة عمليات البطش والتقتيل فحسب، أو بسبب نزع ملكياتهم وطردهم من منازلهم وأراضيهم فقط؛ لقد فرّوا حفاظاً على دينهم وشرفهم وأعراضهم من الانتهاك، ضمن هذا السياق يعترف الجنرال 'بيجو' (Bugeaud): "إنّ العرب كانوا يفرّون منّا لأنهم أرادوا إخفاء زوجاتهم ونسائهم عن أنظارنا"¹، فالفتيات والنساء الجزائريات؛ كنّ بمثابة هدفاً منشوداً للضباط والجنود الفرنسيين؛ هذا ما دفع الجزائريين إلى الفرار، لقد كان الأب الجزائري مستعداً للتخلّي على أرضه وبيته وأمواله ومواشيه؛ لكنّه يفضّل الموت دون شرف ابنته أو زوجته أو أخته، ويقاوم في سبيل ذلك إلى آخر رمق من حياته.

ونقرأ لأحد الضباط الفرنسيين: "كانت أساور النساء محيطة بمعاصم مقطوعة، وأقراط تتدلى من قطع لحم آدمي، وقد بيعت هذه المصوغات، ووزّع ثمنها على ذابحي أصحابها"². لقد تمّ عرض المرأة الجزائرية المسلمة في سوق النخاسة ومبادلتها بالسلع، كما حوّلت إلى حيوان لحمل الأثقال، فهذا العقيد 'مونتانيك' (Montagnac) يكتب إلى قائده الجنرال 'دو لاموريسير'، عن مصير النساء اللاتي تمّ أسرهنّ: "إننا نحتفظ ببعضهنّ كرهائن، ونستبدل بعضهنّ بالحياد، ثم نبيع الباقيات منهنّ بالمزاد العلني باعتبارهنّ حيوانات لنقل الأحمال..."³.

إنّ ما ذكرناه آنفاً ما هو إلاّ عيّنة عن العنف والاضطهاد الذي عانت منه المرأة وعموم الجزائريين بعد الغزو الفرنسي للجزائر، وخلال عمليات التوسّع والاستيطان.

الفرنسي تجاه السكان الجزائريين منذ 1830م؛ بفترة 'التهدئة' الدامية والطويلة التي استغرقت ما تبقى من القرن التاسع عشر. أنظر: جون جيمس دنيس: حركة المدارس الحرة بالمغرب، تر. السعيد المعتصم، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1991، ص11.

¹ Julia Clancy-Smith, Op.cit, p.25.

² - بمينة بشي، المقال السابق، ص212.

³ - المقال نفسه.

2- أوضاع المرأة الجزائرية تحت سلطة الاحتلال الفرنسي:

شهدت الأوضاع المعيشية والصحية لعموم الجزائريين تدهوراً رهيباً بعد وصول المحتل الفرنسي، ذلك أن السياسة الاستيطانية التي انتهجتها فرنسا؛ بما صاحبها من تقتيل وتهجير، دفعت السكان إلى الفرار نحو الجبال والأراضي القاحلة، وترك أراضيهم الخصبة؛ التي هي مصدر عيشهم الوحيد، وكذلك الحال مع سكان المدن الذين استولى المستوطنون على بيوتهم ودفَعوا بهم إلى الأحياء الفقيرة وهوامش المدن، هذا الوضع سينعكس على المرأة والعائلة الجزائرية، التي تشرد أبناءها وتفككت أواصرها؛ بفعل سياسة الاحتلال التي لم تكن ترى سوى المصلحة الاستعمارية، ومصالح المستوطنون الجدد على حساب السكان المحليين.

2-1- الأدوار الاجتماعية والاقتصادية للمرأة الجزائرية قبل الاحتلال:

قبل الحديث عن الأوضاع الاجتماعية للمرأة الجزائرية إبان فترة الاحتلال الفرنسي، نلقي نظرة على مكانة المرأة الاجتماعية في الجزائر العثمانية، فالدراسات التاريخية تؤكد مساهمة المرأة الجزائرية في النشاط المهني والاجتماعي، ومختلف الأعمال والمعاملات اليومية التي هي أساساً من اختصاص الرجال، ومشاركتها الرجل في بعض الحرف والمهن. وبحسب الأسير 'دييغو دي هايدو' (Diego de Haido) "إنَّ المرأة في مجتمع مدينة الجزائر، تعاطت نشاطات حرفية خارج بيتها، حيث اشتغلت في ورشات لصناعة الأنسجة الحريرية منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر، كما أنَّ نشاط المرأة في الجزائر العثمانية لم يقتصر على 'المهن النسائية'، بل إنَّ بعضهن احترفن مهناً كانت نادرة حتى في عالم الرجال كصناعة الشمع (...). كما كانت إحداهن 'بجاقجية' تصنع السكاكين"¹.

¹ - عائشة غطاس: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830: مقارنة اجتماعية-اقتصادية، ANEP، الجزائر، 2012، ص254.

أما المرأة في الريف فكانت المرأة تجمع بين واجباتها المتزلية؛ والنشاط خارج بيتها في مساعدة زوجها، سيما في أعمال الفلاحة والرعي وزراعة الأرض، وكان نشاطها أوسع في المدن، فضمن "عقود المحكمة الشرعية يوجد قسم معتبر منها يتعلق بمعاملات قامت بها النساء؛ من بيع وشراء ووقف وقرض وغير ذلك، وهناك من المعاملات ما كان بين النساء، ومنها ما كان بين النساء والرجال، مما يدل على وجود نشاط مهني واسع لدى المجتمع النسوي في المدينة (مدينة الجزائر)"¹.

كانت المرأة الجزائرية تنافس الرجل في الأعمال الخيرية، ومن بين هذه الأعمال نذكر مساهمتها في الأوقاف خلال العهد العثماني، "فقد أدت المرأة دورا كبيرا في تنامي أوقاف الحرمين الشريفين، فكثير من النساء كنّ يجسّنن أملاكاً متعددة على مكة والمدينة"²، وقد برزت أسماء لنساء داخل دفاتر بيت المال المتعلقة بالتركات، هذا الأمر يدلّ على أنّ بعض نساء مدينة الجزائر كنّ ثريات في ذلك العهد³.

كما نجد في سجلات المحاكم الشرعية عقود المعاملات والمبادلات التي تمت أواخر العهد العثماني بقسنطينة، وعكست مشاركة النساء الجزائريات في الحياة الاقتصادية، حيث تم تسجيل 533 عقداً بأسمائهنّ، كما قمن بتوثيق 152 عقد بيع و شراء، و 102 عقد هبة، وظهرت وصاياهنّ في 155 عقد...⁴. فمكانة المرأة في الجزائر العثمانية عموماً؛ محفوظة

¹ - خليفة حمّاش: الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، 2006، ص.ص 128-129.

² - عائشة غطاس: 'إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني'، المجلة التاريخية المغربية، ع. 85-86، 1997، ص 17.

³ - ليلي خيران: 'دراسة في ثروات النساء في مجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني'، مجلة الدراسات التاريخية، ع. 13، 2011، جامعة الجزائر 2، ص 109 وما بعدها.

⁴ - صرهودة يوسف: 'النساء والملكية في مدينة قسنطينة أواخر الحكم العثماني 1787م-1837م'، مجلة العلوم الإنسانية، ع. 40، ديسمبر 2013، جامعة قسنطينة، ص.ص 397-416.

داخل كيانها الأسري والاجتماعي، وتحظى بالاحترام والتقدير، وفق ما تمليه أحكام الشريعة الإسلامية، والأعراف الاجتماعية السائدة، بغض النظر عن الفئة الاجتماعية التي تنتمي إليها.

ومع أنه من الصعب تعميم مثل هذه الأحكام على كل فئات المجتمع الجزائري في العهد العثماني بمختلف جهات البلاد؛ إلا أنه يمكن القول أن المرأة الحضرية¹ والريفية في بعض المناطق، ولدى كبرى العائلات؛ كانت تحظى بمكانة اجتماعية لاثقة، وتُستشار في بعض الشؤون التي تخصها أو تخص أسرتها، مع ضرورة الإقرار بوجود ممارسات مجتمعية متعسفة في حق النساء انطلاقاً من السلطة الأبوية والذكورية التي فرضتها العادات والأعراف السائدة، سيما في جانب الأحوال الشخصية، ومنها 'الجبر' على الزواج، والتطليق التعسفي، والحرمان من الميراث وعدم الاعتراف بشهادة المرأة.

2-2- مكانة المرأة في دولة الأمير عبد القادر الجزائري:

عقب الاحتلال الفرنسي، اندلعت مقاومة الأمير عبد القادر الشهيرة، ويأتي الكثير من المؤرخين على ذكر مآثره؛ دون إيلاء أهمية للحديث عن تأثير أمه وزوجته في شخصيته وفي قراراته التي كان يتخذها بمعرفة والدته، أما تقديره للمرأة كزوجة وحبيرة وأماً، فترسم صورته جلية من خلال أشعاره²، وللأمير عبد القادر قصائد عديدة في باب الغزل³، كما تشير بعض الكتابات التاريخية بأن الأمير كان يأخذ بمشورة والدته وزوجته في القضايا المهمة⁴.

¹ - حول الوضع الاجتماعي للمرأة القسنطينية خلال العهد العثماني أنظر:

Isabelle Grangaud: **La ville imprenable : Histoire sociale de Constantine au 18ème siècle**, Vol.1-2, Thèse de doctorat, Ecole des hautes études en sciences sociales, France, 1998, p.165 et delà.

² - ناصر الدين سعيدوني: **عصر الأمير عبد القادر الجزائري**، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، المملكة العربية السعودية، 2000، ص.ص.182، 183.

³ - ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تح. ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، دمشق، 1960، ص.39 وما بعدها.

⁴ - سعيدوني، المرجع السابق، ص.ص.184، 185.

لقد برزت أثناء حياة الأمير امرأتان: أمه 'لالة الزهرة (الزهراء)' وزوجته 'لالة خيرة'، وكانت أمه ذات مكانة خاصة في قومه، حتى كان يُدعى أحياناً، سيما عند البيعة بابن السيدة الزهرة... وقيل أنها هي التي نصحته سنة 1847م بتوقيف الحرب بعد مقتل 'البوحميدي' في المغرب، وفقدان الأمل في الهروب إلى الصحراء¹، ومحاصرة الفرنسيين للقبائل المساندة له وتهديدهم بقتل الأطفال والنساء والشيوخ لدفع الأمير للاستسلام.

كما يذكر 'لويس رين' (Louis Rinn) أنّ الأمير كان يخصّص بعض وقته لوالدته 'لالا الزهرة'، وقد عبّر في عدّة مواقف عن حبه الشديد لها، وحرصه على استشارتها في كلّ شؤونها، ومنها حين كان بمنطقة 'تاقدمت' قرب تيارت، عندما علم أنّ والدته مريضة عند أحد المرابطين بمليانة، ركب حصانه وقطع 160 كلم وهي مسافة السير إليها خلال 15 ساعة. و"بعد توقيع معاهدة التافنة؛ عزّز الأمير مهابته وسيادته، فبدأت تصل والدته هدايا من الأقمشة الثمينة لكنّها رفضتها، وذكّرت ابنها ببساطة اللباس الذي يناسب الزعيم الديني الصوفي، ولم يعد للأمير غير تلك الملابس المصنوعة من الصوف الأبيض دون تطريز أو حلي"².

وورد في كتاب 'تشرشل': "أنّ العناية الكريمة والعاطفة الرحيمة التي أبدتها تجاه الأسرى ليس لها مثال في تاريخ الحروب، فقد كان يعاملهم كضيوف لا كأسرى حرب (...). وأنّه كان شديد الإباء عند رؤية السجينات، ذلك أنّ التفكير في أن تصبح المرأة ضحية للحرب كان في حدّ ذاته مصدر قلق دائم بالنسبة له، وذات يوم أحضر له فرسان أحد خلفائه أربع فتيات كغنيمة هامة، فأدار وجهه اشمئزاً وقال في سخرية: 'إنّ الأسود تهاجم الحيوانات

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6: 1830-1954، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص342.
² - Louis Rinn: «La femme berbère dans l'ethnologie et l'histoire de l'Algérie», Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord, Deuxième Année, 1^{er} trimestre, 1905, p.471.

القوية؛ أما أبناء آوى فتسقط على الضعيفة منها'. وكانت والدته هي من تتولّى حماية النساء السجينات ورعايتهنّ، "وكنّ يقمن في خيمة قريبة من خيمتها، وكان اثنان من حراسها الزوج يحرسان أبواب الخيمة، ولم يكن يسمح لأحد الاقتراب منهنّ بدون رخصة، وفي كلّ صباح كنّ يتناولن من يديها طعامهنّ من الزيت والزبدة واللحم، وإذا أصاب إحداهنّ مرض فإنّها تحضر لها بجنان الأمومة، وكلّ شيء تظنّ أنّه قد يخفف عنها الألم يوفر لها الراحة"¹.

بالمقابل نجد صلف الضباط والقادة الفرنسيين، فيكفي أن ننقل شهادة 'ألكسندر ماري بلمار' (Alexandre Marie Bellemare)² الذي يذكر: "حينما قام الجنرال 'ديميشال' في 6 أوت 1833م بمهاجمة الزمالة، تمّ أسر عدد من النساء والأطفال من إحدى القبائل القوية، ولم تكن أمام العرب من وسيلة لاستعادتهم سوى التفاوض مع المنتصر، وقد وافق الجنرال على إطلاق سراح هؤلاء السجناء بشرط أن تعلن هذه القبيلة تخليها عن الأمير عبد القادر، وقد كان هذا الأمر سيمثّل انشقاقاً كبيراً في صفوفه؛ لأنّ نهج هذه القبيلة يعني إخضاع العرب ليس فقط لفرنسا؛ ولكن إخضاع المسلمين للمسيحيين"، بينما لم يتردّد الأمير عيد القادر في إعادة زوجات وأطفال أحد قادة القبائل المتمردّة بعد أيام قليلة من أسرهم³.

وتعكس إجابات الأمير عن أسئلة الضابط الفرنسي 'أوجين دوماس' (Eugène Daumas)؛ سعة اطلاع الرّجل وإلمامه بمختلف المسائل الفقهية والاجتماعية التي تخصّ المرأة، وكان غرض الأمير دفع التّهم التي أحاطت بالمجتمع الجزائري؛ من إساءة معاملة النساء

¹ - شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، تر. أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974، ص 203-205.

² - ألكسندر ماري بلمار (1818-1885): مؤرّخ وكاتب؛ عمل في وزارة الحربية والحكومة العامة بالجزائر، خلف عدّة أعمال؛ واحد منها عن الأمير عبد القادر، وكتاباً آخر عن التعبير اللغوي في اللهجة الجزائرية لاستخدامه من طرف الجيش والموظفين المدنيين في الجزائر، ومختصر عن الجغرافيا للطلاب في المدارس العربية الفرنسية. أنظر:

تاريخ الاطلاع: 2020/04/21، الساعة: 12:29. https://data.bnf.fr/fr/14516090/alexandre_bellemare/

³ - Alex. Bellemare: **Abdelkader: sa vie politique et militaire**, Librairie de L. Hachette et Cie, Paris, 1863, p.p. 57,100.

وهضم حقوقهنّ، وتحميلهنّ من الأعمال داخل البيت وخارجه فوق طاقتهنّ، فكتب: "... وقد قصدنا بذكرها إزالة الإشكالات التي لم تنزل أفكار الإفرنج المتحاملة على دين الإسلام تخوض وتوجّه الاعتراضات على المسلمين في تعاطيها، و(؟) سهام الطّعن عليهم للعمل بها، ولقد أوضح الأمير في أجوبته الصبح لذي عينين، وأظهر الحقّ لأهله من العقلاء هذا مع المناسبة من للمقصود من التاريخ والمرغوب فيه"¹.

وعندما سأل 'دوماس' الأمير عن معاملة الرجل لزوجته؛ بعد أن بلغه أنّ العربي لا يحترم زوجته ولا يحسبها إلا كخادمة له، ولا يشاورها ولا يعتدّ بكلامها، بخلاف الأوربيين. أجابه الأمير: "المرأة لها حرمة عظيمة عند العرب، وأنهم يحبّون النساء كثيراً"، واستشهد في هذا الباب بأحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأقوال الحكماء العرب، وقدم الشواهد على مشاورة العرب للمرأة في بيتها، وأما الأمور التي هي خارج البيت فهي من وظائف الرجال؛ والعرب يكرهون مشاورة المرأة فيها"².

2-3- مكانة المرأة الجزائرية داخل الأسرة والمجتمع المحلي:

إنّ النظرة النمطية الكولونيالية الفرنسية عن وضع المرأة الجزائرية في المجتمع تقول: المرأة في الجزائر كانت خاضعة للسلطة الذكورية المطلقة، سواء الأب أو الزوج أو الأخ أو العم وأبناء العم، وحتى الابن حين يكبر، والرجل مهما كان موقعه يفرض قيوده على الفتاة قبل زواجها، وغالبا ما يتمّ تزويج البنات صغيرات حتى قبل سنّ البلوغ، وبمجرد زواج البنت، تنتقل السلطة إلى الزوج، وهكذا لا تستطيع الاعتراض على قيامه بالتعدّد إذا رغب زوجها

¹ - الأمير محمد بن عبد القادر: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج.2: سيرته القلمية، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، صص 184-185.

هناك من يذكر أنّ والدته 'لالا الزهرة' قد شاركتها في الإجابة عن هذه الأسئلة، لكن لم نثر على أي إشارة إلى ذلك سواء في كتاب 'تحفة الزائر'، أو في مؤلفات الجنرال دوماس، التي تناولت أسئلته للأمير. أنظر:

E. Daumas: *La vie arabe et la société musulmane*, Michel Lévy frères Editeurs, (S.L), 1869, p.p.144-147.

² - الأمير محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، صص 171-172.

بذلك، إلا إذا اشترطت ذلك في عقد الزواج الذي يربطهما، ولذلك فقد تضطرّ إلى طلب الخلع، وهذا أيضا ينسحب على المرأة القبائلية، التي عليها دفع مبلغاً من المال لزوجها (يحدّد من طرفه) من أجل الحصول على الطلاق¹.

ومن صور امتهان المرأة في المجتمع الجزائري الحديث؛ حرمانها من حقوقها التي أقرّها لها الشريعة الإسلامية، ومنها حقّها في الميراث خاصة في منطقة زواوة (القبائل)، حيث أقرّت جماعة قرية 'تأحمات' سنة 1749م² قرار منع الإناث من الميراث وجعله حكراً على الذكور،

¹ - Diane Sambron, «La politique d'émancipation du gouvernement français à l'égard des femmes algériennes pendant la guerre d'Algérie», in. Jean-Charles Jauffret, *Des hommes et des femmes en guerre d'Algérie*, Autrement « Mémoires/Histoire », 2003, p. 226-242. Voir : <http://www.cairn.info/des-hommes-et-des-femmes-en-guerre-dalgerie--9782746704213-page-226.htm> Consulté le 13/09/2015.

² - فتوى قرية تأحمات بعرض آث واسيف ورد فيها: "بعد السلام على يقف على كتابنا، ولما أن أراد الله تعالى بقدرته وإرادته بعمارة سوق البيت المنسوب لبني واسيف، فاجتمعوا هنالك سادات بني بترون مع عدول أهل قراهم وأمام مسجد تأحمات، فاشتكى كلّ واحد بما يضرّه، وما يؤول إلى الفتنة والتهاجر والمشاجرة في القرى والأعراش، وقبيلة بني بترون حضروا من كلّ قرية، فاتفقوا على كلمة واحدة بأن الميراث وشفعة الحبس وشفعة البنات والأحوال اليتامى وصدّاق المرأة إن طلقها زوجها أو مات عنها مسقط في بني بترون، ومن اتصل معهم فاتفقوا على اتفاق واحد، ومن أراد إحداث هذه الأمور فهو جور والجور منهي عنه؛ لأنّ حكم العرف والعادة لا ينحرفان...". أنظر:

سعيد بزيان: *السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السّكان منها (1871-1914)*، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2009/2008، ص251.

يرى 'محمد أرزقي فراد': أن هذه الفتوى لم تصدر من الحواضر العلمية كجاية؛ وإتّما صدرت عن مسجد بسيط بقرية تأحمات؛ ويتساءل عن شخصية من أفتى بها ومكانته العلمية، ولا بدّ من فهم الأسباب الاجتماعية والاقتصادية العميقة التي دفعت أصحاب الفتوى إلى إصدارها، كما أنّها لقيت معارضة واستنكار العديد من علماء وشيوخ المنطقة؛ كالشيخ الورتيلاني صاحب الرحلة، والشيخ أبو يعلى الزواوي، والشيخ السعيد البحري... وغيرهم.

أنظر كتابه: *إطالة على منطقة القبائل*، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007. نقلاً عن: مالية حمداني: *ميراث المرأة القبائلية بين التحدي للأعراف والحاجة المادية*، رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2010/2009.

أما 'سي امير بوليفة' فقد برّر هذه الفتوى في كتابه 'جرجرة عبر التاريخ'؛ بأنّه حدث أن أطلقت إسبانيا سراح أسرى الحرب إثر اتفاقية 1767م، وكان من ضمنهم عدد من أسرى القبائل، وعندما عادوا إلى قراهم، وجد المتزوجون منهم نساءهم قد أخذن الأرض وتزوجن من جديد، فنثار هؤلاء الأسرى وقتلوا من سلب منهم الأرض، الأمر الذي أدى إلى =

كما اعتبروا المرأة الماكنة عار على عائلتها، لذلك لا يحق لها التصرف في شيء، حتى وإن كانت المرأة لها الملكية المطلقة؛ إلا أن التسيير يكون من قبل رجال عائلتها. وهكذا صار طلب المرأة الميراث عاراً في العرف الاجتماعي النسوي، ويُرجع 'هانوتو' و 'لوتورنو' سبب تنازل النساء عن حقهن في الميراث إلى عدم قدرتهن على تسيير ملكية الأراضي، والمرأة التي تترث أباهما تمنح ذلك الإرث لزوجها أو ينهبه منها عند انحلال رابطة الزوجية، حيث يضيع حقها ولا تستطيع استرجاع أملاكها منه، ولذلك فهي تفضل التنازل عن حقها في الإرث لإخوتها حفاظاً على الرابطة الأسرية مع عائلتها¹، وحتى لا تخرج ملكية الأراضي عن نطاق القبيلة² إلى قبائل أخرى أو لصالح العثمانيين وأتباعهم في الجزائر.

اضطرابات دفعت أهل الحل و العزم إلى مراجعة بعض القوانين، وقرروا حرمان المرأة من الميراث. أنظر: مالية حمداني، المرجع نفسه، ص135.

بالتسبة لـ 'جرمان تيون' فإن توريث النساء تعني في عُرف القبائل تدمير القبيلة، فالبنية القبلية تقوم على استحالة تملك أرض تشكّل جزءاً من الميراث العائلي؛ من طرف شخص أجنبي؛ ولهذا جمع المغاربة بين حرمان الفتيات من الإرث، وتزويجهن من أقارب ينتمون إلى النسب الأبوي. أنظر: جرمان تيون: الحريم وأبناء العم: تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط، تر. عز الدين الخطابي؛ إدريس كثير، دار الساقى، بيروت، 2000، ص33.

¹ - شهرزاد واضح؛ نور الدين كوسة: "مظاهر الهيمنة الذكورية على المرأة في المجتمع الجزائري الحديث في ضوء الكتابات الكولونيلية"، مجلة عصور الجديدة، مج.10، ع.1، مارس 2020، ص ص374، 375.

² - الحديث عن 'القبيلة' متداولٌ بكثرة في الكتابات الفرنسية خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، ونحن نعلم كيف عملت إدارة الاحتلال على تفكيك أو تفتيت المجتمع القبلي (النظام القبلي السّلافي) وإعادة تركيبه وفق 'نظام قبلي تراي (جغرافي)'، وقد كان قانون نزع الملكية العقارية لعام 1863م، ثم قانون الحالة المدنية في 23 مارس 1882م، أبرز معالم هذا التفكيك الذي خلق كيان اجتماعي هو 'الدوّار'. 'فبعد أن حُلقت الملكية الفردية وانفصل الفرد عن القبيلة، استلزم الأمر إعادة تجميع العدد الكبير من الأفراد المتحرّرين من الروابط الاجتماعية في إطار ما (أرضي وإداري) هذا الإطار هو 'الدوّار'، وهو دائرة حدّ ما إدارية، شكّلها قرار مجلس الأعيان الذي استهدفت عملياته تفتيت القبائل لإزالة الحواجز أمام بيع وشراء الأراضي". أنظر: عدّي هواري: الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، تر. جوزيف عبد الله، دار الحدّاءة، بيروت، 1983، ص.ص78-79.

كما عبّر 'لويس رين' عن صدمته جراء احتفاء أسماء قبائل بأكملها من 'الدليل الأجنبي للقبائل والدواوير' الذي نشرته الحكومة العامة بالجزائر عام 1900م، مقارنة مع عامي 1856 و 1870م؛ لأنّ الإدارة الفرنسية قامت بتقسيم بعضها ودمج بعضها الآخر. =

لقد كانت المرأة في منطقة القبائل وغيرها من ربوع الجزائر؛ تحجم عن طلب حقها في الميراث، ولسان حال يقول: "إذا تخلى عني زوجي لن يكون لدي أي شيء، ولن أجد الملجأ عند أخي"، ناهيك عن وطأة السياسة الاستيطانية الفرنسية على المرأة، فقد كان التناقض بين التشريعات الفرنسية التي كانت تبدو لصالح المرأة؛ وبين الأعراف المجتمعية السائدة والقوانين المحلية الجارية واضحة، فضلاً عن ذهنية الفرد الجزائري بخصوص مسائل المرأة التي تأبى التغيير¹.

ومن الممارسات المقيتة التي شاعت في المجتمع الجزائري؛ ضرب الرجل للمرأة، ولعل هذا ما دفع بعض العائلات صاحبة المكانة إلى اشتراط عدم ضرب بناتهن ضمن شروط الزواج التي يجب أن يلتزم بها الخاطب، وحتى ميلاد الأنثى عند الأسرة الجزائرية كان يُعتبر نذير شؤم، حيث وصف 'أوجين دوماس' حالة الأب الذي تعثره مسحة من الحزن، ويكتفي بالقول: 'زادني لعنة'، كما يعتبر ميلاد الأنثى بالنسبة للأم تهديد لها في حياتها الزوجية؛ كونها تتعرض

يُنظر:

Louis Rinn: «La femme berbère dans l'ethnologie...», Op.cit ; p.465.

لقد كان نزاع الملكية سبباً في مشاكل حسيمة ومريرة بين المجتمع المهيمن والمجتمع المقهور؛ وجزءاً رئيسياً من 'المأساة الكولونيالية'، فقد مثلت الأرض المورد الرئيس والوحيد للمجتمع الجزائري من أجل البقاء، كما مثلت له في الجانب الثقافي مجموعة من القيم العليا. أنظر: محفوظ قداش؛ جيلالي صاري: الجزائر صمود ومواقف: 1830-1962، تر. خليل أوزاينية، د.م.ج، الجزائر، 2012، ص154.

هذا التغيير الجذري في نظام الملكية أثر في بنية التنظيم الاجتماعي للقبائل (جمع قبيلة)، بعد أن اكتملت عملية التشتيت بواسطة هذه الإجراءات الإدارية التي هدفت إلى إحلال قبائل يربط بينها الموقع (الجغرافي)؛ محل قبائل تربط بينها علاقة الدم. أنظر: مغنية الأزرق: نشوء الطبقات في الجزائر: دراسة في الاستعمار والتغيير الاجتماعي-السياسي، تر. سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980، ص60.

أنظر أيضاً: جاك بيرك: "في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا"، ضمن كتاب: الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، تر. عبد الأحد السبتي؛ عبد اللطيف الفلق، توبقال للنشر، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1988، ص.113.

¹- P.E Viard: «Note sur un problème familial kabyle», dans: (Congrès des sociétés savantes de l'Afrique du nord), Constantine, 1937. Voir: Questions Nord-Africaines, n°10, 15 Janvier 1938.

للم شديد من قبل الزوج وعائلته وتعتبر عاجزة عن إنجاب الذكور، وقد ينجّر عنه طلاقها أو الزواج عليها وسخرية المجتمع منها¹.

وشاهد الرحالة الألماني 'هاينريش فون مالتسن' أثناء مروره بعين تيموشنت وبسكرة؛ النساء والفتيات يحصدن بالمنجل، والرجال واقفين مكتوفي الأيدي ينظرون إليهنّ، وهنّ يقمن بأعمال شاقة فوق طاقتهنّ. ومن الأعراف المجتمعية السائدة 'الجبر' على الزواج، حيث تجبر البنت على الزواج ممن يختاره وليّ أمرها، أما الأرملة في منطقة القبائل على الخصوص؛ فتكون من نصيب أوّل من يضع برنوسه عليها بعد وفاة زوجها، دون الأخذ برأيها أو احتساب للعدّة ولا للمهر، وهي لا تملك حقّ الرفض وفق ما يذكر 'شارل فيرو'، ويذكر الرّحالة والطبيب الإنجليزي 'توماس شو' أنّ الفتاة الجزائرية تتزوّج صغيرة جدا، حيث أنّها في سنّ الحادية عشر تصبح أمّاً، وفي سنّ العشرين جدّة².

من ناحية أخرى؛ كانت المرأة الجزائرية بحاجة ماسّة إلى من يحميها، فهي تكون الضحية الأولى لكل ما يتعرّض له أبوها أو زوجها أو أخوها أو ابنها من اضطهاد أو اعتقال أو قتل من طرف المحتلين، لسبب بسيط وهو أن الرجل هو المعيل الأول لها؛ وحامي شرفها وكرامتها، كما أن المجتمع الجزائري آنذاك، كان مجتمعا أبويا بامتياز، ولم تكن المرأة في كل الأحوال سيدة نفسها، ونستثني هنا حالات نادرة لنساء جزائريات برزن ضمن نطاق قبيلتهنّ، وحظين بمكانة اجتماعية مميّزة، وكانت لهنّ بعض الأدوار السياسية، ولعبن دورا مهمّا داخل الأسرة والقبيلة والمجتمع المحليّ، والأمثلة في هذا الشأن عديدة على غرار 'الالا فاطمة نسومر' و 'زينب الهاملية'؛ وصولاً إلى جميلة بوحيرد وحسيبة بن بوعلي... وغيرهنّ.

¹ - شهرزاد واضح، المقال السابق، صص 374-375.

² - نفسه، صص 777، 381.

2-4- الاستغلال الاقتصادي للنساء الجزائريات:

تحيلنا الكتابات التاريخية الفرنسية، إلى أن المرأة الجزائرية دخلت في صلب الإستراتيجية الاستعمارية لبسط النفوذ الفرنسي على الجزائر بأقلّ التكاليف، فالمنظّرون الفرنسيون كانوا يرون في المرأة وسيلة لولوج المجتمع الجزائري وتفكيك أسس الأسرة، بينما رأى فيها المستوطنون أفضل أداة يمكن استغلالها في خدمة الاقتصاد الكولونيالي الفرنسي بالجزائر، خاصة في مجال الحرف والصناعة التقليدية، والمنتجات الصغيرة للخياطة والنسيج والتطريز وصناعة الزرابي؛ فضلاً عن تسخير المرأة 'الأهلية' في خدمة الأسر الأوربية في البيوت، أين تحوّلت المرأة المستوطنة إلى سيّدة والفتاة الجزائرية إلى خادمة طيّعة لها.

نجد السيّدة 'أوجيني لوس' (Eugénie Luce)¹ أو 'السيدة أليكس'، تخاطب وزيراً فرنسياً حول كيفية تسخير المرأة 'الأهلية' لتيسير عمليات الغزو والسيطرة: "... كما تعلمون السيد الوزير، أن أقوى عنصر من حيث التأثير في إفريقيا، وكما عليه الحال في أوربا هو المرأة؛ فإذا تمكّنتم من استقطاب 100.000 من بنات الأهالي وإشباعهن بمبادئ حضارتنا، بحيث يؤخذن من مختلف فئات المجتمع وأعراق الإيالة، ستصبح هذه الفتيات بحكم الظروف الزوجات المفضلات للرجال ذوي المكانة المرموقة ضمن الفئة التي ينتمين إليها في المجتمع، ومن ثم يضمننّ إلى الأبد خضوع البلد، ويكننّ بالتالي الرهينة المتعدّرة استردادها (...). ويتطلب الأمر لتحقيق هذه الغاية الباهرة مائتي ألف فرنك وليس أكثر"².

¹ صدرت في الولايات المتحدة الأمريكية دراسة حديثة عن هذه الناشطة الفرنسية ودورها في مجال تعليم البنات بالجزائر خلال القرن التاسع عشر الميلادي. أنظر:

Rebecca Rogers: *A Frenchwoman's imperial story: Madame Luce in nineteenth-century Algeria*, Stanford University press, California, 2013.

² - إيفون تيران: *المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880*، تر. محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة، الجزائر، 2007، ص60.

هذه المرأة الفرنسية التي امتلكت الذكاء لطرح فكرة 'الغزو عن طريق المرأة' مبكراً، كانت تسعى لتحقيق أهداف الاستيطان السلس وبأقل الأضرار؛ بالسيطرة على المجتمع الجزائري وجعله ينقاد لأسياده الجدد، كما كانت تهدف لخدمة الأهداف الاقتصادية للمنظومة الاستيطانية (المقاولة الاستعمارية)؛ لهذا بادرت خلال السنوات الأولى من الاحتلال إلى إنشاء مدارس مهنية للبنات 'الأهليات'، وعملت على استقطاب أكبر عدد منهن، مستعملة في ذلك مختلف وسائل الإقناع، لكن أمام تعنت أوليائها هنّ ورفضهم التحاق بناتهن بمعامل السيدة 'اليكس'، اضطرت إلى تغيير إستراتيجيتها، وعملت على إغراء الأسر الجزائرية بمبالغ مالية تدفعها للتلميذات المتربصات عندها، فضلاً على وجبات يومية لهنّ، مُستغلة حالة الفقر والعوز الشديدين التي كانت عليها أغلب الأسر في الجزائر، وحاجتها إلى دخل مالي لسد رمق جوع أبنائها، كما استغلت مصنوعات الفتيات في هذه المدارس-الورشات بتسويق منتجاتها في أسواق الجزائر العاصمة، لتغطية حاجيات الفتيات من الملابس، وتمويل نشاط مدارسها¹.

لقد أصبحت البنت والمرأة 'الأهلية' فريسة للاستغلال الاقتصادي البشع لقدراتها وتسخيرها لخدمة الآخر، هذا الواقع جعل وضع المرأة في الجزائر يتقهقر ويصبح مزريراً للغاية، وازداد سوءاً بقيام النظام المدني في الجزائر منذ سنة 1870م، بعدما أحكم غلاة المعمرين سيطرتهم على مقدرات الجزائر، وما سبق ذلك ورافقه وتبعه من سنّ القوانين الاستثنائية والتنظيمات جائرة في حقّ الجزائريين. يؤكد 'أجرون'، أنه: "شُرع في استخدام النسوية بشكل واسع في الجزائر منذ مطلع القرن العشرين (1520 عاملة في 1902؛ و 7833 في سنة 1905؛ و 21397 في سنة 1911؛ و 25821 في سنة 1924)، وفاق عدد النساء اللواتي كنّ يعلمن لدى الخواص 4655 امرأة؛ و في قطاع التجارة 1113 امرأة؛ أما في

¹ - Rebecca Rogers, Op.cit, p.211.

القطاع الصناعي فبلغ عددهنّ 1211 (...) ومن الواضح أنّ هذه الأرقام كلها لا تعبر أيّ أهمية للعمل النسوي التقليدي¹ الذي كانت تقوم به المرأة داخل بيتها غالباً.

لقد صار من المؤكّد لدينا أنّ إقحام المرأة الجزائرية في القطاع الاقتصادي الفرنسي تمّ بشكل مبكّر؛ أي منذ الأيام الأولى للاحتلال، خاصة في الورشات التي كانت تديرها نساء فرنسيات، ولعلّ أهمّ مصدر تاريخي حصلنا عليه حول عمالة 'النساء الأهليات' خلال الحقبة الاستعمارية، ذلك التحقيق المفصّل الذي أجرته الآنسة 'ج. لالوي' (Mademoiselle G. Laloe) عام 1910م؛ بتكليف من الحاكم العام للجزائر آنذاك².

وقد اشتملت هذه الدراسة على جداول وإحصائيات للنشاط النسوي في القطاع الاقتصادي بالجزائر العاصمة، كما ذكرت أنّ النساء الجزائريات اشتغلن خلال فترة الاحتلال الفرنسي داخل وخارج بيوتهنّ؛ في جمع الملابس الرثّة والبالية، وبيع الأشياء البسيطة، وسُخّرت الفتيات الجزائريات لخدمة العائلات الأوربية (المستوطنين) في أعمال التنظيف والطبخ، وفي تنظيف المرافق والشوارع والساحات العمومية، لساعات طويلة من العمل اليومي، كلّ ذلك مقابل أجور زهيدة لم تكن تتعدّى في أحسن الأحوال عشر فرنكات فرنسية في الشهر³. كما سُخّرت الفتيات الجزائريات في قطاع الصناعة التقليدية؛ في صناعة الزرابي ومصانع الحلفاء، حيث كان سنهنّ غالبتهنّ بين العاشرة والثمانية عشر سنة، ومنهنّ من كانّ دون ذلك السنّ، حيث أحصت الدراسة 17 طفلة صغيرة بين السادسة والثانية عشر من العمر، يشتغلن في ظروف عمل قاسية وقهر أرباب العمل والأسياذ الليبراليين⁴.

¹ - شارل روبيير أجرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919، ج.2، تر. م. حاج مسعود؛ أ. بكلي، دار الرائد، الجزائر، 2007، ص.393.

² -G. Laloe : **Enquête sur le travail des femmes indigènes**, Alger, typographie Adolphe Jourdan,Alger, 1910, 94p.

³ - Ibid, pp.1-10.

⁴ - Ibid, pp.11-24.

وحتى عمل الفتيات والنساء الجزائريات داخل بيوتهنّ أو في المحلات المغلقة، كان موجّهاً أساساً لخدمة الاقتصاد الكولونيالي، في ظروف لا تقلّ سوءاً عن سابقتها؛ حيث الأماكن الضيقة التي يرتدّها داخل المدن الكبرى كالجائر العاصمة ووهران وقسنطينة، يقضين يومياتهنّ داخل الورشات التابعة للمستوطنات الأوربيات، مسخّرات لصناعة الملابس التقليدية بأنواعها وملحقاتها، والخياطة وفي صناعات الحرير ومنتجات التطريز... وغيره¹.

لقد عكس هذا التحقيق؛ بشاعة الاستغلال الاقتصادي الذي تعرّضت له المرأة الجزائرية من طرف أرباب المقاولات الاستعمارية، وحالة البؤس الاجتماعي الشديد الذي كانت تعيشه، وهو ما دفعها إلى امتهان الأعمال الشاقة والمهينة والخطيرة أحياناً، وتحمل المهام الصعبة التي كانت تُسند لها، كما ذكر هذا التحقيق أنّ أغلب هؤلاء النسوة العاملات؛ كنّ أرامل أو مطلقات تحت سن الأربعين، ويعشن ظروفًا اجتماعية مزرية دفعتهنّ إلى البحث عن فرص العمل لتأمين لقمة عيشهنّ أبنائهنّ.

وعند فحص الوثائق الأرشيفية التي تعود إلى نهاية عقد العشرينيات من القرن العشرين؛ نلمس أنّ المجتمع الجزائري في عمومه كان يقاوم طيلة عقود طويلة من الاحتلال عمل المرأة خارج منزلها أو بمعزل عن نطاق أعمالها العائلية؛ لهذا حاولت إدارة الاحتلال توطين الصناعة الحرفية التقليدية، وورشات الخياطة والطرز والنسيج بمنطقة القبائل؛ لاعتقادها أنّ المجتمع المحلي هناك أكثر قابلية لفكرة خروج المرأة ومزاوتها مختلف المهن، ووفرة اليد العاملة النسوية مقارنة بباقي مناطق القطر الجزائري، كما هو الحال مع شركة 'تبيو غوهيي وشركاؤه' (Thiebault Gohier et C^o) على سبيل المثال، لكن الأمر كان شبه مستحيل أن تخرج

¹ - Ibid, p.24 et delà.

المرأة (المسلمة) بشكل منتظم، أو أن تعمل فتاة أو امرأة في مصنع أو ورشة يديرها رجل أوروبي، بالنظر إلى العادات والتقاليد المتجذرة في المنطقة¹.

لقد عملت إدارة الاحتلال الفرنسي على تغيير هذه الذهنية السائدة في المجتمع؛ خدمة للاقتصاد الكولونيالي تحت ذريعة توفير مصدر دخل للمرأة 'الأهلية' التي لا تجد من يعيلها، ومساهمتها في تنمية اقتصاد المستعمرة، وبحسب مراسلة الحاكم العام الفرنسي بالجزائر فقد بلغ عدد النساء اللواتي يعمل ضمن قطاع الصناعة في سنة 1927م 25821 امرأة². هذا الأخير طلب إجراء تحقيق مفصّل عن اليد العاملة النسوية في الجزائر، من خلال تعليمة رقم 4286 صادرة في 10 أبريل 1929م، لكن أغلب التقارير التي وصلته عام 1929م من ذراع الميزان وتيزي وزو وتيزي غنيف وبرج منايل وبوغني؛ أكّدت ندرة اليد العاملة النسوية 'الأهلية' في المجال الصناعي أو التجاري الفرنسي، وأن النساء 'الأهليات' يعملن في بيوتهنّ ولا ينتجن إلا للحاجيات المحلية، وأغلب نشاطهنّ في الفلاحة وصناعة الزيت، وأنّ تشجيع العنصر النسوي للانخراط في القطاع الاقتصادي الكولونيالي؛ يحتاج إلى نفّسٍ طويل لتغيير الكثير من العادات الاجتماعية المتأصّلة³.

و يبدو أنّ الحاجة الملحة هي من كانت تدفع بعض النساء الجزائريات إلى الخروج إلى العمل، في ظل غياب أزواجهنّ أو ترمّلهنّ وبحثهنّ عمّن يعيل أطفالهن، حيث كنّ يعملن في الحقول مقابل أجور زهيدة بين 4 و 5 فرنكات يومياً، أو في صناعة الخزف بأجور تتراوح بين 2 و 3 فرنكات ما يعادل 700 إلى 800 فرنك سنوياً، ولعلّ بلدية الأربعاء ناث إيراثن

¹- ANOM, 915 64: Main d'œuvre indigène féminine, Sous préfecture de Tizi-Ouzou, 4 Novembre 1928.

²- ANOM, 915 64: Main d'œuvre indigène féminine, GGA: Direction des affaires indigènes, 10 Avril 1929.

³- Ibid.

(Fort-national) شكّلت الاستثناء في هذا الجانب¹؛ بحكم وجود التعليم الفرنسي للبنات بها منذ نهاية القرن التاسع عشر، حيث نجد حضور النساء في القطاع الصناعي بارزاً، إذ تجاوز العدد 150 امرأة وفتاة، حسب تقرير المتصرف الإداري هناك، الذي تحدّث عن إمكانية توظيف اليد العاملة النسوية بسهولة في بشرط توفير وظائف للرجال بأجور كافية، ثم تنظيم هذه النشاطات الصناعات الخاصة بالمرأة واستخدام الآلات الكهربائية، والسماح للنساء بالنشاط من داخل بيوتهن².

ولم تختلف التقارير الصادرة عن المتصرفين الإداريين الفرنسيين عبر العديد من مناطق الجزائر حول تشغيل اليد العاملة النسوية 'الأهلية' في ورشات الخياطة والنسيج التابعة للمعمّرين؛ عن تلك التي أوردناها حول منطقة القبائل، فقد كان المجتمع المحلي زراعياً بالدرجة الأولى، والمرأة تلعب أدوارها الطبيعية داخل بيتها فضلاً عن مساعدة زوجها في أعمال الفلاحة، ولم يكن من اليسير أن يتقبّل الرجل ارتياد زوجته أو ابنته أو أخته ورشات الحرف والصناعات الفرنسية والعمل تحت إمرة ربّ عمل فرنسي.

ومن التقارير المهمة التي عثرنا عليها حول عمل النساء في الورشات التابعة للأخوات البيض؛ ذلك التقرير الذي أعدّته السيّدة: 'سانت ماري' (Sainte Marie) عام 1929م، وهي مديرة إحدى هذه الورشات بمنطقة القبائل، حيث ذكرت أنّ جلّ النشاط النسوي يتركز في صناعة الزرابي والسجّاد، مع أنّ أغلب النساء منهمكات في تأدية أعباءهنّ الأسرية؛ مما لا يتيح لهنّ إلا وقتاً ضيقاً لا يزيد عن خمس ساعات يومياً لممارسة هذه الحرفة، ولذلك يصعب إعطاؤهنّ أجوراً ثابتة نضير عملهنّ، هذه الأجور التي تتراوح بين فرنكين وثمانية فرنكات يومياً، وترجع ضعف الأجور إلى غلاء المادة الأولية المستخدمة في هذه الصناعة وإلى

¹ - لعلّ وجود مدرسة للبنات بهذه المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر قد أحدث تغييراً في نظرة المجتمع لعمل المرأة.
² - ANOM, 915 64: Main d'œuvre indigène féminine, Commune mixte Fort-National, 3 Juillet 1929.

أداء العاملات، وتعزو ضعف إقبال النساء على هذه الورشات إلى العادات والتقاليد من جهة وبعيد المسافة من جهة ثانية، مما يَحْتَمُّ على الأخوات البيض التنقل إلى مقرّ سكن النساء 'الأهليات' لتزويدهنّ بالمادة الأولية، وتؤكد صعوبة جذب الفتيات للتربّص في هذه الورشات، وتقدّم رفع الأجور لتحفيز الأهالي على السماح لبناتهنّ بالالتحاق بهذه المدارس - المعامل¹.

لقد اهتمت المشرفات على هذه الورشات إلى فكرة جديدة وهي تكوين المتربصات، ثم تكليفهنّ بأداء عملهنّ داخل بيوتهنّ، وهذا لتجاوز مشكلة منع المرأة 'الأهلية' من الإقبال على ورشات الأخوات البيض والمعمرين، تذكر السيّدة 'عبد السلام' (Mme Abdeslam) أنّ ما بين 70 و 110 من الفتيات 'الأهليات' بقرية آيت هاشم؛ كنّ يمارسن غزل الصوف والحياكة انطلاقاً من بيوتهنّ².

ويعترف الحاكم العام الفرنسي بالجزائر 'بيار بورد' (Pierre Bordes) أنّ "توفير اليد العاملة النسوية لخدمة الاقتصاد الكولونيالي في الجزائر ظلت من الصعوبة بما كان لعقود من الاحتلال، والسبب الرئيس في ذلك هو العادات والتقاليد الاجتماعية التي تمنع النساء من الخروج بشكل المنتظم، ويعتقد أنّ تطور العناصر الإثنية للبلد بسبب الاحتكاك مع المهاجرين الأوروبيين سوف يغير هذا الوضع بشكل أكثر سرعة، خاصة مع الجهود التي تبذلها الإدارة الاستعمارية منذ سنوات خدمة للمصلحة العامة ولمصلحة السكان الأهالي، لاسيما في إنشاء مؤسسات الحرف التقليدية، وإعطاء النساء المسلمات (الأهليات) التعليم والوسائل المادية التي تسمح لهنّ بالحصول على عمل مجزي، والتخلص شيئاً فشيئاً من التقاليد البالية، وتلبية متطلبات الحياة العصرية"³.

¹- ANOM, 2 I 50: Ouvroir des sœurs blanches d'Ouarzeu, 29 Avril 1929.

²- ANOM, 2 I 50: Rapport Mme Abdeslam, Aït Hachem, 2 Mai 1929.

³- ANOM, 2 I 50: GGA : D.A.I: Main d'œuvre féminine indigène, 10 Avril 1929.

هذا التغيير كان مأمولا في نهاية عقد العشرينيات، وربما صار ضروريا بالتزامن مع الأزمة الاقتصادية العالمية التي دفعت الحكومة الفرنسية إلى البحث عن يد عاملة نسوية تسهم في النشاط الاقتصادي، وقد عولت في ذلك على التحولات التي بدأت في المجتمع الجزائري خاصة في المدن التي بدأت تتغير فيها النظرة إلى المرأة ودورها الاجتماعي والاقتصادي، وعلى إنشاء مراكز التكوين المهني التي ستسمح للفتيات بتعلم الصناعة الحرفية، ومن ثمة الاحتكاك بالمرأة الأوروبية وتلقي مبادئ وقيم الحضارة الغربية¹.

ويبدو أن النشاط الاقتصادي للمرأة الجزائرية تركز أكثر في المدن والمراكز الحضرية الكبرى، بينما اقتصر في الأرياف على العمل داخل البيت أو مساعدة الزوج في الحقل، ففي مدينة البليدة نجد عدد ملحوظا من النساء 'الأهليات' يعملن في المصانع لدى الأوربيين، وقد قدر عددهن في مجال الصناعة الغذائية (العجائن) سنة 1929م بـ50 امرأة، بينما كانت 40 امرأة يشتغلن في صناعة الأعشاب، بمعدل 8 ساعات عمل يوميا مقابل 4 فرنكات، وكان العدد الأكبر يعمل لدى الخواص، حيث بلغ عددهن 300 امرأة بأجر زهيد يساوي 60 فرنك شهريا مع وجبة غداء، ويشير هذا التقرير إلى صعوبة إحصاء النسوة اللواتي يشتغلن في بيوتهن، ويجزن أن حوالي 50 امرأة يعملن في صناعة الملابس لصالح التجار المزايين، كما توجد في البليدة مدرسة-ورشة تستقبل 25 تلميذة يتخصصن في صناعة السجاد والتطريز².

ويعتقد المتصرف الإداري لبلدية بوغاري (Boughari) أن الظروف السائدة والذهنيات داخل المجتمع الأهلي الريفي لم تنهياً بعد لإقناع الرجال بالسماح للنساء بممارسة أنشطة وأعمال ذات صلة بالمعمّرين، وأن نجاح الإدارة الاستعمارية في مهمة توظيف اليد العاملة النسوية ودمجها داخل منظومة الاقتصاد الكولونيالي؛ قد يتطلّب سنوات أخرى سيما في

¹- ANOM, 2 I 50: CM de Chellala : Main d'œuvre féminine indigène, 31 Mai 1929.

²- ANOM, 2 I 50: Mairie de la ville de Blida : Main d'œuvre féminine indigène, 23 Juillet 1929.

المناطق الريفية، حيث يجب العمل للرفع من المستوى المعيشي والمعنوي للسكان، وإقناع هؤلاء بجدوى عمل المرأة خارج بيتها ومحيطها الاجتماعي، هذه المهمة التي هي برأيه أيسر في المدن والمناطق الحضرية الكبرى¹.

لقد أدت الحاجة والعوز إلى انخراط النساء والفتيات 'الأهليات' الجزائريات في العمل المتزلي للقيام بمختلف الأعباء المتزلية والصناعات الحرفية، وكثيرات منهنّ تمّ تشغيلهنّ لدى العائلات الأوربية المستوطنة بالجزائر، إمّا مقابل أجور شهرية بالنسبة للنساء، أو بضعة فرنكات مقابل ساعات من العمل اليومي بالنسبة للفتيات، لنا أن نتساءل هنا عن سنّ هؤلاء البنات، وهل يمكننا الحديث عن عمالة الأطفال؟ التي هي صنف آخر من صنوف الاستغلال الاقتصادي الذي تعرّضت له البنت الجزائرية زمن الاحتلال الفرنسي؛ من طرف المستوطنين الأوربيين، وحتى من قبل إدارة الاحتلال، التي لم تتوان عن توظيف اليد العاملة النسوية 'الأهلية' في قطاعات الصناعات الخفيفة والحرفية التقليدية، التي تجيدها المرأة.

كان هذا بالتزامن مع الأزمة الاقتصادية التي حلّت بالعالم سنة 1929م؛ إذ تُحصي تقارير الشرطة الفرنسية بمقاطعة الجزائر العاصمة وحدها؛ آلاف النساء اللواتي اضطرّهنّ الحاجة والفقر إلى العمل داخل بيوتهنّ لصالح الاقتصاد الكولونيالي، أو الخروج للبحث عن وظيفة كخدمات في منازل المستوطنين الأوربيين بالجزائر، ولو بأجور زهيدة لا تتعدّى بضعة فرنكات يومياً، هذه المعطيات، حيث كنّ يؤدّين مختلف المهام، من تحضير الكسكس، وتطريز وخياطة وحياكة، وصناعة الأحذية، وفرز وتغليف الفواكه.. وغيرها من الحرف، هذه المعطيات التي يمكن تقديمها من خلال الجدول التالي²:

¹- ANOM, 2 I 50: CM de Boghari: Main d'œuvre féminine indigène, 27 Juin 1929.

²- ANOM, 2 I 50: Commissariat d'Alger: Main d'œuvre féminine, 21 Mai 1929.

الأحور التقريبية		مجموع العاملات الأهليات	عدد النساء والفتيات العاملات في منازلهن	عدد الفتيات العاملات لدى المستوطنين	عدد النساء العاملات لدى المستوطنين	نوعية المهنة
الفتيات	النساء					
3 فرنكات/سا	40 فرنك شهريا	1030	/	450	980	العاملات في البيوت
6 ف/اليوم	9 ف/اليوم	450	/	200	250	التطريز على الجلد
7 ف/اليوم	9 ف/اليوم	575	325	150	100	التطريز على القماش
5 ف/اليوم	8 ف/اليوم	1100	800	100	200	صناعة الأحذية
6 ف/اليوم	8 ف/اليوم	825	825	/	/	كستانيات
6 ف/اليوم	8 ف/اليوم	264	/	144	120	صناعة السجاد
/	7 ف/اليوم	10	/	/	10	صناعة الكسكس
4 ف/اليوم	7 ف/اليوم	16	/	4	12	صناعة ؟
6 ف/اليوم	10 ف/اليوم	200	/	50	150	صناعة؟
5 ف/اليوم	10 ف/اليوم	60	/	20	40	صناعة الخشب
/	4 ف/اليوم	30	/	/	30	فرز وتغليف الفواكه
6 ف/اليوم	8 ف/اليوم	حوالي 500	/	حوالي 100	حوالي 400	صناعات مختلفة
/	/	5460	1950	1218	2292	المجموع الكلي

جدول رقم 01: نشاط النساء الجزائريات في الأنشطة المتزلية والصناعات الحرفية.

المصدر: ANOM, 2 I 50 : Main d'œuvre féminine

ولعلّ من أبرز ما نلاحظه هو أنّ أعداداً مُعتبرة من النساء كنّ خادماً في البيوت لدى الأسر الأوربية، رغم أنّ أجرهنّ الشهري كان هزيل، وقد نعزو انخفاض عدد الفتيات إلى التقاليد الاجتماعية التي تحظر على البنات الخروج من بيت أهلها وولوج بيوت المستوطنين. بينما مارست البقية مختلف الحرف والصناعات التقليدية؛ كصناعة الأحذية والسجاد

والكسكس والتطريز على الجلد والقماش؛ بأجور يومية تراوحت بين 7 و10 فرنكات يوميا للنساء، وبين 4 و7 فرنكات للفتيات، ولا ندري لماذا كان يتم التمييز بين النساء والفتيات من حيث الأجور المدفوعة، فقد يعود ذلك إلى عامل الخبرة المهنية.

وفي الجنوب الجزائري؛ وجدت الإدارة الفرنسية صعوبة في توظيف يد عاملة نسوية لصالح النشاط الاقتصادي الكولونيالي، وكانت من الحلول المقترحة لمواجهة هذه المشكلة: "تشغيل البنات الصغيرات قبل سن البلوغ، كما يجب تعويد الفتيات من الجيل الجديد على العمل خارج المنزل، وإعطاؤهن التعليم؛ ذلك التعليم الذي يوفّر لهنّ قدراً من المال، وخير مثال على ذلك ورشات الأخوات البيض. وبعد سنوات قليلة سوف تصبح هؤلاء الفتيات نسوة، وعندما يغادرن الورشات سوف يحملن معهنّ دون شك ذهنية العمل والرغبة في الربح الشخصي، وعندما يصبح عدد هؤلاء التلميذات السابقات كبيراً في المناطق العمرانية، يمكننا حينها المرور إلى العمل المتزلي، ثم يأتي بعدها توظيفهنّ في الورشات الصناعية"¹.

لازم هذا الوضع المرأة العاملة طيلة عقود الاحتلال، حيث العمل المضني لساعات طويلة في المصانع والورشات والحقول أو بيوت المستوطنين الأوربيين، وسط ظروف مزرية وبأجور رمزية، مدفوعات بالحاجة إلى إيجاد مصادر لتوفير لقمة العيش وسدّ الجوع²، وإذا كان خروج المرأة الفرنسية لميدان العمل؛ قد رافقه انخراطها في الحركة النسوية والنشاط النقابي للدفاع عن حقوقها، فإنّ النساء في المستعمرات قد بقين ضحية الاستغلال الاقتصادي من طرف المستوطنين، وعرضةً للتجهيل والإهمال، والحجز داخل البيوت، وشتى أنواع الإخضاع والقهر.

¹- ANOM, 14H 32: Territoire militaire de Touggourt: Main-d'œuvre féminine indigène, 28 Mai 1929.

²- Voir: Caroline Brac de la perrière: **Derrière les héros... les employées de maison musulmanes en service chez les européens à Alger pendant la guerre d'Algérie (1954-1962)**, (histoire et perspectives méditerranéennes), L'harmattan, Paris, 1987.

3- الوضع الثقافي والديني للمرأة الجزائرية زمن الاحتلال الفرنسي:

كانت نسبة الأمية في أوساط النساء الجزائريات تأخذ منحاً تصاعدياً مع مرور سنوات الاحتلال، وصار المستوى الثقافي لعموم الجزائريات بائساً جداً، إذا ما قورن بما كان عليه قبل وصول الفرنسيين، وهذا نتيجة منطقية لسياسة التجهيل التي فرضتها إدارة المستعمر، وموقفها العدائي إزاء الثقافة العربية الإسلامية. فقد سعى الاحتلال إلى طمس كل معالم ومقومات الشخصية الجزائرية، وترك الجزائريين تحت وطأة الفراغ الثقافي والروحي، فصار من الطبيعي في ظل هذه الظروف أن لا نكاد نعثر على فتاة متعلمة أو امرأة مثقفة، إلاّ لدى بعض العائلات الكبيرة التي انتدبت معلّمين خصوصيين لتعليم أبنائها وبناتها مبادئ القراءة.

3-1- توجيه الفتيات الجزائريات نحو التعليم المهني:

قبل الحديث عن السياسة الاستعمارية الفرنسية في مجال تعليم البنات وتكوين النساء، نعود قليلاً للحديث عن حالة التعليم لدى البنت والمرأة الجزائرية في أواخر العهد العثماني بالجزائر، والذي تكاد تتفق المصادر التاريخية على أنّ كان نادراً، أما بالمدن الكبرى ولدى العائلات المتنفذة، فقد كانت تستحضر شيوخاً مدرّسين لتوكل إليهم أمر تعليم بناتها، حيث يذكر القنصل الأمريكي 'وليام شالر' (William Shaler) الذي عاش في الجزائر، أنّ البنات كنّ يتعلمن في مدارس من نفس نوع مدارس الذكور، تشرف على إدارتها نساء¹.

وكتب أبو القاسم سعد الله: " أما الإناث فلا يذهبن إلى المدارس إلا نادراً، ولكن أصحاب البيوتات الكبيرة كانوا يجلبون أستاذاً معروفاً بصلاحه وعلمه لتعليم البنات، وفي كل قرية صغيرة (أو دوار) كانت هناك خيمة تدعى 'الشريعة' خاصة بتعليم الأطفال، يشرف

¹ - عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010، ص32.

عليها مؤدّب يختاره سكان القرية لهذا الغرض¹. وكانت هناك مدارس (مهنية) للبنات تعرف باسم 'دار المعلمة'، هذه المدارس كان لها الأثر الحسن في خدمة الفنون الجميلة، وتكوين الذوق الفني في الوسط العائلي وبين النساء خاصة، ففيها تتعلم البنات التطريز والتشبيك وصناعة زخرفة الملابس ونسيج الزرابي والخياطة والفصالة والطبخ وترتيب البيت وشيئا من آداب السلوك².

وبوصول الفرنسيين إلى الجزائر؛ تمت مصادرة الأوقاف التي كانت تمول مؤسسات التعليم؛ من مساجد وكتاتيب وزوايا دون أن تجد بديلاً لها، أو تخصص اعتمادات مالية ضمن سياسة تعليمية لصالح أبناء 'الأهالي'؛ أي أنّ الإدارة الفرنسية في الجزائر أهملت التعليم تماماً خلال العقود الأولى من الاحتلال على الأقل. وما زاد الوضع سوءاً هو انصراف غالبية الجزائريين عن إلحاق أبنائهم بالمدارس الموجودة، فتدني المستوى المعيشي للأسرة الجزائرية، جعل أولويتهم في ضمان لقمة العيش اليومية عوض التفكير في تعليم وتنقيف الأبناء والبنات، ووجدت البنت الجزائرية نفسها حبيسة البيت لا تغادره إلا للضرورة القصوى، مُسخرة لأداء واجباتها المنزلية، أو في الحقل وأعمال الزراعة والرعي لتأمين جزء من الدخل لأهلها، أو في ورشات العمل التابعة للمستوطنين والتي استغلّت فيها البنات الجزائريات أبشع استغلال.

وصارت الفتيات الجزائريات يرتدن مدارس-ورشات؛ مخصصة لتعليمهن حرف ومهن مختلفة، "فهناك الخريجات من ورشات 'ابن عابن'، ومن بعض الورشات التي فتحت في العاصمة ووهران و قسنطينة، سواء تلك الورشات الخاصة أو التابعة للكنيسة، والتي تشرف علي تسييرها الأخوات البيض غالباً، أو التابعة لتلك للحكومة. ومن الصنف الأخير تم افتتاح

¹ - أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال، ط.3، (د.ن)، الجزائر، 1982، ص154.

² - عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص523.

سبعة مراكز في إقليم قسنطينة بين 1895-1910م، كانت تضم حوالي 539 تلميذة، وسبعة مراكز في إقليم وهران بين 1906-1910م، وكانت تضم حوالي 674 تلميذة، أو في إقليم العاصمة بين 1903-1909م، حيث ستة مراكز تضم حوالي 526 تلميذة، وقد اختصت هذه المراكز بأنواع معينة من الزراعي الإيرانية والتركية والمغربية والتونسية، بالإضافة إلى الأنواع المحلية، مثل زراعي جبل عمّور والقلعة والطرز العربي والبربري... إلخ. وكان الهدف من هذه الورشات ليس تثقيف البنت المسلمة وإخراجها من ظلمات الجهل كما يزعمون، ولكن جعلها وسيلة إنتاج تجارية (...)، من جهة أخرى كان الهدف هو دمج المرأة الجزائرية في الحياة الأوربية وخاصة الاقتصادية، وإخراجها من بيتها بشتى الوسائل¹.

لقد توجّه اهتمام المستوطنين الفرنسيين إلى التعليم المهني للإناث المسلمات، من خلال تعليمهنّ فنون التدبير المنزلي، وما يحتويه هذا النوع من التعليم من أشغال الإبرة والترقيع والطبخ واستعمالات الصابون، وأشغال الصوف والسلال و القفف، وكان الهدف الاستفادة من مزايا الاقتصادية للمقاولة الاستعمارية، وتكوين زوجات قادرات على الاعتماد على أنفسهنّ إذا ما تنصّرن، ومن جهة أخرى التأثير على غيرهن من النساء²، وإيهامهنّ بمزايا الحضارة الغربية في رفع مستواهن الاجتماعي وضمان مستقبلهن المهني.

وشهد التعليم المهني النسوي بعد الحرب العالمية الأولى زيادة في الإقبال؛ وتوافد البنات الجزائريات عليه، بالنظر إلى الظروف الاقتصادية العسيرة التي حتمت على الأسرة الجزائرية غضّ الطرف عن بعض العادات والتقاليد التي كانت تمنع الفتاة من الخروج من البيت، وبالتنظر أيضا إلى حاجة ورشات ومعامل المستوطنين والمستوطنات إلى اليد العاملة النسوية، كما قد

¹ - سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص348.

² - محمد الطاهر وعلي: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، منشورات دحلب، الجزائر، 2009، ص.ص126-127.

يكون تأثير نمط حياة المرأة الأوربية المتعلّمة والمعلّمة؛ بدأت يجد طريقه إلى نفوس الشباب والنساء الجزائريات المسلمات، تحت تأثير الخطاب النسوي الفرنسي كما سنرى ذلك.

إنّ الداعين إلى تطوير التعليم المهني لصالح النساء؛ كان همّهم هو جعل الفتيات الفقيرات في وضع يسمح لهنّ بكسب العيش بعد المدرسة، حيث يمكن للطالبات تعلّم تقنيات الحرفة التي تتوافق مع أذواقهم وقدراتهم، فتختار بعضهنّ نسج السجاد، والبعض الآخر يفضّلن التطريز، وأخرى صرن متخصصات في فنّ الدانتيل العربي، وإلى غاية 1935م عرف تعليم البنات تفهقراً شديداً من حيث برامجهم، وبقي جدّ بسيط مقارنة مع تعليم الذكور¹.

وذكر أستاذ القانون 'إميل لارشسي' (Emile Larcher)² في كتابه الذي صدر سنة 1923 أنّه: "في كل المدارس التي يرتادها 'الأهالي' التعليم يكون وفقاً لبرامج خاصة، مضمونها الفلاحة التطبيقية والأشغال اليدوية التي تُرمج في كل المدارس، فضلاً عن دروس الإتقان التي توكل لأرباب الأعمال، الذين يمكن أن يكونوا ملحقين بالمدارس الأساسية تحت مراقبة مدراء هذه المدارس، في هذه المدارس يتم تخصيص نصف وقت البنات للتلميذات بالأقسام في تطبيق أشغال الإبرة والتدبير المنزلي"³.

وتشير إحصائيات المدرسة الابتدائية العليا للبنات بسيدي بلعباس في قسم التدبير المنزلي وحده إلى وجود 39 فتاة مسلمة سنة 1928م، سيما وأنّ مرسوم 22 سبتمبر 1922م، قد سمح لزوجات وأخوات وبنات وأمّهات المعلّمين في المدارس الابتدائية الأهلية، إذا كانوا

¹ - Zénaïde Tsourikoff: *L'enseignement des filles en Afrique du nord*, A. Pedone éditions, Paris, 1935, p.p.47,48.

² - إميل لارشسي (1869-1918): أستاذ القانون والمحامي أمام محكمة الاستئناف بالجزائر العاصمة. أنظر:

تاريخ الاطلاع 2020/04/20 الساعة 11:57 . https://data.bnf.fr/fr/10317260/emile_larcher/

³ - Emile Larcher ; Georges Rectenwald : *Traité élémentaire de législation algérienne*, T.1, Librairie Arthur Rousseau, Paris, 1923, p.630.

من أصل فرنسي أو يتمتّع بالجنسية الفرنسية؛ بتعيينهنّ كمعلّمات في المدارس التي يعمل بها أزواجهنّ أو آبائهنّ أو إخوانهنّ دون شرط الحصول على شهادة عليا¹.

لقد كان التعليم المهني رمزاً آخرًا للاحتقار والعنصرية التي تعرّضت لها الفتاة الجزائرية في المدارس الفرنسية، يمكننا أن ننقل شهادة التلميذة 'فاطمة.هـ' من سطيف التي تقول: "أخذتني المعلّمة إلى ورشة العمل وقالت: 'أنت عملك التطريز'، كنت لا أخرج إلى الفناء حيث أرى الفتيات يركضنّ ويمرحنّ؛ وأنا في ورشة العمل أقوم بالتطريز، وبعد يومين قررت المغادرة"، ويجب التأكيد على أنّ ارتياد المدرسة الفرنسية كان مقتصرًا على بنات الأعيان وأعوان الاحتلال فقط، فالفتاة 'منصورة.ب' من سيدي بلعباس؛ لأنّ عمّها شرطيا حصلت على امتياز وتفضيل للذهاب إلى المدرسة، كما يكون أحيانًا باستخدام الوساطة، حيث تذكر 'العمرية.ل' من سطيف: كنت في المدرسة بواسطة جارة لنا؛ لأنّني كنت أرعى أطفالها الصغار، فقامت بإدخالني إلى المدرسة"².

ومع ما ذكرناه سابقاً؛ لا يمكن أن ننكر الأهمية والفوائد الاقتصادية للتعليم المهني بالنسبة إلى السكّان الجزائريين؛ خاصة في عزّ الأزمات الاقتصادية التي حلّت بهم، وقد يفسّر هذا تلاشي القيود المجتمعية المفروضة على التعليم المهني للمرأة تدريجياً، ففي مذكرة عن 'مشكلة التدريب المهني للمرأة المسلمة'، نوقشت في اجتماع عقد في شهر مارس عام 1953م للهيئة العليا للتدريب المهني في الجزائر، تلاحظ صاحبة البلاغ أنّ أهمية تعليم المرأة صار معترف بها الآن، حتى من قبل المسلمين الذين طالما تمردوا على تعليم الفتيات، لقد صاروا يطالبون الآن

¹ - نقادي سميرة: واقع تعليم الجزائريين في ظلّ التشريعات الفرنسية ما بين 1919-1954، رسالة ماجستير، معهد

العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2008/2007، ص.ص.26، 31.

² - Marc André: « Algériennes : Quelle citoyenneté? (années 1930- années 1960) », *Clio, Femmes, Genre, Histoire*, n°43, 2016/1, p.97.

بإنشاء مدارس ابتدائية ومدارس مهنية¹، فذهنيات الجزائريين ومواقفهم من عمل المرأة بدأت تتغير، والنساء وجدن طريقهن إلى نوع من الحرية المحدودة؛ سمحت لهنّ بالحصول على منصب عمل يغطي حاجياتهنّ اليومية، مع ما شاب ذلك من مظاهر للاستغلال الاقتصادي.

3-2- حالة التعليم الرسمي الفرنسي الخاص بالفتيات 'الأهليات'²:

أصدرت الجمهورية الفرنسية الثانية مرسومين متتابعين لتنفيذ سياستها التعليمية في الجزائر، الأول في 14/7/1850م، ويخص المدارس العربية الفرنسية؛ أي المدارس العلمانية في المدن الكبرى التابعة للمناطق المدنية (المناطق التي تم فيها إقرار السلم)، أما المرسوم الثاني، فكان في 30/9/1850م، ويخص تأسيس وتنظيم المدارس العربية الإسلامية؛ أي المدارس الدينية. وكان العدد الضئيل للمدارس العربية الفرنسية المخصصة لـ'الأهالي' يوازيه ارتفاع مضطرد في عدد المدارس المخصصة لتعليم الفرنسيين والأوروبيين، حيث انتقلت من 126 مدرسة في موسم 1848-1849م إلى 417 مدرسة في الموسم الدراسي 1854-1855، وقفز عدد المتدربين بها من 8564 ليصل إلى 23014 في الفترة المذكورة³.

وقد أصدر المرسوم الأول، المارشال 'راندون' (Randon) وزير الحربية الفرنسي، والذي نصّ على تأسيس عشرة (10) مدارس عربية فرنسية، ستة (06) للذكور، وأربعة (04) مدارس للإناث، في كل من الجزائر العاصمة ووهران وعنابة وقسنطينة ومستغانم والبليدة... ووصل عدد المدارس العربية الفرنسية في 1870م إلى 36 مدرسة بالجزائر كلها

¹ - Stéphane Lembré: «L'enseignement technique et professionnel dans l'Algérie coloniale, du territoire à l'atelier (1866-1958)», *Histoire de l'éducation*, N°147/2017, p.110. Voir : <http://journals.openedition.org/histoire-education/3293> Consulté le 20 avril 2018 à 10 :20.

² - لتتبع تطوّر (كروولوجيا) التعليم الفرنسي بالجزائر العاصمة منذ الاحتلال إلى غاية عام 1920م. يُنظر: H. Klein: *L'enseignement à Alger depuis la conquête*, (feuillettes d'El-djezair), Imprimerie Orientale Fontana frères, Alger, 1920.

³ - نقادي سميرة، المرجع السابق، ص3.

(31 مدرسة في المنطقة المدنية و5 مدارس في المنطقة العسكرية مع 1300 تلميذ، منهم 50 بنتاً، وبهذا كان نصيب تعليم البنات الجزائريات شبه معدوم، فمن بين الأربع مدارس التي نصّ عليها مرسوم 1850م سالف الذكر؛ لم تؤسس إلاّ مدرستين اثنتين في كل من الجزائر وقسنطينة، ثم حوّلت مدرسة الجزائر العاصمة إلى معمل في سنة 1861م¹.

كتبت الباحثة الفرنسية 'إيفون تيران' (Ivon Turin) حول هذا الموضوع: "لقد وقع اتفاق بالإجماع بخصوص فائدة المدارس العربية-الفرنسية المخصصة للمدن الأكثر أهمية، واقترح المستشارون إنشاء مدارس عربية-فرنسية للإناث، وهو ما تجسّد بصدور مرسومين الأول بتاريخ 24 ديسمبر 1849م، والثاني في 24 جانفي 1850م الخاصين بالمدارس العربية-الفرنسية، وقد نصا على فتح مدارس للإناث إلى جانب مدارس الذكور، لكن دون امتلاك المرأة على ذكر أسماء أخرى غير الجزائر (العاصمة)"².

وذكر الضابط 'لاباسي' (Lapasset) خلال العام نفسه: "في حالة ما إذا أردنا الإعداد لتردّ شامل، فليس هناك وسيلة أمثل من إقرار تعليم الفتيات، ولاحقا حين نكون قد أعدنا للمرأة حقوقها التي منحناها إياها الديانات، والتي هضمها لها الرجال المستبدّون، يمكننا أن نفكر في تحسين ذكائها (...)، أما بالنسبة للفتيات فإنّ الأشغال اليدوية كالحياطة من شأنها استكمال تكوينهن (...)"³.

وفي تقرير لجنة التعليم العام إلى المجلس البلدي لقسنطينة؛ عن حالة التعليم عام 1871م؛ كان الحديث عن أربعة مدارس للبنات (الأوربيات) منها واحدة للبنات الإسرائيليات (اليهوديات)، مع تفصيل الميزانية السنوية المخصّصة لكل مدرسة من هذه

¹ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص.ص 50-53.

² - إيفون تيران، المرجع السابق، ص.184.

³ - إيفون تيران، المرجع نفسه، ص.184.

المدارس الأربعة، لكن حين تعلق الأمر بالحديث عن المدرسة الوحيدة المخصصة للبنات المسلمات، فقد ذكر أنها خارج أي 'استيعاب' في الوقت الحاضر أو المستقبل، ولم يذكر أي ميزانية مخصصة لها؛ لأنّ "البلدية التي لم يكن عليها أن توفر احتياجاتها، أهملت الخوض في تفاصيل تنظيمها حتى الآن، واكتفت بدور محاسب يسجّل الإيرادات والنفقات"¹.

وذكر التقرير ذاته: "هذه المدرسة متواجدة بشارع 'علي موسى' في مبنى تابع لأملاك الدولة، تحتوي على قسمين ومسكن للمديرة، دفتر المسجلات بها يضمّ سبعة وثمانون تلميذة (...) وعلى كلّ حال فإنّ أي فتاة تلتحق بالمدرسة يتمّ عزلها من طرف الآباء في سنّ مبكرة، ومن جهة أخرى؛ فهذا التعليم لا يتلاءم بأي حال من الأحوال مع آراء المسلمين بأنّ المرأة ينبغي أن تكون متعلّمة؛ لأنّ التعليم من شأنه أن يؤدي إلى تحرّر أفكارها وإثارة المشاعر التخريبية للمجتمع المسلم"².

ومع ذلك فقد تمّ في عام 1879، افتتاح ملحقة لمدرسة قسنطينة للبنات المسلمات بمدينة بجاية، وكانت النتائج مرضية وسمحت بإعطاء الأمل في تعليم عدد كبير من السّكان، فقررت الإدارة الاستعمارية إنشاء مدرسة خاصة لفتيات 'الأهالي'؛ هذه المدرسة من ثلاثة فصول، واستقبلت مائة طالبة بانتظام إلى حد ما. وفي عام 1882، بعد اثنين وخمسين عاماً من الاحتلال، لم يكن هناك سوى مدرستين للبنات المسلمات في الجزائر بأكملها؛ مدرستا قسنطينة و بجاية، ودار للتعليم المهني في الجزائر العاصمة. واستقبلت هذه المدارس الثلاث ما مجموعه 200 طالبة، وكانت النتائج محيية للآمال أكثر؛ بالمقارنة بالنتائج التي تحققت في مدارس البنين؛ التي كانت تعمل بانتظام مع أعداد أكبر من مدارس البنات³.

¹- Municipalité de Constantine: **Rapport de la commission d'instruction publique au conseil municipal de Constantine au sujet de la réorganisation des écoles primaires de cette ville**, Typographie L. Arnolet, Constantine, 1871, p.10

²- Ibid., p.p. 28, 31.

³- Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, p.40.

وعلى الرغم من صدور مرسوم 1883/2/13م الذي أقرّ مبدأ إجبارية التعليم، فإنّ هذا المبدأ طُبّق على الفرنسيين والأوروبيين والإسرائيليين دون الجزائريين، أما بالنسبة لإجبارية التعليم للبنات، فالمرسوم المذكور لم يُشر إلى أي ترتيبات بهذا الشأن، باستثناء المدارس الصبائية المفتوحة للجنسين (الذكور والإناث)، ولم يخف مدير التربية آنذاك 'جون مير' طبيعة السياسة التعليمية الفرنسية بقوله: "عندما أتكلّم عن الأطفال أقصد الذكور فقط؛ لأنه لم يخطر على بالنا أبدا فتح المدارس للبنات المسلمات..."¹، هذا التوجّه في السياسة التعليمية الفرنسية، تأكّد من خلال مرسوم 1892/10/18م، الذي نصت المادة الخامسة منه، على أنّ إجبارية التعليم لا تشمل إلا الأطفال الذكور.

قد نستثني هنا المادة الخامسة والأربعون من مرسوم فيفري 1883 التي نصّت على: "إنشاء دورة عادية موجّهة لتكوين معلّّات أهليات، تكون مُلحقة بمدرسة البنات الأهليات"²، لكن السنوات اللاحقة بيّنت عدم وضع هذه المادة حيّز التنفيذ، ولم نجد أثر واضح للمعلّّات أهليات، اللواتي يُفترض أن توكل لهنّ مهمّة تعليم البنات الجزائريات.

وتذكر 'زينايد تسوريكوف' (Zénaïde Tsourikoff)؛ أنّه خلال السنوات السابقة لصدور مرسوم 1892؛ طوى النسيان تعليم البنات المسلمات في الجزائر، وكان يظهر أنّه من الأفضل والمستعجل شغل المدارس بالذكور دون الإناث، لقد كان النموّ الجسدي السّريع للبنات المسلمة عقبة أخرى تواجه التحاقها بالمدرسة الفرنسية، وبمجرّد مغادرتها لها تعاني من وقاحة البيئة المحيطة بها، وهكذا تنسى المبادئ التي تلقّتها في المدرسة الفرنسية، لقد أُهمل من ناحية أخرى تحسين وضع المرأة 'الأهلية' وترقيتها معنوياً ومادياً،

¹ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص.ص 143، 160.

² - Ali Ajgou: *L'enseignement primaire indigène en Algérie de 1892 à 1949: Essai d'une histoire éducatif et culturelle*, Thèse de doctorat, Université de Provence Aix-Marseille, 1989/1990, p.40.

ومدارس الفتيات كان يجب أن لا تنتج بنات خائبات ومنتديات (أخلاقيا)، بل كان يجب أن تربي بنات مسلمات صالحات للوسط المسلم¹.

كما قدّم 'جون مير' تقريراً حول وضعية التعليم في الجزائر خلال موسم 1887-1888م، يُبين لنا بوضوح الفروق الواضحة بين تعليم الجنسين، ففي المدارس الابتدائية نجد بالجزائر العاصمة 4026 ذكر مقابل 307 بنت فقط، و 4085 تلميذ قى قسنطينة مقابل 394 تلميذة فقط، وبوهران 1958 تلميذ مقابل 212 تلميذة لا أكثر².

وهكذا لم يعرف تدرس الفتيات المسلمات في المدارس الفرنسية أيّ تحسّن بعد صدور مرسوم 1892م، حيث لم يتجاوز عدد مدارسهنّ الستّ مدارس، بتعداد 2000 تلميذة، ولم يتغيّر الوضع كثيراً في العقد الأول من القرن العشرين الميلادي، حيث وصل عدد مدارس البنات إلى 11 مدرسة فقط عام 1908، في حين تجاوز عدد التلميذات المسلمات عتبة 2500³، وهو عدد ضئيل جدّاً نسبةً إلى أعداد من هنّ في سنّ التمدرس آنذاك.

وهكذا بقي تعليم الأهالي عموماً بنسب ضعيفة جداً، إذا ما قورن بما يحصل عليه أبناء المستوطنين والجاليات الأخرى من فرص للتعلّم، ناهيك عن نوعية التباين الكبير بين الجانبين في نوعية التعليم المقدم، فالتقرير السابق لـ 'جون مير'، يكشف الفروق الشاسعة في هذا الجانب بين الأوربيين والجزائريين، كما تُبين الأرقام المقدّمة فيه، تكافؤ فرص التعليم بين الجنسين لدى المستوطنين، حيث كان عدد الأطفال الأوربيين المسجلين في المدارس الابتدائية العمومية 12720 طفلاً، مقابل 10639 بنت أوروبية بالجزائر العاصمة وحدها، بينما لم يتجاوز عدد الأطفال الجزائريين 9053 طفلاً مقابل 379 بنت مسلمة فقط... والأمر نفسه

¹ - Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, p.p.40, 43.

² - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 147.

³ - Ali Ajgou, Op.cit, p.56.

في قسنطينة ووهران، وفي المدارس الابتدائية الخاصة، فلا فرق هنا بين المدارس العمومية والمدارس الخاصة، إذا تعلّق الأمر بتعليم الأهالي الجزائريين¹.

إنّ المتفحّص للنصوص القانونية الخاصة بتعليم 'الأهالي' يجد أنّها لم تخرج عن إطار التوجيه الإيديولوجي؛ بالتدخل في تحديد البرامج، وتقنين الأطر الخاصة بالجهاز البيداغوجي، من رواتب وغيرها²، دون إعطاء أهمية لمتطلّبات التعليم الجادّ، ولم نجد أي عناية خاصة بالفتاة المسلمة في هذا الشأن. وكان يجب الانتظار إلى سنة 1917م ليصدر مقرر إجبارية التعليم للأطفال الذكور الجزائريين؛ في كلّ بلديات الجزائر، وضمن نطاق جغرافي قدره ثلاثة كيلومترات عن المدارس الأهلية، لكنّه أهمل بدوره فرض إجبارية تعليم الفتيات، وهكذا إلى غاية سنة 1920م، لم تتجاوز مدارس البنات العشرون مدرسة، بعدد وصل إلى 7000 تلميذة أهلية عام 1918م ثم انخفض إلى 3331 بعد سنتين من ذلك³.

وإلى غاية عام 1910 لم يتجاوز عدد المدارس الرسمية الفرنسية المخصصة للبنات 15 مدرسة، منها 5 كمدارس للأطفال (روضة)، وبلغت 19 مدرسة في عام 1920م مقابل 490 مدرسة للذكور، وفي 1929م وصلت إلى 23 مدرسة للبنات مقابل 540 للذكور، وفي الفترة بين 1929 و 1934 وصل عددها إلى 43 مدرسة⁴. ومع أنّ عدد الفتيات المتمدرسات في المدارس الفرنسية قد ارتفع من 3527 تلميذة سنة 1921؛ إلى 6712 تلميذة سنة 1929م، إلّا أنّه بقي ضعيفاً جداً بالنظر إلى النمو الديموغرافي للجزائر في الفترة المذكورة، حيث تجاوز عدد السكان الجزائريين المسلمين 5 ملايين نسمة، ومقارنة مع نسبة

¹ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص166.

² - سميرة نقادي، المرجع السابق، ص.34.

³ - Ali Ajgou, Op.cit, pp.79, 96.

⁴ - Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, pp.44, 47.

التمدرس لدى الأوربيين لدى الجنسين، حيث لم تتجاوز 3% عام 1928 لدى أبناء الجزائريين في حين كانت 91% لدى أطفال المستوطنين في السنة نفسها¹.

يمكن أن نستدلّ هنا ببعض الإحصائيات الفرنسية الرسمية من خلال تقرير فرنسي حول تعليم الأطفال من أبناء الأهالي بمنطقة البلدية وضواحيها في موسم 1930/1929، إذ يُشير إلى نسب ضعيفة فيما يتعلق بتعليم البنات تحديداً، كما هو الحال ببلدية الدويرة حيث توجد 5 أقسام للذكور ومثلها للإناث، ومقابل 15 طفلاً يرتادونها لم تكن توجد إلا فتاة واحدة، أما في البلدية نفسها فمعظم الفتيات يتوجهن إلى المدارس-المعامل، وفي بوفاريك يوجد 12 قسماً يستقبل 22 فتاة لا غير، وفي واد العلايق 5 فتيات فقط، والحال نفسه في الصومعة حيث تتمدرس فتاة واحدة². ومن مجموع 800 ألف طفل من أبناء الجزائريين في سنّ التمدرس، لم يكن مسجلاً إلا 37821 في المدارس الابتدائية ودور الحضانة، وهو ما يمثل 1 من 22، أما نسبة الفتيات فكانت ضعيفة جداً؛ بمعدل فتاة متمدرسة من 125 فتاة³.

من حيث المناهج والمحتوى وحالة التعليم إلى غاية عام 1935م تقول 'زينابيد تسوريكوف': "إنّ تعليم البنات يصطدم بعقبتين رئيسيتين: من جهة؛ التربية الأخلاقية التي تتلقاها البنت في العائلة لا وجود لها في مناهجنا التعليمية، ومن جهة ثانية؛ هذه التعليم يجب أن يتمّ في وقت قصير جداً، فالفتيات يأتين كبيرات إلى المدرسة ولا يمكن إلا لوقت قصير (عادة يكون بين سنّ 8 و 12 سنة)، وخلالها يجب بثّ روح الكرامة الشخصية في التلميذة، وتعليمها النظام والطاعة والتهديب والاستقامة، والولاء بكلّ أشكاله، كما يشمل تعليم المسلمات الصغيرات دراسة اللغة الفرنسية والتعبير بها بشكل صحيح، والحساب والغناء والرسم والتاريخ (الفرنسي) والجغرافيا (...). وتعليم التاريخ تمّ تخفيضه إلى الحدّ الأدنى،

¹ - سميرة نقادي، المرجع السابق، ص.ص 38-39.

² - ANOM, 2 I 50: L'enseignement des indigènes, 1929/1930.

³ - Emile Larcher, Op.cit, p.631.

ويقتصر دور المعلّمت على جعل الفتيات يفهمنّ التقدّم الذي أحرزته البشرية في الحياة، والعمل الذي تقوم به فرنسا في الجزائر"¹.

أما التعليم الابتدائي العالي بالمدارس الفرنسية؛ فلا نكاد نعثر على أسماء لبنات جزائريات في القرن التاسع عشر، في حين كان عددهنّ يعدّ على الأصابع خلال النصف الأول من القرن العشرين، من 2 إلى 3 فتيات في كل من الجزائر والبليدة ومعسكر وقسنطينة ومليانة ومستغانم وسطيف وسيدي بلعباس، حيث كان مجموعهنّ الكلي 8 بنات متمدرسات عام 1930م، و 14 تلميذة عام 1931م، و 16 تلميذة عام 1932م فقط، وكنّ يجترن بين التعليم العام والتعليم المتخصص الذي يقدّم دروساً في الاقتصاد والتدبير المترلي، أما في المدارس المتوسطة فلم يتجاوز عددهنّ العشرات في كلّ مدارس الجزائر العاصمة وقسنطينة وعنابة، غالبيتهنّ ينقطعنّ عن الدراسة في مرحلة التعليم المتوسط الأولي (*Brevet élémentaire*)²، والسبب يكون غالباً نمو جسم الفتاة وبلوغها مرحلة الشباب المبكرة، واضطرار أهلها إلى توقيفها عن الدراسة تحت طائلة العادات والتقاليد والنظرة المجتمعية الوقحة تجاهها، أو لاعتقادهنّ أنّ الشرع الإسلامي يحرمّ عليها الدراسة في المدرسة الفرنسية.

فيما يتعلّق بالتعليم في الطور الثانوي فكان لا يكاد يُذكر بالنسبة للفتيات الجزائريات، وباستثناء قسنطينة، وهران والجزائر العاصمة، وبعض المدن الكبرى؛ لم تكن هناك أقسام ضمن المدارس الفرنسية مخصّصة للبنات، وحتى في المدن المذكورة آنفاً كان الأمر يقتصر على قسم واحد للإناث، ففي عمالة قسنطينة مثلاً تمّ افتتاح قسم ملحق واحد للبنات، وكذلك في سانت آرنو (Saint Arnaud)، وأيضاً في الغولية (El-Goléa) ببلدية ورقلة³.

¹- Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, p.p.51,54.

²- Ibid, p.p.85-87.

³- Abderrahim Sekfali: **Le rôle des instituteurs dans la Vie politique et sociale du département de Constantine de 1930 à 1939**, Thèse de Doctorat, Université de Provence Aix-Marseille, Octobre 1982, p.18.

3-3- الحملات التنصيرية ومحاولات استقطاب المرأة الجزائرية:

رافق رجال الدين الكاثوليك الحملة الفرنسية على الجزائر، وهلّلوا بسقوط أرضها واستبشروا بعودتها إلى أحضان المسيحية، وكانوا يسرون جنبا إلى جنب مع الجندي الفرنسي الغازي؛ لنشر أفكارهم وبثّ معتقداتهم في أوساط المجتمع الجزائري المسلم، وانطلقت مشاريعهم التي تستهدف النساء والأطفال بالتبشير والتنصير قبل غيرهم، لعلمهم بضَعف هذه المخلوقات، كما استغلوا فاقة واحتياج المرأة الجزائرية وبؤسها الاجتماعي، لتمرير رسالتهم وتحقيق غاياتهم ومراميمهم، هذه الحملة بلغت ذروتها في عهد 'الكاردينال لافيغري' (Lavigerie) الذي استغلّ سنوات القحط والمجاعة التي اجتاحت الجزائر منذ عام 1867م لتحقيق مآربه، فكان 'الصليب في يمينه والخبز في شماله'.

وأخذ الكاردينال 'لافيغري' بعين الاعتبار؛ مكانة المرأة في الأسرة، فوجّه اهتمامه للتأثير عليها؛ فالمرأة في نظره هي مدار الحياة الاجتماعية والوصول إليها هو بمثابة وصول إلى الأسرة كلها، ولهذا أنشأ في شهر سبتمبر سنة 1869م، فرقة الأخوات البيض التي حملها مسؤولية التبشير في الوسط النسائي، عن طريق التطبيب والتعليم والخدمات الخيرية¹. وركّزت الخطة التنصيرية التي أعدها 'لافيغري' على تكثيف النشاط بمنطقة القبائل، باعتبار سكانها من البربر، لاعتقاد المبشّرين سهولة التغلغل فيها وتحقيق مآربهم هناك، يقول أبو القاسم سعد الله: "كان رجال لافيغري (الآباء البيض) ينسّقون هناك (منطقة زواوة) مع نسائه (الأخوات

¹ - خديجة بقطاش: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، منشورات دحلب، الجزائر، 2007،

البيض)، وقد سمحوا للمرأة الزواوية بالمحافظة على لباسها حتى لا تقتلع من جذورها، وحتى تظلّ على صلة واختلاط مع السكان، وحتى لا تتعرض للإهانة¹.

كما قام المنصرون بتأسيس الجمعيات الخيرية لتحقيق أهدافهم، أما 'العمل الخيري' لم يكن أبداً غاية في حدّ ذاته؛ وإنّما كان وسيلة لتحقيق طموحات 'لافيجري'، كما لم يكن التنصير هو الآخر هدفاً بحدّ ذاته، وإنّما الغاية هي إيجاد فئة من السّكان متخلّية عن دينها الإسلامي وقيمها الحضارية؛ صديقة ومؤيّدّة للاحتلال الفرنسي، لقد كان العمل يتمّ تدريجياً لاستقطاب النساء المطلّقات، حيث قدّر 'لافيجري' نسبتهمّ بسدس النساء المتزوجات سنوياً، وبالنسبة لعدد كبير منهنّ لا توجد موارد اقتصادية أخرى لهنّ غير التسوّل أو الانحراف².

و لم تخف عن رجال الدين الفرنسيين؛ أهمية التعليم كوسيلة للتبشير (التعليم التبشيري)، حيث انتشرت المدارس الدينية، لاسيما في منطقة القبائل، وتحديدًا بالبلديات المختلطة، وكذلك في مدارس مخصصة للبنات فقط، مثال ذلك مدرسة ابن إسماعيل بالبلدية المختلطة ذراع الميزان، التي كانت تضم 65 تلميذة، ومدرسة أودهية للبنات ببلدية فورناسيونال (الأربعاء ناث إيراثن)، التي ضمّت 25 تلميذة³.

ومع أنّ التركيز انصب على منطقة القبائل والنساء والأطفال هناك؛ إلا أنّ هذا لم يمنع 'الأخوات البيض' من غزو كامل أنحاء القطر الجزائري، من أجل القيام بهذه 'المهمّة النبيلة' في تطوير الحالة المادية والمعنوية للمرأة 'الأهلية'، حيث أنشأت مراكز التعليم المهني لاستقبال البنات المسلمات وتعليمهنّ مبادئ صناعة الزرابي والنسيج، وتم فتح هذه المراكز في غرداية والأغواط وورقلة والقولية وعين الصفراء والبيّض، كما كانت المبادرات الفردية في هذا الشأن

¹ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص129.

² - محفوظ قداش؛ الجيلالي صاري، المرجع السابق، ص273.

³ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص73.

عديدة، حيث فتحت 'بيوت للعمل' من طرف نساء مستوطنات، مثلما فعلت 'السيدة دلفو' (Mme Delfau) في الجزائر العاصمة عام 1898م، و 'الآنسة 'آنا' (Mlles Anna) و 'ماري سايتون' (Marie Saeton) في تلمسان عام 1900م¹.

ومع ذلك؛ فالوثائق الأرشيفية الفرنسية المتعلقة بموضوع التعليم التبشيري تكاد تتفق على أن هذا الأخير لم يعرف تطورا ذو شأن، وقد تعود أسباب ذلك إلى الصعوبات التي واجهت المبشّرات في استقطاب البنات إلى مدارسهن (écoles ouvroirs)، وكل ما استطعن تقديمه للتلميذات وأغلبهن يتيمات، لا يعدو أن يكون مبادئ الحساب والقراءة والخط، وبقي كل ذلك في نطاق ضيق ومناطق جغرافية محدودة². لكن يبقى التعامل مع هذا الموضوع بجزر؛ كونه يحتاج إلى دراسة تاريخية أرشيفية أكثر عمقا.

لقد حافظت الأغلبية من النساء المسلمات الجزائريات على عقيدتهن الإسلامية، أما القلة من النساء المنتصّرات، فلم يجدن من المجتمع سوى المقت والعزل والاستنكار، وكل من ثبت تنصّرهم تمتع الأسر عن مصاهرهم، ووقف كافة أشكال التعامل معهم، بل وصل الأمر إلى حد الاعتداء عليهم ومحاوله قتلهم في بعض الأحيان من طرف أفراد قبيلتهم، باعتبار أن المنتصّر قد جلب العار لهم ودّس شرف القبيلة بأكملها³، وفي هذا السياق نقرأ عن 'فاطمة عمروش'⁴ تلك المرأة الجزائرية المنتصّرة؛ التي تعترف في كتابها: 'قصة حياتي' 'histoire de

¹ - Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, p.p.82-83.

² - محمد الطاهر وعلي، المرجع السابق، ص.ص 139-141.

³ - كانت مسألة الشرف (الحرمة) من المسائل التي تثير غضب أفراد القبيلة كلّهم، وتدفع الجماعة إلى طلب القصاص من الجاني والانتقام منه جزاء فعله، سواء تعلق بمسّ شرف القبيلة بفعل لا أخلاقي (الزنا، قذف النساء...)، أو عن طريق إتيان أي عمل آخر يُسيء إلى القبيلة بأكملها. يُنظر:

A. Hanoteau ; A. Letourneux: **La Kabylie et les coutumes kabyles**, T.3, Imprimerie Nationale, Paris, (S.D), p. 208.

⁴ - فاطمة منصور آيت عمروش (Fathma Aït Mansour AMROUCHE) : ولدت عام 1882 بقرية 'تيزي هيل' (آيت محمود حاليا)، وتوفيت يوم 9 جويلية 1967م بمنطقة (Bretagne) بفرنسا عن عمر 85 سنة، غيرت

'ma vie'، حيث نلمس حجم المعاناة الاجتماعية التي عاشتها 'فاطمة عمروش' بعد تنصّرها، رغم محاولتها التمسك بأصولها الأمازيغية، مدّعية أنّها: "لم تنتم يوماً ما لا إلى العرب رغم طول فترة مكوثها بتونس؛ ولا إلى الفرنسيين، وأنّها بقيت دوماً تلك 'اللاجئة الأبدية'، التي تحنّ إلى قريتها وأصلها، حيث تتحدّث اللهجة نفسها، وتجد طريقة التفكير ذاتها، وتتعطّش إلى الحرية والاستقلال"، وأنّها: "رغم هرمها إلاّ أنّها مازالت تحتفظ بروح الطفولة التي ترغب في تصحيح الأخطاء والدفاع عن المظلومين"¹.

لقد أُعتبر التجنّس في الجزائر المُستعمرة بمثابة خروج من الملة الإسلامية، وعرف الكثير من 'المتجنّسين' النفي والحرمان من العائلة، والقطيعة المجتمعية، وحياة مليئة بالمعاناة، وقد آثر بعضهم الهجرة إلى فرنسا أو مناطق أخرى؛ هروباً من الواقع الذي وجدوا أنفسهم فيه.

3-4- وقوع المرأة الجزائرية تحت تأثير الخرافات والبدع:

في غياب تعليم جاد للبنات منذ مجيء الفرنسيين؛ أصبحت المرأة الجزائرية فريسة سهلة للخرافات والبدع والسحر والشعوذة، وصار تفكيرها يدور حول كيفية نقل الأحجة وحرق البُخور وزيارة الأولياء والقبور، وكان لبعض الطرق الصوفية المنحرفة دور في هذا الانحطاط؛ بعد أن تخلّت عن وظيفتها الحقيقية ومهمّاتها الروحية، وصار كثير من المنتسبين إليها يمارسون

اسمها إلى 'مارغريت' (Marguerite)، وهي والدة الكاتبان: 'طاوس عمروش' و 'جون عمروش'، عاشت صراعاً مريراً مع مجتمعا بعد اعتناقها الكاثوليكية، اضطرّها الرحيل إلى تونس والعيش هناك لما يقرب من أربعين سنة، ثم إتمام باقي أيام حياتها في فرنسا، كانت تكتب بلغة فرنسية مخلوطة بكلمات أمازيغية قبائلية، نُشرت سيرتها الذاتية المذكورة بعد وفاتها، وقدّم لها الكاتبان: 'فانسون مونتاي' (Vincent Monteil) و 'كاتب ياسين' (Kateb Yacine). للمزيد يُنظر:

Fathma Aït Mansour Amrouche: **Histoire de ma vie**, préf. Vincent Monteil ; Kateb Yacine, La découverte, Paris, 2000, 215p.

¹ - Ibid., p.9.

أساليب الخرافات والدروشة على المرأة وحتى على الرجل¹، وصارت المرأة المسلمة في الجزائر المستعمرة، تستنجد بـ 'سيدي عبد القادر'، في كلِّ شؤنها، وخاصة عند المصائب والمحن، أو أثناء عملية الولادة، لاعتقادها بامتلاكه قدرات خارقة وصنعه للمعجزات²، وأيضاً لضَعفها وقلة حيلتها أمام النوائب التي تحلُّ بها.

عن مكانة المرأة ضمن الطرق الصوفية؛ يذكر 'لويس رين' أن عدّة طرق صوفية كانت تقبل بانضمام النساء إليها؛ على غرار الطريقة الرحمانية، التيجانية، القادرية والعيسوية، هؤلاء النسوة اللاتي يحملن لقب (خونيات) (Sœurs=khouatât)، يقمن بواجباتهنّ داخل الطريقة، ويشاركن الرجال في اجتماعاتهم الخاصة، والذّكيات منهن يستطعن أن يُصبحن 'مقدّمات'، وفي هذه الحالة يوضعن تحت تصرّف 'المقدّم' ليساعدهن؛ لكونهنّ 'نقيبات'، يتولّين إدارة الاجتماعات النسوية³.

إنّ الانحراف الذي أصاب المجتمع الجزائري والفهم الخاطئ للدين الإسلامي؛ كان له الأثر البالغ على المرأة؛ لأنّها صارت أكثر اعتقاداً وتشبّعاً لشيوخ الدين، فجهلها بأصول الدين وطبيعتها الساذجة؛ جعلها أداة طيِّعة في أيدي المرابطين والمشعوذين، وقد أبان المصلح 'أبو يعلى الزواوي' عن سخطه الشديد من هذا الوضع بقوله: "والذي أحجب عنه النساء لو

¹ - أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص ص85، 80.

لعلّ من أبرز المصادر التاريخية الفرنسية حول الإسلام ودور الطريقة في الجزائر المستعمرة كتاب 'لويس رين' (Louis Rinn): 'مرابطون وإخوان: دراسة حول الإسلام في الجزائر' الذي صدر سنة 1884م، وفيه تحدّث عن وجود أكثر من 355 زاوية في الجزائر آنذاك، و1955 مُقدِّم يعملون بها، و167019 من الإخوان المنتسبين إلى هذه الزوايا، تحت إمرة وطاعة أكثر من 20 زعيم. يُنظر:

Louis Rinn: *Marabouts et khouans: étude sur l'islam en Algérie*, Adolphe Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1884.

² - Ibid., p177.

³ - Louis Rinn, Op.cit, p.p.88-89.

كانت لي قوة، أو آوي إلى ركن شديد، هو المنكرات من الزيارات والطواف حول القبور، والعكوف عند القبر من قبور الأولياء، والشكوى إليهم والاستغاثة بهم والطلب منهم؛ حتى صرن يزرن الكنائس مثل Notre dame d'Afrique ويندرن لها...¹.

وتساءل الشيخ 'مبارك الميلي' متعجباً من ممارسات أتباع الطريقة، التي كانت تحاكي صوراً من الوثنيات الأولى: "ألم ترى في أوساطهم قبلاً تبذل في شيدها الأموال، وتشدّ لزيارتها الرّحال؟ أم لم تسمع منهم استغاثات وطلب حاجات من الغائبين والأموات؟ أم لم تعلم بدور تُنعت بدار الضّمان تشتري ضمانتها بالأثمان؟ أم لم تجتمع بذريّة نسب للمرابطين إعطاؤها بقوة غيبية؟ أم لم تتكرّر عليك مناظر مكلفين إباحيين يقدّسون بصفتهم مرابطين أو طرقيين؟ هذا إلى اجتماعات تنتهك فيها كلّ الحرمات باسم الزّردات، أو تحت ستار الاعتقادات والدعوة إلى أوضاع مبتدعة صدّت الناس عن إتباع السنة المُطهّرة"².

إنّنا لا ننكر الدور الذي لعبته الزوايا ومختلف المؤسسات الدينية في الحفاظ على هوية الجزائريين وانتمائهم الحضاري والثقافي والديني؛ لكن سلطة الاحتلال الفرنسي؛ استطاعت استقطاب الكثير من شيوخ الدّين وإغرائهم بالامتيازات والمناصب؛ لجعلهم في خدمتها، كما أنّ سياسة التجهيل التي انتهجها الفرنسيون في الجزائر، أدّت إلى تردّي المستوى الثقافي والأخلاقي، وانتشار البدع والخرافات والإيمان بالغيبيات في أوساط النساء بشكل خاص.

¹ - "المرأة المسلمة في الجزائر"، الشهاب، ج.9، جمادى الأولى 1348هـ.

² - مبارك بن محمد الميلي: رسالة الشرك ومظاهره، تح. أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية، السعودية، 2001، ص164.

كانت تقام التجمّعات السنوية في الجزائر لتكريم أجداد مقدّسين (مرابطين)، حقيقين أو وهميين، حيث يجتمع آلاف الأفراد الوافدين من شتى المناطق، فعلى سبيل المثال التجمّع بمناسبة تكريم 'سيدي محمد بن عودة' بالقرب من غليزان. أنظر: عدّي الهواري، المرجع السابق، ص127. وإقامة هذه 'الوعادات' تتمّ تحت إشراف أعوان الاحتلال الفرنسي من 'القيّاد' وغيرهم؛ بعد طلب ترخيص من الإدارة الاستعمارية المحلية (الحاكم).

4- مقاومة المرأة الجزائرية للسياسة الاستيطانية الفرنسية:

لم يتوقع الفرنسيون تلك المقاومة الشرسة التي جابههم بها الجزائريون غداة الاحتلال، وقد طبع سلوك الإعراض عن التعامل مع المحتلين يوميات الجزائريين منذ العقود الأولى للاحتلال، فكان الفرار منهم أينما حلّوا، والبحث عن بدائل لضمان لقمة العيش واستمرار الحياة، ولو في أسوء الظروف. ولم تقتصر مقاومة المرأة الجزائرية على حمل السلاح في وجه الغزاة؛ وإنما اتخذت أساليب أخرى للتعبير عن رفضها للاحتلال الفرنسي، بانتهاج أساليب المقاومة 'السلمية' أو 'السلبية'، والتي تجسّدت في ثلاثة جوانب: رفض التعليم (المدرسة)؛ التمسك بالدين الإسلامي، والامتناع عن التداوي لدى الطبيب الأجنبي.

لقد عبّر المجتمع المحلي عن رفضه لفكرة الاندماج الاجتماعي والثقافي مع الجالية الأوروبية المستوطنة، وكان ردّ الفعل العفوي غلباً لدى الفرد الجزائري هو التمسك بدينه وهويته وعاداته وتقاليده، كما استطاعت المرأة الجزائرية المحافظة على هويتها الجزائرية، والبقاء متميزة بعاداتها وتقاليدها الاجتماعية وخصوصياتها، وشخصيتها المختلفة عن شخصية المرأة الأوروبية، رغم حملات العنف والغزو الفكري ضدها، والممارسات المجتمعية الجائرة في حقها، من خلال وضعها تحت سيطرة أعراف بالية تتنافى مع أحكام الشريعة الإسلامية.

4-1- المرأة الجزائرية ترفض التعايش مع الغازي الأجنبي:

على الرغم القهر والاضطهاد، وأصناف البطش والتنكيل التي عانت منه المرأة الجزائرية على يد الغزاة الفرنسيين، إلا أنّها حافظت على مبادئها ووفائها لقومها وملّتها، يروي عبد الرحمان الجيلالي ما ذكره الجاسوس الفرنسي 'ليون روش' (Léon Roche) في كتابه: 'ثلاثون عاما عبر الإسلام': "هَمَّتْ بحبّ فتاة جزائرية اسمها خديجة (...) فأردت أن أتخذها زوجة، وأن أرحل بها إلى فرنسا حين قضاء مهمّتي، فأطلعتها على شيء من سرّي، و

أسفاه...! إنها حين علمت بذلك نهضت من جنبي مصفرة الوجه مطرقة الرأس وقالت الوداع الوداع (...). إني أحبك فلا أستحل إفشاء سرّك، ثم إني أحب قومي فلا أستحل أن أبقى بينهم عارفة بأمر يسوؤهم، ولذلك لا ينبغي لي أن أعيش، ثم طعنت فؤادها بخنجر فسقطت ميّته¹.

ونقرأ في سيرة وحياة 'لالا فاطمة نسومر' 1830-1863م، التي قاومت الغزو الفرنسي لبلاد القبائل، وأظهرت بطولة وبسالة قلّ نظيرها في مواجهة الجنرالات الفرنسيين، وصدّت جحافل الجيش الفرنسي الذي الغازي لمنطقة زواوة بقصد احتلالها بين سنتي 1844-1845م، فكانت تحارب إلى جانب 'بوغلة'، تخوض المعارك بنفسها، وتبعث في نفوس المجاهدين الشجاعة والإقدام، حتى أنّها اشتهرت بين عساكر فرنسا باسم متنبأهم القديسة 'جان دارك'، ولما خشيت القيادة العسكرية الفرنسية، خطر هذه الحرب التي تقودها امرأة، جنّدت لها جيشا بخمسة وأربعين ألف مقاتل، يقوده الجنرال 'راندون' (Randon) ويساعده 'ماكماهون' (Mc Mahon) من قسنطينة، بينما لا يزيد عدد المقاومين الذين تزعمتهم 'لالا فاطمة نسومر' عن سبعة آلاف، مع قلة عتادهم وسلاحهم، واحتدم القتال بين الطرفين، فرأت 'لالا فاطمة'، إشفاقا على النساء والأطفال الذين كانوا داخل المعركة، أن تأمرهم بالالتجاء إلى أقرب القرى، غير أنّ القائد الفرنسي 'فورشو'، اقتحم القرية (تاكالا)، وهناك أسرت 'لالا فاطمة نسومر' في من كان معها من النساء والأطفال، وكان ذلك يوم

¹ - عبد الرحمان الجيلالي، ج.4، المرجع السابق، ص95.

العنوان الصحيح لكتاب ليون روش هو: 'اثنان وثلاثون سنة عبر الإسلام'. يُنظر:

Léon roche: **Trente-deux ans à travers l'Islam (1832-1864)**, T.1: Algérie-Abdelkader, librairie de Firmin-didot, Paris, 1884.

11 جويلية 1857م، حيث بقيت تحت الإقامة الجبرية في المعتقل سبع سنين إلى أن توفيت بداء أصابها في سبتمبر عام 1863م¹.

كما برزت في الفترة نفسها تقريباً؛ 'الحاجة الزهرة' التي آزرت الشيخ المقاوم 'الشريف محمد بن عبد الله' وزوجته 'مريم'، وحشدت له عدداً من المقاومين والمجاهدين في تقرت وورقلة، والرويسات، ودعمته بالدعاية والتموين، وشاركت الأمير عبد القادر بآرائه حول المرأة، في إجابته التي قدمها للضابط الفرنسي أوجين دوماس².

وتذكر المصادر الفرنسية نساء جزائريات رفضن خضوع أزواجهن للمستعمر، أو تعاونهم معه، 'فحين توفي 'الخليفة حمزة' زعيم أولاد سيدي الشيخ عند الفرنسيين، أتهمت هؤلاء إحدى زوجاته بتسميمه، لأنها لم تغفر له استسلامه المطلق للفرنسيين، كما أتهموا 'الطليعة بنت رابح' بوضع السم لزوجها القائد 'جلول بن حمزة' لإخلاقه لفرنسا...³، فقد كانت المرأة الجزائرية ترفض الخضوع للمحتل حتى وإن خاطرت بحياتها مقابل ذلك.

وكانت المرأة الجزائرية تطلب الانفصال عن زوجها هي بنفسها أو عن طريق أهلها؛ حين يعزم زوجها على التجنس بالجنسية الفرنسية، والتخلي عن أحواله الشخصية كمسلم؛ لأنه سيصير مُرتدّاً عن دينه و 'مطورني' في نظر المجتمع الجزائري، ويصبح محرّم عليها شرعاً البقاء تحت ذمته. يمكن أن نسجّل الشهادة التي قدمها 'ألبان روزي' (Albin Rozet)⁴، بتاريخ 23 ديسمبر 1913م أمام غرفة النواب الفرنسيين، وكان أمين لجنة الجزائر بغرفة

¹ - الجليلي، المرجع السابق، ج.4، ص.ص.315-319.

² - يحي بوعزيز: المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى، الجزائر، 2000، ص.26.

³ - لويس رين: "حدودنا الصحراوية"، في الجملة الإفريقية، 1866، ص.189. نقلا عن: أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص.343.

⁴ - أنطوان ألبان روزي (1852-1915): رجل سياسي فرنسي ونائب ومستشار عام، وقنصل فرنسا بمدريد (إسبانيا) وميونخ الألمانية (1880-1881). أنظر:

https://data.bnf.fr/fr/13212048/antoine-albin_rozet/ Consulté le: 17/05/2020 à 11:22.

النواب بفرنسا، ومدافعاً عن حقوق المسلمين الجزائريين، حيث قال: أن أحد الجزائريين 'الأهالي' التقى بمتصرف إداري فرنسي، وأبدى رغبته في التجنس، فرد عليه هذا المتصرف: "هل أنت بحاجة فعلاً إلى التجنس؟ ستكون لك صعوبات جمّة مع عائلتك ومع زوجتك..."¹.

4-2- الامتناع عن التداوي لدى الطبيب الأوربي (الرومي):

من خلال موقف المرأة الجزائرية من الطبيب الأجنبي يمكننا أن نستشفّ درجة القطيعة والتنافر التي حدثت بين المجتمع الأهلي والغزاة الفرنسيين، فالحديث هنا ليس عن العسكريين الفرنسيين المدجّجين بالسلاح، والذين ترسّخت عنهم لدى الفرد الجزائري صورة نمطية مرتبطة بالعنف والتقتيل والبطش والقسوة، بل الحديث عن أناس يُفترض أنّهم في غاية اللطف واللباقة، وهم الأطباء والمرّضين ورجال الصحة، لقد اكتشف بعض الأطباء الدّور الذي تلعبه النساء المسنّات (العجائز) في مجال الأعشاب والعقاقير العلاجية التقليدية واستعمالها، لكنّهم لم يستطيعوا أن يتوغلوا إلا نادراً داخل بيوت الجزائريين، التي لم يكن يُسمح لهم بدخولها حتى في حالات الولادة العسيرة.

لقد طُرِح إشكال كبير دار حول سؤال جوهري مفاده: كيف السبيل إلى معالجة النساء إذا تعذّر على الطبيب الأجنبي الدخول إلى البيوت؟ كانت الراهبات يلعبن دور الوساطة، إذ يقمن بشرح وتفسير بعض الأمور للمرأة، ويقدمن بعض الأدوية والوصفات... بهذه الطريقة عالج الطبيب 'دلو' زوجة ابن 'القايد علي'، بواسطة توكيل أو وكالة، حيث يذكر هذا الطبيب: "كانت مسلولة (مصابة بمرض السل)، وعلى وشك أن تضع مولوداً،

¹ - Jean Méliá, *Le triste sort des musulmans indigènes d'Algérie*, Paris, Mercure de France, 1935, pp.33-34.

نقرأ في هذه الدراسة عن معاناة الجزائريين الذين تجرّؤوا على التجنس والتخلّي عن أحوالهم الشخصية الإسلامية، ونرى حجم الرفض الاجتماعي الذي ووجهوا به، خاصة حين يتعلّق الأمر بتجنس فتاة مسلمة أو امرأة جزائرية، وهو أمر نادر الحدوث في جزائر القرنين التاسع عشر والعشرين، كما هو الحال مع 'فاطمة آيت عمروش'!

لذلك طلب الطبيب رؤية المريضة، لكن طلبه قوبل بالرفض القاطع من قبل هذا الزوج (الطفل البالغ من العمر خمسة عشرة سنة)، وهو الذي سبق له وأن شاهد باريس والبلاط الملكي، والذي رأى أميرتنا الجميلات ونساقنا الحسنات، هذا المتوحش والنذل، هذا الطفل حملي على القول إنه يفضل أن تموت زوجته¹ على أن يفحصها طبيب أجنبي.

وكتب أحد الأطباء الفرنسيين يصف حالة المرأة الأهلية قائلاً: "لو تعلمون كم تُحتقر هذه المخلوقات المسكينة من قبل أزواجهن... كان عندنا في المستشفى مريضتان اثنتان الأسبوع الماضي، وكانت هاتان البائستان غارقتان في جهل مُطبق إلى حد عدم القدرة حتى على تحديد سنهن!"². ونجد أصدق تعبير عن الحالة الصحية للأهالي المسلمين فيما أورده الطبيب الفرنسي 'برتراند' (Bertrand) سنة 1855م في كتابه 'تاريخ مستشفى البلدة': "إن الوجوه البشوشة إلى غاية سنّ الثانية عشرة تذبذب وتعلوها التجاعيد بسرعة، وتبدو في الخامسة والعشرين وكأنها في الأربعين. وقد بينت آخر الإحصائيات بالمدينة أن الأشخاص الذين بلغوا سن السبعين كانوا جد نادرين، والذين كانوا في الستين كان عددهم قليلاً (...). أما بالنسبة إلى النساء 'الحيوانات الدابة'، التي أنهكتها الأشغال والولادة"³.

لقد بلغت حالة الرهبة والتّفور من كل ما هو فرنسي حدا يصعب تخيّلها، فالجزائري المسلم كان يخشى كل شيء يأتيه من جانب الفرنسيين، ويتوجّس منه خيفة وريبة، وفي هذا الشأن تذكر أحد التقارير الطبية الفرنسية: "لقد كان مجيء الملقّح يعتبر فاجعة في كل مكان تقريبا، فبمجرد رؤية الملقّح تسودّ ملامح الرجال فجأة تعبيرا عن الخشية، وفي بعض الأحيان عن خيبة الأمل، الأطفال يصرخون والأمهات يندبن حظهن ويلطمن وجوههن و يبكين

¹ - إيفون تيران، المرجع السابق، ص.ص 102، 103.

² - إيفون تيران، المرجع نفسه، ص 103.

³ - المرجع نفسه، ص 317.

ويولولن، كما لو كان الأمر لا يتعلّق بعملية مسالمة وغير مؤذية، وإنما بإبادة أطفالهن، لقد كان مظهرها مؤثراً، وكان على الملقّح أن يتحلّى بكل الشجاعة والصبر المنبعثين من اليقين في تقديم خدمة عظيمة للإنسانية، كي يقرر الاستمرار في مشروع شاق كهذا"¹.

ويذكر أبو القاسم سعد الله: "إلى غاية سنة 1908م تقريبا، كان الجزائريون مبتعدين عن الفرنسيين في مجال الطب، ولا يقصدون حكماءهم للعلاج؛ لأن فكرة العداة والخوف كانت هي المسيطرة، إنّ الثقة كانت مفقودة بين الطرفين، وهذا رغم قناعة الكثير من الجزائريين، بمعرفة الفرنسيين لأسرار العلوم الطبية. لقد كان عامة الجزائريين يعرفون أن الفرنسيين قد ربطوا بين عناصر ثلاثة الاستعمار والدين والطب، ولم يكن من السهل عندهم الفصل بين الطب وغيره من ظواهر الاستعمار، رغم أن الفرنسيين كانوا يعزّون موقف الجزائريين من أطبائهم إلى التعصب (...). كما ألقى الدكتور 'ديركل' محاضرة عن موقف العرب (الجزائريين) من الطب الفرنسي، فقال إنهم في نظره، يمرون على الحضارة الفرنسية (والطب منها) دون الالتفات إليها، فهم كالأشباح في العصور الوسطى، ونسب إلى الجزائريين الاعتماد على القدرية، لأنّ كل شيء عندهم 'مكتوب' (...). لكنّه أقرّ بأنّ الجزائريين قد أخذوا يغيّرون من وضعهم، ويُقبلون بالتدرّج على الطب الأوربي. لذلك نصح الأطباء الفرنسيين بأن يتعلّموا لغة الأهالي لكسب ثقتهم، ولاحظ أنّ الترجمة بين الحكيم والمريض لا تؤدي المقصود، وقد ربط 'ديركل' بين صحة الشعب وحضارته، إذ أنّ التأثير على الصحة يعني بالضرورة التأثير الحضاري عليه، والغريب أنّه لم ينصح بنشر الطب بين الشباب الجزائري، لكي يعالج الجزائريون بعضهم بعضا، فاحتكار الطب كان من الظواهر الاستعمارية أيضا"².

¹ - نفسه، ص 347.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.7، المرجع السابق، ص.ص 226-227.

إنّ هذا الحكم لا يمكن أن يكون مطلقاً بأي حال من الأحوال، وكما هو الشأن مع التعليم؛ فهناك بعض الاستثناءات في مجال الصحة والطبّ، والفرد الجزائري شرع في تقبّل فكرة أخذ أولاده أو زوجته للعلاج لدى الطبيب الفرنسي، قد يكون هذا الحدث خاص بمناطق دون أخرى، أو يتعلّق بالمدن الكبرى كالجزائر العاصمة وضواحيها، حيث تتوفر المستشفيات والمصحّات وبعض مراكز العلاج، لكن المؤكّد أنه منذ مطلع القرن العشرين صارت العيادات الطبية والمستشفيات الفرنسية تشهد على حضور 'العنصر الأهلي' للتداوي.

يمكن أن نقرأ في هذا السياق تقرير الطبيب 'إدموند فيدال' (Edmond Vidal) عام 1909م، الذي أشار إلى إقبال الجزائريين على التطبيب لدى مراكز الصليب الأحمر الفرنسي، بمساهمة مناضلات 'اتحاد نساء فرنسا' (UFF) فرع الجزائر العاصمة، ومن بين ما كتبه: "سرعان ما شعر الأهالي بقيمة هذا العمل، عندما يقضي أطباؤنا وممرضاتنا وقت دون حساب في تخفيف ألمهم، ومع قدوم أول مريض يوم افتتاح عيادتنا، قدّم في اليوم الموالي العديد من الأهالي أنفسهم، وكان عددهم في ازدياد كل يوم، لقد عاجلنا 220 أهلياً من بينهم 116 امرأة، وتمّ تنفيذ 31 عملية جراحية. اسبحوا لي أن أرفض بشدّة تلك الأحكام المسبقة التي تقول أنّ المرأة الأهلية ترفض العلاج لدى الطبيب الفرنسي، ولا تسمح بفحصها إلا إذا رأت امرأة (طبيبة أو ممرضة)، ممرضاتنا يخرننا أنّهنّ يقدمن الاستشارات الخاصة بكلّ الأمراض العامة والخاصة أمراض النساء، وتحضرها نساء أهليات من جميع الأعمار، اللواتي يتقبّلن جميع طرق الفحص والعلاج لدينا، إنّها تجربة حيوية حين تتمّ رعاية الأهلي رجلاً أو امرأة، فهم يعترفون بالتفاني والعلم لأطبائنا المدنيين وممرضاتنا، ويقبلون رعايتنا؛ بل إنّهم يبحثون عنها، ويقبّلون اليد التي تضمّد جراحتهم"¹.

¹ - Edmond Vidal : **Rapport sur l'exercice de 1908-1909**, (assemblée générale du 2 juin 1909 Croix Rouge Française ; Union des Femmes de France), Imp. Orientale Pierre Fontana, Alger, 1909, p.13.

وفي أواخر القرن التاسع عشر (1895-1899)؛ قامت الطبيبة 'دوروثي شيلبي' (Dorothee Chellier)¹، بأربع رحلات إلى منطقتي الأوراس والقبائل² في إطار مهمة طبيّة؛ بتكليف من الحاكم العام الفرنسي 'كامبون' (Campon)، وعادت بانطباعات دوّنتها في تقرير منشور تحت عنوان: 'ملاحظات طبيب مرسل في مهمّة عند النساء العربيات'³.

تقول هذه الطبيبة أنّها لقيت القبول والترحاب من طرف سكان الأوراس، وكانت مهمّتها أيسر من مهمّة الأطباء الرّجال الذين عاصروها أو سبقوها: "كنت منبهرة بحرص المرضى على أخذ علاجاتي، والثقة التامة في العلاج المقرّر لهم، والتأثير السريع الذي يمكن أن تُحدثه على عقولهم. لا يجب أن ننسى أنّه منذ الاحتلال كل جهودنا لإدماج العرب مازالت في مرحلتها الجنينية، التملّق أو الصرامة لا تأتي بأي نتيجة فعلية، العرب يرفضون كلّ محاولة لتحضّرهم (...). كنت أعرف أن السيد 'كامبون' يبحث باستخدام الأطباء؛ ليس فقط عن تزويد السّكان بالمساعدة والرعاية الطبية الصحيحة التي تقضي على ممارسات الأطباء التقليديين الذين يستغلّون سداحة أبناء دينهم؛ لكن أيضا بهدف تسريع عملية الإدماج"⁴.

ومن الانطباعات التي أبدتها 'دوروثي' عن المرأة الشاوية في الأوراس ذكرها أنّها تختلف عن المرأة العربية، "إذ يمكن الوصول إليها؛ فهي غير محجبة (من الاحتجاب في البيت) ولا ترتدي الحجاب، ولا تختفي عن نظرات الرجال، لكن كما في كلّ مكان؛ فهي ترفض تلقّي العلاج على يد طبيب ليس من جنسها (ذكر)، مهما يكن مسلم أو مسيحي، بينما تمنح ثقتها

¹ - دوروثي شيلبي (1860-1930): طبيبة ومساعدة في علم التشريح بمدرسة الطب بالجزائر العاصمة، كانت توفّع تقاريرها ومنشوراتها باسم 'شيلبي كاستيلي' نسبة إلى زوجها. أنظر:

https://data.bnf.fr/fr/12726874/dorothee_chellier/ تاريخ الاطلاع: 2020/04/29، سا: 12:37.

² - Clair Fredj : **Femme médecin en Algérie : journal de Dorothee Chellier (1895-1899)**, Ed. Belin, Paris, 2015, p.36.

³ - Dorothee Chellier: **Notes d'un médecin envoyé en mission chez les femmes arabes**, (Voyages dans l'Aurès), imp. Nouvelle J. Chellier, Tizi Ouzou, 1895, 39p.

⁴ - Ibid., p.p.5, 6.

التامة للمرأة؛ لهذا اعتقد أنه سيكون من مصلحتنا احترام العادات العربية، والولوج إلى المرأة عن طريق امرأة مثلها، ولتنجح هذه المهمة لا بدّ ألا تكون البعثات من رجال فقط"¹.

وختمت تقريرها بذكر الأمراض المنتشرة بكثرة بين النساء في منطقة الأوراس، ومنها مرض الزهري و الملاريا... فضلا على أن النساء الحوامل لا يتلقين أي رعاية صحيّة، شأنهنّ في ذلك شأن الأطفال الصغار، فالأمراض المصاحبة لفترة الحمل ولولادة منتشرة بكثرة بين النساء، كما ذكرت ممارسة المرأة الشاوية للإجهاض دون علمها بمنعه قانوناً².

لقد عادت هذه الطيبة بانطباع حسن عن المجتمع الأوراسي، عكس ما كانت تحاول أن تثبته بعض المصادر التاريخية الفرنسية التي تناولت الممارسات الطبيّة بالجزائر في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقد يعود هذا لكونها امرأة، وهذا يؤكّد أنّ الجزائري المحافظ كان يرفض الطبّ الأوربي؛ من منطلق العادات والأعراف التي تمنع الرجل الأجنبي من ولوج مجتمع 'الحريم'، دون أن ننفي خوف الجزائريين من الطبيب 'الرومي'، كل ذلك نتيجة الصورة النمطية التي ترسّخت عن الغازي المحتل؛ العنيف بطبعه والذي يحمل الشرّ والضرر.

وتطلعنا مصادر تاريخية أخرى على أنّ حالة الرّهبة لدى النساء الجزائريات من الطبيب الأجنبي لم تزُل تماماً، ففي الفترة بين 1901 و 1911 زارت 3096 امرأة حامل عيادة التوليد بالجزائر العاصمة، واللافت أنّه لم يكن من بينهنّ سوى 99 امرأة 'أهلية'، وربّما هو ما دفع الطبيبتان: 'م. روفيي' (M. Rouvier) و 'أ. لافونت' (A. Laffont) لكتابة مقال ضمن 'نشرة جمعية التوليد وأمراض النساء' الصادرة بتاريخ 18 جوان 1912م، ورد في

¹- Ibid., p.7

²- Ibid., p.38.

ثناياه: "المرأة الأهلية لا تحبّ زيارة المستشفى؛ لاعتقادها أنّه المكان الذي ستعرض فيه للجراحة 'الولادة القيصرية'، أو يكون مصيرها الموت"¹.

هذه الذهنية بدأت تتغيّر قليلاً، ففي عقد العشرينيات ومطلع ثلاثينيات القرن العشرين، عرفت عيادة التوليد الفرنسية بالجزائر العاصمة توافد مزيد من النساء 'المسلمات'، فقد بلغ عدد اللواتي طلبن استشارة طبية قبل الولادة 75 امرأة عام 1926م، ليصل إلى 460 امرأة عام 1932م، كما شهدت هذه السنة الأخيرة تنظيم ما سُمّي آنذاك بـ'المساعدة على التوليد بالمتزل'، وهي خدمة كانت ملحقة بمراكز العلاج المدرسية، وتتولاها ممرضات أهليات وفرنسيات تم تكوينهنّ لهذا الغرض².

وإذا كانت بعض فئات المجتمع الجزائري في الجزائر العاصمة وضواحيها قد بدأت تتقبّل شيئاً فشيئاً الطبّ الأجنبي، خاصة بعد الحرب العالمية الأولى، حيث عرف ارتفعت نسبة الوعي لدى الفرد الجزائري، لكن نظرة الجزائريين -سيما في الأرياف والمدن الصغيرة- للطب الاستعماري لم تتغيّر كثيراً، ففي عام 1935 كتب أستاذيّ طبّ التوليد في مدرسة الطب بالجزائر العاصمة: 'هنري فيلكوني' (Henri Fulconis) و 'أميدي لافونت' (Amédée Laffont): "بما أننا لم نلج بعد إلى أعماق القرى، كلّ الإمكانيات التي يمكن أن للعلم أن يضعها تحت تصرف المرأة الأم التي تعاني، وأعمالنا الحضارية في هذا البلد تبقى تحتوي على ثغرات"³.

كما كتب 'مارسيل بوريل' (Marcel Bourrel) عام 1937م في كتابه: 'المساعدة على التوليد في الجزائر' (L'assistance obstétricale en Algérie) عن

¹ - Khacer Hanafi: *La femme indigène à la maternité d'Alger*, Thèse de Doctorat en médecine, Université d'Alger, Juin 1936, pp.13-14.

² - Ibid, p.19.

³ - Claire Fredj: «Encadrer la naissance dans l'Algérie coloniale. Personnels de santé et assistance à la mère et à l'enfant 'indigènes' (XIXe-début du XXe siècle)», *Annales de démographie historique*, 2011/2, N°122, p.169-203.

العقبات التي تواجه الرعاية الصحية للمرأة؛ من بينها: "التنوع العرقي والأخلاقي، الإبقاء على تطبيق أحكام القرآن إلى جانب القانون الفرنسي، وأهم عقبة هي الوضعية المتدنية للمرأة العربية"¹.

وكتبت السيّدة: 'مادلين إيبازين' (Madeleine Ibazizen) عن ذكرياتها في سنوات الثلاثينيات والأربعينيات في مداشر وقرى العمق الجزائري، حيث عملت ممرضة وقابلة، وقالت أنّ 'الأهالي' صاروا يلجؤون إلى المستشفى الفرنسي في حالة تعسر الولادة فقط، وأنّ الثقة بدأت تترسخ بين الطبيبة أو الممرضة الفرنسية والنساء الأهليات، حيث صارت تُستدعى في منتصف الليل أو في عزّ حرارة الصيف للمساعدة في توليد امرأة، مثلما حدث معها في 14 أوت عام 1943م².

لقد مثل الطب أحد المجالات التي عبّرت عن مقاومة المرأة الجزائرية سلمياً للاحتلال الفرنسي، وعن مدى استشراء الجهل والامية في أوساط الجزائريين، وقد شكّل في الوقت نفسه خيبة أمل أخرى لدعاة الاندماج، مع أنّ إدارة الاحتلال حاولت استغلال الحاجة الماسّة لدى الجزائريين للعلاج لتمرير مشاريعها الاستيطانية، والتوغّل عن طريق الخدمة الصحية إلى عمق المجتمع المحليّ، بهدف فهمه ثم السيطرة عليه، وتوجيهه بما يخدم ويحقق أهدافها.

4-3- تعليم البنات الجزائريات بين المنع والإهمال:

لعبت الظروف المحيطة المجتمع الجزائري بعاداته وتقاليده المحافظة، دوراً مهماً في تدهور المستوى الثقافي للمرأة، وقد أدّى رفضُ غالبية الجزائريين للمستعمر وثقافته الغربية عنهم؛ إلى اعتراضهم بشدّة على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى المدارس الفرنسية على قلتها، هذا الموقف أثار

¹ - Ibid.

² - CDHA: Archives Ibazizen: La femme kabyle, Cote : 305 FAT-b.

سخط بعض المثقفين والمؤرخين من أمثال 'لويس ميو' (Louis Milliot)، الذي أرجع هذا الموقف إلى جهل الشعب وتخلّفه، وذهب إلى أبعد حد في تشنيع موقف الأهالي برفض تعليم البنات الجزائرية تعليماً فرنسياً حين كتب: "إنّ القليلات من هؤلاء البنات خاصة اليتيمات اللائي تحصلن على التعليم الابتدائي والتربية الفرنسية، لا يستطعن التزوُّج من أبناء جنسهن (...). وبصعوبة تتزوج من أوربي بسبب التعصب الجنسي من طرف عائلاتهن وينتهي بهنّ الحال إلى اعتزال المجتمع أو السقوط في الرذيلة"¹.

ويبدو أنّ مهمّة بعض الفرنسيين لإقناع الجزائري بإرسال أولاده إلى المدرسة الفرنسية كانت فعلاً عسيرة وشاقة خاصة الفتيات، ويمكننا هنا الاستشهاد بما صرحت به السيدة 'أليكس' في عام 1845م، هذه الأخيرة تخلّت عن تلاميذها الأوربيين لتتفرغ لمهمتها الجديدة: "لقد تجوّلت في المناطق العربية الداخلية وتحدثت إلى جميع العائلات عن غاييتي ونواياي وعن الأمانة التي ألقاها الله على كاهلي، لقد كنت أرفق كل زيارة بهدايا وصدقات وإكراميات أقدمها بسخاء، وأكدت بصفة خاصة على احترامي لدين هذه البلاد، ووعدت العائلات بأنني سأقدّم للإناث المنحة نفسها التي كانت تقدّم للذكور، والمقدّرة بفرنكين اثنين في الشهر، وهو أمر كلّفني ما كلّفني من السعي والزيارات والأدعية والصلوات! كل شيء غريب هنا، كل شيء يحرف الأفكار الأكثر بدهاة؛ فليس سهلاً على أي أوربي غريب عن إفريقيا أن يهضم فكرة أنّ المعلّمة وجدت نفسها مُجبرة على أجر التلميذات عوض أن تكون هي المأجورة من قبلهن، وكل هذه الجهود والشروحات تُوجت باستقطاب أربع تلميذات ثم ثلاثة عشر تلميذة، اثنتان منهن فقط كانتا ميسورتني الحال، أما الأخريات فكانت حالتهم تُنبئ بفقر مدقع، وهو ما يعني أنّ ما كنا نقوم به إنّما هو إيواء البؤساء"².

¹ - Louis Milliot : la femme musulmane au Maghreb, « Maroc, Algérie et Tunisie », (S.E), Paris, 1909, p.p.287-290.

² - إيفون تيران، المرجع السابق، ص.ص.59، 60.

وهكذا إذن؛ لم يلتحق بمدرسة هذه المعلمة رغم جهودها المضنية؛ سوى البؤساء ولا أثر فيها للأغنياء، والبيت الذي سمته 'بيت الله أو بابه' وكما وصفه 'الكونت غويو' منذ البداية بأنه: "أقرب ما تكون إلى مؤسسة خيرية منها إلى مدرسة، حيث يتم توزيع الخبز والثياب والفرش (...). تلکم هي مدرسة الفتيات المسلمات"¹.

يمكن القول أن جلّ الأسر الجزائرية آثرت بقاء بناتهنّ في البيت محرومات من التعليم، وقلة قليلة من العائلات الميسورة خصّصت معلّما أو مربيا لبناتهما، ورغم الظروف الجديدة فقد استمرت العائلات في المدن على إقراء بناتهما في الكُتّاب، ولكن بُندرة، يقول 'جون موريل': "إنّه كان من النادر عند زيارته للجزائر أن تجد المعلّمت الخصاصيات للبنات، كما كان الحال في الماضي، ووصف المرأة عندئذ بأنها جاهلة". وتؤكد السيدة 'بروس' سنة 1849م، أنّه كان لا يُسمح للبنات بالخروج إلى الكُتّاب لحفظ القرآن، وأن الكُتّاب (المسيد) كان خاصا بالبنين، أما التعلّم فكان استماعيا (...). وقلّما وجدنا المرأة التي تكتب أو تؤلّف أو تعبّر عن علمها بقلمها².

إنّ عادة منع الفتيات من الخروج كانت هي العادة الغالبة في المجتمع الجزائري، وحرمان البنات دون الذكور من التعليم القرآني كان شائعا منذ العهد العثماني، ولم يكن الآباء يسمحون لبناتهنّ بالالتحاق بالكتاتيب، وقد دفعتهنّ قداسة القرآن في نفوسهم وحبّهم له إلى الإشراف بأنفسهم على تعليم بناتهنّ قصار السور، ففي منطقة ندرومة (تلمسان) مثلاً "لم تستقطب كتاتيبها البنات للتعليم، وخصوصا في البوادي، وكان الآباء والإخوة والأجداد هم الذين يتولّون تثقيف البنت في المنزل، يحفظونها ما تحتاج إليه في الصلاة من القرآن، وقد تحفظ منه أجزاء تقلّ أو تكثُر على حسب حرص الآباء و كسلهم، أو على حسب فراغهم أو

¹ - المرجع نفسه، ص61.

² - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص.339، 340.

انشغالهم بالأعمال، كما يتفقونها في أمور دينها، وكلّ ما تحتاج إليه من أمور الشرع: التوحيد، العبادات والأخلاق الفاضلة"، وهي عادة قديمة منذ القرن الثالث الهجري¹.

لقد اجتمعت عدّة عوامل جعلت من تعليم البنات في جزائر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين شبه منعدم، فرفض الأولياء المسلمين ارتياد بناهم المدرسة الفرنسية، زاده سوءاً مُعارضة المعمّرين الأوربيين لأي مبادرة جادة لإقرار التعليم لصالح أبناء 'الأهالي' الجزائريين، وكانت أصوات المعمّرين ترتفع دوماً للتحذير من أي مسعى في هذا الاتجاه؛ أي تعليم الجزائريين مهما كان نوعه، سيكون خطراً على مستقبل الاستيطان الأوربي في الجزائر؛ لأنّه سيفتح أبواب المطالبة بالحقوق السياسية والمدنية، وسينير عقول الشباب الجزائري ويفتح له الآفاق لطلب الانعتاق من سيطرة المستوطن الأوربي، وسيهدّد الاقتصاد الاستعماري القائم على الزراعة وتسخير 'الأهالي'، وقد يؤدي إلى انهيار المقاومة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر.

وهكذا بقي الاهتمام الفرنسي بتعليم الإناث المسلمات ضعيفاً، فإلى غاية سنة 1909م، لم يتجاوز عدد المدارس المخصصة لتعليم البنات 18 مدرسة، ضمت 3300 تلميذة، ويرى 'لويس ميوا' أنّ أغلب البنات المتحقات بالمدارس كنّ من اليتيمات اللواتي كان أولياؤهن يرغبون في التخفيف من أعبائهن المالية ببعثهن إلى المدارس، هذا الحال هو ما جعل مطالب تعليم البنات تنتقل من المدن الكبرى لتشمل المناطق الأقل أهمية، بل وصلت حتى إلى الدواوير، وحسب مدير التربية 'آرديون'، فإنّ هذه المطالب اشتدّت في هذه الفترة بالخصوص (قبيل الحرب العالمية الأولى)، ومع هذا فالجانب الفرنسي لم يقدّم أيّ واجب حيال تثقيف البنات الجزائريات، رغم أنّ تقرير أعدّه 'كولون' (Le rapport coulou) في الفترة 1914-1918م، يشير إلى بعض الارتفاع في نسبة المتعلّقات الجزائريات في المدارس

¹ - عبد الرحمان بن أحمد التيجاني: الكتابات القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977، د.م.ج، الجزائر، 1983، ص23.

الفرنسية، لكن يبدو أنّ ذلك حدث في ظروف استثنائية، ارتبطت بالجانب العسكري، ونشوب الحرب العالمية الأولى، حيث استغلّت البنات الجزائريات في أمور لا تفيدهن، بتعليمهن أعمال الخياطة والنسيج، لسدّ احتياجات الجنود الفرنسيين من الملابس¹.

إنّ الحديث عن تعيّر طفيف في نظرة الجزائري للمدرسة الفرنسية، ومطالبة بعض الأعيان بالسّماح لبناتهم بارتياح المدرسة والحصول على قدر من التعليم والثقيف؛ لا يعني أنّ التعليم الفرنسي أصبح مطلباً ملحاً، إنّنا نتحدّث عن فئة قليلة أدركت أهمية التعليم للبنات والبنين، وسعت من خلال التحاق أبنائها بالمدرسة الفرنسية إلى تقليد الأوربيين ربما في تعليم أبنائهم، وإلى تحقيق غاية أخرى، وهي ضمان استمرار مكانتهم الاجتماعية والحظوة التي يتمتّعون بها لدى الإدارة الفرنسية، وهذا يمرّ عبر حصول أبنائهم وأحياناً بناتهم على قدر كافٍ من التعليم الفرنسي يسمح لهم بالحصول على وظيفة لدى الحكومة الفرنسية، بينما الغالبية العظمى من الجزائريين بقيت مُقاطعة للمدرسة الاستعمارية، أو تنظر للمسألة بتوجّس وريبة خاصة حين يتعلّق الأمر بالتعليم المختلط بين الأطفال الجزائريين والفرنسيين.

لقد طرحت مشكلة أخرى؛ إلى جانب حرمان البنت المسلمة من التعليم من طرف أهلها، فضلاً عن الظروف القاسية التي لا تسمح لها بمواصلة تعليمها، إنّها مشكلة العادات والتقاليد الاجتماعية التي تجبر الفتاة على التزام البيت بمجرد ظهور علامات البلوغ الأولى عليها، ثم دفعها إلى معترك الحياة الزوجية في سنّ مبكرة، تروي 'علجية بن علاق نور الدين' في مذكّراتها؛ وهي أوّل طبيبة جزائرية في العهد الاستعماري؛ مدى معاناتها مع والدها سنة

¹ - عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص.ص 220-222.

1924م، من أجل تسجيلها في مدرسة فرنسية، وعندما لم يكن له الخيار، أثر تسجيلها في مدرسة للتعليم المهني مخصصة للبنات 'الأهليات' فقط¹.

أما ظاهرة 'التسرب المدرسي' لدى الفتيات الجزائريات؛ فيمكن أن نستشفها من إحصائيات الحاصلين على شهادة التعليم الفرنسية خلال سنوات الثلاثينات من القرن العشرين، فمن مجموع 522 فتاة في الفترة 1931-1938م؛ كنّ يزاولن دراستهنّ في المدرسة الابتدائية الفرنسية، وحصلن على شهادة الدراسات الابتدائية (C.E.P.E)، نجد أنّ 28 تلميذة فقط حصلت على شهادة التعليم المتوسط (B.E)، و 12 فقط حصلن على شهادة التعليم المتوسط الأساسي (B.E.P)، وثلاث طالبات فقط حصلن على شهادة التعليم الابتدائي العالي (B.S)².

ولم يكن حال البنات الجزائريات مع التعليم العالي الجامعي أفضل في الجزائر، فإهمال تعليم الإناث في الأطوار الابتدائية والمتوسطة والثانوية؛ كانت نتيجته الطبيعية تغييب البنت الجزائرية عن التعليم العالي ودخول الجامعة الوحيدة آنذاك؛ جامعة الجزائر، وتشير إحصائيات سنة 1936م إلى 99 فتاة فقط متمدرسة في الطور الثانوي مقابل 3721 فتاة أوربية و 45 تلميذة أجنبية، وهو ما أدى إلى عدم وجود أي طالبة مسلمة بهذه الجامعة إلى ذلك الوقت؛ مقابل 538 طالبة أوربية وأربع طالبات أجنبيات (؟)³.

هذه الإحصائيات تعكس مدى الإهمال الفرنسي لتعليم البنات الجزائريات، وتعبّر عن التضييق والحرمان الأسري الذي سلّط على البنت في هذا المجال، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ

¹ - Ryme Seferdjeli: «La politique coloniale à l'égard des femmes 'musulmanes'», In. (Abderrahmane Bouchène et al., Histoire de l'Algérie à la période coloniale), La Découverte, 2014, p.p.359-363. Voir: <https://www.cairn.info/histoire-de-l-algerie-a-la-periode-coloniale--9782707178374.htm> Consulté le 05/05/2020 à 18 :52.

² - سميرة نقادي، المرجع السابق، ص102.

³ - «L'enseignement en Algérie», L'Echo d'Alger, 11 Juillet 1937.

هذه الأرقام خاصة بالفتيات المحظوظات من بنات الأعيان والقياد ممن كنّ يُسمح لهنّ بالالتحاق بالمدرسة الفرنسية¹، أما بنات عموم الجزائريين، فقد استشرى الجهل والامية في عقولهنّ؛ إلاّ قلة قليلة كانت لهنّ فرصة في حفظ قصار السور القرآنية بفضل التعليم القرآني، وتعلّم بعض مبادئ القراءة والكتابة من خلال الالتحاق بمدارس التعليم العربي الحرّ الذي حرصت جمعية العلماء على تشجيعه لصالح البنت المسلمة، وانتشر عبر ربوع الجزائر.

ربّما حاولت فرنسا استدراك الوضع في مسألة تعليم أبناء الأهالي من خلال 'مخطط فيار' (Viard)²، هذا المخطط الذي جاء بناء على المقترحات المقدّمة في مذكرة المندوب المالي 'بن قانا'، والتي كان من بينها: وضع حلول للفتيات الأهليات المتمدرسات واللواتي تركن مقاعد الدراسة قبل الحصول على الشهادة الابتدائية، ولكن الملاحظ هو بقاء نسب التلاميذ المتمدرسين من أبناء الأهالي ضئيلة جدا مقارنة بعدد السكان، وكذلك الحال بالنسبة للإناث اللواتي بقيت أعدادهن تتراوح ما بين 19 ألف و 21 ألف تلميذة في الفترة 1939-1945م³. ولعلّ الهدف الحقيقي من وراء وضع هذا المخطط، كان التوصل إلى تحقيق نوع من التوازن مع التعليم العربي الحرّ؛ في ظلّ المنحى التصاعدي لعدد المدارس العربية الحرّة التي كانت تشرف عليها جمعية العلماء.

لقد ضربت الأمية بأطنابها في أوساط المجتمع النسوي الجزائري، وقلة قليلة جدّا من النساء حظين بفرصة ولوج المدرسة وتعلّم مبادئ القراءة والكتابة، حالهنّ في ذلك أسوء من

¹ - أشارت الطبيبة 'دوروتبي شيلبي' إلى شابة عمرها 17 سنة؛ تولّت الترجمة لها خلال مهمتها بالأوراس، وهي ابنة 'مرابط' من 'المعذر' يشتغل في مزرعة فرنسية، وذكرت أنّها تتراد المدرسة الفرنسية منذ ست أو سبع سنوات. أنظر: Dorothee Chellier, Op.cit, p.p.9-10.

² - بول إيميلي فيار (Paul-Emile Viard) (1902-1984): أستاذ القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة الجزائر منذ عام 1943، ونائب عن الجزائر العاصمة بين عامي 1946 و 1951م. أنظر:

تم الاطلاع بتاريخ: 2020/04/13، السا: 18:34. https://data.bnf.fr/fr/10458546/paul_viard/

حول هذا المشروع والمقترحات المقدّمة من طرف 'بن قانا' يُنظر: Ali Ajgou, Op.cit, pp ; 144-146

³ - سميرة نقادي، المرجع السابق، ص.ص 134، 138.

حال الرجال، فمن بين 140 ألف جزائري متعلّم تعليماً عربياً؛ لم يزد عدد الإناث 22 ألف، أما المتعلمين تعليماً فرنساً فقدّر عددهم بـ 153 ألف رجل مقابل 33 ألف امرأة، في حين كان مزدوجي التعليم (عربي-فرنسي) يقدرّون بـ 68 ألف رجل مقابل 11 ألف امرأة، بنسبة لم تتخطى في كلّ الأحوال 3%¹.

وتشير الإحصائيات الفرنسية الرسمية الخاصة بالتعليم الابتدائي في الموسم الدراسي 1953-1954 إلى نسب متدنية لتعليم أبناء 'الأهالي' الجزائريين، خاصة بين البنات الإناث، رغم التحوّلات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها المدن الجزائرية الكبرى في هذه الفترة؛ وارتفاع مستوى الوعي السياسي لدى عموم الجزائريين؛ إلا أنّ ذهنية الأب الجزائري في حرمان ابنته من التعليم مازالت مُسيطرّة، وهو ما يوضّحه الجدول التالي² (بتصرف):

عدد الأطفال الجزائريين المتدرسين		عدد الأطفال الأوربيين المتدرسين		العمالات
ذكور	إناث	ذكور	إناث	
77956	27014	24115	22311	الجزائر العاصمة
52332	24566	27984	26770	وهران
79835	22105	11585	10649	قسنطينة

جدول رقم 02: أعداد الأطفال الأوربيين والجزائريين المتدرسين موسم 1953-1954

لقد عبّرت الأرقام المدرجة في الجدول أعلاه عن نسب متقاربة بين الذكور والإناث المتدرسين من أبناء المعمّرين الأوربيين، وهو ما يعكس حالة التوازن بين الجنسين وإتاحة الفرصة أمام البنت الأوربية للتعلّم مثلها مثل الذكر، بينما يبدو الاختلال واضحاً بين نسب البنين والبنات المتدرسين من أبناء المسلمين الجزائريين، فأعداد الأبناء الذكور ضعف أعداد الفتيات، لكن هذه النسب تبقى ضعيفة بدورها إذا أخذنا بعين الاعتبار نسبة الجالية الأوربية

¹- Ali Ajgou, Op.cit, p.227.

²- ANOM, 81 F 1137: Académie d'Alger: Nombre des élèves inscrits année scolaire 1953-1954, 5 Novembre 1953.

المستوطنة في الجزائر بالمقارنة مع السكان الأصليين في ذلك الوقت، وهكذا ففرص تعليم البنات الجزائريات مقارنة بنظيرتهنّ الفرنسيات بقيت ضعيفة جداً، وعانت البنات الجزائرية المسلمة من التمييز سواء مع أخيها الذكر أو أمام نظيرتها البنات الأوربية.

بعد عقود طويلة من إهمال تعليم الأهالي بشكل عام وتعليم الإناث؛ يبدو أن فرنسا أدركت مدى أهمية منح الفرصة لبنات الأهالي لنيل تعليم بعد مرحلتي الابتدائي والمتوسط، إلى مرحلة التعليم الثانوي ثم العالي، ومع أن سياستها في جوهرها لم تتغير؛ بإبقائها على هذا النوع من التعليم خاص بفئة خاصة من بنات الأعيان والوجهاء من أعوانها؛ مثلما هو الحال مع النخبة من أبناء هذه الفئة، إلا أنها انتبهت إلى أهمية إنجاز مشروع ثانوية فرنسية-عربية للبنات المسلمات، سيما بعد أن شعرت بالخطر الذي صار يمثله المشروع الإصلاحية، الذي بدأت ثماره تتجلى في نخبة نسوية جديدة من خريجات مدرسة دار الحديث بتلمسان، ومعهد ابن باديس بقسنطينة، وكذا الدور الذي بدأت تلعبه المرأة الجزائرية ضمن المسار النضالي للحركة الوطنية، حيث أصبح صوتها مسموعاً من خلال الجمعيات والأحزاب.

وهكذا طُرح مشروع ثانوية للبنات الجزائريات عام 1953م، وكانت ضمن مناهجها تعليم اللغة العربية بشكل مدروس للفتيات، وإعداد برنامج خاص لهنّ بهدف ترسيخ الثقافة وقيم الحضارة الغربية في أذهانهنّ، وتكوينهنّ الأخلاقي وفق نمط الحياة الفرنسية المعاصرة؛ لإعداد جيل من الفتيات 'الجيدات' مزدوجات الثقافة، اللواتي يمكن أن يكنّ زوجات مثاليات للشباب الجزائري المتفرنس، أما الغاية فهي مزاحمة جمعية العلماء في مجال التعليم العربي للبنات، وبالموازاة مع ذلك اقترح صاحب المشروع رفع أعداد التلميذات التي يتابعن دراستهنّ في الثانويات المختلطة عبر القطر الجزائري، وقد حُدّد السنّ الأعلى للقبول بهذه الثانوية بـ 17 سنة¹.

¹- ANOM, 91 4I 189: Note sur le projet de création à Alger d'un lycée d'enseignement franco-musulman de jeunes filles, Alger, Mai 1953.

4-4- المسرح... ميدان آخر لمقاومة المرأة للاحتلال:

كان المسرح وسيلة جدّ فعّالة لنشر الوعي بين صفوف الجزائريين، ولعلّ الشخصية الأبرز في هذا المجال هي شخصية: 'محي الدين باشطري'، الذي لقيت أعماله رواجاً قلّ نظيره في الجزائر والوطن العربي، وهو ما جعل سلطة الاحتلال الفرنسي تشدّد الرقابة على القطع المسرحية التي كان تقدّمها الفرق المسرحية الجزائرية، واللافت للنظر هو حضور المرأة الجزائرية في هذا النشاط الثقافي ذو الأبعاد الاجتماعية والسياسية؛ فاعلة من خلال البنات اللواتي كنّ يقمن بأدوارٍ تمثيلية، ومتلقية بحضورها هذه العروض والاستمتاع بها، حيث تشير الوثائق الأرشيفية إلى العديد الأسماء النسوية التي احترفت العمل المسرحي في الجزائر، وكذلك إلى حضور النساء في العديد من المناسبات التي كانت تعرض فيها هذه الأعمال.

وكان 'الكوكب التمثيلي الجزائري' يتحف الجزائريين بأعماله الفريدة، بقيادة المناضل 'الشّباح مكّي'¹ أحد رواد المسرح الجزائري، ومنها الراوية التاريخية الحماسية الهزلية 'فرعون العرب عند الترك'، التي قدّمت بتاريخ 14 ماي 1938م بالجزائر العاصمة، بحضور 150 مشاهد من بينهم أكثر من 20 امرأة، حيث خصّصت قاعة للنساء، وكان ثمن الدخول بين 4 و 6 فرنكات فرنسية، أما الحضور فغالبية من أعضاء 'شبيبة المؤتمر الإسلامي' و 'نادي الترقّي'²، وقد سبق حضور الممثّلة المصرية 'فاطمة رشدي' إلى الجزائر حملة دعائية لافتة، حيث قدّمت روايات في قالب من الأشعار الغنائية، منها 'الصعيدية'، 'انتظار الحبيب'، 'الفتاة العصرية' و 'كليوباترا'، وهو الأمر الذي أثار اهتمام جواسيس الإدارة الفرنسية ومخبريها الذين قاموا بترجمة بعض هذه الأعمال ضمن تقاريرهم عن هذا الحدث الاستثنائي في ذلك الوقت.³

¹ - يُنظر: الشّباح مكّي: مذكرات مناضل أوراسي، تق. عبد الحميد بن الزين، مطبعة بن الزين، الجزائر، 1986.

² - ANOM, 2 I 44: Préfecture d'Alger: Tournées théâtrales Mahieddine, 16 Mai 1938.

³ - ANOM, 2 I 44: Préfecture d'Alger: Tournée Fatma Rochdi, 09 Juin 1938.

* خلاصات الفصل الأول:

لقد تقهقرت وضعية المرأة الجزائرية منذ وصول الفرنسيين سنة 1830م، ومع أنّ الحكومة الفرنسية زعمت التزامها باحترام الحالة الشخصية الإسلامية للجزائريين، إلا أنّ ذلك لم يجد طريقه إلى التجسيد في كثير من الأحيان بفعل العنف والهمجية الذين طبعوا فترة التوسّع الاستيطاني والسياسة القمعية التي انتهجها الفرنسيون.

إنّ الحكم بدونية وضع المرأة في الجزائر المستعمرة ليس مُطلقاً، إذ يجب النّظر أولاً إلى محيطها الاجتماعي و القبيلة التي تقطن وسطها، وإلى وليّ أمرها؛ من حيث المكانة السياسية والحظوة التي يتمتّع بها لدى الفرنسيين، وإلى وضعها الاقتصادي، والخلفية الثقافية والدينية لأسرتها، فوضع المرأة كان مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بطبقتها الاجتماعية التي تنتمي إليها.

لا يمكن الحديث عن أوضاع المرأة ثقافياً ودينياً في الجزائر المستعمرة، دون معرفة ودراسة مفهوم الاستعمار الثقافي، الذي هو في حقيقته 'سياسة استعمارية للجهل'، طبّقتها فرنسا على الجزائريين وتجلّت في أبشع صورها ومظاهرها، وعادت بالوبال على المرأة والمجتمع في الجزائر، فقد حُرّم تسعة أعشار الجزائريين من التعليم، وحتى التعليم 'الناقص' الذي تلقّته فئة قليلة من أبناء أعوان الإدارة الفرنسية، أدّى إلى مسخ هوية هؤلاء، وسحبهم من بيئتهم وقيم حضارتهم، وتركهم تائهين بين حضارتين دون تمكينهم من تحقيق تطلّعاتهم في الرّقي، ونيل حقوق المواطنة الكاملة ضمن إطار الأمة الفرنسية.

لم يقتصر الصراع بين المستعمر والمستعمر في الجوانب السياسية والعسكرية فقط، بل إن الصراع كان صراعاً ثقافياً (مواجهة ثقافية)، "لقد حدثت الصدمة بين المجتمعين بعمق، وبوعي أكبر، وأنّ الصراع الدائر حول المدرسة، وبدرجة أقل حول المستوصف يعدّ دليلاً على

ذلك...¹. فقد حوّل عدم التكافؤ بين الجانبين مواقف الجزائريين لرفض كل محاولات الفرنسية، وإلى مقاومة سلمية و'سلبية' تجلّت في مقاومة التنصير، ورفض التعليم الفرنسي، وعدم الإقبال على الخدمة الصحية والطبية التي يقدمها الطبيب والممرض الأوربي.

وبعد سنة 1870م بدأ التأسيس لإعادة البناء الاجتماعي في الجزائر، وشُرع في بعث المشروع الاستيطاني الثقافي للجزائر الفرنسية ضمن أطر الحضارة الغربية، وهكذا كان لا بدّ من طرح قضايا المرأة الجزائرية المسلمة، والأنظمة والقوانين والتشريعات 'الإسلامية' التي تحتكم إليها على طاولة التّقاش، وصار الخطاب الكولونيالي حول مكانة المرأة وموقعها؛ أكثر إلحاحاً وحضوراً في أدبيات الاستعمار.

¹ - إيفون تيران، المرجع السابق، ص 417.

الفصل الثاني:

صورة المرأة 'الأهلية' في ضوء الكتابات

الكولونيلية الفرنسية:

- المرأة الجزائرية في الفن الاستشراقي الاستعماري وأدبيات الرحلة.
- نظرة النخبة الفرنسية المثقفة للمرأة 'الأهلية' في الجزائر.
- صورة المرأة 'الأهلية' في الإثنوغرافيا العسكرية الكولونيلية.
- قضايا المرأة 'الأهلية' في الكتابات النسوية الفرنسية.

اهتمت الكتابات الكولونiale بموضوع المرأة 'الأهلية' والمجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وصدرت الكثير من الأعمال في شكل دراسات أنثروبولوجية و إثنوغرافيا عسكرية وأبحاث متنوعة، نعمل في هذا الفصل على التعريف بها واستنطاقها؛ بهدف توضيح الصورة التي رسمها الكتاب المدنيون والعسكريون والأدباء والمستشرقون والفنانون والرحالة عن المرأة الجزائرية، وكيف نظروا إلى عاداتها وتقاليدها ولباسها وزينتها، ونقلوا لنا حياتها اليومية، والقضايا التي تخصها من زواج وطلاق وتعدد زوجات وخلع وملكية وميراث، هذه الأعمال التي اهتمت أيضا بالمناسبات الدينية والاجتماعية والعائلية التي يكون للمرأة حضور فيها.

1- المرأة الجزائرية في الفن الاستشراقي الاستعماري وأدب الرحلة:

سبقت الصورة المبهرة عن المرأة الشرقية الاحتلال الفرنسي للجزائر بعقود من الزمن، وكان ذلك منذ الحملة الفرنسية على مصر في نهاية القرن الثامن عشر؛ لذلك فقد تمهات المستشرقون والفنانون والرحالة على الجزائر، فمنهم من رافق الحملة الفرنسية عام 1830م، ومنهم من جاء بعدها، وكان هدف الجميع واحد؛ ألا وهو استكشاف 'عالم الحریم'¹ الشرقي الذي كان له طابعه الخاص في الجزائر وشمال إفريقيا.

¹ - مشتقة من كلمة 'حرام' وهو الممنوع أو غير الشرعي في اللغة العربية والشريعة الإسلامية، ومكان الحریم؛ هو ذلك المكان الذي يمنع على الأجانب الدخول إليه، وقد أخذ تسمية: 'الحرملك' في العهد العثماني بالشرق العربي. للاستزادة يُنظر: لين ثورنتون: النساء في لوحات المستشرقين، تر. مروان سعد الدين، (سلسلة البحث عن الشرق)، دار المدى للنشر، دمشق، 2007، ص21.

لقد ارتسمت في المخيال الغربي صورة مشوهة عن المرأة في العهد العثماني، وصار يُنظر إليها على أنها ذلك المخلوق المنعزل عن العالم، والخاضع تماماً لسلطة الرجل، ودأبت الكتابات التاريخية الحديثة على إرجاع الفضل في تحريرها إلى 'مصطفى كمال أتاتورك'. لكن المصادر التاريخية المنصفة تذكر بأن المرأة في الدولة العثمانية كانت تتراد الحياة العامة وتُمارس التجارة وغيرها من الأنشطة، وتشارك في الحكم وفي اتخاذ القرارات السياسية.

لقد لعب الفنانون المستشرقون دوراً مهماً في إغراء عموم الأوربيين بالهجرة إلى الجزائر بعد احتلالها، وفي الدعاية للمشروع الاستيطاني الفرنسي بالجزائر، كما استفاد الفنانون والرسّامون مادياً ومعنوياً من لوحاتهم التي جسّدت المرأة الجزائرية ومجتمع 'الحریم'، حيث أخذت بعض هذه الأعمال بُعداً عالمياً، كما ظهر مجال آخر للفنّ الاستشراقي الاستعماري من خلال الصورة الفوتوغرافية للهواة والمحترفين من المصوّرین، ونسجّل أيضاً حضور المرأة في مدوّنات الرّحالة والمستكشفين الذين جابوا الجزائر من شمالها إلى جنوبها، وعبروا قبائلها وتلّها و صحراءها، واختلطوا بساكنتها، ودوّنوا مشاهداتهم عن نمط الحياة والعادات والتقاليد الاجتماعية.

1-1- مجتمع 'الحریم' الجزائري موضوعاً للاستشراق الكولونالي:

رافق الحملة الفرنسية على الجزائر منذ عام 1830م؛ عدد من المستشرقين والفنانين والرسّامين المغمورين والموهوبين¹؛ جرياً على تقليد حملة نابليون على مصر، وقد شكّل اهتمام الطبقة البورجوازية بمصالحها خارج فرنسا دفعاً قوياً للحركة الاستشراقية الفنية الرومانسية، وغدّت الجزائر بمثابة 'موضة' للعسكريين وأصحاب الأموال، كما أصبحت هذه الأعمال الفنية مصدر دعاية وترويج لجغرافية الجزائر وخصائصها الطبيعية والبشرية؛ بُغية إقناع عامة الفرنسيين وخصّتهم بضرورة استمرار السيطرة على الجزائر ومواصلة المشروع الاستعماري، وكان هؤلاء الفنّانين بمثابة المؤرّخين (الفنّين) للحملة

¹ - هناك من الرسّامين من عمل كمراسل حربي، بحيث يوثّق بريشته المعارك التي يشهدها، من بينهم: 'أدريان دوزا' (Adrien Dauzat) و 'هوراس فيرني' (Horace Vernet) الذي دوّن عدّة معارك، وكانت أولها لوحة: 'احتلال مدينة بونة' 'la prise de Bône'... وغيرها. يُنظر: يمينة منحرفيس: صورة المرأة الجزائرية في الفنّ الاستشراقي، رسالة ماجستير، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر3، 2011-2012، ص168.

الفرنسية من خلال تصوير مشاهد المعارك وغيرها¹، وما يؤسف له أنّهم كانوا يلجئون غالباً إلى تشويه الحقائق بهدف التأثير السيكولوجي على الشعب الفرنسي.

وإذا كان الرجال الأبيض (المنصرّين) قد ساروا خلف الجندي الغازي؛ فإنّ المستشرقين كانوا يسيرون أمام العسكري على حدّ وصف إدوارد سعيد²، وما إنّ انجلى غبار الحملة الفرنسية على الجزائر؛ حتى بدأت تظهر أعمال المستشرقين الفرنسيين التي تهتمّ بالمرأة الشرقية وعالم 'الحريم'³، أو 'الحريم الكولونيالي' كما اصطلح عليه 'مالك علولة'، هذا الأخير نظر في عدّة آلاف من البطاقات البريدية التي أنتجها الفرنسيون في الجزائر، والتي تصوّر النساء والعادات والتقاليد.. وعلى هذا النحو فرضت فكرة المرأة الحبيسة في منزلها، فإذا لم تكن رؤية النساء متاحة (لأنّهنّ محجبات)؛ فذلك لأنّهنّ سجينات⁴.

وهكذا تمّ التأسيس لرؤية استشراقية أسطورية عن المرأة في الجزائر؛ اعتبرتها من خلال الفنّ الكولونيالي 'بوابة الشرق الساحر'، ولعلّ أبرز هذه الأعمال التي نحت إلى هذا النحو؛ لوحات بعض الفنّانين على غرار 'دولاكروا' (De la Croix)⁵، الذي قدّم لوحته الشهيرة: 'نساء الجزائر العاصمة في مخدعهنّ' (femmes d'Alger dans leur

¹ - عميرايي حميدة وآخرون: آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)، (سلسلة المشاريع الوطنية للبحث)، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث.ن، الجزائر، 2007، ص.ص. 124-126.

² - محمد نجيب بوطالب: سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، (سلسلة أطروحات الدكتوراه رقم 41)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002، ص.36.

³ - جودي مايو: "تصوّرات الرخالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط"، تر. نائل ديب، مجلة الآداب الأجنبية، ع. 111، جويلية 2002، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص.ص. 24-44.

⁴ - Malek Alloula: *Le Harem Colonial: images d'un sous-érotisme*, Séguier éditions, Paris, 2001, 95 p.

⁵ - كان 'دولاكروا' ضمن البعثة التي أرسلها ملك فرنسا 'لويس فيليب' إلى المغرب؛ لإقناع سلاطها 'المولى عبد الرحمن' بعدم مساندة مقاومة الأمير عبد القادر، واتخاذ موقف محايد من الغزو الفرنسي للجزائر.

(appartement) سنة 1834م¹، والتي تظهر نساء جزائريات في بيتهنّ؛ محاطات بجدران الحريم (...). كما تبدو النسوة حزينات في عزلتهنّ، وفق ما لاحظته آسيا جبار².

أما في جانب الصورة الفوتوغرافية؛ فيؤرّخ لأوّل استخدام لها في الجزائر بعام 1850م، حيث وثّق المصوّر 'فيليكس جاكوي مولان' (Félix Jacques Moulin) بعدسته مآثر الجيش الفرنسي وانتصاراته، وإلى غاية سنة 1900م بدأت تظهر المرأة العربية في الصورة الفوتوغرافية كسلعة في سوق النخاسة والبغاء³.

لقد مثلت هذه الرسومات الوجه الآخر للعنف النفسي الكولونيالي الذي تجسّد في الصورة، يكتب 'مالك علولة': "يبدو أنّ الموضوع قد حفّز المصوّرين، وحظي بمعاملة خاصة في الجزائر، من الناحية التاريخية لا يوجد مثال عن مجتمع تمّ فيه تصوير المرأة كثيراً بقصد عرضها على الجمهور، هذه الحقيقة المقلقة والمتناقضة لا تمثّل مشكلة فحسب، على الرغم من الحجج الإثنوغرافية للتعدّد، والتحقّج بالرسوم التوضيحية للأنواع، وراء هذه الصورة (القائمة) للمرأة الجزائرية. لقد عبّرت هذه الرسومات عن النظرة الاستعمارية للمرأة 'الأهلية' التي تحمل عنفاً متعدّد الأوجه، حيث تُشارك البطاقة البريدية الاستعمارية في هذا العدوان وتُطيل آثاره، إنّهُ تعبير رمزي عن هذا العنف"⁴.

كما عبّرت هذه الصور الفنيّة عن شغف لدى المصوّرين باستكشاف هذا العالم المجهول، يدفعهم الفضول والبحث عن 'امرأة مختلفة' عن المرأة الغربية، وربّما دفعهم أيضاً البحث عن المنفعة المادية من وراء هذه الأعمال المصوّرة.

¹ - يُنظر الملحق رقم: 01.

² - سليم بنتقة: "حوارية النص والصورة، آسيا جبار قارئة لدولاكروا (نساء الجزائر في مخدعهنّ)"، مجلة المخبر، ع.10، 2014، جامعة بسكرة، الجزائر، ص.ص 87-97.

³ - Julia Clancy-Smith, Op.cit, p.p.27-28.

⁴ - Malek Alloula, Op.cit, p.11.

1-2- النساء الجزائريات في الفن الكولونيالي الاستشراقي:

كانت الحياة الاجتماعية ويوميات المرأة في شمال إفريقيا، محلّ اهتمام المستشرقين والكتّاب، وشغلت يومياتها وممارساتها على اهتمام العديد من الفنّانين الفرنسيين وغير الفرنسيين، كما ظهرت عدّة كتابات انطباعية حول ثياب المرأة وحليّها وزينتها، وعاداتها وطقوسها، وهناك من الكتاب من أفردَ دراسةً كاملةً لجانب من هذه الجوانب دون سواه، كالحلي والمجوهرات التي تتزيّن بها المرأة العربية والقبائلية خصوصاً.

لقد صوّر هواة الفنّ الاستشراقي؛ نساء الجزائر "داخل ذلك العالم الذي يطبقه الصمت والتأمل، كما لو أنّ عالمهنّ المعزول يعمل على قمعهنّ، وهو ما ظهر جلياً في لوحة 'هنري إيفينيوا' (Henri Evenepoel) سنة 1898 عن امرأة جزائرية"، لكن ليس بمظهر الكسل والكآبة كما في لوحة 'دولا كروا' سالفة الذكر، ورسم 'بول إيلي دييوا' (Paul-Elie Dubois) الذي قام برحلة استكشافية تاريخية إلى بلاد الشرق سنة 1928؛ سلسلة من اللوحات عن نساء الطوارق وهنّ يعزفن على 'الأمزاد' (Amzad)¹ أو الكمان، وكان يتمّ تدريب النساء اللواتي وُلدن في مجتمع تحكمه الأم ليكنّ شاعرات وموسيقيات، ورسم 'كاميل كوروا' (Camille Corot) لوحة بعنوان: 'شابة جزائرية تستلقي على العشب' سنة 1871، وهي موجودة الآن في متحف 'ريكز' في أمستردام².

لقد تركّزت أعمال الفنّ الاستشراقي الإغرائي³ على المرأة الجزائرية وحياتها الاجتماعية؛ مثلما فعل 'دولاكروا' الذي سعى إلى استحداث مسحة فنية جديدة في

¹ - آلة موسيقية توجد عند الطوارق دون سواهم، ويتمّ العزف عليها من طرف النساء فقط.

² - لين ثورنتون، المرجع السابق، ص.ص 26، 30، 31.

³ - الفنّ الاستشراقي الإغرائي أو 'إغواء الشرق' كما تصطلح عليه 'لين ثورنتون'. وقد عرفت الفترة من القرن الثامن عشر الميلادي إلى غاية مطلع القرن العشرين؛ ترسخ الانطباع في المخيال الأوربي من خلال حكايات ألف ليلة وليلة و'شهرزاد' عن عالم الشرق؛ بأنّه خيالي، شهواني وعنيف. يُنظر: لين ثورنتون، المرجع السابق، ص.5.

لوحاته ذات الألوان الدافئة، وكان حضور المرأة بارزاً في لوحاته التي ضمّنها مشاهد الزواج والحفلات في المجتمع الجزائري، كما كانت رسائله إلى أصدقائه منبع إغراء للهجرة والاستيطان بالجزائر. أما لوحات الفنان 'أوغيست روبر' (August Robert)؛ فقد شكّلت عروضاً هي الأخرى مغرية لكثير من الإقطاعيين والقادة العسكريين والسياسيين، فهو أوّل فنان مستشرق يتناول موضوع 'الجواري' و 'الحريم'؛ برؤية شوفينية حسيّة بتركيزه على 'العاريات'، وهتك أستار النساء العربيات المسلمات المقيّمات في خدور العفّة والحياء المحرّمة على الرجال الغرباء¹.

تظهر المرأة في جزائر القرن التاسع أيضاً في الرسوم الكاريكاتورية، حيث يستدعي الرسام والكاريكاتوري والكاتب القاص 'شام' (Cham)²، النساء المحجّبات في طابع ساخر، كما يكتب بسخرية عن النساء العربيات اللواتي يجدن أنّ أزواجهن لم يعودوا طيّبين منذ عودتهم من فرنسا³.

بعد عقود من الاحتلال؛ غادر هؤلاء الفنّانين أحيانا الفضاءات المغلقة إلى المجالات المفتوحة نوعاً ما، حيث تُظهر لوحة للفنان 'ألفرد شاتو' (Alfred Chataud) امرأة جزائرية تُعدّ الطعام على سطح منزلها، وفي لوحة 'جيل مونييه' (Jules Muenier) المسماة 'نساء الجزائر على السطوح' سنة 1888، تقوم إحدى الخادّات بتهيئة الجمر المتقد على المنقل قبل شواء السمك. وكان الجلباب (اللباس التقليدي) المكوّن من عدّة طبقات، والذي كانت ترتديه نساء شمال إفريقيا؛ ذا تأثير كبير على فنّاني القرن العشرين، أمثال 'برنارد بوتيه' (Bernard boutet)، 'مارسيل آكين' (Marcel Ackein)،

¹ - عميرايي حميده وآخرون، المرجع السابق، ص.ص 126-127.

² - Charles-Amédée-Henry de Noé (1818-1879). Voir:

<https://data.bnf.fr/fr/11895922/cham/> Consulté le: 21/05/2020 à 11:08.

³ - Sofiane Taouchichet: **La presse satirique illustrée française et la colonisation (1829-1990)**, Thèse de doctorat en histoire de l'art, Université Paris ouest Nanterre ; Université de Montréal, 2015, pp.75, 85.

'لوسيان سيمون' (Lucien Simon)...، أما نساء البدو والأرياف فيتركن وجوههن مكشوفة؛ إذ عليهنّ العمل بجدّ لكسب عيشهن¹. وفي رسم آخر يعود إلى لسنة 1866، يقدّم 'أوجين فرومنتان' (Eugène Fromentin) جزائريات بلباس طويل محتشم، ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين؛ رسم 'إيتيان (نصر الدين) دينيه' (Etienne Dinet) بشكل متكرّر فتيات يلعبن بسعادة في الماء، يرتدين عمامات ويضعن مجوهرات بأجساد تبدو عارية².

ونجد في أعمال بعض الرسّامين الفرنسيين تعبير عن مظاهر الفرح والابتهاج؛ بتصويرهم لحفلات الخطوبة والزفاف والختان... حيث رسم 'جيل توبان' (Jules Taupin) لوحة 'العروس ترتدي ملابسها، الجزائر' وتمّ عرضها سنة 1902. بمقرّ نقابة الفنانين الفرنسيين، وهي تُظهر شابة جزائرية جالسة، تنظر بإعجاب إلى صورتها في مرآة، كما فضّل فنّانون آخرون تصوير حفلات الزفاف بتفاصيل أدقّ، عكست مختلف الشعائر الدينية للمرأة، فقام 'فرومنتان' برسم لوحة النساء في طريقهنّ إلى صلاة الجمعة في جامع قرب الأغواط. كما عاجلوا موضوع الطلاق، وهو الحال مع لوحة 'دينيه' سنة 1921م: 'الزوجة المطلقة والزوجة المهجورة'، والموجودة في المتحف الوطني للفنون الجميلة في الجزائر العاصمة³.

صار 'نصر الدين دينيه' بعد إسلامه؛ مهتمّاً للغاية بالجوانب الروحانية للمرأة الجزائرية، فرسم لوحته: 'مسلمة تصلّي على سطح منزلها'، وهي منشورة في كتاب له عام 1918م، ورسم لوحة أخرى بعنوان: 'خروج مسلمة من جامع القرية' موجودة في متحف الفنون الغربية بمدينة طوكيو اليابانية، في حين تُظهر لوحة 'بئر سيدي بومدين

¹ - لين ثورنتون، المرجع السابق، ص.ص 33، 34.

² - المرجع نفسه، ص. 36.

³ - لين ثورنتون، المرجع نفسه، ص.ص 58-59، 98.

المقدّسة' سنة 1913 امرأة جزائرية داخل ضريح هذا الولي الصالح، وهذا يعكس اهتمام الفنّانين الفرنسيين بالمظاهر الدينية للمرأة المسلمة وعلى رأسها زيارة الأضرحة والمقابر، حيث يقول 'دنيه': "كل جمعة، وهو يوم الطاعة الدينية للمؤمن، يمضي خط طويل من النساء المحجّبات؛ يُرافقهنّ الأطفال إلى المقبرة، كأنهنّ صفّ من القصب على طول النهر، وتحب النساء المقبرة؛ لأنّها بالنسبة إليهنّ تعني تنفيساً مؤقتاً عن حالة العزلة الدائمة المفروضة عليهنّ... والدموع التي تذرّفها النساء على الراحلين تمنحهنّ أيضاً الراحة (النفسية) وتخلّصهنّ من الهموم"¹.

لقد كان هناك عدد كبير من الفنّانين في الجزائر أكثر من أي بلد مشرقي آخر، ولم يكن ذلك بسبب قربها من مرسيليا فحسب؛ وإنّما لأنّه انبثقت في مطلع القرن العشرين حركة فنيّة لعب فيها رسّامون غربيون مولودون في شمال إفريقيا دوراً فاعلاً، فكانت صور النساء الجزائريات التي رسمها هؤلاء تقليدية دائماً؛ لكنها نالت شهرة واسعة في أوروبا².

إنّ حياة العزلة ومسحة الحزن التي طبع بها روّاد الفن الاستشراقي الفرنسي صورة المرأة الجزائرية منذ بداية الاحتلال الفرنسي؛ حاول أن يخلّصها منها في نهاية فترة الاحتلال فنّان عالمي شهير هو: 'بابلو بيكاسو' (Pablo Ruiz Picasso)، حين رسم لوحته: 'نساء الجزائر' عام 1955م³، والتي أراد من خلالها تحرير المرأة الجزائرية من عالمها المغلق، خاصة وأنّ ذلك تزامن ذلك مع اندلاع الثورة التحريرية، وقد تبعها برسم بورتريه للمجاهدة 'جميلة بوباشا'، ولعلّ 'بيكاسو' أراد من خلال ذلك تحرير المرأة الشرقية من مخدعها الذي فرضه عليها 'دولاكروا' وغيره، والتعبير عن توق المرأة الجزائرية للحريّة التي سلبها الاحتلال؛ مثلما حاول أن يسلبها إيّاها بعض الفنّانين المستشرقين بريشتهم.

¹ - لين ثورنتون، المرجع نفسه، ص.ص 60-61.

² - نفسه، ص. 108.

³ - يُنظر: سليم بتقة، المرجع السابق، ص. 94.

1-3- المرأة الجزائرية في أدب الرحلة والاستكشاف الكولونالي:

من الصعوبة الغوص في كل الأعمال من هذا الصنف، لكثرتها وتنوع مجالات أبحاثها، كما أنها تتميز بالموسوعية أحياناً، وقد تطرح بعض المسائل المتعلقة بالمرأة ضمن سياقات مختلفة، أو تعرض لها في إطار الحديث عن جوانب أخرى تخص المجتمع والحياة في الجزائر، وفي المناطق التي مرّت بها هذه الرحلات الاستكشافية، و"من خلال هذه الدراسات التاريخية، يتبين لنا أنه توفرت شروط وعوامل كثيرة للفرنسيين، تمكّنوا بفضلها من توظيف التاريخ كأداة قوية للسيطرة، كما تمّت الاستعانة بالعلوم الأخرى، حيث اعتمدت كتب الرحلات والمذكرات التي دوّنها الأوروبيون خلال العهد العثماني، كمصادر أساسية بجانب المصادر العربية، وبذلك توفرت لديهم مادة خبرية عالية القيمة عن المجتمع الجزائري، فوظفوا كل تلك المادة في فهم تركيبة هذا الشعب، وفي التعرف على مواطن القوة وبواطن الضعف فيه، ووظفت هذه المادة كذلك في الطرق التي اتبعتها فرنسا في سياستها تجاه القضايا ذات العلاقة بين الجزائريين والدول العربية"¹.

من بين الأعمال البحثية التي جمعت بين الفن والتاريخ؛ أعمال الكاتب المسرحي وجامع التحف الفنية 'بول أودال' (Paul Eudel)²، التي عبّرت أيضاً عن الوله بعالم 'الحريم'³ وكل ما يحيط به ويلفّه من أسرار، وقد وضع 'أودال': 'معجم مجوهرات شمال إفريقيا' الذي صنّف فيه أنواع المجوهرات والحلي في الشمال الإفريقي، وأوردها وفق

¹ - عميراوي حميدة: من تاريخ الجزائر الحديث، ط.2، دار الهدى، الجزائر، 2004، ص10.

² - كاتب مسرحي ومهتم بجمع وتجارة التحف؛ عاش بين عامي (1837-1911م)، وحلّف الكثير من الأعمال، منها عدّة مؤلفات حول الجزائر: 'الحدادة الفضية الجزائرية والتونسية' (L'orfèvrerie algérienne et tunisienne) عام 1901، و رحلته 'من الجزائر العاصمة إلى بوسعادة' (De Alger à Boussaâda) عام 1904م، و 'شتوية في الجزائر' (Hivernage en Algérie) سنة 1909م. يُنظر الرابط: https://data.bnf.fr/fr/11901998/paul_eudel تاريخ الاطلاع: 2020/04/01، الساعة 19:15.

ترتيب أَلفبائي بالحروف الفرنسية، فنجد اسم الحلبي باللغة الفرنسية وما يقابله باللغة العربية، فضلاً عن صورة مرسومة لها بخط اليد، مع شرح مستفيض لتاريخ ومحلّ صناعتها ومناطق انتشارها، كما حدّد المؤلف سعر الحلبي بالفرنك الفرنسي في ذلك الزمن¹.

في كتابه الآخر بعنوان: 'صناعة المعادن الثمينة الجزائرية والتونسية' (L'Orfèvrerie Algérienne et Tunisienne)²، يورد الكثير من الانطباعات عن عادات النساء في هذه الصناعات الفضية الذهبية، وكيفيات تداولها وبيعها في الأسواق، وقيمتها الرمزية عندهنّ في العاصمة ومنطقة القبائل ووهران، ويرفق تعريف هذه المصنوعات بصور توضيحية لها. في حين قدّم في كتابه: 'من الجزائر العاصمة إلى بوسعادة' (d'Alger à Boussaâda)³، مشاهداته وذكرياته عن المجتمع الجزائري، ومنطقة 'أولاد نايل' خصوصاً التي زارها في رحلته، وعادة ما كان تركيزه على لباس المرأة الناييلية وحليّها وزينتها وأخلاقها، وعن النساء المرابطات ومنهنّ المرأة الشهيرة 'الالا زينب'.

أما في كتابه: 'شتوية في الجزائر' (Hivernage en Algérie) فقدّم 'أودال' صورة عن المرأة العربية التي لا تستغني عن حجابها؛ فهي حين تدخل مثلاً محلاً لبيع الحلويات تأبى تناولها في عين المكان حتى لا تكشف وجهها؛ بل تأخذها إلى بيتها⁴. ويذهب في نفس اتجاه كثير من معاصريه وسابقيه من الكتاب الفرنسيين، حين يعتبر أنّ المرأة عند العرب هي مبعث فخر للأغنياء ووسيلة عمل للفقراء، والعرب لا

¹ -Paul Eudel: **Dictionnaire des bijoux de l'Afrique du nord : Maroc, Algérie, Tunisie, Tripolitaine**, Ernest Leroux éditeur, paris, 1906, 259p.

²- Paul Eudel: **L'Orfèvrerie Algérienne et Tunisienne**, Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger, 1902.

³- Paul Eudel: **D'Alger à Bou-Saada**, ill. H. Audel, Augustin Challamel Editeurs, Paris, 1904.

⁴- Paul Eudel: **Hivernage en Algérie**, ill. Craponne Audel, Paris, 1909, p.p.08,10.

يعاملون النساء جيّداً؛ بينما هنّ محلّ احترام عند سكّان منطقة القبائل الذين يحبون العائلة¹. وقد سجّل في كتابه هذا الكثير من الانطباعات عن يوميات المرأة في الجزائر العاصمة؛ في منطقة القبائل وبعض مناطق الصحراء الجزائرية.

وقام الرّحالة 'لويس ريجيس' (Louis Régis) في حريف عام 1879 برحلة إلى بسكرة انطلاقاً من قسنطينة، وسجّل (تحت اسم مجهول) ذكرياته عن نساء 'القنطرة' وعاداتهم وصفاتهم ولباسهم وشغلهم، وكذلك عن نساء مدينة بسكرة، وخاصة نساء 'أولاد نايل' الذين يقطنون جنوب غرب بسكرة، حيث عبّر عن انبهاره من أزياء النساء وحليهن، ونقل مشاهدًا عن ثقافتهم وعاداتهم اليومية².

كما قدّم كتابه: 'قسنطينة: رحلات و إقامات' (Constantine: Voyages et Séjours)³ سنة 1880م، وقد دوّن فيه مشاهداته عن جوانب مختلفة من حياة وعادات المرأة والمجتمع المسلم والحياة الروحية في الجزائر، ومن بين ما ذكره أنّ النساء لا يُسمح لهنّ بارتياح المساجد إلا في بعض المدن الجزائرية على غرار 'عين ماضي' في الصحراء⁴، ولاحظ أنّ تعليم البنات في الجزائر مُهمَل بشكل كامل حتى لدى العائلات الميسورة، حيث لا يتمّ تعليمهنّ الكتابة إلا نادراً، وتقتصر معرفتهنّ على حفظ بعض الآيات من القرآن عن ظهر

¹ - Ibid, p.65.

لم تنجح سياسة التفكيك القبلي التي طبقتها فرنسا في الجزائر؛ في الحدّ من دور الأب داخل الأسرة أو الزعيم الذي يتولّى شؤون العائلة، فلم تضعف وظائف العائلة الأخلاقية والدينية من جرّاء الخشية من نزع الشخصية، واستمرّت القيم المعيارية تستمدّ أصلها من الدين؛ كانت الممارسات الاجتماعية التي تخرق المعايير الدينية موضع شجب صارم، وكان أكبر عقاب يتعرّض له الفرد هو الطرد من العائلة، حيث يصبح محروماً من الحماية الاجتماعية والضمان الاقتصادي". يُنظر: عدّي الهواري، المرجع السابق، ص123. قد يسري هذا على النساء المرتدّات والمتجنّسات، كما يسري على بعض النساء اللواتي وقعن في الرذيلة، فكان مصيرهنّ العقاب الصارم والعزلة الاجتماعية.

² - Anonyme : «Une excursion à Biskra», Revue des deux mondes, 49^e année, Troisième Période, T.32, Bureau de la revue, Paris, 1879, pp.879-912.

³ - Louis Régis: **Constantine: Voyages et séjours**, Galmann Lévy éditeur, Paris, 1880, 344p.

⁴ - Ibid., p.19.

قلب، وتصل إلى أن الجهل هو نتيجة منطقية لحبس المرأة. "وفي الجزائر الرجال لا يشنون في النقاش حول عاداتهم تجاه زوجاتهم؛ شريطة عدم وجود الرجال، وإذ تلاحظ أنه لا يخلو الأمر من نوع من الفخر حين يعبروا عن أفكارهم بشأن المحمية المخصصة للمرأة، والرعاية اليقظة التي يجب على الأزواج توفيرها لحمايتها من مخاطر المجتمع"¹.

وكتبت الرحّالة 'مادلين دي لبي دي بيلو' (Madeleine de Lyée de Belleau)² عن المرأة والعادات والتقاليد الميزابية، وخلّفت العديد من الأعمال المرقونة (غير المطبوعة) منها: فافا العرجاء: أعراف ميزابية (Faffa la boîteuse: Mœurs) (M'Zabites)، كما كتبت عن المرأة الترقية وعادات تنظيم الأفراح في منطقة الهوقار والطاسيلي في عملها: 'حفلة في بلاد التوارق' (Une fête en pays targui)، حيث يحصل الاجتماع النسوي الكبير، ودوّنت مشاهداتها خلال رحلتها إلى بلاد توارق جانت تحت عنوان: (l'étourdissante sebiba Touareg de Djanet)، كما تضمّن أرشيفها الشخصي عدّة مقالات ومشاهد وصور عن المنطقة³.

إنّ الفئّانين والمستشرقين والرحّالة الأوروبيين قد أرّخوا بطريقتهم لـ'عالم الحرّيم' الشرقي، ولم يخفوا إعجابهم بالمرأة في الجزائر، لكنهم وجدوا صعوبة بالغة للوصول إليها؛ بفعل التقاليد الاجتماعية المستندة إلى تعاليم الدين، والتي تحول دون تواصل المرأة من مع الرجال الأجانب عنها، كما لم تخلُ أعمال هؤلاء من روح استعمارية تنظر إلى الآخر بازدراء، وتحتقره في شكله ولباسه ونمط حياته، سيما حين يتعلّق الأمر بالمرأة 'الأهلية'.

¹ - Ibid., p.134.

² - هي نفسها 'مانيت دي لبي دي بيلو' (Manette de Lyée de Belleau)، ولدت عام 1873 وتوفّيت سنة 1957م، وكانت نحاتة على الخزف، خلّفت عدّة أعمال مطبوعة من بينها: 'من الكاميرون إلى الهوقار' (Du Cameroun au Hoggar) 1945م، 'النساء الأسيرات والوصيات في ميزاب' (Les femmes captives et gardiennes du m'Zab) 1937م، 'الترهات الأثرية في ليبيا' (Flâneries archéologiques en Libye) 1935م. يُنظر: [/https://data.bnf.fr/fr/19410958/manette_de_lyee_de_belleau](https://data.bnf.fr/fr/19410958/manette_de_lyee_de_belleau)

³ - ANOM, 67 APC: Papiers Lyée de Belleau, Dossiers n°1 à 8.

2- نظرة النخبة الفرنسية المثقفة للمرأة 'الأهلية' في الجزائر:

لقد بدأ حضور المرأة والبنات الجزائرية يتزايد في كتابات النخبة الفرنسية، ولم يعد الأمر على الأعمال الاستشراقية والفنية التي صاحبت الغزو الفرنسي منذ بداية الاحتلال، حيث سيقتمح مجال الكتابة عن العادات والتقاليد والمجتمع النسوي نخبة من الكتاب الفرنسيين، الذين سيولون عناية بالغة بطقوس العائلات الجزائرية في حياتها اليومية الروتينية، وفي المناسبات والأعياد الخاصة، وستظهر بقوة سيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، ويندرج هذا في إطار سعي الفرنسيين لاستكشاف المجتمع الجزائري، والتعرّف على كل صغيرة وكبيرة حوله.

لقد تكاتفت جهود الباحثين الفرنسيين مدنيين وعسكريين، لتحقيق هذا الهدف، يقول أبو القاسم سعد الله: "ومن الموضوعات التي شغلت هؤلاء الكتاب، المرأة والعادات، فقد تحدثوا عن وضع المرأة الاجتماعي وحلقتها ولباسها وأعمالها وأوقات فراغها، واهتموا بما أسموه الحياة الريفية (...). كما وصفوا أعمال البربر في الجبال، وأشغال المرأة ومنظرها والأعراف السائدة والتطور الاجتماعي"¹.

2-1- حضور البنات والمرأة الجزائرية في كتب العربية الدارجة:

لعلّ أبرز من قدّم كتابات عن عادات وتقاليد المجتمع الجزائري والمرأة في الفترة الاستعمارية يبقى المدرّس: 'جوزيف دسبارمي' (Joseph Desparmet)²، الذي وضع

¹ - سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص383.

² - جوزيف دسبارمي: (1863-1942): كاتب وإثنوغرافي فرنسي؛ مهتمّ باللغات العربية واللاتينية واليونانية وكان يدرّس الدارجة الجزائرية، كما اهتمّ بالعادات والتقاليد الجزائرية خاصة في منطقة البليدة. يُنظر:

تمّ الاطلاع بتاريخ: 2020/04/12، سا: 19:05 https://data.bnf.fr/fr/12139025/joseph_desparmet/

مع مطلع القرن العشرين: 'كِتَابُ الْفَوَايِدِ فِي الْعَوَايِدِ وَالْقَوَاعِدِ وَالْعَقَايِدِ'¹، وقد أراد من وراء تأليفه بالدرجة العامة واللغة العربية الفصيحة (الصحيحة كما قال في مقدمته)؛ تعليم أبناء الأوربيين المستوطنين هذه اللهجة، وإطلاعهم على العادات المتصلة بالمجتمع المحلي، وأحكام الشرع الإسلامي في كثير من القضايا التي تخصّ المسلمين، والمرأة على الخصوص، وقدّم مباحث في التعريف بأركان الدين الإسلامي وفرائضه، وعادات أهل الجزائر المتعلقة بها، كما تناول طرق التداوي والتطبيب بواسطة الأعشاب لدى 'الأهالي' بمنطقة البليدة، والطقوس والمظاهر التي تطبع حياة المرأة المسلمة.

لقد تناول في كتابه هذا؛ تربية المسلمين لأبنائهم منذ الصبا، حيث يفرح الأب كثيرا بميلاد الطفل الذكر ويقدم مكافأة مجزية لمن بشره بهذا الخبر السعيد، بينما إذا بُشِّرَ بميلاد طفلة أنثى يكافئها بالقليل، والمولودة تسميها أمها أو جدتها على اسم من أسماء زوجات النبي أو بناته، يقول 'ديسبارمي': "أشرف الاسماء عند النساء فاطمة الزهراء ومن بعدها عايشة زوجة النبي وخديجة، والا على يماه يمينة، والا على اسم زوجات الانبيا مثل زليخة زوجة سيدنا يوسف وحليمة مرضعة النبي محمد ومريم يمان سيدنا عيسى وزبيدة زوجة الخليفة هارون الرشيد وغيرهم"².

وذكر من عادات النساء الوشم؛ وأنها منتشرة بين نساء منطقة القبائل والغرابية (منطقة الغرب)، والوشم يكون بغرض التزيّن، "والمرأة اذا كانت ماشي واشمة يقولوا ماشي شابة... واما اهل المدون (المدن) ما يوشموش عندهم عيب، وهو في الشرع حرام، وقالوا الي يوشم يحاسب عليه وينقلع الوشام بالنار في الاخرة"³. كما تحدّث عن اتّخاذ النساء 'الحروز': " والنساء يعلقوا عليهم الحروز بالكثرة مخافة رجالهم يتزوجوا عليهم،

¹ - جوزيف دسبارمي: كِتَابُ الْفَوَايِدِ فِي الْعَوَايِدِ وَالْقَوَاعِدِ وَالْعَقَايِدِ، مطبعة السيد موقان، البليدة، 1905.

² - دسبارمي، المصدر نفسه، ص.ص 7-9.

³ - المصدر نفسه، ص 15.

ولكثرة الولادة وحفظ الجان والمحبة والقبول، وترجع المرأة كل من يراها يحبها وغير ذلك"، كما تناول بالتفصيل طقوس الشعوذة والسحر وكأنه خبير بها¹.

وعن تربية البنت وتعليمها كتب: "لما يبلغ سن البنت خمس سنين تبدأ تشغلها بماها بالقضيان... حتى تتعلم خدمة البيت... واما امر الدين تتعلمه الا في التقصيرة (السهرة) في الليل مع والديها، وبنات المسلمين ما يعلموهم ش والديهم ضرب الوتار والغنا على خاطر عيب عندهم... ما يرسلوهم ش للمسايد (المدارس) يخافوا عليهم من الفساد، لاكن في التقصيرة اللي ذكرناها باباها ولا خوها يقريها سورة الفاتحة وسورة الاخلاص، ويعلمها كيفاش تتوضا وكيفاش تصلي، واذا كانوا ما يعرفوش يقرأوا حتى تتزوج يعلمها زوجها اذا كان يعرف"²، وهي العادة المتوارثة في الجزائر منذ العهد العثماني كما سبق وذكرنا.

وعن سن تزويج الإناث ذكر: "واما البنت تتزوج سنها اقل من الرجل، في الغالب البنات يتزوجوا في سنهم ثناش انسنه (12 سنة) ولا ربعطاش (14 سنة)، الا اذا كان فيها عيب ولا سيرة والديها مذمومة مايخطبوهاش الناس، تبور كيما يقولوا الناس فلانة بارت يعني كبرت وقعدت بلا زواج"، ويضيف عن احتجاب الفتاة: "من عادة بنات المسلمين كي يكونوا عواتق يتخباو من النساء البراويات (الغريبات عنهن) كي يدخلوا ليهم، الا اذا شافوهم بالغفلة (جلسة) ولا في الحمام، على خاطر البنت ملي تبلغ تسع سنين وهي تحجب يعني يشوفوها الا النساء واخوانها واعمامها..."³.

وعن طاعة المرأة لزوجها قال: "لابد عند المسلمين المرأة تطيع الرجل، وما عندهاش التصريف قدام الرجل حتى في حاجة، والمرأة تبوس (تقبل) يد زوجها كما الخادم باش

¹ - دسبارمي، المصدر نفسه، ص162 وما بعدها.

² - المصدر نفسه، ص28.

³ - نفسه، ص.ص49،50.

تظهر الطاعة متاعها..."، وذكر أيضا سوء ظنّ المسلمين بالنساء: "المسلمين يظنوا في النساء ظنّ السوء على هذه السبّة الحكايات بالزّاف (بكثره) على الحيل متاع النساء وكثرة المثالات عليهم"، وعن عادة حجب المرأة: "المسلم يسجن مرته كما ينسجن الجن وما يمنعهماش، يقولوا المرا في دارها مثل الريح في القفص"¹.

وعن الطلاق كتب: "بعض المرات الراجل يطلق المرأة وبعض المرات المرأة تطلب الطلاق، الرجل اذا طلق زوجته بلا سبّة (سبب) يمشي للقاضي يقول له فلانة راهي مطلقة خذ حق الطفلة، يسأله القاضي هذيك الطفلة الاولى ولا الثانية ولا الثالثة وكيفاش حلف كي طلقها، قال اهي حارمة ومطلقة، والا راهي مطلقة ثلاث والا غير مطلقة بركة، ويكتب القاضي كيفاش حلف، ذاك الوقت يكلفه يدفع لها صداقها المتأخر وفرض العدة والمسكن والنفقة متاع ثلث شهور..."².

وفي مؤلف آخر³ يصف 'دسبارمي' كسوة المرأة الريفية: "المرأة عند العرب تلبس القمحة والعباية متاع المنور، والكثرة فيهم يلبسوا الملقحة متاع الكتان اللي فيها يجي عشرين ذراع، ويخيطوها على ثلث أقسام، والمحرمة فوق رؤسهم، وفوق المحرمة البخنوق، والحزام متاع لحير، ويتمشوا بالحفا". أما عن لباس المرأة الحضرية فكتب: "المرأة الحضرية منين تُخرج تتلحف بالكسا متاع القطن، والأ بالحائك متاع الصوف والأ حير، تلبس سروال الزنقة والشقاشر والصباط، وفي وطن البليدة ووهران

¹ - المصدر نفسه، ص74.

² - المصدر نفسه، ص110.

من خلال ما أورده 'دسبارمي' نجد أن الرجل الجزائري كان يلجأ إلى القاضي المسلم، ويحتكم إلى نصوص الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالزواج والطلاق، وأنّ حقوق المرأة المطلقة من مؤخر الصداق والمسكن والتفقة مكفولة غالباً، وهذا عكس ما روجته بعض الكتابات الفرنسية بأنّ المرأة المطلقة تُهضم حقوقها.

³ - جوزيف دسبارمي: الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامة، مطبعة جوردان، الجزائر، 1907، ص130.

وغيرهم المرأة تُنقَّبُ وما تُخلِّي غير عَيْنٍ واحدة، وفي بلاد الجزائر المرأة تُعجَّرُ بالعجَّار
ويشوفوا الناس عينيها في زوج".

ومن كتب الانطباعات المصوّرة التي ألفها الفرنسيون، والتي تصوّر حياة ويوميات
المرأة في الجزائر، وسارت على نهج 'دسبارمي' في التأليف باللغة العامية الدارجة في الجزائر،
نجد كتاب 'علي وعائشة' (Ali et Aicha)¹ للسيدة: 'ب. برنارد' (Mme P. Bernard)² الذي ظهر سنة 1906م، وهي معلّمة بمدرسة وهران، حيث تصوّر فيه
يوميات الطفلين 'علي' وشقيقته 'عائشة'، وتوثق لنا جوانب من الحياة الاجتماعية
(السعيدة) في منطقة وهران مع مطلع القرن العشرين، وترسم صورة 'مثالية' عن العلاقة
التي تجمع السكان المحليين بالمستوطنين الأوربيين، وهي علاقة -حسبها- مبنية على التعاون
والحبة والتقدير، أين يعمل 'القياد' على توطيد هذه العلاقة، وتسيير الحياة اليومية للسكان
المحليين تحت إشراف الإدارة الفرنسية، التي يتم استشارتها في كل صغيرة وكبيرة.

تتناول الكاتبة صفات ولباس وصفات 'عائشة' كما يلي: "أخت علي اسمها عائشة،
عندها تسع سنين، هي صغيرة القدّ وبيضاء البشرة وعينيها كحل، هي مشروحة ولابسة
شاشية متاع القطيفة حمراء، واللباس الباقي مثل لبسة النساء، يعني قمحة وعباية وغلّاف
وحزام، منين تبغي تخرج برّا تتلحف، في رجليها بلغة متاع الجلد اخضر ومطروزة
بالذهب. هي دائماً نقيه على خاطر أمها تتهلا فيها... تبغي بالزّاف باباها وأمها وطايعه
لهم، هي يشيرة مربية مليح"³.

¹ - ب. برنارد P. Bernad: علي وعائشة، رسم: V. Fulconis، مطبعة: P. Perrier، وهران، 1906.

² - لم نحصل على تعريف لهذه الشخصية النسائية ولا تاريخ ميلادها ووفاتها.

³ - ب. برنارد، المرجع نفسه، ص.4،6.

وعن حرمان البنت من التعليم وتربيتها على التدبير المتزلي: "عيشة ما تمشي شي للمسيد (المدرسة)، عيشة ما تمشي شي للشريعة (مدرسة البنات في العهد العثماني) على خاطر الابنات ما يتخلطوا شي مع اليشاشرة، تنوض تعاون أمها في جميع القضيان متاع الخيمة، أمها تورّي لها كيفاش يطبّيو المعاش وكيفاش يعجنوا الخبزن وكيفاش يفرّشوا الفراش في الخيمة متاعهم (...). هذه البنت منين تكبر تولّي مرأة حادقة"¹.

وقد ذيلت كتابها هذا بنصّ باللغة الفرنسية، أشارت فيها إلى أنّ الكتاب موجّه لتلاميذ أقسام الصّف الخامس من التعليم الثانوي، والصفين الرابع والخامس من التعليم الثانوي للبنات، والهدف تعليمهم مبادئ اللغة العربية الدارجة بالاعتماد على هذه المشاهدات الواقعية من الخطابات اليومية في المجتمع المحلي، كما يصوّر عاداته وتقاليده وحكمه وأمثاله المتداولة.

2-2- المثقفون الفرنسيون والمرأة 'الأهلية' في جزائر القرن 19م:

لم يتوان الكتاب الفرنسيون في توظيف العادات والتقاليد المتأصلة في المجتمع الجزائري ولدى المرأة الجزائرية بصفة خاصة، لخدمة المشروع الاستعماري، وتعكس الأبحاث الاجتماعية والدراسات الاستكشافية التي قام بها عدد من الضباط العسكريين، سيما في منطقة بلاد القبائل، وعبر ربوع الصحراء الجزائرية؛ مدى الاهتمام الذي أولاه الفرنسيون لدراسة كل صغيرة وكبيرة من حياة السكان اجتماعيا وتاريخيا وثقافيا ودينيا، وقد حاولوا إرساء فكرة تهدف إلى سلخ هؤلاء سكان منطقة القبائل عن باقي مناطق القطر الجزائري، وإظهار بلاد القبائل ككيان منفصل عن باقي البلاد الجزائرية، لا تنتمي للعروبة والإسلام، ولا تمتّ بأي صلة حضارية لها، هذا الطرح الذي قاده المستشرقون، وأمعن في ترسيخه من جاء بعدهم من كتّاب عسكريين ومدنيين.

¹ - نفسه، ص.8، 9.

يمكننا أن نقرأ كتاب 'بنجامين غاستينو' (benjamin Gastineau)¹ الذي ظهر في سنة 1861م، وحمل عنوان: النساء وعادات الجزائر (les femmes et le mœurs de l'Algérie)، وقدّم فيه عدة أبحاث حول النساء الجزائريات، فتطرق إلى ظاهرة اختطاف النساء العربيات والأوربيات، وأبرز العادات المأجنة المنتشرة في الصحراء، وتحدّث عن الفولكلور و الفانتازيا العربية (La fantasia arabe)...². وغيرها من المواضيع التي كانت موضوع للكتابات الانطباعية الكولونiale آنذاك.

وكان الأب 'دوقا' من رجال الدين الذين عكفوا على دراسة عادات منطقة القبائل، وقد استشهد ببعض الآثار التي يزعم أنّها بقايا مسيحية، منها الوشام ذو الشكل الصليبي على وجوه النساء وأيديهن وعلى مداخل البيوت؛ لإثبات مزاعمه السابقة، رغم أنّ هذه الأحكام لا يوجد له أساس نظري، فالوشم تستعمله نساء مختلف القرى الجزائرية للزينة دون قصد أو غرض ديني، ومن جهة أخرى فالوشم ليس خاص بالجزائريين وحدهم (أو عند نسوة بلاد القبائل فحسب)، بل هو موجود في بلاد المشرق، وإن كان رمزاً دينياً لماذا لم يستعمله المسيحيون³؟

¹ - بنجامين غاستينو: كاتب صحفي وناشط سياسي ومؤرّخ، عاش بين عامي 1823 و 1904، تمّ ترحيله إلى الجزائر بعد إدانته بالتعاون مع صحيفة 'صوت الشعب' (La voix du peuple)، حيث عمل مفتشاً للمكتبات البلدية. له الكثير من الأعمال منها ما يخصّ الحياة والعادات والتقاليد، كما اهتمّ بالكتابة عن المرأة. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/13485496/benjamin_gastineau/

تاريخ الاطلاع: 2020/04/01 الساعة 19:38

² - Benjamin Gastineau: *Les femme et les mœurs de l'Algérie*, 2ed., Librairie de Michel Lévy frères, Paris, 1861, 355p.

³ - حديجة بقطاش، المرجع السابق، ص ص140-141.

وكتب 'جيل ميستر' (Jules Maistre)¹، عن الأعراف والعادات القبائلية، ووافق 'أوجين دوماس' وغيره في احتفاء الأسر القبائلية بميلاد الطفل الذكر، عكس الأنثى التي لا تبدى حيالها أية سعادة²، وأيضا فيما يتعلّق بتربية وتأديب الفتاة من طرف والدتها وتعليمها شؤون البيت، وأضاف أنّ بنات العائلات الثرية يتزوّجن بسرعة ويكون الطلب عليهنّ، بينما الفقيرات إن لم يكنّ ذوات جمال، فقد يبقين عوانس دون زواج، وهو ما يدفع أمهاتهنّ إلى أخذهن عند المرابطين لإعطائهن صفات خرافية، ولم يجد عن معاصريه حين وصف صداق وخطبة الفتاة القبائلية بعملية 'بيع وشراء'، وشرح الطقوس المرتبطة بالزواج، وتلك التي تكون حين موت الرجل أو المرأة، والتي تصاحب الاحتفال بمختلف المناسبات الدينية كشهر رمضان والعيدين والمولد النبوي الشريف وغيرها³.

ومن الأقلام النسوية الفرنسية القليلة التي تناولت جوانب من الحياة الجزائرية في القرن التاسع عشر؛ نجد السيّدة 'غايل' (Mme. A Gaël)⁴ من خلال كتابها المعنون بـ: 'في الجزائر'، الذي روت فيه ذكرياتها، وخصّصت أحد مباحثه للمرأة، وقد زعمت أنّها ولجت عند العديد من العائلات الموريسكية؛ لأنّها تعرف المرأة الموريسكية أكثر من المرأة العربية التي يصعب الوصول إليها، وتحدّثت عن صفاتها وخصالها، حيث وجدت حسن الضيافة والاستقبال عند زيارتها رفقة صديقاتها الإنجليزيات الثلاثة لزوجة أحد

¹ - هو أحد الصناعيين الفرنسيين الأثرياء صاحب مصنع (Villeneuve, Hérault) وعضو الغرفة التجارية بمدينة مونبلييه، له اهتمام بالكتابة وحلّف العديد من المؤلفات عن أوروبا والصحراء، الخيول والسيارات... يُنظر:

تاريخ الاطلاع: 2020/04/28 سا: 18:52 https://data.bnf.fr/fr/15916729/jules_maistre/.

² - ذكر 'هانوتو' و'لوتورنو' أنّ ميلاد البنت الأنثى لا ترافقه فرحة في القرية ولا إطلاق بارود مثلما هو الحال عند ميلاد الطفل الذكر. يُنظر:

A. Hanoteau ; A. Letourneux: **La Kabylie et les coutumes kabyles**, T.2, Op.cit, p.211.

³ - Jules Maistre: **Mœurs et coutumes Kabyles**, Imprimerie de la manufacture, Montpellier, 1905, 74p.

⁴ - لم نعتز لهذه الشخصية على تعريف بسيرتها الذاتية.

القضاة، وتقول مهما كانت حياة المرأة الموريسكية في المدن رتيبة؛ لأنها لا تخرج إلا مرتين في الأسبوع للذهاب إلى الحمام أو المسجد، إلا أنها لا تقارن بحياة المرأة العربية (تقصد الريفية) التي تقطن قرية مشكّلة من الأكواخ (Gourbis) أو تسكن الخيمة في دوار بدوي، فالمرأة الموريسكية تبدو عاداتها أكثر لطافةً من نظيرتها العربية، وقد شاهدت العديد من النساء البائسات يحملن قَرَب الماء الثقيلة بينما أزواجهن يتبعنهنّ يمتطون البغال أو على الأرجل يلتفون في برنوس¹ غير مباين.

وكان للطبيب 'أميدي موران' (Amédée Maurin)²؛ اهتمام بالنواحي الاجتماعية وبحياة المرأة في الجزائر، فكتب عام 1873م: 'موسم الشتاء في الجزائر'³، وقد حزم بأن المرأة كانت تُشترى مثلها مثل بقية متاع الرجل، ولم يتعد كثيراً في وصف الحياة الاجتماعية للمرأة وشغلها اليومي عما كتبه 'أوجين دوماس' وغيره في تلك الفترة بالذات، وفي إطار دراسته للمجتمع 'الأهلي'؛ خصّص الفصل السابع من الكتاب للمرأة العربية، حيث أقرّ بالمكانة الخاصة لها في الشريعة المحمدية، وذكر أن وضعها آنذاك لا يجب أن يُقارن بوضع المرأة الأوروبية؛ لأنه لا يمكن دراسته بمعزل عن الأعراف السائدة، واعتبر الزواج بالنسبة للفتاة بداية دوامة من الحياة الصعبة تنتهي بها إلى التهلك.

¹- Mme A. Gael: **En Algérie**, Librairie centrale des publications populaires, (S.L), 1881, p.121 et de la.

²- أميدي موران (1826-18...): طبيب جراح بالمستشفى المدني بالجزائر العاصمة، ومحاضراً في المعهد

الزراعي بفرساي. يُنظر: https://data.bnf.fr/fr/13744302/amedee_maurin/

تاريخ الاطلاع: 2020/05/31، الساعة: 12:13.

³- Amédée Maurin: **La Saison d'hiver en Algérie**, G. Masson éditeur, Paris, 1873.

ومن بين الدراسات التاريخية الكولونiale المهمة حول المرأة المسلمة؛ دراسة 'إرنست ميرسيي' (Ernest Mercier)¹: 'وضع المرأة المسلمة في إفريقيا الشمالية' (La condition de la femme musulmane dans l'Afrique septentrionale)، وهي الدراسة الصادرة سنة 1895م، وقد أرّخت لتطور أوضاع المرأة منذ القدم، كما كتب أيضا عن 'الجزائر والمسألة الأهلية'، و عن 'تاريخ قسنطينة' و 'تاريخ إدارة العرب في شمال إفريقيا'، وعن 'الباشاغا المقراني'... وغيره.

كانت النواحي الاجتماعية ومحاوله استكشاف العادات والتقاليد والأعراف هي أبرز المواضيع التي تناولها المثقفون الفرنسيون المهتمون بالشأن 'الأهلي' في الجزائر منذ الاحتلال سنة 1830م إلى نهاية القرن التاسع عشر ميلادي.

2-3- الكتابات الكولونiale حول المرأة الجزائرية منذ مطلع القرن 20:

مع مطلع القرن العشرين؛ سيحاول الفرنسيون الولوج إلى عالم المرأة الجزائرية (الحريم)، وقد وظّفوا لذلك المرأة المستوطنة لأنّ المجتمع المحلي كان يرفض أي اتصال بين المرأة 'الأهلية' والرجل الأجنبي (الرومي)، وبالتالي فقد أُسندت هذه المهمة للطبيبة والمرضة والقابلة، تحت ذريعة المساعدة الطبية، وإلى الراهبة تحت غطاء الأعمال الخيرية، وإلى المعلّمة الفرنسية بغية نشر فضائل الحضارة الغربية.

¹ - إرنست ميرسيي (1840-1907): مستشرق فرنسي، شغل منصب رئيس بلدية قسنطينة؛ لذلك تركّزت أعماله حول هذه المدينة، كما تولّى أيضا القيام بأعمال الترجمة من اللغة العربية إلى الفرنسية. يُنظر: https://data.bnf.fr/12384339/ernest_mercier تم الاطلاع بتاريخ: 2020/05/24، سا: 23:25.

قدّمت الطبيبة الروسية: 'هيلين أباديي فايغوين' (Hélène Abadie-Feyguine)¹؛ أطروحتها: 'المساعدة الطبيّة للنساء الأهليات في الجزائر' عام 1905م، التي سلّطت فيها الضوء بشكل خاص على مخاطر الولادة بالطرق التقليدية على حياة المرأة في الجزائر، كما تحدّثت عن التمريض والعلاج المحّابي والتلقيح، والمساعدة الطبية والصيديات المدرسية والمؤسسات الطبيّة الفرنسية القائمة في الجزائر آنذاك، وعن دور المرأة الطبيبة في المساعدة الطبية للمرأة 'الأهلية'، وخلصت إلى أنّه: "يجب الذهاب إلى الأهالي، وعلينا الانتظار حتى يتعوّدوا على المساعدة الطبية الأوربية، قد يكون هذا دون جدوى، لكن يجب أن نبتكر وسائل للمساعدة تتوافق مع عاداتهم وأخلاقهم، وكلّ الأعمال الطبيّة حاليا تعتمد على بعض النساء الطبيبات والمتربّصات، والجهود تتوجّه إلى تخفيض حالات الوفاة أثناء الولادة وفترة الأمومة، ورغم وجود الكثير من الآراء المثبّطة؛ فالسنوات القادمة كفيلة بمعرفة جدوى هذه العملية"².

وكتب المستشار بمحكمة الاستئناف بمدينة 'بيزانصو' (Besançon) الفرنسية السيّد: 'أ. لوكليك' (A. Leclerc) عن وضع المرأة المسلمة في الممتلكات الفرنسية بشمال إفريقيا (تونس والجزائر)، ومن بين ما ذكره أنّ ممارسة تعدّد الزوجات بقي في نطاق ضيق للغاية، حيث لم يزد عن الثمانية بالمائة (8%)، أما الذين لديهم أكثر من

¹ - 'هيلين أباديي فايغوين': ولدت بمدينة سمارة الروسية في 21 ماي 1881م لعائلة يهودية، درست الطبّ بمونبوليه الفرنسية منذ عام 1899م رفقة شقيقتها، تزوّجت الطبيب الجراح بمسشفى وهران 'جيل أباديي' (Jules Abadie) واستقرّت بالجزائر لإنجاز أطروحتها، وخلال الحرب العالمية الأولى أقامت بباريس، وبعد نهاية الحرب عادت إلى وهران، ورغم وفاة زوجها عام 1953م بقيت بالجزائر إلى غاية وفاتها عام 1964م. يُنظر:

J. Fontaine ; S. Gilgenkrantz: **Portraits de trois femmes médecins de la faculté de Montpellier au tournant du XIXème siècle**, in. (Histoire des sciences médicales), T. XLIX, n°3/4, 2015.

² - Hélène Abadie-Feyguine: **De l'assistance médicale des femmes indigènes en Algérie**, Thèse de doctorat, Faculté de médecine de Montpellier, juillet 1905.

زوجتين فعددهم لا يكاد يذكر حسب، ولا يُضاهي ما هو حاصل بالدول الغربية تحت غطاء الزيجات غير الشرعية¹.

وفي عام 1909م أَلَفَ 'إدموند دوتتي' (Edmond Douuté)² كتابه: 'السحر والدين في شمال إفريقيا'³، الذي تناول فيه مختلف الطقوس السحرية في الشمال الإفريقي، وناقش أيضا وضع المرأة 'الأهلية' وعلاقة ذلك بانتشار الطقوس السحرية في أوساط النساء، وذكر نماذج عن نساء جزائريات اشتهرن عبر التاريخ، وعن العلاقة بين النساء والسحر، ومختلف الطقوس السحرية التي يمارسها والتعاويد التي يتخذنها، وتوظيفهنّ السحر لتحقيق مآربهنّ في الجانب العاطفي والزواج، وبغية نيل رضا الزوج وتيسير الولادة، وأعطى صوراً عن التوليفات المستخدمة والعبارات التي تتضمنها تلك الطقوس.

كان الظرف الاجتماعي والوضع القانوني للمرأة الجزائرية؛ محلّ اهتمام دائم لدى الكتاب الفرنسيين (الرجال)، من أمثال فرديناند دوشان (Ferdinand Douchain) ولويس لوكوك (Louis Lecocq)، وقد ركزت بعض الكتابات الفرنسية على إبراز ظاهرة التعدد الثقافي للمرأة المسلمة الجزائرية واختلاف العادات والتقاليد والأعراف وأنماط الحياة اليومية بين نساء الجزائر في مختلف المناطق؛ فميزوا بين المرأة القبائلية والمرأة العربية والمرأة المزابية والمرأة النايلية والمرأة الشاوية والمرأة الترقية، ويبدو أنّ هذه الكتابات كانت مغرّضة، حيث انصبّ اهتمامها على إبراز مظاهر الاختلاف؛ دونما عناية كبيرة بمظاهر

¹- A. Leclerc: **De la condition de la femme musulmane dans nos possessions du nord de l'Afrique**, Typographie et Lithographie DODIVERS, Besançon, 1907, p.7.

²- إدموند دوتتي (1867-1926): مستشرق وأستاذ بالمدرسة العليا للآداب بالجزائر العاصمة، اهتمّ بالكتابة عن المغرب، وترك أعمالاً عن: 'الإسلام في الجزائر والمغرب العربي'، 'المرابطون'، و'فرقة العيساوة في تلمسان'، و'نصوص عربية من اللهجة الوهرانية'. يُنظر:

تاريخ الاطلاع: 2020/04/28 سا: 12:20 https://data.bnf.fr/fr/12182307/edmond_doutte/

³- Edmond Douuté: **Magie et Religion dans l'Afrique du nord**, Typographie Adolphe Jardin, Alger, 1909, 605p.

التشابه على كثرتها، ولا بالعادات المشتركة التي تنبع من الدين والهوية والثقافة المحلية، هته الاختلافات طبعاً التي عكست التعدد الثقافي والغنى الحضاري الذي ميز المجتمع الجزائري.

في الجانب القانوني نذكر دراسة أستاذ الحقوق والمعتمد لدى المحكمة المدنية بمنطقة تيزي وزو: 'بيار هاكون-كامبريدون' (Pierre Hacoun-Campredon)، والتي عاجلت تطوّر العادات القبائلية، وخصوصاً قضية إقصاء النساء من الميراث ومسألة الحبوس، وقد شرح فيها أسباب الإبقاء على القانون الأهلي المستمد من الأعراف، وعن دور الجماعة 'تاجماعت' في المدينة والريف، وتحديث عمّا أسماه بـ'محنة النساء' في ظلّ العرف القبائلي، حيث كنّ يرثن إلى غاية سنة 1748م، وتطرّق إلى الأسباب الاجتماعية العميقة التي أدّت إلى إقصاء المرأة القبائلية من الميراث وتأثيرات ذلك¹.

ولا يفوتنا أن نُشير إلى كتاب 'أوكتاف باسل' (Octave Pesle)²: 'المرأة المسلمة في القانون الدين والأعراف' الذي صدر بالمغرب الأقصى عام 1946م، وتطرّق فيه صاحبه إلى مكانة المرأة في الفقه (القانون) الإسلامي، والمسائل المتعلقة بذلك من ملكية

¹ - Pierre Hacoun-Campredon: **Etude sur l'évolution des coutumes kabyles, l'exhérédation des femmes et la pratique du hobous**, Bastide-Jourdan lib. imp., Alger, 1921.

رغم حرمان المرأة القبائلية من الميراث؛ إلا أن الكثير من حقوقها بقيت محفوظة، كالحقّ في الرعاية والإنفاق والسكن، والعيش في كفالة والدها أو أخيها أو من يتولّى شؤونها إلى غاية زواجها أو وفاتها، أما النساء دون عائل فيعتمدن على مداخيل الأوقاف والحبوس أنظر: A. Hanoteau ; A. Letourneux:, T.2, Op.cit, p.247. كما خصّص 'هانوتو' و 'لوتورنو'، فصلاً في الجزء الثالث من كتابهما المذكور للحديث عن الحالات المختلفة المتعلقة بميراث المرأة عند المجتمع القبائلي، ومختلف الأحكام التي أقرّها القانون العرفي في هذا الشأن حسب كل جهة. يُنظر: A. Hanoteau ; A. Letourneux:, T.3, Op.cit, p.447 et delà.

² - أوكتاف باسل: ولد بمدينة سكيكدة (Philippeville) سنة 1889م، محامي وأستاذ القانون بمعهد الدراسات العليا المغربية، له العديد من الدراسات المتعلقة بقضايا المذهب المالكي، توفيّ بالرّباط في 28 ماي 1947م. يُنظر: https://data.bnf.fr/fr/12631070/octave_pesle تم الاطلاع بتاريخ: 07 نوفمبر 2020 سا: 09:56.

وحضانة وزواج...، فضلا عن الأحكام الفقهية الخاصة بالمرأة في باب العبادات، كما تناول المرأة المسلمة والأعراف التي تحكمها منذ ميلادها إلى غاية وفاتها¹.

ونقرأ للمستشرق الفرنسي والأستاذ بجامعة الجزائر 'إميل فيلكس غوتيه' (Emile Félix Gautier)²، عن 'أعراف وعادات المسلمين' (Mœurs et coutumes des musulmans) عام 1931م، وعن 'ماضي شمال إفريقيا'، وهو الذي عاش عقوداً من الزمن في الجزائر، وأصدر ضمن أعمال مئوية الاحتلال كتابه: 'قرن من الاحتلال' (Un siècle de colonisation)³، الذي خص فيه منطقة بوفاريك بدراسة مفصلة، كما تحدّث عن ساكنة الجزائر من المعمرين والمتقنين والجنود والأهالي، وتطرّق إلى أعمال فرنسا بالجزائر العاصمة، وما تمّ إنجازه في قطاعي المناجم والسكك الحديدية، وخصّ منطقة السّهوب بفصل من كتابه المذكور.

3- صورة المرأة 'الأهلية' في الإثنوغرافيا العسكرية الكولونيبالية:

يمكن أن تُصنّف مؤلّفات الضباط الفرنسيين حول المجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر ضمن 'كتب الانطباعات'؛ وهي الكتب التي تناولت حياة السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، ومناطق عيشهم في البدو والحضر، وتناقضات الطبيعة من

¹ - Octave Pesle: **La femme musulmane dans le droit, la religion et les mœurs**, éditions la porte, Rabat, 1946, 255p.

² - إميل فيلكس غوتيه: (1864-1940): مؤرّخ ومستكشف وجغرافي، حاصل على شهادة الدكتوراه في الآداب (1902)، وكان أستاذ بجامعة الجزائر. خلّف الكثير من الأعمال عن إفريقيا الشمالية والغربية والصحراء وعن نظرة الفرنسيين للإسلام، وعن الجزائر خلال قرن من الاحتلال. يُنظر:

تم الاطلاع بتاريخ: 2020/05/07، السا: https://data.bnf.fr/fr/12422532/emile-felix_gautier/19:58 من بين أعمال 'غوتيه' التي تمت ترجمتها إلى اللغة العربية؛ كتابه 'ماضي شمال إفريقيا'، الذي استعرض فيه تاريخ وجغرافية المنطقة منذ القديم إلى بداية الفترة الحديثة، وقد وصف الفترة الإسلامية بـ 'العصور المظلمة'. يُنظر:

أ. ف. غوتيه: ماضي شمال إفريقيا، تع. هاشم الحسيني، دار الفرجاني للنشر، طرابلس، ليبيا، 1970.

³ - E.F. Gautier: **Un siècle de colonisation: étude au microscope**, (1830-1930 collection du centenaire de l'Algérie), Librairie Félix Alcan, Paris, 1929.

حولهم، تلك الأعمال التي كانت في طليعة ما كتبه الفرنسيون حول الجزائر في القرن التاسع عشر وصولاً إلى مطلع القرن العشرين، حيث أخذ المدنيون (المستوطنون) زمام الأمور في تسيير شؤون الجزائر، وبدأت الكتابات الكولونiale حول المرأة والمجتمع تنحو نحو مناقشة القضايا التي تهم المرأة المسلمة في الجزائر، والتي كانت لها صلة مباشرة بقضايا أخرى كانت مطروحة بجدّة آنذاك كالتجنيس والإدماج والأحوال الشخصية، والوضع القانوني 'للأهالي' المسلمين، ووضع المرأة في منطقة القبائل بشكل خاص، ومكانة المسلمين الجزائريين في ظلّ النظام الكولونيالي، فضلاً عن علاقتهم بالأعيان والوجهاء.

3-1- الضباط الفرنسيون وحياة المرأة 'الأهلية' في الجزائر:

لقد شغل العالم النسوي حيزاً كبيراً من اهتمام الضباط الفرنسيين، سيما أولئك الذين أشرفوا على إدارة مكاتب الشؤون العربية، وقد استغلّ هؤلاء الضباط وظيفتهم؛ لتدوين ملاحظاتهم عن المجتمع الجزائري وتعميق أبحاثهم عن عاداته وتقاليده، كما دفعت الضرورة بعضهم لتعلّم اللغة العربية، وهكذا انتعشت الأبحاث الأنثروبولوجية (العسكرية) الاستعمارية في دراسة المجتمع من الناحية التاريخية والدينية؛ فنجد النقيب 'بواسوني' (Poissonnier) على اطلاع واسع بأحوال قسنطينة؛ بحكم كونه مديراً للشؤون الأهلية هناك منذ 1844م، أما النقيب 'دي نوفو' (De neveux) فكُلّف بإعداد طوبوغرافيا القطر الجزائري، واستطاع فهم المجتمع الجزائري من حيث الجغرافيا والتاريخ والعادات والتقاليد، حين تولّى إدارة المكتب العربي بباتنة عام 1846م، ثم انتقل بعدها إلى قسنطينة، وأنجز كتابه حول الإخوان والطرق الصوفية. ونجد الضابط 'شارل فيرو' (Charles Feraud) المترجم والباحث في الدراسات التاريخية الإثنوغرافية يكتب حول

المدن والقبائل الجزائرية¹. أما الرائد 'سيروكا' فاهتمّ بأحوال ساكنة الصحراء حين تولّى إدارة مكتب بسكرة سنة 1850م، واشتغل النقيب 'هيقونوت' على التاريخ المحلي، بينما توغّل النقيب 'بن' في الصحراء وأخرج كتابه: 'رسائل عائلية حول القطر الجزائري'، ذات الطابع الاستعماري².

وكان لدى هؤلاء اهتمام خاص بالمرأة 'الأهلية' وعالم 'الحريم'؛ تغذيه عادةً جملة من الأحكام المسبقة والنمطية التي أصدرها الفرنسيون عن أخلاق وأعراف وتقاليد المرأة والمجتمع في الجزائر والمشرق الإسلامي عموماً، مثل طرق تربية وتعليم البنات، ومعاملة الرجال للنساء، ومسائل الزواج والطلاق وتعدّد الزوجات وقضية الاحتجاب والحجاب.

من الضباط الفرنسيين القلائل الذين انتقدوا النظرة الفرنسية للمرأة 'الأهلية' منذ بداية الاحتلال؛ الجنرال 'فرونسياد فلوريس ديفيفي' (Franciade Fleurus) (Duvivier)³، الذي دافع منذ بداية الاحتلال على اندماج السّكان؛ مقلداً من شأن الاختلافات الجنسية والدينية بين الفرنسيين و 'الأهالي'، وبيّن أوجه التشابه بين قانون

¹ - عاصر 'شارل فيرو' الضابط الباحث 'أوجين دوماس'، وهما من الضباط العسكريين الفرنسيين القلائل الذين استعملوا القلم أكثر من البندقية والفكر أكثر من الحرب، فكانت نتائج أعمالهم أخطر على الجزائريين من نتائج العسكريين الذين استخدموا أسلوب الغزو والقوة العسكرية لتثبيت الاستيطان. حول 'شارل فيرو'. يُنظر: فارس كعوان: "الإثنوغرافيا الكولونiale واختراق الفضاء القبلي للمشرق الجزائري من خلال أعمال بعض العسكريين الفرنسيين 'شارل فيرو' نموذجاً"، مجلة المعيار، مج.24، ع.50، جوان 2020، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، صص 656-670.

² - حفناوي بعلي: صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دروب للنشر، القاهرة، 2019، صص.96-97.

³ - فرونسياد فلوريس ديفيفي (1794-1848): جنرال فرنسي عمل في الجزائر في بداية الاحتلال؛ ولما عاد إلى فرنسا تفرّغ للتأليف وخلف العديد من الكتابات ضمنها ذكريات وردود ومواقف حول بعض القضايا. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/14953472/franciade_fleurus_duvivier/

تاريخ الاطلاع: 2020/05/02، سا: 18:30.

الأسرة الإسلامي والقانون المدني الفرنسي (النايليوني)، وانتقد بشدة في كتابه: 'حل قضية الجزائر'¹ أولئك الذين يبالغون في نقد الوضع المتدني للنساء العرييات (الجزائريات)، لقد رأى أنها قضية اقتصادية واجتماعية قبل أي شيء آخر²، وكتب: "لقد حكمنا على وضع النساء عند المسلمين بشكل خاطئ؛ لأننا لم نلاحظ بما فيه الكفاية الأسباب التي تُنتج سعادة الأفراد، والتي تكون نسبية وليست مطلقة دوماً، بالنسبة للذين يعتمدون على حالة التعليم وجميع الأعراف والعادات عند أي شعب، هم مخطئون أيضاً؛ لأنه لا يمكن أن نقارن التسلسل الهرمي لأمة ما مع أمة أخرى"³.

كما لم تغب المرأة الأسطورة عن كتابات الضباط الفرنسيين، فضلاً عن تناولهم لشخصيات تاريخية مثل 'الكاهنة' وغيرها؛ فقد كتبوا حول النساء الشهيرات والمتصوفات والمرابطات، نجد المترجم العسكري 'أنطوان آرنو' (Antoine Arnaud)⁴ ينقل روايات شفوية من منطقة جبل بوكحيل القريب من الجلفة، عن امرأة تدعى 'الالا خضرة'؛ ابنة 'سيدي عامر بوضرة' وهو رئيس فرقة صوفية وقبره موجود بضواحي مدينة عنابة، ويدعي

¹ - Franciades-Fleurus Duvivier: **Solution de la question de l'Algérie**, Gaultier-Laguionie, Paris, 1841, p.320.

² - Judith Surkis: «**Propriété, polygamie et statut personnel en Algérie coloniale, 1830-1873**», *Revue d'histoire du XIXe siècle*, 41 | 2010. Voir : <http://journals.openedition.org/rh19/4041> Consulté le 19 avril 2019 à 14 :50.

³ - Franciades-Fleurus Duvivier, Op.cit, p.317.

⁴ - **مارك أنطوان آرنو** (Marc-Antoine Arnaud) (1835-1910): مترجم عسكري من العربية إلى الفرنسية، كان ضمن فريق تحرير 'جريدة المبشر' ومسؤول عن النشر منذ سنة 1870م، وقد ترجم عدّة أعمال من بينها: 'رحلات أبي راس الناصري' عام 1885م، وهو والد الكاتب الفرنسي: 'روبير راندو' (Robert Randu) (1873-1950)، الذي ألف كتاباً عن الشخصية النسائية الغامضة: 'إيزابيل إبيرهاردت'. يُنظر:

Alain Messaoudi: «**Renseigner, enseigner. Les interprètes militaires et la constitution d'un premier corpus savant « algérien (1830-1870)**», *Revue d'histoire du XIXe siècle*, n°41, 2010. Voir:

<http://journals.openedition.org/rh19/4049> Consulté le 25/04/2020

Voir aussi: https://data.bnf.fr/fr/12462823/marc-antoine_arnaud/ Consulté le 25/04/2020 à 11:22.

وترجم لمصطفى بن محمد ابن الخوجة كتابه: *Respect aux droits de la femme dans l'islamisme*، و هو نفسه: 'الاكتراث في حقوق الإناث'.

أنّ هذه المرأة المتصوفة التي بقيت إحدى عشر سنة في كهف اسمه 'خلوة ميمونة' في الجهة الشرقية من جبل بوكحيل، وكان يُطعمها الأولياء¹.

أما كتابات الضابط 'لويس رين' (Louis Rinn)²، فكانت جلتها حول مآثر الجيش الفرنسي في الجزائر، ومع ذلك خصّ الحياة الدينية والاجتماعية في الجزائر بكتابه: 'مرابطون وإخوان' (Marabouts et Khouan) الصادر عام 1884م، للحدث عن المجتمع والدين في الجزائر. كما تحدّث 'رين' عن مكانة المرأة داخل الأسرة وتأثيرها في العلاقات بين القبائل فقال: "النتيجة المنطقية للتأثير الذي تمارسه المرأة في الأسرة، في المنطقة البربرية كما في أماكن أخرى، هي الأهمية التي يوليها السكان الأصليون من الطبقات الحاكمة لتحالفاتهم الزوجية (المصاهرات) من الأجواد أو الشريف أو المرابط، إلى الفلاح القبائلي البسيط، أو شيخ الطريقة الصوفية أو النبلاء في القرية"³. وقد ساق عدّة أمثلة عن تلك العلاقات الأسرية التي عضّدت العلاقات الثنائية بين زعماء القبائل ومن يقع تحت سلطتهم من الرعية، وهو الموقف ذاته الذي أبداه 'دوماس' - كما سنرى لاحقاً - من حيث اتّخاذ المصاهرات كوسيلة لتقوية أو اصر الترابط بين القبائل.

وذكر 'لويس رين' مآثر العديد من النساء الشهيرات في الجزائر وشمال إفريقيا منذ عهود خلت، فتحدّث عن 'الكاهنة' و'اللا فاطمة نسومر' و'المرابطة' 'اللا الزهرة'، وهي المرأة العجوز التي صنعت شخصية السلطان الشريف 'محمد بن عبد الله' في تلمسان (1841-1847)، وصار الشريف ورقلة عام 1851م، رغم الهزيمة في الأغواط عام

¹ - كمال لحر: صورة المجتمع الجزائري في المجلة الإفريقية (La revue Africaine) 1856-1962م، أطروحة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2011/2010، ص290.

² - (1838-1905): ضابط عسكري فرنسي ورئيس المصلحة المركزية لشؤون الأهالي لدى الحكومة العامة. يُنظر: https://data.bnf.fr/fr/13009538/louis_rinn تم الاطلاع في: 2020/04/24 ساعة 16:25.

³ - Louis Rinn: «La femme berbère dans l'ethnologie...», Op.cit, p.477.

1852م، وكانت هذه العجوز التي يعيّرُها 'الأهالي' بأنها لا تلد، لكنّها حجّت إلى مكة مرتين، وصار يُنظر إليها على أنّها نبيّة، وقد رأت في 'محمد بن عبد الله' أنّه الرجل الذي سيرعب المسيحيين ويخرجهم من بلاد الإسلام، والذي سرعان ما أصبح سلطان ورقلة¹.

لقد ظلّت مكانة المرأة في المجتمع الجزائري (الأهلي) محلّ جدال واختلاف في وجهة نظر الكتاب العسكريين الفرنسيين، مع أنّ أغلبهم يميل إلى الاعتقاد بدونيّة وضعها إلا أنّ هناك منهم من نظر إلى هذا الجانب نظرة مختلفة، ويمكن الاستشهاد هنا بما لاحظته 'لويس رين' الذي يذكر: "تحتل المرأة البربرية في الأسرة وفي المجتمع الإسلامي، المكانة التي تُعطى لها من خلال ذكائها وصفاتها الأخلاقية، إنّ وضعها الذي يختلف عن وضع المرأة الأوروبية، لا يقلّ عنها أبداً خارج منزلها سواء كانت ابنة أو زوجة أو أمّ، فهي محاطة باحترام لا تلقاه عندنا، عندما يسرنّ وحدهنّ في الشارع، أو الفلّاحات عندما يذهبون إلى نافورة أو الحصاد"².

ومن الذين جاءوا بعد 'لويس رين' وسائره في طرحه السابق لكن بأسلوب مختلف، الضابط 'هـ. لافيون' (H. Lavion)³ ففي كتابه: 'الجزائر المسلمة في الماضي والحاضر والمستقبل' الذي صدر عام 1914م يقول: "في الجزائر المسلمة، المرأة أكثر تأثيراً وأقلّ عبودية عكس ما كنّا نعتقد. لقد عرفناها هنا بطموحها وفضولها وخروقاتها وبراعتها وقوّتها بدموعها أو بفرحها، وبتحفّظها أو تخليها (...). وقدرتها في الحفاظ على جزء معيّن من التأثير على عواطف الرجال والوصول إلى نقاط ضعفهم، وبالتالي قدرتها على تلافي بعض التناقضات التي يضيف عليها القانون الإسلامي شرعية مثل الجمع بين زوجتين"⁴.

¹- Ibid, p.498.

²- Ibid., p.467.

³- محرّر رئيسي بمحافظة عمالة قسنطينة، وموظّف أكاديمي؛ حامل لشهادة في اللغة العربية. أنظر كتابه المذكور.

⁴- H. Lavion: *L'Algérie musulmane dans le passé, le présent et l'avenir*, Augustin Challamel éditeur, Paris, 1914, p.p.109, 110.

ومن الضباط الفرنسيين الذين كان لهم اهتمام بعادات وتقاليده المجتمع الجزائري في القرن التاسع عشر أيضاً؛ العقيد: 'إدوارد فيو' (Edouard Villot)¹، الذي وضع مؤلفه: 'أعراف وعادات ومؤسسات الأهالي في الجزائر'²، وتناول فيه الحياة الاجتماعية في الجزائر القرن التاسع عشر، ومكانة المرأة 'الأهلية' وفصل يومياتها وعاداتها وطقوسها من الميلاد إلى الوفاة، وكان من بين الضباط العسكريين الذين قالوا بأن وضع المرأة المسلمة في الجزائر ليس بذلك السوء الذي تصوّره بعض الكتابات الكولونiale الاستشراقية.

يمكن أن نذكر أيضاً ما كتبه الرائد 'ليون لوهيرو' (Léon Leheraux)³ عن الزواج في الصحراء، من خلال كتابه: 'مسلمو 1938: زواج عربي في الجنوب الجزائري'⁴، الذي ذكر فيه الأسر الكبيرة الموالية للاستعمار بالجنوب، كعائلة 'بوعزيز بن قانا'، و عائلة 'بوعكاز' و عائلة 'بني سماية'، والمصاهرة بين عائلي 'بني قانة' و 'بني سماية' عام 1938م وأتى أيضاً على ذكر الكتابات النسوية التي تناولت موضوع 'المرأة الأهلية'، فضلا عن بعض الأعمال الأكاديمية حول الموضوع ذاته.

¹ - (1836-1908): ضابط عسكري برتبة مقدم سلاح المشاة، وقبلها كان نقيباً بفوج المسلحين الجزائريين الثاني بقسنطينة (1871)، وحامل وسام جوقة الشرف (1882). ترك العديد من الأعمال التي تروي ذكريات ومسار الضباط العسكريين الذين عمل إلى جانبهم في الجزائر. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/10699781/etienne-cecile-edouard_villot/

تاريخ الاطلاع: 2020/04/28، سا: 13:11.

² - صدر الكتاب لأول مرة عام 1871م تحت اسم مؤلفه النقيب 'شارل فيو' قائد المكتب العربي، ثم كانت له طبعة ثانية عام 1875م، ولا ندري هل هو نفسه 'إدوارد فيو' الذي ذكرناه سابقاً أم هو ضابط آخر. يُنظر:

Charles Villot (Capitaine): **Mœurs, Coutumes et Institutions des indigènes de l'Algérie**, Ed.2, L.Arnolet, Constantine, 1875.

Voir aussi: Edmond Douaté: **Magie et Religion...**, Op.cit, p.24.

³ - (1885-1956): ضابط فرنسي؛ انخرط بداية في فرقة الزوّاف بالجزائر عام 1904م، ثم التحق بفرقة الخيالة 1907م، وصار نقيباً عام 1926م، ففائد كتيبة عام 1936م، ثم نائباً لمدير الشؤون الأهلية في الحكومة العامة بالجزائر، كانت له مساهمات في صحيفة: 'أصدقاء الصحراء' عام 1938م. يُنظر:

تاريخ الاطلاع: 2020/04/28، سا: 18:28. https://data.bnf.fr/fr/12936020/leon_lehuraux/.

⁴ - Léon Leheraux: **Musulmans 1938: Un mariage arabe dans Le sud Algérien**, Editions Baconnier, Alger, 1938, 113 p.

3-2- صورة المرأة 'الأهلية' في ضوء كتابات 'هانوتو' و 'لوتورنو':

لا يمكننا الحديث عن أعمال الضباط العسكريين الفرنسيين في جزائر القرن التاسع عشر؛ دون أن نقدّم دراسة أخرى مهمّة، كانت حول المجتمع القبائلي ومكانة المرأة فيه، هي دراسة 'هانوتو' و 'لوتورنو'، التي صدرت في ثلاثة أجزاء، وقد خصص الكاتبان الجزء الأول منها لوصف بلاد القبائل وعاداتها، كما تضمّنت الدراسة جداول تشير إلى بعض المصطلحات المستخدمة والتي تخصّ المرأة، فضلا عن تناول عاداتها وتقاليدها في اللباس والزينة واستخدام الكحل وغيره، وطرق إعدادها الطعام، وعادة الوشم التي فصل فيها الكاتبان¹ من حيث الشكل والممارسة.

بخصوص عادة الوشم عند القبائل كتب 'هانوتو' و 'لوتورنو' مايلي: "يمكن أن نقول أنّ القبائل حافظوا على ذكرى المسيح؛ باعتبارها دين أجدادهم، والوشم هو الدليل من خلال رمز الصليب الذي تتّخذة النساء. السؤال الذي يطرح نفسه (حسبهما) هل كان القبائل مسيحيين على الإطلاق؟ لا يوجد أمر يقيني (...). يبدو لنا أنّ الوشم على شكل صليب؛ تبقى حجّة ضعيفة لإثبات اعتناق القبائل (البربر) المسيحية، وبالتأكيد فهو تقليد قديم فقط، مثلما يجسّد بعض الفنّانين رمز الصليبان في أعمالهم؛ تقليداً لغيرهم دون نية الرمزية الدينية؛ ألا يمكن أن ينطبق هذا على الوشم القبائلي؟"².

ومن بين ما ذكره عن الأمراض التي تصيب النساء وطرق التطيب: "تتعرّض النساء القبائليات لخطر الأمراض بشكل دائم، وخاصة الإصابة بعدوى الملاريا؛ لأنهنّ يقمن بأعمال الزراعة في الحقول والبساتين في الصيف والخريف، هذه البساتين التي تكون عادة بالقرب من مجرى الأنهار أو بين الهضاب الضيقة؛ أين يتمّ جلب الماء من المجاري

¹- A. Hanoteau ; A. Letourneux, T.1, Op.cit, p.342 et delà.

² - Ibid., p.312.

والقنوات الصغيرة، وهذه الحقول سرعان ما تصبح موحلة، والنساء تغوص فيها وتمضي يومها هناك تحت أشعة الشمس (...). ومن الصعب تحديد سبب إحجام القبائل عن التطعيم، والنساء يتجنبن إعطاءنا تفسيرات، هنّ يقلن أنّ اللّقاح يترك على أذرع أطفالهنّ علامة، إنهم يعتبرونها دليلاً على العبودية والخضوع لفرنسا، وقيل لنا أيضاً أنّ اللّقاح يجعل الزوجات عقيمت وأبناءهنّ عاجزون¹.

وشرح 'هانوتو' و 'لوتورنو' أيضاً بعض الطرق التقليدية في التداوي والتطبيب، حيث ورد اسم امرأة بدوية تدعى 'آيني نايت عمارة' (Aîni Naît Amara) تلميذة طبيب يدعى 'حاج محمد' الذي كان يداوي نزلات البرد والجذري، أما هذه المرأة فكانت تتباهى بالمعرفة الطبية وطرق علاج بعض الأمراض؛ مثل التهاب الحنجرة والشعب الهوائية². وعرضاً بالتفصيل الأعمال الشاقة التي تؤديها النساء في الحقول والبساتين إلى جانب الرجال، كما تطرقا إلى المصنوعات العديدة التي تقوم بها المرأة القبائلية؛ كصناعة الزيت والصابون والملابس الجلدية والصوفية والمنسوجات، والشمع والفخار، والطرز وصناعة الحلّيّ والمنقوشات... فضلاً عن أعمال التجارة³.

في الجزء الثاني من هذا الكتاب تناول 'هانوتو' و'لوتورنو'؛ التنظيم السياسي والإداري للمجتمع القبائلي، وقد أشارا إلى فتوى حرمان المرأة القبائلية من الميراث، ومن الأمور اللافتة التي ذكراها: "لا تبقى النساء غير نشطات خلال الحرب؛ إنهنّ يقمن بتدوير الرصاص وتحضير الخراطيش وإعداد الطعام، وفي كثير من الأحيان يظهرن في ساحة المعركة متزيّئات بمجوهراتهنّ؛ حيث صرخاتهنّ تختلط مع صوت البارود، وأغانيهنّ

¹ - Ibid., p.354, 357.

² - Ibid., p.393.

³ - Ibid., p.453 et delà.

الثورية تنير حماسة المقاتلين إلى حدّ الهذيان (...). النساء والأطفال كحلّ احترام دينيّ، والسيطرة على قرية لا يؤدّي التجاوزات المخزية التي تقوم بها الجيوش عادة"¹.

وذكرا أنّ النساء في منطقة القبائل مسموح لهنّ بالخروج والتجوال، باستثناء زوجات 'المرابطين' اللواتي لا يخرجن بحرية، واللواتي يسترن وجوههنّ أمام الأجنبيّ، وفي القرى التي يكون كلّ ساكنيها من 'المرابطين'؛ النساء تبعاً للأعراف يخرجن بوجه مكشوف، وعن تعدّد الزوجات قالوا أنّ: "تعدّد الزوجات بشكل عام يقتصر على المرابطين الأغنياء القادرين على تحمّل التكاليف، والقبائل لا يستخدمون هذه الحرية التي منحها لهم القرآن؛ لأنّ الفقر أو الجشع فقط يمنعهم من ذلك"².

وفي جانب الأحوال الشخصية للمرأة؛ تناولنا قضية غياب الزوج أو فقدانه، حيث تستطيع المرأة إعادة الزواج بعد مرور أربعة سنوات من تاريخ رحيل الزوج، مع وجود تجاوزات في تطبيق هذه المدة التي قد تزيد أو تنقص من عرش إلى آخر، وفق الأعراف المحلية، وتأسفاً لإجبار المرأة على الزواج أو بيعها كما وصفوا ذلك، حيث في "مجتمع محلي صغير ومنغلق لا تُحترم المرأة، والزواج بالنسبة لهم ليس اتحاداً حميماً بين كائنين تندمج فرديتهما في التقاء على المودّة، ولا مجتمع يتمتّع في كل فرد بحقوقه بالانسجام مع واجباته، بل تُشترى المرأة وتسلم في غالب الأحيان رغماً عن إرادتها، فالمرأة القبائلية ليست لها شخصية قانونية، وعند الحديث عن دور المرأة في منطقة القبائل يجب أن نتجرّد من الأخطاء التي تروّجها بعض الكتابات"³. واعتبرا أنّ العرف القبائلي هو أكثر الأعراف

¹ - A. Hanoteau ; A. Letourneux, T.2, Op.cit, p.p.75-76.

² - Ibid., p.84.

³ - Ibid., p.148.

قسوة بالنسبة للمرأة فيما يتعلّق بالطلاق، حيث يُعطي الحق كاملاً للزوج في كلّ الظروف، لأنّها لا تعتبر ارتبطت بالزوج عن طريق علاقة زواج وإنّما هو من اشتراها¹.

ومن أوجه التمييز بين المرأة والرجل في المجتمع القبائلي، تلك التي ذكرها الكاتبان والمتعلّقة بالحدود الخاصة بالزنا وارتكاب جريمة القتل... وغيرها؛ القانون العرفي المطبّق عند بعض الأعراس يُنفي أحكام الشرع الإسلامي، ففي حدّ القتل على سبيل المثال؛ إذا قتل الزوج زوجته فإنّه يدفع الدية فقط، بينما يعتبر قتل الزوجة لزوجها جريمة اجتماعية، ويُحكّم عليها بالموت، ويتمّ رجحها من قبل القرية كلّها، بالمقابل حين يتعلّق الأمر بشرف المرأة (الحُرمة) فإنّ أفراد القرية كلّهم يتدخلون ومجبرون على إنفاذ الحكم في الجاني والانتقام منه؛ لأنّه الأمر هنا يتعلّق بشرف الجماعة ككل².

إنّ تركيز 'هانوتو' و 'لوتورنو' على المرأة القبائلية دون سواها؛ يندرج ضمن الإستراتيجية الاستيطانية، التي تقوم على سياسة 'فرّق تسد'، والتي عملت على خلق ثنائية عربي/قبائلي؛ لهذا الغرض توجّهت جهودهم وأعمالهم العسكرية والعلمية والثقافية؛ وحتى الدينية التنصيرية؛ إلى هذه المنطقة، وكانت المرأة القبائلية جزء من هذه الإستراتيجية، فخصّها الفرنسيون بأبحاث معمّقة طيلة عهد الاحتلال، و أولوا دراسة أحوالها الاجتماعية، ووضعها القانوني والثقافي والديني عنايةً خاصة؛ لم تحظ بها نساء بقية مناطق الجزائر.

3-3- المرأة الجزائرية بأعين الضابط 'أوجين دوماس':

خلّف الضابط 'أوجين دوماس' (Eugene Daumas)³ عدة أعمال حول عادات وأعراف المجتمع الجزائري والزواوي بشكل خاص، كما خصّ المرأة بكتاب كامل

¹ - Ibid., p.177.

² - A. Hanoteau ; A. Letourneux, T.3, Op.cit, p. p.71, 208.

³ - ضابط عسكري برتبة جنرال؛ سيناتور وقنصل وكاتب فرنسي، ولد يوم 04 سبتمبر 1803م في منطقة 'ديليمون' بسوسرا، والتحق بالجيش الفرنسي كمتطوّع ابتداء من عام 1822م، سُمّي ملازماً أولاً في سنة

عنوانه: 'المرأة العربية' (La femme Arabe)، وهو يقصد هنا المرأة الجزائرية، والذي دوّنه في آخر أيام حياته، ونشر لأول مرة في المجلة الإفريقية سنة 1912م¹، وقدم له 'أوغسطين برنارد' (Augustin Bernard)².

1827م، تمّ إرساله إلى مدرسة 'ساومير' (Saumur) العسكرية للخيالة، وقدم إلى الجزائر سنة 1835م تحت إمرة المارشال 'كلوزيل'، حيث أرسل إلى منطقة معسكر ثم تلمسان، أين انخرط بحماس في دراسة اللغة العربية، واكتسب بسرعة معلومات واسعة ومميّزة عن العادات والتقاليد الجزائرية، وبين عامي 1837 و 1839م؛ عمل في منطقة معسكر قنصلاً للدولة الفرنسية لدى الأمير عبد القادر، أوكل إليه الجنرال 'لامورسيير' (de la Moricière) قيادة إدارة الشؤون العربية بعمالة وهران، وبعدها كلفه الجنرال بيجو (Bugeaud) بإدارة الشؤون الأهلية في كامل القطر الجزائري، وقد أشرف 'دوماس' بنفسه على تنظيم المكاتب العربية، ورسم السياسة الفرنسية تجاه السكان 'الأهالي'، في ديسمبر من عام 1847م؛ أرسل 'دوماس' إلى فور لومالغي (fort Lamalgue) برفقة الأمير، وعاد سنة 1949م؛ ليشترك في عملية إخضاع قبيلة 'بني سالم' التي رفضت الخضوع للسلطة الاستعمارية بعد استسلام الأمير عبد القادر، ثم تولّى عام 1850 إدارة للشؤون الجزائرية = (الأهلية) لدى وزارة الحربية الفرنسية، ورقّي إلى رتبة جنرال في 14 جانفي عام 1853م، ثم مستشار دولة؛ ثم صار سيناتوراً في 12 أوت عام 1857م، وحصل على صليب وسام جوقة الشرف في 28 ديسمبر 1868م. وتوفي 'دوماس' بـ كامبلان (Camblanes) قرب بوردو (Bordeaux) في شهر ماي سنة 1871م. خلف 'أوجين دوماس' العديد من الأعمال، وقد تُرجمت الرئيسية منها إلى اللغتين الإسبانية والألمانية، وصدرت في فرنسا طبعات مختلفة لأعماله حول الحياة والمجتمع في الجزائر؛ وعن الصحراء والخيول والحياة في منطقة القبائل خصوصاً... من بينها: (قبائل الشرق 1844 les Kabyles de l'est)، (الصحراء الجزائرية Le Sahara algérien) الصادر بباريس عام 1845م، المجتمع القبائلي la société kabyle) سنة 1958م، (الحياة العربية والمجتمع المسلم la vie arabe et la société musulmane) 1869م، وغيرها من الأعمال التي تهتم بالحياة العربية والمجتمع المحلي، وكان له شغفٌ بالغٌ بالصحراء والخيول العربية التي قدّم حولها عدّة مؤلفات. يُنظر:

Narcisse Faucon: **Le livre d'or de l'Algérie**, T.1^{er} : biographies 1830-1889, Challamel et Cie Editeurs, Paris, 1889, p.p. 169-170.

¹ - ذكر 'برنارد' أنّه توصّل إلى مخطوط هذا الكتاب بواسطة حفيد 'دوماس'؛ الملازم 'موريس بيراس' (Maurice Perras)، وابن شقيقه 'بواسلاندي ديبرن' (Boislandry-Dubern)، وأنّه لم يكن يهدف من وراء تقديمه إلى كتابة سيرة ذاتية للجنرال دوماس، وإنّما لتقديم بعض الملاحظات المختصرة عنه. يُنظر:

² - Augustin Bernard : « Général DAUMAS : la femme arabe », *Revue Africaine*, Vol.56, n°281, premier trimestre 1912.

وفي كتابات دوماس نجد اهتماماً بالمرأة الجزائرية منذ ولادتها إلى وفاتها، فقد تناول الاحتفالات التي تتخلل هذه المناسبة، ثم طفولتها وتعليمها؛ والرقابة التي تُفرض عليها في شبابه (فترة المراهقة)، والمكانة التي تحظى بها وسط أسرتها وقبيلتها وفقاً للأعراف، ثم زينتها ولباسها وطقوسها، وتزويجها وما يصحب ذلك من أحكام شرعية وتقاليد مجتمعية متداولة، والقضايا الشخصية التي تتعلق بحياتها الزوجية من أحكام الزواج ومعاملة الزوج لها، والواجبات المفروضة عليها كزوجة وأمّ تجاه زوجها وأبنائها، وحقوقها حين تطليقها أو خلعها، وصولاً إلى وفاتها وما يصحب ذلك من مظاهر وطقوس.

كانت بدايات اهتمام الرجل بقضايا المرأة المسلمة من خلال الأسئلة التي وجهها للأمير عبد القادر¹، والتي دارت حول مسائل الأحوال الشخصية للمرأة من زواج وطلاق وخلع، قضية تعدد الزوجات، كما استفسر عن مكانة المرأة عند العرب وقيمتها الاجتماعية، وأعمالها خارج بيتها، وإهمال العرب والمسلمين لتعليم بناتهم، حيث خصّه الأمير بإجابة جريئة بهذا الخصوص: "اعلم أنّ الكتابة مثل السيّف من وظائف الرجال لا من لوازم النساء (...). و أما النساء فلا يُؤلّفن كتاباً ولا يستنبطن صناعة ولا فائدة؛ فيحتجن إلى تقييدها بالكتابة لينتفع بها الناس، ولا يتولّى النساء قبض خراج ولا صرف مال في مصارفه، ولا بشيء من الوظائف التي تحتاج إلى الكتابة، فلا فائدة في تعليم النساء الكتابة، بل فيها ضرر كبير؛ لأنّ الكتابة عين العيون بما يُبصر الشاهد الغائب، وفي الكتابة تعبير عن الضمير بما لا ينطق به اللسان، بل الكتابة أبلغ من اللسان (...). فقد تكون المرأة لا تقدر على لقاء من تهواه ولا تقدر على أن تتكلّم معه بحضرة الغير، وكذلك الرجل قد لا يجد سبيلاً للقاء من يهواها والكلام معها بحضرة غيره، فإذا كانت المرأة عارفة بالكتابة

¹ - للمزيد يُنظر: الأمير محمد بن عبد القادر، المصدر السابق، ص 161 وما بعدها.

سهل طريق الزنا بينهما بسبب الكتابة، فلهذا نهى شرع الإسلام عن تعليم النساء الكتابة، وهو حق لا يُنكره عاقل، فتعليم الكتابة واجب على الرجال؛ مكروه في حق النساء¹.

هذه الإجابات التي توصل بها 'دوماس' من طرف الأمير عبد القادر، أفادته كثيرا في رسم صورة عن مكانة المرأة وموقف الشرع الإسلامي في المسائل التي تخصها، وقد نقل بعض هذه الأحكام والآثار حرفيا في مؤلفاته اللاحقة، وبحكم احتكاكه بالقبائل العربية وشيوخها، وحضوره المناسبات المختلفة؛ بحكم مهامه كضابط في صفوف الجيش الفرنسي، ثم مديراً للشؤون العربية؛ وهو ما مكّنه من الحصول على العديد من التقارير عن الشأن الأهلي، من طرف المتعاونين معه والعاملين تحت سلطته.

لقد دارت في خلد 'دوماس' الكثير من الأسئلة عن المجتمع الأهلي والمرأة؛ لذلك نجده يتساءل في مستهل كتابه 'المرأة العربية' عن "دور المرأة عند العرب؟ هذا السؤال الذي طرحه بحجة الفضول الأوربي، ولا يخرج عن سياق المشروع الاستعماري لاستكشاف المجتمع المحلي بغية تسهيل عملية السيطرة عليه. وقد أردف 'دوماس': "أمام جاذبية قاهرة نحو هذا الموضوع بفعل الغموض الذي يحيط به؛ ولأن الأمر يتعلق بهذا المخلوق (المرأة) المحصور في الحيز الأكثر سرية من الخيمة أو البيت، وحتى وإن ظهرت في الخارج، ستختفي أيضا تحت الحجاب الذي يغلفها أمام فضول تحرياتنا. هذا الفضول يأتي أيضا نتيجة شعور فلسفي أمام هذا التباين اللافت للتظنر مع وجود النساء الأوربيات"².

ومن بين انطباعات 'دوماس' حول الفتاة العربية عند زواجها؛ أنها لا تفقد الاسم الذي كانت تُنسب به إلى عائلة والدها، وتبقى تُنادى به، فتكون دائما 'عائشة بنت

¹ - المصدر نفسه، ص ص 179-180.

² - Le Général E. Daumas: **La femme arabe**, Typographie Adolphe Jordan, Alger, 1912, p.5.

حسن' (على سبيل المثال)، والحديث هنا ليس عن الكنية؛ بل عن اسم العلم¹. وذكر أنّ القبائل العربية توظف الزواج وعلاقات المصاهرة لتقوية الأواصر فيما بينها وتعزيز علاقاتها وتقوية روابطها؛ لذلك فعندما يقصد شيخ القبيلة والد فتاة طلبها رجال قبيلة أخرى لابنهم؛ فوالد المخطوبة يوافق في غالب الأحيان نظراً لمكانة شيخ القبيلة ووجوب طاعته، كما كان هذا الأخير يذكره بقول القدماء: 'القبيلة لا تُشترى إلا بامرأة'².

ويعتبر 'دوماس' أنّ المرأة في المجتمع المحلي والقبائلي خصوصاً يتم 'بيعها'، فالصداق هو المقابل المادي الذي يأخذه والد الفتاة أو ولي أمرها؛ مقابل تملكها بشكل كامل للزوج، وأغلب البنات يُنظر إليهن على أنّهن ثروة داخل البيت، هذا الصداق الذي يزيد في المتوسط عن مائة دورو³، وحينما لا يتوفّر هذا المبلغ للزوج، يتم الاتفاق معه على دفعه

¹ - E. Dumas, La femme arabe, Op.cit, p.p.9-10.

² - Ibid., p.36.

يبدو أنّ عادة تزويج البنات من طرف شيوخ القبائل قد استمرت ولم تندثر، رغم أنّ إدارة الاحتلال قامت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتفكيك أو تفتيت القبيلة ككيان اجتماعي موحد (تحدثنا عنها في الفصل الأول) وإعادة رسم الخارطة الاجتماعية للجزائر، فعملية التفتيت هذه لم تؤثر على الأقل في البنى التقليدية للمجتمع لمنطقة الأوراس وجبال القبائل والمرتفعات الجبلية، بينما انحلت في مناطق السهول، يقول عالم الاجتماع ب. بورديو: "استطاع النظام الاجتماعي؛ بتقاليد وقيمه، أن يستمرّ بفعل التكيف... أما في الحالة الثانية (السهول) فقد أدى التدمير الحادّ لأسس المجتمع السابق الاقتصادية إلى تفتيت المجموعات الاجتماعية والقضاء على التقاليد الثقافية". للمزيد يُنظر: عددي الهواري، المرجع السابق، ص.ص 119-120.

³ - هذا ما يؤكده 'جوزيف دسبارمي، حيث بلغت قيمة الصداق في المجتمع الجزائري مع مطلع القرن العشرين 100 دورو، حيث يدفع نصفه ويرجأ النصف الآخر حتى تسير المرأة إلى بيت زوجها. ويذكر أنّ الصداق عن المسلمين حسب المقدرة بين 100 فرنك و ثلاثة آلاف فرنك (الأثرياء)، وكثرة صداق الطبقة المتوسطة 500 فرنك. يُنظر: دسبارمي: كتاب الفوايد في العوايد... المصدر السابق، ص.ص 51، 53.

حول الصداق وقيمه النقدية في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. يُنظر: عائشة غطاس: "الصداق في مجتمع مدينة الجزائر 1672-1854م"، إنسانيات، ع.4، 1998، Crasc، وهران، 12ص. على الرابط: <https://journals.openedition.org/insaniyat/11645> تم الاطلاع بتاريخ: 2018/05/12، الساعة: 12:30.

خلال شهر أو شهرين، وخلال هذه الفترة يمكنه ارتياد بيت من ستصبح زوجته، وعندما يبرأ ذمته المالية يأخذ الفتاة كخطيبة، ويسير بها أولاً في القرية، ثم يجلبها تحت سقفه¹.

وأكد أنّ ظاهرة تعدّد الزوجات داخل المجتمع الجزائري كانت تُمارس على نطاق ضيق جداً²، وأنّ الأغنياء فقط من يتزوّجون أربع نساء، أما الفقراء فلا يتجاوزون اثنتان غالباً، مع أنّهم يعتبرون التعدّد سبباً لتخفيف بؤس بعض العائلات الفقيرة؛ لكون الرجل يعيل أسرتين، كما ذكر أنّ العرب لا يتزوّجون أربعة نساء في عام واحد؛ وإنّما واحدة فواحدة، وهناك من الأثرياء ينتهي به الحال في سنّ الستين أو السبعين للزواج من فتاة في عمر الخامسة عشر؛ تحت ذريعة ساذجة لكنّها متداولة: 'لا شيء يُطيل العمر والحياة مثل الزواج'³! كما لاحظ 'دوماس' أنّ من الفضائل التي يتمتّع بها المجتمع الصحراوي (التّرقّي) هو قلة تعدّد الزوجات وهي عادة استثنائية بشكل تام⁴ وفق تصوّره.

عكس ما روّجته بعض الكتابات الاستشراقية عن تدني مكانة المرأة المسلمة داخل المجتمع، فقد أقرّ 'دوماس' أنّ المرأة في الجزائر تحظى بمكانة معتبرة، وهذا لا ينفي المهام الكثيرة التي تُوكّل للمرأة الريفية بشكل خاص، حيث تتحمّل الكثير من أعباء الحياة

يبدو أنّ قيمة الصداق كانت مرتفعة جداً ومُبَالغ فيها بالنسبة للطبقات المتوسطة والفقيرة من المجتمع الجزائري، وكانت مصدر مباحة وتفاحر لدى كل الفئات الاجتماعية في جزائر ق19م، بينما العائلات الثرية كانت تطلب صداق بمبلغ مرتفع جداً، وإذا كان 'دوماس' يقصد هنا مائة دورو إسباني؛ فهو مبلغ معتبر في ذلك الوقت، فقد كان يساوي 5 فرنكات فرنسية و40 سنتيما، وهو مبلغ يعادل راتب سنة كاملة لموظّف في منصب محترم. يُنظر:

D. marcel : **Annuaire algérien pour l'an 1842**, 1^{er} partie, p.98.

¹- M. (Eugène) Daumas ; M. Fabar, **La grande Kabylie-études historiques**, L-Hachette, Paris ; Alger 1847, p.p.38-39.

²- سنرى هل تفاقمت ظاهرة التعدّد في الجزائر مطلع القرن العشرين؟ فالقارئ للمصادر الفرنسية حول المرأة في الكتابات النسوية بصفة خاصة خلال ثلاثينات القرن العشرين؛ يجدها تتخذ من مسألة تعدّد الزوجات ذريعة لانتقاد عادات وتقاليد المجتمع المسلم، وللطعن في أحكام الشريعة الإسلامية واعتبارها جائرة في حقّ المرأة.

³- E. Daumas: **La femme arabe**, op.cit, p.21.

⁴- E. Daumas: **mœurs et coutumes de l'Algérie: Tell- Kabylie- Sahara**, Librairie L-Hachette, Paris, 1853, p.365.

اليومية، في حين المرأة في الخيمات الكبيرة لا تقوم بأي عمل شاق، نظراً لنسبها وسلطتها على أفراد العائلة، فهي تسيّر منزلها و تتصرّف في خادماها و عبيدها، و تهتمّ بأطفالها ونظافتها، و تقوم بأشغال الحياكة و الطرز، كما ترتاد الحمّامات في المدن و تزور صديقاتها، و تتقرّب إلى الأضرحة و تزور المقابر و تقدّم الصدقات يوم الجمعة، لا تشعر بالإهمال المجتمعي و لا تعيش الترف الذي تعرفه المجتمعات الأوروبية، فهي مُعتادة على الحياة داخل بيتها و الاهتمام بذاتها.. و غالباً ما نجدها تشعر بالسعادة¹. و يعتقد 'دوماس' أنّ النساء القبائليات يتمتّعن بحيزٍ أوسع من الحرية مقارنةً بنظيرتهن في المناطق العربية؛ فهنّ يمكنهنّ ولوج الأسواق لقضاء احتياجات المنزل و للبيع و الشراء، بينما المرأة العربية لا يمكنها الاجتماع بالرجال، إنّها تحافظ دوماً على غطاء و وجهها أو حجابها مع الحائك، في حين المرأة القبائلية تجلس أينما تشاء، تتحدّث و تغنّي، بوجه مكشوف².

بينما أساء للقبائل من خلال حديثه عن المرأة المطلّقة أو الأرملة التي تخضع لرقابة مجتمعية صارمة، في حين اعتبر هو تحرّرها مدعاة لفجورها: "المرأة العربية لا تستطيع الأكل مع زوجها، وأيضا مع ضيوفه، والمرأة القبائلية تأخذ وجبتها مع العائلة، إنّها تشاركهم الطعام حتى وإن حضر أجنب (غرباء)، المرأة العربية لا تكون حرة أبداً في حركاتها، بينما المرأة القبائلية التي تخلّى عنها زوجها، ترجع إلى بيت أبيها أو أخيها، و طالما تستمر عزلتها، فإنها تتمتّع بحرية كاملة؛ المرأة المطلّقة تكون على الحالة نفسها، هذا ما من شأنه أن يفسّر رأي بعض المؤرخين، والذي ينسبُ إلى القبائل عرض زوجاتهم أو بناتهم على الضيوف،

¹- Ibid, p.p.51-52.

²- M. Daumas ; M. Fabar, op.cit, p.40.

الملاحظة نفسها أبدتها الطيبية 'دوروتي شيلبي' عن المرأة الشاوية في الأوراس، فذكرت أنّها تختلف عن المرأة العربية، يمكن الولوج إلى عالمها؛ فهي غير محجّبة (من الاحتجاب) ولا ترتدي الحجاب، ولا تختفي عن نظرات الرجال. يُنظر: Dorothee Chellier, Op.cit, p.7.

ويبدو أنّ وجود عدد من النساء المتحرّرات في كل قبيلة قد شكّل نوع من الفجور غير الطبيعي، إنّهُ أمر متكرّر بين العرب، وهو الفعل الذي تكون عقوبته الإعدام¹.

وعن ممارسة السحر ذكر 'دوماس' أنّ بعض النسوة الخبيرات (العجائز) يستخدمون مستحضرات من أعشاب مختلفة²، تحضّر مع ذكر طلاسّم بطريقة مخيفة عند خلطها ببعض المواد التي لا يعرفها غيرهم، وتستخدم هذه الوصفات من أجل جلب المحبة أو الانتقام من الأعداء، كما يستعملن ماء الزعفران وعظام الموتى والسكاكين ومأكولات مختلفة، وقطع نحاسية وغيرها³. وهو الأمر نفسه الذي ذكره عند حديثه عن المجتمع القبائلي، حيث يُعتقد أنّ هناك عجائز ممن لهنّ قوة تأثير في بعض مناحي الحياة، في الجانب العاطفي خاصة؛ إذ لديهن طقوسهن التي تجعلك تحب أو تكره، كما بإمكانهنّ مساعدة المرأة التي تريد الحصول على الطلاق⁴.

أما في كتابه: 'الحياة العربية والمجتمع المسلم' (La vie arabe et la société musulmane)، فقد خصّص فصلا للحديث عن المرأة العربية في حالة المرض، وما يتخلّله من طقوس ومظاهر تصحب وتلي موتها... ومن بين ما ذكره أنّ المرأة حين يصيبها مرض خطير فإنّ زوجها لا يدّخر أدنى جهد لإنقاذها، فهو يطلب الطبيب أوّلا، والذي يكون في الغالب أحد المجرّبين فقط، كما بالأعشاب الطبيعية التي تعدّها العجائز، ثم يلجأ إلى الطُّلبة (Tolbas)، الذين يعتمدون على التداوي باستخدام الصيغ الدينية (الخط

¹- M. Daumas; M. Fabar, Op.cit, p.p.41-42.

²- قد لا تكون كل هذه الخلطات التي يتمّ تحضيرها من الأعشاب غرضها السحر، فعملية التداوي بالأعشاب لدى النساء كبيرات السنّ (العجائز) كان جدّ شائع في القرن التاسع عشر وطيلة فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، بسبب غياب الرعاية الصحية من قبل الإدارة الاستعمارية، ورفض السكان المحليين التداوي لدى الطبيب الأجنبي (الرومي) مقابل انتشار الأمراض والأوبئة الفتّاقة التي حاول الجزائريون الاستشفاء منها باستخدام الطبّ التقليدي.

³- زاجية هرباش: "الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين: دوماس أمثودجا"، مجلة عصور الجديدة، ع.6 (عدد خاص)، 2012، جامعة وهران، ص ص34-35.

⁴- M. Daumas ; M. Fabar, op.cit, p.22.

khott) والطلاسم (Talismans)، وعندما يصل زوجها إلى درجة اليأس من بقائها على قيد الحياة فإنه يعمد إلى إخراج الصدقات¹.

لقد سيطرت الإثنوغرافيا العسكرية الكولونiale على جلّ الأعمال التي خصّصت للمرأة ووضعها داخل المجتمع 'الأهلي'، ولعلّ الظروف التي توفّرت للضباط العسكريين الفرنسيين ساهمت في ذلك إلى حدّ بعيد، فمناصبهم في إدارة مكاتب الشؤون العربية، واتصالهم المستمرّ بالأعيان وشيوخ القبائل وقادة الأعراش والدواوير؛ سمح لهم بما يكن مسموحاً به لغيرهم، من تدوين ملاحظاتهم ومشاهداتهم عن كلّ ما يُحيط بعالم المرأة 'الأهلية'، وودّونوا انطباعاتهم عن محيطها الاجتماعي والثقافي، وحياتها وطقوسها اليومية، وسلوكاتها وأخلاقها، كما أنّ إشراف هؤلاء الضباط على من هم تحت إمرتهم؛ مكّنهم كذلك من توظيف وتسخير هذه العناصر لجمع المعطيات عن الحياة الاجتماعية في القبائل العربية، وهي المعلومات التي استغلوها في أعمالهم ومؤلفاتهم.

4- قضايا المرأة 'الأهلية' في الكتابات النسوية الفرنسية:

إذا كان القرن التاسع عشر قد شهد اهتمام رواد الفنّ والاستشراق، والأنثروبولوجيين والضباط العسكريين بالمرأة في الجزائر المستعمرة، فإنّ نهاية هذا القرن ومطلع القرن العشرين، شهدت اقتحام مجال الكتابة حول المرأة المسلمة في الجزائر وطرح مختلف قضايا من طرف نساء فرنسيات؛ كنّ ناشطات ضمن الحركة النسوية الفرنسية، على غرار 'هوبرتين أوكلير'، أو مستوطنات بالجزائر مثل 'ماري بوجيجا' وغيرها؛ وقد صرّن قريبات من الحياة النسوية 'الأهلية'. فكيف صوّرت هذه الكتابات النسوية وضع المرأة 'الأهلية'؟ وكيف نظرن إلى قضاياها المختلفة؟

¹ E. Daumas: *La vie arabe et la société musulmane*, Op.cit, p.132.

4-1- اهتمام الكاتبات الأوريبات بالمرأة الجزائرية منذ مطلع ق 20م:

ظهرت العديد من الأعمال التي تتعلق بالمرأة 'الأهلية' في الجزائر ضمن الأعمال الأدبية والروائية لكاتبات وروائيات فرنسيات وغير فرنسيات، ساهمن في تكوين نظرة استعمارية تجاه المرأة المسلمة، سيما من طرف روائيات فرنسيات ويهوديات وأوريبات عشن في الجزائر¹ أو مررن بها لفترات في إطار رحلات استكشافية لإفريقيا والمشرق.

من بين أولى التقارير التي ظهرت مع مطلع القرن العشرين، وتولت إعدادها امرأة فرنسية؛ بتكليف من الحاكم العام الفرنسي في الجزائر آنذاك، ذلك التقرير الذي أعدته السيدة 'سيمون بيرنارد داطانو' (Simone-Bernard d'Attanoux)² عام 1902م، وهو يدخل في إطار الدعاية الاستعمارية في أوساط 'الأهالي' الجزائريين، وقد عبّرت صاحبته عن رضاها بالترحاب الذي لاقته من طرف النساء العربيات (الجزائريات)، وأكدت: "أنا نحن (الفرنسيون) نجعل الكثير عن 'العالم الأهلي' الذي لا نعرفه إلا من خلال صور غير دقيقة وغير جذّابة، ومن هنا حدث سوء الفهم الموجود بين العرقين، ومن هنا أيضا تظهر الحاجة لمعرفة أنفسنا وما نحن عليه حقاً. ومن المؤسف أنه باستثناء حالات نادرة؛ النساء الفرنسيات لم تكن لديهن النية لربط التواصل مع النساء الأهليات، والعناية

¹ - يحياوي مسعودة: المجتمع المسلم والجماعات الأوريبية في جزائر القرن العشرين: حقائق وإيديولوجيات وأساطير وغطيات، مج.2، تر. محمد المعراجي، دار هومة، الجزائر، 2010، ص.524.

² - سيمون مونتيني (Simone de Montigny): زوجة الضابط والمستكشف 'جوزيف أنطوان برنارد داطانو'، خريج مدرسة سان سير العسكرية، وحامل وسام جوقة الشرف سنة 1895م، كانت ضابط أكاديمية ومستكشفة وناشطة نسوية. يُنظر: <https://www.louisdarcussia.com/le-comte-d-attanoux-1> تاريخ الاطلاع:

بهنّ والتعامل معهنّ، وهذا ما يسمح لهنّ بمعرفة أنّ هؤلاء النسوة يفهمن ويشعرن بشكل جيد مثلنا"¹.

وخلافاً للنظرة النمطية السائدة لدى الفرنسيين عن المرأة الأهلية؛ نجد هذه السيّدة تكتب: "الملاحظة الهامة التي توصلت إليها بشكل جليّ، هي أنّ الرأي السائد عموماً حول الذهنية المنحطة للمرأة (المسلمة)، والسلبية المطلقة التي تميّز دورها في الأسرة، هي خاطئة من جميع الأوجه، الأخطاء الذي تقع فيه في هذا الموضوع؛ ناجمة عن الميل المؤذي للعقل البشري إلى الاستنتاج من أحكام عامة، دون شك المرأة (الجزائرية) التي قابلناها في الحقول وعلى قارعة الطرقات، تبدو مستقلة من الحياة وسخيفة، منحنية إلى النصف تحت حمولة ثقيلة جداً، أو تتبع على قدميها سيّدها الذي يمتطي البغل، هذا يعطينا عرضاً يبرر الرأي السائد، لكن يجب ملاحظة بأنّ هذه المرأة 'الفلاحة'، لا تمثّل كلّ النساء الأهليات، ليس أكثر من تلك 'الفلاحة' الفرنسية التي تنحدر من أكثر المناطق تخلفاً في فرنسا، التي لا تمثّل المجتمع النسوي لبلدنا، فنتجاهل كلّ الجزائريات المسلمات اللواتي هنّ محلّ بحثنا، ونحكم عليهنّ من خلال الفئة الوحيدة التي نقابلها (...). على عكس تماماً ما نعتقده بشكل عام، النساء الأهليات اتخذتُ بشأهنّ حكماً جدّ رائع، ذكاء حيوي للغاية، يمتلكن تأثير جدّ كبير على محيطهنّ الذكوري، أنا متأكدة لو أنّ هؤلاء النسوة نلن التعليم الكافي سيكنّ متفوّقات. وبالتّظر إلى حياتها المركّزة والمنطوية على نفسها، ولكونها في حالة تأهب دائم لتبقى الأولى في ذهن الزوج، فهي تتمتع بمهارة وإدراك عميق ودبلوماسية"².

وبحسبها فإنّ الخلل يكمن في النظرة الفرنسية التي تبرز المرأة الأهلية بتساهل على أنّها شيء من الأشياء، "يكفي التحدّث معها لترى أنّها تهتمّ لشيء آخر غير إعداد طبق

¹ - ANOM ; GGA 14H 32: Mission de Madame B. d'ATTANOUX chez les femmes indigènes: Rapport à monsieur le gouverneur général de l'Algérie, Alger 19 Mars 1902.

² - Ibid.

الكسكس، وبأن لها موقف من الأحداث والأشخاص يدلّ على قوّة ملاحظة مدهشة، وبأن تأثيرها على الزوج لا جدال فيه، والقول بأن هذا التأثير يكون حينما تكون شابة أو عندما تصير بيدها السلطة مع تقدّم العمر والخبرة؛ لا أساس له من الصحة، ولا يقول به إلا الذين لم يعطوا الأهمية اللازمة لدراسة المسألة عن قرب"¹.

وتختم تقريرها: "لتأتي الدعاية للأعمال الفرنسية تجاه المرأة بثمارها؛ لا بدّ من أن تُعامل المرأة الأهلية برقّة شديدة، ومن المهم قبل كل شيء عدم تخويف الأزواج، وجعلهم يخشون أن يؤدّي تدخّلنا إلى تغيير أسلوب الحياة وعادات الأسرة المسلمة (...). لدينا مهمّة مزدوجة: معرفة الفرنسيين بالمرأة الأهلية وكسب تعاطفها، ومعرفة المرأة الأهلية بالمرأة الفرنسية، وأن نبين لها أيّ دور وطني يمكنها أن تلعبه باستخدام هذه الأداة الرائعة للدعاية المهملة تماماً (لأننا نجهلها) حتى يومنا هذا"².

هذه المرأة قامت أيضا بتأسيس مدرسة-ورشة بالجزائر العاصمة لتعليم البنات 'الأهليات' مختلف الحرف، كما أشرفت على مدرستين ببرج بوعريريج؛ واحدة في بيت القايد والأخرى في بيت شيخ المدينة، وورشة أخرى في المسيلة كانت تديرها 'السيدة ريفيار' (Mme Rivière) وهي إحدى مساعديّ المتصرف الإداري هناك، وكان الهدف من هذه الورشات تعليم البنات الأهليات كل أشغال الخياطة، وكانت تجمع حوالي 20 فتاة مرتين في أسبوع لإعطائهن الدروس بمساعدة امرأة مترجمة، وقد أخذت على عاتقها مصاريف هذه الورشات، ومنها 10 فرنكات أجرة للمترجمة، بالإضافة إلى شراء مختلف الأغراض والمواد الأولية، كما كانت تقدّم هدايا تشجيعية للبنات المتربصات³.

¹ - Ibid.

² - Ibid.

³ - ANOM, GGA 14H 32: Préfecture de Constantine : Missions Madame Bernard d'Attanoux, 6 Novembre 1902.

كما أسست ورشات في فورناصونال (Fort national) وميشلي (Michelet)¹، وكانت لها مشاريع لتأسيس ورشات أخرى بمنطقة جرجرة، وقد راسلت لهذا الغرض المتصرف الإداري، وذكرت في إحدى مراسلاتها: "إذا أردنا ردم الهوة التي تفصل الشعبين؛ فإنّ المرأة هي التي يجب أن نستهدف، لأنّه عن طريق المرأة سوف نستطيع اختراق الروح الأهلية، وليس دون شك لتشكيلها وفق تصوّرنا، لكن لنخلق بين العنصرين أسس لمستعمرتنا، وتوافق يسمح للتعاون بين الأوربي والأهلي بجني ثماره"².

و أجرت المستشرقة 'أميلي ماري غواشون' (Amélie-Marie Goichon)³، دراسة مستفيضة عن المجتمع النسوي المزابي، وقد جاءت في شكل تحقيق ميداني ضمن مهمّة بتكليف من الحاكم العام الفرنسي آنذاك، وتعدّ دراستها هتة من الأعمال الأكاديمية السوسيو-تاريخية الهامة والفريدة من نوعها حول 'المرأة الميزابية'، والتي صدرت في جزأين: الأول عام 1927م⁴، وأتبعها بدراسة تكميلية صدرت كجزء ثانٍ عام 1931م⁵، بعد أن أقامت الباحثة مرة ثانية بغرداية، وحصلت على معطيات جديدة كما تذكر.

¹ - ANOM, GGA 14H 32: GGA: Au sujet de madame Bernard d'Attanoux, 7 Octobre 1902.

² - ANOM, GGA 14H 32: Simone B. d'Attanoux, 8 Mai 1902.

³ - (1894-1977): أستاذ تاريخ وحضارة البلدان العربية بجامعة السوربون بباريس، أمين مكتبة قسم الطب بجامعة، دكتوراه في الآداب من جامعة باريس عام 1938م. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/12609522/amelie-marie_goichon تم الاطلاع: 2020/04/19، سا: 10:59.

⁴ - A-M. Goichon: **La vie féminine au Mزاب: Etude de sociologie musulmane**, Librairie Orientaliste Paul Ghauthner, Paris, 1927, 345p.

⁵ - A-M. Goichon: **La vie féminine au Mزاب: Etude de sociologie musulmane**, T.2, Librairie Orientaliste Paul Ghauthner, Paris, 1931, 154p.

ترجمت هذه الدراسة إلى اللغة العربية، بعد أن قامت المترجمة بدمج الجزأين الأول والثاني معاً في كتاب واحد؛ باعتبار أن الجزء الثاني عبارة عن ملحق يضمّ بعض الإضافات الصغيرة والتصحيحات لما قد أورده المؤلف في الجزء = الأول. يُنظر: أميلي ماري غواشون: الحياة النسوية في مزاب = **La vie féminine au Mزاب 1927**

تر. سامية نور الدين شلّاط، دار نزهة الألباب للنشر والتوزيع، غرداية، 2019.

تناولت 'أميلي ماري غواشون' حياة المرأة المزابية من الميلاد إلى الوفاة، وقد عاينت عن قرب العادات والتقاليد والأعراف الخاصة بالمجتمع المزابي، ودرست تنظيمات المجتمع المزابي وتشريعاته العائلية، خاصة الأحكام التي تحيط بالمرأة ضمن الإطار الديني والاجتماعي الذي يحكمها، و أوردت بعض أحكام 'كتاب النيل' الذي يعتبر بمثابة دستور يحكم حياة العائلة المزابية، وينظّم الأمور الخاصة بالمجتمع، واللافت أنّه تضمّن قانون يمنع هجرة المرأة المزابية ومغادرة البلاد، كما يحظر عليها الزواج مع أجنبي؛ منعاً لاندثار الطائفة المزابية. كما أقرّت الكاتبة بحصول المرأة المزابية على قدر من التعليم الديني، بما يسمح لها بتسيير شؤونها الأسرية في غياب زوجها الذي يسافر إلى الشمال بحثاً عن العمل، هذا التعليم الذي يجري تحت إشراف رئيسة الهيئة الدينية النسوية في مزاب 'مامان سليمان'.

وتصوّر لنا 'ماري غواشون' النظام الديني والاجتماعي الذي يحكم حياة المرأة المزابية، الذي يبدو أنّه أكثر صرامة من مناطق أخرى في الجزائر والبلدان الإسلاميّة؛ مما سمح بالحفاظ على الأخلاق والآداب العامة في مزاب، سيما أنّ المرأة وأفراد المجتمع يخضعون لأحكام 'التبرئة' التي هي شكل من أشكال العزل والحرمان يطبّق على المذنبين كعقاب لهم، ويشرف على تطبيقه مغسّلات الموتى، وهنّ مجموعة من النساء الفقيهات، اللواتي يعملن تحت إشراف 'مامان سليمان'، هذا النظام هو بمثابة عقاب في حقّ النساء المذنبات وفق حالات محدّدة، واللواتي يبادرن غالباً إلى الاعتراف بما قمن به من معاصي خوفاً من العقاب الإلهي وتبرئة لأنفسهنّ.

وخلّصت المؤلفة إلى أنّ الحياة الأنثوية في مزاب تستمرّ في بيئة محافظة، تخضع بشكل صارم لمبادئ الإسلام وفق المذهب الإباضي، وأنّ المرأة هناك تجي حياة قاسية مترمّنة وأكثر وقاراً، يستنزفها الزواج المبكر ويدمرها الطلاق -إن حدث-، دون أن تنفي أنّ هذا النظام الاجتماعي والثقافي الإباضي حسن أخلاق المرأة ورفع مستوى فكرها قليلاً،

وتعتقد أنّ النساء المزيابيات قد دخلن مرحلة انتقالية افتتحها الاحتلال الفرنسي؛ مما سيؤدّي إلى تغيير بعض سمات الشخصية المزيابية.

إنّ المرأة المزيابية كان لها أكثر حضور في المجتمع المحلي؛ نتيجة طبيعة لتنظيم المجتمع والهياكل الإباضية، وبشكل أكثر تحديداً؛ وجود منذ القرن الثامن عشر على الأقل مجموعة من النساء المتعلّقات المتديّبات (العالمات) اللواتي كنّ يعلّمن مبادئ الدين الإسلامي للنساء، ويساعدن بمهتهنّ هذه 'العزّابة' وهم العلماء الإباضيين الذين يجتمعون في مجلس (الحلقة) التي تشرف على الحياة الدينية لكلّ بلدة. هؤلاء النساء المتعلّقات كنّ يتسمّين بـ'الغسلات' (غسلات الموتى)، وقد مثّلن أيضاً شكلاً من أشكال الشرطة النسائية لقيامهنّ بأعمال الحسبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين النساء، وقد جذب وجودهنّ فضول الإثنوغرافيين والباحثين في الفلكلور خلال الفترة الاستعمارية، كما ظهرت كتابات عن المرأة في الأدبيات الإصلاحية باللغة العربية بشكل خاص للعلماء والنبلاء، ثم في صحافة الحركة الإصلاحية التي كانت تطبع بتونس والجزائر العاصمة، كما ظهرت المرأة المزيابية في مراسلات وتقارير الإدارة الاستعمارية¹.

وبحسب الباحث الفرنسي 'أوغسطين جومبي' (Augustin Joumier) أنّ البنت المزيابية حظيت بفرص أفضل في التعليم من نظيرتها في شمال الجزائر، رغم أنّ هذا التعليم كان دينياً تقليدياً تحت إشراف 'مامان سليمان'²؛ مما جعل النساء المزيابيات أحسن ثقافة ومعرفة سيما بأمور الشرع الإسلامي والأحكام الفقهية التي تخصّ حياتهنّ اليومية وأحوالهنّ الشخصية، كما أنّه كان من السهل عليهنّ طلب الطلاق والحصول عليه، ورغم

¹ - Augustin Joumier: «Des perles dans leur coquillage? Les femmes et la réinvention du patriarcat dans l'Algérie coloniale (1882-1962)», *Journal of women of the middle east and the islamic world*, n°17, 2019, p.p.318-343.

² - هي المرأة الأكبر سنّاً عادة والأكثر علماً؛ التي يتمّ تعيينها من طرف هيئة علماء مزاب 'العزّابة' للإشراف على شؤون النساء المزيابيات، وتؤدي هذه المرأة مهامها بمساعدة نساء أخريات؛ يعملن تحت إمرتها.

بعض تأثر النساء المزابيات بموضة النساء الأوربيات، إلا أن الدور الذي لعبته 'الغسالات' حال دون تشبهنّ بهنّ كثيراً¹.

من جهتها قدّمت الباحثة الفرنسية المتخصصة في القانون والمجتمع 'ماتيا غودري' (Mathéa Gaudry) دراستين قيّمتين عن المرأة الجزائرية الأولى حول 'المرأة الشاوية في الأوراس' (La Femme Chaouia de l'Aurès)، حيث توغّلت داخل المجتمع، ودرست عادات وتقاليد المرأة بمنطقة الأوراس في الملبس والزينة والأكل، ووضعها القانوني كزوجة أو أمّاً و امرأة مطلّقة أو أرملة، ونشاطها الاقتصادي، وحياتها الدّينية وعلاقتها بالمرابطين، واحتفالاتها في المناسبات الدّينية... وغيره²، وألّفت دراسة ثانية قبيل استقلال الجزائر عن المرأة في منطقة أولاد نايل بعنوان: 'المجتمع النسوي في جبل عمّور وفي كسال' (La Société féminine au djebel Amour et au Ksel)، وقد صدرت عام 1961م، وهي دراسة موسّعة في حوالي 600 صفحة.

وحيث استلمت المعلّمة 'جيرمان لاواست شانتريو' (Germaine Laoust Chantréaux) مهامها في مدرسة البنات بقرية آيت هاشم بمنطقة القبائل عام 1937م، لم تكتف بأداء وظيفتها التعليمية، وإنّما خالطت المجتمع النسوي المحلّي، ودوّنت ملاحظاتها ومشاهداتها اليومية هناك، كما حرصت على تعلّم اللهجة المحلية وصارت تتحدّث بها، وانصبّ تركيزها على تقديم المساعدة الاجتماعية للبنات والنساء في المنطقة، ونشطت في عدّة مجالات سيما في ضمان التعليم وتوفير الغذاء وتأمين الدواء، وتمكّنت من ربط علاقات وديّة مع السكان؛ ساعدتها في فهم الثقافة المحلية المختلفة عن

¹ - مقابلة شخصية مع الباحث: أوغستين جومبي (Augustin Joumier) حرت بالمعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية بباريس، بتاريخ: 18 ديسمبر 2020.

² - Mathéa Gaudry : **La femme Chaouia de l'Aurès: étude de sociologie berbère**, librairie orientaliste Paul Ghautner, (S.L), 1929, 301p.

الثقافة الغربية، وسمح لها ذلك بالولوج إلى المجتمع النسوي لقرية آيت هاشم والقرى المجاورة لها بأعلي جرجرة، أين تركّز بحثها على تسجيل الملاحظات الإثنوغرافية واستكشاف الثقافة الشفوية للمنطقة من خلال الأغاني والأمثال والحكم، ولم يمنعها من مواصلة نشاطها هناك وتعميق أبحاثها إلا اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939م¹.

لقد كتبت هذه المعلّمة الباحثة في العادات والتقاليد والمعتقدات والاحتفال بالزواج وعالم الأسرة ويوميات المرأة من الميلاد إلى الوفاة، والحرف بمنطقة القبائل خصوصاً، واللغة المحكية هناك، وجوانب من تاريخ المنطقة الحديث، كلّ هذا من منطلق المعيشة اليومية لأهل زواوة، وولوج عالم الحريم ومعرفة أسرارها وخباياها، ولم تهمل جانب الأمثال الشعبية والأغاني والأشعار المحلية، ولا اللباس والحليّ وأدوات الزينة التي تتخذها النساء هناك، ولا تلك المتعلقة بتربية الأبناء وتأديبهم، وحتى مختلف الأمراض التي تتعرّض لها النساء والعلاجات وطرق التطيب التقليدية المتداولة، وطقوس تشييع الميت والعزاء².

وقدّمت السيّدة 'مارغريت بل' (Marguerite A. Bel)، التي شغلت منصب مفتّشة التعليم الفنّي والمهني بمدارس البنات الأهليات بالجزائر؛ دراسة مصوّرة بعنوان: 'الفنون الأهلية النسوية في الجزائر'، أبرزت فيها الأعمال الصناعية والحرفية التقليدية التي كانت تبدها الفتيات الجزائريات في مدارس التعليم المهني، وقد شملت مصنوعات النساء الحرفيات في المدن والأرياف عبر كلّ مناطق القطر الجزائري، وكانت تهدف من وراء عملها هذا التعريف بهذه المنتجات وإعطائها البعد التسويقي العالمي المناسب لها، بالنّظر إلى جودتها العالية وفائدتها للاقتصاد الكولونيالي، سيما بعد الأزمة الاقتصادية العالمية عام

¹ - Voir : Germaine Laoust Chantréaux: **Kabylie coté femmes : La vie féminine à Ait Hachem 1937-1939**, Edisud, Aix en Provence, 1990, pp.1-15.

² - Idem.

1929م، والتي جعلت الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر تسعى لتنويع مصادر الإنتاج، واستغلال النساء 'الأهليات' في شتى المجالات ومنها الصناعات الحرفية التقليدية¹.

4-2- المرأة الجزائرية في الأعمال الروائية النسوية الفرنسية:

أصبحت المرأة المسلمة في الجزائر، موضوعاً دسماً للكتابات الكولونiale على اختلافها، وسعت هذه الأخيرة لطرح قضايا المرأة؛ لا من منظور المجتمع المحلي والشريعة الإسلامية، أو من منظور مُحايد على الأقل، ولكن من منظور مبادئ الحركة النسوية الغربية الصاعدة، ومن منظور الثقافة والفكر الغربيين في العصر الحديث؛ أي تلك المبادئ التي أصبحت قيماً حضارية غربية بعد عصر النهضة والتنوير في أوروبا، والتي تشبعت بها رائدات الحركة النسائية الفرنسية والغربية عموماً.

برزت العديد من النساء الروائيات أمثال: مغالي بواسنار، ماري بوجيجا، هنريات سيلاربي، وآني غودين، لور لوفافر، أنا كولنا، غبريال استيفال وكلود أوليفي... وغيرهن؛ واللاتي نشرن أبحاثاً أكاديمية وروايات وأعمالاً أدبية بخلفية ثقافية واجتماعية وتاريخية، وكان لهن اهتمام مشترك خلال فترة ما بين الحربين، يتمثل حسب زعمهن في الدفاع عن المرأة الجزائرية، ذلك المخلوق الغارق في الخرافات؛ المستسلمة الراضية بحكم القضاء والقدر عليها، وهي برأيهن ضحية التخلف والامية، ثمضي سنوات حياتها مثل لعبة بيد الرجل، الذي يشتريها بنقوده كما يشتري البهائم أو البضائع، وهي أيضا ضحية أحكام الدين الإسلامي القاسية التي جعل الرجل قوَّماً على المرأة، وأباح له التعدد، وجعل الطلاق بيد الرجل وحده، وفرض الحجاب والعفاف على المرأة، وهي آلة نسل وخدمة بيت وحاضنة أطفال، وجالبة ماء وحطب².

¹ - Marguerite A. Bel: *Les arts indigènes féminins en Algérie*, GGA, (S.L), 1939.

² - أبو القاسم سعد الله: *تاريخ الجزائر الثقافي*، ج.6، المرجع السابق، ص337.

كما تباكت الكتابات الاستعمارية النسوية على تدني مكانة المرأة 'الأهلية'¹، على غرار 'هوبرتين أوكلير' (Hubertine Auclert) في كتابها: 'نساء عربيات من الجزائر'، و'ماغالي بواسنار' (Magali Boisnard) في روايتها: 'أخواتنا المسلمات' و'معاديث'، وخاصة 'ماري بوجيجا' (Marie Bugéja) التي قدّمت عدّة أعمال من بينها: 'عبر الصحراء'، 'أخواتنا المسلمات' و'تحت دفة الخيمة'...² كما سنراه لاحقاً.

وجزمت بعض الكتابات؛ أنّ المرأة الجزائرية فضلاً عن حياة البؤس والشقاء التي تحي في ظلّها، هي مخلوق لا قيمة فعلية له، ومثّلت هذه الأطروحات مدخلاً لانتقاد أحكام الشريعة الإسلامية المتعلّقة بالمرأة وقضاياها، وأحكام الزواج والطلاق والخلع وتعدّد الزوجات، والميراث، والحجاب واللباس³. وعلى رأي أبو القاسم سعد الله: "فالمرأة الجزائرية لم تتولّ قيادة تحريرها بنفسها، وإنما الأخرى هن اللاتي رمين بحبال النجاة إليها، ولذلك بقيت تابعة لا متبوعة وفاقدة لروح المبادرة فيما يتعلق بمصيرها"⁴.

¹ - نقول هذا لاطّلعنا على كتابات وشهادات فرنسية في القرن التاسع عشر، تؤكّد احترام المرأة وحياتها المصانة في المجتمع المحلي، كما ذكرنا عند حديثنا عن مكانة المرأة في دولة الأمير عبد القادر، أو من خلال الإشارات التي قدّمها الجنرال 'دوماس' وغيره.

² - سكينه مساعدي، أخواتنا المسلمات أو أسطورة تحرير المرأة الجزائرية...، تر. حضريّة يوسف، موفم للنشر، الجزائر، 2012، ص14.

³ - يمينة بشي: المقال السابق، ص219.

يقول المستشرق الهولندي كريستيان سنوك: "إنّ الشريعة الإسلامية موضوع مهمّ للدراسات الاستشراقية، ليس فقط لأسباب تجريدية (نظرية) متعلّقة بتاريخ القانون والحضارة والدين، ولكن كذلك لأهداف عملية؛ ذلك أنّه كلّما توطّدت العلاقة بين أوروبا والشرق الإسلامي (العالم الإسلامي)، وكلّما زاد عدد البلاد الإسلامية التي تقع تحت السيادة الأوروبية، كلما زادت الأهمية بالنسبة لنا نحن الأوروبيين لتعرّف على الحياة الفكرية، وعلى الشريعة، وعلى خلفيّة المفاهيم الإسلامية". نقلاً عن: حميدة عميراي وآخرون، المرجع السابق، ص130.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص338.

بالتسبة لـ'هنريات سيلاري' فإنّ المرأة المسلمة في شمال إفريقيا كما في غيرها من الأقطار؛ تعيش التخلف والانغلاق داخل عالم 'الحريم' الذي يكتنفه الغموض، حيث تسود أيضا الخرافات والاعتقاد بقدرات الجنّ، وتوظّف 'سيلاري' أسماء نسوية عربية مثل 'حليمة' و 'فطيمة' و 'زينب'... لوصف حياة وطقوس المرأة بشمال إفريقيا ومعاناتها الاجتماعية والنفسية؛ ضمن أحياء المدن التاريخية وشوارعها الضيقة¹.

وكتبت 'سيلاري' أيضا روايتها: 'أخواتنا المسلمات'؛ لوصف حياة المرأة الجزائرية عبر ربوع الصحراء، حيث تروي ذكرياتها من خلال رحلتها التي قادتها إلى الأغواط لدى 'الباشاغا جلول'، حيث استضافتها شقيقته الكبرى 'مسعودة' التي تتحكّم في النساء هناك، وبلاد مزاب وورقلة وتوقرت حيث سحر الواحات، ويومياتها 'تحت الخيمة' بالقرب من مجتمع الحريم الصحراوي، وصولاً إلى وادي سوف وإقامتها لدى الآغا². ودوّنت نصوصاً وصوراً عن يوميات المرأة الجزائرية وعاداتها؛ من خلال رحلتها التي دامت شهراً انطلاقاً من حي القصبة بالجزائر العاصمة؛ عبر البليدة والأغواط ومزاب، وزيارتها لمنطقة الغرب الجزائري، ثم الشرق الجزائري ومنطقة القبائل الكبرى، مروراً ببجاية وقسنطينة والمدينة الرومانية تيمقاد، وبسكرة وتوقرت وصولاً إلى تونس³.

لقد رسمت الكاتبات الروائيات من أمثال 'أوكليرا' و 'بوجيجا' و 'سيلاري' وغيرهن؛ صورة سوداوية وقائمة عن حالة الجهل والامية والتخلف التي كانت تقبع في ظلّها البنات المسلمات في الجزائر، وألقين باللوم في غالب الأحيان على المجتمع المحلي (الذكوري)، والتقاليد البالية والأعراف المتجذّرة، التي تحكّم حياة المرأة بداخله، وتجعل

¹ - Henriette Celarié: *La vie mystérieuse des harems*, Librairie Hachette, Paris, 1927, 238 p.

² - Henriette Celarié: *Nos sœurs musulmanes: scènes de la vie du désert*, Librairie Hachette, Paris, 1926, 223 p.

³ - Henriette Celarié: *Un mois en Algérie et en Tunisie*, Librairie Hachette, Paris, 1924, 246 p.

سيطرة الرجل مُطلقة، دون أن يلتفتن كثيرا إلى جُور السياسة الاستعمارية التجهيلية، التي سلّطت حياة البؤس والشقاء على المرأة عموم الجزائريين.

كما عزّزت أعمال 'إليسا رايس' و 'لوسيان فافر' و 'إيزابيل إبيرهاردت'¹ الصورة النمطية التي يحملها قراؤهم (الأوروبيون) عن المجالات المنفصلة بين الرجال والنساء في الجزائر المستعمرة، وكتبت 'رايس' تحت ادّعاء زائف بالأصالة؛ (ربما لأنّها كانت من يهود الجزائر)، وقد نظرن إلى قضية عدم المساواة بين الجنسين في ظلّ التقاليد البربرية والإسلامية بعين المرأة الأوربية، وأصبحت هذه النظرة مألوفة بشكل متزايد لدى النساء في فرنسا. بينما انتقلت 'إبيرهاردت' إلى الجزائر عام 1897م في سنّ العشرين، وعاشت حياة بدوية واعتنقت الإسلام وكتبت عن صراع الثقافات، وكانت انطباعاتها عن النساء المسلمات تحمل نوعاً من التعاطف، مُستخدمة لغة الخطاب الاستشراقي².

لقد عكست أطروحات النسويات الفرنسيات حول المرأة في الجزائر خلفيتهن الفكرية والثقافية، وتطلّعاتهنّ لتحرير المرأة المسلمة وفق النموذج الذي تقدّمه الحركة النسوية الغربية، أو من منظور المرأة الأوربية المستوطنة بالجزائر فقط، وخلصت أغلب هذه الكتابات إلى إنّ وضع المرأة المسلمة السيئ؛ سببه أحكام الدّين الإسلاميّ أولاً، ثمّ المجتمع الرجالي ثانياً، وبالتالي فلا يمكن تغيير حال المجتمع إلا بتغيير حال المرأة فيه³.

¹ - ولدت عام 1877 بسويسرا؛ وتوفّيت في عزّ شبها. بمنطقة عين الصفرَاء بالجزائر سنة 1904م، وهي شخصية نسوية غامضة، تميّزت بكثرة رحلاتها في الجزائر وخارجها، أشهرت إسلامها وتزوّجت رجلاً عربياً مسلماً، خلّفت عدّة أعمال من بينها رواية: 'ياسمينة' (Yasmina)، 'صفحات الإسلام' (Pages d'islam)، 'في الظلّ الدافئ للإسلام' (Dans l'ombre chaude de l'islam)... يُنظر:

https://data.bnf.fr/12044126/isabelle_eberhardt تاريخ الاطلاع: 2020/05/24، سا: 12:30

² - Sara Kimble, Op.cit, p.111.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص338.

4-3- هوبرتين أوكلير وقضايا المرأة 'الأهلية' في الجزائر:

قد نعتبر 'هوبرتين أوكلير' جريئة في طرحها لقضايا المرأة 'الأهلية' في الجزائر؛ قياساً إلى عصرها، ولعل ذلك يعود إلى الارتباط الوثيق بين خطابها حول المرأة 'الأهلية'؛ ومعركتها التي خاضتها في النضال من أجل حقوق المرأة الفرنسية منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حيث كانت تمثل الجناح 'الراديكالي' في الحركة النسوية الفرنسية، وناضلت بشكل خاص من أجل حق الاقتراع للنساء الفرنسيات مثلهن مثل الرجال؛ لتقرر عام 1888م مغادرة فرنسا والالتحاق بالجزائر، حيث عاشت طيلة أربع سنوات الحياة اليومية للنساء 'الأهليات'، وخلال فترة إقامتها بالغرب الجزائري ثم منطقة الأغواط، والجزائر العاصمة، اصطدمت بالنظرة العنصرية التي كان يُبديها الأوروبيون تجاه الجزائريين¹.

لعل أشهر مؤلفات هذه الناشطة النقابية والنسوية هو كتابها: 'نساء عربيات في الجزائر' الصادر عام 1900م، والذي عالجا فيه عدّة قضايا تتعلق بالمرأة في الجزائر المستعمرة، ويبدو أنّها كانت أكثر وعياً بحاجات متطلّبات هذه الأخيرة وحقوقها، انطلاقاً من معاشتها للجزائريات سابقاً كما ذكرنا، وإدراكها لمدى التناقضات التي تحملها السياسة الاستعمارية الفرنسية تجاه عموم الجزائريين، وتجاه النساء الجزائريات بشكل خاص، ومنها إسناد مهمّة التحقيق في أوضاع النساء المسلمات إلى لجان تتكوّن من نوّاب فرنسيين، لا يُمكنهم عادةً التواصل مع النساء 'الأهليات' بشكل مباشر، والاستماع لهنّ؛ لأنّ العادات الاجتماعية لا تسمح بذلك.

وحسب تصوّرها فهناك وظائف في الجزائر لا أحد يستطيع تولّيها من غير النساء الأوروبيات، فكتبت أنّ النساء الجزائريات: "يحلّمن بالمساواة مع نظيراتهن الفرنسيات والتخلص من العزلة التي يعيشن في ظلّها، لكن هذا الحلم يختفي في الفناءات الداخلية، وفي

¹ - Clancy, Op.cit, p.p.34-35.

المنازل دون نوافذ، والمحمديات (النساء المسلمات) يرغبن في أن يكون مصيرهن مثل الأوربيات، على غرار العصفور الذي يرغب في مغادرة القفص والتخليق حراً طليقاً في الفضاء"¹.

لكن هذه الناشطة النسوية؛ كغيرها من الروائيات الأوربيات؛ لم تتوان في الطعن في أحكام الشريعة الإسلامية، والخوض في مسائل فقهية؛ كتعدد الزوجات (la Polygamie) حيث بلغ بها التطرف والشطط إلى أن كتبت: "إن أدنى درجات المساواة لتفرض حقّ النساء العربيات -مثلهنّ مثل محمد- (وهي لفظة تطلق عموماً على الرجل الجزائري المسلم) في أربعة أزواج، ولأنّ الذكور المسلمين أكثر عدداً من النساء، فإنّ تعدّد الأزواج وليس تعدّد الزوجات هو الأولى باعتماده سلوكاً في هذا البلد"²، واعتبرت الزواج المبكر للفتاة الجزائرية نوع من الاعتصاب لها.

ونجدها أيضاً تلفت نظر الحكومة الفرنسية إلى الدور الذي يمكن أن تلعبه المرأة المسلمة المتعلّمة في نشر الحضارة الأوربية وسط الجماعات الجزائرية، وأوصت بالاهتمام بالمرأة المسلمة لجعل الكفّة تميل لصالحهم (الأوربيين)³، وهي تتماهى في طرحها هذا مع المقترح الذي قدمته في بداية الاحتلال المعلّمة 'لوس أليكس' كما ذكرنا في الفصل الأول.

ومن بين المسائل الاجتماعية التي عالجتها 'أوكلير'؛ مسألة الزواج المبكر للفتيات المسلمات، تقول: "إذا كان الزواج بفتاة غير راشدة يمثّل جريمة بالنسبة للفرنسيين؛ فإنّه عادة لدى العرب، وعادةً البنت العربية تتزوّج في سنّ تكون فيه نظيرتها الفرنسية مازالت تلعب، والأب الجزائري يزوّج ابنته للحصول على بعض الدراهم (الدورو Douros)، إنّه

¹- Hubertine Auclert : **Les femmes arabes en Algérie**, Société d'éditions littéraires, (S.L), 1900, p.p.24-25.

²- سكيّنة مساعدي، المرجع السابق، ص18.

³- يجايوي مرابط مسعودة، المرجع السابق، مج.2، ص210.

المهر الذي يدفعه الرجل لأهل العروس كثمن لشرائها (...)، فالمرأة يتم بيعها بمبلغ يتراوح بين ثلاثين وخمسين فرنك، والتي تُحسن حياكة البرنوس تُباع بثلاث مائة إلى ثمان مائة فرنك (...). والفتيات الجميلات؛ يتم شراءهن من طرف شيخ (القبيلة)؛ تسمح له مكانته بأن يدفع ثمنا مرتفعاً، وحتى المحاكم الفرنسية عجزت عن وقف مثل هذه الممارسات"¹.

ويظهر لنا أن 'أوكلير' بالغت كثيراً في الحديث عن 'بيع الفتيات'، فتحت عنوان 'زفاف عربي'، فسّرت صيغة الإيجاب والقبول التي تتم بين الزوج ووليّ الفتاة؛ على أنّها عملية بيع بحضور الشيخ القاضي الذي يتولّى إتمام عقد الزواج²، كما فسّرت كل العادات التي تتم خلال الحفل وبعده على أنّها جملة من الإكراهات التي تتعرض لها الفتاة يومياً³.

وأمام مجلس النواب الفرنسيين؛ طرحت مرة أخرى مسألة 'تعدّد الزوجات' عند الجزائريين المسلمين، وقد وصفتها بالدراما، وقدمت 'هوبرتين أوكلير' مرافعة تدعي من خلالها الدفاع عن المرأة المسلمة في الجزائر، وحسب رأيها فإنّ التعدّد يعبر عن حالة من السادية لدى الذكر العربي: "فامتلاك الرجل لأكثر عدد من النساء؛ سمة على بذخ (العربي) الذي لا حدود له، فهو يجمع النساء مثلما يجمع الأوربيون الخيول.. في البدء هو يتزوج ويتزوج وبعدها يتورط مع المحظيات، إلى درجة يصبح فيها من المستحيل الحفاظ على كيان بيته... والمرأة خلقت لمتعة الرجل كما يقول العرب"، وتتساءل متعجبة: كيف تسمح فرنسا التي تحرم التعدّد باستمرار ذلك في الجزائر؟ فمن الغريب أن تعدّد الزوجات المحرم في فرنسا يكون مسموحاً في أرض أخرى فرنسية في إفريقيا؟⁴.

لقد اتخذت الكاتبة من موضوع 'تعدّد الزوجات' حجّة للطعن في أحكام الشريعة الإسلامية والخوض في حياة وسيرة الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم-، وفي الوقت

¹ - Hubertine Auclert, Op.cit, p.p. 25 Et delà.

² - Ibid., p.p.52-53.

³ - Ibid., p.55.

⁴ - Ibid., p.p.58-59, 63.

ذاته لنقد السياسة الفرنسية في مسائل الأحوال للمرأة الجزائرية المسلمة. وقد تجرّأت للخوض في مسائل الزواج والطلاق والخلع؛ لاعتقادها أنّ تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية من طرف القضاة المسلمين عادة ما يتّسم بالجور والظلم في حق للمرأة، والكيل بمكيالين، وحتى التمييز بين الجنسين، "فالرجل من حقه أن يطلق المرأة حين يسأم منها؛ بينما هي محرومة من حقها في طلب الخلع (...). فاليوم هي زوجة وغدا تجدها مطلقة.. إنه لا يوجد إلا نادراً 'محمديون' لم يطلقوا ثلاثاً"¹، وهكذا نجد 'أوكلير' تصدر الأحكام دون الالتفات إلى خصوصيات المجتمع الجزائري والظروف القاهرة التي كان يعيش في ظلّها؛ من فقر وحرمان وقهر استعماري، أدّت إلى تفكيك أواصر الأسرة الجزائرية، وكانت سبباً من أسباب شيوع ظاهرة الطلاق.

في موضع آخر تعترف 'أوكلير' بفشل سياسة التعليم الفرنسية وغياب مدارس للبنات المسلمات، وطرح استفسارات عديدة عن الأسباب والخلفيات، ووجّهت سهام نقدها للإدارة الفرنسية التي أصدرت مراسيم لإنشاء مدارس البنات في الجزائر منذ 1850م، لكنها لم تطبّقها إلاّ لصالح البنات الأوربيات، وانتقدت بشدّة المجتمع الأهلي والأب الذي يبيع البنت، ولا يقبل تعليمها حتى بمقابل مالي يعادل 'مهرها' الذي يُدفع له².

وفي عام 1908م، أصدرت 'هيرتين أوكلير' كتابها: "تصويت النساء" (Le Vote des femmes) والذي تدافع فيه عن الحقوق السياسية للمرأة الفرنسية، وقد صدّرته بقولها: "هذا الكتاب الذي يتعلّق بالجهود المبذولة في فرنسا منذ أكثر من قرن من

¹ - Ibid., p.p77-80.

² - Ibid., p.134.

أجل نيل النساء حقوقهن السياسية (...)، وهو يضع القراء أمام مسألة مهمة وهي حقّ النساء في الاقتراع التي من شأنها أن تسمح بتغيير المجتمع وبناء الجمهورية¹.

إننا نلمس عبر صفحات هذا الكتاب حالة من التجاهل من طرف المؤلفة لأوضاع النساء في المستعمرات الفرنسية آنذاك، ونسيانها أو تناسيها الحديث عن حقوقهن السياسية، لقد كانت 'أوكلير' تذكر دوماً بالتشريعات الفرنسية الخاصة بالانتخاب، والتي تُعطي الحقّ في الاقتراع لجميع الفرنسيين البالغين 21 سنة فما فوق، بينما لا نجد لها تأني على ذكر 'الأهالي'، واستندت في مرافعتها عن حقّ المرأة الفرنسية في المشاركة السياسية على أنّ كلمة 'الفرنسيين' تشمل الرجال والنساء؛ عندما يتعلّق الأمر بدفع الضرائب، وهي كذلك تشملهم بالتأكيد بحين يتعلّق الأمر بالانتخاب؛ لأنّ تعميم الاقتراع ليشمل النساء الفرنسيات؛ يمثّل -وفق تصوّرها- قوّة للأمة الفرنسية، ويسرّع التطوّر الاجتماعي ويحقّق السعادة للجميع².

4-4- ماري بوجيجا والدّفاع عن حقوق المرأة الأهلية:

من الناشطات الفرنسيات اللواتي 'رثين' لحال المرأة القبائلية بشكل خاص؛ نذكر 'ماري بوجيجا'، التي ركّزت على هذه المنطقة في كتاباتها، فنادت بانعتاق المرأة هناك والخروج بها من ركام التقاليد، وكانت تقوم بزيارات ميدانية إلى القرى القبائلية، وتتصل بنسائها محاولة إخراجهنّ من بوتقة التقاليد التي تركتهنّ في الحضيض بينما أمثالهنّ في القمّة، لقد نظرت 'بوجيجا' وغيرها من الناشطات الفرنسيات إلى المرأة الزواوية (القبائلية) على أنّها إنسانة مقهورة تحتاج إلى مساعدة؛ لتخليصها من أحكام العادات والأعراف المفروضة، والرقّيّ بها في مصاف الحضارة الغربية.

¹ - Hubertine Auclert : *Le Vote des femmes*, V. Giard et E. Brière librairies-éditeurs, Paris, 1908.

² - Op.cit, p.p.17-18.

قدّمت 'ماري بوجيجا' رؤيتها حول شخصية المرأة القبائلية قائلة: "المرأة القبائلية مخلوق سلبى مثل جميع النساء المسلمات، تخضع لجميع الأوهام الذكورية وتؤمن بها، مع ذلك لديها آمال تريد التعبير عنها، وتطلّعات للثورة على الأعراف المفروضة (...). وفي المجال السياسي دور النساء جدّ كبير، باستطاعتهمّ خوض حرب العصابات، وهنّ قادرات على الكفاح بشراسة والقيادة بإقدام، يحملن السلاح ولا يترددن في اقتحام ميدان المعركة، عندما تنهزم القبائل؛ عادة النساء من يواصلن المعركة (...). المرأة البربرية لعبت دوراً كبيراً في تاريخ بلادها، منذ البرابرة الأوائل إلى غاية الاحتلال الفرنسي لمنطقة القبائل"¹. وتضيف: "المرأة قابعة في قريتها لا تغادر جبالها إلا للمثول أمام سلطة إدارية²، والتي تكون أحيانا رئيس البلدية، سواء من أجل شكوى تقدّمت بها، أو من أجل قضية إدارية أو قضائية تخصّها... لقد لاحظنا بعض التطوّر منذ الاحتلال الفرنسي، خاصية المرأة تسمح لنا بالحكم على أنّ شخصيتها المعنوية بقيت مستقلة". أما في مسألة تعدّد الزوجات فنجد 'بوجيجا' أقرب إلى الواقع، حيث تكتب: "مع أنّها مشرّعة بموجب القانون الإسلامي، إلا أنّ المرأة (القبائلية) تعاني كثيراً لأنّها امرأة، نحن نعتقد عموماً بأنّ القبائليات أو الموريسكيات غير حسّاسات من هذا التقاسم (الزوجي)، هنّ مسالمات ليس أكثر، لعدم قدرتهنّ على تغيير هذه العادة"³.

دعت 'ماري بوجيجا' السلطة الفرنسية في الجزائر إلى وضع برنامج بهدف الارتقاء المادي والثقافي والأخلاقي بالمرأة المسلمة، إذ يجب أن نقدم لها الرعاية الصحية، ونفتح لها

¹ - Marie Bugéja: «Aperçus sur le caractère de la femme Kabyle», *Bulletin de la société géographie d'Alger et de l'Afrique du nord*, N° 97 à 100, 1^{er} septembre 1924, Imprimerie Algérienne, Alger, p.47.

² - لاحظ 'هانوتو' و'لوتورنو' وغيرهما؛ أنّ المرأة القبائلية قلّما تمثل أمام القاضي، ومن النادر أن تُقدّم النساء إلى العدالة في المسائل المدنية، وعندما تنشأ هذه الحالة، فإنّها ممثّلة قانوناً بزوجه أو وليّ أمرها. أنظر:

A. Hanoteau ; A. Letourneux, T.3, Op.cit, p.7.

³ - Marie Bugéja: «Aperçus...», Op.cit., p.p.50-51.

المدارس التي ستكون وسيلة للدعاية من أجل الارتقاء الحضاري، و"عندما نقول أن الأهالي لا يرغبون في رؤية فتياتهم بالمدارس، لدينا نماذج مختلفة في المدن أو في المدارس القليلة التي فتحتها، وإذا لم نقم نحن بهذه المهمة فمن سيؤديها؟"¹.

في كتابها 'نساء محجبات ورجال كذلك' (Femmes voilées hommes de même) الصادر عام 1935م، نجد 'ماري بوجيجا' تعبّر عن حبّها للجزائر، وعشقها لأرضها ومائها وصحرائها، وتعتبر 'الجزائر أرضا فرنسية'، فهي لم تعد 'الأرض الغريبة' كما وصفها 'فرومنتان' (Fromentin)، إنّها: "أرض فرنسية... هي امتداد للوطن الأمّ، الجزائر أصبحت لنا بكلّ ما فيها.. إنّها البلد الرائع على كل الأصعدة"²، كما نلمس بعض التغيير في لغة خطابها بخصوص وضع المرأة الجزائرية آنذاك.

وعند تناولها لشخصية الفتاة الجزائرية 'مسعودة' تقرّ 'بوجيجا': أن هدفها من الكتاب هو التنبيه إلى ملامح تأثير ووعي جديد للمرأة بدأت تتشكل في أوساط المجتمع 'الأهلي'، سيما في وسط شعوب تنظر إلى المرأة على أنّها مخلوق ضعيف مسلوب القوة والإرادة، "إنّه صار من السهل قراءة واقع المرأة الموريسكية (لفظ لاحتقار المرأة المسلمة)، فالنساء المسلمات صرن يفكرن في واقعهنّ، ويقارنّ أنفسهنّ بنظيرتهنّ الفرنسيات، يتذوّقن وجودهنّ، وبعض الملاحظات منهنّ لم يعدّ يتمّ الحجر عليهنّ باسم العادات والتقاليد"³.

¹ - Ibid, p.60.

² - Marie Bugéja : **Femmes voilées, hommes de même**, récits et impressions de l'extrême sud algérien, imp. Baconnier frères, Alger, 1935, p.9.

³ - Ibid, p.24,35.

تقصد 'بوجيجا' هنا؛ ذلك التحوّل الذي طرأ على وضع المرأة في الجزائر، وبدأت إرهاباته تظهر في المدن الجزائرية الكبرى منذ منتصف الثلاثينيات، حيث صارت الفتيات الحضريات يخرجن ويرتدن الحياة العامة، وينتسبن إلى الجمعيات والأحزاب، ويقمن بأنشطة مجتمعية مختلفة.

في موضع آخر من هذا الكتاب؛ تعتبر 'ماري بوجيجا' نفسها تلك المرأة الجزائرية العاصمية (L'algéroise) المعجبة ببلدها، والقريبة من أهله، وهي التي تعاشر نساءه، وأمينة على أفكار ومشاعر بناته؛ مترجمة لآمالهن: "الكثير من بنات العائلات الميسورة صرن يتكلمن الفرنسية بشكل جيد أو مقبول، ومتعة حقيقية في التحدّث معهنّ عن كلّ شيء، لم تكن نظرتنّ إليّ على أنّني فضولية أو طائشة، إنّهن ينظرن إليّ كصديقة.."¹. كما نقرأ لها في كتابها 'أخواتنا المسلمات' (Nos sœurs musulmanes) وصفها لـ'أخواتنا المسلمات' بأنّهن: "الذكيات والخدمات، وبأنّهن يقمن بكل شيء بأنفسهن؛ الطبخ، التنظيف، جلب الماء والوقود... رعاية الأطفال، فكيف نلومهنّ إذا كنّ غير نظيفات ومتشردات؟"².

وفي سياق دفاعها عن المرأة الأهلية في مواجهة العادات والتقاليد الاجتماعية السائدة في الجزائر آنذاك قالت: "ينبغي أن يكون بإمكان المرأة الأهلية غالبا الخروج مع زوجها، لكن يجب أن يكون للزوج ما يكفي من الشجاعة والقدرة الأخلاقية للسماح بذلك، عن طريق تحرير نفسه من العادات المنبثقة عن عرقه، بطبيعة الحال لا أتحدّث عن السير على طريقة الفلاحين، حيث الزوج يسير أولاً فخوراً مثل 'أرتبان Artaban' (إحدى شخصيات رواية كليوباترا) و 'فاطمة'³ أو 'جوهر' تسير خلفه محمّلة بالحزم والأطفال (...). يجب القول أنّ هذا العرض الذي كان مألوفاً بالأمس بدأ في الاختفاء،

¹ -Ibid., pp.24,63.

² - Marie Bugéja : «Nos sœurs musulmanes», *La revue des études littéraires*, Paris, 1921, p.105.

³ - أسماء مثل: 'فاطمة' و 'عيشة' وغيرها من الألفاظ على غرار 'موريسكية' و 'موكيرا' التي وظّفتها 'ماري بوجيجا' وقبلها 'هيبيرتين أوكلير' وكاتبات أخريات؛ كانت تستخدم من طرف المستوطنين الأوربيين في الجزائر للتعبير عن الازدراء والاحتقار تجاه المرأة الجزائرية. وكنوع من الإنقاص من شأنها، أو لتشبيهها بالومس أو العاهرة والإنقاص من شأنها. للمزيد يُنظر: أبو القاسم سعد الله: *تاريخ الجزائر الثقافي*، ج.6 1830-1954، دار البصائر، الجزائر، 2007.

لقد رأيت بعيني؛ الفلاحين في منطقة القبائل -حيث هناك العديد من المدارس الفرنسية- يأخذون جزءاً من العبء الثقيل من أجل التخفيف عن زوجاتهم، مع ذلك فإنّ حال المرأة في العالم الإسلامي سيء، لست الوحيدة التي تدرك ذلك، وقد بدأنا فعلاً نبدي أسفنا¹.

وعن نظرة الفرنسيين للمرأة الجزائرية كتبت: "الكثيرون ممن يجهلون المجتمع الأهلي يقولون أنّ المرأة المسلمة جاهلة، وبأنّ الجهود التي بذلناها للرفقيّ بها إلى مستوانا ذهبت سدى... هي في أعينهم مجرد صبيّة غير مؤهّلة لفعل أيّ شيء سوى ضرب غسيلها، وصناعة كسكسها ورعاية أطفالها، هي شابة بلا قيمة إلّا التي يعطيها لها جمالها... مخلوق للمتعة أو حصان للعمل، هذه هي المرأة المسلمة... عند موتها لا تخلف أسفاً أو حزناً لدى زوجها، فهو سيكون سعيداً بشراء أخرى أكثر شباباً.. إنّها أحكام قاسية وتّسم بالتعميم، ولا يمكن الحكم على النساء الأهليات من خلال نظرة نمطية تشكّلت عبر الزمن"².

تسير 'بوجيجا' على خطى 'أوكلير'، وترافع لضرورة الإسراع في فتح أبواب المدارس أمام الأطفال المسلمين، وتنتقد السياسة الفرنسية في مجال التعليم، وخاصة إقصاء الإناث المسلمات منه، فعدد المدارس المخصصة للبنات لم يتجاوز التسعة عشر (19) مدرسة) وأغلبها في المدن الكبرى، وتتساءل كيف يمكن الحديث عن التأثير الفرنسي من دون التعليم، وتصرّح: "صدقوني تأثير المرأة كبير جداً، هذه المسلمة يمكن أن تصبح سندنا في مواجهة خصمنا العنيد في الارتقاء بالغالبية من الأهالي"³. وتطالب: "عند تعليم المسلمة يجب أن نحترم مبادئنا، وينبغي القول أنّ من حقّ الجميع نيل حدّ أدنى من المعرفة، هذا الحد

¹ - Marie Bugéja : *Nos sœurs musulmanes*, op.cit, p.172.

² - Ibid., p.80.

³ - Ibid., p.126.

الأدنى لا غنى عنه في الحياة، هذه الحقيقة التي لا طالما رددناها في فرنسا، هل سيكون خطأ أن لا يتم تطبيق ذلك في هذه الضفة من البحر المتوسط لصالح البنات الأهليات؟¹.

وتعتقد 'بوجيجا' أن القوانين الإسلامية لن تقف مانعاً أمام تعليم البنات، وتشير إلى نساء متعلّقات كنّ ضمن عائلة الرسول (محمد صلى الله عليه وسلم) ، وتعتبر أن العائق الأكبر هو العادات المحلية التي تمنع الفتاة من الخروج وارتداد المدرسة الفرنسية، كما تعتبر الزواج في بعض المناطق مجرد عملية مساومة (بيع وشراء)، فالمرأة تُباع كالمَتاع خاصة في منطقة القبائل، أين وضع المرأة جدّ متدنّي، ومن السهل تطليق المسكينة...².

نجد أيضاً لدى 'ماري بوجيجا' نوعٌ من التشكيك بخصوص الزواج المختلط واعتبرت ذلك: "مشكلة حساسة جداً، لا يمكن للجانب النظري وحده معالجتها، أو إصدار حكم على النظام الاجتماعي، الأفضل أن نشير إلى النتائج اليومية، وخلال هذه المعركة يجب على الأقل معرفة النتائج المتمخضة عن هذه الزيجات المختلطة، يجب القول أن هذا النمط من الزواج ليس بالتأكيد من شأنه التقريب بين الأهالي والفرنسيين وردم الهوة بين الشعبين، وفي غالب الأحيان وليس كلّها؛ سيعاني أحد الزوجين أو كلاهما من الاختلاف في العادات والتقاليد"³.

بالمقابل توجه سهام نقدها لأحكام الشريعة الإسلامية التي تمنع المرأة المسلمة من الزواج بغير المسلم، وتعتبر هذا الحكم غير مفهوم⁴، وفي حديثها عن الإسلام نجدتها تجزم بأنّه لا توجد قواسم مشتركة بين المسلمين والأوروبيين؛ لا في الأفكار ولا في الأخلاق والعادات، ولا في الدين خاصة، مع أنّها تعترف أنّ فضولها دفعها لقراءة القرآن، أين اكتشفت أن شريعة الإسلام تعطي أفضلية للمرأة.. لكنها تكبح العواطف الإنسانية وتضع

¹ -Ibid., p.130.

² -Ibid., p.p.147, 198.

³ - Ibid., 159.

⁴ - Ibid., p.164.

قيوداً أخلاقية صارمة، وهي (الشريعة الإسلامية) تركّز على وضع قواعد صلبة للأسرة، وهي تأسس مجتمعات ثيوقراطية وثورية¹.

في الوقت نفسه تعترف 'بوجيجا' أنّ نصوص القرآن سوّت بين الجنسين، بينما الخلل يكمن في تفسير هذه النصوص من طرف الرجال وفق نظرة 'ذكورية' بعيدة عن النص القرآني؛ فرضت قيوداً على المرأة المسلمة لم تكن موجودة في العهود الأولى للإسلام، وتضرب مثلاً بمسألة الحجاب، حيث المرأة المسلمة كانت تخرج مكشوفة الوجه حتى نهاية القرن 11 الهجري، أين فرض علي النساء الفارسيات تغطية وجوههن، وفي مصر وبلاد الشام بقي الحجاب خفيفاً يمكن تشبيهه بحجاب المرأة الأوربية².

في كتابها الآخر: 'رؤى الجزائر' (Visions d'Algérie)³، اعتبرت 'ماري بوجيجا' أنّ كتابها 'أخواتنا المسلمات' قد أخرج مسألة ارتقاء المرأة المسلمة من الظلّ، وهي القضية التي كانت مهملة إلى ذلك الوقت، والمرأة المسلمة -حسب رأيها- يجب أن تكون أفضل مساعد ليصل عموم 'الأهالي' بكل ثقة إلى الحضارة المعاصرة⁴.

يبدو أنّ 'بوجيجا' قد راجعت بعض أحكامها بخصوص مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية، وتحديدًا ما يتعلّق بتعليم النساء؛ إذ نجدها تجزم بأنّ: "الدّين (الإسلامي) لم يكن أبداً عدوّاً للتعليم النسوي، إنّه متوافق مع كلّ التطوّرات الحديثة، بشرط أن يتمّ تفسيره بشكل جيّد وفهمه بإخلاص، والنساء المسلمات موجودات؛ يحملهن مواهب حقيقية، تسمح لهنّ بالارتقاء عن طريق تعليم عقلائي، يستند على التربية والأخلاق الأكثر سموّاً، وحتى وإن غُيب ذكاء المرأة؛ فإنّها مع ذلك سليلة شعب ازدهر في زمانه وحضّر جيرانه"⁵.

¹- Ibid., p.p.269-271.

²- Ibid., p270.

³- Marie Bugéja: **Visions d'Algérie**, Baconnier Frères Editeurs, Alger, 1929, 245 p.

⁴- Ibid., p.1.

⁵- Ibid., p.p.2-3.

وتتناول 'بوجيجا' قضية منع المرأة المسلمة من الخروج للعمل، وبحسب رأيها فإنه إذا أدركت هذه الأخيرة حقوقها؛ فلن يتمكن أحد من منعها، كما تقول أن تزويج البنت دون استشارتها هو أمر مناف للشرع الإسلامي، الذي أقر أيضاً حق المرأة في طلب الطلاق، كما تضرب مثلاً بالنساء في تركيا ومصر تونس؛ حيث قابلت العديد من النساء التونسيات المتعلّمات، واللواتي بقين مسلمات، دون أن يصرن منبوذات في أسرهنّ، بينما في الجزائر القلّة الموجودة منهنّ ضيَّعن الرّجعيون، وبرأيها: "المرأة (الجزائرية) لا يجب أن تبقى مهمّشة، يجب أن تحتلّ المكانة التي لا ينازعها فيها 'محمد'؛ لأنّ هذا في مصلحتها، وفي مصلحة الرجال ومصلحة هذا البلد، من دونها ومن دون تعليمها؛ ارتقاء العرق كلّه سيكون غير مكتمل، غير مستقرّ، دون مقاومة، مستعدّ للتقهقر¹.

لم تكن 'هيبرتين أوكلير' ولا 'ماري بوجيجا' و غيرهما من الكاتبات النسويات اللواتي قدّمن أعمالاً حول المرأة المسلمة في الجزائر؛ يرين من سبيل لنهضتها إلاّ عن طريق المدرسة الفرنسية، ولا مجال لارتقائها خارج مجال الثقافة الفرنسية، الذين سيسمحان لها بالتّهل من منابع وقيم الحضارة الغربية، وبالمقابل؛ التخلّص من هيمنة المجتمع الذكوري، وسيطرة العادات والأعراف. وتعترف كاتبات أخريات بصعوبة المهمّة (الحضارية) الموكلة إليهنّ، وثقل العبء على عاتقهنّ، بالنّظر إلى صعوبة الوصول إلى المرأة المسلمة، التي تلبّثها العادات المجتمعية، كتبت 'هينريات سيلاري': "...عندما أردت إلباس الفتاة العربية 'مسعودة' قطعة من ملابس تهرّبت... مجرد التفكير في الأمر أزعجها، وكأني اقترحت عليها التخلّي عن حياتها الجنسي، بسبب ما كانت تعلم أنّ في زيّها عفة تحفظها وتحميها من أفكارنا، التي كانت ترفضها في غالب الأحيان"².

¹ - Ibid., p.p.4, 7.

² - سكيّنة مساعدي، المرجع السابق، ص151.

* خلاصات الفصل الثاني:

أُتِّمَّت كتابات المدنيين والعسكريين الفرنسيين حول المرأة في جزائر ق 19 ومطلع ق 20م بمنهجها الانطباعي، وقد يعود ذلك إلى السياق التاريخي الذي ظهرت فيه، وإلى طبيعة وشخصية مؤلفيها ومكانتهم في المنظومة الاستعمارية بشكل عام، هذا لا ينفي بداية بروز ملامح الخطاب الاستعماري ذو الاتجاه التحليلي-النقدي، لعادات وأعراف المجتمع الجزائري ومكانة المرأة فيه، وبالتالي بداية طرح قضية تحررها.

عملت المدرسة الكولونiale على هدم 'النظام الاجتماعي القبلي'، وإعادة بنائه على أسس جديدة تقوم على المجال الجغرافي، كما سارت الكتابات الاستشراقية والدراسات الأنثروبولوجية في الاتجاه نفسه؛ حين سعت إلى إبراز مظاهر الاختلافات الإثنية الموجودة في المجتمع الجزائري، وسعت دوماً إلى بثّ عناصر التشييت والتفرقة، من خلال التركيز على ثنائية (عربي/قبائلي)، كما مزجوا بين (العرف/الشرع) ليصدروا أحكاماً غير موضوعية؛ كلما تعلق الأمر بمسائل المرأة المسلمة في الجزائر.

يعتبر 'أوجين دوماس' رائد الدراسات الاستشراقية الكولونiale عن المرأة والمجتمع في جزائر القرن 19م، وقد لخص نظرة المجتمع الجزائري نحو المرأة في اتجاهين¹:

* اتجاه رأى في المرأة 'الجوهرة الثمينة' التي يجب الحرص عليها، والذي يستحق العناية.

* اتجاه ثاني؛ نظر إلى المرأة مثل الخادمة أو الأمة، المسخرة لخدمة زوجها.

رغم اهتمام الكاتبات الفرنسيات بوضع المرأة في الجزائر، وسعي بعضهن لتخليصها من البؤس؛ إلاّ أنهنّ لم يخرجن من دائرة المشروع الاستعماري وأطر الثقافة الفرنسية، ولم يرين من سبيل لتحرير المرأة الأهلية بعيداً عن قيم الحضارة الغربية.

¹ - Clancy, Op.cit, p.32.

الفصل الثالث:

تجليات الخطاب الكولونيالي الفرنسي في قضية 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر:

- مكانة المرأة 'الأهلية' ضمن منظومة القوانين الكولونيالية الفرنسية.
- الحركة النسوية الفرنسية وقضية 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر.
- مآلات الخطاب الكولونيالي في قضية 'تحرير المرأة الأهلية'.

بعد أن رسمنا صورة عن أوضاع المرأة في الجزائر منذ وصول الفرنسيين، واستعرضنا الكتابات الفرنسية حول المجتمع والمرأة في الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي، نقدّم في هذا الفصل قراءة في النصوص والوثائق التاريخية والكتابات الكولونيالية التي اهتمت بمسألة تحرير المرأة الجزائرية (الأهلية)، من خلال ما قدّمته من وصف وتحليل لأوضاعها، ونحاول استنطاقها في ضوء السياق التاريخي الذي صدرت فيه، بهدف فهم حقيقة النظرة الفرنسية للمسائل التي تخصّ المرأة الجزائرية، والتي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بقضية 'تحريرها' بالمفهوم الاجتماعي و الاقتصادي والثقافي والديني لهذا المصطلح.

1- مكانة المرأة 'الأهلية' ضمن منظومة القوانين الكولونيالية الفرنسية:

طُرحت قضية 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر عقب الحرب العالمية الأولى، مع التركيز على المرأة في منطقة القبائل، كما نقرأ للناشطات ضمن الحركة النسوية الفرنسية؛ خطاباً نسوياً لتحرير المرأة 'الأهلية'، وصار الخطاب الرسمي للحكومة الفرنسية بخصوص إصلاح أوضاع المرأة الجزائرية وترقيتها أكثر حضوراً عقب الحرب العالمية الثانية. وأصبحت هذه القضية في صلب اهتمام رجال القانون الفرنسيين، فعملوا على سنّ التشريعات التي ستمكّنها -حسب زعمهم- من الانعتاق الاجتماعي؛ وراهنوا على لتغيير الذهنيات المتخلّفة للمجتمع 'الأهلي'، التي حرمت المرأة المسلمة من حقوقها المادية والمعنوية، وجعلتها تحت طائلة القوانين الإسلامية، وأصدر المشرّع الفرنسي بعد قرن من الاحتلال 'قانون إصلاح وضع المرأة القبائلية'. فهل شرّع هؤلاء فعلاً لتحرير المرأة الجزائرية، أم أنّهم أرادوا فرض القوانين الفرنسية على المسلمين الجزائريين عنوة بما يحقق النظرة الفرنسية الغربية فيما يتعلّق بمسائل المرأة خصوصاً؟

1-1- المرأة الجزائرية والقوانين الكولونالية التعسفية:

لم تلتزم إدارة الاحتلال بالعهد الذي قطعتة للجزائريين عام 1830م؛ بالإبقاء على قوانينهم ونظمهم وتشريعاتهم، وسلكت كلّ السبل لإحلال القوانين الفرنسية محلّ القوانين المحلية المستمدّة من الشريعة الإسلامية، والتي كانت تحكم معاملات السكّان وتحدّد العلاقات فيما بينهم. ومن بين المجالات التي عمل قادة الفكر الاستعماري على تحويلها ولو بشكل متأخّر قليلا مقارنة بمجالات أخرى؛ تلك الأحكام التي تنظّم وتحكم الأحوال المدنية والشخصية للمسلمين الجزائريين، فكانت البداية بالألقاب العائلية، ثم انتقلوا إلى العلاقات الشخصية، كالمصاهرة والنسب والميراث والعهود والمواثيق، وصولاً إلى محاولة وضع تشريعات قالوا أنّها لصالح المرأة في أواخر العهد الاستعماري بالجزائر.

الملاحظة الجديرة بالذكر هنا أنّ هذه العملية اتّسمت بالبطء والحذر من قبل الإدارة الفرنسية، و مردّ هذا الأمر عمل هذه الأخيرة على مراعاة المصلحة السياسية والاقتصادية للاحتلال الفرنسي؛ أي مصالح الاستيطان والمستوطنين بالدرجة الأولى، قبل فتح جبهة 'الإصلاح الاجتماعي' الذي كان يعني بالنسبة للفرنسيين تكييف منظومة المجتمع 'الأهلي' المسلم بما يحقق أهداف الاحتلال والاستيطان. أما الحذر فمردّه إلى حدّة المقاومة التي أبدتها الجزائريون إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر على الأقل؛ تجاه أي مشروع يمسّ بتنظيماتهم القبلية ونظمهم الاجتماعية التقليدية، والحساسية البالغة التي كان يديها الفرد الجزائري حين يتعلّق الأمر بأحواله الشخصية وقضايا أسرته ومحيطه الاجتماعي؛ مما يدفعه إلى الممانعة واتّخاذ موقف 'المقاومة السلبية' في غالب الأحيان.

لقد توصلّ الساسة والمشرّعون الفرنسيون في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر إلى قناعة مفادها؛ أنّ تغيير نظام الأحوال الشخصية للجزائريين بات ضروريا، بعد أن بسط الاحتلال الفرنسي هيمنته المطلقة على ربوع الجزائر، فعمد إلى سنّ ترسانة القوانين

التي أعادت تفكيك وبناء تركيبة المجتمع المحلي ذو الطابع القبلي، وحددت الوضع القانوني للجزائري 'الأهلي' تحت سلطة إدارة الاحتلال¹، ومن هذه القوانين التي كانت أكثر وطأة على الجزائريين؛ قانون 'السيناتيس كونسيلت'، وقبله قوانين نزع الملكية وقانون الغابات، كما سيتبع ذلك تغيير منظومة الألقاب العائلية والحالة المدنية، وطرح قضايا أخرى للنقاش؛ ذات الصلة المباشرة بالحياة الاجتماعية والدينية والثقافية للجزائريين، ومنها مسألة فصل الدين عن الدولة، التي صدر بشأنها نص تشريعي مع مطلع القرن العشرين.

كان الهدف إحلال القضاء الفرنسي محل القضاء الإسلامي؛ لفصل الجزائريين عن ملتهم وهويتهم، والإمعان في إذلالهم بالتدخل حتى في شؤونهم العائلية والشخصية، وفرض القوانين الفرنسية بأي طريقة، ولعل أحسن ما نسوقه بهذا الشأن، العبارة التي كتبها أحد القضاة يدعى 'إستوبلون' (Estoblon) في تقرير إلى الحاكم العام، مفادها: "لطالما شرّعنا القوانين للمسلمين الجزائريين، في غياب المسلمين"². هذا التوجّه تؤكّده كتابات رجال القانون الفرنسيين المهتمين بالشأن الجزائري كما سنرى.

وأثناء دفاعه عن قانون 'السيناتيس كونسيلت' أمام مجلس الشيوخ الفرنسي؛ ذكر مستشار الدولة 'فلاندين' (Flandin): "إنّ الممارسة الكاملة لحقوق المواطنة الفرنسية لا تنسجم مع الحفاظ على الشخصية الإسلامية للمسلمين ومركزهم، لأنّ أحكامهم مخالفة لقوانيننا وأعرافنا المتعلقة بالزواج والطلاق والحالة المدنية للأطفال"، أما السيناتور 'كلود ألفونس دي لانغل' (Claude Alphonse Delangle)؛ فقد اعتبر أنّ: "الدين الإسلامي

¹ - تحدّد 'فاطمة زهرة ساعي' مظاهر هيمنة وفرض القوانين الفرنسية في الجزائر المستعمرة في: إنشاء المحاكم الاستعمارية القمعية وسنّ القوانين التعسّفية، وفرض النظام العسكري في إدارة البلاد بواسطة المكاتب العربية، وربط الحصول على الحقوق المدنية بالتخلي عن الحالة الشخصية الإسلامية للفرد الجزائري (التجنّس)، ثم فرض قوانين 'الأنديجينا' والتشريعات الاستثنائية في كلّ المجالات. يُنظر:

Fatima Zohra Saï: **Le statut politique et le statut familial des femmes en Algérie**, Thèse du doctorat d'état en droit public, Université d'Oran, 2007, p.25 et delà.

² - نفسه، ص138.

يُبيح تعدّد الزوجات والخلع والطلاق، مثله مثل الشريعة اليهودية، ومن الواضح أنّ مثل هذه الحقوق ستكون محظورة على المواطن 'الأهلي' إن صار مواطناً فرنسياً¹.

لقد ظلّت مسائل الأحوال الشخصية حاضرة بقوة في الخطاب الفرنسي منذ نهاية القرن التاسع عشر، واعتبرت مسألة 'تعدّد الزوجات'² على سبيل المثال؛ قضية خلاف جوهرية بين التشريع الإسلامي والقانون الفرنسي، وسال كثير من الحبر حول حقوق المرأة (الزوجة)، واعتبر الفرنسيون أنفسهم بمثابة المنقذين لها، وربطوا بين الجانب الاقتصادي والشريعة الإسلامية والقوانين الفرنسية، رغم أنهم اعترفوا أنّ تعدّد الزوجات عند المسلمين الجزائريين كان يمارس بشكل قليل؛ خاصة في المناطق الحضرية حيث يقطن المستوطنون الفرنسيون، يذكر 'لويس ماسينيون' (Louis Massignon): "أنّ السُّدس فقط من رؤساء العائلات كان لهم أكثر من زوجة سنة 1891م، وكانت هذه النسبة تنخفض مع مرور السنوات"³.

مع ذلك عملت فرنسا على تفكيك القضاء الإسلامي في الجزائر، وإحلال المحاكم الفرنسية بدلاً عنه، كتب 'أجيرون': "إنّ القضاء الإسلامي تمّ تفكيك أوصاله منذ سنة 1886م (...). مع أنّ قاضي الصلح أصبح في مناطق الحكم المدني، قاضي القانون العام

¹ - Judith Surkis, Op.cit, p.27.

يتناقض مع هذا الكلام هو مرسوم 'كريميو' سنة 1871م، الذي منح الجنسية الجماعية لليهود دون أن يسلبهم حقّهم في تطبيق شرائعهم وأعرافهم في مجال الأحوال الشخصية وغيرها.

² - لم تُحسم مسألة 'تعدّد الزوجات' وغيرها من المسائل التي تخصّ المرأة إلى غاية نهاية الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ بل هي مستمرة إلى يومنا هذا، ونحن نعتقد أنّ ذلك يعود إلى الاختلافات في القيم الحضارية والدينية بين منظومتين فكريتين مختلفتين ونظامين اجتماعيين متناقضتين، حيث بُنيت منظومة القوانين الفرنسية على الفكر الغربي والتراث الديني المسيحي (الكاثوليكي) الذي يعود إلى ما قبل عصر النهضة، والذي يتميّز بحساسية شديدة من هذه المسائل، تجلّت في الصراع الديني خلال عصر النهضة الأوروبية، بينما تستند منظومتنا الفكرية على الشرع الإسلامي والتراث العربي، بقيمه ومفاهيمه وعاداته وأعرافه وخصوصياته التي لم يراعها المشرّع الفرنسي أو حاول الدّوس عليها.

³ - سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص347.

فيما يتعلق بالمسلمين، وذلك منذ صدور مرسومي 1886 و1889م؛ أما القضاة المسلمون فاستمروا في ممارسة صلاحيات محدودة في إطار ضيق يتعلق بقانون الأحوال الشخصية وبالمواريث باستثناء منطقة القبائل. كان المسلمون يعتبرون الإبقاء على هيئة قضاة المسلمين مسألة عقائدية محضة، فكان لابد من الاحتفاظ لهم ببعض الصلاحيات، بالرغم من ارتفاع الأصوات الساخطة المطالبة بإلغاء المحاكم الإسلامية¹.

لقد أدى تدخّل القضاة الفرنسيين في المسائل القانونية للأهالي المسلمين، سيما ما تعلّق منها بقضايا الأحوال الشخصية والمرأة تحديداً، إلى إثارة نخوة الشرف الرجولي لدى المسلمين، حيث لمسوا مدى الاهتمام الذي يوليه الفرنسيون للمرأة المسلمة (...). و على صعيد آخر، احتجت الهيئة الإسلامية لمراجعة الأحكام، أكثر من مرة، على ما أظهره القضاة الفرنسيون من جرأة كبيرة بخصوص تحرير المرأة المسلمة وبخصوص المواريث².

يمكننا أن نقرأ جزء من التقرير الذي كتبه أحد الضباط الفرنسيين في منطقة سطيف سنة 1861م، والذي له صلة مباشرة بوضع المرأة الجزائرية القانوني، فهو يبرز أثر القوانين الفرنسية على المجتمع المسلم سيما إذا تعلّق الأمر بالمرأة، فمن بين ما جاء فيه: "... ومع ذلك علينا أن نروي بتفصيل وبكل تحفّظ؛ إشاعة سرت في أوساط الرؤساء الأهليين لدينا من الأهالي (القياد)، وقد رواها لنا بعضهم، وكان الأهالي في المنطقة المدنية جدّ متأثرين للحماية التي يقدمها قانوننا للنساء، وهم يجدون صعوبة كبيرة في الخضوع لتعليماته، ويزعمون أنّهم لا يمكنهم أن يحصلوا منهن على شيء دون استعمال العصا (...). ويتحدث أهلنا في المنطقة العسكرية أيضا بنفس هذا المعنى تقريبا، لأنه رغم تحفظاتنا الكبرى، فنحن لا نستطيع فعل أي شيء غير أن نعاقب (القانون بيدنا) كل الذين يستغلون ضعف نسائهم ويفرطون في سوء معاملتهم. ونحن نجد أنفسنا مضطرين للدخول

¹ - شارل روبر أجرون: الجزائريون...، ج.2، المرجع السابق، ص.ص120-121.

² - المرجع نفسه، ص.ص132-133.

في الحياة الخاصة لرعيّتنا وأن نجعل نساءهم يمثّلن في كلّ المرات التي تتطلبها العدالة، وقد رأينا أنّنا علينا أن نعرض هذا القليل والقال، مما يمسّ فضلا عن ذلك، المسألة الجوهرية لتغيير العنصر الأهلي فيما يخص تعدد الزوجات"¹.

ونقرأ تقرير مساعد وكيل الجمهورية بسيدي بلعباس: 'شارل باربي' (Charles Barbet) عن الوضع القانوني لـ'المرأة المسلمة في الجزائر'²، حيث اعتبر أنّ الإسلام والنبيّ محمد (صلى الله عليه وسلّم) قد حسّن حالها وكفل لها حقوقها، لكنه تأسّف للوضع الذي آلت إليه اليوم (مطلع القرن العشرين)، حيث الزواج المبكر للفتيات في سنّ التاسعة والعاشره وإرغامهنّ على الزواج بمن يختاره ربّ الأسرة (الجبر)، وقدّم عدّة وقائع عن تلك الزيجات بمدن الغرب الجزائري، حيث يعمدّ الآباء إلى تزويج بناتهم مبكراً بهدف تحقيق بعض العائدات المالية. كما طرح مسألة تفضيل القبائل الاحتكام إلى القانون المحلي، وإلى العادات القديمة رغم اعتناقهم الدين الإسلامي، وقد استند على ما كتبه 'هانوتو' و'لوتورنو'، وغيرها من الكتابات الكولونiale في القرن التاسع عشر الميلادي، واعتبر المرأة القبائلية مُستعبدة تحت السلطة الأبوية؛ فاقدة لأي سلطة على نفسها، مصيرها بيد زوجها الذي يطلقها متى شاء، كما اعترف شأنه شأن كتّاب عصره بأنّ تعدّد الزوجات لدى 'العرب' يمارس في نطاق ضيق، وأكّد المشاهدات السابقة حول عدم تحجّب المرأة الريفية في منطقة القبائل والأوراس³.

وحلّص تحقيق قضائي أجري بمنطقة الشلف إلى أنّ مسألة تعدد الزوجات تبقى أول مصدر للخلاف بين التشريعين الإسلامي والفرنسي، والاختلاف بين المدينتين الغربية والشرقية، وهي على رأس العقبات التي تحول دون اندماج العنصر 'الأهلي' في المجتمع

¹ - إيفون تيران، المرجع السابق، ص 307 (الهامش).

² - Charles Barbet: *La femme musulmane en Algérie*, Typographie Adolphe Jordan, Alger, 1903, 17p.

³ - Ibid, p.8 et delà.

الفرنسي، وتعدّد الزوجات الذي يعتبر في نظر القانون الفرنسي جريمة، مع اعتراف صاحب التقرير أنّ هذه الممارسة تعرف تراجعاً كبيراً في الجزائر، فخلال 20 سنة بين 1891 و 1911م، تناقصت حالات التعدّد من 149 ألف حالة إلى 55 ألف، وهي تكاد تختفي في المدن، كما أشارت تقارير الحكومة العامة الفرنسية في الجزائر إلى 5059 حالة تعدّد من بين 21267 زيجة في عام 1932م، ومثلها تقريباً في السنوات التي تلتها إلى غاية 1935م؛ أي أنّها تمثّل 5/1 من حالات الزواج، وأشار التقرير إلى أنّ هذه الظاهرة ترتبط بالوضع الاقتصادي للرجل، وبمدى الاحتكاك والتأثر بالمدنية الفرنسية، كما اعتبر المقرّر أنّ ظاهرة التطلق هي شكل آخر للتعدّد (تعدّد الزوجات مع الوقت)¹.

كما طرح قضية 'الجبر على الزواج' وتزويج القاصرات والأضرار الناجمة عنهما في حقّ الفتاة، وإشكالية عقد القران أمام القاضي (الفرنسي)، أو أمام الشيخ (الطالب)، هذا الأخير الذي لا يحرّر في غالب الأحيان عقد الزواج، وهو ما حاول قانون 2 أبريل 1930 معالجته حين جعل عقود الزواج تحرّر وتسجّل من طرف القاضي، ومع ذلك فقد بقيت 90% من حالات الزواج لدى المجتمع 'الأهلي' خلال عقد الثلاثينيات تتمّ أمام 'الطالب'؛ مقابل 10% أمام القاضي الفرنسي، وأورد صاحب التقرير عدّة أسباب مادية وواقعية بهذا الخصوص، منها تكاليف توثيق العقد وبعد المسافة، فضلاً على التمسك بالعادات والرغبة في الامتثال لأحكام الشرع الإسلامي دون سواه².

أما في أوساط الجزائريين المتفرنسين؛ فنسب تعدّد الزوجات كانت ضعيفة جداً؛ ويؤكد ذلك التحقيق الإحصائي الذي شمل الموظفين الإداريين المسلمين لدى الإدارة

¹ - ANOM, GGA 8 X 235: L'Obstacle du statut personnel: étude complétée par une investigation dans la région du Chélif/ par Louis Perillier (Docteur en droit).

² - Ibid.

الفرنسية عام 1951م، ومسّ أربع مدن جزائرية كبرى هي الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة وعنابة، وحلّص إلى المعطيات التالية¹:

نسبة المتعدّدين	مجموع الزيجات	مجموع الأزواج المتعدّدين	عدد الأزواج الذين يملكون:			المدينة
			ثلاث أو أربع زوجات	زوجتان اثنتان	زوجة واحدة	
0,78%	45108	352	10	342	44756	الجزائر
0,91%	14356	132	02	130	14224	وهران
1,98%	13271	264	15	249	13007	قسنطينة
0,91%	8812	81	03	78	8731	عنابة
1,01%	81547	829	30	799	80712	المجموع

جدول رقم 03: تعدّد الزوجات بين الموظفين الجزائريين لدى الإدارة الفرنسية سنة 1951م.

يمكن أن نستخلص من هذا التحقيق أنّ نسبة الموظّفين الجزائريين لدى الإدارة الفرنسية الذين مارسوا تعدّد الزوجات تكاد تُلامس الصفر، وقد آثرت الأغلبية الاكتفاء بزوجة واحدة، وقد نفسّر هذا بولاء هؤلاء للإدارة الفرنسية، وتشبّعهم بالثقافة الغربية التي تمقت التعدّد، وربّما محاولتهم تقليد نظرائهم من المعمرين، ومحاكاة نمط معيشتهم.

ويشير ذات التقرير إلى أنّ نسبة التعدّد في كامل القطر الجزائري لم تتجاوز 03% عام 1952م، وهي أرقام تدحض الخطاب الكولونيالي -النسوي بشكل خاص- الذي اتّخذ من مسألة تعدّد الزوجات التي يقرّها الشرع الإسلامي؛ ذريعة لمهاجمة عادات وتقاليد الجزائريين المسلمين، واتّهام الرجل بالسيطرة على المرأة، والظعن في أحكام الشريعة الإسلامية، دون مراعاة خصوصيات المجتمع المحلي².

¹ - ANOM, GGA 40 G 100: SLNA: Recensement des fonctionnaires musulmans polygames, 20 Octobre 1955.

² - Ibid.

1-2- الازدواجية القانونية وتداعياتها على المرأة 'الأهلية':

قبل التطرق إلى الترتيبات القانونية التي اتخذها المشرع الفرنسي لصالح المرأة في منطقة القبائل؛ يجدر بنا التذكير بأن سياسة فرض التشريعات القانونية الفرنسية على المجتمع الجزائري المختلف ثقافة وحضارة وديناً عن الأمة الفرنسية؛ مثلت عقبة حقيقية في وجه المرأة الجزائرية بشكل عام، فمن بين العراقيل التي وضعها القانون الفرنسي الصادر في 28 أكتوبر 1866، وكذا قانون التجنيس لسنة 1865م: أن الزوجة المسلمة المتوفى عنها زوجها (الأرملة) لا تحق لها النفقة من زوجها أو من الدولة، إلا إذا كان الزواج قد تمّ عقده طبقاً للقانون الفرنسي؛ أي أنه تخلى عن أحواله الشخصية الإسلامية وتجنّس¹.

هذا الإشكال القانوني وما يترتب عنه من تعسف في حق المرأة الأرملة انتبه إليه أستاذ القانون 'مارسيل موران' (Marcel Morand)، وهو يعكس حالة التناقض الصارخ بين القوانين الفرنسية التي تشترط وجود الوثائق الرسمية التي توثق مختلف العقود، وبين الواقع الجزائري في تلك الفترة، سيما في المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية والملكية². يمكن أن نضرب مثلاً آخرًا بالمشروع التمهيدي لـ 'قانون موران'، حيث سمحت المادة 282 للمرأة المسلمة بالزواج من رجل غير مسلم، مع أن الشريعة الإسلامية تحرّم هذا الزواج، وهكذا لم يخطر لأي فرد بطلب تطبيق هذه المادة في الجزائر³.

¹ - جريدة المبعثر الصادرة بتاريخ 16 ديسمبر 1869. نقلاً عن: سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6، المرجع السابق، ص.346-347.

² - لطالما ربطت الكتابات الفرنسية -القانونية منها خاصة- عند حديثها عن قضية التجنيس؛ بين قوانين الأهالي والملكية والأرض؛ ومسألة الأحوال الشخصية للجزائريين المسلمين، وهذا لأنها كانت تنظر لهذه المسألة على أنها جزء لا يتجزأ من مشروع التجنيس والإدماج، ولم تدرك إلا بعد عقود من الزمن أن الجزائري يمكن أن يتخلى عن أرضه وأملاكه إذا اضطر لذلك، لكن لن يتخلى عن ملته وعقيدته وشرفه.

³ - Florence Renucci: **Le statut personnel des indigènes: comparaison entre les politiques juridiques française et italienne en Algérie et en Libye (1919-1943)**, Thèse de doctorat, Faculté de droit et de science politique, Université Paul Sézanne d'Aix Marseille, 2005/2006, p.44.

هذا الأمر طرح بجدّة شكل العلاقة بين العادات المحلية والقانون الفرنسي من جهة، وبين القانون الفرنسي وأحكام الشريعة الإسلامية من جهة ثانية؛ لذلك نجد المدّعي العام لمحكمة سكيكدة يقول: "إنّ القانون لن يطبّق إلّا إذا تغيّرت العادات؛ لأنّ المرأة لم يتمّ تحريرها بعد، وهي غير مدركة أو جاهلة لشخصيتها المدنية، هي تعتمد بشكل كليّ على والدها أوّلاً ثم على زوجها"، وهو الرأي ذاته الذي أبداه 'ريني مونيي' (René Maunier)¹ حين ذكر أنّه: "في منطقة القبائل وفي كلّ مكان؛ يجب تغيير الأعراف قبل تغيير القوانين، يجب أن يتم العمل الأخلاقي الذي لا يمكن أن تحلّ اللوائح محلّه"².

وكتب 'جون بول شارني' (Jean-Paul Charnay)³: "لقد كانت المهمّة الموكلة للقاضي الفرنسي في الجزائر هي 'إصلاح العرف الإسلامي'، مع ضمان الحد الأدنى من الحقوق المدنية والإنسانية للأفراد، ومراعاة ضرورة تحقيق الأهداف الاقتصادية للاستيطان، والحفاظ على النظام العام والسيادة الفرنسية، فكان واجب المحاكم الفرنسية هو التوفيق بين مصالح المرأة المسلمة والمتطلّبات الملحة للشريعة الإسلامية، وشاع استخدام مصطلح محاربة 'همجية' العادات البربرية في منطقة القبائل، حيث يجب أن تُمنح المرأة إمكانية الحصول على حرّيتها البدنية والمالية والعاطفية"⁴.

¹ - (1887-1951): أستاذ متخصص في التشريعات الاستعمارية والاقتصاد وعلم الاجتماع، عمل بكلية الحقوق الملكية بالقاهرة 1911-1918، حصل على دكتوراه في العلوم القانونية والاقتصادية والسياسية من جامعة باريس عام 1909، وصار أستاذاً بكلية الحقوق بجامعة الجزائر. يُنظر: https://data.bnf.fr/fr/12312153/rene_maunier تاريخ الاطلاع: 2020/04/21، الساعة 09:20.

² - Florence Renucci, Op.cit, p.55.

³ - جون بول شارني (1928-2013): عالم اجتماع وقانون، ومدير بحث بالمركز الوطني للبحث العلمي (CNRS) منذ عام 1987م. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/11896191/jean-paul_chnay/ Consulté le 21/05/2020 à 12:03.

⁴ - Jean-Paul Charnay: *La vie Musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la première moitié du XXe siècle*, Presses Universitaires de France, Paris, 1965, p.713.

وكان 'إيميل لارشي' أفضل تعبيراً عن الوضع القانوني للمرأة في الجزائر بعد أكثر من قرن من الاحتلال، فقد تحدّث عن عملية 'مسح قانونية'، تسبّب فيها النظام الاستعماري الذي كان استثنائياً دوماً؛ لأنّ حق المواطنة والجنسية كان منفصلاً - نظرياً على الأقل - عن النموذج الجمهوري الفرنسي، والدليل على ذلك أنّه إلى غاية 1944م؛ لم تحصل أي امرأة على 'الجنسية أو المواطنة القانونية'، ولم تمارس حقّ الانتخاب فعلياً إلا عام 1958م، وهكذا بقي الفرد الجزائري منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر يخضع لتشريعين متوازيين، فلا هو صار مواطناً فرنسياً كامل الحقوق ولا هو تمت معاملته كأجنبي، فمن جهة لم ينل حقوق المواطنة الفرنسية كاملة؛ لأنّه كان تحت رحمة القوانين القمعية الاستثنائية 'الأنديجينا'، مع خضوعه لقانون مدني وجزائي خاص، ومن جهة أخرى حصل على بعض المزايا التي ينالها الأجانب كشغل بعض الوظائف الإدارية الوضيعة فقط.

فالمرأة الجزائرية التي تقاسمت مع نظيرتها الفرنسية الإقصاء من الحق في الانتخاب إلى غاية 1944م؛ عوملت بعد ذلك بطريقة أكثر إقصائية اعتباراً لأصولها¹، إنّها الازدواجية حتى في تطبيق التشريعات الفرنسية التي ظلّ بعض رجال النخبة الجزائرية الفرنسية يندّدون بها، ويطالبون بمعاملة الجميع على قدم المساواة أمام القانون (أوروبيون ومسلمون)، ويدعون إلى توحيد المنظومة القانونية التي تحكم كلّ ساكنة الجزائر، إنّها نفس الفكرة التي آمن بها 'مارسيل موران' والتي مفادها: 'توحيد القانون يعطي إمكانية تحقيق العدالة القضائية'، فهو صاحب مشروع 'الاندماج التشريعي والقضائي' بين المنظومة التشريعية الفرنسية ومنظومة الشريعة الإسلامية التي تحكم 'الأهالي'، في حين رأى 'إيميل لارشي' مثلاً أنّ: 'احترام القوانين الفرنسية كفيل وحده بتحقيق العدالة القضائية'².

¹- Marc André: « Algériennes : Quelle citoyenneté ?, Op.cit, p.p.97-98.

²- Florence Renucci: «La doctrine coloniale en république. L'exemple de deux juristes algériens: Marcel Morand et Emile Larcher», (Colloque international : la république et son droit, Besançon, 18-19-20 Novembre 2008), p.p.461-478.

3-1- المشرع الفرنسي ومحاولة إصلاح وضع المرأة الزواوية:

كانت منطقة القبائل أول مختبر لمحاولة تغيير قانون الأسرة المحلي، ولعلّ الفشل في تحوير القانون الإسلامي الذي كان منبع التشريع في منطقة زواوة؛ دفع المشرع الفرنسي إلى خلق هيئات وانتهاج تقنيات قضائية تدعو إلى إعطاء الأولوية للقانون الفرنسي بما يحمله من منطق، في إطار السياسة الاستعمارية الهادفة إلى إعطاء خصوصية لهذه المنطقة، وترسيخ فكرة التفريق بين العرب والقبائل، باستبدال القوانين الموحدّة وإدماج القانون الفرنسي في وسطها.

جاء مرسوم 1 أوت 1902م كبداية لتجسيد هذه السياسة لتجزئة الحالة الشخصية للفرد المسلم، حيث طرح مسألتي السلطة الأبوية على القصر والعجزة، و أعطى للمرأة القبائلية حقّ كفالة أبنائها، والمشاركة في مجلس العائلة إلى جانب الأب، بينما سيأتي لاحقا طرح مسألة وضع 'المرأة القبائلية'، والتي ستتطلب تدخّل المشرع الفرنسي، لخلق وضع قانوني لها مختلف عن وضع 'المرأة العربية' في باقي مناطق الجزائر، ويكفي أن نذكر هنا أنّ المشرع الفرنسي وظّف مصطلح 'القبائلية' (La kabyle) للدلالة على المرأة في منطقة القبائل، بينما أبقى على مصطلح 'المرأة الأهلية' دلالة على المرأة العربية أو المسلمة في باقي مناطق القطر الجزائري¹.

لعلّ أبرز من تولّى التشريع للمرأة في منطقة القبائل؛ أستاذ القانون وعميد كلية الحقوق بجامعة الجزائر 'مارسيل موران' (1863-1932)؛ الذي قدّم دراسة قانونية في مطلع القرن العشرين عن الأسرة المسلمة (La famille musulmane)²، تتبّع فيها تطورها في التاريخ العربي والإسلامي، وطرح القضايا التي تخص العائلة والمرأة في التشريع

¹ - Fatima Zohra Saï, Op.cit, pp.89-90.

² - Marcel Morand: **La famille Musulmane**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1903.

الإسلامي، مُعتمداً على المصادر الغربية، وكذا بعض المصادر الإسلامية؛ كشرح مختصر سيدي خليل الذي قام بترجمته الدكتور: 'نيكولاس بيرون' (Dr Nicolas Perron)¹.

لقد عقد 'موران' مقارنة بين وضع المرأة عند العرب قديماً وعند غيرهم من الأمم خاصة الرومان، حيث المساواة بين الجنسين من طرف الآباء، جازماً بالوضعية الدونية للمرأة العربية مقارنة مع نظيراتها في الغرب، فهي تعتبر ضمن أغراض الرجل وأملاكه؛ تباع وتشتري²، كما اعتبر أنّ وضع المرأة تحسّن في ظلّ شريعة الإسلام، مع ذلك فقد تركها القانون 'الإسلامي' تحت سلطة الزوج³.

ويعتقد 'موران' أنّ نظرة المسلمين لمسألة الزواج في جزائر القرن العشرين لم تتغيّر؛ فهم ينظرون للزواج على أنّه عقد 'شراء' للمرأة، وميلاد البنت عندهم يعتبر فآل شؤم، والرجل المسلم لا يتحدث إلا عن الذكور عند استفسارنا له عن عدد أولاده⁴، وخلص إلى أنّ السلطة الأبوية والقبلية على الأسرة، تمنح الرجل دوماً حق 'الجبر' وهو حق إرغام الأولاد (خاصة البنات) على الزواج بمن يختاره هو⁵.

ويعتقد أنّ المسلمين مازالوا مرتبطين أساساً بالأفكار القديمة في عدم المساواة بين الجنسين، ونظرهم للزواج تُحيل إلى حرمان المرأة من الحق في الميراث التي أقرّها القرآن،

¹ - (1876-1798): طيب ومستشرق؛ مدير الكلية العربية الفرنسية بالجزائر، وقبلها كان مديراً للمدرسة الطبية بمصر، وعضو الجمعية الآسيوية بباريس والجمعية التاريخية الجزائرية. قدّم وترجم عدّة أعمال من التراث الإسلامي، منها كتابه: 'نساء عربيات قبل ومنذ الأسلمة' سنة 1858. يُنظر:

Dr. Perron: **Femmes Arabes avant et depuis l'islamisme**, Librairie Nouvelle, Paris ; Tessier-librairie, Alger, 1858, 611p.

Voir: https://data.bnf.fr/fr/12198975/nicolas_perron/ Consulté le 11/04/2020 à 11 :12.

² - Marcel Morand: **La famille Musulmane**, op.cit, p.20.

³ - Ibid, p.34.

⁴ - نعتقد أنّ الدافع الحقيقي وراء هذا السلوك لدى الأب الجزائري زمن الاحتلال هو الخوف على بناته من الرجل الأوربي الأجنبي؛ فقد ترسّخت في المخيال الاجتماعي صورة ذلك المحتل الغاصب الذي لا يتعامل إلا بالعنف قوة السلاح والبطش، كما ذكرته إيفون تيران و فرانتز فانون... وغيرهما.

⁵ - Marcel Morand: **La famille Musulmane**, op.cit, p.p.58,59.

ويستمرون في اعتبار الزواج هو شراء للمرأة من طرف الزوج، و لكن لم تتغير نظرتهم إلى مسألة تعدد الزوجات فلن يتخلوا مطلقاً عن هذه الممارسات، مع ذلك يعترف أن 'تعدد الزوجات' يطبق من قبل أقلية من المسلمين في الجزائر، فمن بين 34863 عقد زواج تم تسجيله في عام 1900م، هنا فقط 3546 عقد لـ'أهالي' لهم زوجة سابقة، و 883 من طرف 'أهالي' لهم زوجتان، و 276 من طرف 'أهالي' لهم ثلاث زوجات، ويحدث أحياناً أن المرأة لا توافق على الزواج إلا إذا التزم الزوج بعدم التعدد¹.

وجزم أن تغيير الأوضاع يكون عن طريق الإدماج؛ لكن هذا لن يتحقق إلا بتغيير ذهنيات المسلمين المتمسكين بدينهم وعاداتهم، وإخراجهم من سلطة القبيلة والأب إلى سلطة الدولة الفرنسية، وأن تتمكن الإدارة الاستعمارية من فصل الأهالي عن عاداتهم البدوية، ويجزم بفشل سياسة الإدماج في الجزائر إلى غاية عام 1900م؛ لأنه من بين أكثر من أربعة ملايين جزائري لم يتجنس سوى 1151، كما أن حالات الزواج المختلط بين مسلمين و نساء أوروبيات أو يهوديات بقيت نادرة للغاية، فإحصائيات السنة نفسها تشير إلى زواج واحد بين رجل مسلم و امرأة أوروبية، ومنذ عام 1891 لم تتجاوز عدد الزيجات بين مسلمين وأوروبيات الأربعة في السنة الواحدة، وخمس حالات زواج مختلط بين رجال مسلمين ونساء يهوديات².

¹- Ibid., p.59,77.

مارسيل موران من بين الذين أقرّوا بأن ظاهرة تعدد الزوجات لم تكن منتشرة في المجتمع الجزائري؛ عكس بعض الكتابات التي روّجت لها، واتخذت منها ذريعة للاحتجاج على ظلم المجتمع للمرأة، ومطية للدفاع عن حقوقها. كما ربط 'جوزيف دسبارمي' ممارسة التعدد بالحاجة إلى ذلك، فالرجال في منطقة القبائل يكتفون بزوجة واحدة، بينما في الصحراء يتزوجون مثنى وثلاث ورباع؛ لحاجتهم لخدمة الخيمة ولأن كل شيء يصنع باليد، أما الرجال في متيجة خارج المدن فيأخذون امرأة أو اثنتين على الأكثر، أما الحضر فقلة من يتزوج اثنتين "في المية تصيب واحد". يُنظر: دسبارمي: كتاب الفوايد...، مصدر سابق، ص 69.

²- Ibid, p.79 et delà.

إن ندرة حالات الزواج المختلط عبّرت بالفعل عن حالة القطيعة شبه التامة بين السّكان الجزائريين والجاليات المختلفة التي استوطنت الجزائر خلال قرن من الاحتلال على الأقل، يمكن أن نستدل بالإحصائيات التي قدّمتها الباحثة الفرنكو-إيطالية: 'فلورنس رينوتشي' (Florence Renucci) لحالات الزواج المختلط بين رجال مسلمين ونساء أوروبيات في الجزائر، حيث لم تكن تتجاوز العشر حالات في السنة الواحدة، طيلة الفترة الممتدة من 1873 إلى 1915م؛ بمجموع بلغ 178 حالة فقط، أما النساء المسلمات الجزائريات اللواتي تزوجن بأوروبيين خلال الفترة نفسها، فبلغ مجموعهنّ 240 زوجة، بينما كانت تقدّر الزيجات بين الفرنسيين أو الفرنسيات والأجانب في الفترة ذاتها بالآلاف¹، وهذا يدلّ على امتناع الجزائريين والجزائريات عن مثل هكذا زواج؛ بسبب تمسّكهم بالحالة الشخصية الإسلامية.

ويبدو أنّ 'الزواج المختلط' صار من الممارسات الشائعة منذ مطلع ثلاثينات القرن العشرين على الأقل؛ بل تحوّل إلى ظاهرة اجتماعية متفارقة، بالنظر إلى المعطيات الاجتماعية والثقافية وحتى السياسية الجديدة التي عرفها المجتمع في الجزائر، بقيت مسألة 'الزواج المختلط' أو 'الاتحاد' - كما ورد لفظها في بعض المصادر الفرنسية- تشغل الفرنسيين؛ مثلما شغلت النخب الجزائرية، حيث صدرت فتوى عن جمعية العلماء بتحريم الزواج المختلط، هذه الظاهرة التي كتب عنها (ج- هـ بوسكي) (G-H Bousquet) مرتين في المجلة الإفريقية، الأولى كانت عام 1943م²، والثانية عام 1962م³، وقدّم في

¹ - Florence Renucci: «Citoyennes, sujets et mariages mixtes en Algérie (1870-1919)», in. (Colloque international 'Oublier les colonies'), 21-23 Mars 2007, CIRCE, Université Paris3, p.p.129-140.

² - G-H Bousquet : « Les unions mixtes et l'état civil européen », Revue Africaine, Vol.87, 1943, p.p.273-278.

³ - G-H Bousquet : « Les mariages mixtes à l'état civile d'Alger (1950-1960) », Revue Africaine, Vol.106, 1962, p.p.190-193.

المقالين إحصائيات عن حالات هذا النوع من الزواج في الجزائر العاصمة بين عامي 1936 و 1960م من خلال سجلات الحالة المدنية¹.

في عام 1913 أصدر 'موران' دراسة عن أصول المذهب المالكي في الجزائر، عاد فيها إلى ظروف انتشار المذهب المالكي بشمال إفريقيا وأبرز شيوخ وفقهاء هذا المذهب، واعتبر أن هذا المذهب لم يفقد مكانته في الجزائر إلى غاية وصول الاحتلال الفرنسي، الذين عملوا على ترجمة 'مختصر الشيخ خليل' بغرض اعتماده في القضاء الإسلامي، وقد تم إعداد قضاة مسلمين لهذا الغرض، لكن حسب 'موران' فقد تبين للفرنسيين عدم جدوى تطبيق هذه الأحكام الفقهية عملياً؛ لأنّ المسلم الجزائري متمسك بفهمه للإسلام وفق أصوله المحمدية الأولى وبالعبادات والتقاليد المتوارثة، ويضرب مثلاً بالزواج والطلاق، حيث يتمّ الزواج بمجرد قبول الطرفين وحضور الشهود، وكذلك تنفك الرابطة الزوجية بمجرد نطق الزوج بلفظ الطلاق أو ما يعبر عنه، هذه الأحكام التي لا تنسجم مع الواقع الجزائري آنذاك، حيث تجد المرأة نفسها محرومة من ميراث الزوج في حالة وفاته، كأنّها لم تزوّجه إطلاقاً أو كأنّه طلقها قبل وفاته، وهي لا تستطيع إثبات زواجها، كما يمكن لأهل الزوج الإتيان بشهود زور لإثبات أن الهالك قد طلقها، وهكذا يجد القاضي نفسه مجبراً على الرضوخ للأمر الواقع، والحكم لصالح عائلة الزوج في غياب عقد الزواج، كما حدث مع قاضي محكمة مستغانم في 25 فيفري 1911م².

وفي شهر مارس من عام 1916م قدّم 'مارسيل موران'، مساهمة في 'مشروع الإصلاحات الخاصة بالوضعية السياسية والاقتصادية للأهالي الجزائريين'، وهو المشروع الذي سيصدر في شكل قانون عام 1919م، والمشهور بإصلاحات كليمانصو، وأكد أنّ

¹ - يُنظر: كمال لحر، المرجع السابق، ص.ص 283-287.

² - Marcel Morand: **Le droit musulmane algérien (rite malékite): ses origines**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1913, p.p.21-22.

أكبر عقبة أمام تحقيق الاندماج هي أحكام الشريعة الإسلامية التي لا تتوافق إطلاقاً مع المنظومة السياسية والاجتماعية الفرنسية، والعقبة الحقيقية هي في مسألة الأحوال الشخصية، فالشيء الذي لا يمكن لـ'الأهلي' التحلي عنه هو مفهومه أو نظرتة للزواج والطلاق وتعدد الزوجات، ووضع المرأة المتدني فيما يخص حقها في الملكية العقارية، وكافة الحقوق التي يجب منحها للنساء¹.

لقد وُضعت مسألة تعدد الزوجات ضمن مقترحات مجلس الحكومة الفرنسية لقانون فيفري 1919م؛ كمانع وسبب كافي لرفض ارتقاء 'الأهلي' إلى مستوى المواطنة الفرنسية، حيث صُنّف التعدد إلى جانب الإدانة الجنائية، واعتبرها المشرع الفرنسي جنحة؛ يُعاقب عليها بأكثر من ثلاثة أشهر من السجن، وهي الإشكالية التي حاول مشروع 'موريس فيوليت' حلّها بطريقة مختلفة، حيث اقترح الفصل بين مسألة الأحوال الشخصية وطلب المواطنة الفرنسية (الفصل بين الحقوق المدنية والحقوق السياسية)، رغم أنه هو الآخر لم يتضمّن حقّ 'المرأة المسلمة' في الاستفادة من المواطنة الفرنسية؛ لكون المرأة لم تكن موضوعاً لمقترحات 'فيوليت'، رغم أنها معنية كزوجة، فالقانون كان موجّهاً أساساً إلى نخبة الرجال من 'الأهلي المسلمين' الذين خدموا في صفوف العسكرية الفرنسية².

وهكذا فقانون 4 فيفري 1919م، لم يعط الحق للمرأة في نيل المواطنة الفرنسية إلاّ عن طريق النسب أو الزواج؛ أي أن تكون ابنة أو زوجة لرجل 'أهلي' حاصل على الجنسية الفرنسية وصار مواطناً فرنسياً، وكان يجب الانتظار إلى غاية صدور قانون 18 أوت 1929م؛ لتستفيد 'المرأة الأهلية' في الجزائر من أحكام قانون فيفري 1919 ومن

¹ - Marcel Morand: **Contribution à l'étude des reformes concernant la situation politique et économique des indigènes algériens**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1916, p.22.

² - Fatima Zohra Saï, Op.cit, pp. 63-64.

السيناتيس كونسيلت، ويصير بإمكانها الحصول على المواطنة الفرنسية بصفة مستقلة عن الرجل، بشرط تخليها عن أحوالها الشخصية الإسلامية طبعاً¹.

بالعودة إلى مشروع 'موران'؛ لعلّ ما يعضد رأيته؛ هي مراسلة الأمين العام للحكومة الفرنسية إلى الحاكم العام الفرنسي بالجزائر عام 1918م، وقد ورد فيها أن: "العرف في منطقة القبائل يُمارس خارج كل سيطرة أو ضمان لحسن النية، وهو يؤدي إلى أسوأ الانتهاكات في حقّ أي شعب، حالة المرأة بائسة كما هو الحال عند بعض القبائل، الزواج هناك يعتبر عملية بيع، إته يجعل من المرأة مجرد سلعة تشتري ويمكن إعادة بيعها... وقد يتمّ امتلاكها عن طريق الميراث وهي لا تستشار في مصيرها، هي أشبه بالأثاث أو الحيوانات الأليفة التي غالباً ما تتشارك معها في سوء المعاملة، والعرف لا يتسامح ولا يتعامل بلين إذا أرادت المرأة أن تضع نفسها في حالة من التمرد"².

ونقرأ لـ 'مارسيل موران' دراسة أخرى عن الوضع القانوني للمرأة القبائلية (Le statut de la femme kabyle) نشرها في مجلة الدراسات الإسلامية (La revue des études islamiques, cahier 1, 1927)، يعود فيها لطرح الإشكال السابق، والخاص بتناقض القوانين الفرنسية مع الواقع المعاش في الجزائر، كما يضيف إلى ذلك تراخي المشرّع الفرنسي في تطبيق النصوص القانونية، ويعطي مثالا بحقّ الخلع للزوجة في منطقة القبائل، والذي يسمح لها بطلب الطلاق، هذا الحق الذي تمّ إقراره في 11 جانفي عام 1899م (Revue Algérienne 1899,2,521) لكن كان يجب الانتظار إلى غاية 11 نوفمبر 1922م (Revue Algérienne, 1922-1923, 2,81)؛ لتوافق

¹- Ibid. p.73.

² Florence Renucci: **Le statut personnel des indigènes...**, Op.cit, p.99.

محكمة الاستئناف على إعمال هذا التشريع الفرنسي. وكذلك الحال فيما يتعلق بحق المرأة في الملكية والتصرف في الأوقاف الذي تحرمها منه التدابير العرفية¹.

والحق أن مشروع 'موران' كان محلّ انتقاد من رجال القانون الفرنسيين الممارسين في الميدان؛ لأنه حاول فرض أحكام لا تتماشى مع الواقع الجزائري، وهكذا نجد المدعي العام بمحكمة سطيف يكتب عن مسألة الطلاق: "يبدو أن المادة 175 أكثر خطورة؛ فهي تتبنّى في الواقع المذهب الحنفي فيما يتعلق بآثار حكم الطلاق، هذا الحل هو أكثر صرامة مما هو عليه في المذهب المالكي (وهو مذهب الجزائريين آنذاك)، الذي يسمح للزوج بالتراجع عن قراره، أعتقد أنه من الأفضل تسهيل التقارب بين الزوجين السابقين"².

1-4- الوضع القانوني للمرأة الجزائرية بعد قرن من الاحتلال:

بعد قرن من الاحتلال الفرنسي للجزائر، بقي الوضع القانوني للمرأة الجزائرية غامضاً وتأرجحت وضعيتها بين تشريعات فرنسية حاولت إدارة الاحتلال فرضها عنوة، وبين قانون محلي (إسلامي) يخضع للأعراف وتحكمه العادات والتقاليد أكثر مما يستند لأحكام ونصوص الشريعة والفقهاء الإسلاميين. كما تركّز اهتمام رجال القانون الفرنسيين المتخصّصين في قضايا 'الأهالي' الجزائريين على المرأة بمنطقة القبائل دون سواها من مناطق القطر الجزائري، وقد كان من نتائج ذلك صدور قانون 2 ماي 1930م لإصلاح وضع المرأة القبائلية، وبقي الحال على ما هو عليه إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث عاد الحديث مجدداً عن مسائل المرأة ومتطلبات إصلاح وضعها القانوني، ضمن إطار أشمل هو 'حقوق المواطنة' الذي سيعرف بدوره الكثير من النقاش دون تجسيده فعلياً.

¹ - Marcel Morand: *Le statut de la femme kabyle*, Librairie Orientaliste Paul Ghauthner, Paris, 1927, p.p.47-48.

² - Florence Renucci: *Le statut personnel des indigènes...*, Op.cit, p.58.

في 19 ماي 1931م أقرّ المشرّع الفرنسي مرسوماً لتحسين وضع المرأة القبائلية وقد استهدف مسألتين: الأولى خاصة بفكّ الرابطة الزوجية وقضية الطلاق أو الخلع، والثانية متعلّقة بالميراث، في محاولة منه لمعالجة قضية حرمان المرأة من الميراث التي أقرت عام 1748م، وإرساء نظام ملكية جديد لصالح المرأة، لكن في الحقيقة فقد قلّص عدد النساء المحتملات للميراث وفق الفقه الإسلامي، وجعل الأمر مقتصرًا على الأرملة أو البنت أو الحفيدة¹. لقد خلقت هذه التشريعات التي نظّر لها 'مارسيل موران' حالة من الاضطراب في المنظومة الفقهية التي كانت تحكم الجزائريين بما يعتريها من اختلال، كما أنّه لم يستطع فرضها في أرض الواقع فكان مصيرها الفشل في تحويل الوضع القانوني للمجتمع القبائلي.

وإلى غاية صدور نصّ 'قانون أو دستور الجزائر' رقم 47-1853 في 20 سبتمبر 1947م، والذي سبقته أمرية الجنرال 'ديغول' في مارس 1944م وقانون ماي 1946م، بقي الوضع القانوني للمرأة الجزائرية تحديداً غامضاً، فهذه القوانين التي من المفروض أن تُعنى بتحسين وضع المسلمين الجزائريين؛ أبقّت المسلمات الجزائريات ضمن الوضع الخاص، ولم تعترف لهنّ بالحقوق السياسية الكاملة، مع أنّ أمرية 1944 ألغت العمل بقانون الأهالي 'الأنديجينا'، إلا أنّها لم تعتبر المرأة الجزائرية 'مواطنة مسلمة'، وكذلك الحال مع قانون ماي 1946 الذي منح صفة 'المواطنة الفرنسية' لكلّ المقيمين بأراضي ما وراء البحار بما في ذلك الجزائر، دون أن يشمل النساء بذلك، وبقيت مسألة منح الحقوق السياسية للمرأة الجزائرية تتأرجح بين معارض ومؤيّد، سيما أنّ التيار المؤيّد لتحسين وضع المرأة المسلمة في الجزائر، والذي تزعمته 'ماري بوجيجا' منذ الثلاثينيات ظلّ يمثّل أقلية، ولم تزد مطالبه عن فكرة 'تحرير المرأة الأهلية' عن طريق المدرسة الفرنسية، وتكوينها لإدارة شؤون بيتها أو ولوج سوق العمل².

¹ - Fatima Zohra Saï, Op.cit, p.96.

² - Fatima Zohra Saï, Op.cit, pp.73-76.

وأقرّ 'دستور الجزائر' لعام 1947م مبدأ الهيئتين الانتخابيتين؛ الأولى الخاصة بالمواطنين الفرنسيين والأوربيين، والثانية الخاصة بالأقلية المسلمة التي تعيش على أرض الجزائر الفرنسية، وبذلك فالنساء المسلمات يقعن وفق هذا التصنيف ضمن الهيئة الثانية، وأقرّت المادة الرابعة منه حقّ الانتخاب للنساء المسلمات، لكنّها تركت للجمعية الجزائرية (برلمان الجزائر) تحديد كفاءات تطبيق هذه المادة، وهكذا ترسّخت اللا عدالة بين المواطنين الأوربيين والجزائريين المسلمين باللا عدالة أيضا بين النساء الأوربيات ونظيرتهنّ الجزائريات، ومع أنّ مسألة حقّ الانتخاب للنساء المسلمات طُرحت للنقاش عام 1948م، إلّا أنّ المجلس لم يتوصّل إلى إصدار نصّ قانوني خاص بذلك¹.

لقد بقيت هذه المادة حبرا على ورق؛ وبالإضافة إلى تقاعس المجلس في إصدار نصّ تنظيمي لها، فإنّ شرط اكتساب صفة المواطنة الفرنسية للمرأة الجزائرية جعل حصولها على الحقوق السياسية بالتّسبة لشريحة واسعة من النساء الجزائريات ضرباً من المستحيل، وهكذا كان يجب الانتظار إلى السنوات الأخيرة من الثورة التحريرية لنرى المرأة الجزائرية تنتخب، وتحصل على بعض الحقوق التي أقرّها القانون الإطار في 5 فيفري 1958م.

لم يكن إذن الخطاب القانوني ليغيّر من وضع المرأة الجزائرية كثيراً، ولا ليحرّرها كما حاول أو ادّعى المشرّع الفرنسي، ولعلّ ما صدر من أحكام قانونية زاد وضع المرأة سوءاً، وتركها تائهة بين منظومتين تشريعتين؛ محلية إسلامية وقوانين فرنسية؛ مختلفتين أشد الاختلاف، في الجوهر والفلسفة والقيم التي بُنيت عليها، كما أنّ هذه التشريعات الكولونيالية بقيت بعيدة عن ملامسة واقع المرأة الجزائرية، وبالتالي عاجزة عن حلّ قضايا الحقيقية، وتغيير وضعها القانوني.

¹ - Ibid., p.80.

2- الحركة النسوية الفرنسية وقضية 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر:

عرف النصف الأول من القرن العشرين صعود الحركة النسوية الفرنسية، رغم أنّها لم تستطع أن تحقّق الكثير لصالح المرأة الفرنسية إلاّ عشية الحرب العالمية الثانية وبعدها، لكنّ الناشطات النسويات الفرنسيات لم يدّخرن أيّ جهد للمرافعة من أجل نيل حقوق المرأة في المساواة التامة مع الرجل، وقد مثلت 'قضايا المرأة الأهلية' لدى بعضهنّ جزء من طروحاتهنّ الدفاعية عن حقوق النساء، مع مراعاة خصوصية الظروف التي كانت تعيش في ظلّها 'المرأة المسلمة' تحت سيطرة مجتمع ذكوري، كما ندرك من خلال أدبياتهنّ أنّهن فضّلن وضعن مصلحتهنّ الشخصية؛ التي تتقاطع مع مصالح الاحتلال الفرنسي ومشروعه الاستيطاني في الجزائر؛ كأولوية ضمن خطابهنّ التحريري لصالح فكرة 'تحرير المرأة الأهلية'.

2-1- موقف الاتحاد النسوي الفرنسي في قضايا المرأة 'الأهلية':

تم تأسيس 'الاتحاد الفرنسي من أجل حقّ النساء في الاقتراع' (UFSF) في عام 1909م، وهو واحد من المجموعات التي مثلت التيار الإصلاحية الذي كان موجودا في فرنسا بين فترة ما بين الحربين؛ وقد أعطته السيّدة 'سيسيل برونشفيك' (Mme Cécile Brunshvicg)، دفعا قويا خلال فترة رئاستها لهذا الاتحاد من 1924 إلى 1940م، فإلى جانب المطالبة بالحقّ في الاقتراع؛ ناضلت النساء الفرنسيات مثلهنّ مثل الجمعيات النسائية الغربية حينذاك؛ من أجل حقّ المرأة في العمل، وحماية الأمّهات والاعتراف بالأمومة كوظيفة اجتماعية (...). أما في الجزائر؛ فقد اختفت اللجنة النسائية التي أنشأت عام 1914م مع اندلاع الحرب الكبرى، وكان يجب الانتظار إلى غاية عام 1930م لتجرؤ الحركة النسوية الفرنسية على التعبير عن نفسها مجدّدا¹.

¹ Claudine Guiard: «Être féministe en contexte colonial dans l'Algérie des années 1930: Les militantes de l'Union française pour le suffrage des femmes», *Revue Historique*, N°673, 2015/1, p.p.125-148. Voir=

لقد واجهت الحركة النسوية الفرنسية في الجزائر منذ أوائل القرن العشرين صعوبات في فرض نفسها والتغلغل بين النساء العربيات والبربريات، حيث كانت أمام الأدوار التقليدية للجنسين داخل المجتمع المحلي، فضلا على ما قد تواجهه المرأة 'الأهلية' إن هي اعتنقت مذهب النسوية من إقصائها اجتماعيا وتفكك أسرهما، واتهامها بالخيانة وتعرضها للنبذ الدائم، وحتى المسلمين (المتفرنسين) المؤيدين أو المتعاطفين مع أطروحات الحركة النسوية الفرنسية، كانوا حذرين إزاء التغييرات التي قد تحدث على أدوار الجنسين، وكانت هناك قضايا جزائرية أخرى ذات أولوية في العشرينات والثلاثينات¹.

ولعلّ ما يؤثّر على تصاعد صوت الحركة النسوية الفرنسية؛ ذلك الاهتمام الذي لقيته من قبل الصحافة العربية في الجزائر، حيث نقرأ عن نشاط عضوات الاتحاد النسوي الفرنسي في الجزائر، ضمن أعداد جريدة 'النجاح' القسنطينية، وعن اجتماع لجنة الاتحاد النسائي الفرنسي ليلة 12 ديسمبر عام 1929م بدار مشيخة مدينة لوفريك، أين: "ألقت السيدة 'ريشاردو' محاضرة ذكرت فيها أنّ حقوق النساء بفرنسا مهضومة، وكيف لا ومائة وستون من نساء العالم حصلن على حقّ الانتخاب، وعلى حقّ النيابة إلا المرأة الفرنسية المهضومة الحقّ، فإنها إلى الآن لم تحصل على ذلك"². وقد قامت السيّدّة 'ريشاردو' بزيارة إلى قسنطينة وألقت محاضرة: "أمام جمع غفير، وبيّنت أنّ المرأة مُداسة لكونها بعيدة عن قاعة المجالس العمومية، وأتت بحجاج عديدة لتأييد فكرتها، تأسّفت كثيرا لكون فرنسا صاحبة العدل لم تمنح النساء الانتخاب، ولم تعط للمرأة مالها من الحقوق"³.

=<https://www.cairn.info/revue-historique-2015-1-page-125.htm> Consulté le: 29/04/2020 à 18 :24.

¹- Sara Kimble: «**Emancipation through secularization: French feminist views of muslim women's condition in interwar Algeria**», *French Colonial History*, Vol. 7, 2006, pp. 109-128. Voir: <http://www.jstor.org/stable/41938268> Consulté le: 10 Mai 2018 à 11:23.

² - "الاتحاد النسائي الفرنسي"، النجاح، ع.833، الثلاثاء 7 جانفي 1930م.

³ - "نهضة المرأة"، النجاح، ع.918، الثلاثاء 22 أفريل 1930، ص2.

واعتباراً من ثلاثينيات القرن العشرين؛ بدأ الاتحاد النسوي الفرنسي يطرح انطلافاً من باريس مسائل متعلّقة بكيفية ترقية المرأة 'الأهلية' في المستعمرات الفرنسية¹، لكن سرعان ما ظهرت الخلافات بين المناضلات النسويات في فرنسا والجزائر حول مسألة 'تحرير المرأة المسلمة'؛ وهنّ اللواتي أجمعن على أنّ 'المهمّة الحضارية لفرنسا' تقتضي جعل حقوق المرأة المستعمرة قضية محورية، لكنهنّ واجهنّ عدّة إشكاليات منها: نظرة المجتمع المُستعمر للمرأة وهيمنة السلطة الأبوية، وسيطرة الحضارة العربية الإسلامية، وكيف كان لهنّ أن يُطالبن بحقّ 'المرأة الأهلية' في التصويت في وقت لم يكن هذا الحقّ مكفول للرجال بسبب عدم تمتّع 'الأهالي' بحقوق المواطنة كاملة، وكيف يمكن المطالبة بحقوق المرأة المسلمة قبل البحث عن سبل ارتقائها؟ وهل من الممكن طرح قضية وضع المرأة المستعمرة في ظلّ النظام الكولونيالي القائم؟².

نقلت جريدة 'النجاح' عن جريدة 'لاديباش' مايلي: "اجتمعت الجمعية العمومية لذوات المذهب النسائي بالمعرض العام بباريس، وتباحث أعضاء الجمعية في الوسائل التي يُتوصّل بها إلى إسعاف نساء المستعمرات وأولادهن، والفكرة جيّدة تدلّ على عاطفة كريمة، وهي فكرة فرنسوية، دعي (كذا) نساء من المستعمرات للإعراب عن مقاصدهن وبيان آرائهن؛ فلبّين الدعاء وأتين بنتائج استنتجناها من بحثهن بين الأدواء الحالّة (كذا) بنساء المستعمرات وأسبأها؛ ظهر منها أن أعظم سبب هو جهل النساء بالأضرار التي تتشكّى منها الأمة كلّها، والمرأة أوّل مُصاب بداء الجهل، وجهلها هو المسبّب للأضرار التي (لحقت؟) بالأولاد والأزواج"³، كما ذكرت إحدى العضوات: "النساء الجزائريات لهنّ قلوب حسّاسة لأخواتهنّ الفرنسيات، ولهنّ أفكار وإحساسات تدفعهنّ للتأمّل في هذه المسائل... يجب علينا أن نسعى في إصلاح أخواتنا المسلمات (?) يجب أن ننظّم أنفسنا

¹ - Sara Kimble, Op.cit.

² - Claudine Guiard: «Être féministe...», Op.cit, p.127.

³ - مدام جان بوتيني هيو: "المذهب النسائي"، النجاح، ع.1210، الجمعة 25 سبتمبر 1931، ص.3.

حتى تكون لنا هيئة تقوم بعمل منظم؛ فلنقم بالعمل؛ لنوجه جميع إرشاداتنا لرئيسة الاتحاد النسائي بباريس"¹.

وعرف نشاط الاتحاد النسوي الفرنسي بالجزائر منذ منتصف الثلاثينيات بعض الانتعاش، حيث أنشأت لجنة الجزائر العاصمة بعد محاضرة ألقته 'مارغريت شواب' (Marguerite Schwab)، ثم تم تشكيل لجان قسنطينة ووهران وسطيف وسكيكدة والبيدة وبوفاريك، وضمت جميعها 1757 منخرطة(ة)، والملاحظ هو تركّز نشاط الاتحاد بالمدن الساحلية، كما تم تأسيس بعض اللجان في المدن الداخلية عقب 'مؤتمر النساء المتوسطيات' الذي انعقد بقسنطينة؛ ليصل إلى 2000 منخرط عام 1935م، كما شمل عدد المنخرطين 1200 امرأة من 'رابطة النساء أرامل الحرب' المعروفة بـ: 'الفرنسية' (La française)، ومجىء الجبهة الشعبية إلى الحكم وظهور مشروع 'بلوم فيوليت' الذي اقترح منح 24000 مسلم من النخبة الجزائرية حق الاقتراع، انقسمت مواقف فرنسيو الجزائر بخصوص هذا المشروع، وهو ما دفع العديد من المناضلات في الاتحاد النسوي الفرنسي إلى تقديم استقالتهم من الاتحاد².

هذا الأمر إن دلّ على شيء فإنّما ما يدلّ على ولاء المرأة الفرنسية المستوطنة بالجزائر لمصلحتها الشخصية ولمصلحة زوجها وعائلتها، ولمصلحة الاستعمار والوطن الأمّ فرنسا؛ يمرّ قبل ولائها لقضية المرأة وحقوقها بشكل عام، فضلا على أنّ نضالهنّ كان من أجل نيل حقوقهنّ ضمن منظومة الاستيطاني الفرنسي بالجزائر، دون الدفاع عن حقوق 'المرأة الأهلية' في هذه المرحلة على الأقل.

ويجب أن نميّز هنا بين توجهات النساء الفرنسيات اليساريات في خطابهنّ تجاه المرأة المسلمة في الجزائر، وبين مختلف الجمعيات النسوية الأخرى الناشطة في هذا المجال، ففي

¹ - المصدر نفسه.

² - Claudine Guiard: «Être féministe...», Op.cit, p.128.

عام 1937م، أوعزت رئيسة 'الاتحاد النسوي الفرنسي' 'لوسيان جان داروي' (Lucienne Jean-Darrouy)؛ إلى أولئك الذين يرغبون في نزع الحجاب عن النساء المسلمات: "أنّ حجاب المرأة المسلمة يزعجها أقلّ من جهلها وخضوع فكرها، والقليل من الكرامة التي تتمتع بها في حياتها كأمراة"¹.

تنقل جريدة 'النجاح' ما كتبه رئيسة الجمعية الفرنسية لحماية المرأة 'ماريا فيرون' (Maria Veron) عن 'المرأة والقرآن': "لم يكن محمد (ص) عدو المرأة، لكن مع الأسف بعض المسلمين يناقضون آراءه أو هم لم يفهموا معنى أفكاره، أرادوا أن يصوّروه لنا هكذا - إته من الضروري أن نرجع إلى العصر الذي كان يعيش فيه لفهم حقيقة أفكار محمد (ص)².

و"من المؤكد أن النسويات الفرنسيات كنّ يدركن الصعوبات الثقافية والسياسية التي يطرحها تحرير المرأة المسلمة في الجزائر، ولكن هل كنّ راغبات حقاً في تحرير النساء المستعمرات؟ تعترف السيّدة 'فيونت' (Mme Fuentes)، رئيسة فرع سكيكدة بأنها على الرغم من استيطان عائلتها في الجزائر منذ عام 1838، لم تتلق حتى الآن طلب التعليم الذي أعرب عنه العديد من المسلمين في مؤتمر قسنطينة، اعتقدت دوماً أنها ستُرضي المسلمين من خلال تقديم الرعاية الإنسانية فقط في العيادات والأعمال الاجتماعية، وبعبارة أخرى؛ فإن معظم الفرنسيين غير مهتمين بالجزائريين بالإجماع تقريباً، في حين شكّل الفرنسيون الجزائريون صورة نمطية تسمح لهم بتبرير استعمار البلاد والمهمّة الحضارية الصّعبة لتحضير شعب مرتبط بالتقاليد البالية"³.

¹ - Ibid., p.137.

² - ماريا فيرونا: "المرأة والقرآن"، النجاح، ع.1444، الجمعة 5 ماي 1933م، ص.2.

³ - Claudine Guiard: «Être féministe...», Op.cit, p.139.

من ناحية أخرى؛ يحق لنا هنا التساؤل: هل نالت المرأة الفرنسية حقوقها حتى تناضل من أجل حقوق غيرها؟ يُمكن أن نُجيب من خلال ما نقلته جريدة 'النجاح' عن جريدة 'المقطم' المصرية: "إنّ المرأة (الفرنسية) لا تستطيع مزاوله أي مهنة كانت إلا بعد موافقة زوجها على ذلك، فهي لا تستطيع مزاوله المحاماة أو الطب أو غيرها مادام زوجها لا يُوافق على ذلك، ولا تستطيع المحاكم في هذه الحالة أن تُعطي الإذن المطلوب لأنّ ذلك حقّ شخصي للزوج" وأضافت: "فالزوج يتمتع بسلطة واسعة في مراقبة شؤون زوجته الشخصية (في حدود العقل طبعاً) فله أن يمنعها من رؤية أي شخص أراد، وله أن يطلع على مراسلاتها وأن يفتح المكاتبات التي ترد إليها أو التي تريد إرسالها، وله أن يمنعها من قراءة أي كتاب يرى أنّه لا يليق الخ" وله "أن يمنع عنها النفقة وأن يطلب الحجر على مواردها الشخصية حتى تعود إليه صاغرة"¹.

في عام 1938م؛ استقالت 'لوسيان جون داروي' من رئاسة فدرالية الاتحاد النسوي الفرنسي بالجزائر، والتحقّت بفريق تأسيس صحيفة 'الجزائر الجمهورية'، كما أنّ بعض المنخرطات تخلّين عن مطالبهنّ النسوية، وانخرطن في مجال الخدمات الاجتماعية، والتحضير للدفاع في مواجهة الحرب الألمانية ضد فرنسا²، وهكذا طوى النسيان قضايا المرأة المسلمة في الجزائر إلى ما بعد الحرب، أين عاد اهتمام 'الاتحاد النسوي الفرنسي' بقضايا المرأة 'الأهلية'، حيث نجده ينتقد بشدّة السياسة الاستعمارية تجاه المرأة في الجزائر، ويصف ما تقوم به الحكومة الفرنسية الاستعمارية 'الرجعية' بالجرائم البشعة، وأكد قيامه بالجهود اللازمة لتمكين النساء الجزائريات في الوصول إلى تحقيق حضورهنّ المناسب³.

¹ - شمس الدين الغرياني: "المرأة في القانون الفرنسي"، النجاح، ع.941، الجمعة 23 ماي 1930، ص.1.

ع.942، الأحد 25 ماي 1930، ص.1.

² - Claudine Guiard: «Être féministe...», Op.cit p.145.

³ - «Les femmes de France prennent conscience des crimes commis en Algérie par in gouvernement colonialiste», République Algérienne, 3 septembre 1948.

وفي حقيقة الأمر؛ أنّ بعض مطالب الناشطات النسويات التي تخصّ المرأة 'الأهلية'؛ قد تماهت مع رؤية أنصار المشروع الاستيطاني الفرنسي في الجزائر القائم على فكرة التعليم من أجل إنجاح الاندماج، ولم تخلُ أيضا من تلك النظرة الاستعلائية السائدة في أوساط المجتمع الأوربي عموماً تجاه المجتمع المحلي، والتي تراوحت بين التعاطف والتأسّف على حال المرأة المسلمة 'الأهلية'، ووصلت إلى حدّ "الجزم بأنّ المرأة 'الأهلية' هي ضحيّة التعاليم الدينية القاسية، فأوا بأنه من الضروري الارتقاء بها وعدم تركها ضحية للمجتمع المحلي وأعرافه البالية، التي هي علة تخلفها وانغلاقها، متّهمين المجتمع المحلي وأحكام الدين الإسلامي بجعل المرأة: "أسيرة مُعيّبة عن الحياة، وأنّ المجتمع الإسلامي، لم يترك لها أي فرصة للازدهار ولم يمكنها من أي نضج، وأنّه يجبرها على أن تقبع في طفولة دائمة..."¹.

2-2- قضية 'تحرير المرأة الأهلية' في الصحافة النسوية الفرنسية:

إنّ القارئ للصحافة النسوية الفرنسية في النصف الأول من القرن العشرين؛ يجد أنّ اهتمام هذه الأخيرة بقضايا المرأة الأهلية في الجزائر انصبّ على جوانب العادات والتقاليد، بينما ضربت صفحاً عن المشاكل الحقيقية للنساء في المستعمرات الفرنسية؛ في التعليم والصّحة والمشاركة الاجتماعية، فكانت مواضيع اللباس والزينة والممارسات اليومية للمرأة حاضرة بقوة في كتابات هذه الصحف، لكن نجد الاستثناء في بعض الصحف اليسارية التي طرحت قضايا الأحوال الشخصية للمرأة، ودعت إلى ضرورة ترفيتها ماديا ومعنويا عن طريق التعليم، مع التركيز على المرأة القبائلية شأنها شأن جلّ الكتابات الاستعمارية².

بتبلور الخطاب الكولونيالي الفرنسي حول المرأة 'الأهلية' في الجزائر؛ صارت الصحافة النسوية الفرنسية تولى أحيانا بعض اهتمامها بوضع المرأة في الجزائر، و"خلال

¹ - محمد الميلي: ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص57.

² - Voir : Alfred Coulon: «Le relèvement de la femme kabyle», *Revue ELLE*, n°41, 15 Novembre 1935.

فترة ما بين الحربين، شكّلت قضية 'تحرير المرأة المسلمة' أحد المواضيع المتكرّرة في الصحافة النسوية الفرنسية، وهو ما سمح للنساء الفرنسيات المحبطات بسبب إبعادهن عن صناديق الاقتراع -عكس معظم النساء الأوروبيات- بإعطاء بُعد جديد لمعركتهنّ، وقد كنّ على قناعة أنّ تحرير المرأة المسلمة يمرّ عبر العصرية، ووفق النموذج الثقافي الغربي والعلماني"، فجدد 'سيسيل برونشفيك' تكتب في جريدة 'La française' عقب عودتها من رحلة إلى الجزائر عام 1931م: "النساء المسلمات (الجزائريات) هنّ إما عبيداً محبوسات أو عاهرات"، وطرحت بعض القضايا: هل يجب منع زواج البنات الصغيرات كما فعل الإنجليز في الهند؟ هل يجب جعل تعليم البنات إجباري؟ هل يجب أن نكيّف القانون المدني الفرنسي (النابليوني) مع الأعراف التي يقرّها القانون الإسلامي العربي والقبائلي؟¹.

بقيت هذه التساؤلات رهينة الصفحات التي كتبت عليها، بينما تركّز نضال النسويات الفرنسيات في الجزائر على المطالبة بحقوقهنّ، دون أن يحقّقن شيئاً ملموساً لصالح المرأة 'الأهلية'، والأكثر من ذلك كان احتجاجهنّ على السلطات الفرنسية بسبب: "التناقض الصادم الناجم عن كون فئة من المواطنين الفرنسيين في الجزائر، تُبقي (النساء) خارج إدارة شؤون البلاد، في حين أنّ الأشخاص المسلمين المتجنّسين وغير المتجنّسين يُنتخبون ممثلين للمجالس؛ لذلك فهنّ يُطالبن بمنحهنّ نفس الحقوق السياسية التي يتمتع بها الرعايا المسلمون"².

واحتجّت 'لوسيان جون داروي' بشدّة على مشروع بلوم-فيوليت الذي يسعى لمنح فئة من النخبة الجزائرية المتجنّسة بالجنسية الفرنسية بعض الحقوق السياسية، وهي الفئة التي اكتسبت المواطنة الفرنسية بموجب قانون 'السيناتيس كونسيلت' ومنذ زمن قريب

¹ - Claudine Guiard: «Être féministe...», op.cit, p.131.

² - Ibid., p.132.

فقط، في حين المرأة الفرنسية التي هي مواطنة فرنسية منذ قرون خلت؛ لم تنل تلك الحقوق، وطالبت بإعطاء الأولوية للنساء الفرنسيات¹.

وتأسست جريدة نسوية أخرى تحت عنوان: 'المرأة الجزائرية' (La femme Algérienne)²، وكانت لسان حال شعب المساعدة العائلية للاتحاد النسائي المدني والاجتماعي للجزائر، وصدر العدد الأول في شهر نوفمبر عام 1933م، حيث تصدر الصفحة الأولى مقال تعريفى بهذا الاتحاد من حيث أهدافه ومبادئه وعقيدته ووسائل عمله، كما طرح قضية اقتراع النساء³، وقد ناضل هذا الاتحاد لصالح حقوق المرأة وعلى رأسها الحق في المساواة مع الرجل، كما خصّصت مقالات للحديث عن شؤون المرأة في منزلها، وأحوالها الشخصية وظروف عملها⁴.

وابتداء من شهر نوفمبر 1935 إلى نهاية شهر مارس 1936م، خصّصت الجريدة اليسارية: 'نساء الغد' (Les femmes de demain) صفحة كاملة للتعريف بثقافة المرأة بالجزائر، فكتبت عن نساء الطوارق والنايليات، الميزابيات، الشاويات في الأوراس والقبائليات، ونساء التلّ، وذكرت أنّ النساء المسلمات يعتمدن بشكل كبير على الرجال، وأنّ طاعة وإخلاص الزوجة لزوجها هو قاعدة ثابتة في كل مكان. وركّزت الصحيفة على التنوّع في الظروف المعيشية والعادات والأعراف والمسؤوليات والمهام الموكلة إلى المرأة؛ مما يعطي بعضهنّ سلطة حقيقية؛ وأشارت إلى أنّ ارتداء الحجاب الذي هو رمز على سجن المرأة المسلمة وخضوعها، لم يعد موجوداً في كلّ مكان في الجزائر، على سبيل

¹- Lucienne Jean-Darrouy : «**Priorité aux femmes françaises, S.V.P**», Femmes de demain, n°30, 15 Janvier 1937.

²- المقصود بالمرأة الجزائرية هنا المرأة الأوربية المعمّرة أو المستوطنة بالجزائر؛ لأنّ المستوطنين صاروا يتسمّون بالجزائريين، بينما السكّان الأصليون بالجزائر صاروا يوصون بـ'الأهالي' كما هو معروف.

³- «**Union féminine civique et sociale en Algérie**», La femme Algérienne, n°1, 14 Novembre 1933.

⁴- Voir Journal : La femme Algérienne, n°8, Juillet-Aout 1934.

المثال؛ النساء البربريات في الأوراس ومنطقة القبائل، يعملن في الحقول مع وشاح بسيط أو مندبل على الرأس، وحتى إن استمرت المرأة العربية في الخروج محجّبة، فإن عدد متزايد من النساء المسلمات صرن عاملات في المنازل في المدن وفي الحقول الزراعية في الريف¹. وكان لهذه الجريدة اهتمام أيضا بالفتاة المسلمة في الجزائر خاصة قضية تدرّسها، إلى جانب المساعدات الاجتماعية التي تشرف عليها النساء الكاثوليكيات لصالح المسلمات الجزائريات، خلال المناسبات الدينية كالأعياد وشهر رمضان وخصوصياتها لدى المرأة²، كما ربطت بين حقّ النساء في الانتخاب وأوضاعهنّ المزرية، ورافعت الصحيفة لصالح المساواة بين الجنسين، وضرورة ارتقاء المرأة 'الأهلية' ونيلها حقوقها كاملة³. وأشادت بأعمال فرنسا لصالح المرأة المسلمة في الجزائر في جانب النظافة والمساعدات الاجتماعية⁴.

كما نقرأ في افتتاحية الجريدة عن استحالة ضمان حق الانتخاب للمرأة المسلمة؛ نظرا للوضع القانوني الذي كانت تخضع له، فضلا عن وقوعها تحت سيطرة العادات والتقاليد الاجتماعية والسلطة الأبوية⁵، وعن العقبات التي تواجهها المرأة المسلمة للحصول على جزء من حقوقها، سيما تلك الصعوبات المتعلقة بجانب الأحوال الشخصية التي تحكم المرأة (الأهلية) في الجزائر⁶، وهي المشكلة التي طفت بقوة على السطح بعد طرح مشروع

¹ - Vonnick: «**La femme musulmane**», *Femmes de demain*, n°1, 14 Novembre 1935 / «**La Targuie**», n°2, 21 Novembre 1935/ «**La nomade**», n°3, 28 Novembre 1935/ «**La Naïilia**», n°4, 5 décembre 1935/ «**La Mozabite**», n°5, 12 Décembre 1935/ «**La Chaouia**», n°6, 19 Décembre 1935/ «**La Kabyle**», n°8, 4 Janvier 1936/ «**La femme du tel**», n°11, 15-29 Février 1936.

Voir aussi: Claudine Guiard: «**Être féministe...**», op.cit, p.141.

² - Voir Journal: *Femmes de demain*, n°1, 15-31 Mars 1936.

³ - Jane Bagault: «**Le suffrage féminin et le problème algérien**», *Femmes de demain*, n° spécial, 20 Avril 1936.

⁴ - Vonnick: «**la femme musulmane: ce que la France a fait pour elle**», *Femmes de demain*, n°16, 1-15 Mai 1936/ n°18, 1 Juin 1936/ n°19, 15 Juin 1936.

⁵ - «**Le droit de vote et la femme musulmane**», *Femmes de demain*, n°32, 15 Février 1937.

⁶ - «**Les femmes musulmanes et le projet violette**», *Femmes de demain*, n°33, 1 Mars 1937.

بلوم-فيوليت منح فئة من الجزائريين حق الاقتراع والمشاركة السياسية¹. ونقرأ دعوة من طرف الناشطة النسوية 'لوسيان جان داروي' إلى المسلمين الجزائريين؛ لاعتبار المرأة أيضا مخلوق آدمي وإعطائها المكانة التي تستحقها².

وبوصول الجبهة الشعبية إلى الحكم في فرنسا؛ صارت هذه الصحيفة أكثر جرأة في مهاجمة العنصرية، والتنديد بالنظرة النمطية تجاه المجتمع المحتل، وطلبت من الرجال والنساء في الجزائر التخلص من الأحكام المسبقة والتفاخر الذي يؤسس للفوارق في الدين والعرق، ولتدعيم التقارب بين النساء الفرنسيات والنساء الجزائريات (المسلمات). وهكذا صارت قضية المرأة المسلمة في الجزائر أكثر حضوراً في الصحافة النسوية الفرنسية، لكن بين من اتخذها مطية للتعبير عن هموم المرأة عموماً، ومنهن من كنّ يؤمن حقيقة بإمكانية تحقيق بعض تطّعات النساء 'الأهليات' والأخذ بأيديهن إلى الحرية.

لكن هذه المواقف لم تنفصل عن الخلفية الاستعمارية للنساء الفرنسيات، وعن قناعاتهن واتمائهن السياسي، فهنّ قبل كلّ شيء منّ مستوطنات بالجزائر، وجزء من المشروع الفرنسي في الجزائر، وكان لزاماً عليهن أن يراعين مصالحهنّ ومصالح أسرهنّ وأمتهنّ الفرنسية قبل غيرها، وهكذا فدفاع الناشطة النسوية الفرنسية عن حقوق المرأة مسلمة 'أهلية' أو أوروبية؛ كان يخضع لاعتبارات سياسية وثقافية ودينية معيّنة، وربما حتى اقتصادية، جعلت مواقفهنّ متذبذبة بين قناعاتهنّ بضرورة ارتقاء المرأة ومساواتها بالرجل، وبين المحافظة على الامتيازات التي كنّ يحظين بها في الجزائر المستعمرة.

¹ «Le statut personnel et la femme musulmane», Femmes de demain, n°34, 15 Mars 1937.

² - Lucienne Jean-Darrouy: «Musulmans, vos femmes aussi sont des êtres humains...», Femmes de demain, n°35, 1 Avril 1937.

في شهر أبريل عام 1937م أسّست النساء الفرنسيات؛ 'الاتحاد الفرانكو- إسلامي لنساء الجزائر' (U.F.M.F.A)¹ في تيلملي بالجزائر العاصمة، وقد ضمّ بداية 18 امرأة أوروبية ومثلهنّ من المسلمات، وأخذ طابع المنظمة اللائكية، كان هدفه تقديم المساعدات بكلّ أصنافها للنساء المسلمات وأطفالهنّ، والتقريب بين النساء الأوربيات ونظيراتهنّ الجزائريات المسلمات، ومنذ شهر جانفي 1939م صار مقرّه بحي 'سانت أوجين'، وعقب الحرب العالمية الثانية صارت له مدرسة بثلاثة أقسام، وعيادة طبية ومطعم وروضة للأطفال ودار حضانة، وصار للعديد من النساء الجزائريات دور بارز فيه، ومنهنّ السيّدة 'تامزالي' (Mme Tamzali) نائبة لرئيسة الاتحاد، كما توسّع نشاطه ليشمل عدّة مناطق من الجزائر².

وكان نشاط هذا الاتحاد النسائي المختلط في الأربعينيات ومطلع الخمسينيات من القرن العشرين؛ شبيه بنشاط الجمعيات النسوية التابعة للتيار الوطني الاستقلالي وللحزب الشيوعي الجزائري وللاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، فقد كان يتولّى إقامة الحفلات الخيرية، أين يتم توزيع الملابس واللّعب على الأطفال المسلمين، وتقديم المساعدات العينية

¹- Claudine Guiard: «Être féministe...», op.cit, p.142.

تم تأسيس 'الاتحاد الفرانكو- إسلامي لنساء الجزائر' (UFMFA) في شهر أبريل 1937م، من طرف 18 امرأة أوروبية ومثلهنّ من النساء الجزائريات (المسلمات). وأعلن عن مجلسه الإداري بتاريخ 14 ماي 1937م. يُنظر: ANOM, 2 I 44: SDA: Union franco-musulmane des femmes d'Algérie, 10 Juin 1937. يُنظر أيضا:

http://algerroi.fr/Alger/documents_algeriens/social/pages/21_union_frano_musumane.htm Consulté le 30/04/2020 à 13:10.

إنّ أغلب النساء الجزائريات اللواتي كنّ ضمن قيادة هذا التنظيم، لم تكن لهنّ توجهات سياسية معيّنة، وهنّ من الفئة البرجوازية العاصمة؛ من بنات أو زوجات أعيان الجزائر العاصمة، على غرار السيّدة 'تمزالي' التونسية الأصل؛ زوجة السيناتور الدكتور 'عبد النور تمزالي'، والآنسة 'حمود عيشة' (أخت نقيسة حمود) وهي ابنة المفتي المتوفّي 'حمود حمدان'، ومنهنّ من التحقت فيما بعد باتحاد النساء المسلمات الجزائريات. يُنظر:

ANOM, 91 4I 190: Préfecture d'Alger: De l'U.F.M.F.A, 16 Mai 1945.

²- ANOM, 81 F 1218: Documents Algériens GGA: l'U.F.M.F.A, n°21, 10 Juin 1948.

يُنظر الملحق رقم: 02.

للعائلات الجزائرية الفقيرة والمحرومة¹. كما أنه ركز على تقديم الخدمات الطبيّة والصحية، حيث جرت على سبيل المثال 5000 معاينة طبية عام 1939م وحدها، وكذلك تقديم الدروس بالفرنسية للأطفال، ودروس الخياطة للبنات والنساء المسلمات الجزائريات²، وفي بداية عام 1951م؛ طلبت السيّدة 'ريسي' (Reisser) مديرة مدرسة 'زوبغة' بمنطقة جرجرة السماح لها بإعطاء دروس للنساء تحت رعاية الاتحاد الفرانكو-إسلامي³.

تحت ذريعة عدم وعي النساء 'الأهليات' بالحالة التي هنّ عليها؛ وبالتالي لا يدركن حاجتهنّ إلى الانعتاق والتحرّر الاجتماعي راحت الكتابات الصحفية النسوية الفرنسية تنظرّ لصالح 'تحرير المرأة الأهلية' وضرورة مساعدتها للتخلّص من تبعيتها للرجل، ولتساير ركب الحضارة الفرنسية... كما أشعن أنّ النساء 'الأهليات' (أخواتهنّ المسلمات) هنّ من طلبن بأنفسهنّ المساعدة من أخواتهنّ الفرنسيات، بينما عبّرت أخريات عن حالة الإحباط واليأس أمام الرفض والممانعة التي أبدتها المرأة الجزائرية تجاه كلّ محاولة لإدماجها وتحضيرها، وهناك من النسويات الفرنسيات من وصل بها الأمر إلى حدّ توجيه الاتهام إلى النساء المسلمات بأنهنّ غير قابلات للتطور؛ نتيجة لانكماشهنّ ولانغلاقهنّ على أنفسهنّ.

2-3- مؤتمر النساء المتوسطيات بقسنطينة وقضايا المرأة 'الأهلية':

تمّت الدعوة إلى انعقاد 'مؤتمر النساء المتوسطيات' بقسنطينة من طرف 'السيّدة برونشفيك'، وقد جرت وقائعه أيام 29-30 و31 مارس 1932م، وكان تحت إشراف 'الاتحاد الفرنسي من أجل اقتراع النساء' (L'Union française pour la suffrage des femmes)، وقد ترأست المؤتمر السيّدة: 'مالاتير-سوليبي'

¹- R.M: «L'union franco-musulmane à distribué des vêtements aux petits enfants musulmans», Journal d'Alger, 23 Janvier 1948.

²- ANOM, 91 4I 190: Préfecture d'Alger: Note sur l'U.F.M.F.A, 10 Mars 1942.

³- ANOM, 91 4I 190: SLNA: Ecole de Zoubga-les Ouacifs, C.M du Djurdjura; Cours féminins, 17 Février 1951/28 Mars 1951.

(Malaterre-Sellier) نائبة رئيسة الاتحاد. واللافت أنّ هذا المؤتمر لم يثر اهتمام المثقفين ولا العوام بقسنطينة، حتى أنّ القاعة التي احتضن أشغاله كانت شبه شاغرة، وقد ناقشت المؤتمرات قضيتان¹:

1- الوضع القانوني والأخلاقي والاقتصادي للمرأة والطفل عند الشعوب الأوربية المتوسّطية.

2- الوضع (في ظلّ القانون العرفي) الأخلاقي والاقتصادي للمرأة والطفل في البلدان المسلمة المتوسّطية.

ولم يكن اختيار قسنطينة لاحتضان هذا المؤتمر اعتباطاً؛ لقد كانت قسنطينة أقلّ المدن أوربنةً من بين المدن الجزائرية الكبرى، وأكثرها محافظة وتمسّكاً بالعادات الإسلامية²، فضلاً على أنّها مهد الحركة الإصلاحية الإسلامية (الباديسية) في الجزائر، وكان هدف المؤتمر وقف حركة مناهضة النسوية الموجودة في حوض المتوسط، وهي القضية المشتركة بين النساء الأوربيات والنساء العربيات المسلمات، وقد سعت السيّدة 'برونشفيك' من خلال هذا الطرح إلى دفع النساء المستوطنات إلى العمل من أجل تحرير المرأة المسلمة في الجزائر، لكن يبدو أنّ آمالها كانت بعيدة المنال³.

هذا المؤتمر الذي من المفروض أن يكون دولياً، ويجمع بحقّ كلّ ممثلات النساء المتوسّطيات؛ لكن لم يحضر سوى وفدي إيطاليا وسويسرا، وغابت وفود عدّة دول على غرار تركيا (التي كانت تشهد نهضة نسائية كبيرة) ومصر (في عزّ نشاط هدى شعراوي)

¹ - Mathéa Gaudry: «Le congrès international des femmes méditerranéennes», Revue Algérienne, Tunisienne et marocaine de législation et de jurisprudence, T.XLVIII, 1932, Juris-Classeurs (éditions pour l'Afrique du nord), Paris, 1932, p.160.

² - فضلاً على أنّها مدينة ومسقط رأس الشيخ عبد الحميد بن باديس، ومهد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تأسّست بالجزائر العاصمة لكن وهجها كان أكثر بقسنطينة، وكانت قسنطينة أيضاً في تلك الفترة بالذات تشهد نهضة إصلاحية اجتماعية غير مسبوقه، وانبعثاً للمدارس التعليمية لصالح الجنسين عبر نشاط جمعية التربية والتعليم.

³ - Claudine Guiard, Op.cit, p.135.

Voir aussi: Mathéa Gaudry, Op.cit.

وفلسطين وسوريا (بلاد الشام مهد الحركة النسوية العربية)، وهكذا تحوّل إلى مؤتمر نسوي فرنكو-مغاربي (Franco-maghrébin) بحضور وفود المغرب وتونس والجزائر، وتمّ توجيه المؤتمر وفق النظرة الفرنسية، حيث تجاهلت المناضلات الحديث عن معاناة المرأة 'الأهلية' في ظلّ السياسة الاستعمارية، وركّزن على مواضيع نقص النظافة وانتشار البغاء، باستثناء مداخلات قليلة تخصّ الوضعية الكارثية للمرأة المطلّقة، ومطالبة بعض المشاركات بتعليم محدود للبنات المسلمات دون اشتراط جعله إجبارياً¹.

وتنتقد أستاذة القانون 'ماتيا غودري' هذا المؤتمر؛ من حيث محتوى وسوء إدارة جلساته وقيمة وأهمية المداخلات المقدّمة، ومن جانب التوصيات التي خرج بها، التي كانت مجرد آمال تفتقد إلى الجانب التطبيقي، ولا تُعرف الجهة التي سترسل لها. على سبيل المثال فإنّ تشخيص أسباب انتشار الدعارة في البلدان المستعمرة إلى الفقر والبؤس فقط؛ يحتاج إلى إعادة نظر؛ لأنّ لكلّ بلاد خصوصياتها، ولا يمكن طرح هذه المسألة بمنظور دولي²

وفي جريدة 'النجاح' القسنطينية إشارة مقتضبة إلى مؤتمر النساء المتوسطيات: "انعقد المؤتمر النسائي بقسنطينة وشاركت فيه جميع الممثلات لنساء دول البحر المتوسط، وتناول المجلس أبحاث كثيرة تتعلق بحقوق المرأة..."³، كما نقلت ما كتبه السيدة 'سوليبي' وهي رئيسة المؤتمر كما ذكرنا؛ حول تعليم المرأة المسلمة في جريدة 'الفجر'، وذكرت أنّ 'الشبان المسلمين' طلبوا منها أن يشتغل المؤتمر بمسألة تعليم المرأة المسلمة، وألحوا عليها لترفع المسألة إلى أولي الأمر من الفرنسيين فينمّوا معارف المرأة المسلمة، "وقد قيل لنا أنّ

¹ - Voir: Claudine Guiard, Op.cit, p.p.135-136.

² - Mathéa Gaudry, Op.cit, p.163.

³ - "المؤتمر النسائي"، النجاح، ع.1288، الجمعة 1 أفريل 1932، ص.2.

الشبان المسلمين يتعاطون التعليم بالكليات الفرنسية، ويتخلقون بأخلاق الفرنسيين، وينهضون نهضتهم، ولكنهم يتألمون عندما يجدون أنّ امرأتهم جاهلة الجهل المطلق"¹.

وقدّمت السيّدة: 'ماري بوجيجا' تقريراً عن: 'تأثير التعليم على الفتيات الأهليات'، كما تليت رسالة للمؤتمر قدّمت من طرف زوجة قائد منطقة 'سيق'، السيّدة 'صغير حسن' (Saghir Hacén)، والتي اعتبرت أنّ الفرنسيين يجهلون تقريباً كل شيءٍ يتعلّق بحياة أخواتها المسلمات²، فضلاً عن سوء فهمهم لجذور قضية عدم المساواة للمرأة في المغرب الكبير، إذ يعتقدون أنّ المشكلة دينية إلى حدّ كبير، وأصرّت على أنّ عدم المساواة هو نتيجة لممارسات ثقافية وغياب الفرص التعليمية أمام البنات الجزائريات، وكتبت: "سيداتي، ماذا تعتقدن أنكنّ ستصبحن لو كان والداتكن وآباؤكن جاهلين؛ دون أي تعليم رسمي، تعلمون أنّ معاناتها الفظيعة هو نتاج عاداتها التي لا تُستمدّ إطلاقاً من الدّين، في الواقع القرآن الذي هو الكتاب المقدّس للمسلم لا يُعارض تعليم المرأة؛ بل بالعكس فهو يجبّد قانونا واحدا لكلا الجنسين، حيث تعدّد الزوجات مسموح؛ موجود لأنّ الضمانات القرآنية الأخرى لم تعد تُحترم، ونتيجة لذلك؛ فإنّ رجالنا لا يتبعون ولا يرغبون في الالتزام بالأوامر الشرعية الخاصة بالتعدّد، ويتزوّجون عدّة نساء دون الاهتمام بالتبعات المرهقة والعواقب الناجمة عن إنشاء عائلة كبيرة"³.

ورافعت من أجل سنّ قوانين التعليم الإلزامي للفتيات المسلمات فقالت بأنّ: "التعليم الإلزامي سيحدث ثورة في الأسرة المسلمة، ولهذا الغرض دعت النساء الفرنسيات إلى مساعدة النساء المسلمات للحصول على الرضا من الجمهورية الفرنسية التي نحبّها بكلّ

¹ - "تعليم المرأة المسلمة: مقال لمدام جرمان..."، النجاح، ع.1297، الأربعاء 27 أفريل 1932، ص.2.

² - Mathéa Gaudry, Op.cit, p.p.165-166.

³ - Sara kimble, Op.cit, p.p.122-123.

قلوبنا، وطالبت بالتعاطف مع الأميين، وانتقدت فهم النساء الفرنسيات المستشرقات للعديد من المشاكل في الجزائر وربطها بالإشارة إلى الإسلام¹.

إنّ الارتباط الوثيق بين الخطاب النسوي الفرنسي تجاه المرأة الأهلية وخلفيته الفكرية الاستعمارية، والارتباط العضوي أيضاً بين الناشطات النسويات الأوربيات بالمجتمع الكولونيالي جعل خطابهنّ عقيماً، ولم يخرج من دائرة ضرورة تبني 'الأهالي' اللغة الفرنسية والتعليم الفرنسي والممارسات الغربية، مع ضرورة تفكيك المنظومة المجتمعية الإسلامية، وفي مقدمتها المحاكم الإسلامية؛ لأنّ القضاء والفقهاء الإسلاميين هو الذي سمح بعدم المساواة بين الجنسين، وأعطى معاملة تفاضلية للرجل في قوانين الأسرة والميراث والتقاضي، وعندما واجهت هؤلاء الناشطات النسويات أسئلة تتعلق بإساءة معاملة الأزواج للزوجات والبطالة التي تعاني منها المرأة والمواطنة غير المتكافئة، كان حلهنّ هو 'التحديث'؛ أي تطبيق المثل الجمهورية والقانون الفرنسي، والاعتراف بالسيادة الفردية².

وترى 'ماتيا غودري' أنّ هذا المؤتمر الدولي للنساء المتوسطيات؛ قد مُني بالفشل الذريع؛ نتيجة سوء التنظيم والحماقات التي قيلت خلاله، فضلاً عن انعدام الكفاءة لدى المشرفات عليه³، فهو لم يقدم شيئاً للمرأة المتوسطية، ولم يطرح القضايا الجوهرية للمرأة 'الأهلية' في البلدان المستعمرة.

2-4- تحرير المرأة 'الأهلية' عند النساء الجزائريات المتفرنسات:

لم يكن الخطاب النسوي لتحرير المرأة 'الأهلية' مقتصرًا على النساء الفرنسيات (المستوطنات)، بل رافقتهنّ في ذلك بعض الأسماء النسوية الجزائرية خريجة المدرسة الفرنسية، واللواتي يمكن اعتبارهنّ نخبة نسائية جزائرية متفرنسة، لكنها لم تتخلّ عن قضايا

¹ - Ibid.

² - Sara Kimble, p.115.

³ - Mathéa Gaudry, Op.cit, p.168.

مجتمعها الأصلي، شأنها في ذلك شأن الكثير من رجال النخبة المتفرنسة في الجزائر. لقد اقتحمت النساء الجزائريات المثققات ثقافة فرنسية ميدان الكتابة الصحفية، فطرحن قضايا المرأة في الجزائر، ونددن بالعقبات الاجتماعية وبالسياسة الاستعمارية التي حالت دون ارتقاء المرأة الجزائرية، ونيل حقوقها كاملة مثل نظيراتها في الغرب والشرق.

من بين الأسماء النسوية الجزائرية ذات الثقافة الفرنسية التي برزت بشكل لافت عقب الحرب العالمية الثانية نجد الآنسة 'جميلة دباش' (Djamila Debèche)¹، التي أصبحت من الأعلام الصحفية النسوية البارزة عقب الحرب العالمية الثانية، كما نشطت بعض الحصص الإذاعية لصالح المرأة 'الأهلية' عبر أمواج الإذاعة الفرنسية بالجزائر.

بحسب 'جميلة دباش' فإن تصاعد النشاط النسوي في الجزائر بعد صدور دستور 1947م؛ لم يرافقه منح الفرصة للنساء للمشاركة في النقاش ومعرفة رأيهن، رغم أنهن معنيات بالمشاكل الاجتماعية التي تخصهن، وذكرت بأنه إذا كان يوجد في فرنسا 13 مليون امرأة لها حق الانتخاب؛ فإن هناك حوالي أربعة ملايين امرأة في الجزائر، ما يمثل

¹ - جميلة دباش (1915-2010): هي ابنة بيئة جزائرية مُحافضة، كان مسقط رأسها بلدية عين ولان (Colbert) المختلطة زمن الاحتلال الفرنسي، وهي منطقة تقع جنوبي سطيف ضمن إقليم منطقة ربة. عقب وفاة والديها وهي صغيرة جداً؛ تولت حضانتها وتربيتها جدتها وخالها. قضت سنوات طفولتها الأولى بدوار أولاد سي أحمد، وفي سن السابعة امتطت الباخرة رفقة خالها إلى منطقة مونت-كارلو (Monte-Carlo)، حيث كان خالها يدير تجارة مزدهرة في الأقمشة والنسيج، وهناك تفتحت على الحداثة الغربية، ونجحت في مسارها الدراسي وانخرطت في النشاط الرياضي، وفي عماها السادس عشر اختارت دراسة الصحافة ومارست رياضة سباق الدراجات، وأصبحت كاتبة صحفية رياضية، وصارت لها اهتمامات بالسياسة منذ عام 1936م، وبعد عودتها إلى الجزائر استقرت بالعاصمة، وكانت مقرّبة من فيدرالية النواب الفرنكو-مسلمين، ثم اقتنعت بأطروحات فرحات عباس، وتمّ توظيفها في إذاعة الجزائر بتوصية من الصحفي 'عمر قندوز'، وصارت تقدّم حصة أسبوعية بعنوان 'وقائع اجتماعية' بين عامي 1941 و 1944م، كما كان لها اهتمام بالكتابة الأدبية النسوية، وحصلت على جائزة الأكاديمية الفرنسية عن روايتها 'عزيرة'، وفي عام 1947م أطلقت مجلّتها 'العمل=L'Action'، التي صدر منها سبعة أعداد بين سنتي 1947-1948م. للمزيد يُنظر:

Mohamed-karim Assouan: **Djamila Debèche: première journaliste féministe d'Algérie.** Voir le lien: <https://mondesfrancophones.com/espaces/maghrebs/djamila-debeche-1915-2010-premiere-journaliste-feministe-dalgerie/> Consulter le: 10/10/2021

نصف الشعب المسلم؛ مَهْمَشَات من الحياة العامة، غالبيةن أمّيات والتكفّل بهنّ ضرورة مستعجلة مثله مثل تعليم أسس النظافة وشروط التكيّف مع الحياة العصرية، وهي أكثر أهمية من الحصول على الحقوق السياسية (...). رغم الارتباط الأخلاقي والروحي بين قضيتي تعليم اللغة العربية للنساء المسلمات ونيل حقوقهنّ السياسية، وقد ارتكزت على تاريخ النساء المسلمات في المشرق الإسلامي وعلى أسماء لامعة لنساء جزائريات عبر التاريخ الحديث منهنّ 'لالة عيشوش' و'لالة شويكرة' و'علجية بنت بوعزيز'¹.

أقرّت 'جميلة دباش' بأنّ الجزائريون المسلمون ما يزالون يعارضون مشاركة المرأة في الحياة العامة، ويجب التنديد بهذا الاعتقاد الرجعي، لكن برأيها في الأعوام الأخيرة لم يعد اليوم الجزائري المسلم صاحب الحسّ السليم يضع نصب عينيه عبارة كمال أتاتورك: 'الفصل بين الجنسين أفقدنا 50% من قيمتنا'، ومسألة تحرير المرأة المسلمة تمرّ عبر تغيير العادات أوّلاً، وفتح المدارس لتعليم البنات المسلمات، وهو المطلب الذي صار يرفعه الجزائريون بحدّة، والمساواة بين الجاليتين الأوربية والمسلمة مع تحسين ظروف الحياة للمرأة المسلمة، وإعطائها الثقة اللازمة من طرف الحكومة الفرنسية لتلج ميادين الحياة العامة، فلا يمكن للمرأة تولّي مهام سياسية وهي عاجزة عن أداء دورها الاجتماعي؛ فضلاً على أنّها غير متعلّمة².

وكانت الآنسة 'جميلة دباش' تشرف على إدارة مجلّة 'العمل' (L'Action) منذ سبتمبر 1947م، التي أرادتها جريدة مستقلة اجتماعية نسوية أدبية وفنية؛ للتعبير عن رغبة النساء (المسلمات) الجزائريات في المساهمة في التنظيم الاجتماعي الذي صار حاجة ملحة،

¹ - Djamilia Debèche: «l'enseignement de la langue arabe en Algérie et le droit de vote aux femmes algériennes», conférence fait à Alger le 8 juin 1951, p.21 et delà.

² - Ibid., p.25 et delà.

وجعلت من أولوياتها النظر إلى مصير 'أخواتها المسلمات' المقصيات، والاهتمام بمستقبل الطفولة وكل ما يهم الأسرة الجزائرية¹.

نقرأ للآنسة 'حليمة بن عابد' (Melle Halima Benabed) مقالاً تحت عنوان: 'تطور المرأة المسلمة في الجزائر'، وقد اعتبرت أنه لا مجال للمقارنة بين المرأة الجزائرية ونظيرتها الأوروبية؛ لأنّ الغالبية الساحقة من النساء الجزائريات المسلمات مازلن يعشن فيما قبل القرن العشرين الميلادي، وأنّ القلة القليلة من اللواتي يحملن لقب 'امرأة مثقفة'، و حصلن على قدر قليل أو كبير من التعليم، سمح لهنّ بتبوء بعض المناصب الإدارية والسياسية والوظيفية؛ لا يعكسن حالة الجهل والتخلف الذي يسيطر على المرأة الجزائرية عموماً، مع أنّها أقرت أنّ المجتمع الجزائري بدأ يدرك أهمية تعليم الفتيات مثلهنّ مثل الذكور، وخطورة بقاء المرأة جاهلة بالنظر إلى الأهمية التي ضمنها التركيبة الاجتماعية.

وطرحت مشكلة الشاب الذي يجد نفسه أمام ثلاث خيارات أحلاها مرّ، بين أن يأخذ بنت الجاهلة، أو يسعى للزواج المختلط أو يبقى على حالة العزوبية، وبيّنت أن الفتاة الجزائرية لا تجد مكاناً لها في المدارس الفرنسية، وتبقى المدرسة العربية الحرّة تمثل الانطلاقة المثالية لهذا الجيل لتعلّم لغة الأجداد، وربطت بين تعليم المرأة ومسألة الحجاب، حيث مازالت فئات واسعة من النساء يرتدينه؛ بعضهنّ مرغبات بسبب الإملاءات التي تفرضها التقاليد والأعراف المجتمعية باسم الدين، رغم أنّهنّ يتطلّعن للتحرّر².

¹- Djamilia Debèche: «L'Action est née», L'Action = العمل, n°1, 25 Septembre 1947. هذه الجريدة السنوية الشهرية الأولى من نوعها؛ لم نعتز إلاّ على بعض الأعداد منها التي صدرت بين عامي 1947 و 1948م، وقد تناولت في مقالاتها قضايا تخص المرأة الجزائرية والعربية والمسلمة، فمنها قضيتي الحجاب وتعليم البنات، كما طرحت مواضيع ذات صلة بالثقافة والأدب، وكانت منبراً لأقلام جزائرية وفرنسية.

²- Halima Benabed: «L'évolution de la femme musulmane en Algérie», L'Action = العمل, n°1, 25 Septembre 1947.

ونقرأ عن 'النسوية في الإسلام المعاصر'، وجاء تعليقاً على كتاب صدر حول الموضوع في المغرب، وبحسب صاحبه فإن المرأة المغربية والجزائرية بعيدة عن الوصول إلى ما وصلت إليه أخواتها في القاهرة ودمشق و تونس، وجزم أن الرجل المسلم العصري ليس مُعادياً لتعليم النساء، وفي الحقيقة فإنّ المسألة النسوية في الإسلام تدور حول المدرسة، ولهذا فالمنتظر هو تسريع عمليات تـمدرس البنات في الجزائر، والمدرسة اللائكية وحدها بإمكانها تحضير الشابات لتلقّي التقنيات الضرورية للحياة العصرية، وعند تمكين المرأة مثل الرجل من تعليم واحد، حينها فقط يمكن التغلّب على العادات والتقاليد البالية، ومنها 'جبر' البنات على الزواج¹.

ونجد نداء من 'جمعية النساء المسلمات لتلمسان' إلى الأخوات المسلمات المتعلّمات للأخذ بيد أخواتهنّ في الدين اللواتي بقين من دون تعليم، من أجل توجيههنّ في الطريق الذي رسمته الشريعة الإسلامية، وقيادتهنّ نحو الرقيّ والمدنية الحقّة، وإبعادهنّ عن الجاهلية العمياء، وبحسب الكاتبة؛ كون المرأة متحضّرة ليس معناه أن ترتدي الديباج أو اعتمار القبعة، وليس الأكل أو الشرب بطريقة معيّنة، كونها متحضّرة يعني بحثها عن العلم وتلقّي الأدب والحصول على التربية، واحترام القواعد الأخلاقية، واقترحت الجمعية حركة إصلاح شامل، وبيّنت أنّها ملتزمة بتنوير المرأة المسلمة لمعرفة مبادئ الدين الإسلامي، ووثيقة بنجاحها في مهمّتها؛ لأنّه لم يعد ممكناً تحديّ تأثير المدرسة الغربية على نساءنا².

كما كتبت الجريدة عن تأخّر المرأة الجزائرية في التحرّر أو تحرير نفسها مقارنة مع نظيراتها في تركيا ومصر وفي تونس حديثاً، "ففي الجزائر العاصمة كما في كلّ المدن الجزائرية؛ قنوات التواصل بين النساء الأوروبيات والمسلمات ضيّقة للغاية، فالفتيات

¹ - J. Roussier: «Le féminisme dans l'islam moderne», L'Action=العمل, n°5, Février 1948.

² - K.R: «Appel de l'association des femmes musulmanes de Tlemcen», L'Action=العمل, n°5, Février 1948.

الجزائريات مازلن يمين حياة نصف مغلقة وفق نمط الحياة الإسلامية القديمة، فالأب يقول لابنته التي ترغب في اجتياز امتحان البكالوريا: 'أطلي مي كل ما تريدن، أقمشة ثمينة، عطور، لكن مقابل التخلي عن مواصلة دراستك'، وإقناعها يضرب لها مثال بأمها: 'عندما تزوجت أمك لم تكن تعرف التحدث بالفرنسية، هذا لم يمنعها لتكون زوجة صالحة وأم جيدة لأسرتها، افعلي مثلها وسوف أجد لك الزوج الطيب الذي يجعلك سعيدة'، ومع أن هذا الرجل يحتل مكانة مرموقة في المجتمع، من الذين سمحوا لبناتهن بمواصلة تعليمهن إلى المرحلة الثانوية والحصول على بعض الثقافة الأوربية، لكن عند سن الرابعة عشر أو الخامسة عشر يتوقفن عن الدراسة لارتداء الحجاب، وتكون مناسبة لاحتفال عائلي صغير (...). وفي نهاية السنة تحضر العائلة بالأزياء الأوربية العصرية للاحتفال بتخرج ونجاح ابنتها الذكر الذي سيصير يوماً ما طبيباً أو محامياً¹.

لقد كانت مسألة تطوّر المرأة أو الرقي النسوي في بلاد المشرق والمغرب العربي في صلب اهتمامات هذه الجريدة الناطقة بالفرنسية، فكتبت عن ارتقاء الفتاة التونسية، وحملت الأمهات والأولياء مسؤولية توجيهها إلى طريق التطوّر الذي لا يتعارض مع الأخلاق، "إذ يجب أن تفهم الفتيات أن الحياة العصرية، والتحفّظ في لباسهنّ هو الوسيلة المثلى ليثبتن لمحيطهنّ أن التحرير المأمول لن يكون ضاراً، وبأنّ هذا الموقف سوف يجلب لهنّ الاحترام (...). يجب أن لا يتجاهلن أن الشّابة التي يُقال عنها متحرّرة يجب أن تكون أكثر تخلّقاً وأكثر فضيلة من الفتاة 'التقليدية'، والحرية لا تعني التخلي عن الواجبات التي تنطوي عليها، وإنّما الإمكانيات الأكبر للحصول على ثقافة فكرية واسعة، تسمح لهنّ بالوصول إلى حياة أكثر مثالية، وتكن الفتاة بالنسبة للزوج رفيقة وقرينة وشريكة"².

¹- Michel Raineau: «Choses d'Algérie», L'Action=العمل, n°6, Mars 1948.

²- «L'évolution féminine», L'Action=العمل, n°5, Février 1948.

وأعلنت الجريدة عن ميلاد أول نادي نسائي إسلامي جزائري بوهران، من طرف الآنسة 'نادية بن بية' (Nadia Benbia) ورفيقاتها من الشابات الشجاعات اللواتي جعلن مسألة تحرير المرأة المسلمة تأخذ مدلولها الحقيقي، هذا النادي الذي يهدف إلى مساعدة الأطفال المحتاجين للمدارس، ويهتم بالتوجيه المهني للشابات المسلمات، وتحضير الفتيات للعب دورهنّ كزوجات وأمّهات¹.

وبحسب 'جميلة دباش' فإنّ الوسط النسوي الجزائري المسلم؛ استقبل بغبطة عودة السلطان المغربي 'محمد بن يوسف' من منفاه، هذا الأخير الذي يدعم تطوّر ورقّي المرأة، وابنته 'لالة عيشة' لقيت الدعم من طرفه حيث حشد لها الشبيبة النسوية المغربية، والأكد أن المرأة المغربية سوف تستفيد قريباً جداً من كلّ مزايا الإصلاحات، وتأسّفت للوضع الدونية التي مازالت تعيشها المرأة الجزائرية تحت وطأة التقليديين والمحافظين، الذين أعاقوا تطوّر شعب كامل باسم أحكام فاسدة، وتفسيرات خاطئة للنصوص القرآنية².

وتتساءل من المسؤولين عن الوضع الذي آلت إليه المرأة اليوم في الجزائر؟ لتجيب دون تردّد: إنّهم التقليديون بمفاهيمهم الخاطئة (...) وهل الحكومة الفرنسية بدورها تتحمّل مسؤولية تطوير المرأة المسلمة في الجزائر؟ بالطبع نعم (...) والأكثر خطورة هو ردّ موظّف سامي عام 1945م عندما طلبت منه شابة مسلمة المساعدة للحصول على وظيفة حرّة، فكان جوابه لها: "أنّه من المستحيل مساعدتها؛ لأنّ بنو جلدتها ضد ارتقاء المرأة، ولا أريد أن أقع في مشكلة مع المنتخبين المسلمين". وتضيف: "يجب أن نشجع بقوة التطوّر السريع للفتاة المسلمة، يجب السماح لها بالوصول إلى وظائف مناسبة ومرجحة؛ مما يسمح لها بتحقيق مستوى معيشي لائق لها ولأسرتها، ولتكون أفضل دعامة للحياة الاقتصادية

¹ -Meriem: «Le premier club féminin musulman d'Algérie né à Oran», L'Action=العمل, n°6, Mars 1948.

² - Ibid.

والاجتماعية للبلاد، ومساعدة في كلّ الميادين لزوجها المستقبلي، من بين 10 ملايين مسلم جزائري، هناك 5 ملايين امرأة باستطاعتنّ تغيير مصير البلد"¹.

نقرأ ردًا من طرف السيدة 'فيكري' على مقال نُشر في جريدة (l'écho d'Alger) ، تتساءل فيه صاحبتة: لماذا يُنظر إلى مطالبتنا بالحقّ في الانتخاب على أنّها سُّتثير ضجة خطيرة في أوساط العائلات المسلمة؟ وتعود إلى التاريخ الإسلامي لتذكّر بالدور الذي لعبته الصحايبات منذ البعثة، والمكانة التي حرص الإسلام على إعطائها لهنّ، وعبّرت عن آمال المرأة الجزائرية في الرقيّ ضمن أطر الأخلاق الإسلامية التي جاء بها القرآن، واعتبرت أنّ ما قام به كمال أتاتورك من تحرير للمرأة ليس سبقاً على ما أقرّه الإسلام؛ لأنّ تركيا كانت مسلمة قبله، واعتبرت أنّ الديمقراطية الفرنسية تصنع الجهلة من الجنسين حتى داخل فرنسا نفسها، وأنّ هيئة انتخابية مختلطة ثم موحّدة هي السبيل إلى الاتحاد الجزائري الفرنسي².

لقد مثلت هذه الجريدة الثقافية النسوية صوت المرأة الجزائرية المتفرنسة، وأخذت على عاتقها الدفاع عن حقوق المرأة المسلمة في الجزائر، وأكّدت في إحدى افتتاحياتها "أنّ المشاكل التي تواجهها المرأة الجزائرية توجب تدخّل المجتمع لإصلاحها، وضرورة النضال ضدّ الذهنية الرجعية، وهي الذهنية ذاتها التي وقفت بعناد ضدّ تطوّر الشاب المسلم، وتدور اليوم في الدوامة نفسها حيث تعمل على زعزعة المشكلة، وتتجاهل أنّ التطوّر يأخذ مساره...". وبشّرت بقرب التأمّج للنساء الجزائريات، الذي من بين مهامه الدفاع عن الحقوق النسوية والحقّ في الانتخاب³.

¹ - Djamilia Debèche: «La femme musulmane d'Algérie réclame le droit d'évoluer», France-outré mer, 3-4 janvier 1956.

² - Mme FIKRI Abdelkader: «Une musulmane répond à 'l'écho d'Alger'», Alger républicain, (S.D).

³ - Djamilia Debèche: «Le billet», L'Action=العمل, n°7, Avril 1948.

ويجب أن نشير إلى اسم نسائي جزائري لامرأة جزائرية متفرنسة، هي 'نفيسة سيد قارة'، التي وصلت إلى منصب وزيرة مكلفة بالشؤون الاجتماعية في الحكومة الفرنسية عام 1958م في عهد الجنرال 'شارل ديغول'، وكان لها مرافعات عديدة من أجل الرقيّ بالمرأة 'الأهلية' في الجزائر، ومنحها حقوقها السياسية والاجتماعية، سيما وأن ذلك تزامن مع خطاب فرنسي رسمي مختلف حول مسائل وقضايا المرأة الجزائرية، حيث أدرجت هذه القضايا ضمن إستراتيجية جديدة للدولة الفرنسية لاستقطاب المرأة؛ لصرافها عن الالتحاق بصفوف جبهة التحرير الوطني وخدمة الثورة الجزائرية، هذا المشروع الذي سيعرف نهايته باستقلال الجزائر في صائفة عام 1962.

3- مآلات الخطاب الكولونيالي في قضية 'تحرير المرأة الأهلية':

بعد أن تناولنا الخطاب القانوني الفرنسي تجاه المرأة 'الأهلية' في الجزائر، وتبعنا مسار الحركة النسوية الفرنسية والصحافة الاستعمارية في الجزائر، وموقفها بخصوص قضية تحرير المرأة 'الأهلية'، وجانباً من مواقف النساء الجزائريات المتفرنسات. نبحت ما حققه الخطاب الكولونيالي للمرأة الجزائرية من إصلاحات فعلية، في بعض الجوانب المتعلقة بمسائل الأحوال الشخصية، وكذا من ناحية الحقوق السياسية، كالحق في المشاركة السياسية والانتخاب والترشح، وحق المواطنة والمساواة مع نظيرتها الفرنسية، وهل نجح فعلاً في إخراجها من حالة الغبن والتخلف التي قبعت فيها لعقود من الزمن؟

3-1- التشريعات الخاصة بالمرأة 'الأهلية': بين التنظير والواقع:

بالنظر إلى أن القوانين التعسفية الفرنسية كانت تطبق على عموم الجزائريين دون تحديد للجنس (النوع)؛ لم تسلم المرأة الجزائرية من تأثير هذه القوانين على وضعها

الاجتماعي والاقتصادي والثقافي وحتى السياسي، كما أنّ عدد كبير النساء الجزائريات (المسلمات) قد خضعن للتشريعات التعسّفية أو طالتهن المحاكمات الجنائية¹.

من خلال الكتابات التاريخية والوثائق الأرشيفية التي تخصّ العنصر النسوي في الجزائر المستعمرة، يمكن أن نكتشف مدى تأثير القوانين التعسّفية الاستعمارية على المرأة في الجزائر، وقد سمحت لنا دراسة هذا الجانب بالجزم أنّ هذه التشريعات الاستعمارية كانت أشدّ وطأة على النساء، لاعتبارات عديدة منها بقاء المرأة في مرتبة دنيا من الرجل، وسيطرة العادات والتقاليد والعرف عليها، فضلا على أنّ الفرنسيين لم يكونوا يميّزون في سياستهم القمعية تجاه 'الأهالي' بين ذكر وأنثى، فالجميع بالنسبة لهم يقعون تحت وصمة 'أهلي مسلم' (Indigène musulman) بغض النظر عن سنّه أو جنسه أو عرقه.

إنّ أطروحة عدم قابلية المرأة 'الأهلية' للتطور الذاتي خارج إطار التأثير الحضاري الفرنسي سيطرت على الخطاب الفرنسي في النصف الأول من القرن العشرين، فالناشطات النسويات الفرنسيات كنّ ينظرن لارتقاء المرأة الأهلية بفضل المدرسة الفرنسية دون سواها، والمشرّع الفرنسي هندس تشريعاته في مسائل المرأة في الجزائر وفق فلسفته القانونية الفرنسية، وتفوق العنصر الفرنسي؛ نجد 'مارسيل موران' -على سبيل المثال- يدّعي أنّ مشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الأولى كمجنّدين، وانتقالهم للعمل بفرنسا؛ مكّنهم من الاحتكاك بالفرنسيين واكتساب مفهوم جديد يتعلّق بدور المرأة في الأسرة، والمشاعر التي يجب على الزوج أن يبديها تجاه زوجته، وهو ما كان من شأنه تسريع التطور في تخلص المرأة من حالة العبودية التي كانت تعيش في ظلّها، فبدؤوا (المسلمين الجزائريين) يسمحون شيئا فشيئا للمرأة بنيل حقّها في الميراث والتصرّف في أموالها اعتبارا من عام 1922م².

¹ - Fatima Zohra Saï, Op.cit, p.51.

² Marcel Morand: **Le statut de la femme kabyle**, Op.cit, p.p.48.

وكانّ المسلم الجزائري هو ذلك الشخص الذي لا يملك أي ماضي حضاري ولا تاريخ ورصيد فكري وتراث ثقافي يسمح له بتحقيق العدالة تجاه المرأة، إنّ فكرة تحرير المرأة بواسطة الحضارة الغربية كانت الفكرة المسيطرة على تفكير ووجدان هؤلاء.

هذا لا ينفي وجود فئة من الساسة الفرنسيين كان يؤمن بإمكانية التوفيق بين القوانين المحلية والتشريعات الفرنسية، وضرورة التوصل إلى نصوص قانونية لصالح المرأة 'الأهلية' لا تصطدم مع الواقع، وقد طرح السيد 'عمّور طاهر' المستشار العام لبلدية 'فور ناصيونال' (الأربعاء ناث إيراثن) أمام المجلس العام للجزائر العاصمة؛ مسألة تحسين وضع المرأة القبائلية. وفي 6 فيفري سنة 1925؛ صدر مرسوم عن الحاكم العام 'ستيق' (Steeg) بتشكيل لجنة مكلفة بالبحث في التدابير التشريعية والأحكام القضائية والإدارية، التي يمكن اتخاذها لتطوير وضع المرأة القبائلية، هذه اللجنة التي كان يرأسها 'مارسيل موران' أكملت عملها في 26 جانفي 1926م، وهي الأعمال التي أولها الحاكم العام 'موريس فيوليت' اهتماماً شديداً¹.

لكن القارئ للتقرير النهائي لهذه اللجنة يجده يحمل آمنيات أكثر منها توصيات أو قرارات، فقد اعتبرت اللجنة أنّ مبادئ التعليم التطبيقية والمناسبة سوف تُعطي للفتيات القبائليات دافعاً لتطوير شخصيتهنّ، ورفع مستوهنّ الأخلاقي والاجتماعي لمصلحة أسرهنّ ومحيطهنّ؛ لهذا تتمنى أن يتمّ سريعاً استحداث مدارس أو أقسام للبنات ضمن مدارس الذكور في منطقة القبائل؛ بهدف إعطاء البنت مبادئ القراءة، الكتابة، الحساب، ثقافة النظافة للأطفال، الرعاية الأسرية.. وغيرها، مما يسمح لهنّ بأن يكنّ سيدات بيت قادرات على الفهم السليم والتدبير الفعّال لتحقيق حاجات أزواجهنّ و أولادهنّ².

¹- Ibid., p.49 et au-delà.

²- Ibid., p.69.

ومن الاقتراحات التي قدّمتها هذه اللجنة ضمن مشروع القانون المتعلق بإجراءات إتمام عقود الزواج، والمسائل المتعلقة بالميراث في منطقة القبائل¹:

1- لا يتمّ توثيق أي عقد زواج دون قيام المخطوبين بالتبليغ عن نيتهما في الزواج وفق المادة 17 من قانون 23 مارس 1882م، في أجل 15 يوماً من طرف المتزوجين أو من يمثلهما، إذ يجب على الموظف المكلف بالتأكد من هوية المرأة المخطوبة، وبأنّها قد بلغت 15 سنة، وإذا انتابه شكّ بخصوص هوية المخطوبة أو سنّها، فإنّ عقد الزواج لا يتمّ.

لقد وجد هذا المقترح اعتراضاً خاصة من طرف أعضاء اللجنة الجزائريين، حيث اعتبروا أنّه من الصعوبة بما كان حضور المرأة المخطوبة للتحقيق معها، وحين يتمّ إيلاء مهمّة إجراء تحقيق وسط العائلة للتأكد من سنّ الزوجة، فالموظف المكلف يكون عادة هو القايد، والمجتمع القبائلي لا يتقبّل هذا الأمر بسهولة، و القايد لا يجب أن يتدخل بأي حال من الأحوال في الحياة الشخصية للمتزوجين، واقترحوا الاستعاضة على هذا الإجراء بطلب وثائق الحالة المدنية (عقد الميلاد) الخاص بالفتاة.

2- يمكن للمرأة طلب الطلاق في حالة سوء معاملة الزوج لها، كترك منزل الزوجية لمدة تزيد عن ثلاث سنوات، أو غيابه لأكثر من سنتين، كما يمنع الزوج في حالة الطلاق من طلب فدية من الزوجة أو والديها تفوق مبلغ الصداق الذي دفعه لها².

¹ Ibid., p.60 et au-delà.

² من عادات وأعراف المجتمع القبائلي ردّ المهر في حالة الطلاق، بغض النظر عما إذا كان الزوج هو من طلق زوجته أو أولياءها من أمهوا علاقة الزواج، فردّ المهر كان شرطاً لازماً لانحلال رابطة الزوجية. يُنظر: مالية حمداني، المرجع السابق، ص72.

كما أنّ هذا المشروع لم يأت بجديد إلا من حيث تقليص المدة، حيث كان القانون العرفي القبائلي، ينصّ على أنّ الزوجة لا يمكنها إعادة الزواج إلا في حالة غياب الزوج (المفقود) لمدة تصل إلى أربعة سنوات، وبعض العروش تمدّد هذه الفترة إلى ستّة سنوات. يُنظر: A. Hanoteau ; A. Letourneux, T.2, Op.cit, p.146.

3- يُعترف للزوجة الأرملة بحقّها في ميراث زوجها، وللبنات في ميراث أبيها بما في ذلك والدته، وللحفيدة من الابن في غياب وارث من الدرجة الأولى الحق في ميراث جدّها أو جدّتها من جهة الأب. كما تضمّن مشروع هذا القانون العديد من التفاصيل تتعلق بأنصبة البنات والنساء في حالة وفاة الوالد أو الجدّ أو الزوج وكل من يحقّ لهنّ ميراثه.

لقد صدرت هذه الاقتراحات في شكل قانون بتاريخ 2 ماي 1930، وتم نشره في الجريدة الرسمية للجمهورية الفرنسية بتاريخ 4 ماي، ولعلّ أهمّ ما نصّ عليه هذا القانون¹:

* **المادة الأولى:** تحديد سنّ الزواج للفتاة بخمسة عشر سنة، كما يخوّل الحاكم العام إعطاء استثناء في شرط السنّ لظروف قاهرة، بناءً على رأي من لجنة تتألّف من مستشار بمحكمة الجزائر العاصمة، وقاضي من منطقة القبائل وطبيب.

* **المادة الثانية:** إعلان الخطوبة أمام الموظّف ذي الصفة؛ ضروري للاعتراف بالزواج على أنّه متعاقد عليه بشكل صحيح، حيث يجب على الطرفين إثبات هوية وسنّ المخطوبين، وإثبات السنّ يكون بتقديم عقد الميلاد أو حكم قضائي يثبت ذلك.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل نجح المشرّع الفرنسي في تطبيق هذا القانون؟

كتب 'مارشال' (Marchal): "لقد ظلّ الطلاق حقّ مكفول للزوج، وهو يمارسه وفق رغبته دون أن يأخذ بعين الاعتبار أي طرف آخر، وحتى طلب التطليق عن طريق القضاء الذي تكفله أحكام الشريعة الإسلامية ظلّ غير معمول به (مرفوض) في العرف البربري، المرأة القبائلية ليس لها الحقّ إلا بالعودة إلى أهلها أو تبقى ملكاً لزوجها إذا لم تقبل دفع المبلغ الذي يحدّده هو لتسريحها"². ويضيف: "لقد ظلّت هذه التشريعات الخاصة

¹ - Florence Renucci, *Le statut personnel des indigènes...*, Op.cit, p.p.102-103.

² - R.P. Marchal: *La Condition de la femme indigène*, (Cours professé à la semaine social de Marseille aout 1930), imp. Express, Lyon, (S.D), p.19.

بالمرأة عصية على القبول من طرف الأهالي الجزائريين، عند العرب من منطلق تمسكهم بأعرافهم التي تنبع من الشريعة الإسلامية، ومن طرف القبائل الذين لم يتخلوا عن القوانين العرفية التي أقرها النظام القبلي، فمن الواضح أنه ليست العادات الأهلية ولا التشريعات الإسلامية التي ينبغي محاولة تعديلها؛ وإنما الأعراف السائدة والذهنية البربرية¹.

ورغم إقرار القانون للعقوبات الجزائية بالنسبة للمخالفين؛ إلا أن الجزائريين عملوا على تجاوز قانون الحالة المدنية للأهالي الصادر في 2 أبريل 1930م الذي يعدل قانون 1882م، ففي سنة 1931؛ كانت هناك 277 زيجة فقط تم تسجيلها بسجلات الحالة المدنية للجزائر العاصمة، والعدد لم يرتفع إلا بشكل طفيف، حيث بلغ 284 في سنة 1932 و362 في العام الموالي، وكان الحال كذلك في وهران وقسنطينة².

إلى غاية عام 1939؛ لاحظت الباحثة 'لور لوفافر' (Laure Lefevre) بعد معاينة ميدانية، سمحت لها بالتعرف إلى أي حد يمكن التحايل على هذا القانون، أنه لا يزال هناك في منطقة القبائل عدد من الزيجات التي تم عقدها تحت سن الخامسة عشرة، و أن 'بيان الخطوبة' الذي يتم الإدلاء به عندما تكون الزوجة قد بلغت تلك السن، وذكرت: "الأب زوج ابنته سرّاً قبل بلوغ سنّ الخامسة عشر دون الإبلاغ ببيانات الخطوبة، وعندما أنجبت طفلاً لم يتمّ تقييده في سجلات الحالة المدنية حتى لا يكشف هذا

¹ - Ibid, p.21.

كان 'حسن بن بريهمات' قد نبّه الفرنسيين إلى أن العادات عند المسلمين الجزائريين لا تفصل عن الدين، حيث كتب: "... لأنّ شرعنا وديننا ممتزجان وتمدّنا؛ وشرعنا لا بدّ أن يكون موافقاً للدين ومقام التمدّن، كما احترّم عند اليهود ما كانوا عليه قبل الاستيلاء إلى سنة 1870... ولا يخفى أنّ العرف له تأثير قويّ وهو معمول به إلى وقتنا هذا؛ خصوصاً فيما يرجع إلى العقود، وحينئذٍ فلا بدّ للحاكم أن يسند حكمه إليه وأن يلاحظه ملاحظة تامة". يُنظر: عمر بن حسن بن بريهمات: النهج السويّ في الفقه الفرنسي، مطبعة بيبير فوتانا، الجزائر، 1325هـ/1908م، ص.ص 7، 9.

² - Fatima Zohra Saï, Op.cit, pp.103-104.

الاحتيايل، وعندما بلغت هذه الزوجة السنّ المطلوبة وأدلت ببيانات الخطوبة كانت قد أنجبت طفلاً ثانياً، فتمّ الإعلان عن ولادة توأمين!¹.

لقد استمرّ النقاش طويلاً بخصوص قابلية القوانين الفرنسية الخاصة بإصلاح وضع المرأة القبائلية للتنفيذ، وهل يمكن إلغاء القوانين المحليّة العرفية التي تحدّ من حقوق المرأة، وإذا ما كان في الإمكان تعويضها بالقانون الإسلامي (القرآني) أو بالقانون المدني الفرنسي؟؟ يبدو أنّ هذا الطرح كانت تغذّيه النخبة الجزائرية المتفرنسة، التي راحت تروّج لهذه الفرضية عبر الصحافة، مدّعية بأنّ سكان منطقة القبائل يُطالبون بذلك، وأنّه السبيل لتحقيق المساواة بين الجنسين.²

لكن واقع الحال كان يقول بسيطرة القانون العرفي وصعوبة إقناع عموم السكّان بالتخلي عنه والالتزام بالقوانين الفرنسية. تقرّ الباحثة 'لور لوفافر' هذه الحقيقة حين كتبت عن الرابطة الاجتماعية القوية بين الأفراد داخل الأسرة، والأواصر المتينة بين أبناء المجتمع في منطقة القبائل، فضلاً عن التضامن والتكافل فيما بينهم؛ أين يذوب دور الفرد وسط هذه المنظومة الاجتماعية، التي تقوم على السلطة الأبوية والقبلية القوية، ولا يمكن لأيّ نص قانوني دخيل أن يكسر هذه اللّحمة، حتى وإن فقد الفرد بعض من حرياته الشخصية، فحين يتعلّق الأمر بمسائل الأحوال الشخصية، والقضايا التي تتعلّق بالمرأة أو تمسّ الشرف؛ فلا مجال للتسامح إطلاقاً.³

كما أقرّت بأنّ التدابير الواردة في هذين القانونين بقيت حبراً على روق، حيث يلجأ 'الأهالي' إلى التحايل على هذين التشريعين الفرنسيين، وقد لجؤوا إلى عقد القران

¹ - Florence Renucci, *Le statut personnel des indigènes...*, Op.cit, p.105.

² - Abdelkader Safir: «*Les populations Kabyles demandent l'abolition de leurs Kanouns*», *Le Journal d'Alger*, n°6 et 7, Septembre 1949.

³ - Laure Lefèvre, *Recherches sur la condition de la femme kabyle (La coutume et l'œuvre française)*, imp. Le Typo-Litho ; Jules Carbonel, Alger, 1939, pp.16-19.

(الزواج) خارج أطر القانون الأول، وكان إتمام مراسيم الزواج يجري بشكل سرّي غالباً، ولا يتم الإعلان عن ذلك إلا حينما تبلغ الزوجة السنّ المطلوبة 15 سنة¹، بينما لقي القانون الثاني الخاص بحقّ المرأة في طلب الطلاق والميراث معارضة شديدة، واصطدم بالأعراف السائدة في المجتمع القبائلي، حيث نادراً ما كانت المرأة تجرؤ على طلب الطلاق أو حقها في الميراث أمام المحكمة؛ لأنّ هذا الأمر سيمسّ بتماسك العائلة في الصميم².

وإلى غاية السنوات الأولى للثورة التحريرية؛ بقيت الإدارة الفرنسية تحاول بشتى الطرق إجبار الجزائريين على توثيق عقود الزواج والتصريح بالمواليد الجدد، لكن امتناعهم عن إحضار زوجاتهم أمام 'القايد' ثم القاضي، ما جعل التدابير التي اتخذتها إدارة الحالة المدنية منذ منتصف الأربعينيات إلى غاية منتصف الخمسينيات؛ تبقى عvisية على التنفيذ في أرض الواقع، مع أنّ هناك من اقترح فرض غرامات مالية ومتابعات جزائية ضد كلّ من يتعاسف في توثيق عقودهم المدنية من 'الأهالي'³.

ورغم الحملة التي قادتها الإدارة الاستعمارية لهذا الغرض، عبر العديد من المراسلات الإدارية⁴، وعبر الصحافة المكتوبة والإذاعة الفرنسية⁵، إلّا أنّها لم تجد الصدى المطلوب سيما بعد اندلاع الثورة والتعليمات التي أسدتها جبهة التحرير لعموم الشعب بمقاطعة الإدارة الاستعمارية، إذ يشير تقرير صادر عن محافظ وهران إلى انخفاض التصريح بالمواليد الجدد في مناطق الغرب الجزائري بنسبة 50%؛ بسبب تخلي القياد وشيوخ القبائل عن

¹ - Ibid, p.59.

² - Ibid, pp.112, 140.

³ - ANOM, GGA 40 G 100: Etat civil: déclaration tardives de mariage, 10 Juillet 1950/ 19 Janvier 1953.

Voir aussi: ANOM, GGA 40 G 100: Etat civil: naissances et mariages des français musulmans, 28 Janvier 1955.

⁴ - ANOM, GGA 40 G 100: Enregistrement des mariages musulmans non encore déclarés, 30 Septembre 1950.

⁵ - ANOM, GGA 40 G 100: Communiqué de presse et de radio, (S.D).

أداء مهامهم تحت تهديد الثوار الجزائريين لهم، وأيضاً بعد أن ابتكرت جبهة التحرير الوطني نظاماً للحالة المدنية موازياً للنظام الإداري الكولونيالي¹.

3-2- التماطل في إقرار الحقوق السياسية للمرأة في الجزائر:

لم يكن الحديث عن الحقوق السياسية لعموم الجزائريين مطروحاً للنقاش بشكل جدّي إلا مع مطلع القرن العشرين، ولم يتجاوز الأمر حدّ المطالبة من طرف حركة الشبان الجزائريين، والناشطين ضمن الجمعيات 'الأهلية' ثم فيدرالية النواب المسلمين، والتوسّل أحيانا لفرنسا من أجل تلبية بعض المطالب، وقد تبلورت هذه المطالب في شكل عرائض ومراسلات؛ من أجل إقرار بعض الحقوق السياسية والمدنية لصالح 'الأهالي'، وكان على رأسها مطلب المساواة الذي رفعه بدايةً 'الأمير خالد'.

ومن المطالب الرئيسية التي كانت تتفق عليها كلّ تيارات الحركة الوطنية، مطلب الحقّ في التعليم لعموم الجزائريين، مع وجود بعض الأصوات الخافتة التي طالب بإقرار التعليم للجنسين ذكور وإناث، خاصة من رجال النخبة الإصلاحية وبعض المتفرنسين، أما الحقوق السياسية للمرأة الجزائرية؛ فلم تكن مطروحة بأي شكل من الأشكال إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى، أين بدأ النقاش يدور حول وضع المرأة ووجوب تحسينه ورفع مستواها الفكري والاجتماعي، والسماح لها بنيل قسط من الحرية الفردية.

جاءت إصلاحات كليمانصو سنة 1919م (إصلاحات الجزائر)، التي أقرّت حقّ الاقتراع لجميع الجزائريين، لكن لم تطبّق فعلياً إلا على فئة من الرجال، بينما تجاهلت الحكومة الفرنسية وجود النساء المسلمات إلى غاية سنة 1930م؛ أي عشية الاحتفال بالمئوية؛ حيث حاولت التشريعات الفرنسية تفعيل قانون جونار، وكان ذلك من طرف

¹ - ANOM, GGA 40 G 100: SLNA: Préfecture d'Oran, Etat civil des français musulmans, déclaration de naissance, 22 Janvier 1957.

'موريس فيوليت' منذ عام 1926م¹، وتصحيح هذا الخلل في التمييز بين الجنسين (...).
فالحالة الوحيدة التي كانت المرأة الجزائرية تحصل فيها على بعض الحقوق؛ هي في حالة
زواجها من رجل جزائري متجنّس بالجنسية الفرنسية².

وهكذا فالسياسة الفرنسية الرسمية بالنسبة لحقوق النساء بقيت الأمور تراوح
مكائنها، حتى بالنسبة للنساء الفرنسيات اللواتي لم يَنَلنَّ الحقّ في الانتخاب إلاّ عبر أمرية 21
أفريل 1944م، أما النساء الجزائريات فقد تمّ وضعهنّ ضمن الهيئة الانتخابية الثانية
بموجب أمرية 7 مارس 1944م، ورغم أنّ المادة الرابعة من قانون 20 سبتمبر 1947م
(دستور الجزائر)، تنصّ صراحة على 'أنّ النساء من أصول مسلمة لهنّ الحقّ في
الانتخاب'³، لكن اشتراط التمتع بالمواطنة الفرنسية الأصلية أو المكتسبة عن طريق التجنّس

¹ - المقصود هنا النتائج التي توصلت إليها 'لجنة جونار'؛ وهي اللجنة التي كان قد شكّلها الحاكم العام 'جونار' عام 1905م، وكلفت بإعادة التّظر في التشريعات الأهلية وتطويرها، وقد أتمت هذه اللجنة أشغالها عام 1914م،
وتبعها إصدار قانون الحكم المدني من طرف الحاكم العام 'جونار' يُنظر:

Marcel Morand et Autres: *L'ouvre législative de la France en Algérie*, Op.cit,
p.200.

لقد اتّسمت سياسة الحاكم العام 'جونار' على رأس الولاية العامة (في الولاية الأولى على الأقل) بنوع من اللبونة
في تعاملها مع القضية الجزائرية، والاعتراف ببعض المطالب التي كانت النخبة تسعى لتقدمها للإدارة الفرنسية. يُنظر:
أحمد مريوش: بوادر الانشطار في فكر النخبة الليبرالية وانعكاساتها على القضية الوطنية: 1919-1943،
المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، (د.ت)، ص85 وما بعدها.

² - Alf Andrew Heggoy: "Algerian women and the right to vote: some colonial anomalies", *The Muslim World*, Vol.64, Issue 3, July 1974, pp. 228-235.

³ - قسّم هذا المشروع الهيئة الناحية من (المسلمين) الجزائريين إلى قسمين، الهيئة الأولى: وهم أصحاب الحقّ في
التصويت من المواطنين الذين يحملون الجنسية الفرنسية والمسجّلين في القوائم الانتخابية. الهيئة الثانية: المسلمون
الجزائريون غير المسجّلين ضمن الهيئة الأولى، ومن ضمنهم النساء، ولهنّ الحقّ في التسجيل بناءً على طلبهنّ. يُنظر:
ANOM, 81 F 1218: Projet de décision de l'assemblée algérienne relative au vote des
femmes musulmanes relative à la loi 20 septembre 1947.

أو الزواج بمواطن فرنسي؛ جعل الغالبية الساحقة من النساء الجزائريات ممنوعات من ممارسة الاقتراع، وكان يجب الانتظار حتى سنة 1958م للحصول على حق التصويت¹.

هذا الوضع دفع المندوب الفرنسي لدى الدورة الخامسة للمجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة، السيدة 'لوفوشو' (Marie-Hélène Lefaucheu)، إلى مراسلة وزير الداخلية الفرنسي؛ عقب المصادقة على الاتفاقية الدولية لحقوق السياسية للمرأة من طرف الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلة: "أبدي من جهتي عميق أسفي، حينما تُقرّ العديد من دول الجامعة العربية حق الاقتراع للنساء، بينما تسجّل فرنسا تأخرًا واضحًا في مسألة جليّة، وألاحظ قلة الاهتمام الذي تبديه فرنسا لمواطنيها من المسلمين، من الأفضل لبلدنا أن تُظهر المبادرة في شأن ترقية المرأة المسلمة (التعليم)، وإلاّ فالعديد من الجزائريات، يدرسن بعناية الوثائق (الكتابات) المنبثقة (الصادرة) عن القاهرة"، لقد صار من الجليّ في نظرنا، أنّه لم يكن يوجد أي إصلاح سياسي جدّي من قبل الإدارة الاستعمارية لضمان المشاركة السياسية للنساء الجزائريات. لقد تحفظت الحكومة الفرنسية على بعض ما ورد في بنود هذه الاتفاقية، وذلك تحت ذريعة مراعاة واحترام العادات والتقاليد الدينية في بعض الأراضي التي تخضع للاحتلال الفرنسي².

لعلّ ما يفسّر فشل هذه القوانين في كسر عادات المجتمع المحليّ، هو انطلاقتها دوماً من فلسفة قانونية غربية تختلف جذريا عن الموروث الثقافي للمجتمع الجزائري، كما أنّ

¹ - جاء هذا عقب قرار الجنرال 'سالان' (Salan) بصفته المندوب العام للحكومة بالجزائر؛ إلغاء نظام الهيئتين الانتخابيتين، وإدراج النساء الجزائريات ضمن هيئة واحدة دون التسجيل في القوائم؛ بالشروط نفسها التي تطبّق على المواطنين الفرنسيين. وهو القرار الذي صادق عليه الجنرال ديغول بتاريخ 3 جويلية 1958م، عبر مرسوم رئاسي تنفيذي. يُنظر:

ANOM, 81 F 1218: Décision relative aux conditions d'exercice du droit de vote des femmes de statut civil local, 27 Juin 1958.

Voir aussi: Décret n°58/568 du 3 Juillet 1958.

² - ANOM, 81 F 1218: Convention internationale sur les droits politique de la femme, 1953.

Voir aussi: Feriel Lalami, Op.cit., p19.

هذه التشريعات كانت تنبع من نظرة استيطانية مبنية على تحقيق المنفعة قبل كل شيء، وغالباً ما نجد الحديث عن تنظيم جانب الأحوال الشخصية والميراث لصالح المرأة في الجزائر مثلاً، بالحديث عن نظام وقوانين الملكية التي فرضها الاحتلال عنوة، وقد رأينا بعض آثارها الوخيمة على البنية الاجتماعية وعلى الأسرة والأفراد¹.

3-3- إمكانية ارتقاء المرأة الأهلية في إطار المشروع الاستعماري؟

لم يكن الخطاب الرسمي الفرنسي بكلّ أطيافه؛ يرى من سبيل لتطور وارتقاء المرأة 'الأهلية' في الجزائر خارج أطر السياسة الاستعمارية والحضارة الفرنسية، وهذا يمرّ حتماً عبر التخلّي عن الأحوال الشخصية الإسلامية، وعن قيم ومبادئ الدين الإسلامي التي تحكم المجتمع المسلم في الجزائر، والانخراط كليّة في مسار التجنّس والاندماج أملاً في الحصول على صفة المواطنة الفرنسية، التي من شأنها أن تجعل الفرد الجزائري مواطناً فرنسياً يتمتع ببعض الحقوق.

الغريب في الأمر أنّ الساسة الفرنسيون لم يهيّئوا الظروف التي تسمح بتحقيق الاندماج المطلوب، ولا وضعوا السياسات والبرامج اللازمة التي تسمح للبنات الجزائرية المسلمة بالحصول على تعليم فرنسي جادّ، أو رعاية صحية ومعيشية مناسبة، ومن ثمّة الولوج إلى عالم الشغل والتكيّف الاجتماعي؛ للمساهمة بفعالية في تجسيد المشروع الفرنسي. لقد بقيت أدبيات الخطاب الرسمي الفرنسي بعيدة كل البعد عن الواقع الذي تعيشه المرأة والمجتمع الجزائري، وبقيت حبراً على ورق، وحتى التشريعات والنصوص القانونية لم تجد طريقها للتطبيق كما رأينا، وبقي الصراع الفكري والثقافي ومنطق الغالب والمغلوب هو من يحكم العلاقة بين الطرفين، وهكذا بقيت المرأة 'الأهلية' شأنها شأن الرجل؛ وسيلة لتحقيق بعض الرفاهية الاقتصادية للمستوطنين وخدمتهم لا غير.

¹ - Clancy, Op.cit, p.34.

يمكننا أن نسوق أمثلة في عديد المجالات التي تأخر الخطاب الفرنسي في طرحها، وبقيت تتراوح بين مُطالبات 'الأهالي' بإصلاحها، وبين رفض المستوطنين (حكام الجزائر الفعليين)، ولا مبالاة المسؤولين السياسيين في فرنسا (المتروبول)، ولم نعرف بعض الزخم في الخطاب السياسي الفرنسي حول المرأة 'الأهلية' في الجزائر إلا غداة اندلاع الثورة التحريرية، التي لم تكن المحطة التي أيقظت الضمير الجمعي الفرنسي فحسب، وإنما كانت أيضاً ذلك التحوّل الجذري والعميق في أوضاع الجزائر، الذي أشعر الساسة الفرنسيين بالخطر الذي صار يتهدّد مشروعهم الاستعماري.

نقرأ في وثائق الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر: "أنّ الشرط الأول للرفقيّ الاجتماعي هو تربية وتعليم المرأة المسلمة، هذه التربية التي ستسمح بتحسين ظروف الحياة، وهي شرط لتطوّر متوازي للجنسين، الذي سيحقّق التحوّل العميق في المجتمع المسلم، والتعليم أيضاً من شأنه أن يقلّص الفوارق الموجودة بين الشاب المتفتح على مفاهيم الحياة العصرية عن طريق الخدمة العسكرية ونشاطاته الوظيفية، والفتاة التي بقيت غالباً وافية للتقاليد بشكل صارم (...). هذا التعليم الذي أصبح مُستصاغاً من طرف الأهالي الجزائريين، بل وأصبح مطلباً ملحاً من طرفهم، يمكن تحقيقه للفتيات المسلمات رغم الفوارق الموجودة بين منطقة القبائل والصحراء والهضاب العليا والساحل والمدن الكبرى"¹.

ونقلت جريدة 'لاديبيش' (Dépêche Quotidienne) عن 'عبد الرحمان فارس' الذي كان حينها رئيساً للمجلس الجزائري: "أنّ ارتقاء المرأة المسلمة مسألة حسّاسة تتطلّب معرفة كبيرة بالأوساط المسلمة، أما الرائد 'ميسوم' فاعتبر: "أنّ إنشاء 'المعهد

¹- ANOM, 81 F 1218: «L'éducation de la femme musulmane en Algérie», Bulletin du service d'information du GGA, n°22, 7 Juillet 1953.

الإسلامي للتضامن الاجتماعي' في أبريل 1952م¹ سيسمح بالتكفل بالفتيات المسلمات، وتعليمهنّ دور الأمّ المثقفة، والحصول على وظيفة تضمن لهنّ العيش، ويساهم في تحرير المرأة المسلمة من سلطة الأب، هذا المعهد الذي كانت تديره السيّدة 'ميسوم' كان سيضمّ آنذاك 250 تلميذة تتراوح أعمارهنّ بين 10 و 18 سنة، وبعد الحصول على شهادة التعليم الابتدائي؛ يتمّ توجيه الفتيات إلى وظيفة الحلاقة والعناية بالبشرة أو الحياطة الرفيعة الأوروبية والإسلامية مع متابعة تكوين مهني، وبعد ثلاث سنوات من التربّص يصبحن عاملات مؤهلات بحوزتهنّ شهادة الكفاءة المهنية، مع أنّ هذه المدرسة لا تزال تواجه عداء الأولياء، الذين يستمعون للأحكام المسبقة، ويترددون في إرسال بناتهم إلى الأقسام بعد أن يتجاوزن مرحلة التعليم الابتدائي².

وهناك من اعتبر أنّ: "حلّ مشكلة ضعف التكوين المهني للمرأة 'الأهلية' (المسلمة) يمرّ عبر تعليم الفتيات، الذي هو العامل الأساسي للرقّي الاجتماعي للجنسين، حيث يجب الرفع من مكانة المرأة، وتوعيتها بأهمية دورها الأسري والاجتماعي، ومنحها الإمكانية لتكون حرة ومسؤولة، وعن طريق التعليم يجب محو الفوارق الموجودة حاليا بين الشاب المستغرب بسبب الخدمة العسكرية ونشاطه المهني؛ والمرأة التي تقبع غالبا في مرحلة الطفولة واللامسؤولية، هذه الفوارق التي تؤدي إلى مآسي إنسانية، وتهدّد التوازن الاجتماعي للأسرة المسلمة"³.

¹ - D.J.P: «Une école interprofessionnelle et éducative pour jeune filles musulmanes va ouvrir prochainement», Dépêche Quotidienne, 18 Mars 1952/ 13 Septembre 1952.

² - Jeanne Perez: «Autres temps... autres femmes», Dépêche Quotidienne, 25 Novembre 1953.

³ - «Le problème de la formation professionnelle de la femme musulmane», Bulletin économique et juridique, N°161, Avril 1953, Office Algérien d'action économique et tourisme.

بالمقابل نجد أنّ في تقرير آخر مرفوع إلى الحكومة العامة بالجزائر؛ يخلص كاتبه إلى أنّ التأخّر الذي يطبع السياسة الفرنسية في مسار تحرير المرأة الجزائرية المسلمة، وحيث أنّ النخبة الجزائرية من الفئة البرجوازية التي سبق لها العيش في الغرب؛ المشكل لا يُطرح عندها بتاتاً، فهي تأمل في تحرير المرأة المسلمة، بينما النخب التي بقيت مرتبطة بالعادات سواء عن قناعة أو كرهاً للأجانب، فهم يعتقدون أنّه من المساس بالمقدّسات أن ينتهك 'رومي' أحكام قرآنية. أما الوطنيون فهم ليسوا معارضين للإصلاح، لكنهم يعتقدون أنّهم هم من يجب أن يقوم بذلك، في حين العلماء قد بدأت آراؤهم تكون أكثر ليونة بخصوص وضع المرأة المسلمة، سيما بعد أن رأوا المبادرات الجادة التي حدثت في هذا الخصوص ببعض الدول الإسلامية وتحديدًا مصر، مع أنّهم ينظرون إلى الموضوع بحذر شديد، والدليل على ذلك خطبة إمام مسجد البليدة، وهو أحد قدامى معهد الزيتونة بتونس¹، هذا الأخير الذي صارت خطبه تسترعي انتباه الناس وتجلب الكثير من المصلين، وتعبّر عن اتجاه العلماء نحو إطلاق أنشطة لصالح تحرير المرأة وخاصة نيل حقّها في الانتخاب².

وبحسب 'جون سيلاس' (Jean Scelles)؛ فإنّ وضع المرأة المسلمة في شمال إفريقيا عرف بعض التطوّر؛ رغم النظرة العدائية من قبل التقليديين والمحيط الاجتماعي، ورغم غياب التشجيع الجدي من طرف السلطات الفرنسية، هذا التطوّر الذي ظهر بوضوح في المدن الكبرى بخلاف الأرياف والمناطق الأقل تحضراً، ورأى أنّ من أوكد مهام الحكّام الفرنسيين والنخبة والإداريين وأرباب الأسر إعطاء الأمل للشبان والشابات، الذين أصبحوا يشعرون بالخمول واللا فاعلية، والويل للشعوب التي لا تعطي الأمل لشبابها³.

¹ - ANOM, 91 1K 1170: Sous-préfecture de Blida: Statut de la femme musulmane, 29 Mai 1957.

² - ANOM, 91 1K 1170: P.R.G Blida: Rumeur public et sondage d'opinion, 18 Mai 1957.

³ - ANOM, GGA 9 X 165: La musulmane Nord-Africaine aujourd'hui, Décembre 1953.

والملاحظ هو تغيّر لغة الخطاب الفرنسي تجاه المرأة في الجزائر منذ عام 1958م، حيث عرفت هذه الفترة جملة من المشاريع والإصلاحات لصالح البنت والمرأة 'الأهلية'، وكلها تندرج ضمن سياسة ديغول للتهدئة ومحاولة عزل المجتمع عن الثورة التحريرية.

3-4- مآل الدعاية السياسية الفرنسية لاستقطاب المرأة الجزائرية:

لم يختلف الخطاب السياسي الكولونيالي الموجه للمرأة الجزائرية 'الأهلية' في منتصف القرن العشرين؛ عن ذلك الأسلوب التي اتخذته الكتابات الاستعمارية منذ القرن التاسع عشر، حيث كانت المرأة بمنطقة القبائل في صدارة اهتمام الفرنسيين، وحاولوا التأثير عليها بشتى الطرق والوسائل، ومن الوسائل المستحدثة في هذا المجال هي الدعاية عن طريق جهاز الراديو أو الإذاعة، إذ سخرت الإدارة الفرنسية إذاعة الجزائر لتوجيه دعايتها إلى نساء منطقة القبائل تزامنا مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، وخصصت لهذا الغرض حصصاً أسبوعية باللغة الأمازيغية بهدف جذب أكبر عدد من المستمعات.

ومن بين العقبات التي واجهت إدارة الاحتلال هو نقص عدد أجهزة الاستقبال لدى العائلات المحلية، حيث لم تكن تمتلك جهاز راديو إلا عائلات (برجوازية) قليلة جدا من بين السكان 'الأهالي'؛ من مثلما كان الحال في منطقتي مزرانة و جرجرة، وقد اقتصر الأمر غالباً على عائلات المعلمين الأهليين، والكتاب الإداريين وصغار الموظفين ممن يستمعون لهذه الإذاعة بشكل منتظم، كما كان من الصعب تجميع النساء والفتيات في المدارس الأهلية من أجل بث الدعاية الكولونيالية عبر الإذاعة؛ بسبب الأحكام المسبقة للسكان تجاه الإدارة الفرنسية¹.

¹- ANOM, 915 90: Sous-préfet de Tizi Ouzou: Emissions radio pour les femmes kabyles, 28 Mai 1940.

كما كان ضعف التواصل بين المستوطنين الأوروبيين والمجتمع النسوي المحلي¹ عاملاً آخر للقطيعة بين الطرفين، وهكذا لجأت الإدارة الفرنسية إلى القياد لتولي هذه المهمة، حيث يتم تجميع النساء والبنات كل يوم خميس للاستماع لهذه الحصص الإذاعية، مثلما حدث في دوار بني بيلي ببلدية فورناصيونال². ومع ذلك بقي الاستماع إلى الإذاعة الفرنسية مقتصرًا على النبلاء وأعيان الإدارة والتجار ممن امتلكوا هذه الأجهزة.

لقد تواصلت الدعاية الكولونيالية الموجهة للمرأة الجزائرية عقب الحرب العالمية الثانية، حيث تولت الأنسة 'جميلة دباش' تقديم حصة عبر إذاعة الجزائر تحت مسمى: "الحياة النسوية" باللغة الفرنسية، وكان هدفها تعريف النساء (المسلمات) الجزائريات بالأنشطة التي تقوم بها المرأة عبر العالم خصوصًا في الميدان الثقافي والاجتماعي والسياسي³. ومع أن هذه الحصة لم تجد صدى واسعًا في الأوساط الأهلية، إلا أن دور الإذاعة الفرنسية عبر حصصها باللغة العربية والأمازيغية القبائلية بدأ يتعاظم بمرور السنوات وصولاً إلى اندلاع الثورة، حيث ستلج إذاعة الجزائر الحرة معترك الحرب الإعلامية الدعائية في الأوساط الشعبية بهدف جلب أكبر عدد من الأنصار ودحض الدعاية المضادة.

ربما وصل الخطاب الرسمي الفرنسي إلى قناعة مفادها أن تحرير المرأة 'الأهلية' في الجزائر صار شرطاً ضرورياً لأي اندماج، وهذا يمرّ حتماً عبر تطوير العادات وتغيير النظام التقليدي، ومن العوامل التي قد تساعد في تغيير المفاهيم الاجتماعية السائدة؛ خروج المرأة إلى العمل وعودة العمّال الجزائريين (المسلمين) من المهجر، فـ "كثير هم الشبان المسلمون، محامين وأطباء ومهندسين ورؤساء مؤسسات، صاروا لا يقبلون أن يفرض عليهم آباءهم زوجة متخلّفة فكرياً وأخلاقياً، لا تستطيع أن تكون ممثلة لتلك التي يختارها رفاقهم في

¹ - ANOM, 915 90: CM de Dra-El-Mizan: Analyse, 21 Juin 1940.

² - ANOM, 915 90: CM Fort-National: Emission de radio d'Alger pour les femmes kabyles, 14 Juin 1940.

³ - ANOM, 915 90: GGA: Direction des reformes, 28 Janvier 1946.

الكلية أو زملاءهم في العمل، وهناك الكثير من الشبابات المسلمات اللواتي صرن يرفضن الوضع الماضي، ويأملن في الحصول على سعادة الحياة بعيدا عن الكسل والحرمان"¹.

كما أنّ تطوير المرأة المسلمة في الجزائر كان يمرّ حتماً عبر إصلاح وضعها القانوني والمادي ووصولها إلى حرية فردية حقيقية، مما سيسمح لها بالتصرف في شؤونها الخاصة وأحوالها الشخصية، ونيل حقوقها السياسية، وهو ما سيمكّنها من التخلّص من الحرمان والخروج من دون 'حايك'، وارتداد الفضاءات الاجتماعية المختلفة، ومتابعة دراساتها، وهو ما سيمثّل للمسلمات غنى معنوي واجتماعي².

ومع تطوّر الخطاب الرسمي الفرنسي في شقّه النظري على الأقل؛ إلا أنّ وضع المرأة الجزائرية لم يتغيّر كثيراً عمّا كان عليه في مطلع القرن العشرين، فدخول الأطباء الفرنسيين إلى البيوت 'الأهلية' كانت تشوبه العديد من المعوّقات، وبقي عن طريق النساء الأوربيات فقط؛ لأنّ المجتمع الذكوري الجزائري - خاصة في الأرياف - مازال بيدي عدوانية تجاه فكرة التواصل بين المرأة المسلمة والرجل الأوربي بطريقة مباشرة³.

باندلاع الثورة التحريرية عام 1954م؛ فرضت النساء الجزائريات أنفسهنّ كعنصر مهمّ في الصراع السياسي والعسكري بين فرنسا الاستعمارية وجبهة التحرير الوطني الجزائرية. لقد مثّلت قوة اجتماعية بإمكانها تغيير مستقبل الجزائر، ووعياً منها بأهمية العنصر النسوي في الجانب السياسي وفي الحرب التي بدأت لتوّها؛ عملت الحكومة الفرنسية على رسم سياسة نسوية، فالسلطات المدنية والعسكرية قررت انتهاج سياسة تقارب مع المرأة الجزائرية، عن طريق تحريرها. يتعلّق الأمر من جهة بدمج المسلمات في

¹ - ANOM, 9140 60: Département d'Alger: Sous préfet de Miliana: Aménagement des règles du statut de droit de la femme musulmane, 25 Juin 1957.

² - ANOM, 9140 60: Département d'Alger: Sous préfet de Ténès: Statut juridique de la femme musulmane, 14 Juin 1957.

³ - ANOM, 9140 60: Ministre résidant en Algérie: Aménagement des règlements de droit de la femme musulmane, 4 Juin 1957.

المجتمع الفرنسي، ومن جهة ثانية بقطع الطريق أمام جبهة التحرير الوطني عن قاعدتها النسوية الناشطة. فوضعت عدّة تدابير من أجل مشاركة أكثر فعالية للمرأة الجزائرية في النشاطات المجتمعية، وفي تحسين مكانتها من خلال القوانين المدنية الفرنسية. وبجعل المرأة أكثر ظهوراً في المجال العام، عن طريق سياسة الارتقاء إلى المواطنة. بالإضافة إلى تقوية تدرس الفتيات، من جهته الجيش الفرنسي قرّر وضع برنامج للعمل النفسي موجه للنساء... مع أنّ هذه السياسة الفرنسية لم تبدأ مع اندلاع 'حرب الجزائر' ولكن هذا الحدث حثّم على الحكومة الفرنسية الإسراع بتنفيذ هذه الإصلاحات..¹، لكن يبدو أنّ هذه الإصلاحات قد جاءت في 'الربع ساعة الأخير'؛ أي بعد فوات الأوان.

* خلاصات الفصل الثالث:

إنّ أهمّ ما ميّز السياسة الكولونيالية في 'الجانب القانوني' هو التسرّع وعدم الانسجام مع الواقع، ففي القوانين والمراسيم التي تخصّ الحالة الشخصية للمرأة الزواوية، نجد أنّها كانت تصدر دون مراعاة للقيم الدينية والثقافية التي تحكم المنطقة، ولا للأعراف المجتمعية السائدة، ولطالما جوبهت هذه التشريعات بالرّفص أو التحايل عليها من طرف السّكان (الأهالي)، وكانت محلّ انتقاد من طرف رجال القانون الفرنسيين أنفسهم.

يمكن أن تُدرج الخطاب الفرنسي بالمرأة في بلاد القبائل ضمن سياسة استعمارية شاملة عنوانها 'الظهير البربري'؛ والمرأة أحد محاورها، تهدف إلى إحداث الفرقة بين العرب

¹ - Diane Sambron, «La politique d'émancipation du gouvernement français à l'égard des femmes algériennes pendant la guerre d'Algérie», Op.cit.

والأمازيغ، من خلال القيام بحفريات في الأعراف القديمة والرجوع بالمرأة 'البربرية' إلى عهود ما قبل الإسلام، وهي السياسة التي طبقتها فرنسا في المغرب منذ 1912م¹.

لقد أصرت الناشطات النسويات الفرنسيات على فكرة مفادها 'تحرر المرأة المسلمة' وفق متطلبات الحضارة الغربية، والسبب هو ارتباطهن الوثيق بفلسفة ومشروع الاحتلال، فلم يرين أي سبيل لتحرر المرأة في الجزائر إلاّ بواسطة المدرسة الفرنسية، وهكذا بقيت حالة الصراع بين أفكارهن، وبين ممانعة عموم الجزائريين من السماح لبناتهم ونسائهم بمحاكاة أساليب الحياة الغربية؛ إلى غاية العهود الأخيرة من الاحتلال الفرنسي، التي عرفت بعض 'الانفتاح' على الثقافة الفرنسية.

كان ولوج بعض وجوه النخبة النسوية الجزائرية المثقفة ثقافة فرنسية؛ ميدان الدفاع عن حقوق المرأة 'الأهلية'؛ بالتزامن مع تصاعد النشاط الجمعوي والسياسي للنساء الجزائريات، وقد حاولت هذه النخبة النسوية المتفرنسة أن تتخذ موقفاً وسطاً بين دفاعها عن حقوق المرأة 'المسلمة' في الجزائر، وبين انتمائها الإيديولوجي وولائها للخطاب الكولونيالي، وقناعتها بإمكانية العيش المشترك تحت راية الأمة الفرنسية.

فشل المشرع الفرنسي في فرض القوانين الفرنسية على الجزائريين، سيما تشريعات الأحوال الشخصية للمرأة؛ لأنّ ذهنية الفرد الجزائري أبت تقبل هذه الأحكام التي تناقض شريعته وأعرافه، ولم تجد دعوات إصلاح وضع المرأة عن طريق المدرسة الفرنسية صداها، كما عجز الخطاب الرسمي الفرنسي عن طريق الدعاية الإعلامية والسياسية بعد الحرب العالمية الثانية، في استقطاب النساء الجزائريات، والدليل هو انخراط المثقفات منهنّ ضمن الجمعيات والأحزاب السياسية الوطنية، ثم التحاقهنّ بالثورة التحريرية في نوفمبر 1954م.

¹ - للمزيد يُنظر: علال الفاسي: "إسهام المرأة المغربية في الكفاح الوطني"، مجلة عيون المقالات، ع. 9-10، 1987، ص. 92-104.

الفصل الرابع:

قضايا المرأة في فكر النخبة الجزائرية المثقفة:

- قضايا المرأة في الفكر الإصلاحى الجزائرى المعاصر.
- مسائل المرأة عند النخبة المحافظة (التقليدية) فى الجزائر.
- المرأة الجزائرية فى كتابات وأفكار النخبة المتفرنسة.

لقد مثلت المرأة والمجتمع موضوعاً خصباً لكتابات النخبة الجزائرية المثقفة منذ القرن التاسع عشر، وبظهور الصحافة الجزائرية باللغتين العربية والفرنسية، والحراك الثقافي والفكري والسياسي الذي شهدته الجزائر مع مطلع القرن العشرين، صارت قضايا المرأة الجزائرية تُطرح ضمن أدبيات الأنتلجنسيا الجزائرية، ليس باعتبارها مسألة مستجدة فحسب؛ بل هناك من نظر إليها على أنها مشكلة اجتماعية تحتاج إلى بحث وتفكير جاد وحلول واقعية، نظراً إلى تردّي الوضع الاجتماعي للمرأة في الجزائر، وانتشار الجهل والامية في أوساط البنات والنساء الجزائريات، وفي ظلّ سياسة استعمارية مححفة أفقدت المرأة شخصيتها، وهددت كيان الأسرة والمجتمع الجزائري.

نتناول في هذا الفصل؛ مواقف النخبة الفكرية الجزائرية من قضية المرأة، بدءاً برواد الإصلاح منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، ومروراً بالنخبة الدينية الإصلاحية التجديدية (العلماء) والنخبة المحافظة (التقليدية)، ووصولاً إلى النخبة المتجنّسة والمثقفة ثقافة فرنسية (المتفرنسون)، لنستعرض آراءها بخصوص عدد من المسائل الخاصة بالمرأة، والتي طُرحت على بساط النقاش في النصف الأول من القرن العشرين، وتهدف بهذا إلى تكوين فكرة شاملة عن نظرة هؤلاء للموضوع، والحلول التي طرحوها للارتقاء بها، وإخراجها من حالة الجهل والتخلف، وكذا مواقفهم وردود أفعالها تجاه الخطاب الكولونيالي الفرنسي.

1- قضايا المرأة في الفكر الإصلاحي الجزائري المعاصر:

في نهاية القرن التاسع عشر؛ برز ثلّة من رواد الإصلاح الإسلامي في الجزائر، اهتمّوا بقضايا المرأة المسلمة، ودعوا إلى تعليم البنات وإصلاح وضع المرأة الجزائرية، معتبرين أنّ صلاحها هو مفتاح صلاح المجتمع والأمة، ومع أنّ دعوتهم لم تكن صريحة لتحرير المرأة وفق المنظور الإسلامي كما سيصير عليه الحال في الثلاثينات والأربعينات مع الجيل الثاني من

المصلحين (العلماء)، إلا أن أدبياتهم حملت الكثير من الأفكار التقدمية في مسألة المرأة، والتي تفاعلت مع النقاش الدائر في المشرق في تلك الفترة (قاسم أمين في مصر تحديداً)، وقد عكست هذه الطروحات الفكرية لرواد الإصلاح الجزائري؛ نضجاً فكرياً ووعياً اجتماعياً ونظرة للمستقبل قلّ نظيرها نسبةً إلى ذلك الوقت.

1-1- رواد الإصلاح: التربية والتعليم سبيل النهوض بالمرأة:

لقد شغلت مسألة التعليم حيزاً مهماً في كتابات رواد الإصلاح الجزائري، وهذا بالنظر إلى فشل السياسة الاستعمارية الفرنسية في تأمين تعليم جادّ للجزائريين، وبالنظر أيضاً إلى الحالة الثقافية المزرية التي صار عليها عموم السكان؛ والإناث بشكل خاص.

كان الشيخ 'عبد القادر المجاوي' في طليعة دعاة الإصلاح الذين شخصوا عِلل تخلف المرأة المسلمة في الجزائر، فهو يُرجع فساد الأخلاق بين الناشئة إلى جهل المرأة وإبعادها عن مجال التربية وحرمانها من التعليم، وقد تحدّث عن طرق التعليم في عصره بشيء من التقدير، فكان يعارض التعليم العربي القديم الذي أصبح لا يفي بمتطلبات العصر، ويرفض الطرق التقليدية ويدعو إلى الإصلاح والتجديد.

لقد تأثر المجاوي كثيراً لحال المرأة المسلمة، التي كانت تعاني الجهل والامية؛ شأنها في ذلك شأن المجتمع الجزائري في ظل الاستعمار الفرنسي، هذا الحال زاده سوءاً خضوع المرأة للعادات البالية والأعراف الاجتماعية الفاسدة، الناتجة عن الفهم الخاطئ للشّرع الإسلامي، وإغفال الناس للدور التربوي الذي تلعبه المرأة إلى جانب الرجل في تهذيب الأبناء. يقول: "وما كثر الفساد في أمةٍ إلاّ بعدم تربية الأولاد، فإننا نرى الأولاد مُهمّلين يتعلّمون الفساد ويرتكبون المعاصي حتّى صارت ديار آبائهم خراباً"¹.

¹ - عبد القادر المجاوي، تحفة الأخيار فيما يتعلّق بالكسب والاختيار، (سلسلة الشيخ عبد القادر المجاوي حياته وأعماله)، دار زمورة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص115.

ويجذّر المجاوي من تعليم المرأة تعليماً ناقصاً غير مُفيد، ففي هذه الحالة ستكون الجاهلة خير منها؛ لأن ذلك سيؤدّي إلى تكبرها وعنادها وعدم وعيها بأهمية العلم الذي تحمله، فُتسيء تربية أبنائها وتعجز عن تدبير شؤون بيتها: "فالمرأة التي تظلّ باقيةً على سذاجتها الأولى فلم تتلقَّ شيئاً من مبادئ العلوم والفنون، ولم تُمارس القراءة والكتابة، قد يتيسّر أن تُقنعها بأنّها جاهلة، ثمّ نُوصيها بلزوم الرجوع في تربية طفلها إلى رأي من هو أعرفُ منها بشؤون التربية (...). أمّا التي تعلّمت تعلماً ناقصاً، ورأى أولياؤها ألاّ يعطوها من العلوم سوى قراءة القرآن، وكتابة أجمد هوز، وحناب الأكرمين حاسبين أنّ ذلك القدر كافٍ، وأنّه أليقُ بها وأحوط في سلامة دينها وآدابها، فإنّ هذه المرأة تُصبح بهذا التعلّم الناقص ذات عجبٍ وعنادٍ ونجاح، فلا تعود تُصغي لمشورة من هو أعلمُ منها، ولا تقف في إفساد تربية ابنها وتدير منزلها عند حدّ، فُتسيء الظنّ بزوجها، وتغلّ يده عن استثمار مالها وتدير منزلها على غير ما تقتضيه قواعد الاقتصاد وأصول الصّحة ووسائل التّطهير والنّظافة، وتُحاول تربية أولادها فتخلّ بقوانين التربية، وتفتات (كذا) على المربّي المفيد اعتداداً بكفاءتها، وأنّ معرفتها لتلك القراءة الناقصة جعلتها أهلاً لكلّ شيء، وعالمة بكلّ شيء، وخبيرة بكلّ شيء أيضاً"¹.

وكان للشيخ عبد القادر المجاوي قدم السّبِق حين أوصى بضرورة إتباع مناهج التربية والتعليم العصرية؛ بدراسة الأخلاق وعلوم النّفس، كما ثار ضد الطّرق التقليدية في التعليم ونقدها، حيث قال: "التعليم القديم غير نافع في زمننا لنقصانه؛ إذ تعليم القرآن وحده على الكيفية المألوفة عندنا بهذه الأقطار لا يفيد المتعلّم وأباه، فلا بدّ من معرفة العلوم

¹ - عبد القادر المجاوي: اللّمع... المصدر السابق، ص 116.

النّافعة في الدّين والدّنيا، أما إذا اقتصرنا على أحد العِلْمين، ضاع ما يفتقر لذلك العلم المجهول، ولكن أهل زماننا تركوا العلمين حقاً...¹.

لم يكن المجاوي الوحيد الذي اهتمّ بقضية المرأة، فهناك العديد من معاصريه الذين أولوا لقضية تعليم 'الأهالي' أهمية قصوى، وكانت هذه المسألة حاضرة في مقالاتهم وكتاباتهم باستمرار مع رجال الفكر والثقافة من الفرنسيين، ولو أنّهم لم يطرحوا قضية 'تعليم المرأة' بشكل منفرد؛ ربّما باعتبار أنّ ظروف ذلك العصر لم تكن تسمح بذلك.

من بين النخب الجزائرية ذات الثقافة العالية، محمد بن العربي بن محمد بن شنب²، الذي خلّف ما يزيد عن خمسين مصنّفاً في مختلف العلوم والفنون والآداب، وهو من بدّد النظرية الاستعمارية القائلة بأنّ الجزائريين غير قابلين لا للتربية ولا للتعليم، وبالرغم من أنّ بعض الباحثين يعتبرونه من المحافظين، بينما يعتبره البعض الآخر من الشبان، لكنّ المتمعّن المدقّق في إنتاجه يصنّفه مع المصلحين المجدّدين، الذين يقفون بين الأصالة والمعاصرة، ويحاولون التوفيق بينهما والإضافة إليهما في أعمالهم وإنتاجهم الجديد³.

¹ - عمار الطالبي: آثار ابن باديس، مج.1: تفسير وشرح أحاديث، ط.3، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997، ص21.

² - حاصل على الشهادة في اللغة العربية (Diplôme D'Arabe) سنة 1894م، وهو عضو بالمجمع العلمي العربي بدمشق، كما يحمل دكتوراه في الآداب من جامعة الجزائر، وأحد أساتذتها الأفاضل، وأول عالم جزائري يجلس على كرسيّ الجامعة، له عدة كتابات في التربية والتعليم، ومؤلفات في الأدب واللغة والتاريخ والتراجم والسّير، كما كان يكتب الشعر. "فابن أبي شنب من أهمّ الشخصيات المثقفة التي خدمت الثقافة العربية وعلومها، واللغات الأجنبية المساعدة لإثرائها في مرحلة اليقظة الجزائرية منذ نهاية القرن التاسع عشر والعقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين"، وبعد وفاته يوم 05 فيفري 1929م، قال عنه عبد الحميد بن باديس: "لمّا عرفناه فقدناه". يُنظر: عبد الحميد ابن باديس: "الأستاذ ابن شنب رحمه الله تعالى"، الشهاب، ج.2، شوال 1347هـ.

³ - عبد الكريم بوصفصاف: الفكر العربي الحديث والمعاصر: "محمد عبده" و"عبد الحميد بن باديس" نموذجا، ج.1، دار الهدى، الجزائر، 2005، ص148.

ومع أن 'ابن شنب' لم يخص المرأة بمؤلف منفرد؛ إلا أنه كانت له بعض الآراء تتعلق بالحياة المدنية للمرأة في مدينة الجزائر العاصمة، من خلال سلسلة مقالات نشرها في 'المجلة الأهلية' (La revue indigène) بين سنتي 1907-1909م، وتطرق إلى المظاهر التي تُصاحب مناسبات الزواج والميلاد وختان الأطفال والطلاق والوفاة، ونبه إلى أنه لن يخوض في الأحكام المسبقة التي تدينها الشريعة الإسلامية، وإنما اكتفى بوصف الطقوس الخاصة بها¹، ومن بين ما ذكره أن الفتيات يزوّجن في سنّ تتراوح بين 16 و 20 سنة، ويكون زواجهنّ غالباً برضاهنّ، وقلّما يرفضن الشريك الذي يختاره الوليّ، وقدّر قيمة المهر بين 250 أو 500 أو 1000 فرنك، بالإضافة إلى بعض الحلّي والأغراض الأخرى التي تقدّم للفتاة المخطوبة، ويتمّ عقد الزواج أمام القاضي الحنفي أو المالكي؛ حسب المذهب الذي يتّبعه أهل الزوجين، وتناول بالوصف الطقوس التي تصحب حفلة الزواج².

كما تناول في مقال آخر طقوس ميلاد طفل جديد؛ منذ فترة حمل المرأة، ومن بين ما ذكره أنّ عملية الولادة تتمّ أمام القابلة، ولا يتمّ استدعاء الطبيب الفرنسي إلاّ في الحالات العسيرة، فقلّما يوجد طبيب عربي مسلم آنذاك، وذكر إشارة مهمّة تتعلق بالتمييز بين الجنسين، أو تفاؤل 'الأهالي' بميلاد الطفل الذكر عكس ميلاد البنت الأنثى، وهي أنّ القابلة لا تبوح بجنس المولود لأمّه مباشرة، وتكتفي بالقول: 'الحمد لله الذي أوصلك لإنجاب هذا الطفل؛ ليحلب لك السعادة والرخاء'، وهذا لتفادي إثارة عواطفها بقوة. وذكر أنّ الأهل يطلقون زغاريد الفرحة التي تكون عالية إذا كان المولود ذكراً؛ لأنّ الذكور

¹ - لا ندري لماذا لم يسرّ 'ابن شنب' على منهج معاصريه؛ من رواد الإصلاح وحتى من الكتاب الفرنسيين، الذين طرحوا مسائل 'الجبر' على الزواج، والزواج المبكر، والمغلاة في المهور، والطلاق التعسفي... وغيرها. ربما لكون هذه الممارسات الاجتماعية السلبية؛ لم تكن منتشرة بكثرة في الجزائر العاصمة، أو لأنّ الرّجل تفادى الصراع مع مخالفيه في هذه المواضيع الحسّاسة في ذلك الوقت، كما أنه اختار المداراة مع الفرنسيين؛ حتى يكسب ودّ الجميع.

² - Mohamed Ben Cheneb: «La vie civile à Alger», *La revue indigène*, n°17, 30 septembre 1907.

Voir aussi: Mohamed ben Cheneb: *Florilège*, Casbah éditions, Alger, 2007, p.p.278-300.

هم المفضّلون غالباً على الإناث، ووصف الطقوس التي تُصاحب الاحتفال بالمولود الجديد في اليوم السابع أو الرابع عشر، و'العقيقة' وفق السنّة النبوية، وما تحظى به الأم من هدايا¹.

وطرح 'ابن شنب' مسألة الالتزامات الناجمة عن الرابطة الزوجية وفق القرآن والسنّة، ويبيّن أنّ العلماء المسلمين اختلفوا حول مسألة واجب المرأة في القيام بمهام التدبير المنزلي، فهناك من فرض عليها هذه المهام؛ وبعضهم أسقطها عنها كليّةً، واستشهد رأي 'القرطبي' فقال: "لكن هناك الظروف المرتبطة بعادات أهل البلد الذي تتواجد فيه. وعموماً فالمرأة النبيلة أو التي تكون من فئة اجتماعية راقية، لا ينبغي أن تقوم بأيّ عمل، أما إذا كانت تنتمي إلى أسرة لديها هذه عادة العمل؛ فيجب عليها القيام بواجبها، وإذا كان وضع المرأة لا يؤخذ بعين الاعتبار؛ وجب عليها العمل إلى أن يثبت العكس"².

وأورد في هذه المسألة أيضاً رأي 'القاضي عياض'، الذي قال أنّه لا يجب أن نفرض على المرأة القيام بأعمال خارج بيتها، ما لم يكن ذلك بإرادتها الحرة؛ أي عن طيب خاطر، ومن باب حسن العشرة أو الرغبة في المساعدة، لا تجبر على ذلك، مثل أعمال المنزل من عجن وكنس... يعود إلى مكانة المرأة، فالنبيلة لا يكون لها إلا إعطاء الأوامر. بينما يرى عالم آخر أنّ المرأة النبيلة التي وقع زوجها في العوز؛ عليها القيام بمهام المنزل، مثل باقي النساء من الطبقة الدنيا.. كما ناقش 'ابن شنب' مسألة عمل المرأة في ضوء العديد من الآراء الفقهية، وخلص إلى أنّ المرأة إذا كانت نبيلة لا يجب عليها أداء أيّ مهام لزوجها، وإذا كانت غير ذلك عليها التواءم مع ممارسات أهل بلدها...³.

ولعلّ أهمّ ما كتبه 'ابن شنب' بخصوص المرأة؛ كان عن 'وضع المرأة من خلال

القرآن والسنّة' (De la condition de la femme d'après le coran et la)

¹ - Mohamed Ben Cheneb: «La vie civile à Alger», La revue indigène, n°19, 30 novembre 1907, n°21 janvier 1908.

² - Mohamed Ben Cheneb: «Du travail de la femme musulmane», La revue indigène, n°34, février 1909.

³ - Ibid.

1(souna)،¹ وقد اعتبر أن: "مسألة حقوق المرأة معقدة للغاية، ولن نتناولها إلى من وجهة نظر العلاقة بين الرجل والمرأة في الزواج، ونقتصر على رسم بسيط وسريع، وعلى تحديد أبرز الحقائق فقط"، فأورد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تخصّ مسائل الزواج وشروطه، والعلاقة بين الزوجين، كما طرح أحكام الطلاق والتطليق والخلع، وحقوق الحضانة، والحقوق المتعلقة بالميراث، والضوابط الشرعية التي تحكم شهادة المرأة.

بالعودة إلى مسألة تعليم المرأة الأهلية؛ فقد عرفت تطوراً طفيفاً في أديبات رواد الإصلاح مع بدايات القرن العشرين، حيث بدأ الحديث عن مرحلة 'تربية المرأة'، رغم أن المرحلة الأولى (تعليم البنات) لم يتحقق منها إلا القليل، بفعل السياسة الاستعمارية وعادات المجتمع آنذاك، ومن بين المنظرين لتربية المرأة المسلمة في الجزائر، محمد بن مصطفى بن الخوجة² المعروف بـ'مصطفى الكمال'، وهو واحد من النخب الجزائرية المزدوجة الثقافة، ومن أشدّ المدافعين عن حقوق المسلمين الجزائريين، وقد ركّز جهوده حول قضية التعليم، وكان من المطالبين بفتح المجال أمامهم لولوج المدرسة الفرنسية والحصول على تعليم لائق.

ظهر اهتمام ابن الخوجة بقضية المرأة بالتزامن مع ظهور كتاب 'تحرير المرأة' لقاسم أمين بمصر، وكذلك كتب بعض المستشرقين على غرار كتاب إرنست مرسييه: 'المرأة المسلمة في الشمال الإفريقي' سنة 1895م، وبعده كتابات 'الحياة المدنية الإسلامية في مدينة الجزائر ووضع المرأة طبقاً للقرآن والسنة وأعمال المرأة المسلمة' لمحمد بن أبي شنب كما ذكرنا، وربما يأتي كتاب 'الاكتراث في حقوق الإناث' ويليهِ: 'اللباب في أحكام الزينة والاحتجاب' في سياق تلك المؤلفات التي أصدرها ابن الخوجة، كردّ فعل على النقاش الدائر حول موضوع المرأة وإصلاحها في العالم العربي والإسلامي.²

¹ - Mohamed Ben Cheneb: «De la condition de la femme d'après le coran et la souna», la revue indigène, n°25 mai 1908, n°26, juin 1908.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.7، المرجع السابق، ص186.

في كتابه المذكور؛ تطرّق 'محمد بن الخوجة' إلى المسائل الفقهية والاجتماعية للمرأة المسلمة، ومع أنّ جلّ اهتمامه انصب على الجانب الشرعي بحكم تكوينه الديني، إلاّ أنّه عرّج على الكثير من المشاكل اليومية في حياة المرأة، ضمن السياق التاريخي والظروف التي كانت تعيش في ظلها. وكان لمسألة 'الجبر' (Le Djeb)؛ وهي حقّ الأب في تزويج بناته وهنّ صغيرات (الزواج المبكر)، نصيباً ضمن كتاب ابن الخوجة، قياساً على ما كانت تحظى به هذه المسألة من اهتمام من طرف المستشرقين شأنها العديد من القضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية للمسلمين وخاصة النساء، كالتجنّس وتعدّد الزوجات والحرامان من الميراث...¹، يقول ابن الخوجة: "ومن المسائل التي لا جبر فيها على المرأة، أنّها إذا كانت بالغة، لا تُجبر على النكاح ولو بكرًا، لانقطاع الولاية بالبلوغ عندنا. ولا ينبغي للأب أن يُزوِّج ابنته الشابة شيخًا كبيرًا ولا رجلاً ذميماً، ولا يجوز له أن يزوّجها لمن ساءت أخلاقه، أو ضعف دينه، أو قصر عن القيام بحقّها"².

وقد طرح وجهة نظره المتعلقة بمسألة اللباس الشرعي في الإسلام (الحجاب)، وخصّ بالحديث 'البرقع' فقال: "وكلّ من اطّلع على الكتب التاريخية يعلم أنّ التبرقع ليس من مخترعات الإسلام، فقد كانت نساء اليونان يستعملن البرقع إذا خرجن من بيوتهنّ كما هو الآن عند المسلمات، وعند غيرهنّ من النساء الشرقيات في الشام ومصر، ولا يخفى أنّ نساء قبائل البربر وغالب عرب البادية لا يسترن وجوههنّ عن الأجانب، ومع ذلك فهنّ لسن بخارجات بهذه العادة عن دائرة الدّين الإسلامي"³.

¹ - Voir : Feriel Lalami, Op.cit., p.17.

² - محمد بن مصطفى ابن الخوجة: الاكتراث في حقوق الإناث، تع. زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص52.

هذه المسائل نجدها طُرحت بكثرة في كتابات المستشرقين الفرنسيين الذين تناولوا موضوع العادات الاجتماعية والتقاليد الخاصة بالزواج والطلاق والخلع... في الجزائر مع نهاية القرن 19م (يُنظر الفصل الثاني من دراستنا هذه).

³ - ابن الخوجة، المصدر نفسه، ص ص148-149.

ثم تطرّق إلى مشكلة سوء أخلاق المرأة المتزوّجة الذي انجرّ عن الجهل: "...أنّ جلّ نساتنا يتناولن على رجالهن، ويكلنهم ما لا يُطاق من الإنفاق والتبذير، ومنهن من لا تُحيي زوجها ولا تُرحّب به ولا تبشّ (من البشاشة) في وجهه، بل تُعرض عنه ولا تُجيب نداءه ولا تمتثل أمره. و فيهنّ من تشتمه وتدعو عليه مُشافهةً، حتى اضطرّ بعضهم إلى تأديبهنّ بالضرب زيادة على بذل جهده من اللّعن والسبّ. و سبب ذلك كلّهُ هو جهلهنّ وجهل أزواجهن بعلم الدّين، المرادف للفظّة التمدّن عند غيرنا..."¹.

ويعقد مقارنة بين المرأة العربية ونظيرتها في الغرب، بخصوص حسن معاملة الزوج، مُعتبراً أنّ تعلّمهن هو علّة ذلك: "وبعكس ما ذكرناه نساء الإفرنج، فإنّ غالبهنّ لا ينهجن مع بعولتهنّ ذلك النهج، وما ذاك إلّا لتغذيتهنّ بلبان المعارف؛ التّالذ (القديم) منها والطّارف، ولا غرو، فالعلم أكمل مذهب وأحلّ مؤدّب، وهو مقومّ نفوس الأمم، ومعدّل الطّباع والشّيم. وأنّى لنساتنا مجاراتهنّ في ميدان، أو الموازنة معهن. بميزان، وقد بلغن في الجهل الغاية القصيا (كذا)، وركبن في هضم حقوق أزواجهن متن عميا"².

فيما يتعلّق بحريّة المرأة، اعتبر ابن الخوجة "أنّ الشّرع الإسلامي أعلن حريّتها وحوّلها حقوق الإنسان، واعتبر لها كفاءةً لا تنقص عن كفاءة الرّجل في جميع الأحوال المدنيّة، من بيع وشراءٍ ورهنٍ وإجازة وهبة ووقف ووصية، من غير أن يتوقّف تصرفها فيما ذُكر على إذن أبيها أو زوجها"³.

¹ - المصدر نفسه، ص 80.

² - نفسه، ص 81.

³ - محمد بن مصطفى ابن الخوجة: اللّباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب، دار ابن حزم، لبنان، 2005، ص 157.

نجد هنا إشارة ضمنية من الكاتب إلى القانون الفرنسي الذي كان لا يخوّل للمرأة في ذلك الوقت؛ الحرية الماليّة، ولا حقّ التصرف في ممتلكاتها، ويجعلها تابعة لزوجها، ولم يتمّ إلغاء هذا الأمر إلّا في سنة 1938م.

1-2- عمر بن قدّور الجزائري: محاربة الخرافات وتعليم البنات:

كان فكر الشيخ 'عمر بن قدّور الجزائري'¹ أكثر تقدّمية مقارنة بمن سبقه من رجال الإصلاح، وبالتّظر إلى التّدني الرهيب في المستوى الثقافي والأخلاقي الذي وصلت إليه البنت الجزائرية، فقد ألحّ الرجل على تعليم الأطفال دون الحاجة إلى التفريق بين الذكور والإناث، وهو الذي كان مُعاشياً للواقع الجزائري آنذاك، حيث استشرى الجهل والامية في أوساط البنين والبنات، وعمّ الدجل والخرافات والإيمان بالغيبات، ووصول المستوى الثقافي لعموم الجزائريين إلى الحضيض، في غياب مؤسسات التعليم، وانشغال العالم بالحرب.

وضع 'عمر بن قدّور' مسألة المرأة في سياق مشروعه التنويري كرهان للنهوض بالمجتمع الجزائري، واعتبر التأخّر الحضاري الحاصل عند المجتمع المسلم مقارنة بالمجتمعات الغربية؛ أحد أسبابه حرمان النساء من التعليم، ففي سنة 1912م كتب مقالاً في جريدة 'الأخبار' بعنوان: 'احتكارهم واحتكارنا' ومن بين ما ذكر فيه: "الخلل موجود في الحركة التهذيبيّة عند الشرقيين (...). وأظهرُ وجوه هذا الخلل اثنان؛ أوّلهما حرمان المرأة من التّغذيّ

¹ - يُعتبر من روّاد مدرسة الإصلاح الإسلامي المتأثرين فكرياً بالشيخ محمد عبده، ومجلّة 'المنار' لرشيد رضا، فقد أراد أن يُقلّده في محاربة البدع والخرافات عن طريق نشر الوعي والإصلاح الدينيين بواسطة الصحافة، ولعلّ ذلك ما دفعه إلى إنشاء أهمّ صحيفة عربية إسلامية في الجزائر، مثلت الانطلاقة الحقيقية في الاتجاه الوطني هي جريدة اختار لها اسم 'الفاروق'، وهي أوّل جريدة وطنية ترتقي إلى مصاف الجرائد العربية المعتبرة، اهتمّت بقضايا المسلمين الجزائريين، وحلّلت واقعهم المرّ، وركّزت بصورة خاصة على أحداث تركيا العثمانية ناصحةً ومُحلّلة لأوضاع المسلمين السائدة في ذلك الوقت. وقد جاء في افتتاحيتها أنّها "جريدة إسلامية بكلّ معاني الكلمة، تبحث في شؤون المسلمين مع مراعاة الاعتدال الذي اختارته مشرباً لها". للمزيد يُنظر: محمد بن صالح ناصر: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ط.2، ألفا ديزاين، الجزائر، 2006، ص33.

بألبان المعارف، والثاني قَصَرَ تعلّم الرجال على قواعد اللّغات، فبقي نصف الشرق بهذه الطريقة في ظلام دامس، والنصف الآخر قليل النور"¹.

لقد ربط 'عمر بن قنبر' تخلف الأمة بجهل المرأة، وهو نتيجة طبيعية وحتمية لأجيال من الأبناء يتربّون ويكبرون في حجر أمّهات جاهلات، فقال: "لو قيّض الله للمسلمين أن يُدركوا حقائق الأسباب التي منعتهم من النهوض إلى تنمية حياتهم، وحفظ حيّزهم القومي من أدواء الاضمحلال؛ لعثروا بجهل المرأة يقرض عروة الجامعة كالجرذ، ويقطع ظهر الملة كالسيّف، وإنه جالب الخزي والوبال والمحبط لأعمال الرجال"²، ويبيّن خطورة المرأة الجاهلة على المجتمع: "إنّ النساء يلعبن بجهلهن دوراً مهماً في دسّ السم في الدسم، وبأيديهن مفاتيح أقفال جيوب الرجال ومداركهم، وقد استأنس الرجال بما يكذّن به، وظنّوا ذلك لبّ الدّين ومختار اليقين، وحسن ما يأتي به الاجتماع للناس أجمعين. إنّما بين الجدران أخطار مُهلكة فاق شرّها شرّاً ما بين الضّلوع، وعظّم ويلها على الجل والمجموع، واحتوى كيدها على منع المباح وتناول الممنوع"³.

ويقدم عمر بن قنبر البديل للمسلمين المتوجّسين من تعليم المرأة المسلمة فيقول: "لاشكّ أنّ المسلمين يُنكرون المنفعة العامة التي تعود على الجماعة من تعليم المرأة؛ فصاروا يعدّون ذلك بهتاناً عظيماً وفسقاً لا يُغتفر إنّمه، ولا تمحّي خطيئته، وقد تُخيّل لهم أنّ ما وراء ذلك خرقاً للناموس وخروجاً عن الآداب القومية وتمزيقاً للشعائر القومية، وإنّهم لصادقون لو كان التعليم موقوفاً على التّظام الأجنبي الطارئ، ولكننا نقول لهم ابعثوا في المرأة المسلمة

¹ - جريدة الأخبار، 8 نوفمبر 1912. نقلا عن: ساحل عبد الحميد: الفكر الإصلاحى لعمر بن قنبر الجزائري: دراسة تحليلية لمقالاته الصحفية 1906-1927، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر، 3، 2011/2012، ص317.

² - عمر بن قنبر: "بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة نال الشعب من كوارث البدع ما ناله"، الفاروق، ع.38، 28 نوفمبر 1913.

³ - المصدر نفسه.

روح الآداب الدينية، ثم انظروا معنا إن كان في جهلها نفعٌ أو أن جهلها خطرٌ عليكم ووبالٌ على الجامعة مهين". كما ثار ضد جهل المرأة في ذلك الوقت، ودعا إلى ضرورة النهوض بها: "لما كانت المرأة المسلمة لسوء الحظ جاهلة؛ أخرجت شقياً كسولاً، وأنبتت نباتاً خبيثاً، تهيب المرأة المسلمة أفكار أبنائها إلى التواكل والخمول والتكاسل والجمود...¹".

وبين ما يرجع به تعلم المرأة على الأسرة والأولاد، ودور العلم في محاربة العادات المقيتة والجهل المستشري في المجتمع بقوله: "لو كانت المرأة متعلمة متشعبة بروح الإسلام الحقيقية؛ لأنفت همتها أن تخضع لخزعبلات النصابين والنصابات والدجالين والدجالات، والسحارين والساحرات"².

بعد الحرب العالمية الأولى أطلق عمر بن قدير الدعوة مجدداً لتعليم البنات؛ فمن خلال مقال له في السلسلة الثانية من 'الفاروق' سنة 1920م³ تحت عنوان: 'كوارث الفوضى الدينية والأخلاقية'؛ أعاد طرح مأساة أمية المرأة وضرورة تعليمها، بنفس صيغة المقال الأول الذي صدر في 1913م، وعبر جريدة 'الإقدام' يعيد في عام 1922م نشر أحد نصوصه السابقة تحت عنوان: 'نحو المستقبل' حول ذات الموضوع⁴.

ولم تذهب جهود الرجل سدى، فقد ترجم أفكاره الإصلاحية على الأرض الواقع؛ بتأسيس 'مدرسة الشبيبة الإسلامية الجزائرية'⁵، وكان مدير لها وأستاذ بها، يطمح إلى

¹ - المصدر نفسه.

² - نفسه.

³ - 'الفاروق'، 10 ديسمبر 1920، نقلا عن: ساحل عبد الحميد، المرجع السابق، ص321.

⁴ - 'الإقدام'، 8 سبتمبر 1922، نقلا عن: ساحل عبد الحميد، المرجع السابق، ص321.

⁵ - تُشير تقارير الشرطة الفرنسية إلى استمرار نشاط 'جمعية الشبيبة الإسلامية' في الثلاثينيات حيث ظهر دور الشيخ الطيب العقبي، الذي كان لا يفوت فرصة حضور مختلف التظاهرات التي تنظمها هذه الجمعية في المناسبات الدينية، ويلقي خطباً تحث على التعلم وتشجع على الاهتمام بالقرآن واللغة العربية. وكان يقوم على تأطير التلاميذ والتلميذات محمد العيد آل خليفة، واللافت أن إحدى التلميذات ذكرت أن النساء باستطاعتهم تلقي التعليم مثلهم =

تحويلها إلى مدرسة كبرى تستوعب عدداً كبيراً من البنين والبنات، ومن الثمرات الأولى لهذه الجهود؛ بروز بنات جزائريات متمكّنات من القرآن، يؤدّين تمثيلات مسرحية قصيرة بلغة عربية سليمة، وبقي الرجل عاملاً بهذه المدرسة إلى غاية وفاته سنة 1932م¹.

لقد اتفق روّاد الإصلاح على أنّ غياب تعليم المرأة وتهذيبها هو علةّ الأدواء التي أصابت المجتمع الجزائري، ولو أنّ بعضهم لم يُعلن عداؤه للسياسة الفرنسية التجهيلية صراحةً؛ من باب الحيلة والحذر، أو تملّقاً للفرنسيين وطمعاً في كسب ودّهم.

1-3- تربية البنات وتهذيب النساء أساس الإصلاح عند العلماء:

أصبحت قضايا المرأة المسلمة في الجزائر أكثر حضوراً في الخطاب الإصلاحي الجزائري انطلاقاً من سنة 1930م؛ ذلك أنّ هذا التاريخ سجّل بالفعل بداية الاستفاقة العامة للرأي العام الإسلامي، كما ساهمت التظاهرات الرّسمية العديدة التي جرت بمناسبة الاحتفال بالمئوية، في حمل الجزائريين على العناية بأوضاعهم²، ودفعت العلماء إلى دقّ ناقوس الخطر الذي بات يهدّد كيان المجتمع الجزائري؛ بسبب الأميّة التي استشرت والجهل الذي عمّ ربوع الجزائر، فكان لا بدّ من إطلاق المشروع الإصلاحي.

بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الخامس من شهر ماي عام 1931م، عمل رجالها على تحقيق أسباب النهوض بالمجتمع الجزائري؛ للخروج به من حالة التخلف الفكري والتدنّي الأخلاقي، وكانت الحالة السيئة للمرأة واضحة للعيان، فأخذت

=مثل الرجال، كما حضر إحدى هذه الحفلات الشيخ عبد الحميد ابن باديس؛ بتاريخ 15 جويلية 1934م، وقد ألقى كلمة ذكر فيها بالماضي المجيد للإسلام وعهد النبوة، ويّين مزايا تعليم الرجال والنساء من الجيل الحالي. يُنظر: ANOM, 2 I 44: Police Spéciale départementale d'Alger: Association Ech-Chabiba Islamia, Rapport, 16 Juillet 1934.

¹ - عبد الحميد ساحل، المرجع السابق، 321.

² - علي مراد: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940: بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر. محمد بيجاتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007، ص 384 وما بعدها.

جمعية العلماء على عاتقها مسؤولية الخروج بها إلى النور؛ لما كان يراه زعماءها من أثر للمرأة في النهوض الحضاري وتكوين أجيال قادرة على مواجهة الغزو الأجنبي بجميع صورته وأشكاله. "إنّ البحث عن إيجاد حلول لقضايا المرأة في فكر العلماء، لم يكن من قبيل الترف الفكري، وإنّما كان لعلاج ظاهرة خطيرة أوجدها المستعمر الفرنسي، وكرّسها الجهل عند الآباء بحقيقة المرأة ومكانتها في الإسلام"¹.

لقد أولى العلماء أهمية بالغة لتعليم الفرد، لكنّ قناعتهم كانت راسخة بأنّ تعليم الفتاة هو أساس لصالح المجتمع ونهوض الأمة؛ فالشيخ 'عبد الحميد ابن باديس' كان يقول: "إذا علّمت ولدا فقد علّمت فردا، و إذا علّمت فتاة فقد علّمت أمة". وقد اضطلع بنفسه بهذه المهمة في الميدان بتخصيصه درسا يوم الجمعة من كل أسبوع، يلتقي فيه بالنساء اقتداء بالرسول الكريم (محمد عليه الصلاة والسلام)، يعظهنّ و يُعلّمهنّ، وكان يستغلّ المناسبات الدينية ليلقي خطاباً مخصّصاً للنساء، مثلما فعل في حفل أقيم بقسنطينة بمناسبة المولد النبوي الشريف، أمام جمع غفير من النساء والفتيات، حيث وجّه كلمته لهنّ قائلا: "إنّ المجتمع كالطائرة، لا تطير إلّا بجناحين، والمجتمع لا ينهض إلّا بالجنسين معاً؛ الرجل والمرأة"².

وتشير تقارير للشرطة الفرنسية؛ صدرت قبيل وفاة الشيخ ابن باديس بأشهر قليلة؛ إلى أنّ الرجل كان يخصّص محاضرات ودروس وعظ وإرشاد للنساء يوم الأربعاء بعد الزوال من كلّ أسبوع بصفة منتظمة بالجامع الأخضر بقسنطينة، وكانت النسوة يحضرن برفقة أزواجهنّ أو آبائهنّ، وقدّرت عدد المستمعات بين 100 و 120، والمحاضرة تدور حول

¹ - حجية شيدخ: "المرأة في آثار محمد البشير الإبراهيمي"، مجلة الوعي، ع.2، 1431هـ/ نوفمبر 2010، دار الوعي، الجزائر، ص 63.

² - إيمان محمد علي نونو: "دور زعماء الإصلاح تجاه المرأة في الجزائر في العصر الحديث"، دورية كان التاريخية، ع.12، جوان 2011، ص 98-100.

موضوع الأخلاق أو التربية الدينية، ومنذ افتتاح دروسه يتحدث ابن باديس عن المرأة كزوجة و أمّ وربة بيت، ويعطي المثال بنساء الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته¹.

وكان ابن باديس قد ردّ على أعداء الحجاب ودعاة السفور فقال: "إذا أردتم إصلاح المرأة الحقيقي، فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإنّ حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنّه ما ضرّها في تقدّمها. فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكاناً في العلم وهنّ متحجّبات"². وكان الرجل من دعاة تعليم البنات المتحمّسين، لكن بشرط أن يكون هذا التعليم في إطار دائرة المثل الدينية والمبادئ القومية والأخلاق والحشمة³.

واهتمّ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بموضوع تعليم المرأة، ولم يكن خطابه موجّهاً إلى الجزائريين فحسب، بل لجميع المسلمين؛ لأنّه تنقل عبر بلاد الإسلام، ولاحظ ما كان عليه حال المرأة، وقد كتب ا أرجوزة أرسلها إلى أحد علماء نجد؛ مُستنهضاً همهم لتعليم المرأة والخروج بها من التخلف إلى التّور، كان عنوانها: 'تعليم البنت' جاء فيها⁴:

وانظُرْ هَدَاكَ اللهُ مَاذَا يُنْتَظَرُ *** من أُمَّةٍ قَدْ شُلَّ نِصْفُهَا الحَدِرُ
وانظُرْ فقد يَهْدِيكَ لِلخَيْرِ النَّظَرُ *** وخذ من الدَّهْرِ تَجَارِيِبَ العِبَرِ
هل أُمَّةٌ مِنَ الجَمَاهِيرِ الكُبَرِ *** فِيمَا مَضَى مِنَ القُرُونِ وَحَضَرَ
حَطَّتْ مِنَ المجدِّ وَمِنْ حُسْنِ السَّيْرِ *** تَارِيحُهَا إِلَّا بَأُنْثَى وَذَكَرُ؟
وَمَنْ يَقُلْ فِي عِلْمِهَا غِيٌّ وَشَرٌّ *** فقلْ لَهُ هِيَ مَعَ الجَهْلِ أَشَرُّ

¹ - يُنظر الملحق رقم: 03.

² - عمار الطالبي: آثار...، ج.3، المصدر السابق، صص 464-465.

³ - الشهاب، مج.5، ج.10، عدد شهر نوفمبر 1929، ص14.

⁴ - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي ج.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

1997، صص 131-134.

لقد تصدّى 'محمد البشير الإبراهيمي' بقلمه للحملة التي انتقدت تعليم العلماء البنات وكشف هدفها: "إن الاستعمار متشائم بتعليمها (الجمعية) للبنات المسلمة؛ لأنّ نتيجته ستكون بنت صالحة، تصبح غداً زوجة صالحة، وبعد غدٍ أمّاً صالحة، وهاله أن تعمّر البيوت بالصالحات، فيلدن جيلاً صالحاً، صحيح العقائد، متين الإيمان، قويم الأخلاق طموحاً في الحياة، فتطول به غصته ثم تنتهي به قصته (...). لأنّ الاستعمار بعيد النظر، عارفاً بما للمرأة في أمّتها من الأثر؛ فهو- لذلك- حرّكهم وما زال يحركهم لإثارة هذا الغبار الأسود في وجه جمعية العلماء لزعزعة ثقة الأمّة بالجمعية في خصوص تعليم البنات"¹. ويبدو أنّ سعيه كان حثيثاً في تعليم البنات، خاصة خلال تواجده بمدينة تلمسان، حيث نقرأ في مراسلة مفتش مصلحة الاستعلامات العامة إلى محافظ الشرطة الرئيسي بوهران عن نشاط الإصلاحيين: "بطلب من الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، جرى تجمع ضمّ 600 امرأة من الإصلاحيين، يوم 28 من الشهر الجاري على الساعة الثالثة مساءً (15 h). بمدرسة دار الحديث، حيث تكلم الشيخ في مكبر صوت داخل غرفة مغلقة، وطلب من مستمعاته إيلاء عناية أكبر بأطفالهم الذين يرتادون المدرسة"².

كما عبّر الشيخ الطيّب العقبي عن رأيه؛ بضرورة تعليم وتربية المرأة في إطار التقليد الإسلامي. وجاءت دعوته إلى تعليم الفتاة مبكّرة وجريئة قياساً إلى السياق الذي ظهرت فيه، وانتقد الآباء على عدم تعليم بناتهم، ويبيّن أنّ ذلك يعود على الأسرة بال وبال؛ فقال³:

ما حياة المرء مع *** زوج له ليست أدبية
غير سجن أبدي *** عظمت فيه المصيبة

¹ - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج.2، المصدر السابق، ص ص21-22.

² - MECUDAD (Inspecteur principal chef du poste de la P.R.G. Tlemcen): «Activité des réformistes», N°822, Renseignement Généraux, Tlemcen 28 décembre 1944.

³ - الطيب العقبي: "يقولون وأقول"، الشهاب، ع.17، 4 مارس 1926م.

أما الشيخ 'أبو يعلى الزواوي' فقد ترك عدّة مؤلفات¹ وكتب العديد من المقالات في الجرائد العربية؛ وألقى محاضرات حول 'المرأة المسلمة' وقضاياها في مناسبات مختلفة، كما كان يوقّع الكثير من المقالات في الجرائد الإصلاحية، وطرح مسائل تتعلّق بالمرأة؛ في مقدّمتها مسألة الحجاب والسّفور وتعدّد الزوجات، حيث أثارت آراءه المتساهلة أحياناً؛ ضجّة في أوساط النخبة الإصلاحية، والصحافة العربية بالجزائر².

عالج الزواوي مسألة تعدّد الزوجات، وقال فيها أنّ التعدّد أمرٌ طبيعيٌّ لكثرة عدد النساء مقارنة بالرجال؛ فهو ضرورة اجتماعية، فضلاً عن كونها رخصة إلهية: "ثم لما كان تعدّد الزوجات أمراً اجتماعياً مدنياً أيضاً صالحاً للدنيا والدين، لا ينبغي أن يُنكر، وما ينكره إلا قصيرو العقل قليلو النظر، فإنّ إنكارهم هذا الحكم المقيد في الإسلام هو مثل إنكارهم تحريم الخمر وجواز الطلاق"³. وعن ظاهرة غلاء المهور في المجتمع الجزائري نقرأ نقداً لاذعاً من طرف أحد العلماء للآباء: "شرطاً مشروطاً لا صداق معقولاً.. وإلا عضلوهن وإن طالت السنون؛ طوعاً لإرادتهم الخسيسية، وإجحافاً بحقوق بناتهم عليهم، وخروجاً عن واجب الرعاية"⁴.

لقد كانت مسألة تعليم البنات في طليعة اهتمامات رجال جمعية العلماء؛ لذلك بقيت هذه القضية أساسية في أديباتهم، فالتعليم مُبتدأ كلِّ إصلاح وقاعدة لكلِّ تغيير لصالح المرأة الجزائرية. ولم تخرج إستراتيجية العلماء في إصلاح وضع المرأة بالجزائر عن المبادئ

¹ - من بينها: 'تاريخ زواوة' و 'جماعة المسلمين' و 'فصول في الإصلاح' و 'الإسلام الصحيح'، ولعلّ أهمّها بالنسبة لبحثنا كتابه المخطوط الذي ألفه بدمشق: 'مرآة المرأة المسلمة'.

² - يُنظر: أبو يعلى الزواوي: 'المرأة المسلمة في الجزائر'، الشهاب، ج.9، جمادى الأولى 1348هـ.

³ - أبو يعلى الزواوي: 'سر تعدد الزوجات في الإسلام'، الشهاب، ج.5، محرم 1350هـ.

⁴ - إبراهيم أبو حميدة: 'الأمّة عليّة وأخطر أدوائها الزنا، فمن لنا بالدواء الناجع'، الأسبوع، 26 ديسمبر 1949، ص03. نقلا عن: براهيم بلوزاع: نظرة على الجزائر بين 1947 و 1962 من خلال كتابات الجزائريين في الصحافة التونسية (الزهرة، الأسبوع، الصباح: نموذجاً)، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2015، ص46.

العامة التي رسموها للجمعية، فالإصلاح الاجتماعي الذي لا يخرج بأي حال من الأحوال عن أصول الدين الإسلامي والشّرع الحنيف، والعمل الهادئ والجذري دون إثارة انتباه الإدارة الاستعمارية، وبذر بذرة الإصلاح في المجتمع عن طريق المرأة، هي أحد الأسس الذي قامت عليها الفلسفة الإصلاحية للعلماء.

ومن بين رجال جمعية العلماء الذي فكّر في مسألة المساواة بين الجنسين تفكيراً عصرياً؛ 'محمد الأمين العمودي'، عندما أكّد على المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق المدنية والمعنوية، كأصل عام قرّره الشريعة الإسلامية، لكنّه كيّف هذا الأصل على المستوى الواقعي، بإيراد جملة من الضوابط نابعة من الحياة الجديدة التي أملاها الوجود الفرنسي في الجزائر، فحصول الفتاة الجزائرية على الشهادات العليا، شأنها شأن الرجل، وشغلها وظائف إدارية ومهنية وعلمية وحتى سياسية مثل الرجل؛ يتطلّب منها التّخلي عن نظام أحوالها الشخصية الإسلامي، وهذا ما لم يكن يتصوّره المجتمع الجزائري في ذلك الوقت¹.

ومن الشواهد على اهتمام رجال ونساء جمعية العلماء بتعليم المرأة؛ إعلان الشيخ 'أحمد حمّاني' عن افتتاح قسمين لتعليم التدبير المنزلي ضمن نشاط 'جمعية التربية والتعليم'، أما الشيخ 'أحمد حسين' الأستاذ بمعهد ابن باديس؛ فبيّن "أنّ هذا النوع من التعليم سوف يجنّب النساء المسلمات أن يكنّ خادّات أو محظيات". وفي شهر جويلية 1954م أمام 170 من أمّهات تلاميذ 'مدرسة التربية والتعليم' بمستعّام، تحدّثت المعلّمة بالمدرسة الآنسة 'بن عمور مليكة' (Benameur Malika)، وذكرت كمثال المرأة الفرنسية؛ لتبيّن لمستمعاتها فائدة تعليم المرأة².

¹ - نور الدين ثنيو: "المرأة في الخطاب الإصلاحي خلال الثلاثينيات"، (المؤتمر العالمي السابع عشر لمنتدى الفكر المعاصر حول دور المغاربة في حركة تحرير وبناء الدولة)، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، ماي 2007، ص110.

² - ANOM, 81 F 1218: L'émancipation de la femme musulmane, Aout 1954.

1-4- مشكلة المرأة عند مالك بن نبي:

أطلق 'مالك بن نبي' على قضية المرأة في كتابه 'شروط النهضة' اصطلاحاً: 'مشكلة المرأة'، وذلك انسجاماً مع منظومته الفكرية التي تدور حول مشكلات الحضارة عموماً، وللتدليل على مقدار التضخيم الذي كان من نصيب موضوع المرأة في العالم الإسلامي، سواء من أنصار التحرر بالمفهوم الغربي؛ الذي يصل بالمرأة إلى درجة التحلل، أم من أنصار التزمّت الذي يُغلق بصره أمام حقائق الإسلام.

ويقترح عقد مؤتمر يحضره الفقهاء والمفكرون والأطباء وعلماء النفس وعلماء الاجتماع، لبحث هذه القضية، فالدوافع النفسية للتيار الذي يدعو إلى 'تحرير المرأة' وإخراجها في زينة فاتنة، ظاهرة يمكن التعرف عليها بسهولة؛ إذ في ذلك ما يوقظ غرائزهم أو يُرضي شهواتهم، وفي الوقت نفسه فموقف الداعين إلى إبعاد المرأة عن المجتمع وإبقائها في سجنها التقليدي؛ ليس لتفكيرهم مبرر منطقي إلى ما يتعلّلون به من الرجولة والحفاظ على الأخلاق، الذي يختفي وراءه مغزى التمسك بالأنثى 'فالغريزة هنا تكلمت بلسان آخر'¹.

اعتبر مالك بن نبي، أنّه ليس هناك مشكلة للمرأة معزولة عن مشكلة الرجل، فالمشكلة واحدة؛ هي مشكلة الفرد في المجتمع، فقد حاول الكثيرون بوحى من الفكر العربي التجزيئي، النظر إلى قضية المرأة كقضية مستقلة، ومن ثمّ خلقوا معركة مفتعلة بين أفراد المجتمع الواحد، ووضعوا المرأة في مواجهة الرجل، وهذه قمة التجزيئية وتشويه حقيقة الصراع الحضاري؛ لأنّه يضع الزوجة في مواجهة الزوج، وال بنت في مواجهة الأب والأخت في مواجهة الأخ وهلمّ جرّاً².

¹ - عمار قاسمي: "رؤية مالك بن نبي لمشكلة المرأة"، مجلة دراسات وأبحاث، مج. 07، ع. 18، مارس 2015، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، ص. 131-145.

² - إدريس الكنبوري: المرأة في فكر مالك بن نبي. يُنظر: تاريخ الاطلاع: 2015/04/12، سا: 17:30.

<http://www.islamweb.net/ahajj/index.php?page=article&lang=A&id=33292>

وربط بين زيّ المرأة والدور الذي تمثله داخل المجتمع: "كانت المرأة الأوربية إلى عهدٍ قريب تلبس اللباس اللطيف (الدانتيل) (...). فكانت بلباسها هذا خيرٌ مثال للرقّة والأدب في المجتمع، إذ كانت السيّدة الجديرة بكل احترام (...). غير أنّها أصبحت اليوم تلبس اللباس الفتان المثير، الذي لا يكشف عن معنى الأنوثة؛ بل عن عورة الأنثى". وبالمقابل: "نجد امرأتنا المسلمة تلبس (الملاية)، فتسرف في ستر جسدها بشكلٍ شاذٍّ في بعض أنحاء بلادنا، مُعبّرةً عمّا يطبع مجتمعاتنا من الميل إلى الرّكود والتّخلف، وهي من ناحية أخرى تعبّر عمّا يُراود نفوسنا أحياناً من رياء أو نفاق". وتوصّل ابن نبي إلى أنّ المرأة، ضاعت في كلتا الحالتين بين الإفراط والتفريط، وكان من الواجب أن توضع المرأة حيث تؤدّي دورها الحضاري والأخلاقي أمّا وزوجة¹.

يرى مالك ابن نبي أنّه إذا كانت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية قد دفعت بالمرأة إلى عالم الشّغل والمصنع والخروج من البيت؛ فينبغي: "أن تُوضع أزمة العاملة الأوربية في نظر الاعتبار، فقد كانت المرأة في أوروبا ضحية هذا الخروج؛ لأن المجتمع الذي حرّرها قذف بها إلى المصنع وإلى المكتب، وقال 'عليك أن تأكلي من عرق جبينك'، في بيئة مليئة بالأخطار على أخلاقها، وتركها في حرية مشوّمة، ليس لها ولا للمجتمع فيها نفع، ففقدت - وهي مخزن العواطف الإنسانية - الشّعور بالعاطفة نحو الأسرة، وأصبحت بما ألقى عليها من متاعب العمل صورة مشوّهة للرجل دون أن تبقى امرأة"².

بخصوص تأثر المرأة المسلمة بالمرأة الأوربية، يرى مالك ابن نبي أنّ تقليد المرأة الشرقية المسلمة للمرأة الأوربية لا يحلّ المشكلة، وإنّما يزيد من تعقيدها بعد أن كانت بسيطة؛ فقد كتب بهذا الشأن: "... لكننا بشيءٍ من النّظر نرى أنّ انتقالنا بالمرأة من امرأة

¹ - مالك بن نبي: شروط النهضة، تر. عمر كامل مسقاوي؛ عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص 117-118.

² - المصدر نفسه، ص 119.

مُتَحَجِّبَةً إلى امرأة سافرة لم يحل المشكلة، فهي لا تزال قائمة، وكلّ الذي فعلناه أننا نقلنا المرأة من حالة إلى حالة، وسنرى عما قريب أنّ انتقالها هذا عقّد المشكلة بعد أن كانت بسيطة، فليست حالة المرأة الأوربية والتي تُحسد عليها، فظهور المرأة الأوربية في مظهر لا يُخاطب في نفس الفرد إلا غريزته أثار أخطاراً جديدة، كُنّا نودّ أن يكون المجتمع بمنجاةٍ منها، فمشكلة التّسل وصلت في البلاد الأوربية إلى حالة تدعو أحياناً إلى الرّثاء¹.

ويدقّ ناقوس الخطر؛ بسبب غياب المرأة الجزائرية عن التفاعل الاجتماعي، وعدم وعيها بالأحداث الجارية حولها وتطوّراتها وتحليلها عن لعب دورها داخل المجتمع الذي تعيش فيه؛ فكلّ هذا يؤدي إلى أن تدع المجال لامرأة أخرى، هي الأجنبية حتمًا: "إننا نرى الآن 'موضة' التزوّج بالأجنبيات تنمو عند شبابنا، وهي نتيجة تباعد المرأة العربية عن المجتمع. لقد بدأت الأجنبية تضع طابعها في حياتنا فعلاً (...). وإنّ المرأة الأوربية قد أصبحت اليوم في الجزائر، تقود خيال شبابنا الشّعري، واتجاهاته في ذوق الجمال، بل وربّما في مثله الأخلاقية..."².

نلمس حماسة مواقف 'مالك بن نبي' بخصوص 'مشكلة المرأة' في نهاية الأربعينيات من خلال المقالات التي كتبها في جريدة 'الجمهورية الجزائرية' عام 1948م³، أين وضّح العلاقة العضوية بين الجنسين، والاختلافات الفيزيولوجية بينهما، التي تجعل أحدهما عاجز عن أداء مهام الآخر، مع أنّه أكّد أنّ المشكلة همّ الرجل كما همّ المرأة، وحين الحديث عن الرجل والمرأة؛ فإنّه لا يتحدّث عن كائنين مختلفين لكن عن كائن واحد؛ لهذا لا يجب طرح مسألة أيّهما 'دوني' أو 'أعلى' أو 'متساوٍ' بالنسبة للآخر.

¹ - المصدر نفسه، ص 117.

² - نفسه، ص 120.

³ - Voir: Malek Bennabi: «Le problème de la femme en Algérie», La république algérienne, 9 septembre 1948.

Voir aussi: Malek Bennabi: «Le problème de la femme musulmane», La république algérienne, 17 septembre 1948.

لقد طرح الرجل 'مشكلة المرأة' ودعا إلى تحريرها؛ لكن في الوقت نفسه حاول كبح تلك الخطابات الجريئة بخصوص هذه المسألة، وبيّن الاختلاف العضوي بين وضع المرأة في تركيا أو مصر التي حققت تقدماً واضحاً في المطالبة بحقوقها، وبين وضع المرأة الجزائرية حينذاك، كما طلب بالفصل في مسألة 'تعدد الزوجات' أو الاكتفاء بزوجة واحدة؛ بالنظر أولاً إلى عدد النساء المتزايد (عقب الحرب العالمية الثانية) مع العواقب الاجتماعية الناجمة عن ذلك، على الصعيدين الديموغرافي والأخلاقي للجزائر¹.

وبحسب مالك بن نبي فإنّ المسألة لا تُطرح على النساء بل تُطرح على الحضارة، وتساءل عن التحرّر في أي اتجاه يكون؟ وعن المرأة التي ترغب في نزع الحجاب، والتدخين، الانتخاب، والذهاب إلى السينما والتعلّم. هل هذا جيّد بالنسبة للحضارة؟ لقد نبّهنا بن نبي إلى التزعة التجريبية التي تفضي إلى حتمية قبول الأمر الواقع؛ 'لأنّ مجتمعنا ليس له الأحكام المسبقة فقط ولكن تجاربه أيضاً'، ووضع المرأة الجزائرية بالتالي يجب أن يخضع للمتطلبات المجتمعية قبل النظر إلى وضع المرأة الأوربية².

وناقش المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية للمرأة، وقضية تعليم البنات؛ وقد اعتبر حرمان الآباء بناتهم من مواصلة تعليمهنّ عند سنّ محدّدة؛ مشكلة نفسية بالدرجة الأولى؛ يمكن الحدّ نسبياً منها، من خلال دور المجتمع في تحدّي هذه الصعوبات النفسية في مجال التعليم كما هو الحال في مجالات أخرى تتعلق بالمرأة"، فيجب النضال ضد العادات البالية التي تركت النساء في الجهل³. وتبّه إلى خطورة غياب أو تغييب المرأة عن أداء دورها الاجتماعي، ما يجعل الشباب الجزائري يقع دون وعي تحت تأثير شاعرية وجمالية وحتى أخلاقية المرأة الأوربية؛ هذه الأخيرة التي تلعب هذا الدور لأنّ المرأة المسلمة غائبة عن الحياة

¹ - Nora Amira: «Le point de vue de Malek Bennabi Sur les femmes», *NAQD*, N°11, 1998/1, p.p.69-83. Voir: <https://www.cairn.info/revue-naqd-1998-1-page-69.htm>
Consulté le 05/05/2020 à 12:08.

² - Ibid., p.71.

³ - Ibid., p.75.

الجزائرية. لكنه تساءل في إطار أخلاقي وجمالي كيف يمكن أن تلعب المرأة المسلمة هذا الدور؟ وهذا هو جوهر مشكلة تحرير المرأة¹.

وإزاء تحرّر النساء الأوربيات؛ اعتبر 'مالك بن نبي' أنّ ذلك يتعارض مع الطبيعة البشرية، وسيؤدّي إلى الانحراف الكلّي؛ لأنّهن سيصبحن رجال، وهذا ضد الطبيعة، وأيضا لن يحترمن الرجال، وتحريرهنّ سيحيلهنّ إلى عقيمات.. يجب أن ننظر إلى حالة النساء في أوروبا؛ فمن الواضح أنّ تحرير النساء هو قتلُهنّ، وهل في الجزائر من يُحرّض على هذه المذبحة؟ يقول: "المرأة الأوربية فقدت فكرة المنزل والعائلة، إنّها تحصل على خبزها في الاختلاط ومن وحدتها واستقلالها، في مجتمع ظهرت فيه الشرور والأمراض الخطيرة"².

ويتساءل 'مالك بن نبي': تحرير أم تطوّر؟ ليجيب أنّه لم يقصد بهذا خلق معضلة ليست مطروحة أصلا، لكن هذا التساؤل يترجم الفارق الذي نشعر به بين مفهومين يتعلّقان بالقضية نفسها، ويضرب مثلا واقعيّا بالنساء اليهوديات المزابيات أو السوفيات اللواتي هاجرن بعد قيام دولة إسرائيل، هل سيتقبّلهن هذا المجتمع المتمدّن. ممظهنّ التقليدي؟ بطبيعة الحال فهنّ سوف ينخرطن في إطار حياة جديدة بمجهودهنّ الشخصي للتأقلم، وهو في الحقيقة ردّ الفعل الطبيعي لأي شخص، وهو ما يعبر عنه بـ'التطوّر'، وإذا نقلنا هذا المفهوم إلى المجتمع الجزائري؛ فيجب طرح القضية من جانبين: دراسة شروط التحرّر التي تفرض علينا وعلى المرأة زيّ ونمط خاص، ويمكن طرح مسألة الحجاب بدلالته الأخلاقية، ودراسة الشروط التي تفرض على المرأة الانخراط في مسار الارتقاء المأمول³.

وبنظره؛ المشكلة خطيرة ولا يمكن معالجتها بسطحية، فتطوّر المجتمع مرتبط بتطوّر المرأة، وانتقد أسبوعية 'ليكسبريس' (L'express)، حين نشرت مقالا تحليليا بعنوان:

¹ - Ibid., p.77.

² - Ibid., p.82.

³ -Malek Bennabi: «Le problème de la femme musulmane en Algérie: Emancipation ou évolution», La république algérienne, 5 février 1954.

'الجنس في التاريخ' مُعتبراً أنّ الإسلام: "لم يترك للذكور سوى قوة المراقبة والتنظيم، وإيجاد مجتمع تتمتع فيه المرأة بكثير من الحقوق؛ مقارنة مع الحد الأدنى من الواجبات، فالشرع الإسلامي لم يركز إلاّ على واجب الزوجية، وهذا العمل المترلي، بإمكان المرأة عدم القيام بالتنظيف والطبخ وحتى عدم إرضاع الطفل، وترك الأب يبحث عن مرضعة"¹.

ويبين أنّ هذه التسهيلات ليست محلّ تنفيذ في المجتمع المسلم؛ لأنّ المجتمعات المسلمة فقدت حيويتها وقوتها التنظيمية، وعادت أشبه بالمجتمع الجاهلي، ونحن لا نقوم بوأد الفتيات؛ لأنّ الأخلاق والقوانين تمنع ذلك، لكننا ندهنّ في الجهل، فقرون الحضارة الإسلامية خلّفت تقاليد نسائية جميلة وأسماء كبيرة، باستطاعتها بناء معالم نسوية إسلامية جديدة، ويخلص إلى أنّ: "المشكلة المطروحة حالياً واضحة؛ تتعلق باستعادة المرأة كرامتها التي منحها الإسلام، وانتزاعها من التقاليد البربرية الجاهلية، لكن ليس بطموح السيطرة على الرجل، وإنّما لجعلها تلك السيّدة التي تلهمه"².

لقد عالج قضية المرأة من منظور حضاري قلّ نظيره، وبفكر عميق، فطرح حلولاً واقعية للخروج بالمرأة المسلمة من أزمتها. وقد يكون أوّل مفكّر مسلم يطرح فكرة 'نسوية إسلامية' تؤسّس لتحرّر المرأة المسلمة ضمن قيمها الدينية والاجتماعية والأخلاقية³، وهو من بين النخب الفكرية التي انتقدت وضع المرأة الغربية، ويبيّن مساوئ الحضارة المادية على المرأة، وحكم بعدم جدوى دعاوى تحريرها؛ لأنّها ستغمس بها في عالم الرذيلة، ولعب أدواراً اجتماعية غير تلك التي تتماشى مع فطرها الإنسانية السليمة.

2- مسائل المرأة عند النخبة المحافظة (التقليدية) في الجزائر:

¹ - Malek Bennabi: «Pour un féminisme musulman», La république Algérienne, 25 Février 1954.

² - Ibidem.

³ - يُنظر الملحق رقم: 04.

إذا كنا قد صنّفنا رواد الإصلاح في مطلع القرن العشرين والعلماء ضمن النخبة الجزائرية الدينية الإصلاحية؛ فإنّ هناك نخبة دينية جزائرية محافظة أو تقليدية، تدعو إلى التمسك بالعادات والتقاليد، وتندّد بمظاهر الانحلال الخلقي التي ظهرت وما فتئت تتزايد في المجتمع الجزائري، ونقرأ مواقف هذه الفئة في صحافتها بشكل خاص، والمفارقة أنّ كثير من رجالها كان موالياً للإدارة الفرنسية، ولم يجرأ قطّ على انتقاد سياسة الاحتلال تجاه المرأة في الجزائر، واقتصرت مطالباته منذ العشرينيات بتعليم البنات، وصون الأخلاق.

2-1- تعليم البنات الجزائريات مع المحافظة على الأصول:

لقد دأبت صحافة النخبة المحافظة على غرار جريدتي 'البلاغ' و 'النجاح' القسنطينية، على الدعوة إلى فتح أبواب التعليم أمام بنات الجزائريين، وكان ذلك يتمّ بأسلوب النقد أحياناً، سيما في بداياتها حينما كان خطّها الافتتاحي إصلاحياً إلى حدّ بعيد؛ أي قبل أن ترتمي في أحضان الإدارة الفرنسية بالجزائر، الذي صار واضحاً بعد انشطار النخبة الإصلاحية في الجزائر، وانسحاب النخبة المحافظة من 'جمعية العلماء المسلمين الجزائريين'، ثم تأسيسها لـ 'جمعية علماء السنّة'، عقب الخلاف الشهير بينهما.

منذ العشرينيات نقرأ في صحافة 'المحافظين' حول تعليم البنات: "من الخور وسوء الفهم أن يتبحّح المتبحّحون بأن تعليم البنات أصل مضرّة المسلمات، ثم يقولون إنّ المرأة إذا كانت تُحسن الكتابة والقراءة قد لا يُؤمّن من كيدها وسوء سيرتها بسبب قراءتها وكتابتها، ونحن نقول لهؤلاء القوم المتمسكين بأهداب الشذوذ: هل حبائل الشيطان تُناط بجيد المرأة بسبب قراءتها وكتابتها فقط؟ تلك أوهام وخرافات تدور في رؤوس الجامدين الذين لم يذوقوا معنى التهذيب ولم يدركوا ما جاء به الإسلام من التعاليم. ألم تكن لنا أسوة بما هو

جار في البلاد الشرقية من تعليم البنات وإقامة مدارس خصوصية لهنّ؟ إنّ المرأة محتاجة إلى العلم أشدّ من احتياجها إلى الحلّي...¹.

ويكتب آخر: "يجب على المسلم الكامل أن يُعلّم ابنته كما يعلم ابنه لضرورتهما للعلم الذي به تسير في سبيلها الديني والأخلاقي، فالإسلام أوجب على المرأة مثل ما أوجب على الرجل من الطاعات والعبادات والحدود، وإذا كانت جاهلة تعطلت في سيرها وخسرت (!) الدينية والأخلاقية، وكانت جناية كبرى وإثماً فظيماً على المجتمع الإنساني"². ونقرأ دعوة للأولياء لإلحاق بناتهم بالمدارس: "إنّ مديرة مدرسة تعليم البنات بسيدي عبد الهادي تعلن لآباء البنات، بأنّها عدلت عن خدمة الزرابي بالمدرسة وخصصتها للتعليم فقط، وبها الآن أكثر من مائة مقعد فارغ؛ فعلى الآباء الذين يريدون تعليم بناتهم بهذه المدرسة أن يذهبوا بهمّ للمدرسة حالاً؛ لئلا يفوتهم ما يرقّي أفكارهن، فالبدار البدار إلى دخول هذه المدرسة المذكورة أعلاه، وإلى تعليم البنات ما دام مجاناً"³.

واعتبر آخر؛ تعلّم المرأة الغربية سبباً في رقيّ الغربيين وتمدّهم، وتساءل: تُرى كيف نرّبي بناتنا؟ ليحصر دور المرأة في إرضاء زوجها وتربية أبنائها وإصلاح بيتها، وترتيبه ترتيباً عصرياً على القواعد الصحية الاقتصادية⁴، وأعقبه تعليق من طرف محرّر الجريدة 'إسماعيل مامي'، ذكر فيه أنّ صدور كتاب 'الطاهر الحداد' في تونس؛ والضجّة التي أثارها،

¹ - أبو الرشاد: "حول تعليم البنات"، النجاح، ع.114، الجمعة 22 جوان 1923.

² - ابن الإسلام: "جولة نائبتنا بالغرب الجزائري والقطر المغربي"، النجاح، ع.155، الجمعة 18 أبريل 1924.

³ - "مدرسة تعليم البنات المسلمات بسيدي عبد الهادي بقسنطينة"، النجاح، ع.803، الأربعاء 23 أكتوبر

1929م. لنا أن نتساءل هل سبقت هذه المدرسة ابن باديس إلى فكرة تعليم البنات المسلمة تعليماً مجاناً؟

⁴ - ابن سعيد عدون بن بكير الميزابي: "المرأة المسلمة والتعليم"، النجاح، ع.1058، الأربعاء 22 أكتوبر 1930.

مؤكداً على ضرورة إبقاء تعليم المرأة ضمن الضوابط الشرعية، وبأن يُجعل لها برنامج ومدارس خاصة، مستشهداً بتعليم البنات في المغرب الأقصى¹.

ونقرأ في 'النجاح' إعلان إدارة 'جمعية التربية والتعليم' عن افتتاح إقرأ العربية لقسم البنات، يوم الاثنين 26 شوال (1345هـ) الموافق ليوم 16 مارس (1931)، "فعلى السادة الآباء الذين كانوا قد قيّدوا أسماء بناتهم الإتيان بمنّ صبيحة اليوم المسطور، وعلى السادة الذين لا زالوا لم يقيّدوا الإسراع بذلك قبل فوات هته الفرصة في ابتداء القراءة"².

وورد في صحيفة 'البلاغ' نقلاً عن جريدة 'التقوى': "إنّ تعليم البنات الحالي وعلى شكله الحاضر يدعو إلى الفساد الأخلاقي للبنات، وهذا الفساد الذي نراه والذي ظهرت بوادره بشكل كبير ما هو إلا ثمرة من ثمرات هذا التعليم غير المثمر، هذا التعليم الذي يعلم البنت الفساد والضلال. إنّ التعليم سواء أكان للبنات أم البنين إن لم يكن مصحوباً بتعليم ديني قويم لا فائدة ترحى منه بل ويكون منشأ الضرر والفساد..."³. ونقرأ أيضاً: "لم يبق على وجه البسيطة من يجهل الأضرار التي لحقت الأخلاق الإسلامية بتعلّم البنت إلا من كان حظّه من الإنصاف كحظ الأكمه من إدراك نور الشمس في ربيعة النهار؛ لأن أبواب الفساد كانت موصدة على البنت حيث كانت في بيتها تحت ظل أبويها لا تعرف ظلاً غير ظلّهما وبيتاً غير بيتهما"⁴.

وكان 'إسماعيل مامي' يرى: "أنّ تعليم الذكور لم ينل حقّه، والدليل عدد المكاتب المخصّصة لهم، ونتائج هؤلاء في نهاية كلّ سنة. أما تعليم البنات فهو غير موجود أصلاً،

¹ - إسماعيل مامي: "المرأة المسلمة والتعليم: تعليق يجب على المفكرين إدراكه"، النجاح، ع. 1059، الخميس 23 أكتوبر 1930.

² - إدارة الجمعية: "جمعية التربية والتعليم الإسلامية (إعلان)"، النجاح، ع. 1129، الجمعة 13 مارس 1931.

³ - حسن إسماعيل البخاري: "شبان اليوم والدين"، البلاغ، ع. 247، الجمعة 19 فيفري 1932، ص. 2.

⁴ - "مدارس البنات والأخلاق الإسلامية"، البلاغ، ع. 256، ص. 3.

وإن وُجدت مدارس فهي لتعليم الصنائع التي لا تستفيد منها البنت إلا بعد خروجها من المدرسة، بعد أن قضت أعواماً تعمل لحساب المدرسة وفائدتها¹. وعن التعليم المهني للبنات؛ كتب مراسل 'النجاح' من منطقة سعيدة: "أصدرت الحكومة أمراً بإحداث دروس تكميلية صناعية، بمكتب البنات الوطنيات في سعيدة، وقد كان المكتب يقدم هذه الدروس التي ترجع بالفائدة المطلوبة للبنات المسلمات، إنَّ التعليم الصناعي للبنات المسلمة هو الغرض الوحيد من حياتهن؛ لذلك يُحسن أن يكون تعليمهنّ الصناعي دائراً بين الطرز والخياطة والحياكة والنسيج اليدوي"².

وكتبت 'النجاح': "لإنَّ بحثنا عن الطرائق التي سببت لأُمم الغرب هذا الرقيّ (?) ولئن كنّا نبحت عن أنجع المسالك التي تمكّنتنا من إصلاح مجتمعا، لما ألفينا ذلك من العسير الصعب، فإنّه (?) لا يُنكره إلا من يريد لأُمَّته السقوط إلى الحضيض، ولا يتعمى عنه إلا من لا يتّبع الطريقة المثلى، فمن له جزء ولو يسير من التفكير يُمكنه أن يُدرك تلك الحقيقة بدون كبير عناء (...). وإن نحن توخّينا الحقيقة وإن شئنا نفكر فيما يجب علينا نحو أمّتنا؛ فأول شيء يجب علينا تعليم المرأة، وإنني أخطّ هذا المقال والقلب يذوب كمدّاً والكبد ندى حزناً على تلك الأخت الشقيقة التي فقدت نصيبها في هذه الحياة، والتي قدّرت لها الأقدار أن تكون من هذا الفظ الأب الغليظ. ولقد شاهدنا ولا نفك نشاهد أنّه ما ترقّت أمة من الأمم إلا بمشاركة نسائها لرجالها، فالمرأة باعثة الروح في زوجها، وتحرضه على العمل بما يُرضي دينه وشعبه، فينجلي من هذا وجوب تعليم المرأة لكي تكون صالحة، لأن توجد لوطنها أبناء صالحين، فهي المدرسة الأولى..."³.

¹ - إسماعيل مامي: "تعليم الأطفال قبل تعليم البنات وإصلاح برنامجها غاية متمنيات الأهالي"، النجاح، ع. 1415، الأربعاء 15 فيفري 1933.

² - "تعليم البنات في سعيدة"، النجاح، ع. 1508، الجمعة 1 ديسمبر 1933، ص 2.

³ - عبد الوهاب بن منصور: "تعليم المرأة"، النجاح، ع. 1759، الجمعة 27 سبتمبر 1935، ص 3.

2-2- التحذير من الجهل والتنديد بالتبرّج وتردّي أخلاق النساء:

ندّدت صحافة النخبة المحافظة بتردّي أخلاق المرأة المسلمة في الجزائر، وسيطرة الجهل والخرافات عليها، ووقوعها ضحية المشعوذين والدجالين، وكانت سهام كتّابها مصوّبة نحو محاربة هذه البدع، ففي جريدة 'البلاغ' نقرأ مقالاً بعنوان: "أتمدّن أم انحطاط؟" بتوقيع 'واعظ' ورد فيه: "في رمضان تقوم الأجواق -وما هي تلك الأجواق- بتمثيل هزلي في المراسح (كذا) فتحجّج الناس إليها جماعات وفرادى ومن حملتهم النساء من طبقات متعددة وتختلط العفيفة مع العاهرات البائسات من رحمة الله، منهنّ من تأتي مع زوجها أو أخيها (...)، وكلهنّ معجبات بأرواحهنّ كأنّهنّ بلغن درجات الكمال فلا حياء ولا مروءة ولا دين ولا حشمة، والرجال حولهنّ يظهرنّ أسنانهنّ كالقردة يؤنسونهن بألفاظ وألغاز كادت السموات تتفطرن منها وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّا. هذا حال الجزائريين والجزائريات -إلا من رحم ربك- لأنهم تمدّنوا وبماذا تمدّنوا؟ بالنقائص والخزعبلات، والجهل والقذرات، والفسق والحرمّات، والجن و العفونات..."¹.

ونقل مراسل 'النجاح' من سطيف: "لا زالت بلدة سطيف كما تعرفون على البعد من التربية الحسنة والأخلاق وقد تقدّمت كثيرا في تبرّج الفتيات الخادّمات عند الإفرنج...". ويؤكّد مكاتب الجريدة من انتشار هذه الظاهرة من خلال حوار قصير دار بين فتاة مسلمة وامرأة يهودية تبحث عن عاملة؛ كما يجذّر من يوم يكون فيه جميع الجزائريين رجالا ونساء خدّاما ولا يُقبل منهم إلا ذوو النسب والعائلة...².

كما نقل محرّر الجريدة مشاهداته أثناء مروره بسطيف، وكتب ما يلي: "ليس هناك ما يكدرّ ويزعج الخواطر غير جيوش البنات المترجّلات أو الخدّامات العاهرات اللائي كلّما

¹ - جريدة البلاغ، ع. 246، الجمعة 28 رمضان 1350، 5 فيفري 1932، ص. 3.

² - "سطيف (تبرّج الفتيات الخادّمات)"، النجاح، ع. 190، الجمعة 9 جانفي 1925.

رجونا محوهنّ ازددن نَسَمَة (?) و فجورا، ويظهر لي مما شاهدت و رأيت أنّ هؤلاء المترجّلات تعب وعجز عن مقاومتهنّ المجلس البلدي ورئيسه ومدير البوليس (الشرطة) وجميع الهيئات، ولا يمكن براء لهذا الداء الوييل الذي حلّ بسطيف وتسربّ لبرج بوعريريج، فلا يلزمنّا إزائه إلا التأسف والتحسّر¹.

ويبدو أنّ الظاهرة نفسها بدأت تنتشر عبر جهات القطر الجزائري وتورّق المسلمين الجزائريين، فقد أبرق مراسل النجاح من خنشلة: "إنّ أهالي خنشلة يتضجّرون من كثرة البنات اللواتي حلّكنّ بالبلدة (?) من كلّ دشرة ودوّار، حتى بقين فرجة للأجانب وخدماء عندهم، وكم مرّة رفعنا شكوى إلى السيد الكوميسار (محافظ الشرطة) والسيد (?) طلبنا طردهن كما وقع ببلدة سطيف فلم يلبى طلبنا. ومخافة أن يكثُر الفساد وتقع الفتن فإنّا نطلب من الدولة أن تردّ كل بنت ل (?) وبلدتها وتستر هذا العار الكبير"².

وأفردت 'النجاح' مقالا لظاهرة الدعارة التي انتشرت في الجزائر: "إنّ جميع البلديات بالوطن لمساهمة في انتشار الفساد، فإنه يوجد (?) يجري على مرأى ومسمع من (?) النواب البلديين و(?) أن يزيلوا المنكر بأيديهم لا بلسانهم أو قلبهم. وقد فشى الإهمال في النواحي، واستسلم الناس دون المقاومة، وقعدوا دون أن يستأصلوا جرثومة هذا الوباء من أصله... فنوجّه خطاباً إلى النواب البلديين، ونترقب منهم أن ينتبهوا إلى خطر داهم و(?) الإصابة من مخالب الرذيلة، و ليسعوا في تحويل محل الدعارة إلى أطراف المدن؛ إذ بقاؤه في أواسطها هو الذي أخلط حالها على الناس"³.

ونقلت النجاح عن جريدة 'الاستقلال' مقال يعالج موضوع خطر تبرّج المرأة على المجتمع، وفيه نقراً: "إنّ تبرّج المرأة لهذا الحدّ باسم المدنية الكاذبة للدليل زوال المروءة

¹ - مامي إسماعيل: "سنطرنو وسطيف"، النجاح، ع.563، الجمعة 2 مارس 1928.

² - "خنشلة: تبرّج البنات"، النجاح، ع.222، 14 أوت 1925.

³ - قسم التحرير: "مكافحة الدعارة...!", النجاح، ع.1497، الجمعة 3 نوفمبر 1933.

والنخوة من الأزواج الذي تلقى عليهم وحدهم تبعة كل هذه المظاهر الجارحة للإحساس والعواطف؛ لعمري لقد ذهبت الغيرة، وقُبرت العاطفة السامية والخلق الكريم من الأزواج، لقد صارت الزوجة هي القابضة على زمام الرجل؛ المهيمنة على كل تصرفاته، الحاكم المطلق في جميع حيواته...¹.

2-3- النخبة المحافظة ومسائل الأحوال الشخصية للمرأة:

كان اهتمام النخبة المحافظة بالمسائل التي تخصّ المرأة المسلمة في الجزائر وخارجها جلياً في صحافتها، ومن القضايا التي أخذت حيزاً على صفحاتها مسائل الأحوال الشخصية المتعلقة بالمرأة الجزائرية، سيما أثناء النقاش الذي سبق صدور قانون إصلاح وضع المرأة القبائلية الذي تولّى إعداده أستاذ القانون 'مارسيل موران'. بمعية مجموعة من المتخصصين، وبمشاركة موظفين مسلمين لدى الإدارة الفرنسية في منطقة القبائل.

انتقدت الجريدة قانون إصلاح وضع المرأة بمنطقة القبائل: "كيف يفلح قانون بشري في قطر خاب فيه القانون (الإلهي)، فالقبائلي العاض بالنواجذ على عوائده والمضحّي في سبيلها كل نفيس وغالٍ يزدرى بتلك القوانين التي تحرّم عليه التماذي على عادته ويسخر من المنفّذ الذي يحاول تنفيذها عليه، فلا يمتثل أصلاً لتلك الأوامر، ومهما وقع خصام عنيف في مسائل تخصّه إلاّ وفضّها باهتراق الدماء. فهذا القانون تجربة أخرى تؤذّن بالمحال. عوائد أهالي القبائل خاصة لا تشبه عوائد غيرهم من سكان الجزائر، فإنّ النكاح والطلاق والإرث عند القبائل جارٍ عليهم العرف القبائلي فقط. المرأة تُباع عند غالب القبائل؛ فإن كانت البنت عذراء فإنّ أباهاً أو أخاهما الأكبر يبيعهما، وإن كانت مطلّقة فإنّ زوجها يطلب عوّضها ترجيح ثمن معلوم، أما إن مات زوجها فإنّها تُعدّ من جملة الأملاك والأثاث الذي

¹ - مسلم: "المرأة وخطر تبرّجها في الهيئة الاجتماعية.."، النجاح، ع. 817، الاثنين 25 نوفمبر 1929.

خلفه الزوج ويرثها أقارب المالك! ولقد حاولت الحكومة الفرنسية محقّ هته العوائد ونتائجها السخيفة، لكنّ تلك العوائد قد تعيّرت عند احتكاكها بالمدينة الحاضرة¹.

لكن نجد أنّها تكتب خلاف ما ذكر سابقاً: "... وإن كان القانون الجديد يأتي لا محالة بالنتيجة المطلوبة؛ مهما وجد المنفذين القائمين بوظائفهم بكل لباقة، كما نفذت قوانين شتى قبل هذا، لا سيما وأفكار جمهور المتنوّرين والعقلاء من إخواننا القبائل مُوافقة تمام لمقصد القانون، ومُنكرة على بقاء المرأة في حالتها التعيسة، ويقولون أنّنا لا نُنكر فضل تلك العوائد قديماً، أما الآن فإنّ محاسنها استحالت مساوئ أضرتّ بالمرأة ضرراً فادحاً"².

وعن حرمان المرأة من الميراث نقرأ في جريدة 'البلاغ': "من المصائب التي أُصيب بها أبناء الإسلام، وفشت فيهم فشواً كبيراً عَضُلُ بناتهم من التزويج ومنعهنّ من ميراثهنّ، ولا زلنا نسمع ونرى ما أصبح عليه بنو الإسلام اليوم من عضل بناتهنّ عن إنكاحهنّ ومنعهنّ من الميراث، وذلك أن الأب يمنع بناته من الميراث برسم يكتبه لبنيه يخول لهم حيازة جميع المال بعد وفاته، فتصبح البنت بعد وفاة أبيها فقيرة مُعدمة يرغب الرجال عن نكاحها لفقرها فتكون مرموسة (مدفونة) بقبر الحياة، منعّصة العيش بائسة طول دهرها... أنظروا إلى ما ينشأ عن عضل المرأة من الشرور التي توجب لكم مقت ربكم، والمضار التي لا تعدّ ولا تحصى؛ فإنّ المرأة إذا عضلت ربما هبّت إلى العهر، أو ألقت بنفسها من عال أو خرجت للأزقة تتطلب المفسدين من الرجال، فإذا على من هذا العار العظيم والإثم الكبير على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق..."³.

¹ - "مشروع قانون النكاح عند القبائل"، النجاح، ع.795، الجمعة 4 أكتوبر 1929.

² - "المرأة القبائلية: استدراك وتعليق"، النجاح، ع.796، الاثنين 7 أكتوبر 1929.

³ - نور الدين: "داهية دهباء ومصيبة عظمى"، البلاغ، ع.248، الجمعة 26 فيفري 1932، ص.2.

2-4- مكانة ووظيفة المرأة في المجتمع من منظور النخبة المحافظة:

عن وظيفة ومكانة المرأة المسلمة في المجتمع نقراً مقالا يجب فيه صاحبه: " إنما هي شريكة الرجل في جميع شؤونه الحيوية ورفيقتة، فهي بلا شك أحد ركني الحياة الذين لا تقوم إلا عليهما، ووظيفتها في هذا المجتمع أهم وأنفس مما يظنه بعض الظانين الذين قضى عليهم الجهل وran على قلوبهم الاستبداد فهضموا حقوق المرأة وتسلبوا على ضعفها مستندين على القول بأنها ناقصة الإدراك شديدة المر والفساد، من غير أن يعتبروا شيئاً أن المرأة خلق كجميع البشر (...). نعم إن الحالة التي عليها إناؤنا اليوم جديرة بالرثاء ولكن يا ترى هل الذنب لهن في ذلك كله حتى نبغضهن ونحتقر أمرهن"¹.

ويتساءل صاحب المقال: "هل يتوجب علينا تقليد أوروبا (كذا) في هذا الشأن، هل نمنح نساءنا كل الحقوق وكل الحرية التي مُنحتها الأوروبيات اليوم؟ كلاً بل لا نخرج في ذلك كله عن دائرة الكتاب والسنة الذين لا نرى أصلح منهما لتنظيم المجتمع وجعله كفواً للحياة السعيدة في كل وقت وفي كل مكان وعند كل أمة... " ويرى أنه لا بأس للمرأة المسلمة من معرفة ما يناسب جنسها وذوقها؛ "ما يتعلق بالطب؛ كمعرفة كيفيات الاحتراز من الأمراض وجلب الصحة والهناء (...). وكذا فيما يتعلق بالمتزل لا بد أن تتعلم ما تيسر لها من العلوم الاقتصادية الداعية لترتيب الأشياء والنظام وحسن التصرف على كل حال"².

وعن خروج المرأة وارتياحها الأماكن العامة؛ نقراً: "هذا ولتعلم المرأة المسلمة أن ملازمتها لبيتها لا يُراد منه - كما يُشيع بعض أعداء الإسلام - حبسها أو التضيق عليها؛ كلا؛ وإنما يُراد منه المحافظة عليها، والإبقاء على حرمتها وآدابها، وسلامتها من مخالطة الرجال الأجانب ليس إلا، ولا شك أن عدم مخالطتها للأجانب مما يوجب لها العز والفخر،

¹ - محمد الناصر بن الغزالي: "المرأة المسلمة ووظيفتها في المجتمع الإسلامي"، النجاح، ع. 185، الجمعة 5 ديسمبر 1924.

² - نفسه.

ويكسبها الثناء وحسن الذكر، إذ كم انبعث عن مخالطتها الرجال مفاسد، وكم نشأ عنها مضار، إن عقلاء الغربيين حيارى لا يدرون كيف يدفعون عن بلادهم وأمهم بلاء هذه الفتنة فتنة اختلاط المرأة بالرجل، وهم جازمون بأن عاقبة ذلك سقوط الفضيلة؛ وشيوع الرذيلة، وموت الأخلاق والآداب"¹.

وفي 'النجاح' عبّر أهل منطقة القبائل عن استيائهم من القانون الفرنسي الجديد الذي يلزم المرأة بالحضور أمام القاضي ثم أمام شيخ المدينة؛ لأجل إتمام عقود النكاح أو الطلاق وغيرها؛ بعدما كان يكفي حضور وليها وفق العرف القبائلي، وقد ذكرت الجريدة الاقتراح الذي تقدّم به يوم 28 أكتوبر (1930) النائب العمالي بـ'فورناسيونال' (بلدية الأربعاء ناث إيراثن) 'عمر الطاهر'، ومفاده أن يكون الإقرار بالزواج أمام قياد الأحواز (الأعراش) الممتزجة أو أمام الأميار في المدن المدنية، وقد لاقى هذا المقترح أيضا استياء أعيان القبائل الذين راسلوا الجريدة رفضا لمحتواه، وأشارت الجريدة إلى الاحتجاج الذي تقدّم به الشريف بن حبيص (رئيس جمعية القضاء) في الجلسة البلدية المنعقدة بـ'تاقيطونت'. ف"المرأة لا يقتضي أن تغشى الجموع ولا أن تُحاكي الرجل في الذّهاب والمجيء في الطرقات العامة"².

كما نجد دعوة في صدر جريدة 'النجاح' من طرف رئيسها 'عبد الحفيظ بن الهاشمي' للسّماح للبنات الجزائرية بالخروج وتعلّم المهن والحرف والصناعات، فكتب بعد أن استفاض في تبيان أهمية الصناعة والتعليم الصناعي: "... فبتعلّمها تزداد الحركة الصناعية والوطنية وتخرج من قيد الجهل الذي ترك كثيرا من الشبان التزوُّج لأجله، وأصبحت المرأة الأهلية في خطر عظيم؛ ولذلك قلّ النسل وكثر الفساد. فالأجدر أن يبادروا بانتهاز الفرصة

¹ - البلاغ، ع. 251، الجمعة 10 ذي القعدة 1350هـ / 18 مارس 1932، ص. 1، 2.

² - "حضور المرأة المسلمة لدى المحاكم الشرعية عند تحرير العقود"، النجاح، ع. 1089، الخميس 4 نوفمبر

1930، ص. 1.

التعليمية، وأن يتنحى عن هذه الأفكار التي تحرم البنت من تهذيبها المعنوي وعلمها بالصناعة اليدوية التي هي من علم تدبير المنزل المتعين على كل امرأة...¹.

نلاحظ كيف غيرت صحف النخبة المحافظة خطها بعد سنة 1931م، وصارت موالية للإدارة الفرنسية، لا تتخلف بالشكر والثناء على أعمالها في الجزائر، ومنها تلك التي قام بها 'شارل ليفي' في سطيف عام 1932م بـ: "بناء معمل للنسيج حيث تتعلم البنات المسلمات فيحفظن بذلك مستقبلهن، وقد أنشأ في تلك القرية معملاً ضخماً يسع أكثر من مائتين من المتعلمات، وقد تخرج منه نساء عالمات تستطيع الواحدة منهن أن تعول عائلة كاملة من عمل يدها..."².

وفي مسألة الحجاب والسفور نقرأ ردّاً على مقال 'أبو يعلى الزواوي': "المرأة المسلمة والحجاب في الشريعة"، استهله صاحبه بالحديث عن خروج المرأة المسلمة تركية كانت أم عربية، مشدداً على مسألة التبرج والسفور، وقد شفع رأيه بسرد عدّة أحاديث نبوية في فقه النساء وأحكام خروجهن...³. ويعتبر أنّ تغيير هذا المنكر (السفور والتبرج) "واجب باليد على ولاة الأمر وعلى الأب في أولاده والزوج في زوجته والسيد في عبده والتغيير باللسان يختص بأولي العلم كالخطيب في خطبته والواعظ في وعظه والمدرّس في درسه والتغيير بالقلب عام لما سوى هؤلاء ثم على كل قادر زجرهم حتى ينتهوا"⁴.

¹ - عبد الحفيظ الهاشمي: "التعليم الصناعي ترقية في الأمم الأخرى: تعليم البنات"، النجاح، ع. 134، الجمعة 23 نوفمبر 1923.

² - شرامة لخضر الحجازي: "مساعي حميدة: إهداء شكر إلى مستحقه"، النجاح، ع. 1258، الجمعة 16 جانفي 1932، ص ص 1-2.

³ - يحيى بن محمد الدراجي: "المرأة المسلمة والحجاب في الشريعة الإسلامية"، النجاح، ع. 264، الجمعة 15 جانفي 1926.

⁴ - يحيى بن محمد الدراجي: "المرأة المسلمة والحجاب"، النجاح، ع. 268، الجمعة 29 جانفي 1926.

3- مسائل المرأة الجزائرية في أدبيات النخبة المتفرنسة¹:

إذا كانت النخبة المحافظة (التقليدية) بحكم تكوينها التقليدي؛ قد جعلت التعليم العربي للبنات وفق ضوابط محدّدة أحد أولوياتها، ودافعت عن التمسك بالعادات والتقاليد السائدة، فإنّ النخبة المتفرنسة لم تكن لترضى بطروحات المحافظين، بل اعتبرت التقاليد والعادات البالية أحد أسباب ما آلت إليه أوضاع المرأة الجزائرية من تخلف وأمية وانغلاق وانغماس في الخرافات والجهل. لقد كانت وجهة نظرهم من قضايا المرأة 'الأهلية' تعكس انتماءهم الإيديولوجي والثقافي، وتكوينهم الفرنسي، وربّما هي انعكاس أيضا للظروف الاجتماعية التي كانوا يعيشون في ظلّها، سيما وأنّ المتجنّسين منهم تاهوا بين جنسيتهم الثقافية الفرنسية وأصولهم العرقية الجزائرية.

والقارئ لأدبيات هذه الفئة من النخبة الجزائرية؛ يلمس حجم الصراع النفسي الذي عاشه المتجنّسون منهم، وصعوبة الموقف الذي وُضعوا فيه بين إنكار إدارة الاحتلال والمستوطنين لحقوقهم، ورفض المجتمع الجزائري لتجنّسهم وتخليهم عن ملتهم الدينية وانتمائهم لبني جلدتهم، نظير الحصول على الجنسية الفرنسية، التي لم تخوّلهم سوى تولّي بعض المهام الإدارية والتعليمية البسيطة.

¹ - إنّ كلمة النخبة التي تقابلها في اللغة الفرنسية كلمة (L'élite)، قد اقترن مفهومها في الجزائر بمفاهيم أخرى كالمثقفين (Intellectuels) والمتطوّرين (Evolués)، وهم الذين أصبحوا يدعون بـ'المتفرنسين'؛ لأنّهم من تعلّموا في المدارس الفرنسية، وتأثروا بالثقافة الأوروبية، وانبهروا بمظاهرها وتقاليدها، واقتنعوا بفرنسا وقوّتها، واعتبروها صاحبة الحقّ الشرعي في الجزائر، وهذا خلافاً للنخبة التقليدية التي حافظت على انتمائها الحضاري، واستمرّت في اتّصالها مع المدارس العربية الإسلامية. يُنظر: النوي معماش: "موقف المتجنّسين الجزائريين من المرأة خلال النصف الأول من القرن العشرين"، مجلة الحوار الفكري، ع.6، 2004، جامعة قسنطينة، ص43.

ويجب أن نميّز هنا بين 'المتفرنسين' و'المتجنّسين'؛ فهناك الكثير من أبناء النخبة الجزائرية الذين تكوّنوا في المدرسة الفرنسية، وهلّوا من الثقافة الفرنسية، لكنهم حافظوا على أحوالهم الشخصية الإسلامية ورفضوا التجنيس، بينما فئة قليلة منهم قبلت بشروط التجنّس، وانسلخت عن ملّة أمّتها الإسلامية، واعتنقت قيم الحضارة الغربية قلباً وقالباً.

3-1- موقف النخبة الوسيطة¹ من مسائل المرأة في الجزائر:

يُعتبر 'الحسن بن بريهمات' أحد رواد النخبة المتفرنسة، ومن مزدوجي التعليم في القرن التاسع عشر، وهو صاحب كتابه: 'النهج السوي في الفقه الفرنسي'، الذي ابتغى بتأليفه شرح أهمّ المسائل الواردة في القانون المدني الفرنسي، والمتعلقة بالأسرة والأحوال الشخصية من الزواج والطلاق وحقوق الزوجين، والكتاب موجّه إلى القضاة المسلمين: "فهو حينئذٍ توسعة شرعية على أرباب المحاكم القضائية الإسلامية، وتبصرة لهم بقواعد مأخوذة من أصول بينها وبين الفقه الإسلامي أخوة عقلية لا تخفى على أهل المعرفة بالفقهين السماوي والعربي... حتى إذا تعقّب الفرنسي أحكامها وجدّها أحكاماً مؤسّسة من حيث مصلحة الزوجين أو العائلة؛ على قواعد متينة لا تُصادم شرعنا ولا تُعاند قوانينهم"². وكان قد أشار فيه بداية كتابه إلى إقصاء النساء من نيل الحقوق المدنية والسياسية في قانون المدني الفرنسي، كالمشاركة السياسية وحقّ الانتخاب³.

يتناول 'بن بريهمات' مكانة البنت في العائلة فيقول: "وأما الإناث فلا خروج لهنّ من هذه الحالة إذ خرجهنّ لا يمكن إلا بالدخول بعائلة أخرى بالتّكاح، فعلى حسب ما قدّمناه كانت العائلة مضبوطة أعمالها؛ موقوفة على أمر ونهي أبي العائلة"، كما اعترض على منع المرأة في القانون الفرنسي من التصرف بحرية في أموالها: "...فإذا اعتبرنا حالة المرأة

¹ - يصطلح عليها البعض 'النخبة التوفيقية'، ونقصد بالتّخبة الوسيطة تلك الفئة القليلة من المثقّفين الجزائريين أصحاب الثقافة المزدوجة (العربية-الفرنسية)؛ التي لعبت دور الوساطة بين إدارة الاستعمار وعموم المجتمع الجزائري، سيما في القرن التاسع عشر، وقد أسندت لها بعض المناصب في الإدارة المحلية والقضاء والترجمة... وغيرها؛ لتؤدي دورها في خدمة الاحتلال الفرنسي.

² - الحسن بن بريهمات، المصدر السابق، ص.ص 39-40.

³ - المصدر نفسه، ص.12.

المحصنة الآن؛ لا نجد سبب منعها من بعض العقود بحجر زوجها عليها؛ هي الأنوثة بل السبب هو نكاحها الذي هو عقد شركة، ورئيس تلك الشركة هو الزوج...¹.

ويعتبر أول من طرح قضية المساواة بين الجنسين، وبيّن جميع أفراد العائلة الواحدة فقال: "وجب أن يُرفع أيضاً ذلك التفاضل فيما يتعلق بالعائلة، ويكون التساوي بين أفرادها في الحقوق والواجبات الواجبة، وأول تساوي يعتبر في العائلة هو اتحاد الإخوة في الحقوق بدون اعتبار أول أو غيره، كما كان ذلك معتبراً سابقاً قبل هذا الأوان، والذكور والإناث سواءً في الحقوق؛ فلا فضل للذكر على الأنثى"².

كما تطرّق إلى منع تعدّد الزوجات في 'الفقه الفرنسي' قائلاً: "أول شرط انفرد به النكاح في فرنسا وسائر إقليم أوروبا ما عدا الترك (الأتراك)؛ هو امتناع تعدّد الزوجات، وإنّه معدود من الجنايات العظمى، فمنه يتبيّن أنّ حقوق الزوجين سواء في الغالب، ولا زالت تتقارب وتتحمّن إلى أن صارت كما ترى، وقد كان الزوج عند اليونان والروم يشتري الزوجة كما تُشترى الأمة؛ فصارت الزوجة الآن عند هؤلاء الأمم رفيقة للرجل بل شريكته، بعد أن كانت قبل هذا رفيقة حقيرة، فحينئذٍ عقد النكاح استوت فيه حقوق ولوازم المتعاقدين، واستوت لوازم الزوجين الشرعية، بحيث لو تخلى الزوج عنها كلاً أو بعضاً، فللزوجة أن تدعيه للفراق (الخلع)، فكان الرجل سيّد زوجته فصار الآن كفيلاً"³.

كما تحدّث عن شروط الزواج؛ ومنها شرط السنّ الذي حدّده القانون الفرنسي في الفصل 144 بـ 18 سنة للذكور، و 15 سنة للإناث، وفي الفصل 145 نجد رخصة من رئيس الجمهورية في الزواج دون هذا السنّ، ويكون ذلك لسبب مهمّ وهو التّحفظ على

¹ - بن بريهمات، المصدر نفسه، ص.ص 17-18.

² - المصدر نفسه، ص. 19.

³ - نفسه، ص. 26.

النسل (الجنين)، كما يذكر الركن الثاني وهو رضا الزوجين الذي يمنع 'الجبر' و'نكاح الوكيل' والإكراه¹.

ومن النخبة الجزائرية التي لعبت دوراً مهماً في العلاقة بين 'الأهالي' والسلطة الاستعمارية نذكر: محمد بن رحال². ويمكن أن نقرأ آراءه من خلال موقفه من السياسة الفرنسية تجاه 'التعليم الأهلي'؛ إذ يقول: "يمكنكم الحكم هل نحن (الأهالي) مؤهلون للتطور، للتحرر الثقافي، للتعاطف، للاعتراف، إن كان من الأفضل إعطاؤنا التعليم النظري أو التعليم المهني، وإذا ما كان التعليم يصنع متخلفين أم رجال.."، هذه الجملة التي عبّرت عن رفض 'بن رحال' لكلّ حلول سلبية للمسألة، وعن الثقة في فرنسا والقلق بخصوص إعادة تأهيل شعب مشاعره العميقة غير معروفة، وختم 'بن رحال' رسالته بقوله: "قبل الحكم علينا أعطونا وسيلة التطور... أعطونا التعليم"³.

و يعتبر 'محمد بن رحال' من بين طليعة النخبة الجزائرية ذات الثقافة الفرنسية؛ التي نادى بضرورة ضمان التعليم الإلزامي للجنسين من طرف سلطة الاحتلال الفرنسي

¹ - المصدر نفسه، ص.ص 28-29.

² - كان في صدارة النخبة الجزائرية التي قدّمت دراسة حول التعليم العالي في الجزائر هو محمد بن رحال، من خلال مذكرة تلاها أمام 'جول فيري' رئيس مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1892م. يُنظر: صيرينة الواعر: محمد بن رحال ودوره السياسي والثقافي (1856-1928)، رسالة ماجستير، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2002/2003، ص 93.

كتب عنه عبد القادر جغلول: "إنّ محمد بن رحال هو وجه سياسي وثقافي كبير خلال المرحلة التي سبقت تكوين الحركة الوطنية في الجزائر (...)، ورغم أنّه تكوّن في مدرسة فرنسية؛ إلّا أنّه مُدافعٌ بليغٌ عن العرب والإسلام، وفي مفصلة لعالمين وحقبين اثنتين؛ فابن رحال ليس 'ممثلاً' ولا صاحب 'عمامة قديمة'. فهو يمثّل محاولة حوار بين المجتمع الجزائري المستعمر والاستعمار...". ويضيف: "هذا المتحدث اللامع والمخالط للمجالس الوهرانية والجزائرية والباريسية هو مسلم ممارس. وهذا المثقف العصري المؤيد لتعليم البنات (كان يُرسل بناته إلى المدرسة)". يُنظر: عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص ص 63، 70.

³ - Ali Ajgou, Op.cit., p.44.

بالجزائر، وقد استغلَّ الرجل منصبه ضمن المندوبيات المالية ليدافع عن حقّ أبناء وبنات 'الأهالي' في تعليم مزدوج للذكور والإناث.

بالتّسبة للمولود بن الموهوب¹ فموقفه من مسألة المرأة لا يختلف كثيراً عن نخبة عصره المتفرنسة أو المحافظة، إذ نجدّه ينتقد تلك الفئة من المجتمع الجزائري التي تسعى معاملة النساء، ويرى أنّ إهمال دور المرأة في المجتمع أدى إلى انتشار الجهل، فيقول: "هذا أصل مهمّ أهمل لتمكّن الجهل بالدين من القلوب، حتى صار الأكثر يعتبر المرأة أقلّ من الحيوانات بدرجات، بل عنده اعتبارها شريكة حرام، وتوقيرها يُشِين قدره، أما استشارتها فيما تقدم كُفّر"، ويؤكد على ضرورة إعطاء الرجل الزوجة حقوقها، واعتبارها شريكة ومعاملتها بإحسان؛ لأنّ دورها أساسي في تربية الأولاد، وصلاحهم من صلاحها².

ومن الأسماء التي برزت في العقود الأولى من القرن العشرين 'محمد صوالح' (Mohammed Soualah)³؛ فالقارئ لكتابه عن 'المجتمع الأهلي في شمال إفريقيا'؛ يجد

¹ - لا ندري هل يصحّ لنا تصنيف هذه الشخصية الدينية ضمن النخبة الجزائرية الوسيطة بين الإدارة الفرنسية والمجتمع الأهلي؛ لكن بالنظر للمناصب التي تولّاها الرجل والمهام التي اضطلع بها لصالح الإدارة الاستعمارية في الجزائر، يمكن القول أنّه لعب دور الوساطة بامتياز، خاصة أيام تواجده بقسنطينة؛ الذي تزامن مع تصاعد النشاط الإصلاحي للشيخ عبد الحميد ابن باديس منذ عام 1913م.

² - المولود بن الموهوب: "ضرر المسلمين من أنفسهم²"، جريدة المغرب، ع.30، 21 جويلية 1903. نقلا عن مراد بن حمودة: النخب التقليدية في الجزائر ودورها السياسي والاجتماعي (1830-1919)، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، 2018-2019، ص275.

³ - محمد صوالح (1872-1953): حاصل على شهادة الدكتوراه وصار باحثاً في اللغة العربية الفصحى والدارجة، كان مهتماً بتلقيها للأوربيين، قدّم عدّة أعمال في شكل دراسات وأدلة ومناهج باللغتين العربية والفرنسية من بينها: 'دروس تحضيرية للعربية المنطوقة' (Cours préparatoire d'arabe parlé)، منهجية عملية للعربية العادية (Méthode pratique d'arabe régulier)، دليل فرنسي عربي للجيش في شمال أفريقيا (Manuel franco-arabe à l'usage des militaires de l'Afrique du Nord)، الإسلام وتطور الثقافة العربية (L'islam et l'évolution de la culture arabe). يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/12950561/mohammed_soualah/ Consulté le 13/05/2020 à 12:07.=

أن الرجل استلهم بعض الأفكار عن مستشرقين و أنثروبولوجيين سابقين له؛ اهتموا بالمجتمع الجزائري وبالمرأة الأهلية؛ على غرار 'أوجين دوماس' و'إرنست ميرسيي'.

تناول 'صوالح' أخلاق وتقاليد المرأة المسلمة في شمال إفريقيا بشكل خاص منذ ولادتها إلى مرحلة الطفولة والبلوغ، ثم الزواج وما تتخلله من طقوس وعادات، وتطرق إلى مسألة تعدد الزوجات التي اعتبرها نادرة في زمنه خاصة في الجزائر، ودافعها الأول هو تقدم المرأة في السن أو رغبة الرجل في إنجاب الأولاد في حالة كانت زوجته عقيمة¹، كما نلمس تفاؤل الرجل بمستقبل فرنسا في الجزائر، وقناعته التامة بازدهار وضع الفرد الجزائري وتطور وضع المرأة الأهلية في ظل الإدارة الاستعمارية².

لم يجد 'محمد صوالح' عن موقف نظرائه من بعض الكتاب الفرنسيين الذين تباكوا على وضع المرأة 'الأهلية' المسلمة في الجزائر، وراح يكيل التهم للمجتمع الذكوري، وللرجل الجزائري المتسلط العنيف؛ الخاضع لهواه ونزواته، في حين هي تضعي بكل ما تملك في سبيل إنقاذ أبنائها وتجنّبهم أن يلحق بهم العار أو تحقيق سعادتهم وتمكينهم من التعليم، حتى وإن كانت جاهلة فإنها تخفي كثر من الخير، وإن كانت متعلمة فهي بمثابة جوهرة في البيت (...). وأقرّ بتغيّر الذهنيات قليلا في المدن الجزائرية، حيث لم يعد من النادر رؤية امرأة أهلية تحضّر رفقة زوجها إلى السينما أو إلى المسرح، كما أن النبلاء من الأهالي

=أما أهم مؤلفاته التي تعنينا في بحثنا فهي: المجتمع الأهلي لشمال إفريقيا: (La Société indigène de l'Afrique du Nord (Algérie, Tunisie, Maroc, Sahara) في ثلاثة أجزاء، الذي سعى من خلاله إلى تعريف الأوربيين بعادات وتقاليد سكان شمال إفريقيا؛ بغية تسهيل التواصل والتفاهم بين الجاليتين المسلمة والأوربية. يُنظر:

Mohamed Soualah : **La Société indigène de l'Afrique du Nord (Algérie, Tunisie, Maroc, Sahara)**, Trois parties, La Typo-Litho et Jules Carbonel Editeurs, Alger, 1937.

¹- Ibid., 2ème partie: **Vie - Mœurs - Coutumes - Institutions.**

²- Ibid., 3ème partie: **Vers l'avenir – L'Action de la France et l'évolution des indigènes.**

شرعوا في اصطحاب زوجاتهم وبناتهم إلى المتروبول (فرنسا)، وكسوتهن وفق المواضع الأوروبية، والنساء المسلمات صرن يتذوّقن بكلّ حرية سحر الحياة العصرية¹.

وعقد 'صوالح' مقارنة بين المجتمعين التونسي والجزائري بخصوص علاقة الرجل مع المرأة: "حدّثني أستاذ فرنسي أنّه تناول الغداء في تونس مع أسرة عربية، وكان جالسا إلى الطاولة بين المرأة وابنتها، وكانت الأمور تسير تماما كما في الوسط الفرنسي". واعتبر أنّ هذا السلوك يُعبّر عن تطوّر المرأة التونسية؛ نتيجة لانتشار التعليم الفرنسي في المجتمع التونسي، وفتح مدارس تعليم البنات؛ مما أدى إلى تطوّر وضعية المرأة التونسية، التي بدورها ساهمت في تربية أبنائها وتحقّق تواءم المجتمع، وعليه يجب تعليم المرأة في الجزائر مثلما نفعل مع الرجل، وحمّيتها من الأنانية الذكورية².

ويبدو أنّ الرجل كان منفصلا عن الواقع حين راح يمتدح أعمال فرنسا في الجزائر، سيما في مجال التعليم، حيث تتبّع تطوّره منذ سنة 1830م، وعرّج على تعليم البنات الذي أشاد بفائدته رغم ندرة هذا النوع من المدارس، وبقاء التعليم مهني فقط، واعترف بأنّ الفتاة المسلمة سرعان ما تغادر المدرسة، واعتمد في طروحاته على الكتابات الفرنسية؛ التي من بينها دفاتر المثوية التي صدرت لتمجّد الاحتلال، لكن ما كان يهّمه هو أنّ تلك الفتاة التي تتراد المدرسة الفرنسية ستحدث التأثير المطلوب في أسرتها، مع ذلك أبدى أسفه لكون تعليم البنات في الجزائر المستعمرة لم يسر جنبا إلى جنب مع تعليم الذكور³.

وتبرز ضمن النخبة الوسيطة شخصية أخرى هو 'حاج شريف قاضي' (Hadj Chérif Cadi)⁴، الذي كان له رأي في مسألة الحجاب، إذ لا بدّ من احتفاظ المرأة

¹ - Ibid., 3eme partie, pp.349-350.

² - Ibidem.

³ - Ibid., 3^{ème} partie, p.384.

⁴ - حاج شريف قاضي (1867-1939): ضابط برتبة 'مقدّم' بسلاح المدفعية، أول مسلم جزائري يدخل المدرسة المتعدّدة التقنيات (l'école polytechnique). يُنظر:

بجانبها، خصوصاً في المدن الكبرى، وذلك لفترة قصيرة، خصوصاً وأن المرأة داخل القبيلة ليست متحجّبة، "باعتبار أن المقصود من حجاب المرأة هو حمايتها من إيذاء الأعراب، فإنّ هذا الوضع سوف يتغيّر عندما يتحلّى الرجال بمراعاة الأدب في معاملة النساء؛ وبالتالي فإنّ 'عادة الحجاب' سوف تختفي شيئاً فشيئاً عندما تختفي الأسباب التي أوجدتها"¹.

وتطرّق في كتابه 'أرض الإسلام' إلى بعض قضايا المرأة المسلمة، ومنها مسألة تعدّد الزوجات، واعتبرها بمثابة قاعدة عامة (règle générale) عند أوائل المسلمين خاصة في البلاد الحارّة، حيث بمجرد بلوغ الفتيات سنّ الثانية عشر يتمّ تزويجهنّ برجال يفوقهنّ غالباً في السنّ، ويجري ذلك نظراً لضعف المرأة يتمّ جبرها لرجل ثريّ وإرغامها على الزواج منه، وهو أصل ظاهرة تعدّد الزوجات عند المسلمين².

كما حزم أنّ: "المرأة في المجتمعات البدوية هي ضحية لضعفها الجسدي، وأنّ ارتقاءها يمرّ عبر تطوير ذهنية زوجها؛ لأنّه هو من يملك السلطة والقوامة عليها، وبالتالي هذا الأمر لا يمكن فرضه بالقوّة، وإنّما يتمّ بالتدرّج عن طريق التعليم العادل لأبناء الأهالي مثلهم مثل أبناء الفرنسيين، ليتحقّق التقارب المنشود، ولإنجاح هذا المسعى لا بدّ من إعطاء الرجال تعليماً قاعدياً باللغة الفرنسية؛ دون إجبارهم على التخلّي عن تعلّم اللغة العربية ودراسة الثقافة الإسلامية، ولا يجب أيضاً ضرب معتقداتهم الدينية التي هم مرتبطون بها بشكل عميق، ويمكن ترك للمسلم الجزائري أحواله الشخصية المستنبطة من القرآن وقبوله

https://data.bnf.fr/14625404/cherif_cadi/ Consulté le: 13/05/2020 à 11:45.

وهو صاحب كتاب: 'أرض الإسلام' (Terre de l'islam)، الذي دوّن فيه ذكرياته ومشاهداته خلال رحلة الحجّ التي قام بها إلى بلاد الحجاز عام 1925م/1335هـ، وقد كتب مقدّمته صديقه العقيد 'بول أوزان' (Paul Azan)، وقد عبّر في كتابه عن حبه لأرض الإسلام، واعتبرها بمثابة الأرض العزيزة على قلبه مثلها مثل أرض فرنسا' (Terre de France) التي يعيش عليها. يُنظر:

Hadj Cherif cadi : **Terre de l'islam**, Charles Lavauzelle Editeurs, Paris, (S.D), p.15

¹ - الطاهر عمري، النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع 1900-1940، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2003-2004، ص400.

² - Hadj cherif cadi, Op.cit, P.82.

كمواطن فرنسي"، و هو السبيل الوحيد -حسبه- ليرتقي الرجل الجزائري المسلم بتفكيره ويمنح المرأة حقوقها؛ لأنّ تعليم الرجل سيجعل منه يحسّن ظروف معيشة أسرته، وإنّ التعليم سيمكّن الرجل من تغيير ذهنيته واكتساب مهارات جديدة تسمح له بتحسين نمط حياته، وبطبيعة الحال ستحصل المرأة المسلمة على حصّتها من هذه المصلحة العامة، وستكون هي المستهدفة ضمن مرحلة ثانية¹. وقد سار 'صوالح' على خطّه حين اعتبر أنّ ظاهرة تعدّد الزوجات التي تعكس انحدار المجتمع الأهلي؛ سوف تختفي بمجرّد مجيء اليوم الذي تتمكن فيه المرأة الأهلية من نيل حقوقها، وهذا سيكون بفضل التعليم².

لقد طرح 'شريف قاضي' فكرة أخرى مفادها؛ إمكانية تحقيق هذا الارتقاء داخل أطر العقيدة الدينية (الإسلامية)، حيث يُفرض على المسلمين العيش المشترك مع زوجاتهم الشرعيات، والمواطن المسلم الذي يصير فرنسيا سوف يدرك بفضل التعليم واجباته نحو الأسرة، والمرأة بإمكانها حينها الخروج لقضاء شؤونها بكلّ حرية، وفي بداية هذا الارتقاء؛ المرأة تحتفظ بحجابها في المناطق الحضرية الكبرى؛ لأنّ النساء في الأرياف غير محجّبات أصلا، فالحجاب وُجد في العهد التركي لحماية النساء من فرضية التعرّض للاختطاف (...). و"الإسلام لم يأمر المسلم في البلاد الحارة والمسلم في أوروبا بارتداء نفس اللباس؛ بل الدّين أُتخذ كوسيلة للسيطرة، وبفضل الله، وبفضل فرنسا سوف يتحقّق التطوّر المنشود، وسنكون مسلمين - مواطنين فرنسيين، نمنح للنساء العيش في حرية وسعادة، ونستلهم المبدأ القرآني الذي يقول: 'استوصوا بالنساء خيراً'، وسيأتي الزمن الذي يكون فيه الرجل المتعلّم قادراً بدوره على تعليم زوجته وبناته، وهي المرحلة الأخيرة لمسار طويل وصعب؛ يقود المرأة البدوية المضطهدة لأنّ تعيش حياة عادية مثل أخواتها الأوربيات"³.

¹ - Ibid, pp.137-139.

² - Soualah, Op.cit, 3^{ème} partie, p.498.

³ - Cherif cadi, Ibid, pp.140-141.

3-2- النخبة الموالية للاحتلال وقضية المرأة: قدور بن غبريط:

في محاضرة لـ 'قدور بن غبريط' بالمغرب أمام جمع من السيدات؛ بعنوان 'المرأة العربية في الإسلام'¹ ذكر بـ "أن فرنسا التي تحكم المسلمين اليوم أبدت إرادتها في احترام الإسلام وعاداته وتقاليده الغالية، ومن أجل تحقيق هذا الغرض السامي، يجب علينا أن نبذل بأنفسنا تلك الأخطاء المقبولة بشكل عام في المجتمع الأوروبي. في هذا الصدد، لا يوجد رأي أكثر إثارة للتشكيك، على الرغم من الكثير من الكتابات والدراسات، من ذلك الذي يمثل المرأة العربية، التي تكون أحياناً مثل 'الحورية' مليئة بالتعم، وأحياناً مثل 'الحيوان الذي يحمل الأثقال' الذي يُسخّر للحرث، ولكن ليس على قدم المساواة مع الرجل".

كما طرح 'بن غبريط' مسألة تعدد الزوجات: "أيها السادة، لن أتعهد بإرضائكم، أنتم بالتأكيد تدينون التعدد بصوت عالٍ، لكن بعضكم لن يغضب في ممارسته بشكل سرّي، لكن دينكم وديننا متفقان على مغفرة الأخطاء التي ندفع لارتكابها، لست هنا لإلقاء خطبة لكن هو حديث بسيط؛ لذا دعونا لا نعبث بالمرأة، لكن دعونا ندرسها، نقول أن المرأة في المجتمع المسلم محرومة من كلّ الحريات، خلف جدران وأبواب موصدة، في بيتها وخارجه ترتدي حجاب يجلبها عن الأنظار، يدفع عنها إغواءات نفسها وشهوات الغرباء غير النقيّة، هذه المفاهيم تلخص وضع المرأة لدى الكثير من الأوروبيين ومنهم المثقفون"².

ويضيف: "لاحظوا أن المرأة في الأرياف لديها حياة جدّ مختلفة عن المرأة في المدن، في الحقول، تحت الخيمة، المرأة البدوية أيضاً حرة مثل الرجل، هي تشتري، صحيح أن حرّيتها متعلّقة بالعمل؛ كونها تشارك في أعمال الأرض الشاقة، إذ يمكننا أن نرى في 'البلاد' امرأة وحمار يسحبان المحراث الذي يقوده الرجل، هذا العرض قد يتفاجأ بعدسة سائح

¹ - Kaddour Benghabrit: «La femme dans l'Islam», ANOM: GGA 9X 299, Mariage 1921-1960.

² - Ibid.

ينشره في شكل بطاقات بريدية، تكرّس نظرية 'الحيوان الذي يحمل الأثقال'. هذا تأكيد مفرد، صحيح أنّ الفلاح العربي جشع لتحقيق المكاسب، قاسي على نفسه وعلى الآخرين، لديه ميل طبيعي للاستفادة من كل القوى العضلية البشرية والحيوانية الموجودة تحت تصرفه لتنمية أرضه والاستفادة منها. أليست هذه الذهنية موجودة في أوروبا، ونلاحظها في القرى؛ حيث النساء يساهمن في أكثر أشغال الأرض إزعاجاً؟¹.

واعتبر أنّ النساء في المدن لسن أقلّ حرية من نظيراتهن في الريف: "صحيح أنّهنّ محجّبات؛ لكن هذه الممارسة لا تعيقهنّ، ربما أقل من الموضوعات التي تبحث عنها أخواتهنّ في أوروبا (...). تحت الحجاب الخفيف النساء العربيات يؤدين أعمالهنّ، يذهبن بمفردهن إلى السوق، ويقمن بشراء حاجاتهن من المحلات، ويجدن محاورهن البائع المسلم أو المسيحي ويحدّثنه دون حرج. بالمناسبة رسولنا سمح للنساء بممارسة التجارة، وبالخروج لوحدهن بكلّ حرية لزيارة أهلهنّ، وسمح أيضاً للمرأة المسلمة بمغادرة بيتها عند الفجر للذهاب للمسجد، ألم تلاحظن سيداتي؛ النساء العربيات اللواتي يجبن أجنحة وممرّات المعرض، واللواتي يزاحمنكن على رفوف المتاجر الحديثة، واللواتي يغادرن في المساء"².

وحول تعليم البنات ذكر: "أعتقد أننا كلنا متفقون؛ إذا كانت أغلبية الرجال غير متعلمة، سيكون من غير الإنساني منح الفتيات المسلمات تعليماً متقدماً، سوف نضعهنّ في تعاسة؛ لأنّه إذا أردن الزواج ليست لهنّ أي حرية في اختيار أزواجهنّ، وسيكون هذا هو حال الفتاة المثقفة، بذهنية متفتّحة على الحضارة المعاصرة، عندما يزوجهن الوالدين لرجل شجاع لكنه أمّي، هذا سوف يكرّس لديها معاناة معنوية إلى آخر أيامها، إذن في هذه المسألة الخاصة التي تمسّ تعليم المرأة، دعوها للوقت"³.

¹ - Kaddour Benghabrit, Op.cit.

² - ibid.

³ - ibid.

وعلقت جريدة 'النجاح' القسنطينية على ما جاء في هذه المحاضرة قائلة: بتاريخ 3 فيفري 1934م ألقى 'قدور بن غبريط' محاضرة في العاصمة الفرنسية باريس، حول ذات الموضوع (المرأة في الإسلام) تطرّق فيها إلى أحوال المرأة عند العرب الجاهلية، وفي صدر الإسلام وزمن صاحب الرسالة -صلى الله عليه وسلم- ثم في عهد الخلفاء والدول الإسلامية، وقدّم الكثير من الشواهد على ما كان للمرأة المسلمة من التفوذ والمكانة والاعتبار.. وتكلّم عن تعدّد الزوجات في الإسلام؛ وإنّ هذه العادة كانت موجودة عند أقدم الشعوب، وقال: "لا تظنّوا أيها السادة أنّ المرأة المتحجّبة في بيتها في هذا العصر شمال إفريقيا ليست لها سلطة في بيتها، ولا على رجلها وأولادها، إنّ النساء هنّ (؟) والمدبّرات للأعمال المنزلية، ومنهنّ كثيرات يقمن بالأعمال الخارجية، وهنّ متحجبات، ويطلّعن على (؟) من داخل وخارج... ومنهنّ من أزواجهنّ لا يعملون عمل دون مشورتهم، ومنهنّ من يحفظن القرآن"¹.

كما كتبت 'النجاح' عن زيارة زعيمة النهضة النسائية المصرية 'هدى شعراوي' للمسجد الكبير بباريس في 15 يوليوز 1934م: "وقد استقبلها الوزير ابن غبريط بكلّ حفاوة، وأعجبت كثيرا بما شاهدت في المسجد.. وقد تبرّعت بمبلغ وفير لمساعدة الأعمال الخيرية الإسلامية، فشكرها سعادة الوزير قدور بن غبريط، وثاني يوم زيارتها أرسلت كتاباً خاصاً لسعادته كلّه شكر وثناء على همّته و مجهوداته، وكانت زيارتها للمسجد مع ما يقرب من 37 سيّدة من زعيمات النساء، وكانت حضرتهما قد أولت لهنّ وليمة عشاء في المطعم العربي الذي قرب المسجد، فألى الزعيمة العربية تقدّم أوفر الشكر وأعظم الثناء"².

¹ - صالح أورزقي: "المرأة في الإسلام: محاضرة وزير فرنسا قدور بن غبريط"، النجاح، ع. 1540، الجمعة 9 مارس 1934، ص 1.

² - مراسل الجريدة: "هدى هام شعراوي"، النجاح، ع. 1591، الأربعاء 25 جويلية 1934، ص 3.

إذا كان 'قدور بن غبريط' أحد أبرز وجوه النخبة المتجنّسة؛ قد اعتبر أنّ وضع المرأة في البلاد العربية وفي شمال إفريقيا ليس بذلك السوء الذي رسمته الأدبيات الغربية، فهناك من خالفه في هذا الرأي، وذهب إلى أبعد حدّ في انتقاد وضع المرأة في الجزائر؛ على غرار 'أبو القاسم تيجاني' (Abulqacim Tedjini)¹، الذي شبّه حالها بحال المرأة عند العرب الوثنيين، لكونها تحت السلطة الأبوية المطلقة، وحرمانها من الميراث واعتبارها هي نفسها جزء من التركة، وتعرضها للتطليق، وشبّه تعدّد الزوجات في الإسلام بعادة اتّخاذ الخليلات في العصر الجاهلي، بل المرأة الجاهلية لم تكن منغلقة مثل المرأة العربية المسلمة، فالمرأة في العصر الجاهلي تلعب أدواراً مهمّة في الحياة الاجتماعية والفكرية، فضلاً عن عدم ارتدائها للحجاب الذي لا أساس له في الشريعة الإسلامية²، بل إنّ العقبة الاجتماعية الكبرى أمام أي تطوّر يمكن أن تصل إليه المرأة في المجتمعات اليوم، وهو السبب الجوهرية الذي يقسّم المجتمع المسلم إلى مجتمع ذكوري ومجتمع أنثوي، دون أدنى رابطة للتآلف والتواصل³.

لقد ترسّخت لدى هؤلاء قناعة؛ بأنّه لا يمكن العيش خارج إطار الأمة الفرنسية؛ لأنّ: "الجزائر صارت فرنسية إلى الأبد، وبإرادة كلّ السّكان، ففرنسا التي احتلّت هذا البلد استطاعت أيضاً احتلال القلوب، والأهالي يعلنون غالباً عن طريق النّواب عن مدى اعترافهم لفرنسا التي وفّرت لهم السلام والأمن، والتي علّمتهم ورفعت المستوى الفكري والأخلاقي لأطفالهم"⁴.

¹ - أحمد أبو القاسم تيجاني: عاش في نهاية القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، مدرّس اللغة العربية في الجزائر والمغرب، حلّف العديد من الدراسات في مجال تعليم اللغة العربية المنطوقة والمقروعة، والمعاجم اللغوية الفرنسية- العربية المغربية الدارجة. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/10595001/ahmed_belqacem_tedjini تم الاطلاع: 2020/08/12 سا 11:10.

² - Abulqacim Tedjini: *L'évolution de la femme musulmane*, éditions Afkar, Alger, 1948, pp.13-14.

³ - Ibid, p.24.

⁴ - Chérif Sisbane: *Notes sur les réformes désirées par la fédération des élus des indigènes du département de Constantine*, imp. P. Braham, Constantine, 1931, p.3.

3-3- العادات والأعراف البالية سبب تخلف المرأة 'الأهلية':

كان للنخبة المتفرنسة اهتمام خاص بوضع 'المرأة القبائلية'، ربما بحكم انحدار أغلب هؤلاء من تلك المنطقة لأسباب تاريخية نعرفها، فجريدة 'صوت المستضعفين' على سبيل المثال، قامت بنشر القانون الصادر عن رئاسة الجمهورية الفرنسية بتاريخ 19 ماي 1931م، والمتعلق بتحسين الوضع المادي والمعنوي للمرأة القبائلية، حيث تناول هذا المرسوم عدّة مسائل تمّ المرأة ووضعها القانوني، من بينها مسألتي الطلاق وميراث المرأة في منطقة القبائل الكبرى¹.

وقبل هذا بسنوات دأبت الجريدة على متابعة أعمال اللجنة التي تشكلت لهذا الغرض، وقد نشرت تقرير المندوب المالي لمدينة تيزي وزو السيد 'حسان' الذي كان يمثّل هذه اللجنة، واللافت في هذا التقرير هو تشخيصه للعادات والتقاليد التي تُحيط بالمرأة القبائلية منذ طفولتها، ومن بين ما ذكره أنّ البنت لا يتم تقييدها في سجلات الحالة المدنية باسمها الحقيقي؛ لأنّ الأجنبي لا يجب أن يعرف اسمها، حيث يُعطى لها اسم آخر غير ذلك الذي تتّخذها لها العائلة، وهذا ما يتسبّب في أخطاء مؤسفة²، وهذا يذكّرنا بالعادة الغريبة عند العرب الذين يخجلون من ذكر أسماء بناتهم و نسائهم في المجالس العامة وأمام الأجانب، ويستعيضون عن ذلك بكنية أو صفة تُشير إليهن.

كما داومت هذه الجريدة على طرح قضايا المرأة في الجزائر، والبحث في الأسباب التي أدّت إلى تخلفها، وحاولت تقديم الحلول الناجعة للارتقاء بها وإخراجها من وضعها المتدنّي، وكانت ترى أنّ الحلّ هو تأديب (البنات) وإعادة تربية (النساء)، وضرورة طمس العادات القديمة البالية واستبدالها بعادات جديدة إنسانية وعادلة، و"منطقة القبائل التي

¹ - Voir: «Réglementation de la condition de la femme kabyle», La Voix des humbles, n°?, juin 1931.

² - M. Hacène: «Le statut de la femme kabyle», La Voix des Humbles, n°47, Novembre 1926, pp.10-14.

تقبّلت الإسلام بصدر رحب، لا ترغب في تغيير عاداتها وتقاليدها، وهي التي لم تتراجع أمام هرطقات الإسلام المبتورة (كذا)، والوعيد بالعذاب، كيف يمكنها الركوع أمام أحكام قاضي الصلح الفرنسي؟"، وتضيف: "الهدف من التحرير ليس التخلّي عن الأصول وميراث الآباء، وإنما هو تغيير أنفسنا حتى نكون جيّدين ماديا وفكريا وأخلاقيا"¹.

بالنسبة للمعلمين المتفرنسين فالمرأة في الجزائر بحاجة إلى 'إعادة تأهيل'، وهي مهمّة اجتماعية منوطة بنا تجاه أمهاتنا الموقّرات، وهذا يعتمد على تأهيل المرأة الأهلية التي تعاني لحدّ الآن من وحشية الأنانية الذكورية، وأوّل واجبات زملائنا هو العيش مع زوجاتهم، مهما كانت مناصب عملهم بعيدة، يجب أن يُعطوا المثال عن ليونتهم ووفائهم لقريناتهم بالاقْتصار على زوجة واحدة... وفي المقام الثاني حماية الأمهات والأخوات ضد سوء استخدام القوة أو الوقاحة الذكورية"، فالواجب الاجتماعي يفرض على الواحد منهم التعلّم؛ وجعل الآخرين يستفيدون من التعليم الذي تلقّاه².

وحتى طبيب التوليد 'خاصر حنفي' ربط بين تخلف الرعاية الصحية للمرأة 'الأهلية' والعادات والتقاليد التي تحكم المجتمع، فالمرأة التي تسعى للإنجاب؛ تواجه مشكلة العقم باللجوء إلى المرابطين والمشعوذين والسحرة، وأخذ الوصفات الشعبية والاستعانة بالتمائم والحروز؛ بدل لجوئها إلى الأطباء والتداوي، وأثناء فترة حملها تكون غالباً ضحيّة لعادات وتقاليد بالية، وممارسات الطبّ التقليدي، بما يحمله من أخطار على صحتها وحياتها جنينها³.

وتتفق النخبة المتفرنسة -سياسية كانت أم ثقافية- على أنّ الإهمال الاجتماعي قد طال المرأة في الجزائر، ومن بين الحلول التي تقترحها لتحسين وضعها هو تعليمها أصول النظافة ورعاية أطفالها والعيش وفق النمط الأوربي، ومنحها فرصة ارتياد مدارس التمهيّن

¹ - «A propos du statut de la femme indigène», *La Voix des Humbles*, n°6, Octobre 1922, p.7.

² - «La femme indigène», *La Voix des Humbles*, n°10-11, Février- mars 1923, pp.3-4.

³ - Voir: Khacer Hanafi, Op.cit, pp.14-44.

لتعلم الخياطة والتطريز ومختلف المهن، وبالتعليم وحده يمكن للمرأة أن تتخلص من بؤسها وجهلها، لكن يجب أن يُصاحب ذلك تغيير إيجابي في نظرة المجتمع تجاهها.

وفي مسألة الزواج بمنطقة القبائل ذكر تقرير المندوب المالي لتيزي وزو، أنه يتم وفق أصول الشريعة الإسلامية، لكن ينقصه عقد القران فقط، واقترح على المشرع الفرنسي أن يجعله إجبارياً أمام القاضي، وأوصى بضرورة منع الزواج المبكر في سن 10 إلى 12 سنة، واعتبر أن سن 15 إلى 16 سنة يعتبر معقولاً، وتمنى أن يتم إلغاء 'حق الجبر' وتعدّد الزوجات، هاتان الممارستين اللتان تجعلان من البنت والمرأة أسيرتين وتعيشان في عبودية وتعاسة، كما أكد أنه لا يوجد طلاق في منطقة القبائل؛ بل التطليق هو الممارس من طرف الزوج مثلما يحلو له ولأسباب غير واضحة، فهو وحده يمتلك حرية القرار، وطالب بتقنين الطلاق، وجعله من حق المرأة أيضاً طلبه أمام المحكمة¹.

لقد حرصت جريدة 'صوت الأهالي'، على نشر العديد من المقالات حول المرأة القبائلية وقضاياها، مثل تحديد سنّ الزواج للفتاة القبائلية للحدّ من ظاهرة الزواج المبكر، وما ينجم عنها من آثار وخيمة على الفرد والأسرة². ومن خلال هاتين الجريدتين يمكننا القول أنّ مواقف النخبة المتفرنسة كانت تأتي دوماً في سياق ردود الأفعال عن توجهات الحكومة الفرنسية المتعلقة بمسائل المرأة، وأخذت طابع التحفظ والشكاية، ولا تجرؤ إلا نادراً على رفع المطالب الجادة لتحسين وضع المرأة؛ باستثناء المطلب المتعلق بتعليم البنات.

كما تناولت بعض أقلام الصحافة المتفرنسة مسألة الحجاب، واعتبرت أنّ سكان القبائل لم يرغبوا يوماً ما أن يكونوا مشرقيين أو مسلمين في الصميم؛ إنّما اعتنقوا الإسلام كعقيدة فقط، وحافظوا في الوقت نفسه على عاداتهم وأخلاقهم الموروثة عن أسلافهم، كما بيّنت خصوصية المرأة القبائلية، التي تبقى الأعراف الاجتماعية السائدة، جدّ متشدّدة

¹ - M. Hacène, Op.cit.

² - «Le mariage kabyle se complique», *La Voix Indigène*, n°232, 2 Novembre 1933.

تجاهها، رغم الحريات المتروكة للنساء بحكم العادة: "فالتّساء عندنا يخرجن بكلّ حرية ويشاركن الرّجال أعمالهم، وهنّ أشبه بالنساء اللاتي يشتغلن بالفلاحة في فرنسا، مما يعني أن الحجاب غير معترف به واقعياً بمنطقة القبائل..."¹.

لقد تحجّج المتفرنسون بأن ارتداء الحجاب عادة دخيلة على المجتمع الجزائري، ولا تمتّ بصلة إلى الأعراف والتقاليد المتعلقة بلباس المرأة الجزائرية، بل ذهب البعض: "إلى أنّه ليس من اختراع المسلمين وإنّما عرفته المسيحية أولاً، وقبلها كانت المرأة اليونانية تغطي وجهها والفينيقية كذلك، وغيرهما من النساء عند الأمم عبر التاريخ، وابتداء من القرن الثالث عشر الميلادي برزت أهمية الحجاب (...). أما في الجزائر فالمسألة حسّاسة واختفاء الحجاب في المدن يحتاج إلى وقت طويل، ولخلق تغيير جري في لباس المرأة؛ يجب انتظار العمل التحرري الذي يأتي عن طريق المدرسة ليحقق تأثيره في عامة الشعب الأهلي"².

ولطالما ربط المتفرنسون بين مسألتي الحجاب والاحتجاب؛ أو إلزام المرأة بالبقاء في بيتها وعدم مخالطة الرجال في الأماكن العامة، واستندوا إلى النصوص الشرعية من القرآن التي يختصّ خطابها بنساء النبيّ دون عامة المسلمين -حسب رأيهم-، ومن السنّة النبوية التي حثّت المرأة مثلها مثل الرجل على التعلّم وطلب العلم والمشاركة في الحياة والنشاطات اليومية، وآراء بعض فقهاء المالكية الذين يبنوا صفة الحجاب الإسلامي، كما استدّلوا بنصوص من التراث العربي³، ورأوا في تعليم البنات المخرج من هذه المعضلة، فالمرأة إذا تعلّمت ربّت أبناءها على التفكير السليم والفهم الصحيح، وقادت بيتها طواعية نحو التطوّر والرّقي بمعية زوجها؛ الذي لن يعترض في مسألة الحجاب أو غيرها⁴.

¹ - Mohand: «Le voile en Kabylie», La Voix Indigène, n°387, 5 Novembre 1936.

² - Taciturne: «Le Voile», La Voix des Humbles, n°47, Novembre 1926, pp.14-16.

³ - Y. Larab: «Conseils d'une mère à sa fille», La Voix des Humbles, n°77, Aout 1929, pp.13-14.

⁴ - Benhoura: «Pour le relèvement de la musulmane», La voix des Humbles, n°76, juillet 1929, pp.8-12.

كتب أحد المعلمين المتفرنسين مقالاً حول المرأة القبائلية، مُبرزاً نظرة عامة الناس إليها، باعتبارها ضحية العادات المحليّة، وكونها مُستعبدة لزوجها¹، وذكر آخرون بمكانة المرأة القبائلية في المجتمع والحرية التّسيية التي تتمتع بها لدى معظم العائلات، حيث يُسمح لها بالخروج دون حجاب وارتياح الأماكن العامّة، فالحجر على المرأة في بيتها هناك مفروض على المرأة عند بعض العائلات الدينية المرابطية فقط².

وبالنسبة لمعلم آخر فإنّ: "سبب فشل زواج أغلب زملائه هو عدم عثورهم على المرأة (الجزائرية المسلمة الأهلية) التي ترقى إلى مستوى أحلامهم، فقد خابت آمالهم في تحقيق مثلهم بالزواج من امرأة متعلّمة ومؤدّبة؛ قادرة على بناء أسرة منظمّة، وتعليم الأبناء على قيم النظافة وتقاسم الأفكار مع زوجها، وليس امرأة غير واعية وخاملة، لا تعرف حتى تدبير شؤون بيتها، لكن تلك الإنسانة التي تُحسن التواصل والنقاش ببصيرة، وتقدّم له الأفكار الجيدة وحتى النصائح، لوضعه في الاتجاه الصحيح، والمرأة الفرنسية تشارك بجدّ في حلّ المشاكل التي تواجه زوجها يومياً"، ويتساءل: "لماذا لا تستطيع المرأة الأهلية فعل ذلك؛ مع أنّها تمتلك المهارات اللازمة مثل نظيرتها الفرنسية؟ لأننا لم نفتح لها المجال، ولأننا لم نربّيها على الكفاح، الذي حصلت عليه المرأة الفرنسية من خلال التعليم والتربية. ولمصلحة زملائنا المعلمين الشباب الذي بقي أغلبهم عزاب؛ ولمصلحة كل المجتمع الأهلي، يجب علينا نحن المربّين؛ تشجيع تحرير المرأة الأهلية لبلوغ الهدف الذي وضعناه نصب أعيننا... ولن يتحقّق ذلك إلا عن طريق تعليم بناتنا على حدّ السواء مع أولادنا"³.

¹- V. L: «La femme Kabyle», La Voix Indigène, n°392, 17 Décembre 1936.

Voir aussi: «La femme Kabyle», La Voix Indigène, n°393, 26 Décembre 1936.

²- Lokmane: «Notre émancipation», La Voix des Humbles, n°41, Janvier 1926, pp.32-33.

³- Didaoué: «De l'instruction des petites filles indigènes», La Voix des Humbles, n°41, Janvier 1926, pp.28-29.

ولم تكن جريدة 'صوت المستضعفين' لسان حال المعلمين من أصل أهلي¹ راضية عن تقرير المندوب المالي بتييزي وزو؛ الذي ترأس اللجنة التي سمّاها الحاكم العام لدراسة وضع المرأة القبائلية، ورغم موافقتها على موقفه حين شخّص وضع المرأة المتدني والظروف المؤلمة التي تعيش في ظلّها، لكنها اتّهمته بالمبالغة حين ذكر أنّ الشبان المتطوّرون الذين يعيشون وفق النمط الفرنسي؛ هم أنفسهم يرفضون حقّ المرأة في الملكية والميراث بحجّة عدم تشتيت الإرث العائلي، وادّعت أن أغلب المتفرنسين القبائل يلمون بالاعتراف الكامل بالحقوق الطبيعية للمرأة².

وحتى قضية حرمان المرأة القبائلية من الميراث من العادات الاجتماعية القليلة التي لم تُثر حفيظة المتفرنسين، وهم الذين انتقدوا الحجاب وطالبوا بتعليم البنات، بينما كانت لهجتهم خافتة حينما تعلّق الأمر بهذه المسألة، ومنهم من برّر ذلك بأنّ حقوق المرأة مكفولة ومعاشها مضمون لدى العائلة القبائلية؛ التي لا تقوم بتصفية تركة ربّ الأسرة بعد وفاته، وفي حالة ترمّل المرأة أو طلاقها فإنّها ترجع إلى البيت الأبوي مرفوعة الرأس، والنساء محميات من طرف الآباء حتى البعيدين في درجة القرابة؛ لأنّهم معنيون بسمعة العائلة³.

ولم تتغيّر لهجة المتفرنسين بخصوص مسألة ميراث المرأة القبائلية طيلة النصف الأول من القرن العشرين، فنقرأ مثلاً للنائب أحمد آيت علي: "المرأة القبائلية تحت وضع قانوني غير موافق لها، ما يمكنني قوله في القرن العشرين أنّه قد تمّ أسرها في وضعية دونية لا تتوافق

¹ - كان عدد هؤلاء حوالي 500 معلّم سنة 1931م، وهذا وفق ما ذكرته جريدته 'صوت المستضعفين'. يُنظر:

Satur : «**Habitat indigène**», *La Voix des Humbles*, n°99, 1-20 Mai 1931, p.15.

² - Secrétaire générale: «**Le Statut de la femme kabyle**», *La Voix des Humbles*, n°47, Novembre 1926, p.10.

³ - Satur: «**Salade: L'inévitable femme kabyle et la femme...**», *La Voix des humbles*, n°49, Janvier 1927, p.23.

مع المساواة التي هي مبدأ من مبادئ الجمهورية الفرنسية (...). على الأقل يجب أن تُماثل المرأة القبائلية مع المرأة العربية؛ التي تتمتع بوضع أكثر تحرراً¹.

وكان انعدام 'تعدد الزوجات' في أوساط النخبة الفرنسية مصدر فخر بالنسبة لهم، وحنة أخرى على حبهم العيش وفق نمط الحياة الأوربية، والتزامهم التام بالقوانين والقيم الفرنسية، "إن تعدد الزوجات لا وجود له عند النخبة، ومن المؤكد أن 'الأهالي' المتحررين من المدرسة الفرنسية ينظرون إلى دور المرأة بمفهوم قريب جداً من المفهوم الأوربي"².

لقد اعتبر أحد المعلمين من أصل أهلي أن الخطاب الفرنسي تجاه المرأة الجزائرية يتسم بالمبالغة في وصف وضعها؛ لأن المرأة في المجتمع الجزائري -حسبه- تخرج وتشارك في العمل، وإذا كان نقدهم موجه أساساً للحجاب؛ فإن هذا الحجاب ليس موضحة، وإنما هو يؤدي وظيفتين: فيزيولوجية؛ إذ يحمي الوجه من قسوة البرودة وحرارة الشمس (...). وأخلاقية؛ لأنه يخفي محياها عن عيون الغرباء، وهكذا لا تستحث أيّ كان لإلحاق الضرر بها، وذهب إلى حدّ اتهام المثقفين الفرنسيين بالأناية، حيث ينطلقون في خطابهم دوماً من الأنا ورفض الآخر، الذي عليه أن يتقبل آراءهم دون نقاش وبعيون مغمضة، وبحسب هذا الجزائري المتجنس فإنه: "ينبغي في المقام الأول تحضير المرأة 'الأهلية' لوجهتها الاجتماعية الجديدة، عن طريق التعليم وتنمية قدراتها الثقافية والأخلاقية، وحينما تتفتح ذهنيته ويستضيء وعيها وتتعزز إرادتها، وقتها فقط يمكن المطالبة بتحريرها"، كما انتقد بشدة وضع المرأة الفرنسية، التي كانت تناضل لنيل حقوقها هي الأخرى، ورفض أن تتحرر المرأة الجزائرية وفق النموذج الذي يقدمه الخطاب الفرنسي³.

¹- ANOM, 81 F 1219: Intervention de M. Ait ALI, député : Statut successoral de la femme kabyle, 15 Juillet 1952.

²- Chérif Sisbane, Op.cit, p.13.

³- Salah Ettebani: «De l'émancipation de la femme musulmane», La Voix des Humbles, n°112, Aout-Septembre-Octobre 1932, pp.15-19.

3-4- التعليم الفرنسي للبنات سبيل الانصهار الحضاري:

من أوائل الجزائريين المتجنّسين الذين نادوا بضرورة تعليم بنات الأهالي؛ 'إسماعيل حامت' (Ismail Hamet)¹، وقد نصّب نفسه منذ سنة 1906م مناضلاً من مناضلي 'الاتّجاه النسوي' الذي كان في أوج نشاطه في أوروبا؛ لذلك رأى أنّه من الضروري للمرأة المسلمة أن تتعلّم؛ لأنّ للتّعليم دورٌ هامٌ في مجال ترقية وضعية المرأة الجزائرية². وعبر عن عرفان الشبّان 'المسلمين' للمعلّمين من الفرنسيين والأهالي؛ الذين أشرفوا على تربيتهم وتعليمهم، وتساءل ألا يعطي هؤلاء نموذجاً عن الانصهار الفكري بين الأعراق؟³.

هذا التعليم يجب أن يكون في إطار الثقافة الفرنسية؛ لكي تستطيع المرأة الجزائرية المشاركة في الحياة العامة، والسبيل إلى تحقيق هذا هو درجة ارتقاء الرجال من الوسط الأهلي، على الرغم من أنّ 'إسماعيل حامت' كان يرى ضرورة تعلّم المرأة الجزائرية، وكسر كلّ القيود الاجتماعية، غير أنّ من رأيه أيضاً أن تبقى المرأة تحت سلطة الرجل؛ لأنّها ليس لديها من الكفاءات ما يُؤهلها للعب دور فعّال وناجح في الحياة العملية، فهي غائبة عن الحضور في مجال الصناعة والفنون، ولا يمكن الاعتماد على جهد المرأة من أجل ترقية المجتمع الأهلي، ورأى أنّ أنانية الرجل هي فقط التي حطّمت كرامة المرأة⁴.

¹ - إسماعيل حامت (1857-1932): أستاذ بالمدرسة العليا للغة العربية واللّهجات البربرية بالرباط؛ نال رتبة فارس سنة 1901، وصار ضابطاً و مترجماً بهيئة أركان الجيش الفرنسي منذ 1911م، حصل على وسام جوقة الشرف، صاحب العديد من المؤلفات عن التاريخ العربي، ويهود ومسلمي شمال إفريقيا، والسيطرة الفرنسية على المغرب الأقصى، يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/13010684/ismael_hamet/ Consulté le 13/05/2020 à 11:22.

² - الطاهر عمري، المرجع السابق، ص398.

³ - Ismail Hamet: *Les musulmans français du Nord de l'Afrique*, Librairie Armand Colin, Paris, 1906, p.p.59-260.

⁴ - أحمد مريوش: "مساهمة الحركة الإصلاحية في بناء المجتمع الجزائري المعاصر: 1900-1952"، مجلة الحكمة، ع.6، 2004، جامعة قسنطينة، ص103.

واعتقد 'حامت' أنه: "مع مرور الوقت سيكون هناك عدد معتبر من النساء 'الأهليات' الناطقات بالفرنسية من خلال التعليم، ويتمكن من المشاركة في الحياة الأوروبية"¹. وكان يدعو إلى ضرورة انتهاج الأساليب التي طبقها الكاردينال 'لافيجيري' والأخوات البيض الكاثوليكيات في القرن التاسع، حيث رأى أن: "دخول الأسرة المسلمة والوصول إلى النساء اللواتي لا يختلطن بالحياة العامة، سيكون بالطبع عن طريق الدور الذي تلعبه المرأة الطبية؛ المدعوة لتخفيف البؤس الجسدي والبؤس الأخلاقي على حد سواء، دون شكّ هذا الدور المزدوج الذي يجب تحقيقه، وقد تمّ بالفعل في المدن أين طالبات الطبّ يعملن عليه بالتوازي مع الممرضات من أصلي أهلي، خلال معالجتهم للعائلات المسلمة"². واعتقد أن تبديد جهل المرأة 'الأهلية' سيؤدّي إلى غزوها، وإسقاط ما تبقى من ممانعة لديها تجاه المجتمع الأوروبي³.

وفي عام 1909م دعا متفرنس آخر هو 'بن علي فكار'⁴ إلى ضرورة اعتماد سياسة تعليمية هادفة تعمل على تحقيق اندماج 'الأهالي' في المجتمع الفرنسي، وقال في مداخلة حول 'إنجازات الفرنسية في الجزائر': "إنّ عدد 28000 تلميذ من أصل أربعة ملايين نسمة من الأهالي المسلمين، حقيقة هذا العدد غير كافي، يجب أن نعتزف بأنّ التطوّر سيكون من خلال مضاعفة الجهود التي تعمل على القضاء على ظلّ سوء فهم بين العرقين"⁵.

¹- Ismail Hamet, Op.cit, p.p.254-255.

²- Ibid, p.255.

³- Ibid, p.256.

⁴- أحد الشبان الجزائريين، عاش بين 1872 و 1942م؛ أصيل تلمسان، عمل محامياً وأستاذاً للغة العربية، كتب في الصحافة وكان رفقة أخيه 'العربي' من رواد حركة الشبان الجزائريين. يُنظر:

Benali El Hassar: **Les jeunes algériens et la mouvance moderniste au début du XXe siècle: Les frères Larbi et Bénali Fekkar**, Edilivre, France, 2013.

Voir aussi: El-hadi Chalabi: «Un juriste en quête de modernité : Benali fekkar», *Revue NAQD*, N°11, 1/1998, p.p.41-58. Le lien: <https://www.cairn.info/revue-naqd-1998-1-page-41.htm> Consulté le 15/05/2020 à 18:33.

⁵- نقلا عن: بشير سحولي، المرجع السابق، ص131.

ونجد 'حاج شريف قاضي'؛ يربط بين وضعية المواطن الفرنسي الذي أدرك بفضل التعليم واجباته نحو أسرته، وبين وضع المرأة المسلمة في الجزائر، فيقول: "بفضل الله وبفضل فرنسا، يُمكن أن يتحقّق حلمنا في رؤية رجال مسلمين ومواطنين فرنسيين يمنحون نساءهم فرصة العيش في كنف الحرية والسعادة، وأنّ يستلهم كلّ ذلك من القرآن الذي يأمر بحسن معاملة المرأة"، ويركّز على التدرّج في تحرير المرأة بواسطة تعليم الرجل نفسه الذي "يتوصّل هو نفسه تدريجياً إلى الاقتناع بضرورة تعليم زوجته وبناته، وهذه هي المرحلة الأخيرة في الطريق الطويل والشاق الذي تتحوّل فيه المرأة من بدوية تعاني الشقاء إلى امرأة حرة، تتقاسم مع شقيقاتها الأوربيات الحياة العادية"¹.

وطالب 'محمد صوالح' بضرورة تهذيب روح المرأة المسلمة، وحمايتها من أنانية الرجل، ودعا إلى تعميم مدارس البنات على كلّ القطر الجزائري الحضري والريفي، كما عدّد النتائج الإيجابية لهذا التعليم بقوله: "عندما تتخرّج البنت من المدرسة تقوم هي بنفسها بممارسة تأثير داخل وسطها العائلي، ولا يخفى أنّه لكي يحدث التطوّر الحقيقي والنهائي في حياة المجتمع، لا بدّ من قيام المرأة، مثلها مثل الرجل بدور الريادة؛ لأنّ المرأة في النهاية هي السيّدة في المنزل، وطالما لم تقم المدرسة بتنوير عقل المرأة الأهلية، ولم تقم بتهذيب سلوكها وعواطفها، فإنّ عملنا باتجاه الحضارة سيبقى في السطح وليس في الأعماق"².

ومن المسائل التي دأب 'اتحاد المعلمين من أصل أهلي' على طرحها من خلال صحافته؛ مسألة تعليم البنات 'الأهليات'، حيث كانت الدعوات مستمرة وملحة بتعليمهنّ اللغة الفرنسية وجعلهنّ متشبّعات بالثقافة الفرنسية؛ بهدف تربيتهنّ وتخليصهنّ من العادات البالية التي أعاقت تطوّرهن، وبالتالي تنشئة 'شريكات مناسبات' للرجال المسلمين

¹ - الطاهر عمري، المرجع السابق، ص.ص 399-400.

² - المرجع نفسه، ص 402.

المتحررين؛ لأنّ المرأة الأوربية بعلمها وثقافتها وحياتها العصرية، كانت أكثر جذباً للمتفرنسين في ذلك الوقت.

نقرأ في صوت المستضعفين: "إنّ أهمية التعليم للفتيات لم تكن خافية على أحد؛ لأنّها تشمل مستقبل كل شعب، وكما ذكر النائب الفرنسي ش. دوماس (Ch. Daumas): 'أي عرق لن يتحرّر إذا حكم على نصفه بالعبودية الأبدية'، والمصريون والأتراك قد أدركوا ضرورة جعل نسائهن يقمن بدورهنّ الاجتماعي، الذي سيسرّع السير نحو التقدّم (...) وتعليم بناتنا هو في نظرنا أحد الاحتمالات للرفقيّ وتحقيق نتائج مثمرة، وسيسمح للرجل والمرأة بولوج الحضارة من أوسع أبواب التحرّر التام، وهذا سيكون بواسطة المعلّمين الذين حصلوا من فرنسا على الوسائل اللازمة لذلك"¹.

كما لم تكفّ 'جمعية المعلّمين' عن المطالبة بفتح مدارس للفتيات، وصار أعضاؤها يرفعون احتجاجاتهم بهذا الشأن، سيما بعد أن فهمت الأغلبية من 'الأهالي' أن التطوّر لن يكتمل دون نجاح التعليم للجنسين، والسلطات العمومية الفرنسية بدأت تدفع نحو تحقيق ذلك، رغم أنّ الحاكم العام السيّد 'موريس فيوليت' صرّح أنّ الموارد محدودة ولا تكفي (...) والمطلوب هو تحسين حالة المدارس الأكواخ (Les écoles Gourbis)، التي تشمل على العتاد الضروري والمساكن المناسبة، لكن يجب تخصيص الميزانية اللازمة والمصاريف لا يجب أن تتجاوز الإيرادات، والتمويل يبقى دائما حائلا دون ذلك².

ومن أولاد علي بن ناصر كتب 'السيد محيو' عن تحرير الفتيات، واعتبره بمثابة الحلم الجميل الذي يراود النخبة المتفرنسة، ودعا إلى اتّخاذ المبادرة اللازمة لتحقيقه؛ دون انتظار تدخل الحكومة الفرنسية التي تمرّ بظرف صعب وتفتقر إلى الموارد المالية، وهي لا تستطيع

¹ - Mohamed El-kébir: «Des écoles pour nos filles», La Voix des Humbles, n°39, Novembre 1925.

² - Mo-hand: «A propos des écoles de filles indigènes», La Voix des Humbles, n°41, Janvier 1926, pp.30-31.

سوى بناء مدرستين أو ثلاثة في السنة الواحدة وهو عدد غير كافٍ؛ لذلك اقترح تشكيل لجنة لتحرير الفتيات المسلمات¹.

واعتبر 'طاهرات' أنّ المرأة هي أهمّ عنصر في المجتمع، وقال: "إذا أردتم أن تُثري البذرة ثمارها ضاعفوا من المدارس (...) علّموا الفتيات أمّهات المستقبل والزوجات، عليكم بتعليم وتثقيف الوسط الاجتماعي، أين يتطوّر وينمو وينشأ الطفل (...) طالما لم تسهّلوا عملية الفرنسة للتلاميذ 'الأهالي'، وطالما لم تعلموا على تغيير الذهنيات؛ فإنه من غير المعقول ولا المنطقي ولا الإنساني أن يُلام 'الأهالي' الجزائريون على إلزام بناتهم البقاء في البيوت في سنّ الرابعة عشر"².

كما تحدّثت المعلّمة 'جبالي' من سطيف عن إهمال تعليم الفتيات المسلمات، مع أنّ الكلّ صار يُدرك أهمية ذلك حتى الأميين من الجزائريين، كما أنّ الشبان الجزائريين صاروا يرغبون في الزّواج من الفتيات المتعلّمات، وانتهت إلى وجوب إقامة المزيد من المدارس للفتيات المسلمات في المدن والأرياف، ودعت إلى الاعتماد على المدارس المختلطة، وإدخال الفتيات المسلمات إلى المراكز الخاصة، والمدارس التي تدرس بها الفتيات الأوربيات³.

وجزم المتجنّسون أن تطوّر المرأة المسلمة في الجزائر هو شبه منعدم؛ فالمرأة الأهلية في سنة 1933م، لا يختلف حالها عمّا كان عليه سنة 1830م، مع بعض الاستثناءات النادرة جدّاً، وأرجعوا سبب بقائها متخلّفة إلى الجهل والعادات والتقاليد المشوّهة من طرف

¹ - M. Mahiout: «Pour l'émancipation de nos jeunes filles: Une initiative à prendre», La Voix des Humbles, n°45, Aout-Septembre 1926, pp.17-18.

² - La voix des humbles, n°56, janvier 1928, p14. 144. نقلا عن: بشير سحولي، المرجع السابق، ص

³ - La voix des humbles, n°181-182, Juin-Juillet, 1937, p.p.30-31. المرجع عن: بشير سحولي، المرجع

السابق، ص ص.144-145.

المرابطة على الخصوص، ونجده يحث الإدارة الفرنسية على فتح المجال أمام المرأة للتعلّم: "المرأة العربية المتعلّمة ستستفيد معنوياً وتستطيع مساعدة زوجها في أعماله¹.

نشرت 'صوت الأهلي' مقالاً تحت عنوان: 'تعليم الفتيات الأهليات'، وأرفقته بإحصائيات قدّمتها مادام بوتيني (Mme Boutini) خلال مؤتمر النساء المتوسطيات، والتي تبين فيها نقص المدارس الموجودة الموجهة لتعليم البنات، رغم مطالبة الأهالي بهذا التعليم منذ مدة، كما تجزم صاحبة المقال بأن المدارس الموجودة على قلتها قد حققت نتائج مرضية، وأرجعت منه الأهالي بناهم من الالتحاق بالمدرسة، إلى حاجتهم إليهنّ لأداء الأشغال المنزلية؛ ما يعني أنّه لم تعد هناك مقاومة منظّمة (systematique Resistance) أو رفض لهذا النوع من التعليم كما في السابق، وبأن العادات والتقاليد هي العائق الأوّل أمام تعليم البنات، لأنهنّ يُحجبن مبكراً بين سنّ 11 و12 سنة².

كما نقرأ في ذات الجريدة مقالاً آخر عن 'مؤتمر النساء المتوسطيات'، يدور حول ذات الموضوع، بعنوان: 'بتعليم بناتنا سنصير أفضل'، وقّعه صاحبه بـ 'أبو الزهرة'، الذي يرى أنّ تعليم المرأة سيجعلها تعرف كيف تدافع عن حقوقها وتقوم بواجباتها كزوجة وأمّ بوعي تامّ...³. بينما يذهب متجنّس آخر يدعى 'مترف' (Metref) بعيداً حين كتب متسائلاً: "لماذا لا نعكس الأمر ونجبر الأهالي في قضية تعليم بناهم على نحو ما تمّ به تعليم أبنائهم، فقد نفروا في بداية الأمر؛ ولكن بعد إجباريته وعلى مرّ السنين أصبحوا يتنافسون على تعليم أبنائهم"⁴.

¹ - Guebli: «**humble avis d'un musulman sur l'évolution de la femme indigène**», La Voix indigène, n°239, 21 Décembre 1933.

² - Jeanne Bottini-Houot: «**Instructions des filles indigènes**», La Voix indigène, n°195 et 196, 06 et 13 Avril 1933.

³ - Abou-Ezzohra: «**En instruisant nos filles nous deviendrons meilleurs**», La Voix indigène, n°268, 12 Juillet 1934.

⁴ - Metref: «**Le facteur décisif de l'évolution**», Voix des Humbles, n°101, Juillet 1931, p.13.

وأبان 'رابح زناتي' عن تقاعس الإدارة الفرنسية بالجزائر في إقامة مدارس للبنات، وكذلك التمييز بين الفتيات الأوربيات ونظيراتهنّ المسلمات، إذ يتمّ قبول بنات الموظفين في الإدارة والعائلات الكبيرة فقط؛ ممّا أثر على الشبان المثقفين من 'الأهالي' الذين يرغبون في اختيار زوجات متعلّقات¹.

كما ندّد بعض المتفرنسين بأعداء غيرهم فيما يتعلّق بتعليم المرأة الأهلية واعتبروها واهيةً، كالقول بعدم المسّ بالعادات وزعزعة التقاليد، ويعدّ ذلك بالنسبة لهم مكرّاً وخداعاً للحفاظ على سيطرتهم وعنجهيتهم تجاه المرأة. وردّوا على الإدارة الفرنسية في اختلاق أسباب عدم توفّر المال الكافي لإنشاء المدارس وتمويلها، حيث عدّوا هذه المبررات واهية؛ إذ أنّ الاستثمار في التعليم تكون ثماره إيجابية ومرجحة في جميع الحالات؛ لأنّ الأجيال المتخرّجة من المدرسة الفرنسية، ستكون متشبّعة بالحضارة والمبادئ الإنسانية؛ فتكون بالنتيجة حريصة على مصالح فرنسا ومدافعة عنها².

ومن المرات القليلة التي كتب فيها قلم نسوي متفرنس عن معاناة الفتاة والمرأة الجزائرية، نقرأ خواطر موقّعة باسم 'جنات' (Djennat)، عبّرت فيها صاحببتها عن حالة الانعزال التي تحياها الفتيات الجزائريات، والاضطهاد المجتمعي المسلّط عليهنّ، وطالبت بفتح مجال التعليم والتربية أمامهنّ³.

لقد عبّرت كتابات المتجنّسين عن آمالهم في ارتقاء المرأة الجزائرية إلى مصاف الحضارة الغربية، وعكست أحلامهم ب حياة على النمط الفرنسي؛ لن تتحقّق إلاّ بتعليم المرأة 'الأهلية' تعليماً فرنسياً؛ لتكون نظيراً للشباب المتجنّس ونداً له، ومع ذلك بقيت قلة من

¹ - La voix des indigènes, 25 mars 1937. 143. نقلا عن: بشير سحولي، المرجع السابق، ص 49-48.

² - النوي معماش، المرجع السابق، ص 49-48.

³ - Djennat: «Complainte des fillettes musulmanes condamnées à la réclusion», La Voix des Humbles, n°132, Décembre 1933, pp.16-17.

الجزائريين الذين تكوّنوا في المدارس الفرنسية وتشبّعوا بالثقافة الفرنسية؛ مدفوعين أكثر من غيرهم للمطالبة بالتجنّس بالجنسية الفرنسية؛ سواءً لأنّهم يعتقدون بتفوّق الحضارة الغربية التي ستحقّق طموحاتهم في العدالة والمساواة، أو رغبةً منهم في الارتقاء الشخصي؛ فكانوا دُعاة متحمّسين لتحقيق فكرة إدماج الجزائر في فرنسا¹.

ويُعدّ كتاب 'الشريف بن حبيلس': 'الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي' (L'Algérie française vue par un indigène)، أصدق تعبير عن مواقف المتجنّسين، فقد كان يرى: "أنّ تكوّن نوع من النخبة الأهلية في الجزائر؛ يسكنها حبّ الحضارة الفرنسية، هذه الأقلية المتفتّحة على منجزات الحضارة الغربية وقيمها في العلم والعمل تصل إلى حدّ عبادة (كذا) المجتمع الفرنسي وخصوصاً في الجانب المتعلّق بحرية المرأة (...). وإذا كانت هذه النخبة لا تزال مُرتبطة بالعقيدة الدينية؛ فإنّ تأثرها بالخطب الدينية لا أثر له، كما أنّها هجرت ممارسة الشّعائر الدينية"²، وكان يؤكّد دوماً على ضرورة تحرير المرأة الجزائرية التي تعاني من وضع ثقيل ومُحزن؛ جعل منها 'أمة' تقوم بجميع الأعمال الشاقّة؛ من جلب الماء وجلب الحطب، إضافة إلى 'نظام الخمّاسة'، الذي تُعتبر ضحيّة له أكثر من الرّجل³.

لطالما أعلن المتجنّسون صراحة رفضهم طرق الزواج التقليدية السائدة في المجتمع 'الأهلي' آنذاك، والارتباط بزوجات جزائريات (أهليات) أمّيات غير متعلّقات، ولجأ أغلبهم إلى 'الزواج المختلط' الذي كان يرفضه المجتمع بشدّة، فارتبط بعضهم بزوجات فرنسيات و أوريبيات؛ كمسعى من طرفهم لتحقيق الاندماج المرغوب. وهذا الأمر لا

¹ - كريمة بن حسين: "المتجنّسون: مواقفهم، أفكارهم وطموحاتهم"، مجلة العلوم الإنسانية، ع.30، مج.أ، ديسمبر 2008، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة، ص127.

² - الشريف بن حبيلس: الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، تر.عبد الله حمادي؛ فيصل الأحمر؛ وسيلة بوسيس، دار بهاء الدين، قسنطينة، 2009، ص35.

³ - الطاهر عمري: النخبة...، المرجع السابق، ص398-399.

يسري على المتفرنسين فقط؛ بل هناك من رجال الحركة الوطنية من اختار زوجة أوروبية، مع الاختلاف في الرؤى والأهداف، ومن بين هؤلاء رائد الاتجاه الوطني الاستقلالي 'مصالي الحاج'، الذي تزوّج من امرأة فرنسية هي الناشطة النسوية 'إيميلي بيسكوانت' عام 1924م، والتي كانت خير سند له في كفاحه السياسي ضد الاحتلال.

في عام 1926م؛ حيّت جريدة 'صوت المستضعفين'، وهي لسان حال المتفرنسين؛ الوفد النسائي (الأهلي) الذي استقبل من طرف السيدة 'فيوليت' (Mm Viollette): "حيث استطعن محو الصورة السلبية والأحكام المسبقة عن المرأة المسلمة التي جعلتها مثل الدمية التي خلقت للمتعة فقط، وبخلاف الرأي العام الذي ينظر إليهنّ على أنّهن عاجزات رتبيات وفارغات، مشغولات بالأمر النافهة في خدورهن، غير قادرات على التفكير واتخاذ القرار، أثبتت هؤلاء النسوة على أنّهنّ جديرات؛ على غرار أخواتهن الأوربيات؛ على لعب دور اجتماعي جد فعّال"، واعتبر محرر المقال أنّ هذا اليوم يمثّل حدثاً تاريخياً في يوميات النساء الأهليات الجزائريات، والمأمول هو أن هذه المحاولة للعمل النسوي تكون متكرّرة ومعمّمة، فمن المهمّ أن تجتمع النساء المسلمات تحت راية منظمة تمثّل العنصر النسوي الأهلي في العمالات الثلاث، وهكذا ستكون هناك خطوة نحو تحرير المرأة الأهلية؛ الذي سيقود إلى تطوير شمال إفريقيا¹.

وعوّل 'رابح زناتي' ومن خلفه النخبة المتجنّسة على السيّدّة 'فوليت' وزوجها الحاكم العام آنذاك؛ للارتقاء بالمرأة الجزائرية، فكتب مقالاً مفعماً بالمشاعر تجاه مبادرتها المهمة لصالح المرأة الأهلية، وراح يمتدحها بأبلغ العبارات فقال: "هي المرأة الفرنسية من القلب، ماركيزية مائعة من القرن العظيم (عصر الأنوار)، التي تعي الدور الحضاري لبلدها، وقد اضطلعت مع زوجها بأن تظهر لـ'أخواتها المسلمات' الوجه الناعم لفرنسا، بعبقريتها

¹- Lechani: «Bravo! Les femmes d'Alger», *La Voix des Humbles*, n°41, Janvier 1926, pp.22-23.

الخيرة ومثلها العليا، وهي تعرف كيف تجد الطريق إلى قلب فتيات إفريقيا، ونجحت ليس فقط في إخراجهن من عزلتهن؛ ولكن أيضا في جعلهن مهتمات بالحضارة العصرية، ويعتقد 'زناتي' أن: "السيدة فيوليت لديها نظرة واضحة لوضعية البلاد؛ لأن المرأة الأهلية تكتسب الحضارة والحياة العصرية؛ إذا تمّ التحرير السريع لكلّ الشعب، وإذا اكتملت أعمال المدرسة الفرنسية، وتمتّ فرنسة كلّ الجزائر"¹.

واستغلّ الدكتور 'سماتي' حفل تخرّج المرضات المسلمات بسطيف عام 1947م؛ ليحثهن على أداء وظيفتهنّ بتفاني وإتقان، وأن يلعبن دورهنّ الاجتماعي ويعملن على ترقية المرأة المسلمة، "فهي بين أيديكن، وستكنّ مثال بالنسبة للكثيرين فاحرصن على أن تكنّ قدوة حسنة بسلوككنّ ومظهركنّ، أثبتوا للجميع بأنّ المرأة المسلمة لديها القابلية للتحرّر الأخلاقي والثقافي، أتنّ تتحمّلن مسؤولية عظيمة في المستقبل السعيد أو التعيس لأخواتكنّ"، وسارت السيّدة 'درقيني' (Derguini) في الاتجاه نفسه؛ حين اعتبرت أنّ أكبر نجاح تحقّق هو سماح العائلات لبناتها بالخروج والالتحاق بالمدرسة سافرات، وعلى كلّ واحد أن تعمل لرفع عدد المسلمات المتطوّرات، وأيضا زيادة عدد الأسر الجزائرية العصرية والسعيدة².

ولاحظ 'حمزة بوباكور' (Hamza Boubakeur) أنّ المرأة المسلمة في شمال إفريقيا بقيت غريبة عن حركة تحرّر المرأة التي عرفتها المنطقة، وضعها بقي جامداً، ترتدي دوماً الحجاب وتخرج بصحبة عموز أو امرأة صالحة لزيارة أقاربها أو الذهاب إلى الحمّام أو المقبرة كلّ جمعة أو الأضرحة، وبالطبع للحصول على بعض الحرية والتنفيس عن روحها

¹ - Zenati: «Madame Viollette et l'évolution des musulmanes», La Voix des Humbles, n°56, Janvier 1928, pp.17-18.

² - ANOM, 81 F 1218: Rapport au GGA: Allocution prononcé par monsieur docteur SMATI à l'occasion de la distribution des prix, école d'infirmières visiteuses musulmanes- Sétif, 30 Juin 1947.

المسجونة إلى الأبد (...) إن تطوّر المرأة يتضمّن إلغاء الحجاب، وجعل مشاركتها أكثر حضوراً في الحياة الاجتماعية في كلّ الميادين¹.

أما القاضي 'بن حرة' فقد درس المسائل المتعلقة بالأحوال الشخصية الإسلامية في الجزائر وغيرها من البلدان العربية والإسلامية، واعتبر: "أنّ أيّ إصلاح قانوني في الجزائر؛ يجب أن يبدأ في بتحسين وضع المرأة المسلمة، وإعطاء هيكل للعائلة المسلمة يتناسب مع الحياة العصرية (...). لذلك من الضروري على ما يبدو؛ إلغاء أو الحدّ من تعدّد الزوجات، التطلق أو الخلع من جانب واحد، وحقّ الجير (إجبار البنت على الزواج دون رضاها)، بالإضافة إلى إصلاحات أخرى تفرض نفسها: إلغاء الحجاب الذي هو عادة وليس حكماً قرآنياً، ونظام الميراث، لكن هاتين الأخيرتين ليست لهما صفة استعجالية، وسوف تخفیان من تلقاء نفسها مستقبلاً؛ عندما تتجاوز الإصلاحات المذكورة العادات والتقاليد.

والإصلاح المأمول -حسبه-: "له هدف أساسي هو تحرير المرأة المسلمة، ورفع مستواها المعيشي بشكل يمكن من الاعتراف بأهليتها القانونية التامة والشاملة والمساوية لتلك التي لزوجها، لكن من المناسب أن هذا التحرير لا يحرك مسلمي هذا البلد، فكثير منهم ينظرون إلى تحديث عاداتهم ببعض الخوف، وتبدو حضارتنا والحرية التي يتمتع بها رفقائنا بمثابة إهانة للأخلاق". و بالنسبة له فإنّ هذا الإصلاح يجب أن يكون متناسق مع تطوّر العادات لتفادي أيّ معارضة، كما يجب أن يكون بشكل جذري ويحترم المعتقدات الدينية للمسلمين، ويبدأ هذا العمل من المدرسة بمنح فرصة التعليم للبنين والبنات، يجب أن يفهموا أنّهم متساوون، وبأنّ لديهم التزامات تجاه بعضهم البعض، وأن يكرّس هذا قانون الأسرة"².

¹ - ANOM, GGA 9 X 165: La musulmane Nord-Africaine aujourd'hui, Décembre 1953.

²- ANOM, 73 APOM 2: Le cadi BENHOURA: Peut-on reformer le statut personnel des français-musulmans d'Algérie?, Juin 1955.

3-5- المرأة التركية نموذج المتفرنسين لتحرير المرأة 'الأهلية':

كان انتصار اللائكية ومبدأ المساواة بين الرجال والنساء؛ محل إعجاب الفتيان الجزائريين بالنظام الكمالي (نسبة إلى كمال أتاتورك)، لقد بدا الوضع الجديد للمرأة التركية بمثابة تحقيق لمثل (Idéal) للشبان الجزائريين؛ لذا استمدوا منه الحجّة بأنّ الدين الإسلامي يتماشى مع الضرورات الاجتماعية للعالم المعاصر¹. لقد كان اهتمام النخبة الجزائرية بتطوّر وضع المرأة في تركيا مبكراً، نجد ذلك لدى رائد الحركة الوطنية الجزائرية 'الأمير خالد'، من خلال جريدته 'الإقدام' التي نقلت عن مجلة 'الهلال' خبراً عن أول امرأة تركية تتقلّد منصب الوزارة في تركيا².

عبّرت النخبة المتفرنسة عن إعجابها بالتجربة التركية؛ إذ يقول أحدهم: "إنّ هذا الحدث هو ذو أهمية بالغة ويشكّل الأطروحة المفضّلة بالنسبة لنا؛ وهي أنّ الإسلام قابل للتطوّر وأنّ المسلمين لن يصلوا إلى شيءٍ من التقدّم، إذا لم يتمكّنوا من الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية..."³. كما نقرأ في جريدة 'صوت المستضعفين' جملة من المقالات التي تبشّر بالعهد الجديد للمرأة التركية المسلمة في ظلّ ثورة 'مصطفى كمال أتاتورك' الذي ألغى تعدّد الزوجات، وضمن حقّها في طلب الطلاق إذا ارتكب زوجها الفاحشة، وجعل المرأة والرجل متساويين أمام القانون⁴.

ونقلت النجاح مقالا مترجما عن 'الصوت الأهلي' لكتابه الحاج قاضي؛ ورد في مستهلّه: "إنّ مما يكدرني أنّ قومي رغم احتكاكهم بفرنسا قرنا كاملا لازالوا قاصرين عن إدراك أسباب هذه الحياة؛ مستمرين على جمودهم المزمّن إلا القليل النادر منهم، وإنّ المرأة

¹ - علي مراد، المرجع السابق، ص 386-387.

² - "أول امرأة تقلّدت منصب الوزارة"، الإقدام، ع. 12، 18 ربيع الثاني 1339هـ/ 3 نوفمبر 1920، ص 2.

³ - الطاهر عمري، المرجع السابق، ص 384-385.

⁴ - Zénati: «La révolution turque et la femme musulmane», *La Voix des Humbles*, n°66, Novembre 1928, pp.1-3.

المسلمة الجزائرية لم تكن من ثمار المدنية الحاضرة نقيرا كيفما كان، وإن الجانب الكثير من الناس بقوا على حالتهم الأولى، ولم تنزل امرأة 1930 مثلها في 1830 ضحية الجنس الأقوى، ولطالما بذلتُ الجهد الجهد في تحسين حالة أخواتي البائسات حنانة (كذا) على إهمالهن، فلم تكمل أعمالي بنتيجة مرضية إلى الآن...¹.

ونقرأ الاهتمام البالغ بوضع المرأة التركية، وتجلّى ذلك في مقال بعنوان: 'الحالة المدنية للمرأة التركية الحديثة'، من بين ما ورد فيه: "تغيّرت الحالة المدنية للمرأة التركية مقارنة بما كانت عليه قبل إحدى عشر عاماً، بفضل حكومة أتاتورك؛ فالمرأة لم يكن لها أيّ حقّ عدا حق إدارة أموالها. فلم يكن لها الحق في الزواج بإرادتها أو رؤية خطيبها..."². وأشاد أحد المتجنّسين بإعطاء المرأة في تركيا حقّ الانتخاب؛ مثلها مثل النساء في الدول البروتستانتية ألمانيا وإنجلترا، واعتبر أنّ الدولة الفرنسية تأخرت في هذا الجانب، أما بالنسبة للمرأة الجزائرية فلم يكن الوقت للمطالبة بحقها في المشاركة السياسية، لكن اعتبر أنه من الضروري والعاجل تعليمها دون تأخير، فغالبية النساء المسلمات في الجزائر لا يعرفن علاج أطفالهن ولا تادية واجباتهنّ المتزلية بالشكل المناسب، ولا توفير معايشة لطيفة لأزواجهنّ، فضلا عن دعمهم ومساعدتهم في الظروف الصعبة"³.

وكتب رايح زناتي عدّة مقالات باسمه المستعار 'حسان' (Hassan)، أشاد فيها "بتركيا الجديدة التي حرّرت نساءها، بصراحة وبصدق وبصفة نهائية وكاملة، والمرأة التركية اليوم، تمارس كلّ حقوقها، وقد تجاوزت المرأة الفرنسية بهذا الخصوص". كما كانت له متابعة هو الآخر لمؤتمر النساء باسطنبول⁴.

¹ - محمد الناصر الغزالي: "المرأة المسلمة"، النجاح، ع. 861، السبت 8 فيفري 1930، ص. 3.

² - Voir: «La Condition civile de la femme turque moderne», La Voix des Humbles, n°168, Mai 1936.

³ - Benriba: «Féminisme et instruction (Turquie et Algérie)», La Voix des Humbles, n°92, 15 Octobre 1930, pp.5-7.

⁴ - Voir: «L'évolution Turque», La Voix indigène, n° 261, 24 Mai 1934.

وكان مؤتمر الاتحاد الدولي للنساء في اسطنبول عام 1935م؛ هدفه تعزيز التعاون بين الحركتين النسويتين في الغرب والشرق، وعُبرت ممثلة النساء وعضو الاتحاد النسائي الفرنسي (UFSF) السيّدة 'لافيونت' عن أملها في أن تكتسب المرأة القوة من النموذج التركي، وتزويدها بالإرادة اللازمة للمهمّة الملقاة على عاتقها في الجزائر، وعن أملها في كسب حليفات من المشاركات في المؤتمر؛ لتحفيز الحركة النسائية (الفرنسية) وإعطائها شعبية بين الجزائريين المسلمين، وقالت: "في الجزائر نعيش جنباً إلى جنب مع الملايين من النساء المسلمات، وهنّ الأكثر رجعية من أي امرأة في أي أرض (...) ونحن نشعر بأنّ تحرير المرأة الجزائرية سيتحقّق بسرعة أكبر مما يمكن للمرء أن يتوقّعه؛ إذا ساعدتنا النساء التركيات والمصريات السوريات، وقبل كلّ شيء إن كننّ مسلمات عليكن مساعدتنا"¹.

لقد مثّلت سياسة 'أتاتورك' نحو المرأة التركية نموذجاً بالنسبة للنخبة المتفرنسة في الجزائر؛ لأنه -حسبهم- نقلها من حالة الجهل والتخلّف والانغلاق؛ إلى عالم الحضارة والعصرنة والفتّح، وحتى تحرّر المرأة المصرية -على سبيل المثال- صار بالنسبة لهم نموذجاً، حيث تحقّق ذلك بفضل التعليم وانتشار الثقافة، والأدوار التي لعبتها النساء المسيحيات بشكل خاص في نهضة المرأة المصرية العربية المسلمة. ونوّه المتجنّسون التطور الذي عرفته الحركة النسوية في مصر في سبيل تحرير المرأة، وقامت جريدتهم بنشر خطاب السيدة 'هدى شعراوي (باشا)' الذي ألقته بمدينة مرسيليا الفرنسية²، واستسمحت 'صوت المستضعفين' مدير تحرير مجلة 'في أرض الإسلام' لنقل مقال تناول دراسة 'روبيرت بيار' (Robert Pierre) حول تطوّر المرأة المسلمة في مصر³.

Voir Aussi: «**La Femme Turque**», *La Voix indigène*, n°328, 07 Mai 1935.

¹- Sara Kimble, Op.cit, p.p.123-124.

²- H. Charaoui Pacha: «**Les progrès du féminisme en Égypte**», *La Voix des Humbles*, n°127, Juillet-Aout 1933, pp.9-10.

³- Robert Pierre: «**L'évolution de la femme musulmane en Egypte**», *La Voix des Humbles*, n°133, Décembre 1933, pp.8-14.

* خلاصات الفصل الرابع:

مثلت كتابات روّاد الإصلاح الإسلامي في الجزائر بداية حقيقية لطرح القضايا ذات الصلة بموضوع 'تحرير المرأة المسلمة'، وقد تميّزت هذه الكتابات بدعوتها لتعليم البنات الجزائريات المسلمات؛ وجاءت طروحاتهم وفق نظرة مستقبلية وعصرية نسبة إلى ذلك الوقت، مع أنّ بعضها كان يداري إدارة الاحتلال الفرنسي، ولم يتهمها صراحة بالتسبب في تدني وضع المرأة في الجزائر المستعمرة.

قاد الشيخ عبد الحميد ابن باديس ورجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ حركة تنوير قبل أن تكون حركة تحرير للمرأة، ويمكن أن نصنّف هذه الحركة ضمن مدرسة الاعتدال والتوسط التي تأثرت برجال الإصلاح في المشرق العربي، فالرجل لم يكن متزمتاً للفكرة الدينية الاجتماعية المحرّفة التي جعلت من حياة المرأة المسلمة مسخّرة بشكل كامل لخدمة الرجل وتحقيق رضاه لا غير، ولم يسمح -في الوقت نفسه- بتميّع المرأة، رغم توفر الظروف المساعدة على ذلك في ظلّ سياسة الاحتلال الفرنسي.

إذا كانت النخب التقليدية قد اتفقت مع غيرها بضرورة فتح مجال التعليم أمام البنات الجزائريات؛ فإنّ مواقفها اتّسمت بالتشدد بخصوص حدود هذا التعليم ومحتواه، وهي التي لطالما ندّدت بانتشار الآفات والمفاسد في الوسط النسوي الجزائري، ودعت إلى ضرورة التقيّد بالعادات والتقاليد، كما انتقدت العلماء في منهجهم التعليمي 'المختلط' بين الجنسين، وفي الوقت ذاته كانت النخبة المحافظة عُرضة لهجوم المتفرنسين؛ بدعوى أنّ التمسك بالعادات والتقاليد هو السبب الرئيس في تخلف المرأة المسلمة وانغلاقها.

عكست مواقف النخبة المتفرنسة (المتجنّسون منهم بشكل خاص) من قضايا المرأة 'الأهلية' في الجزائر المستعمرة؛ وضعيتهم الاجتماعية والثقافية المضطربة، وبقائهم عالقين بين حضارتين، فلا هم تمكّنوا من تحقيق الاندماج الحقيقي والحصول على المواطنة الفرنسية

الكاملة، ولا هم استطاعوا الانسجام مع محيطهم الاجتماعي التقليدي، الذي كانوا يصفونه بالمتخلف والرجعي، وقد عكست مسائل الأحوال الشخصية معاناة هؤلاء اجتماعياً.

جاءت مواقف المتفرنسين بخصوص 'قضية تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر متأرجحة بين محاولة بعضهم الحفاظ على الأواصر التي تربطه بمحيطه الاجتماعي المحلي؛ وبالتالي طرحه هذه القضية والمسائل المتعلقة بها بحذر، وبين 'تمرد' بعضهم على العادات والتقاليد البالية، واعتبرها عائقاً حقيقياً أمام ارتقاء المرأة، فكانت مرافعتهم أمام الإدارة الفرنسية بضرورة فتح الأبواب على مصراعيها أمام البنات 'الأهليات' للحصول على التعليم الفرنسي، والسّماح للمرأة المسلمة في الجزائر بارتياح الحياة العامة، ونيل حقوقها المادية والمعنوية، وممارسة مهامها الحياتية بكلّ حرية مثلها مثل نظيرتها الأوربية.

الفصل الخامس:

تحرير المرأة في أدبيات ومسار الحركة الوطنية الجزائرية:

- مكانة المرأة ضمن مسار الحركة الوطنية الجزائرية.

- صعود النضال النسوي الوطني الجزائري.

خلال عشرينيات وبداية ثلاثينيات القرن العشرين الميلادي، تشكلت في الجزائر خريطة سياسية لاتجاهات حزبية مختلفة منها: التوجّه الوطني الذي طالب بالاستقلال، وقد مثله نجم شمال إفريقيا ثم حزب الشعب الجزائري بقيادة 'مصالي الحاج'، والاتجاه الإدماجي المتفرنس الذي بدأ مع حركة الشبان، وكانت أبرز شخصياته 'فرحات عباس' والدكتور 'بن جلول'، والتيار الإصلاحية العروبي بقيادة 'الأمير خالد' الذي طالب بالمساواة؛ ليتحوّل إلى تيار إصلاحية ديني قاده العلماء بزعامة الشيخ 'عبد الحميد ابن باديس'، والحزب الشيوعي الجزائري الذي انبثق عن الحزب الشيوعي الفرنسي في منتصف عقد الثلاثينيات.

والثابت أنّ كل تيار من هذه التيارات السالفة الذكر، حاول أن يرصد لنفسه معالم واضحة ضمن حركة المجتمع الجزائري، من الوجهة الفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية، فكان له مواقف وتوجّهات مُحدّدة حول مختلف القضايا المطروحة للنقاش على الساحة السياسية الوطنية، ومنها قضية 'تحرير المرأة الجزائرية'. فما مكانة المرأة الجزائرية في خطاب النخب السياسية؟ وما الأدوار التي لعبتها النساء ضمن الجمعيات وأحزاب الحركة الوطنية الجزائرية وصولاً إلى الثورة التحريرية؟ وكيف طُرحت قضية تحريرها من منظور الأحزاب سالفة الذكر؟

1- مكانة المرأة ضمن مسار الحركة الوطنية الجزائرية:

نعتقد أنّ الظروف التي كانت تعيش في ظلّها المرأة الجزائرية (وقد ذكرناها في الفصل الأول) حالت دون بروز دورها بفعالية ضمن أحزاب الحركة الوطنية الجزائرية مبكراً، مقارنةً بنظيرتها المصرية والتونسية أيضاً، وبقيت مشاركتها باهتة ولا تكاد تذكر، حيث اضطلع بدور القيادة والنضال؛ ثلّة من الرجال في غياب العنصر النسوي خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين على الأقل، ولم يبرز دور المرأة الجزائرية في النضال

السياسي والاجتماعي من خلال الجمعيات وأحزاب الحركة الوطنية، وعبر منابر الصحافة إلا عقب الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك يمكننا رصد مكانة المرأة في مسار الحركة الوطنية الجزائرية؛ انطلاقاً من خطاب وأدبيات قادة هته الأحزاب؛ كلٌّ من منطلقه الفكري والإيديولوجي، وبرناجه السياسي بما يجمله من مطالب وأهداف وتطلّعات.

1-1- المرأة الجزائرية في أدبيات أحزاب الحركة الوطنية:

مع الوضع الخاص الذي كانت تعيشه الجزائر تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي، فقد مثلت الحالة المتردّية للمجتمع الجزائري قضية مركزية في خطاب أحزاب الحركة الوطنية، ولم يغب وضع المرأة الجزائرية عن أدبيات بعض شخصيات الحركة الوطنية، وكانت القضايا الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للمرأة حاضرة في كتاباتهم من خلال الصحافة بشكل خاص، كما كانت المسائل المرتبطة بالزواج والطلاق والحجاب التي تُطرح بحدّة آنذاك في مصر وتونس؛ تجد صداها في الجزائر، وإذا كان العلماء قد توجّهوا إلى تعليم البنات، وإعداد المرأة لتحمل مسؤوليتها ولعب دورها الأسري، وكذلك فعل حزب الشعب الذي يمثّل التيار الاستقلالي بقيادة مصالي الحاج، فإنّ للتيارين الإدماجي والشيوعي رأي آخر في المسألة، كلٌّ بما ينسجم مع منطلقاته الإيديولوجية وأهدافه السياسية.

لعلّ محطة الالتقاء بين هذه التيارات كانت في المؤتمر الإسلامي الجزائري عام 1936م، حيث كان الإجماع على عدم التنازل عن الأحوال الشخصية الإسلامية والهوية الجزائرية للفرد الجزائري، ورفض التمييز الممارس في حقّ الجزائريين طيلة فترة الاحتلال، وفي الوقت نفسه كان يُنظر إلى النساء على أنّها الحلقة الأضعف في مسألة الهوية، وكان هذا أحد الأسباب التي دعت إلى التعريف بصورة منهجية بموضوع التشكيك في الهوية الوطنية كلما طرحت المطالب المتعلقة بالمساواة في الحقوق في الأسرة¹، وكانت من بين

¹ - Ferial Laalami: «Généalogie du mouvement féministe en Algérie», Op.cit, p.4.

مطالب المؤتمر الإسلامي التي رفعها إلى الحكومة الفرنسية؛ التعليم الإجباري للبنين والبنات، والشروع في بناء المدارس الكافية لتعميم التعليم.

ويذهب 'يحيى بوعزيز' إلى أنه: "عندما ظهرت الحركة الوطنية السياسية في الجزائر مطلع القرن العشرين، واكبتها المرأة كما واكبت قبلها المقاومة المسلحة؛ لأن الحركة الوطنية الجزائرية أولت العناية بها وشجعتها على التعلّم، وامتهان الحرف المختلفة، وعلى تطوير حياتها الاجتماعية والاقتصادية، وحاربت القيود التي كانت تعيقها عن النهضة والتطور، فتجاوبت مع حركات الإصلاح النسوية العربية مشرقا ومغربا، وبدأت تضع خطاها على الوسائل والسبل التي تساعدها على تطوير حياتها الفكرية والاقتصادية والمهنية، بل وحتى السياسية ولم لا مادامت تمثل نصف المجتمع¹.

لم تعد المرأة الجزائرية بعيدة عن الأوضاع السياسية التي كانت تعيشها الجزائر، خاصة بعد تغيير النظرة الأيديولوجية لأقطاب الحركة الوطنية، من المطالب الجزئية إلى المطالب الكلية، المعتمدة على النضال المباشر والمطالبة بالاستقلال، حيث وجدت المرأة الجزائرية نفسها مقحمة في هذا الصراع، لأنها أضحت عنصراً مهماً يمكن أن يغيّر وجه الواقع السياسي بالجزائر. وبذلك استقطبت المرأة اهتمام أحزاب الحركة الوطنية، وأصبحت تشارك في التجمعات والتظاهرات التي كانت تدعو إليها الأحزاب الوطنية، فهذا مسير البلدية المختلطة 'عين مليلة'، يشير في تقريره الشهري لشهر جانفي سنة 1949م، إلى النساء المشاركات في تظاهرات الأحزاب بدوار 'الجنّاح'².

¹ - يحيى بوعزيز: المرأة الجزائرية...، المرجع السابق، ص26.

² - محمد قريشي: الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى 1945-1954، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002، ص171.

كما نقرأ الكثير من التقارير التي كانت تُرفع إلى الحكومة العامة في الجزائر، تتحدث عن نشاط نسوي غير مسبوق في الجزائر، ضمن فعاليات دينية واجتماعية وثقافية لأحزاب الحركة الوطنية، سيما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ومجازر ماي 1945م، حيث غيرت جلّ أحزاب الحركة الوطنية من لغة خطابها، بعدما فقدت الأمل في استجابة فرنسا لمطالبها، وتحقيق الحد الأدنى من العيش الكريم لعموم الجزائريين، وتوجّه التيار الاستقلالي بشكل خاص إلى تبني إستراتيجية جديدة، تقوم على تعبئة كلّ الطاقات المتاحة تحضيراً للعمل المسلّح، وكان لا بدّ للمرأة أن تلعب دورها في كل ذلك.

مع ذلك يبدو لنا أنّ حضور مسألة 'تحرير المرأة' في خطاب روّاد الحركة الوطنية بقي خافتاً، إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، إذ أنّ القضايا السياسية والأحداث المتسارعة في الجزائر عقب مجازر 8 ماي 1945م، سيطرت على المشهد العام في الجزائر، ولا أدلّ على ذلك من التفاعل الباهت الذي قوبل به صدور كتاب 'سيمون ديوفوار': 'الجنس الثاني' (Le deuxième sexe) عام 1949م، فإذا ما قورن بالزخم الذي قوبل به كتاب 'الطاهر الحداد' من طرف النخبة الإصلاحية الجزائرية في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين، فإنّ كتاب 'ديوفوار' لم ينل ذلك الاهتمام مطلقاً، وقوبل بالتجاهل المطلق¹.

لم يختلف الحال كثيراً فيما يتعلّق المشاركة السياسية للمرأة الجزائرية، فلم نجد أيّ اسم نسوي جزائري بارز يتولّى منصباً سياسياً رفيعاً ضمن هياكل أحزاب الحركة الوطنية الجزائرية. ومع أنّ مختلف الأحزاب السياسية الجزائرية فتحت المجال أمام العديد من الأسماء النسوية الناشطة؛ للانخراط في صفوفها، إلا أنّها بقيت تنظر إلى قضية تحرير المرأة الأهلية بحذر، وهو الحال الذي استمرّ حتى منتصف القرن العشرين على الأقل.

¹ - Monique Gadant: **Le nationalisme algérien et les femmes**, (Histoire et perspectives méditerranéennes), L'Harmattan, Paris, (S.D), p.83.

وتعتقد 'مونيكا غادون': "أن غياب المرأة الجزائرية عن تولي مناصب القيادة والمسؤولية؛ يمثل سمة بارزة في الثورة، وبقيت أدوارها ثانوية، حيث نجد قلة من النساء حملن السلاح، حيث ظلت القيادة ذكورية بامتياز، تحت مبررات المثل المجتمعية أو القيم الوطنية، وبالنسبة للجميع فتحرير المرأة كان سيتم ويتحقق عن طريق الرجال، في حين كان خطاب الثورة يدعو إلى مشاركة الجميع؛ رجالاً ونساءً؛ من أجل تحقيق الاستقلال، ومسألة التحرر الاجتماعي والثقافي للمرأة لم تكن مطروحة خلال سنوات الكفاح المسلح؛ لأن الثورة حررتها وفتحت لها أبواب المشاركة لتحقيق الهدف الأسمى وهو الاستقلال¹.

1-2- الاتجاه الإدماجي وقضية تحرير المرأة الجزائرية:

ظلت مواقف 'فرحات عباس' دوماً إلى جانب المرأة المسلمة في الجزائر، وكان لا يتوانى في الدفاع عن حقوقها، والمناذاة بتحسين وضعيتها في كل مناسبة، ولو أنه عادةً ما يُميّز بين فرنسا الرسمية التي تشرّع القوانين، وبين من يتحكّم في مصير الجزائريين من السياسة والإداريين والمعمّرين، فهو يُوجّه سهام نقده إلى كبار المعمّرين وأتباعهم في الجزائر المستعمرة، ويعتبرهم سبب بؤس الجزائري المسلم؛ فقد كتب في تعليقه على إصلاحات فيفري 1919م، ما يلي: "كانت فرنسا قد عملت على تنظيم المساعدة للنساء عند الولادة، فكانت المستعمرة مُعاديةً لهذه المساعدة، وكانت فرنسا قد فتحت بلدها للعامل الجزائري، فكانت المستعمرة معادية لتروح هذا العامل إلى فرنسا"².

وفي سياق حديثه عن مشاكل الأهالي، تناول فرحات عباس مسألة تعليم المرأة، فطالب بفتح المجال أمامها للتعلّم باللغتين الفرنسية والعربية وإنشاء المدارس، بل يعتقد أنه يجب أن تمنح الأولوية للإناث قبل الذكور، "وعليه فلا بدّ من توفير مدارس لنا بخصّة عادلة؛

¹ - Ibid., pp.133-134.

² - فرحات عباس: الشاب الجزائري، تر. أحمد منور، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007، ص118.

أي 6000 مدرسة على الأقل، يخصص قسمٌ منها للتلميذات المسلمات؛ لأنّ تعليم المرأة شيءٌ أساسي، وكان ينبغي أن تكون البداية بها، فتأثيرها في مراعاة قواعد حفظ الصحة وتربية الأولاد أكبر، ودورها الاجتماعي أهمّ. وعليه ينبغي توفير المدارس لكلّ الناس، ولكلّ طبقات المجتمع مثلما كان الحال في زمن انتشار الإسلام¹.

ويضيف: 'إنّ المعلّم والمدرّس، هما روح تطوّرنّا'. ويتأسّف عن قلة عدد المدارس، مبرزاً دورها وكذا أهمية تعليم البنات المسلمات في الأسرة والمجتمع، هذا التعليم الذي 'مازال في حالته الجنينية، علماً أنّ تأثير المرأة على تطوّر الأخلاق الأسرية هو تأثير رئيسي، وتأثيرها على حماية الطفولة أساسي. إنّ تطوير المدرسة التي ستعدّ فتياتنا لتأدية دور الزوجات و الأمّهات، لهي إحدى أمنيات جماهيرنا الشعبية'².

كما رافع لصالح تحسين المستوى المعيشي للجزائريين والتخفيف من حدّة الفقر والأمراض والمشاكل الاجتماعية، وذلك بالتربية المهنية والوقاية الصحية الاجتماعية، وكان يرى أن تطبيق هذه الإجراءات، سيغيّر صورة الجزائر بعد خمسين عاماً، وسيجعل من الجزائري المسلم مثله مثل الأوربي، من حيث نمط الحياة، وقد كتب متمنياً أن: "يكون لنا بيوتٌ نظيفة ومؤثثة، حيث لا يأتي إليها الرجل وهو نصف ثمل، ليوسع زوجته ضرباً، وسيكون لفلأحينا ملكيتهم الصغيرة الخاصة (...). وسيكون للبنات والأولاد طاقم لباسهم"، ورسم صورة قائمة عن التمايز بين المجتمعين الجزائري والأوربي، ويتجسّد ذلك خلال الاحتفالات المدرسية: "حيث الطفولة المسلمة ترتدي الأطمار (الأثواب المهترئة) وتسير حافية الأقدام، إلى جانب التلاميذ الأوربيين الذين يتألّقون نظافةً وصحة"³.

¹ - فرحات عباس، المصدر نفسه، ص 137 وما بعدها.

² - المصدر نفسه.

³ - نفسه، ص 140 وما بعدها.

وقد اعتبر 'فرحات عباس' قضية المرأة من القضايا الجوهرية في المجتمع، ومشكلة اجتماعية ستفرض نفسها عاجلاً أم آجلاً، وكتب في جريدة 'الوفاق' بتاريخ 22 جويلية 1939م؛ مقالا تحت عنوان: 'إن كنت صديقاً لي فاتبعني'، أكد فيه على وجوب المساواة بين البنين والبنات في التعليم، واعتبر تعليم الفتيات وتربيتهم شرطاً للتحرر السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وإذا رزقه الله بنت فسوف ينشئها على العلم والتربية والأخلاق؛ لأنّ تعليم المرأة أضحي ضرورة اجتماعية¹.

كما يشير أحد التقارير التي كانت تصل الحكومة العامة في الجزائر إلى مشاركة زوجة 'فرحات عباس' في جانب من النضال النسوي، حيث لوحظ حضورها اجتماع 'اتحاد نساء الجزائر' (UFA) في مدينة سطيف بتاريخ 19 جانفي 1949م². وورد في مراسلة للحكومة العامة أنّ 'مدرسة جمعية التربية والتعليم' التابعة للاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA). بمغنية؛ شرعت في تقديم دروس في اللغة العربية والتاريخ خصيصاً للنساء المسلمات، وأوّل درس قدّمه الشيخ 'جبالي بلقاسم' (Djebali Belkacem)، وكان له ستار يحجبه عن المستمعات بحضور 70 امرأة تقريباً³.

واستغربت جريدة 'الجمهورية الجزائرية' (لسان حال حركة فرحات عباس)؛ ذلك الهجوم الهائل الذي قاده التيار المحافظ في مصر ضد الحركة النسوية المصرية، حيث أعلنت لجنة الفتوى بالأزهر أنّ المرأة لا يمكنها التمتع بالحقوق السياسية، مع أنّ مصر يحكمها قانون مدني حديث، وأحكام الشريعة لا تطبق إلا في مجال الأحوال الشخصية⁴. وكتبت أيضاً عن قرار 'المجتمع التبشيري الإسلامي' في سنغافورة إسقاط قرار منع النساء من لعب

¹ - بشير سحولي، المرجع السابق، ص146.

² - ANOM 81 F 760: U.F.A- Sétif, Rapport mensuel au GGA, 20 Janvier 1949.

³ - ANOM, 81 F 1218, UDMA Marnia (Oran), 19 Mai 1953.

⁴ - A.F: «Les droits de la femme musulmane», La république algérienne, 12 Septembre 1952.

دور سياسي، هذه المسألة التي تثير كثير من المشاعر في الأوساط التقدمية الإسلامية بجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط، سيما بعد فتوى شيخ الأزهر بعدم السماح للمرأة بممارسة الحقوق السياسية، ومنها حقّ الترشّح والانتخاب، وهو القرار الذي يقوّي وجهة النظر الناقدة للإسلام، والتي تعتبره ديانة لا يصلح إلاّ للمجتمع الذي وُجد فيه قبل 1400 سنة، والغريب في الأمر أنّ المرأة في عدّة بلدان إسلامية على غرار اندونيسيا، باكستان، تركيا وسوريا؛ تتمتع بحقّ المساواة وبحريتها السياسية كاملة مثل الرجل، كما أنّ الإسلام لا يعترف بالاختلاف على أساس الجنس، كما أنّه ألغى كلّ مظاهر الدونية تجاه المرأة¹.

في نهاية شهر أوت 1953م، انعقد المؤتمر الوطني الأول لـ'شبيبة الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري' (J.U.D.M.A) بتاغديمت، وقد أخذ يعين الاعتبار العراقيل التي تواجه تحرير المرأة الجزائرية، ومنها غياب التعليم باللغتين العربية والفرنسية، بالإضافة إلى العادات التي تؤثر على إرادة الفتيات في المشاركة في معركة التحرير الوطني، وتقرّر: التوجّه إلى الشابات لتكثيف الجهود في سبيل أفضل إعداد للمرأة للعب دور الزوجة والأمّ والمواطنة، ومناشدة المشاعر الوطنية للمرأة الجزائرية؛ لكي تحتلّ الحركة النسوية المكانة اللائقة بها في حوض معركة الشعب الجزائري، هذه المكانة التي هي في الأصل حقّ لها².

وورد في تقرير الحكومة العامة أنّ جريدة 'الجمهورية الجزائرية' قد خصّصت نقاشا حول مشكلة تطوّر المرأة في الجزائر ضمن أعيادها لشهري أكتوبر ونوفمبر 1953م، وكان من المتدخلين 'فرحات عباس' الذي قال: "أفضّل نزع الحجاب-هذا الكفن للنساء وهنّ

¹ - Mohd-Hanifa Kanoos: «Les femmes musulmanes et le droit de vote», La république algérienne, 7 Novembre 1952.

² - «A propos du problème de la femme algérienne musulmane», La république algérienne, 11 septembre 1953.

على قيد الحياة- التعليم والتربية سوف يحمون بناتنا وأخواتنا من أخطار الحياة ومن الضياع في الشارع"¹.

وفي مقال إحدى عضوات شبيبة حركة البيان؛ نقرأ ضمن ملحق 'الشباب الجزائري': أن المرأة الجزائرية يجب أن تنال المكانة التي تستحقها، ولا يجب ألا تبقى ضحية بعض المستوطنين الذكور، ويكون ذلك عن طريق رفع الجهل المفروض عليها والبؤس، رغم أننا مازلنا نلقى المعارضة والانتقاد من طرف كثير من النساء المسلمات، وللأسف فإنه فضلا عن دور الاحتلال في هذا التخلف؛ فالمشكل يعود بالأساس إلى الآباء الذين مازالوا متمسكين بالأحكام المسبقة، من حيث أن المدرسة والتعليم لا يجب أن يكون للبنات، ومن العار رؤية الفتاة تجوب الشوارع، في الوقت الذي نرى فيه الفتيات الفقيرات في شوارع القصبة يبحثن عن لقمة العيش، وبعضهنّ احترفن الدعارة والتشردّ بدلاً عن منزل وعمل شريف، ساعدونا في كسر الجدار الذي يحول دون ولوج المرأة المسلمة المجال الذي تريده، وكذلك أخذ نصيبها في معركة تحرير الفرد والوطن، إذن أيها الجزائريون والجزائريات نستطيع أخيرا السير نحو التنوير، ونحو مستقبل أفضل للجزائر الجديدة².

وفي مقال آخر عن مشكلة المرأة الجزائرية؛ نقرأ لـ'شباب قسنطيني' عن كرامة المرأة التي كفلها لها الإسلام، ووجوب ضمان حريتها في التفكير، وهن الأدوار التي تلعبها المرأة في أسرتها، والتي يجب أن تؤديها بعد زواجها، واعتبر أن الحجاب بمثابة الغطاء القاتم للروح الأثوية، ويجب محاربة العادات العتيقة، ورفع الروح الأثوية التي وأدها آباؤنا، والقضاء

¹- ANOM, 81 F 1218 : Annexe du bulletin de la presse d'Algérie, les problèmes d'évolution et d'éducation féminines en Afrique du nord, 15 Novembre 1953.

²- Nadia G: «Le problème de la femme algérienne: Le mur à abattre», La république algérienne, 23 Octobre 1953.

على الإحساس بالدونية الذي غرسوه في المرأة، ويجب عبور الفجوة التي تفصلنا عن الحضارة الأوربية¹.

كما كتب شاب آخر عن ضرورة احترام الفتيات في الشارع، "هذا التقليد الذي فرضته القوانين قبل التربية المشرق، والذي يساهم في ارتقاء المرأة، بينما تتعامل معه الإدارة الفرنسية بتساهل، وأخواتنا سواء كنّ محجّبات أم لا فلكلّ واحدة منهنّ سبب يدفعها للخروج، وهي تسحقّ أكبر قدر من الاحترام من قِبَلنا، يجب أن نكون نحن حُماهنّ وتوفّر لهنّ الثقة مثل آبائهنّ والأمان عندما يكنّ خارج بيوتهنّ؛ لأنّه مبتدأ هذا المسار الجديد نحو تحرير المرأة الذي يتمناه الجميع (...). ولماذا لا نُبدي الأدب نفسه تجاه أخواتنا مثلما نفعل مع المرأة الأوربية"². وفي ردّ على مقال بالجريدة نقرأ لإحدى القارئات أنّه إذا أرادت المرأة التحرّر فلا يجب أن تنظر إلى الجانب السطحي والعقم الذي يميّز حياتها الجديدة، وإنما يجب أن تفكّر بعمق فيما تستطيع تقديمه لشعبها³.

ويبدو أن موقف 'شبان حركة البيان الجزائري' كان إلى صفّ المنادين بتزع الحجاب؛ باعتباره عائقاً أمام تطوّر المرأة الجزائرية، لكن لم يكن موضوع الحجاب بالنسبة لهم يمثّل أولوية، وإنّما هي ذريعة اتخذها البعض لمنع الفتيات من التمتع بمحقهنّ في التعليم، ومن أداء واجباتهن المجتمعية، مثال عن ذلك مقال الأنسة 'صونيا فؤاد' (Sonia fouad) من تلمسان، التي كتبت للجريدة في شهر أكتوبر عام 1953م: "المرأة الجزائرية المسلمة تلتحف حجابها الأبيض، تسير في الوسط الأوربي، الذي يرتدي بذلة مخاطة، بينما هي تبدو مثل شبح نشأ منذ قرون خَلّت، حتى صارت موضوعاً لفضول الأجانب (...). هل تستطيع

¹ - Jeune constantinois: «Le problème de la femme algérienne», La république algérienne, 30 Octobre 1953.

² - B.A: «Jeunes musulmans respectez nos jeunes filles dans la rue», La république algérienne, 15 Janvier 1954.

³ - Mlle R.Y: «L'émancipation de la femme algérienne», La république algérienne, 19 Janvier 1954.

المرأة المسلمة ممارسة الرياضة دون هذا الغطاء؟ والتمتع برحلاتها وهي تنظر من خلف الحجاب بعين واحدة (التلمسانيات)؟ هل تستطيع النزول إلى الشارع؟ وهل الحجاب ضمان ضد الفجور؟ لا أعتقد ذلك، بل أرى العكس، كونوا مطمئنين أيها الإخوة والآباء الأعزاء، بعد رمي الحجاب؛ أطرّدوا الأوهام من عقولكم، ولا تعتقدوا أننا سنقوم بمحاكاة بعض الأوربيات في غوغائيتهنّ وأوهامهنّ، على العكس؛ سنسير برأس مرفوعة ونحافظ دوماً على تواضع الفتاة المسلمة، ونتجنّب القول: 'زمن آخر، أخلاق أخرى!'¹.

ونشرت جريدة 'الجمهورية الجزائرية' في شهر مارس 1954م؛ ملفاً كاملاً عن قضية 'تحرير المرأة الجزائرية المسلمة'، واعتبرت أنّ ثلاثة أرباع النساء الجزائريات غير محجّبات، وجزمت أنّ 'تعليم المرأة هو السبيل إلى تحريرها'²، وعادت 'صونيا فؤاد' لتتساءل عن مغزى التحرير الذي تنشده الفتاة الجزائرية، وأقرّت بموقف المحافظين الذين يربطون بين التخلّي عن الحجاب والأخلاق والفضيلة، وقالت أنّ تحرير المرأة بات ضروري ويمكن تحقيقه من دون أضرار، كما ينبغي على الرجال التوقّف عن النّظر إلى المرأة من حيث أنّ طبيعتها سطحية، وإنّما يجب اعتبارها سبباً للسعادة الفكرية والأخلاقية³.

1-3- الاتجاه الاستقلالي ومطلب تحرّر المرأة الجزائرية:

طُرحت قضية المرأة الجزائرية ضمن أدبيات الاتجاه الاستقلالي بزعامة 'مصالي الحاج' منذ تأسيس 'نجم شمال إفريقيا' عام 1926م، لكنها كانت تُدرج ضمن إطار أوسع ألا وهو الإطار السياسي، ومن خلال مطلب أشمل وهو حقّ الشعوب في نيل استقلالها وتقرير

¹ - Mille F.S: «Le voile... cette bouteille à encre!», La république algérienne, 6 Novembre 1953.

² - Abou Hamid: «L'émancipation de l'algérienne musulmane: Eduquer la femme pour l'émanciper», La République Algérienne, 19 Mars 1954.

³ - Sonia Fouad: «Le sens d'une émancipation», La République Algérienne, 19 Mars 1954.

مصيرها. خاصة بعد أن أصبحت حركة مصالي الحاج تتمتع بحضور قوي في الساحة السياسية، حيث وجدت مسألة المرأة مكانها ضمن إطار عام هو القضية الوطنية، والدفاع عن الحقوق الطبيعية للعائلة الجزائرية من منطلق وطني تحرري محض.

كان التعبير عن مطالب عموم الجزائريين في أدبيات حزب الشعب (Parti du Peuple Algérien)، دون أن يخصّ قضية المرأة الجزائرية لوحدها بمطالب محدّدة، وقد تجسّد هذا عملياً في خطاب السيّدة 'إيميلي بيسكونت' زوجة 'مصالي الحاج'، الذي ألقته في التعاضدية عام 1934م، بينما كان زوجها في السّجن¹.

فبالنسبة لحزب الشعب ثم 'حركة انتصار الحريات الديمقراطية' (MTLD) كانت قضية المرأة تقع ضمن إطار أشمل هو قضية تحرّر الشعب الجزائري، بغضّ النظر عن الجنس أو العرق أو الجهة التي ينتمي إليها الفرد، فتحرّر الجزائر يعني انعتاق الجميع، وتحقيق الحرية السياسية هو مفتاح التحرير الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمرأة وللرجل.

من هذا المنطلق؛ لم يكن حضور المرأة الجزائرية بارزاً ضمن التيار الاستقلالي؛ إلا بعد تأسيس 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' (AFMA) في شهر جويلية 1947م؛ برئاسة 'مامية شنتوف'، وقد ظهر عمود "المسلمة الجزائرية" في جريدة 'الجزائر الحرة' (L'Algérie Libre)، لسان حال 'حركة انتصار الحريات الديمقراطية'، وتولّت هذه الصحيفة تغطية الأنشطة الخيرية للجمعية، وصار اهتمامها متزايد بقضايا المرأة، فعكست صدى نشاط الكاتبة المصرية 'بنت النيل'، والحركة النسوية المصرية بقيادة الناشطة النسائية 'درية شفيق'، وتتبع مسار الحركة النسوية الإندونيسية، ونشرت العديد من المقالات

¹ - يُنظر: جريدة الأمة، ع.29، ديسمبر 1934، نقلا عن:

Nedjib Sidi Moussa: «Les visages de l'émancipation: l'action des femmes messalistes durant la révolution algérienne», *Le Mouvement Social*, N° 255, 2016/2, p.p.103-118. Voir: <https://www.cairn.info/revue-le-mouvement-social-2016-2-page-103.htm> Consulté le 03/05/2020 à 17:22.

حول دور المرأة في العالم العربي الإسلامي، والتي كانت تكتبها كاتبات عربيات من أمثال 'عنبرة سلام الخالدي'¹، أو بتوقيع كاتبات جزائريات، كما يُستشفّ من خلال أسمائهن².

نستطيع القول أنّ النشاط النسوي ضمن التيار الاستقلالي قد رافق تصاعد العمل السياسي لهذا التيار، فشرعت مناضلات حركة الانتصار في توعية النساء وإجراء الاجتماعات والتنديد بالسياسة الاستعمارية، ففي شهر جوان عام 1948م، ضمن اجتماع شعبة 'بلكور' لـ(UFMA)، تناولت الكلمة الأمينة العامة الآنسة 'زكال فاطيمة' (Zekal fatima)، التي استحضرت بطولات الأمير عبد القادر، 'الذي تعرّض للخيانة من وهو الذي كان يحارب من أجل استقلال بلاده'، وندّدت بالاعتقالات التي قامت بها الإدارة الفرنسية، كما عرّفت بالدور الذي يجب أن تلعبه المرأة المسلمة في المجتمع والكفاح من أجل الاستقلال، وختمت بتوجيه تحية احترام لمصالي الحاج³.

ولم يقتصر الأمر على الأسماء النسوية الناشطة ضمن 'جمعية النساء الجزائريات'، بل نجد أنّ بعض مناضلات حركة الانتصار خطّطن لخلق منظّمة نسوية جديدة عام 1949، حيث أجرت السيّدة 'بوشاكور' (Bouchakour) اتصالات مع العديد من عائلات رجال حركة الانتصار لهذا الغرض⁴.

توجّه اهتمام جريدة 'الجزائر الحرة' أيضاً إلى تشخيص وضع المرأة الجزائرية، حيث طرحت 'المشكل النسوي (الأنثوي) في الجزائر'، واعتبرته: "مرتبطاً بالمشكل السياسي؛ لأنّ

¹ - كاتبة وروائية و مترجمة لبنانية؛ ولدت في بيروت عام 1897م لعائلة محافظة، كان لها أثر كبير في التعبير عن قضايا المرأة العربية في عصرها. يُنظر:

<https://book-pdf.com/writer/anbara-salam-khalidi/> تاريخ الاطلاع: 2020/05/03 سا: 19:25.

² - Nedjib sidi Moussa, Op.cit, p.105.

³ - ANOM, 81 F 1218: Rapport au GGA: Femmes musulmanes d'Algérie- Alger, 25 Juin 1948.

⁴ - ANOM, 81 F 1218: Rapport au GGA, PPA femmes- Alger, 20 Aout 1949.

المرأة الجزائرية لن تستطيع التقدم أبداً مادامت البلاد تحت نير الاحتلال الفرنسي، ولطالما طُرحت ونوقشت قضية تحرير الفتاة المسلمة وتغريبها، وأثيرت حولها الكثير من الضجّة، سيما حول ارتداء أو نزع الحجاب، لكن المسألة لم تُطرح بالنظر إلى الدور الذي تلعبه المرأة في حياة أمة حرة، وكفاحها عندما تتعرض الأمة للسيطرة الأجنبية¹. وجزم صاحب المقال: "أنّ الذين يربطون قضية المرأة بالدين الإسلامي يسعون إلى تحميل المجتمع الجزائري مسؤولية الوضعية المتدنية للمرأة حالياً، وبمعادة كل ما هو عربي وإسلامي؛ يريد الاحتلال ضرب عصفورين بحجر واحد؛ من خلال فرض التجهيل وتفكيك الخلية الأسرية، وإذا كان الرجل الجزائري يقف وحده اليوم في مواجهة النير الاستعماري، فعلى المرأة أن تدرك أنّه عليها أن تكون في المقام نفسه مع زوجها أو ابنها أو أخاها، فكلّهم مدعوون إلى تعضيد صفّ الوطنية؛ للتعجيل بإنهاء الاحتلال الذي يخنقنا"².

وفي عام 1950 قدّم النائب 'فروخي' عن مجموعة 'حركة الانتصار' احتجاجاً ضد الاستفزازات التي تقوم بها شرطة وهران، حيث أنّها لم تتردّد في إطلاق النار على المتظاهرين، واستخدام العنف ضد النساء واعتقالهنّ، بعد خروجهنّ في مظاهرات مع أزواجهنّ عمّال الموانئ، حيث تعرّضنّ للقمع واستعمال الرصاص³.

وفي السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية؛ عرف نشاط المناضلات التابعات للتيار الاستقلالي تصاعداً ملحوظاً، وقد عكست المقالات المنشورة في جريدة 'الجزائر الحرة'؛ الأهمية التي صارت تُولى للحركة النسوية من طرف قادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية، فنشرت الجريدة خطاب رئيسة 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات'

¹ - «Le problème féminin en Algérie», *L'Algérie libre*, n°1, 18 Aout 1949.

² - Ibid.

³ - حمري ليلي: الجمعية الجزائرية وقضايا الجزائريين فيما بين 1948 و 1956، أطروحة دكتوراه في التاريخ،

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2015/2014، ص 219.

بمناسبة المولد النبوي، عبّرت من خلاله عن أهداف الجمعية المتمثلة في: 'توعية النساء بشخصيَّتهنّ والدور الذي يجب أن يلعبه في وسط أسرهنّ ولصالح بلدهنّ'، وأيضا تنظيم الجزائريات وإخراجهنّ من الوضعية الدونية التي هنّ فيها، بعد قرن من الظلامية المرتبطة بالاستعمار¹.

وأقيمت حفلة يوم 24 فيفري 1954م بدار الأوبرا بالجزائر العاصمة؛ أخذت الكلمة خلالها السيّدة 'نفيسة حمّود' ثم أعقبها 'مامية شنتوف'، هذه الأخيرة انتقدت الذين يعارضون باسم الإسلام تحرير المرأة المسلمة²، وكانت الجمعية حاضرة دوما في الفعاليات التي يقيمها التيار الاستقلالي، سيما حين يتعلّق الأمر بالتظاهر ضد القمع، كما نشير إلى البرقية التي أرسلها الحزب إلى النواب الفرنسيين من أجل العفو عن المساجين السياسيين، وكانت 'مامية شنتوف' من بين الموقعين عليها³.

واعتبرت الجريدة في إحدى افتتاحياتها أنّ المرأة هي نواة الأسرة التي تقوم بكلّ الأعباء المنزلية، وباستحالة أن تؤدّي المرأة الجزائرية دورها في تربية أبنائها؛ بسبب معاناتها من الجهل والأميّة التي فرضتها عليها الإمبريالية، لكن الجزائريات يدركن أنّه: "عندما تكون السّلطة في أيدي الجزائريين، وعندما يتمّ وضع القوانين من قبل الجزائريين، فإنّ المرأة الجزائرية سوف تكون قادرة على استعادة مكانها الصحيح، وتحمل مسؤولياتها في الأسرة وفي الأمة"⁴. كما نوّهت بنشاط 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' في خدمة المحرومين،

¹- Voir: *Algérie Libre*, N°7, 15 Janvier 1950/ N°59, 15 Décembre 1952.

²- M. Chakib: «Gala de l'association des femmes musulmanes Algériennes», *Algérie Libre*, n°101, 5 Mars 1954.

³- Ibid.

⁴- «La femme algérienne sous le joug colonialiste», *L'Algérie libre*, n°3, 19 Novembre 1949.

وفي تنظيم النساء الجزائريات للخروج من الوضعية الدونية التي سقطن فيها منذ ما يزيد عن قرن من الظلامية والبؤس والقمع، وجعلهنّ يعيشنّ ويعملنّ داخل الأسرة والأمة¹.

وفي عدد خاص من الجريدة نقراً عنواناً بالبنط العريض: 'المرأة الجزائرية والحركة الوطنية'، عاد(ت) فيه صاحب(ة) المقال إلى الوضع السيئ الذي تعيشه المرأة الجزائرية: "محبورة في حياة دون نور ودون سعادة، لا تستطيع تعليم أبنائها ولا القيام بمسؤولياتها الأسرية، لا تمتلك الوسائل المادية ولا الإمكانيات الضرورية، ولا تمنح لها أي فرصة للنشاط خارج بيتها، مُحترقة ومحرومة من أبسط حقوقها القانونية، وهذا كنتيجة طبيعية للنظام الذي فرض على شعبنا (...). والإمبرياليون يدركون أنّ المرأة هي أساس الأسرة، ولا توجد وسيلة أفضل لتقويض الأمة الجزائرية من تحطيم شخصية المرأة الجزائرية؛ لذلك لا نجد لها مكاناً إلا نادراً على مقاعد المدرسة". وأضاف(ت): "النساء الجزائريات عرفن سبب الشرور التي حلّت بهنّ، إنهنّ يدركن أنّ إخضاع شعب لشعب آخر هو السبب، وأنّ الامبريالية القمعية هي المخطئة، وأنّه من حقّ الشعب الجزائري المطالبة باستقلاله"².

وفي مقال للآنسة 'زينب.ك' تحت عنوان: 'المرأة والكفاح الوطني' ذكرت: "يجب على المرأة الجزائرية استعادة مكانها الصحيح في تعبئة الشعب، والالتفات إلى الدور الذي صارت تلعبه أحوالها النساء المغاربيات"³. كما أعادت الجريدة نشر مقالات الناشطة النسائية اللبنانية 'عنبرة سلام الخالدي'، والتي عبّرت عن الأدوار الذي يجب أن تلعبها المرأة العربية في المجتمع، عن طريق الاستفادة من التكنولوجيا الغربية، واستلهاً مثل الثقافة الشرقية، وقبل هذا نشرت لها مقالا تحت عنوان: 'عائشة تقود غزوة حربية'، أرادت من

¹ - «Nos femmes au service des déshérités», L'Algérie libre, n°7, 15 Janvier 1950.

² - «La femme algérienne et le mouvement national», L'Algérie libre, n° spécial, 11 Mars 1950.

³ - Zyneb K: «La femme et la lutte nationale», L'Algérie libre, n° 21, 1 Septembre 1950.

خلاله إعطاء نماذج للنساء الجزائريات من التاريخ الإسلامي الذي يزخر بأسماء لنساء لامعات، توفرت لديهنّ روح المبادرة والشجاعة والذكاء والبصيرة، فتغلبنّ على العادات وذاع صيتهنّ في مجال العلوم والإدارة والقضاء¹.

وكانت هذه الكاتبة اللبنانية قد رافعت حول دور المرأة في المجتمع العربي من خلال محاضرة لها ألقته في 30 مارس 1949م ببيروت، وقامت جريدة 'الجزائر الحرة' بنقلها، فكتبت: "لا يوجد عداً بين تطلّعات المرأة العربية للرفقيّ الاجتماعي وبين موقف المجتمعات العربية، والحضارة العربية التي قبلت منذ بداياتها بمشاركة النساء في مختلف مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية، وبأنّ نهضة المرأة العربية المعاصرة بعيدة على أن تكون دون خلفية في الحياة الاجتماعية العربية، التي تمتد عبر التاريخ"². وانتقدت النظرة الغربية للمرأة العربية؛ "التي يصوّرها الكتاب الغربيون على أنّها ذلك الشيء الهين المنغلق في عالم الحريم والمحكوم عليه بأن يحيا حياة اللّهو، ولا يعترفون لها بشخصيتها المستقلّة، وذكرت بمكانة المرأة في التاريخ العربي منذ عهد النبوة"³.

يمكن أن نخلص إلى أنّ الشابات الجزائريات المثقّفات قد حصلن ضمن صفوف 'حركة الانتصار' على الفرصة الكاملة؛ للتعبير عن مواقفهنّ السياسية، ولعب أدوارهنّ المجتمعية والنضالية، وقد مثّلت جريدة 'الجزائر الحرة' منبراً لهنّ للتنديد بالسياسة الاستعمارية المحففة في حقّ المرأة الجزائرية، والمطالبة بحقّها في الحرية ومنحها حقوقها السياسية، فكانت أصواتهنّ عالية دوماً بانتقاد السياسة الفرنسية تجاه المرأة المسلمة في الجزائر، ومزعجةً لإدارة الاحتلال الفرنسي؛ ولا أدلّ على ذلك من حرص مصالح الشرطة الفرنسية على تتبّع

¹ - Ambara salam Al Khaldi: «Aïcha dirige une expédition guerrière», L'Algérie libre, n°6 ; 1 Janvier 1950.

² - Ambara salam Al Khaldi: «Le rôle de la femme dans la société arabe», L'Algérie libre, n°4 ; 1 Décembre 1949.

³ - Ibid.

تحرّكاتهنّ، وكتابة التقارير المفصّلة عن نشاطهنّ، بل واعتقال بعضهنّ أحياناً أو وضعهنّ تحت المراقبة المشدّدة.

1-4- الحزب الشيوعي الجزائري ومبدأ التحرير الشامل:

برز نضال النساء ضمن صفوف الحزب الشيوعي الجزائري أثناء وعقب الحرب العالمية الثانية؛ بتأسيس الفرع النسوي للحزب تحت مسمّى: 'اتحاد النساء الجزائريات' (UFA)، وقد انتشرت دعاية هذا الحزب في الوسط النسوي لا سيما في مناهضة الفاشية، والمطالبة بالمساواة بين الرجال والنساء في المشاركة السياسية، وكانت جلّ عضواته من النساء الأوربيات مع وجود بعض النساء الجزائريات من الفئة البرجوازية الصغيرة¹.

ونقرأ ضمن أدبيات الحزب: "أخذت المرأة الجزائرية تشق طريقها في ميدان الكفاح السياسي، كعامل فعال في تقدّم المجتمع الجزائري نحو حريته، فهي تنظّم الجمعيات للدفاع عن مطالب المرأة والسكان العاجلة والآجلة وتهتم بتحسين تربية النشء الجديد وهي تقوم بمظاهرات للكفاح ضد غلاء المعيشة، وهي تصدر المجلات وتشارك في تعليم وتهذيب الناشئة الجزائرية إلخ. وهذا ما دفع النواب الشيوعيين الجزائريين والديمقراطيين، وخصوصاً النائبة 'اليس أسبورتيس' (Alice Sportisse)² إلى النضال المستميت في المجلس الوطني الفرنسي، لتخصيص مادة في القانون الأساسي للجزائر تنصّ على إعطاء المرأة الجزائرية المسلمة حق التصويت في الانتخابات، ووافق المجلس الفرنسي على ذلك مبدئياً، وكلف

¹ - Monique Gadant, Op.cit, p.132.

² - مناقلة فرنسية ضمن صفوف 'الحزب الشيوعي الجزائري'، نائبة عن عمالة وهران ومستشارة بلدية، وشغلت منصب الأمين العام لـ'اتحاد النساء الجزائريات'. يُنظر: Fatima Zohra Saï, Op.cit, p.78.

المجلس الجزائري القادم بتنفيذ هذه المادة، وهكذا فستحتل المرأة الجزائرية مكانها اللائق في مجتمعنا¹.

وجرى لقاء كبير لـ'اتحاد نساء الجزائر' في شهر جانفي 1948م بسطيف بحضور 200 امرأة 'أهلية' من الأمهات وربّات البيوت، وقد طالبن بأن تؤخذ بعين الاعتبار تضحياتهنّ خلال الحرب مثلهنّ مثل النساء الأوربيات، وبالعدالة التامة في الحقوق بين جميع النساء الجزائريات دون تمييز على أساس العرق أو الدين، وبالخصوص منحهنّ الحق في الانتخاب الذي أقرّته الجمعية الوطنية الفرنسية ضمن موثيق دستور 1947².

ويُدرج الشيوعيون مسألة تحرير المرأة في إطار عام وأشمل هو كفاحهم ضد الامبريالية والاستعمار؛ لذلك نطالع في جرائد وأدبيات الحزب الشيوعي الجزائري مقالات بمناسبة اليوم العالمي للمرأة في 8 مارس من كل عام، تتضمن مطالب الحرية للمهمّشين في الجزائر؛ خاصة النساء والأطفال، فعن نضال المرأة الجزائرية في سبيل التحرر من نير الاستعمار؛ كتبت جريدة 'الجزائر الجديدة' حول ضرورة 'اشتراك النساء الجزائريات في الكفاح الوطني': "أخذت المرأة الجزائرية تشقّ طريقها بجرأة ونشاط في الكفاح اليومي بجانب الرجل في سبيل تحرير الجزائر من نير الاستعمار الغاشم. اشترك اتحاد النساء الجزائريات وجمعية النساء المسلمات الجزائريات ونساء السيجيتي (CGT)، في المظاهرة الكبرى التي نظمتها اللجنة الجزائرية للجامعة الأممية للنساء الديمقراطيات في سينما 'فاريقي' بالجزائر لتقديم بيان عن أعمال ومقررات المؤتمر النسائي العالمي الثاني للجامعة المذكورة المنعقد في بودابست³.

¹ - "الحركة النسائية المرأة نصف المجتمع"، الجزائر الجديدة، ع.17، ذي الحجة-محرم 1367هـ= نوفمبر

1947، ص.3.

² - ANOM, 81 F 1218, U.F.A- Section de Sétif: Motion, 28 Janvier 1948.

³ - الجزائر الجديدة، ع.37، ربيع الثاني 1368 هـ/فيفري 1949، ص.2.

ورافع مناضلو ومناضلات الحزب من أجل: "الحرية والسلم والسعادة لأطفالنا، هذه هي الفكرة الأساسية الداعية لكفاح النساء، وتلك هي الصرخات التي دوت في جميع أرجاء العالم بمناسبة اليوم العالمي للنساء. إن النساء يعرفن خير من أي كان، بأنه لا يمكن الحصول على شيء دون كفاح عنيد..."¹.

ولعلّ من أبرز الأسماء النسوية التي ناضلت في صفوف 'الحزب الشيوعي الجزائري'، المناضلة 'باية العوشيش' التي نشرت بعد عودتهما من الصين؛ مقالا بالفرنسية في جريدة 'ليبرتي' تحت عنوان: (Une musulmane revient de pékin)، وأيضاً المناضلة الفرنسية 'اليس سيورتيس'، التي كتبت بدورها في جريدة 'الجزائر الجمهورية' عن رحلتها إلى موسكو: (Je reviens de Moscou)²؛ وقد سردتا تجربتهما وتفاصيل مشاركتها في مؤتمرين نسويين عالميين، وقد اهتمت جريدة 'الجزائر الجديدة' بمشاركة 'باية العوشيش' في مؤتمر النساء الآسيويات الذي عقد بالعاصمة الصينية بكين؛ ممثلة للنساء الجزائريات فكتبت: "نظم اتحاد النساء الجزائريات بمناسبة رجوعها (بايا العوشيش) عدة محاضرات واجتماعات للنساء والرجال، تكلمت فيها 'بايا العوشيش' عن كل ما شاهدته في بلاد الصين الشعبية وبلاد الاتحاد السوفيتي من حرية ونعيم"³.

لكن بقيت هذه المطالب مجرد أحلام بالنسبة للشيوعيين، رغم إلحاح مناضلي هذا التيار على ضرورة إعطاء المرأة الجزائرية حقوقها السياسية، لم تجد آذانا صاغية من طرف الإدارة الفرنسية؛ لأنّ أسياذ الجزائر (المستوطنون) كانوا يتحكّمون في كلّ شؤون البلاد،

¹ - "المرأة نصف المجتمع: اخبارات في سبيل الحرية"، الجزائر الجديدة، ع.44، السنة الخامسة، جمادى الثانية 1369هـ = مارس 1950.

² - ANOM, 81 F 760: U.F.A, Rapport mensuel du GGA, Janvier 1950.

³ - "رجوع امرأة مسلمة من بلاد الصين"، الجزائر الجديدة، ع.43، ربيع الثاني-جمادى الأولى 1369هـ / جانفي - فيفري 1950، ص.3.

وهكذا لم تؤخذ بعين الاعتبار الاقتراحات والتعديلات التي قدّمها الشيوعيون حول دستور 1947م، الذي نصّ على أنّ النساء من أصل مسلم يتمتعن حقّ التصويت، ومنها تطبيق ما نصّ عليه هذا الدستور، وحتى نداءات قادة الحركة الوطنية الجزائرية بمختلف تياراتها في هذا الخصوص لم تجد صداها، وفي 11 فيفري 1948م بعثت مجموعة عن الحزب من الأوراس بمطالب تتعلّق بحقّ المرأة العربية والبربرية في الانتخاب لكن دون جدوى¹.

لقد بلغ الانخراط النسوي ضمن صفوف الحزب الشيوعي الجزائري والتنظيمات التابعة له أوجّه في السنوات القليلة التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية، وصارت هياكل الحزب وأنشطته متنفساً حقيقياً للشبان والشابات والطلبة والطالبات الجزائريين؛ وللنساء بشكل عام، وهذا ما حذى بالسيّدة: 'ماري هيلين لافوشو' (Marie-Hélène Lafaucieux) عن 'تجمّع الاتحاد الفرنسي' إلى دقّ ناقوس الخطر، والتنبيه إلى: "الإقبال اللافت للنساء المسلمات على الانخراط؛ والنشاط ضمن صفوف الأحزاب الشيوعية في أقاليم ما وراء البحار، ليس بسبب توجّهاتهنّ ضمن الحركة النسوية؛ وإثما لأنّ الحكومة الفرنسية لم تدرك بعد المصلحة السياسية التي ستحقّقها إذا شجّعت ارتقاء المرأة، وفي الوقت الحالي كلّ الشابات 'النخبويات' ممرّضات ومعلّّمات ونساء وحتى الطالبات؛ تجمّعن ضمن الحركات ذات التوجّه الشيوعي أو الوطني. يجب الاستجابة للمرأة الجزائرية التي لا تكتسب حتى 'المواطنة' التي تضمن لها الحقّ في الانتخاب الذي تمارسه المرأة في سوريا أو لبنان، وحقّ المرأة الأرملة في الوصاية على أبنائها القصر؛ رغم إقراره من الجمعية الجزائرية من عامين، لكن لم ينل موافقة الجمعية الوطنية"².

¹ - ليلي حمري، المرجع السابق، ص80.

² - ANOM, 81 F 1218: Assemblé de l'Union française, 4 Janvier 1955.

إنّ القارئ لنشاط المرأة الحركة الوطنية الجزائرية؛ يدرك الحضور المتميز للنساء 'الشيوعيات'، في جانب النشاط الاجتماعي والخيري، ومرافعتهنّ بقوة لصالح الحرية والاعتناق، ووقوفهنّ في وجه الفكر الاستعماري الامبريالي، مثلهنّ مثل الناشطات ضمن التيار الوطني الاستقلالي، اللواتي ناضلن بقوة من أجل استقلال الجزائر عن فرنسا، ونيل المرأة لكافة حقوقها، بينما تركّز خطاب الشابات والنساء الناشطات ضمن التيار الإدماجي على المطالبة بالحقّ في التعليم، وتحسين ظروف العيش للمرأة المسلمة، وانتقاد عادات وتقاليد المجتمع التي حرمت المرأة من بلوغ مرحلة تحريرها.

2- صعود النضال النسوي الوطني الجزائري:

بدأ النضال النسوي الجزائري ضمن الجمعيات والنوادي منذ العقد الثالث للقرن العشرين؛ وقد يكون سابقا للنضال السياسي للمرأة في صفوف الحركة الوطنية السياسية الجزائرية، لكن هذا النشاط لم يتبلور في شكل مطالب سياسية واجتماعية واضحة، ولم يبرز بشكل لافت إلا مع نهاية الحرب العالمية الثانية.

2-1- شامة بوفجّي: رائدة تعليم البنات في الجزائر المستعمرة:

لعلّ أفضل نموذج نقدّمه عن النشاط المبكر لامرأة جزائرية في إطار الجمعيات هي 'المعلّمة العربية الحرّة': 'شامة بوفجّي'¹، التي كانت أوّل مدرّسة بالجزائر العاصمة ضمن

¹ - وُلدت 'شامة بوفجّي' وسط عائلة متديّنة ومحافظة بتاريخ 15 مارس 1922م بمنطقة 'بئر قاصد علي' شرقي برج بوعريّج، قرّر والدها الاستقرار بالجزائر العاصمة بحي القصبة الشهير، وكان ملازما لدروس الشيخ 'الطيب العقبي' بنادي التّرقّي ومهتماً بالحركة الإصلاحية؛ فأدخل ابنتيه 'حضرة' و 'شامة' مدرسة الشبيبة الإسلامية، أين أظهرت هذه الأخيرة تفوقاً ملحوظاً في دراستها، فأمرها والدها بالمكوث في البيت رفقة أختها، واستحضر لهما طائفة من الأساتذة من أمثال 'فرحات بن الدراجي'، فعكفتا على تحصيل العلم وحفظ القرآن الكريم. قامت بتأسيس أوّل مدرسة للبنات عام 1934م وهي في عمر 12 سنة، وبلغ عدد المسجلات بها 150 بنت في ظرف أسبوع، ففكّرت 'شامة' في فتح فروع لها ببولوجين والشراقة وسيدي امحمد وبئر خادم والسيدة الإفريقية، وواصلت جهودها في تعليم البنات إلى =

أول جمعية أهلية في الجزائر تعنى بترقية المرأة المسلمة في الجزائر، وهي 'جمعية شريفة الأعمال'، التي تأسست عام 1934م، وكانت تهتم بتعليم البنات باللغتين العربية والفرنسية، وتدريبهنّ على مهارات التدبير المنزلي ومختلف المهن النسوية، فضلاً عن الرفع من المستوى الأخلاقي والثقافي للنساء الجزائريات¹.

لهذا الغرض؛ عملت عضوات هذه الجمعية على إقامة فروع وشُعَب لها في كامل القطر الجزائري بهدف تحرير العائلة 'الأهلية' ضمن أطر المدنية الفرنسية، وأسندت رئاسة هذه الجمعية إلى السيّدة 'بن شريف زهور' (Ben Charif Zehor)، ونائبها هي 'بوفجي زوينة' (Boufedji Zuina)، أما أمينتها العامة فكانت 'شايب فيفي' (Chaieb Fifi). بمساعدة 'سحنون فطيمة' (Sahnoune Fatima)، وتولّت الشؤون المالية للجمعية السيدة 'بن مرادي شريفة' (Benmaradi Cherifa) تعاونها 'يحي عيشة' (Yahia Aiicha)، وشغلت وظيفة مكتبية السيدة 'فاطمي باهي عومار زوجة مشاش' (Fatmi Bahi Omar)، وأسندت الرقابة للسيدة 'بوفجي خضرة' (Boufedji Khadra)، والتنشيط للسيدة 'بوفجي شامة' باعتبارها مثقفة باللغة العربية، واستطاعت الجمعية تأسيس 4 أو 5 مدارس للبنات؛ من بينها 2 أو 3 بحي القصبة، ضمت بين 50 و 100 تلميذة.

=غاية سنة 1952م وهي السنة التي أغلقت فيها سلطات الاحتلال هذه المدرسة، فقرّرت العودة إلى مسقط رأسها، وقامت بافتتاح مدرسة للبنات سرّاً، وبعد اندلاع الثورة انضمت إليها، وكانت تتولّى نشر الوعي في الأوساط النسوية، وحياطة الملابس والحوارب ونقل المناشير، ومساعدة زوجها الذي استشهد تحت التعذيب عام 1961م. بعد الاستقلال عملت مديرة لمدرسة ابتدائية بمدينة برج بوعرييج، وكانت وفاتها في 14 ماي 1987م. يُنظر:

رياض بن مهدي: "المجاهدة شامة بوفجي"، مجلة أول نوفمبر، ع. 180، محرم 1437هـ/نوفمبر 2015م، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر، ص171.

يُنظر الملحق رقم: 07.

¹- ANOM, 91 4I 184 : Préfecture d'Alger: Association 'Charifat El-Amal', 7 Janvier 1942.

تميّزت 'شامة بوفجّي' بحسّها الوطني والثوري منذ نعومة أظافرها، حيث تناولت الكلمة خلال نشاط الجمعية الشبيبة الإسلامية عام 1934م، وقالت بعفوية: "أتمنى أن أكون أصبح ذات يوم رائدة نهضة المرأة بالجزائر الحرّة"، هذا الأمر جعل السلطات الاستعمارية تزجّ بها في سجن بربروس (سركاجي) الرهيب رغم صغر سنّها¹. وهي من بين الفتيات الجزائريات اللواتي برز نشاطهنّ بقوة قبل وبعد الحرب العالمية الثانية، وهي المدرّسة الحرة بمدرسة 'الشبيبة الإسلامية'، كما ترأّست 'جمعية شريفة الأعمال'، التي حصرت نشاطها بعد الحرب العالمية الثانية في تربية وتعليم المرأة المسلمة، ويذكر تقرير فرنسي بأنّها ذات ميولات وطنية وصارت تحرّض المجتمع على تحرير المرأة، وتنشط ضمن 'جمعية الكمال' في مقرّها سانت أوجين بالعاصمة، ووصفها أيضا بأنّها المرأة الوفية لتعاليم الشيخ البشير الإبراهيمي في تعليم المرأة المسلمة². كما واصلت رسالتها الإصلاحية رفقة شقيقتها 'حضرة' في التعليم القرآني الذي كان يرتاده أطفال بين 6 و 12 سنة³.

وكانت قد دعت إلى تجمّع نسوي بتاريخ 25 أوت 1947م تحت إشراف 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' (AFMA)، وقد حضرته ما يزيد عن 500 امرأة مسلمة وترأّسته السيّدة 'آيت سعادة' (ممرضة)، وتناولت فيه الكلمة باللغة العربية أربع معلّّمات؛ دعونّ إلى الرفع الأخلاقي والمادي لوضع المرأة المسلمة في بيتها ومجتمعها، كما أصرت إحداهنّ على الحفاظ على الحجاب إلى ما بعد استقلال الجزائر، كما ركّزت المتدخّلات على ضرورة أن يتلقّى الأطفال من الجنسين تعليمهم باللغة العربية، مما يجعل منهم مسلمين

¹ - رياض بن مهدي، المرجع السابق.

² - ANOM, 91 4I 185: SLNA: Activité de Melle Boufedji Chama, 25 Aout 1947.

³ - ANOM, 91 4I 184: Alger: Association 'Charifat El-Amal', 6 Juillet 1960.

جيدّين يحبون دينهم، ودعوا إلى منح البنات فرصة الحصول على شهادات تقنية، ودفعهم إلى دراسة الطب والصيدلة؛ لغاية إعطائهم سلاح في الحياة¹.

2-2- ميلاد جمعية النساء المسلمات الجزائريات (AFMA):

عقب الحرب العالمية الثانية؛ وبعد مجازر 8 ماي 1945م، بدأت النساء الجزائريات ينظمن أنفسهنّ، سواء في الحلقات المختلفة أو في ضمن أطر العمل الاجتماعي، وظهرت أوّل جمعيتين نسائيتين في الجزائر بين سنتي 1945 و1947: الأولى هي 'اتحاد نساء الجزائر' (L'Union des Femmes d'Algérie) عام 1945م² ذات التوجّه الاشتراكي، والثانية هي 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' (L'Association des femmes musulmanes d'Algérie) وكان ذلك عام 1946م، والتي أنشأت من طرف 'حركة انتصار الحريات الديمقراطية' (MTLD). وترأست هذه الجمعية السيّدة 'فاروبي' (Mme Garauby) مع إسناد الأمانة العامة للسيّدة 'باية العوشيش' (Baya Allaouchiche)، وفي وهران أسندت للسيّدة 'عبّاسية فوضيل' (Abassia Fodil)³.

أما في تلمسان فقد ترأست هذه الجمعية السيّدة 'فاطمة بن عصمان' (زوجة أحد رواد حركة انتصار الحريات الديمقراطية وحزب الشعب بمنطقة تلمسان)، حيث كانت تجمع النساء في بيتها لتلقي عليهم دروساً في الوطنية؛ تفتتحها بدروس دينية⁴، وفي اجتماع ضمّ أكثر من 100 امرأة؛ شدّدت على المستمعات ليكنّ في أقصى درجات الاستعداد

¹- ANOM, 91 4I 185: PRG: Réunion des femmes musulmanes, 27 Aout 1947.

²- كان تأسيس 'اتحاد نساء الجزائر' قبل هذا التاريخ؛ في شهر جويلية عام 1944م.

³- Badia Gaouar: «Les femmes Algériennes et le 1^{er} novembre 1954: de Lalla fatma N'soumer à Djamilia Bouhired..», Le jeune musulman, n°12, Nov-Dec 2013, Alger, pp.6-7.

⁴- محمد بلقاسم: الواقع الثقافي لمنطقة تلمسان في الفترة الاستعمارية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2018-2019، ص166.

لتجنيد منخرطات في الحزب¹، وبالفعل استطاعت السيّدة 'بن عصمان' قيادة الدعاية الوطنية بمنطقة تلمسان لصالح حزب الشعب الجزائري، وتجنيد حوالي 500 امرأة²، وكانت السيّدة عبّاسية فوضيل جدّ نشطة بوهران، خاصة خلال إضراب عمال الميناء، والفلاحين بتلمسان، وجنّدت النساء من أجل الكفاح الاجتماعي، وفي عام 1954م، نظّمت تجمّعاً كبيراً بوهران، لدعم المغاربة والتونسيين في كفاحهم ضد الاستعمار.

انخرطت مناضلات 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' في صفوف 'حزب الشعب الجزائري' (PPA)؛ على غرار: 'مامية شنتوف'، 'خيرة بوعياض'، 'ميمي حول'... وغيرهنّ، وأصبحن يشكّكن خلية نسائية داخل تنظيمات 'حزب الشعب'، وكانت اجتماعاتهنّ تُعقد في بيت نفيسة حفيظ أو نفيسة حمّود..، وقد ترأّست فيما بعد هذه الجمعية من قبل مامية شنتوف، وكان برنامجها في الظاهر اجتماعي بينما هو في الواقع سياسي، هدفه نشر الوعي بين النساء الجزائريات وتجنيدهنّ للكفاح ضد الكولونيالية ومن أجل نيل الاستقلال³.

لقد تأسّس هذا الفرع النسوي لحركة انتصار الحريات الديمقراطية بالأساس؛ لمساعدة عائلات المسجونين بعد مجازر 8 ماي 1945، وبفضل الدعم الذي لقيه من طرف الحركة سعى إلى نشر الأفكار السياسية في الوسط النسوي الجزائري المغلق، ومحاولة الظهور على مسرح الأحداث، ومساعدة الرجال في تحمّل أعباء وأخطار النضال السياسي، وهو المطلب الذي طرحته 'جبهة التحرير الوطني' على النساء في عام 1954م⁴.

¹ - ANOM, 81 F 1218: UFMA- Tlemcen, Rapport du GGA, 23 Octobre 1947.

² - ANOM, 81 F 1218: UFMA- Tlemcen, Rapport du GGA, 24 juillet 1948.

³ - Badia Gaouar, op.cit.

⁴ - Monique Gadant, Op.cit, p.132.

تروي المجاهدة 'صفية بلمهدي' تفاصيل أول اجتماع عقدته النساء الجزائريات: "كنت حينها لا أتجاوز 15 سنة، وأذكر أننا كنا نرافق مامية شنتوف ونفيسة قايد حمود وأخريات. كانت مامية شنتوف تقول لي يجب أن ترافقي الجمعيات حتى تتعرفي على النضال، كانت أول مرة أتعرف فيها على نفيسة حمود، وهي - كما قالت - سيدة رائعة الجمال، وذات شخصية قوية جدا وحضور طاغي، قبل هذا الاجتماع؛ كان هناك اجتماع آخر عقد في فرنسا مع بعض النساء الفرنسيات، لكنه فشل؛ لأن الجزائريات رفضن الانضمام تحت اسم 'اتحاد النساء الفرنسيات'، فكان اجتماع 1947 أول لقاء للنساء الجزائريات الذي سطر أرضية للنضال النسوي الجزائري أثناء وبعد الثورة، ورغم تباين التكوين والخط الأيديولوجي بين نفيسة حمود ومامية شنتوف، لكنهن بقيتا وفيات (كذا) لبعضهن، وللنضال من أجل الوطن"¹.

وتلقت 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' رسالة من الأنسة 'سميرة عبد القادر حمزة'، هذه الأخيرة كانت ضمن القافلة الصحفية المصرية التي زارت شمال إفريقيا قبل ذلك بعدة أشهر، وطلبت تقديم عرض عن نشاطات الجمعية إلى الأنسة 'ابتهاج قدورة' رئيسة 'جمعية النساء العربيات'، وهذا بهدف الانخراط في الجمعية، التي قرّرت دعم 'جمعية النساء الجزائريات' على جميع الأصعدة (إنشاء مدارس للبنات، حرية المرأة، استقلال الجزائر) عن طريق تمثيلها في اليونسكو².

وفي نهاية شهر مارس عام 1951م، جرى لقاء في سيدي بلعباس ترأسته السيّدة 'جاسترابو' (Justrabo) وضم 150 شخص، حيث أدانت السياسة الحكومية، وطلبت من كلّ الأمّهات التظاهر بقوة ضد إرسال قوات عسكرية إلى الهند الصينية، وقد صدر بيان

¹ - زهية منصر: "المجاهدة صفية بلمهدي تروي قصة أول احتفال بالثامن مارس في الجزائر". يُنظر:

تم الاطلاع بتاريخ 2020/04/12، الساعة: 10:21. <https://voixdefemmesdz.com/ar/2015/03/page/2/>

² - ANOM, 91 4I 185: PRG, Femmes musulmanes d'Algérie, 13 Février 1951.

أكد كفاح ملايين النساء ضد الحرب وسياسة الحكومة الفرنسية التي أرسلت 20 ألف شاب للقتال في فيتنام، وطالبن بوقف الحرب في فيتنام وكوريا الشمالية وإطلاق سراح كل المساجين الذين يناضلون في سبيل حرية الشعب الجزائري ومن أجل السلام، واحتججن ضد التدابير التي اتخذتها الحكومة الفرنسية للحد من حرية التعبير¹.

وكان حضور بعض النساء المناضلات في اجتماع لجنة تأسيس 'الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها' يوم 5 أوت 1951م بقاعة 'دنيا زاد' بالجزائر العاصمة، حيث: "كان هذا اليوم يوماً مشهوداً في تاريخ النضال الجزائري، ومما امتاز به الاجتماع حضور بعض النساء"². وفي نهاية شهر أوت من السنة نفسها؛ نقلت الجريدة حيثيات مؤتمر 'الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها' الذي تم بحضور شخصيات فاعلة في الحركة الوطنية، "وقد أُلقت فيه المحامية 'روبي ستيب' خطاباً وجيزاً ومؤثراً، ذكرت فيه ما شاهدهته من الحالة التعيسة التي أُلقي فيها الاستعمار المرأة الجزائرية: بيوت القصدير إلى جانب قصور فخمة تتمتع بها أقلية محظوظة... وأعلنت عن إعجابها بكفاح الشعب الجزائري، الذي هو على يقين بأنه سينتهي بالنصر المبين. وختمت مؤكدة لأخواتها الجزائريات تأييد نساء فرنسا لهنّ تأييداً تاماً في كفاحهن في سبيل الحرية والاستقلال"³.

ولعلّ أهمّ مقال عبّر بعمق عن حال المرأة الجزائرية كان لـ'فضيلة أحمد'؛ حين كتبت: "نحن نساء الجزائر لنا معتقلان؛ معتقل الاستعمار الذي شيّد بيت الأفكار المسمومة حول المرأة الجزائرية المسلمة، ومعتقل الجامدين الذي شيّدوه بالعادات والتقاليد الموروثة عن آبائهم الجاهلين لا عن الإسلام. والمعتقل الثاني أخطر من الأوّل؛ لأنّه تكأة ووسيلة للمعتقل

¹- ANOM, 81 F 760: U.F.A Sidi bel-Abbes, Rapport mensuel GGA, 2 Avril 1951.

²- جريدة المنار، ع.7، 15 أوت 1951، ص.4. كانت هذه الجريدة لصاحبها 'محمود بوزوزو' من أشدّ المدافعين عن 'القضية الوطنية'، وقد اهتمت اهتماماً بالغاً بنشاط الحركة الوطنية وتابعته باستمرار.

³- "الجبهة الجزائرية للدفاع عن الحرية واحترامها تقف أمام الأمة"، المنار، ع.8، 31 أوت 1951، ص.4.

الثاني (كذا)، افتحوا عنّا باب معتقلكم، فلولا هذا المعتقل لما بقي الاستعمار يعيش في دمائنا إلى الآن، أتركونا نتعلّم كلّ لغة ونمارس كلّ فنّ، ونخوض في كلّ أمر يهمّ مجتمعنا. إفسحوا الطريق لنصف أمّتكم يجاهد معكم حتى تنتصروا كما انتصر أجدادكم الأولون بفضل إشراكهم لنسائهم في جهادهم. أتركوا عنكم العادات القبيحة التي صدّتكم عن تعليم البنت، انبدوا المنظار الأسود الذي تنظرون به إلى ابنتكم عند بلوغها سنّا معيّنة فتحرمونها من إتمام معلوماها، وإذا كانت تمارس مهنة من المهن لكي تواجه نكبات المستقبل سدّتم الأبواب أمامها. وويل للتي تكسر هذه الأبواب من ثعابين الإنسانية وذئاب المجتمع؛ فإنّها لا تنجو من سموم ألسنتهم، يسمرون بها في مجالسهم، وينظرون إليها وإلى أسرّتها بعين الازدراء والاحتقار، كأنّ الجريمة مكتوبة على جبينها"¹.

وخصّصت جريدة 'المنار' المرأة بركن 'المنبر الحر' الذي نقرأ فيه عن المرأة المسلمة ودورها في الحياة الجديدة، وعن حقوقها التي منحها الشرع وأقرّها رجال الفكر، وذكر - صاحبه - لأنّ للمرأة الحقّ الكامل في الاضطلاع بالمهام السياسية، ولا وجه لإيثار الرجل على المرأة في هذا المضمار، كما يتعيّن على رجال الإسلام من علماء ورجال الحكم والسياسة محاربة النساء الخليعات الفاجرات حتى يتطهّر المجتمع الإسلامي من شرهنّ، أما

¹ - فضيلة أحمد: "حق المرأة الجزائرية في النهضة"، جريدة المنار، ع.46، السنة الثالثة، الجمعة 14 ذو القعدة

1372هـ/24 جوان 1953، ص.4.

يُنظر الملحق رقم: 08.

كانت متابعة الإدارة الاستعمارية لما يصدر في الصحافة الجزائرية العربية بشكل مستمر؛ فلا يكاد يصدر مقال حتى نجد أعضائها قد قاموا بترجمته، وعرض أهم فقراته ضمن تقاريرهم التي تُرسل إلى مصلحة الاستعلامات أو مديرية الشؤون الأهلية بالحكومة العامة، وهو الحال مع مقال 'فضيلة أحمد' وغيره. يُنظر:

ANOM, 81 F 1218: Rapport au GGA- Presse, Fadila Ahmed: Les deux geôliers des femmes, 15 Aout 1953.

المرأة المثالية فهي التي تكون إلى جانب الرجل في سائر ميادين الحياة الإيجابية وهي المرأة العاملة التي نالت من علوم الدين والدنيا...¹.

وكانت مناسبة عرض فرقة 'محي الدين باشطارزي' لمسرحية 'روما' سانحة للسيدة 'شنتوف' التي تحدّثت عن أهداف الجمعية، وعن الدور الذي يجب أن تضطلع به لصالح الوطن، ودور المرأة المسلمة التي يجب أن تأخذ نصيبها من المسؤولية في الكفاح ضد اللادعالة، البؤس وتتطلع لتحرير الجزائر².

لقد استغلّت 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' كلّ الفضاءات لتوعية المرأة، ونشر الدعاية لصالح المسألة الوطنية، ومن بين هذه الفضاءات المقابر أيام الجمعة، حيث كان يتمّ نشر الأفكار التحريرية وسط النسوة كما حدث يوم 31 جويلية 1953م في مقبرة القطّار بالجزائر العاصمة³. كما اجتمعت الطالبات المسلمات بكلية الطب بتاريخ 16 مارس 1954، بمبادرة الأنستين 'حمود (نفيسة)' و 'مفتي مليكة' عضوتي الجمعية، ثم تلاه اجتماع آخر في 11 أفريل؛ تمّ تشكيل لجنة بغرض إقامة لقاءات ومحاضرات تثقيفية وتربوية⁴.

وكانت النشاطات الفنية والثقافية حاضرة في برنامج 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات'، حيث جرى تنظيم الحفل السنوي للجمعية بقاعة أوبرا الجزائر بتاريخ 24 فيفري 1954م، وقد صرّحت 'مامية شنتوف' أنّ: "تحرير المرأة صار حتمية دينية وضرورة اجتماعية، وأنّ عزل المرأة عن الحياة الاجتماعية، واحد من أسباب انحطاط أمتنا، ووجود

¹ - الأمين عبد العزيز: "المرأة المسلمة وما نعتزم القيام به في حياتها الجديدة"، جريدة المنار، ع. 51، السنة الثالثة،

الجمعة 26 ربيع الثاني 1373هـ / 1 جانفي 1954، ص3.

² - ANOM, 91 4I 185: Préfecture d'Alger: Théâtre arabe au profit de l'UFMA, Vendredi 9 Mai 1952.

³ - ANOM, 81 f 760: Associations des femmes musulmanes, Rapport du GGA, Aout 1953.

⁴ - ANOM, 81 F 760: Cercle des étudiantes musulmanes d'Algérie, Rapport du GGA, 22 Avril 1954.

شعبنا في أوضاع سيئة يعاني التخلف؛ أحد أسبابه المنع المفروض على المرأة من التعليم والعمل، وللأسف هناك من ينتقدنا، وهناك 'أسرى الماضي' الذين ينظرون إلينا بخلفية مسبقة ويحكمون علينا بقسوة (...). لو وضعنا مسألة المرأة في مقدمة أولوياتنا ما كنّا لنعاني اليوم من التخلف، ومشكلة ارتقائها أصبحت تطرح بجدّة واستمرار، وهي من المسائل التي لا تنفصل عن المشكلة الاجتماعية الموجودة¹.

كما كان العمل الخيري لصالح الأمهات والأطفال أحد مهام الجمعية، خاصة لصالح العائلات المعوزة أو التي فقدت من يعولها بسبب الوفاة أو الاعتقال لنشاطاته الوطنية، وكانت المناسبات الدينية فرصة سانحة لتوزيع مساعدات لصالح هذه العائلات، ففي جويلية 1951 جرى حفل بقاعة سينما دنيا زاد بالجزائر العاصمة، حيث تمّ توزيع أغراض ومواد غذائية لصالح 300 شخص و150 عائلة قاطنة بالأحياء الفقيرة². وفي نوفمبر 1953م، بمناسبة المولد النبوي الشريف؛ جرى حفل تم خلاله توزيع ملابس على 150 طفل بالجزائر العاصمة، بحضور أبرز الناشطات بالجمعية والرئيسة الشرفية السيّدة 'تامزالي'، ونشّط الحفل الفنّان 'عبد الرحمان عزيز' وفرقة من الكشّافة الإسلامية التي قدّمت عرضاً فكاهياً³.

ونقرأ في تقرير لمصلحة الاستعلامات عن السيّدة 'شتتوف' بأنّها 'الوطنية الانفصالية'، وهي ابنة 'عبدلي عيسى' عضو إدارة الحزب الوطني المتطرّف، التي تقدّم الدعم للخلايا المتواطئة مع حزب الشعب، المكلفة بالتستّر على المناضلين المبحوث عليهم من طرف الشرطة الفرنسية⁴، وكذلك فهي زوجة أحد قادة حركة الانتصار، وبأنّها تشكّل

¹ - M. Chakir: «GALA de l'association des femmes musulmanes algériennes», l'Algérie Libre, 5 Mars 1954.

² - «L'association des femmes musulmanes algériennes distribuait effets et produits alimentaires à 300 personnes», Alger républicain, 29/30 Juillet 1951.

³ - «150 enfants ont reçu des vêtements de l'Association des femmes musulmanes algériennes», Alger républicain, 20 Novembre 1953.

⁴ - ANOM, 91 4I 185: PRG: AFMA, 22 Février 1952.

حولها 'قيادة أركان' من الفتيات اللواتي ينتمي بعضهنّ إلى الطبقة البورجوازية، وقد أجمعت مشاعرهنّ العدائية ضد القضية الفرنسية، وأنّ نشاط هذه الجمعية يكملّ نشاط حزب الشعب، وهي لا تتوانى في جمع مساعدات مالية لصالح لجنة الدعم لصالح هذا الحزب¹.

كما أنّ تقرير محافظ الجزائر العاصمة إلى الوزير والحاكم العام بالجزائر؛ لخصّ نشاط وأهداف هذه الجمعية منذ تأسيسها في 26 جويلية 1947م²، واعتبرها منظمة مرتبطة بحركة انتصار الحريات الديمقراطية-حزب الشعب، أما أهدافها فقد تضمّنتها نشرتها الصادرة في شهر رمضان عام 1947م، وهي:

- توجيه 'أخواتنا المسلمات' نحو الكفاح التحرري الفعلي، والتحرّر من نير الاستعمار؛ لأنّ مشاكل المرأة مثل كلّ المشاكل الاجتماعية ناجمة عن فقدان سيادتنا الوطنية.

- استعادة الوعي لدى الشعب الجزائري عن طريق الحفلات والأنشطة والتظاهرات والتجمّعات التربوية.

- قيام النساء الجزائريات بمساعدة والتضامن مع المعتقلين السياسيين ضد الإمبريالية الاستعمارية، والعمل إلى جانب الرجال في خدمة الوطن الجزائري.

ونقل التقرير العديد من تصريحات رئيسة الجمعية السيدة 'مامية شنتوف'، كما ذكر بأنّ 'مصالي الحاج' تلقى من القاهرة تعليمات بتكثيف الدعاية الوطنية في الأوساط النسوية المسلمة، ودخل في اتصالات مع 'فاطمة راشد' رئيسة جمعية 'النساء المسلمات الوطنيات في المشرق'، وهو ما يبرّر التعليمات التي وجهها مصالي لجمعية النساء المسلمات الجزائريات³.

واستمرّ نشاط الجمعية حتى بعد اندلاع الثورة التحريرية؛ حيث مثّلت السيّدة 'نفيسة حمّود' النساء الجزائريات في مؤتمر 'الفيدرالية الديمقراطية الدولية للنساء' (F.D.I.F)

¹- ANOM, 91 4I 185: PRG: AFMA, 29 Aout 1951.

²- ANOM, 91 4I 185: SLNA: AFMA: Status, 7 Aout 1947.

³- ANOM, 91 4I 185: SLNA: Rapport au GGA: AFMA, 7 Mars 1951.

بجنيف، بين 9 و 13 فيفري 1955، وألقت خطاباً باسم 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات'، بيّنت فيه: "أن الزوجات والأمّهات هنّ أساس التنظيم الاجتماعي في الجزائر، لكنهن اليوم أكثر احتقاراً من سنة 1830م، حيث خلال 120 سنة ساءت أوضاعهنّ، فهي بحقّ فترة توقّف في رقيهنّ (...). ولم يجدن المحيط المناسب لتطوّرنّ، لقد عانت المرأة من ردّ فعل عنيف لسياسة خلقت كلّ الظروف الاجتماعية والاقتصادية لتهميشها، حيث تمّ انتهاج سياسة ظلامية حطّت من شأن المرأة"¹.

ولم تتوقف الناشطات الجزائريات عن النضال ضد القمع الذي تمارسه سلطة الاحتلال الفرنسي، والعمل للمساهمة في الكفاح الوطني والدفاع عن المساجين السياسيين، ففي الذكرى الثامنة عشر لتأسيس 'حزب الشعب الجزائري'، تمّ تعيين العضو التنفيذي في 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' السيدة 'بن طلعة مسعودة' (Bentalla Messaouda) لقيادة وفد من النساء لزيارة المساجين السياسيين بسجن 'بربروس' وتقديم حلول لهم، كما قامت مجموعة من النساء بزيارة مقبرتي 'القطّار' و 'سيدي محمد' ووضع أكاليل من الزهور على قبور المتوفّين من مناضلي 'حزب الشعب'، وقدمت مساعدات لصالح عائلات المساجين².

وزار وفد من 'الحركة الوطنية الجزائرية' (MNA) السيّدّة 'مامية شنتوف' رئيسة 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' بالجزائر العاصمة، وكان الهدف المساهمة في جمع

¹- ANOM, 81 F 760: Direction des Renseignements Généraux: Intervention de la déléguée de l'Algérie au congrès de la FDIF à Genève, 31 Mars 1955.

²- ANOM, 91 4I 185: PRG: Du 18eme anniversaire du P.P.A, 10 Mars 1955.

نقرأ في تقرير للشرطة الفرنسية أنه تمّ جمع مبلغ 158 ألف فرنك فرنسي في الجزائر العاصمة وحدها لمساعدة

عائلات المعتقلين. يُنظر: ANOM, 91 4I 185: PRG: CSV- AFMA, 14 Novembre 1952

مساعداً لصالح عائلات المناضلين المسجونين، وقد وافقت رئيسة الجمعية على المشاركة في هذه 'المهمة الوطنية'¹.

وكانت أربع من الناشطات ضمن 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' قد طلبن من النسوة الحضور بأعداد معتبرة إلى مقبرة 'القطار' يوم الجمعة 21 أكتوبر 1955م والجمعة والمالية، وقد أسدت لهنّ السيّدة 'شنتوف' تعليمات لاستغلال مناسبة المولد النبوي وذكرى أوّل نوفمبر لدعم النضال من أجل استقلال شعبنا²، كما كانت مناضلات الجمعية ينتقلن إلى البيوت لنشر الدعاية لصالح الثورة، وحثّ النساء على عدم تشييط عزيمة الرجال الذين يحاربون في سبيل الإسلام؛ على العكس يجب تحفيزهم ودعمهم، ورفض كلّ تواصل مع خونة الإسلام، وأفرضن على أبناءكنّ وأزواجكنّ المشاركة في تحرير شعبنا، وكنّ قويّات وواثقات أنّ الإسلام سوف ينتصر³.

كما قدّمت 'مامية شنتوف' مجموعة من الاقتراحات تتعلّق بكيفية المساهمة في العمل التحرّري؛ لدراستها في اجتماع آخر ضمّ كلّ من: نفيسة حمّود (طبيبة)، ساكر زبيدة (معلّمة)، مفتي مليكة (طالبة)، بن علي فطيمة (قابلة)، تيزراوي فاطمة زهرة، شامة بوفجّي (مديرة جمعية شريفة الأعمال)⁴.

وتذكر مراسلة أخرى أنّ السيّدة 'شنتوف' صرّحت: "أعتقد أنّ مناضلاتنا نجحنّ في المهمة التي أوكلت لهنّ، والمتمثلة أساساً في نشر الوعي بين النساء وفتات المجتمع؛ والرغبة في المشاركة في الكفاح من أجل الاستقلال، وهناك أخوات شابات وعلى ضوء ما يحدث في مصر وتونس والمغرب؛ طالبن المشاركة بفعالية في الكفاح المسلّح الذي يخوضه آباؤنا

¹ - ANOM, 91 4I 185: PRG: MNA- AFMA, 21 Mars 1955.

² - ANOM, 91 4I 185: PRG: A.F.M.A, 21 Octobre 1955.

³ - ANOM, 91 4I 185: PRG: A.F.M.A, 16 Aout 1955.

⁴ - ANOM, 91 4I 185: PRG: A.F.M.A, 17 Novembre 1955.

وأزواجنا وإخواننا (...) وقد باشرنا الاتصالات بقيادة (MNA) في باريس التي أبدى مسؤوليها موافقتهم من أجل مشاركة فعلية للنساء الجزائريات في النضال ضد القمع الفرنسي، أعتقد أنّ نشاطنا يجب أن يكون في هذا الاتجاه، نحن لا نفتقد لطالبات شبّات اللواتي يتوجّهن كليلّة لتشكيل الأطر المستقبلية للميليشيا النسوية"¹.

وتبعاً للنشاط المكتّف للنساء الجزائريات ضمن هذه الجمعية وغيرها؛ سنجد قضايا المرأة الجزائرية المسلمة أكثر حضوراً في النقاشات السياسية والمشاريع الإصلاحية، وفي الصحافة الفرنسية أيضاً بعد عام 1956م، ولم يقتصر الأمر على الإدارة الفرنسية، فحتى 'الحركة الوطنية الجزائرية' (MNA) حاولت تجنيد نساء ضمن صفوفها، كما تشير إلى ذلك وثيقة صادرة عن وزارة الداخلية، حيث سعى قادة الحركة إلى تكوين خلايا نسوية، بالاعتماد على نساء جزائريات وأوربيات². كما تعكس التقارير التي كان يعدّها أعوان المصالح الأمنية الفرنسية ومخبريها؛ حجم النشاط الذي بلغه الفرع النسائي للتيار الاستقلالي الوطني الجزائري، ونكاد نجزم أنّ المرأة ضمن حركة الانتصار لم يعد يقلّ بأيّ حال من الأحوال عن دور الرجل.

2-3- تأسيس 'اتحاد نساء الجزائر' (UFA):

انتظمت النساء المنخرطات في 'الحزب الشيوعي الجزائري' (PCA) ضمن 'اتحاد نساء الجزائر' (Union des Femmes de l'Algérie) منذ عام 1944م، وانصب اهتمامهنّ على المسائل الاجتماعية³ بداية، حيث كانت محاربة مجاعة الأربعينيات على رأس أولوياته، وكانت الاحتجاجات متواصلة على سياسة الحكومة الفرنسية في إدارة هذه

¹ - ANOM, 91 4I 185: PRG: A.F.M.A, 10 Novembre 1955.

² - ANOM, 81 F 1218: Direction des affaires d'Algérie: Le M.N.A va-t-il constituer des cellules féminines ?, 16 Décembre 1955.

³ - Ferial Laalami: «Généalogie du mouvement féministe en Algérie», Op.cit, p.3.

الأزمة، وبُذلت الجهود لتوفير المؤونة اللازمة التوزيع العادل لها على عموم الشعب، كما رُفعت العرائض والشكاوى التي تُطالب بتحسين الظروف المعيشية في البلدة و بوفاريك والجزائر العاصمة، والمطالبة بفتح الحدود من جهتي تونس والمغرب¹.

من القضايا السياسية التي كانت في صدارة مطالب 'اتحاد نساء الجزائر'؛ الحق في الانتخاب والمشاركة السياسية للنساء الجزائريات المسلمات؛ لذلك كان يضعها ضمن طليعة مطالبه، وقد استقبل قرار لجنة الشؤون الداخلية بالبرلمان الفرنسي باعتماد مقترح النائبة 'آليس سبور تيس' الخاص بالموافقة على حق الانتخاب للنساء المسلمات بارتياح كبير، وذلك لما يتيح من إمكانية للمرأة الجزائرية للتعبير عن رأيها والمشاركة في صناعة مستقبلها، خاصة المرأة الريفية التي تعاني كثيرا شظف العيش والحرمان².

وكانت النساء الجزائريات يخرجن في مظاهرات بأحياء الجزائر العاصمة للمطالبة بتحسين ظروف العيش، من تنظيم 'اتحاد نساء الجزائر'، وفي إحدى هذه المظاهرات انتقدت السيدة 'حليمي' بسخرية عنيفة 'مجموعي الشعب' و 'تجار السوق السوداء'، ومع أنّ الجريدة التي نقلت هذه الحادثة اعتبرت أنّ موقفها هذا كان لأغراض انتخابية؛ إلا أنّ دلالتها ورمزيتها تعبّر بشكل واضح عن مدى نضج الوعي لدى المرأة الجزائرية المثقفة³.

وفي المؤتمر الثالث لـ'اتحاد نساء الجزائر' الذي كان بطابعٍ دولي، فُتح النقاش حول وضع المرأة الجزائرية المحرومة من المشاركة في الحياة العامة، والتي قهقرتها السياسة الاستعمارية بمعية أطفالها؛ إلى أدنى درجات التخلف والفقر والامية، وكان توجه المؤتمرات

¹ - ANOM, 1 K 137: Préfecture d'Alger: Un trac de UFA, 25 Octobre 1944.

² - «L'Union des Femmes d'Algérie et le droit de vote pour les femmes musulmanes», Alger républicain, 13 Aout 1947.

³ - «Une Manifestation de ménagères en meeting électoral», Journal d'Alger, 11 Octobre 1947.

إلى التأكيد على ضرورة الكفاح لوضع حدّ لمعانها ولبناء مستقبلها بكلّ حرية، كما أجمعت المشاركات من كلّ ربوع القطر الجزائري؛ على بذل كل الجهود لتحقيق الحرية، ولكي يكون لمن نصيب مباشر في معركة الكفاح لتحرير البلاد¹.

وعلى إثر عودتها من الاتحاد السوفياتي؛ قامت النائبة الشيوعية 'آليس سبورتيس' بمقاسمة انطباعاتها أمام حوالي 60 امرأة، خلال اجتماع الفيدرالية الديمقراطية الدولية للنساء (FDIF)، ومن بين مذكرته: أنّ الاتحاد السوفياتي في مقدّمة الداعمين للسلام في مواجهة 'القوة التخريبية الأنجلوسكسونية'، وبأنّ النساء الجزائريات يجب أن يُعارضن بقوة التحضيرات للحرب التي يقوم بها 'الامبرياليون الأنجلوسكسون'، وأشادت بحرية التعبير في الاتحاد السوفياتي؛ بينما يتعرّض السيد 'بشير حاج علي' للمتابعة القضائية لأنّه ندّد بالحرب، وأنّ الولايات المتحدة الأمريكية اتّخذت من شمال إفريقيا قاعدة انطلاق للاعتداء على الاتحاد السوفياتي، وبأنّ 400 امرأة من أمّهات وزوجات الجنود المتوفّين في الهند الصينية؛ تقدّمن إلى وزارة الداخلية لرفع مطالبهنّ، لكنهنّ تمّ قمعهنّ بعنف من طرف الشرطة².

وفي تجمّع عام نظّمه الاتحاد بالعاصمة حضرته أكثر من 350 امرأة أغلبهنّ مسلمات، تناولت الكلمة فيه السيدات 'قاروبي' و'آليس سبورتيس' و'باية العوشيش' التي كانت قد مثّلت 'الاتحاد' في مؤتمر بودابست (Budapest)³، وخلال تجمّع نسوي في الخامس من شهر جويلية عام 1950م، حثّت 'باية العوشيش' الحاضرات على تربية أبنائهنّ تربية سليمة؛ ليمنحوا للجزائر 'رجال أقوياء مستعدّين لكلّ الاحتمالات'، كما أنّ وفداً عن النساء المسلمات الجزائريات 'تقوده السيّدة 'مامية شنتوف' والآنسة 'مليكة مفتي'؛ قام

¹ - «Le 3eme congrès de l'UFA: Les femmes d'Algérie veulent prendre une part directe dans la libération de notre pays», *Liberté*, 26 Mai 1949.

² - ANOM, 81 F 760: F.D.I.F, Rapport mensuel du GGA, Alger, 10 Janvier 1950.

³ - ANOM, 81 F 760: U.F.A- Alger, Rapport mensuel GGA, 16 Janvier 1950.

Voir aussi: «les algériennes sont présentes au deuxième congrès mondial des femmes pour la paix», *Alger républicain*, 2 décembre 1948.

بزيارة لمصالي الحاج في 29 سبتمبر (1950م) ببوزريعة، حيث قدّمت له السيّدة 'شتتوف' التهناني بمناسبة العيد، وأكّدت دعمهنّ للفقراء والمسجونين من أبناء الحزب، بينما عبّر مصالي بدوره عن سعادته برؤية النساء يشاركن في معركة التحرير الوطني¹.

وفي الرابع من شهر جانفي 1951م؛ عقد 'اتحاد النساء الجزائريات' اجتماعاً مخصّصاً للنساء، وقد جرى تحت إشراف السيدات: 'مندوز' (Mandouze) و 'ميرانس' (Merens) و 'دالي باي عيشة'، اللواتي أخذن الكلمة توالياً، فتطرّقت الأولى إلى الحرب في كوريا والهند الصينية، بينما تتبّعت السيدة 'دالي باي' أعمال مؤتمر 'فرسوفيا' (Varsovie) حيث كانت موفدة إليه².

ولعلّ من أبرز المناضلات النسويات في صفوف هذا الاتحاد السيّدة: 'لوسات لاريبار حاج علي' (Lucette Larribère Hadj Ali)³، التي وضعت كتيّب (بطلب

¹- ANOM, 81 F 760: A.F.M.A –Tlemcen, (S.D).

²- ANOM, 81 F 760: U.F.A, Rapport mensuel du GGA, Janvier 1951.

³- لوسات (صافية) حاج علي: هي زوجة الشاعر المناضل الشيوعي الجزائري 'بشير حاج علي'، وابنة الطبيب 'جون ماري لاريبار' (Jean-Marie Larribère)، ولدت بوهران عام 1920م، حيث ربّتها والدها على حب العدالة والتزاهة، عاشت طفولتها وشبابها هناك، لكنها لم تتمكّن من إدراك معاناة الجزائريين بسبب المحيط الاجتماعي المتباعد، وسيطرة الجالية الأوروبية على وسط المدينة (كما ذكرته في ديباجة كتابها)، بعد مجيئها إلى الجزائر العاصمة عام 1942م؛ اكتشف الظروف غير الإنسانية التي يعيش في ظلّها الجزائريون، ممّا جعلها تبدأ النضال وهي طالبة من أجل تحرير الجزائر، عملت كصحفية في جرائد 'الليبرتي' (Liberté)، 'امرأة الجزائر' (Femme d'Algérie) و 'الجزائر الجمهورية' (Alger républicain)، كانت صديقة للمناضل 'هنري علاق'، وانخرطت في النضال من أجل تعليم أطفال 'الأهالي'، وتوفير الرعاية الصحية لهم، بعد اندلاع الثورة انخرطت في النواة الأولى لمحاربي التحرير (CDL) التي أسسها 'الحزب الشيوعي الجزائري' عام 1955م، التي دُججت في 'جبهة التحرير الوطني' عام 1956م، وكانت هذه المرأة؛ همزة وصل بين جبهة التحرير الوطني والحزب الشيوعي الجزائري، وبعد الاستقلال خاضت معارك من أجل التنمية والعدالة الاجتماعية في الجزائر، وفي العشرية السوداء غادرت إلى فرنسا وبقيت هناك إلى أن توفّيت يوم الاثنين 26 ماي 2014. يُنظر:

<https://amb-algerie.fr/932/disparition-deces-moudjahida-lucette-hadj-ali/>

تم الاطلاع بتاريخ: 2020/05/01 سا: 12:38.

من أصدقائها) تروي فيه مسيرتها النضالية تحت عنوان: 'مسار مناضلة جزائرية: 1945-1962'¹، فهي تعدّ من أوائل المناضلات اللواتي شاركت في العمل النضالي للنساء الجزائريات تحت إشراف السكرتيرة العامة للاتحاد 'آليس سبورتييس'².

عن نضال 'النساء الشيوعيات' في مجال التعليم وتحسين ظروف العمل كتبت 'لوسات لاريبار': "مواصلة حركتنا ضد التمييز الصارخ في حقّ المجتمع الجزائري، قرّرنا أن نرفع صوتنا بهذا الشأن؛ وكانت مناضلاتنا في وهران والجزائر العاصمة على الخصوص؛ يقمن بالاتصال بالنساء اللواتي لديهن أطفال لم يتمّ قبولهم أو معرّضين لخطر عدم قبولهم في المدرسة الفرنسية، وكل عام نقوم بتجميع هؤلاء النسوة أمام المدارس للاحتجاج ضد هذا التمييز الواضح، لست متأكّدة من نجاح الحركة في تسجيل العديد من الأطفال؛ لكنها جلبت لنا تعاطف النساء في الأحياء الشعبية. وكذلك فعلنا بالتعاون مع أقسام من النقابات العمّالية، فيما يخصّ النساء العاملات، وخاصة الخادמות في بيوت الأسر الأوربية"³. كما حثّت المتحدثات في اجتماع سبتمبر 1947م؛ النساء على إرسال أبنائهن إلى المدرسة ذكورا وإناثا، وقالت أخرى يجب على المرأة المسلمة أن تتلقّى التعليم المدني، والمشاركة في الحياة السياسية للبلاد⁴.

وفي شهر نوفمبر 1948م؛ كان اجتماع 'جمعية الفتيات العربيات الجزائريات'، وحضره أكثر من 800 شخص، وتحدّثت الآنسة 'بومدين أنيسة' (Boumeddine)

¹ - Lucette Hadj Ali (Née Larribère): **Itinéraire d'une militante Algérienne: 1945-1962**, Edition Tell, Blida, 2011, p.78p.

² - يُنظر تقديم الكتاب المذكور بقلم المجاهد والمناضل الشيوعي عبد القادر قروّج.

³ - Ibid, p.35.

⁴ - ANOM, 81 F 1218, Activités de l'Union des femmes de l'Algérie, Rapport GGA, 6 Septembre 1947.

Voir aussi: Y.L: «600 femmes d'Algérie protestent contre la vie chère demandent les écoles et revendiquent le droit de la vote pour les musulmanes», Alger républicain, 01 Septembre 1947.

(Anissa) التي عرّفت بغاية الجمعية: "تربية وتعليم المرأة العربية؛ بهدف رفعها إلى رتبها الاجتماعية الحقيقية"، أما أحمد توفيق المدني فذكر: "لنكون أحرار مستقلين؛ يجب أن تكون المرأة عندنا متعلّمة، يجب أن تكون متساوية مع الرجل وليست عبداً له"¹. وقبل هذا يذكر تقرير فرنسي أنّ المعلّمة الآنسة 'بومدين عيشة' (Boumeddine Aicha) تقوم بزيارات إلى العائلات المسلمة بغرض جمع الاشتراكات، وقد قدّمت أيضاً محاضرات بهدف تحديد الدور الذي يجب أن تضطلع به الفتاة المسلمة في المجتمع الحديث².

وفي 21 أكتوبر 1948؛ بمناسبة عيد الأضحى (العيد الكبير)، نظّم 'الاتحاد' اجتماعاً نسوياً ضخماً بالجزائر العاصمة، حضرته أكثر من 1200 امرأة عاصمية بين أورييات ومسلمات، وتبعه توجيه رسالة إلى وزير الداخلية الفرنسي، تحت عنوان: 'رسالة طلب المساواة في الحقوق لكل النساء والأطفال الجزائريين'، وكانت أهمّ مطالبها تنفيذ الوعود المتعلقة بحق الاقتراع للنساء المسلمات الجزائريات، وحق الأطفال في الحرية والتعليم والتوظيف والصحة، والحرية للمساجين السياسيين الذين تعاني أمهاتهم وزوجاتهم من دوهم، وضرورة إلغاء انتخابات الجمعية الجزائرية وتنظيم انتخابات جديدة في جوّ من الحرية وبمشاركة كلّ النساء الجزائريات، دون إقصاء بسبب العرق أو الدين³.

وبالجزائر العاصمة؛ تحت رئاسة السيّدة 'قاروي' جرى مؤتمر لـ'اتحاد النساء الجزائريات' في شهر ماي 1949م، بحضور 250 شخص من ضمنه نساء فرنسيات، ووفد خارجي؛ مثّله السيّدة 'سيرتي أرشيماد' (Certy Archimede) النائبة عن غوادالوب، والسيّدة 'مينسكي إيفلين' (Minsky Evelyne) ممثلة اتحاد نساء في الوم أم، والسيّدة 'مازلين لوسيان' (Mazlin Lucienne) المستشارة البلدية بباريس، والسيّدة

¹ - ANOM, 81 F 1218, Evolution des musulmanes- Alger, 24 Novembre 1948.

² - ANOM, 81 F 1218: AJFAA- Alger, Rapport GGA, 20 Aout 1948.

³ - ANOM, 81 F 760: Lettre réclamant l'égalité des droits pour toutes les femmes et les enfants algériens, U.F.A, 21 Octobre 1948.

'ناي تي ليان' (Thai Tei Lien) عن اتحاد النساء الفيتناميات، و'باية العوشيش' ممثلة النساء المسلمات، والسيدة 'آليس سبورتييس' النائبة بوهرا¹، هذا المؤتمر الذي جرى أمام حوالي 1000 امرأة عاصمية، وشاركت فيه ناشطات من داخل الجزائر، كانت أبرزهنّ السيدة 'لويزة عمور' (Louisa Amour) ممثلة عن شعبة بجاية، التي قدّمت مداخلة قويّة؛ كشفت فيها عن الوضعية السيئة والصعبة التي تعيشها المرأة الريفية².

لقد أخذ نشاط النساء الشيوعيات الجزائريات الطابع الدولي، فانخرطن في النضال ضد الامبريالية وقهر الشعوب المستعمرة ومن أجل الحرية والسّلام، إذ نقرأ في جريدة 'ليبرتي' (Liberté) عن سفر 'باية العوشيش' إلى بكين (عاصمة الصين)؛ للمشاركة في 'مؤتمر نساء آسيا وإفريقيا'، كمندوبة عن لجنة الجزائر للفيدرالية الديمقراطية الدولية للنساء (FDIF)، وقد صرّحت أنّها سوف تتحدّث لنساء آسيا عن معاناة المرأة الجزائرية وكفاحها ضد الاحتلال وضد الحرب، وعن قضايا العمّال الجزائريين ونضال المرأة الجزائريات من أجل تحسين ظروف معيشتهنّ، ومن أجل السّلام والحرية³.

وفي شهر ماي تحرّكت النساء الجزائريات بقوة لمناهضة الأسلحة الذرية ووقّعن عريضة لذلك، كما قامت قيادة 'الاتحاد النسائي' بزيارة إلى القنصل العام الأمريكي، وتم في 11 ماي تشكيل 'اللجنة الجزائرية من أجل اليوم العالمي للطفولة' الموافق لـ 1 جوان، وقد ضمّت هذه اللجنة التجمّع الشعبي للعائلات، وممثّلين عن عدّة أحزاب ومنظمات، وتم

¹ - ANOM, 81 F 760: U.F.A- Alger, 24 Mai 1949.

² - «Le congrès de l'union des femmes a exprimé l'ardente de paix des algériennes», Alger républicain, 23 Mai 1949.

³ - Baya Allaouchiche: « Je vais parler aux femmes d'Asie de nos souffrances et de nos luttes contre colonialiste et la guerre», Journal Liberté, 10 Novembre 1949.

يُنظر الملحق رقم: 10.

الاتفاق على تشكيل خلية إعلام؛ هدفها تحديد الوضعية الفعلية للطفولة، والتنديد بسياسة الإدارة الاستعمارية، وتقديم مطالب واقعية وعملية¹.

وكان للنساء الشيوعيات حضور في الجانب السياسي، بالمشاركة في الحملة الانتخابية لصالح مرشحي 'الحزب الشيوعي الجزائري'، وكنّ يمين اليوم العالمي للمرأة في الثامن مارس من كل عام، على غرار ما حصل عام 1951م، بحضور مئات النساء الأوربيات والمسلمات في وهران وقسنطينة وعنابة، وعقدت اجتماعات في البلدية وسيدي بلعباس، حيث عبّرن عن رفضهنّ لحلّ فرع فرنسا عن الفيدرالية الديمقراطية الدولية للنساء، وإدانة السياسة الاقتصادية الكولونيالية، وسياسة الجنرال 'جوان' في المغرب، وانخفاض الأجور، والحرب الدائرة في كوريا وفيتنام، وتمّ توزيع منشورات على الحاضرات، كما تدخلت السيدة 'شنتوف' التي دعت النساء إلى الانخراط في العمل الوطني الذي تقوده، وأكدت أن الرجل لا يمكن أن يكون مناضلا وطنيا إلا بمساعدة المرأة².

وبحسب جريدة 'الجزائر الجمهورية' فقد كانت المناضلة الشيوعية السيدة 'عيشة دالي باي' أول امرأة تتابع قضائيا تحت أحكام المادة 80 من القانون الجنائي الفرنسي؛ بسبب موافقها السياسية، وقد تصل عقوبتها إلى عشر سنوات سجن؛ لأنها طالبت بالحرية أو ناضلت من أجل حقوق رفيقاتها³.

يجب أن نذكر 'جاكلين قروج' (Jacqueline Guerroudj) التي كان لها دور بارز في الكفاح ضد الاحتلال، عكس الأهمية التي أخذها دور المرأة؛ سيما بعد اندلاع الثورة التحريرية، حيث تؤرّخ في مذكراتها لمسارها منذ كانت معلّمة في منطقة تلمسان، أين عايشت الحياة الريفية مع الفلاحين رفقة زوجها 'عبد القادر قروج'، وتلقّت مبادئ

¹ - ANOM, 81 F 760: U.F.A, Rapport mensuel du GGA, Mai 1950.

² - ANOM, 81 F 760: U.F.A, (S.D).

³ - «L'interview de Mme Aïcha Dali bey», Alger républicain, 28 Octobre 1952.

النضال ضمن صفوف 'الحزب الشيوعي الجزائري' منذ سنوات الأربعينيات من القرن العشرين، مروراً بالأحداث التي سبقت وتبعت اندلاع الثورة، ووصولاً إلى اعتقالها وظروف سجنها مع رفيقاتها بسجني بربروس والحراش¹.

2-4- طالبات جمعية العلماء: الكتابة الصحفية والنشاط الإصلاحي:

اقتحمت طالبات جمعية العلماء مجال النشاط السياسي والإصلاحي، لكن الملاحظ هو غياب الأقلام النسوية قبل الحرب العالمية الثانية، إذ كانت المواضيع المتعلقة بالمرأة وشؤونها في أبرز جريدتين إصلاحيتين: الشهاب والبصائر، حكراً على الكتّاب من الرجال، باستثناء مقال واحد، ظهر في السلسلة الأولى من 'البصائر'، ووقّعت صاحبه باسم 'بنت سيدي عيسى'، وهي فتاة من قسنطينة، رمزت لاسمها بـ: ز.هـ. ر. تناولت فيه موضوعاً يعتبر مستجداً قياساً إلى تلك المرحلة التي كُتِبَ فيها، ويتعلّق بالمرأة الجزائرية والكتابة الصحفية، حيث اعتبرت الكتابة أمنية المرأة الجزائرية؛ مثل نظيراتها النساء العربيات في الشرق وفي مصر تحديداً².

يبدو أنّ وعي الطالبة الجزائرية المهاجرة إلى تونس بقضيّتها الوطنية كان أعمق من نظيرتها في الجزائر، حيث نقرأ مراسلة إحدى الطالبات لجريدة 'الأمة' (لسان حال حزب الشعب): "كثيراً من أخواتي المثقفات يكنّ مستعدّات للمشاركة في أداء رسالة الشعب متى وصلتتهنّ 'الأمة' هذه الصحيفة الثمينة التي تملي عليهنّ واجبهنّ، وحينئذٍ نُعين بحقّ إخواننا على تحمّل أمانتنا الشريفة نحو الجزائر الجديدة بشعور الإخلاص والتقوى والفضيلة"³.

¹ - Jacqueline Guerroudj: **Des douars et des prisons**, édition Bouchene, Alger, 1993.

² - ز.هـ. ر.: "المرأة الجزائرية الحديثة والكتابة في الصحف"، البصائر (السلسلة الأولى)، ع.139، 18 رمضان 1357هـ/11 نوفمبر 1938.

³ - أنيسة بركات درّار: نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص21.

إنَّ جلَّ الكاتبات النسويات الإصلاحيات؛ هنَّ خريجات المدارس الإصلاحية لجمعية العلماء؛ قد اقتحمن مجال الكتابة بعد الحرب العالمية الثانية، من بينهنَّ 'مليكة بن عامر'، التي نشرت عدّة مقالات عن الإصلاح الاجتماعي، وتكتب في سلسلة البصائر الثانية غداة اندلاع الثورة التحريرية، لتأكّد حق المرأة الجزائرية مشاركة الرجل في العلم والعمل بقولها: "إننا ننتظر يوماً ليس ببعيد، تكون المرأة فيه تشاطر الرجل في سائر أعماله، وتساعد على القيام بالأمر المهمّة، التي نرجو من ورائها خيراً كثيراً ونفعاً عظيماً..."¹.

ولعلَّ أبرز قلم صحفي في الجزائر المستعمرة هو قلم السيّدة: 'زهور ونيسي'، التي اشتهرت بكتاباتها الأدبية والثقافية بعد استقلال الجزائر، وتقلّدت عدّة مناصب في الدولة الجزائرية، من بينها وزيرة للشؤون الاجتماعية ثم وزيرة للتربية الوطنية.

إنَّ غالبية تلميذات الجمعية تخرجن من مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، التي كان يُشرف عليها الإمام عبد الحميد ابن باديس بنفسه، نذكر منهنَّ 'ليلى بن ذياب'؛ وهي أخت العالم المصلح 'أحمد بن ذياب'، التي كتبت مقالات كثيرة في قضايا تربوية واجتماعية، كما تناولت قضية تعليم المرأة²، ودرّست في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، منها مدرسة إحياء العلوم الإسلامية بالعلمة (ولاية سطيف حالياً)، ومنهنَّ أيضاً المساهمات في 'البصائر'؛ مثل 'زليخاء عثمان إبراهيم'؛ وهي معلّمة بمدرسة دار الحديث بتلمسان، التي كتبت حول تعليم المرأة³، و'مليكة بن عامر' معلّمة في مدرسة التهذيب بشلغوم العيد⁴.

¹ - مليكة بن عامر: "المرأة الجزائرية بين الحاضر والمستقبل"، البصائر، ع.319، 21 رمضان 1374هـ / 20 ماي 1955.

² - ليلى بن ذياب: "تعليم المرأة"، البصائر، ع.93، 9 محرم 1369هـ / 31 أكتوبر 1949.

³ - زليخاء عثمان إبراهيم: "التعليم وحظ المرأة منه"، البصائر، ع.93، 9 محرم 1369هـ / 31 أكتوبر 1949.

⁴ - مولود عومر: "أقلام نسوية في جريدة البصائر"، مجلة البصائر، ع.694، 01-07 جمادى الأولى 1435هـ / 03-09 مارس 2014، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، ص12.

وتعتبر 'زهور ونيسي' أبرز الكاتبات النسويات في جريدة 'البصائر'، فقد وقّعت العديد من المقالات باسمها، وعالجت بعض المشكلات الاجتماعية، نذكر منها: 'من صميم الواقع: نتيحة مؤلمة'، 'صوت المرأة'، 'إلى التي استهانت بعذاب الله'، 'المرأة الجزائرية والتّمدن'، 'إلى الشباب'، 'فائدة العلم والعمل'. وقد تطرّقت لإسهاب إلى وضع المرأة وقيمتها في المجتمع الجزائري، فمن بين ما جاء في إحدى مقالاتها: "يجدر بالفتيات المتعلّقات على الأخصّ اليوم مداواة أدوائهنّ ومعالجة أمراض مجتمعهنّ، فهنّ نور بنات جنسهنّ الضئيل في هذه البلاد الفاقدة لنور الحياة"¹.

وتحدّث عن ذكرياتها عندما كانت تلميذة في مدرسة جمعية العلماء بقسنطينة: "في هذه المدرسة كنت وأخواتي نتعلّم ساعات النهار، ليأتي والدنا في المساء مع آباءٍ آخرين مثله نحو أمّيتهم، ثم لا ينسى أيام العطل، فيتردّد على المدرسة متطوّعاً ليرقّع ما تلف من فصولها وجدرانها وأرضيتها وهو البناء الماهر، أليست هذه مدرسته ومدرسة بناته، وأبناء هذا الشعب البسيط الذي يعتزّ بالانتماء إليه؟"². وتناولت ظاهرة عدم تقبّل المجتمع في ذلك الوقت لتعليم البنات، معتبرة ما أقدم عليه والدها وكلّ الأولياء الذين سمحوا لبناتهنّ بالالتحاق بمدارس الجمعية؛ بمثابة هزيمة، فتقول: "أليست هزيمة أن تتحدّى كل الأفكار و الذّهنيات المريضة المحيطة بك؟ و تُعارضها، وتفرض رفضك لها، وتسمح لبناتك الصبايا أن يخرجن كلّ يومٍ للمدرسة، تحت أنظار وتعجّب واستياء الآخرين؟"³.

وكتبت 'ليلى بن ذياب' في جريدة الأسبوع التونسية عن أهمية التعليم للبنات الجزائرية التي: "خرجت من ظلمات الجهل وأضاء نور العلم الزاهر قلبها.. لتتهدي به إلى

¹ - يُنظر مقالات زهور ونيسي في: البصائر، الأعداد: 288-291-297-303-304-309-315--349-359-276-288-291-297-303-304-309-315-327، بين سنتي: 1954-1956.

² - زهور ونيسي: عبر الزهور والأشواك: مسار امرأة، دار القصة، الجزائر، 2012، ص69.

³ - المصدر نفسه.

الحياة الجميلة أمكنها أن تخدم أمّتها... وأن تبني لأبناء الجزائر مستقبلاً باسماء.. وتسهر على سعادتهم، وتخفف من شقائهم وتكون (كوكبا) درياً يلمع في سماء الحياة، وبراساً قوياً يسطع في جو الجزائر خصوصاً¹.

أما 'حليمة مهدي' فذكرت: "واجب كل فتاة مسلمة أن تترع ستار الجهل، تضيء ظلمته بنور العلم..."²، بينما قالت 'خيرة صبري': "البت في الدار كالقلب في الجسم؛ إذا فسد القلب فسد الجسم كله، وإذا صلح القلب صلح الجسم كله، والبت في الدار إذا صلحت صح كل من كان معها، وإذا كانت فاسدة فسد كل من كان معها"³.

ومنذ الأربعينات من القرن العشرين، قامت الجمعيات النسائية الجزائرية بحملة لحو أمية الفتيات، فوجد أنيسة بومدين؛ وهي معلّمة ثم رئيسة 'جمعية الفتاة العربية الجزائرية'⁴، تدعو المرأة إلى استعادة حقها في التعليم: "الأمر لا يعود لك وحدك، ولكن الأمر متروك لك أولاً للهروب من الوضع المتدني الذي أنت فيه (...).؛ لأنك تفهمين أن المسلمة الوفيّة لتعاليم دينها لا ترضى أن تقبع في الجهل، وتتجاهل واجباتها وتبعد عن كتاب الله"⁵،

¹ - ليلي بن ذياب: "واجب المرأة بالمتزل"، جريدة الأسبوع، 15 أوت 1949، ص 03. نقلا عن: براهيم بلوزاع: المرجع السابق، ص 42.

² - حليمة مهدي: "البت المسلمة تُطالب بعلم والمعرفة"، جريدة الأسبوع، 20 ماي 1951، ص 06. نقلا عن: براهيم بلوزاع، المرجع السابق، ص 42.

³ - خيرة صبري: "زوال الجهل"، جريدة الأسبوع، 23 جانفي 1950، ص 11. نقلا عن: براهيم بلوزاع، المرجع السابق، ص 42-43.

⁴ - تأسست في 22 ماي 1948م، هدفها تطوير التعليم العربي والإسلامي لصالح الفتيات الجزائريات، نشر الفضيحة والثقافة العالية في أوساطهنّ. كانت مرتبطة بالاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، مع وجود فئة من النساء متعاطفات مع حزب الشعب الجزائري. للمزيد يُنظر:

ANOM, 91 4I 185: SLNA: Notice sur l'association de la jeune fille algérienne, 23 Mars 1950.

⁵ - La République algérienne, N°140, 27 Août 1948, p.4.

Voir aussi: Fériel Laalami: «**Généalogie du mouvement féministe en Algérie: Commencements et identité**», (Séminaire Genre, Politique, Sexualité(s). Orient/Occident), Octobre 2015, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris.

وأطلقت صرخة الفتاة الجزائرية في جريدة 'الأسبوع' التونسية: "استيقظي من سباتك الطويل للعمل والكفاح ومشاركة العاملين في الاجتماع (...). والسبيل الأول هو سبيل العلم، ولا سبيل يضمن لك النجاح إلا هذا السبيل"¹.

ومؤسس هذه الجمعية هو الأستاذ: محمد الحسن الورتلاني (فضلاء)²، الذي كان يُشرف على حركة التعليم في الجمعية بمساعدة فتياته، وقد تضمّنت إحدى نشراتها صورة لعضوات المجلس الإداري للجمعية يرتدين الحايك الأبيض الجزائري والنقاب، وهنّ: أنيسة بومدين، سكينه آيت سعادة، زهرة صمغوني، شاشة سفير، خيرة زورزو، زينب فضلاء، فاطمة الزهراء رميلة، بالإضافة إلى أعضاء الاستشارة وهنّ: غنية شالح، صفية قصباجي، فاتحة مازيغي، حورية داوود، فاطمة الزهراء محفوظي³.

وورد في نشرة تعريفية بـ'جمعية الفتاة العربية الجزائرية' منشورة باللغة العربية وصدرت في شهر جويلية 1949م بأنّها: "جمعية تهذيبية ثقافية علمية نسائية، شعارها 'تهذيب الهيئة الاجتماعية النسوية'؛ غايتها نشر التعليم الإسلامي بين الفتيات المسلمات الجزائريات؛ ونشر الأخلاق الفاضلة والتهذيب الراقى والسيرة الإسلامية الصحيحة، وذلك بواسطة الدروس والمحاضرات والنشرات..."⁴.

ونقرأ تقريراً فرنساً عن انعقاد المؤتمر العام لهذه الجمعية بتاريخ 21 نوفمبر 1948م بدار سينما 'الماجستيك' بالجزائر العاصمة، بحضور حوالي 800 شخص أغلبهم من النساء، وتحت إشراف رئيسها السيد محمد الحسن فضلاء' ونائبته 'أنيسة بومدين'، وقد تحدّثا باللغة

¹ - أنيسة بومدين: "نداء إلى السيدات والفتيات الجزائريات من جمعية الفتاة العربية الجزائرية"، جريدة الأسبوع، 15 أوت 1948، ص 07. نقلا عن: براهيم بلوزاع، المرجع السابق، ص 43.

² - هو تلميذ ابن باديس وأخ المصلح محمد الطاهر فضلاء، ومعلم بالمدرسة الصادقية بحي المدينة بالعاصمة. يُنظر: ANOM, 91 4I 185: SLNA: AJFAA, 11 Juin 1948.

³ - يُنظر الملحق رقم: 11.

⁴ - يُنظر الملحق رقم: 12.

العربية، ثم أخذ الكلمة بعدهما الشيخ: 'أحمد توفيق المدني' الذي رافع ضد الجهل فقال: "لكي نكون أحراراً، مستقلين؛ يجب على المرأة عندنا أن تكون متعلّمة ومهذّبة، يجب أن تكون مساوية للرجل وليست عبداً له"، وبعدهما شرح وضع المرأة في العالم وركّز على تركيا، وختم بمدح مؤسس الجمعية، واعتبره عمل لصالح الإنسان والمسلم والوطن.¹

حاولت هذه الجمعية كسب ودّ الإدارة الفرنسية؛ من خلال توجيه الدعوة إلى محافظ الجزائر العاصمة لحضور جمعيتها العامة؛ ليكون شاهداً على الأهمية التي توليها الجمعية لتحرير الفتاة المسلمة الجزائرية². كما أنّها لم تكن غائبة عن عيون رجال الاستعلامات حول طبيعة نشاطها وعلاقتها بحركة الانتصار وحزب الشعب، والدعاية التي تقوم بها لصالح التيار الاستقلالي والكفاح التحرّري، من خلال إشراك المرأة في الدعاية الوطنية، وهي تكملّ العمل الذي تقوم به 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات'، وتعارض تغريب المرأة الأهلية³.

بالعودة إلى الكتابات النسوية في صحافة 'جمعية العلماء'، فقد كان الوضع المزري للبنات والمرأة الجزائرية من أهمّ ما تناولته الكاتبات في البصائر، فصوّرت 'باية خليفة'، الحياة البائسة للمرأة الجزائرية (المرأة الريفية) في البادية التي تخلو من المدارس التي ترفع عنها الجهل والتخلف، كما ناقشت مكانة المرأة في المجتمع: "إنّ المرأة من الأمة كالروح من الجسد والراحة من اليد، إذا صلحت صلحت الأمة كلّها، وإذا فسدت فسدت الأمة كلّها. وهي المدرسة الأولى التي تُلقى دروسها الحيّة على الطفولة في طور الأمومة، ومنار يُهتدى به في الظلمات"⁴.

¹ - ANOM, 91 4I 185: PRG: De l'assemblée générale de A.J.F.A.A, 25 Novembre 1948.

² - ANOM, 91 4I 185: A.J.F.A.A, Alger, 10 Novembre 1948.

³ - ANOM, 91 4I 185: PRG: AJFAA, 16 Juin 1948.

⁴ - باية خليفة: "قيمة المرأة في المجتمع"، البصائر، ع.298، 28 ربيع الثاني 1374هـ/24 ديسمبر 1954.

وكذلك فعلت 'لويزة قلال'، التي تنحدر من منطقة 'عين آزال' (جنوب سطيف)؛ بمقال لها حول المرأة الجزائرية ووضعها في ذلك الوقت¹. بينما اهتمت كاتبة أخرى هي 'العالية لعلی بوعلی'؛ بالمرأة العربية وشؤونها، ووظيفة المرأة بصفة عامة في الحياة، متسائلة في إحدى مقالاتها: هل المرأة متديّنة؟². وكتبت 'فتيحة القورصو' عن مدرسة عائشة التابعة لدار الحديث بتلمسان³، وتتبع 'زليخاء إبراهيم عثمان' نشاط مدارس الجمعية الموجهة لتعليم البنات⁴، كما كتبت عن ظاهرة الأمية المنتشرة بين البنات المسلمات الجزائريات، بسبب عادات بالية وسوء فهم للدين الإسلامي، وقد أجمعت رائدات الإصلاح دون استثناء؛ على ضرورة التعبئة لإقناع النساء بالالتحاق بالتعليم، لتنال المرأة حرّيتها وتضمن كرامتها وتحقق سعادتها.

وكانت 'ليلی بن ذياب' تكتب سلسلة من المقالات تحت عنوان: 'اخترت لكم'⁵؛ بحيث تختار في كل مرة موضوعا في الأخلاق والاجتماع، تمهد له بمقدمات؛ ثم تقبّس نصوصا عن الأدباء والعلماء في الشرق والغرب، وتختمه بتوجيهات ونصائح. كما نشرت 'زهور ونيسي' هي أيضا عدّة مقالات بعنوان: 'من صميم واقعنا'، تنتقد فيها الأوضاع السائدة في الجزائر، وجّهت من خلالها؛ انتقادات لاذعة للشباب الجزائري ووصفته بالكسل

¹ - لويزة قلال: "حول المرأة الجزائرية"، البصائر، ع. 20، 301 جمادى الأولى 1374هـ/14 جانفي 1955.

² - العالية لعلی بوعلی: البصائر، الأعداد: 343-356-359، خلال سنتي: 1955-1956.

³ - فتيحة القورصو: "حول تأسيس مدرسة عائشة بتلمسان"، البصائر، ع. 201، 25 ذي الحجة 1371هـ/15 سبتمبر 1952.

⁴ - زليخاء إبراهيم عثمان: "حفلة افتتاح مدرسة عائشة الخاصة بالنساء"، البصائر، ع. 192، 9 رمضان 1371هـ/2 جوان 1952.

⁵ - ليلي بن ذياب: "اخترت لكم"، البصائر، الأعداد: 158-159-162-163-164-168-170-171-177، خلال سنة 1370-1371هـ/1951م.

والخمول وعدم الوعي برسائله وعدم الشعور بمسؤولياته. وقد أثار مقالها ردود أفعال وسجلاً مع عدد من المثقفين الشباب؛ فمنهم من أيدها ومنهم من عارضها بقوة.

ومما يلفت الانتباه، هو غياب إحصاء الأرقام النسوية الإصلاحية عن مناقشة مسألة الحجاب وبعض المسائل الاجتماعية الحساسة، التي كثيراً ما نوقشت في صفحات جريدتي 'الشهاب' و 'البصائر' بأقلام رجالية، بينما كان إصرارهن الدائم على ضرورة الالتزام بالأخلاق الإسلامية، والدعوة إلى عدم التشبه بالمرأة الأوربية¹.

إن الصعود اللافت للنشاط النسوي الوطني والإصلاحي عكس التحوّلات العميقة التي حدثت في المجتمع الجزائري، سيما عقب الحرب العالمية الثانية، والأدوار التي صارت تلعبها الشابة الجزائرية المثقفة في المدن بشكل خاص؛ والمهام التي باتت توكل للمرأة في خدمة قضيتها الوطنية، والدفاع عن قضايا جنسها والمطالبة بحقوقها كاملة.

* خلاصات الفصل الخامس:

كانت المشاركة المرأة السياسية في صفوف الحركة الوطنية الجزائرية قبل الحرب العالمية الثانية ضعيفة، وبقي حضورها باهتاً؛ لأسباب موضوعية تتعلق أساساً بالذهنية السائدة في المجتمع تجاه المرأة، فضلاً عن حرمان جل النساء المسلمات في الجزائر من التعليم، مع وجود بعض الاستثناءات، على غرار السيدة 'شامة بوفجّي'، أو بعض النساء 'الليبراليات' اللواتي نشطن في الجمعيات الفرنكو-إسلامية إلى جانب نظيراتهنّ الفرنسيات.

يمكن القول أن حضور المسألة النسوية في خطاب الحركة الوطنية كان محتشماً إلى غاية الحرب العالمية الثانية، حيث استلزمت المعطيات السياسية المستجدة؛ إقحام النساء ضمن البرامج والخطب السياسية لأحزاب الحركة الوطنية، وتكليفهنّ بتأسيس الجمعيات

¹ - مولود عويمر، المرجع السابق.

والإشراف على نشاطاتها، وبثّ الدعاية الحزبية في الأوساط النسوية، وتبني قضايا المرأة الجزائرية، والدفاع عن حقوقها.

اشتملت أدبيات التيار الإدماحي على كتابات نسوية ندّدت بالسياسة الاستعمارية التي أدت إلى انحدار وضع المرأة 'الأهلية' في الجزائر، كما توجّهت سهام نقد النخبة النسوية الجزائرية المتفرنسة؛ إلى المجتمع المحليّ وعاداته وتقاليده التي حرمت المرأة في الجزائر من الارتقاء، وتركتها تزرع تحت نير الجهل والتخلف.

عرف النشاط النسوي في الجزائر زخماً وحضوراً لافتاً عقب الحرب العالمية الثانية، وقد تصدرت مناضلات 'جمعية النساء المسلمات الجزائريات' ومناضلات 'اتحاد نساء الجزائر'، المشهد النضالي النسوي، وكان حضورهنّ قوياً في المناسبات، وكانت مطالبهنّ تصدر بصوت عالٍ لمنح المرأة الجزائرية حقوقها، وعلى رأسها الحقّ في الحرية والاستقلال.

اقتصرت نشاط خريجات مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؛ على الكتابة الصحفية، وقد يفسّر هذا بكون الجمعية دينية إصلاحية لم تكن ترى من المناسب إقحام المرأة في الجدل السياسي؛ لذلك فقد تركّزت كتابات مُتسباتها على القضايا الاجتماعية، وحاولن خدمة خطها الإصلاحي، مع الإشارة إلى الدور الذي لعبته 'جمعية الفتاة الجزائرية'.

إنّ صعود النشاط الجمعي والسياسي للمرأة الجزائرية لم يكن ليشمل إلاّ نسبة قليلة من الفتيات والنساء الجزائريات من بنات المدن الكبرى، واللواتي تمكّن من الحصول على قدر من التعليم العربي أو التعليم الرسمي الفرنسي، واستطعن تشكيل 'نخبة نسوية جزائرية'، والنواة الأولى للحركة النسوية، التي تبنت قضايا المرأة في الجزائر، بينما بقيت الغالبية الساحقة من النساء الريفيات خصوصاً؛ معيّبات يرزحن تحت طائلة الجهل والتخلف.

الفصل السادس:

'تحرير المرأة الأهليلة': غموض الخطاب الفرنسي وانشطار النخبة الجزائرية:

- ماذا حَقَّق الخطاب الكولونيالي للمرأة 'الأهليلة' الجزائرية؟
- المتفرنسون: خيبة ارتقاء المرأة 'الأهليلة' بفضل الحضارة الغربية.
- النخبة العربية ومسألة تحرير المرأة: الاتفاق والاختلاف.

نعقد في هذا الفصل مقارنة بين رؤيتين مختلفتين لمسألة تحرير المرأة في الجزائر؛ النظرة الكولونيالية الفرنسية الداعية إلى تحرير المرأة وفق رؤية منظومة الفكر الغربي، وضمن أطر القيم الحضارية الفرنسية، ومواقف النخبة الجزائرية المثقفة التي تراوحت بين مؤيد للخطاب الكولونيالي؛ رغم انتقادها أحياناً للسياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر، وبين التيار الوطني الإصلاحي، الراض للخطاب الفرنسي الداعي إلى تحرير المرأة الجزائرية، والرامي إلى الحفاظ على مقومات شخصيتها وهويتها بجميع أبعادها.

1- ماذا حقق الخطاب الكولونيالي الفرنسي للمرأة 'الأهلية'؟

لقد أدرك الفرنسيون أنهم لن ينجحوا في استعمار الجزائريين فكرياً وثقافياً، بعدما تمكنوا من إخضاعهم بالقوة العسكرية؛ إلا بانتهاج سياسة تقوم على استهداف ركائز المجتمع؛ ومنها المرأة الجزائرية، وهذا بالتّظر إلى مكانة ودورها المرأة وسط العائلة الجزائرية، خاصة دورها الاجتماعي والتربوي، وقد أرجعوا أسباب تردّي وضع المرأة المسلمة وتخلّفها إلى الدين الإسلامي الذي لم ينصفها، ومنهم من تأسّف على حالها، ومنهم من جعلها ضحية التعاليم الدينية القاسية والعادات الاجتماعية البالية، التي تُكرّس قوامة الرجل وتمنحه حق التصرف تجاهها كما يشاء.

1-1- مآل فكرة تحقيق الانصهار الحضاري عن طريق المرأة:

يبدو أنّ الآمال التي عبّر عنها الأمير خالد منذ 1913م¹ في تحقيق المساواة بين الأهالي الجزائريين المسلمين والمستوطنين الأوربيين قد تبخّرت، فالنضال الذي خاضه هو وغيره من الشبان من أجل إلغاء 'قانون الأهالي'، وإقرار المساواة في الحقوق والواجبات؛

¹- Emir Khaled: *Réflexions sur le rapprochement Franco-arabe en Algérie*, Imp. Gojosso, Alger, 1913.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

بهدف تحقيق التقارب الفرنكو-عربي المنشود لم يفلح، بعد أن أحكم المستوطنون قبضتهم على إدارة شؤون الجزائر منذ 1870م، ورفضهم لأي شكل من الاندماج أو المساواة، كما حالت مسألة الأحوال الشخصية الإسلامية دون تجنّس أغلبية الجزائريين، فكانت هاتين المسألتين عقبة وكداء في طريق أيّ تقارب بين الجاليتين المسلمة والأوربية.

إنّ فكرة تحقيق الاندماج أو 'الانصهار الحضاري'¹ عن طريق المدرسة الفرنسية وتعليم اللغة الفرنسية لأبناء وبنات 'الأهالي'، والتي نظّرت لها بعض الدوائر الاستعمارية منذ بداية الاحتلال الفرنسي وطيلة عهده بالجزائر؛ لم تجد صداها لدى رجال السياسة في فرنسا، ولا عند راسمي السياسة الاستيطانية الفرنسية في الجزائر؛ لأنّ الاحتلال قام على مبدأ الغزو والبطش والتقتيل والعنف (الاستعمار الإبادة)؛ ولأنّ الأولوية كانت لتحقيق المنفعة الاقتصادية بأقصر الطرق وأسرعها، دون مراعاة الشروط الضرورية اللازمة لتحقيق التوافق بين المجتمعين، وعلى رأسها الانسجام الثقافي الذي يبدو أنّه كان مستحيلاً.

لقد عمل بعض الحكام العامين الفرنسيين الذين مرّوا بالجزائر خلال فترة الاحتلال على إحداث تغيير جذري في بنية المجتمع الجزائري، هذه السياسة لم تجد صداها لدى الدولة الفرنسية، ورغم علمهم أنّ ذلك لن يتحقق لهم إلا بتعليم 'الأهالي' تعليماً فرنسياً، واستقطاب المرأة الجزائرية المسلمة، وتربيتها وفق أسس التربية الفرنسية، بتلقينها أفكار ومبادئ الحضارة الغربية، وتكييفها مع الواقع الجديد، مما يسمح بتحقيق الاندماج المطلوب، ويجعلها في خدمة الاستيطان الفرنسي في الجزائر، إلا أنّ الاهتمام بهذا الجانب بقي ضعيفاً وغير ذي جدوى في كثير من الأوقات.

¹ - قد تكون 'أوجيني لوسي' أو 'السيدة أليكس' التي تحدّثنا عنها في الفصل الأول؛ أوّل امرأة فرنسية طرحت فكرة 'الانصهار الحضاري' بين المجتمعين الجزائري والأوروبي عن طريق تعليم اللغة الفرنسية للمرأة 'الأهلية' وجعلها تنسج بالثقافة الفرنسية، وهكذا يتم إعداد جيل من البنات يكنّ زوجات صالحات للرجال الأوربيين. يُنظر:

Rebecca Rogers, Op.cit, p.204.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

توجّه 'إيفون تيران' سهام نقدها إلى التعليم الفرنسي فتكتب: "إنه محض وهم أن نعتقد أننا نُعدّ لإصلاح هذا المجتمع، بأن نعلّم شابات المدن المسلمات القراءة والكتابة والحساب حسب مناهجنا... فبتربيتهن هكذا على الطريقة الأوروبية نجعلهن غير صالحات للحياة العربية، إننا بذلك نحضّر خليلات للأوروبيين وليس قطعاً زوجات للأهالي (...)", وبعد اثنتي عشرة عاما من اللجوء في المشغل، تتخرج الفتاة من هذا التّمهين مُفرنسة تماما، لكن لتدخل إلى العائلة العربية التي لا تريدها أو لا تكثرث بها أبدا، فيلّى أين تأوي إذن؟ في درب الرذيلة والفجور؛ كون أنّه بتربيتهن على الطريقة الأوروبية، تركتموهن مسلمات، وبتلقينهن أفكارا وعادات وأماني سمحة في نفوس إخوانهن في الدين، فأنتم لم تفعلوا شيئا لفتح العائلة الأوروبية لهن (...). أليست هذه إداة لأحد وجوه الاندماج؟"¹.

لكن الأمر الثابت تاريخياً؛ أنّ من كان يقف في وجه كل سياسة إصلاحية لصالح 'الأهالي' الجزائريين، بما في ذلك تعليم البنات، هم المعمّرون الأوروبيون الذين وصل بهم الأمر إلى حدّ التحذير من تعليمهن بحجّة "أنّ تعليم البنات المسلمات يدفعهن إلى البغاء، ومن هنا جاءت الطلبات المتكررة بضرورة إغلاق مدرسة البنات اليتيمات في بلدية 'تادارت أوفللة'، أو تحويلها إلى معهد للتكوين المهني"². فالمستوطنون كانوا يعتقدون أن أيّ تعليم للأهالي يعني 'حتف الاستعمار'، ونهاية السيطرة الفرنسية على الجزائر.

كما أنّ المجتمع المحلي 'الأهلي' كان يقف حائلا دون تربية الفتيات المسلمات تربية فرنسية، "فمن المؤكد أنّ دراسة الفرنسية، تعتبر خطرا كبيرا بالنسبة لهؤلاء الفتيات (...). وإذا كنا نكتفي بأعمال يدوية، فإنّ المسلمين سيتوقفون على القول إننا نربّي أطفالهم بحيث نسهل على أنفسنا الهيمنة عليهم"³.

¹ - إيفون تيران، المرجع السابق، ص.279.

² - كانت تلك هي رغبة المجلس العام بمدينة الجزائر عام 1894م، يُنظر: أجرون: المرجع السابق، ص.945.

³ - إيفون تيران، المرجع السابق ص.272-274.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

في مقابل ذلك؛ هناك من الفرنسيين من جعل من تربية وتعليم الفتاة المسلمة مؤشراً لقياس المستوى الحضاري للأمة الفرنسية، فقد نبّه 'س. جوايو' (S. Gwaou) إلى أهمية تعليم البنات الجزائريات، وخطورة اتّساع الهوة بين الجنسين، عندما ذكر عبارة للحاكم العام الفرنسي بمناسبة المتوية: "إنّ تربية المرأة المسلمة قد تُشكّل ذروة مجد الحضارة الفرنسية (...). وإنّ تطوّر البنين (دون البنات) يجعل الاختلال (بين الجنسين) أكبر"¹. لكن وجهة النظر هذه بضرورة تعميم التعليم المدرسي كانت غير ممكنة اقتصادياً في إطار الرأسمالية الاستعمارية، فتعليم الجزائريين يسير بوجهة معاكسة للمصالح المباشرة للمستعمرين؛ من حيث أنّ التعليم بالنسبة لهم يمثّل عبئاً مالياً فائقاً لا أكثر².

ويكتب 'هـ.لافيون': "لقد وجدت سحراً لا متناهي في التفاصيل التي نقلتها النساء الأوربيات اللواتي يتحدّثن العربية عن العائلات 'الأهلية' من الداخل (عالم الحرّيم)، حيث النساء فقط يُسمح لهنّ بالولوج إليه؛ لذلك لا يبدو لي أنّه من المستحيل إخراج نساء الشعوب الأصلية (الأهالي) شيئاً فشيئاً إلى الحياة عن طريق التعليم؛ من المحيط المستبدّ الذي حُبسن بداخله (...). لقد احترمت الإدارة الفرنسية دائماً تقاليد وعادات رعاياها الجزائريين، ولكن زاوية سياستنا القائمة على المساواة قد دخلت بالفعل في مرحلة امتياز لصالح المسلمين، ونتيجة لذلك فإن رعايانا المتعلّمين في مدارسنا، الذين اعتادوا على الحضور الفرنسي، سيصلون بمفردهم، مع مرور الوقت؛ ودون أن يلاحظوا ذلك، للقيام في عاداتهم بالتحوّل المشروع لصالح المرأة، الذي يحق لنا أن نتوقعه من شعب ذكيّ لا يريد سوى أن يفعل حسناً، وسوف تقوم إدارتنا الحازمة والحكيمة لمدارس البنات، التي لن تفتقر إلى التلميذات، بما قامت به لمدارس البنين"³.

¹ - بجاوي مرابط مسعودة، المرجع السابق، مج.2، ص ص 285-286.

² - عبد القادر جغلول، المرجع السابق، ص 78.

³ - H. Lavion, Op.cit, p.p.110 - 112.

هناك من يرى العكس تماما؛ كتب 'ب برنارد' (P. Bernard) سنة 1892م بنظرة عنصرية، وهو مدير المدرسة العليا بالجزائر العاصمة: "لطالما نوقشت مسألة استيعاب السكان الأصليين في الجزائر، وأحد أخطر الانتقادات التي توجه إلى الجامعة، هو الرغبة في استيعاب السكان الأصليين من خلال التعليم. في الحقيقة هذه الفكرة لم تتبلور أبدا في فكر أي من أولئك الذين درسوا عن كتب مدارس السكان الأصليين، ونحن نعلم جميعا جيدا أن العرق يتطور؛ بمعنى يحدده ماضيه ودينه وتقاليده والبيئة التي يعيش فيها، ولم نكن نعتقد أبداً أن العرب والقبائل سيقفزون عبر القرون العشرة من الحضارة التي فصلنا عنهم ويصبحون بتحول سحري، مثل الفرنسيين في القرن التاسع عشر. هل سيشكلون يوماً ما، على أرض أفريقيا هذه، عرقاً يستعير من غزاته الفاتحين بعض الصفات؟ أنا لا أعرف شيئاً عن هذا، ومن الحكمة ألا نحكم بتهوّر"¹.

وعلى الرغم من النداءات الكثيرة التي صدرت من بعض الفرنسيين لتعليم الفتيات المسلمات، وإعدادهن لتأدية المهام الموكلة لهنّ، وخدمة الحضارة الفرنسية والاستعمار في الجزائر، إلا أنّه اتّضح لنا من خلال أرقام وإحصائيات نسب التعليم الفرنسي إبان فترة الاحتلال، أنّ الحكومة الفرنسية في الجزائر، لم تقدّم على أي مشروع جاد بهذا الخصوص، وهذا بسبب تضارب الرؤى في السنوات الأولى من الاحتلال حول الطريقة المثلى لضمان رضوخ الأهالي، ثم سيطرة كبار المعمرين على مراكز صناعة القرار الفرنسي، وتحكّمهم في تسيير شؤون الجزائر؛ سيما مع قيام الحكم المدني 1870م، ثم استيلائهم على الشؤون المالية للجزائر مع مطلع القرن العشرين، فيما عُرف آنذاك بـ 'المندوبيات المالية' (Les délégués financiers)؛ حيث عملوا بكلّ حزم على وأد أيّ مشروع إصلاحية، يستهدف منح بعض الحقوق للسكان المسلمين، أو يحمل ولو بصيص من الأمل للنخب الجزائرية المثقفة التي بدأ بريقها يتوهّج في تلك الفترة.

¹- P. Bernard: *Les écoles indigènes devant l'opinion publique*, Adolphe Jardin Librairie, Alger, 1897, p.13.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

لقد وقف المعمرون ضد التجنيس والإدماج بكل أشكاله، وضد منح الحقوق السياسية للأهالي، ولو لفئة محدودة جدا من الجزائريين (مثلما اقترح موريس فيوليت)، كما عارضوا تعليم الجزائريين من الجنسين؛ لذلك باءت كل محاولات تغيير المجتمع الجزائري من الداخل بالفشل.

نجد 'ماريا فيرون' (Maria Vérone)¹ "تكشف عن تحطّم توقعات المستشرقين إزاء النساء الجزائريات، وتعترف بأنّ الأوربيين كانوا يعتبرون أنفسهم متفوّقون ثقافيا على الجزائريين، وأنّ المركزية العرقية كانت بارزة دوماً، وأنّ المستعمرين هم المسؤولون عن تصدير المشاكل الاجتماعية مثل شرب الخمر والبغاء²، لكنها بحثت عن الاعتراف بالفضل للفرنسيين في تحسين البنية التحتية وفرض النظافة في المستعمرة، وأبدت تفاؤلاً بأنّ تطبيق القوانين الفرنسية سيُفيد السّكان 'الأهالي'.

كما أنّ العديد من المثقّفين الفرنسيين قد كتبوا عن المسألة الاستعمارية بطريقة مؤيِّدة للنظرة الغربية، وحتى الكاتبات النسويات الفرنسيات؛ فقد عزّزن موقفهنّ في مسألة المرأة 'الأهلية' من خلال التّظر إلى تحسّن وضع المرأة المسلمة في تركيا ومصر، وتوقّعوا أنّ يتبنّى الجزائريون المسلمون 'علمنة للحياة' مماثلة، حينها فقط سيصبحون مواطنين متساويين³ مع الفرنسيين، والواضح أنّ الناشطات النسويات الفرنسيات، وخاصة في الجزائر؛ لم يستطعن التخلّص من ولائهنّ للنّظام الاستعماري، رغم رفعهنّ لبعض المطالب

¹ - ماريا فيرون (Maria Vérone) (1874-1938): صحافية ومحامية منذ 1907م؛ مناضلة اشتراكية ونسوية، ساهمت في العديد من الصحف منها: 'الفجر'، 'السلام'، 'معركة النقابية'، وكانت عضواً في الحزب الاشتراكي الفرنسي منذ 1919م. أبرز أعمالها كتبت: 'المرأة والقانون' سنة 1920م. يُنظر:

https://data.bnf.fr/fr/10703824/maria_verone/ Consulté le 09/05/2020 à 13 :20.

² - بحسب 'كريستال تارو' فإنّه من المجالات القليلة التي حصل فيها التواصل بين الجاليتين المحلية والأوربية، خاصة بين النساء 'الأهليات' ورجال الجيش الفرنسي، وبين الأوربيات ورجال شمال إفريقيا. يُنظر:

Christelle taraud : **La prostitution coloniale...**, Op.cit, p.14.

³ - Sara Kimble, Op.cit, p.p.117-118.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

الاجتماعية والثقافية، ودفاعهنّ عن حقّ المرأة والبنات 'الأهلية' في التعليم الفرنسي الذي هو السبيل الوحيد لارتقائها.

هذا الأمر يسري أيضا على الخطاب الذي تبناه رجال القانون الذين اهتموا بالمسألة 'الأهلية' في الجزائر، حيث رأوا في التشريعات المدنية الفرنسية أحسن بديل للقانون الإسلامي أو العرفي المطبق في الجزائر، لقد كان رهاقم على تغيير الذهنيات السائدة، وإقناع 'الأهلي' الجزائري بجدوى الامتثال هو وزوجته للمحاكم الفرنسية، والخضوع لأحكام القانون الوضعي الفرنسي، وهو الرهان الذي فشلوا فيه فشلاً ذريعاً.

1-2- جدوى وجدّية التعليم الفرنسي للبنات الجزائريات:

من النتائج الملموسة للسياسة الفرنسية في الجزائر؛ هو فشل التعليم الفرنسي في تحقيق الاندماج المطلوب؛ لأسباب بيّناها عند تقديمنا أرقام إحصائية لعدد المدارس الفرنسية الصالح 'الأهلي'، ولنسب الفتيات المسلمات اللواتي حصلن على فرصة لولوج المدرسة الفرنسية، مقارنة بنسبة الذكور (على قلّتها أيضاً) أو مقارنة بعدد ونسبة البنات الأوربيات اللواتي كنّ يرتدن هذه المدرسة، فضلاً عن طبيعة السياسة الفرنسية في مجال تعليم أبناء الجزائريين، ناهيك عن محتوى المناهج والطرائق البيداغوجية، والأهداف الحقيقية من وراء تعليم فئة قليلة من الأطفال الجزائريين. والأهم من هذا وذاك هو المعارضة الشرسة من طرف المستوطنين لأي إصلاح يودّي إلى اكتساب أبناء الجزائريين لأدنى قدر من التعليم الفرنسي والثقافة الغربية الدخيلة.

سيطرة العادات والتقاليد وتحكّمت الأعراف في ذهنية عموم الجزائريين، بالإضافة إلى السياسة الفرنسية المتذبذبة في مجال التعليم، وهو ما كان له انعكاس مباشر على تراجع عدد البنات المتعلّمات إلى مستويات متدنّية، وبالتالي سيطرة الجهل وتدهور المستوى الثقافي للمرأة المسلمة، فتعليم هذه الأخيرة؛ صار مع مرور الزمن فكرة ممنوعة اجتماعياً

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

ومحرمة دينيا من طرف بعض رجال الطريقة، إذ يرون أنّ تعليم الفتاة يؤدّي بها إلى الانحراف والفتنة¹. كتب 'أجيرون': "إنّ أغلبية المسلمين، ماعدا قلة من المولعين بالحدائث، رفضوا إرسال أطفالهم إلى المدرسة الفرنسية، وظلوا متمسّكين بولائهم للمدرسة القرآنية؛ وكان أكثرهم ذكاء وفطنة يرّدون حجج المستوطنين²، أمّا الأكثر صراحة وعفوية فيعلنون أنّ مدرسة 'الرومي'، تسعى لحمل المؤمنين على التنكّر للغتهم ودينهم"³.

وبعد أكثر من ثمانين سنة من صدور أوّل تشريعين (مرسومي جويلية 1850م) لفتح مدارس عربية فرنسية وتنظيمها؛ أربعة منها خاصة بالبنات في كلّ من الجزائر ووهران وقسنطينة وعنابة، تقرّر 'زينايد تسوريكوف' بفشل السياسة الفرنسية في هذا الميدان: "إنّ افتتاح هذه المرافق الأربعة للفتيات المسلمات لم يمنحنا النتائج التي كنّا نتوقّعها؛ فاثنتان منهما وهما مدرستا عنابة ووهران لم تعملّا قطّ، بينما حقّقت مدرستي الجزائر وقسنطينة بعض النجاح، وكانت مدرسة قسنطينة أكثر نجاحاً من مدرسة الجزائر العاصمة، رغم أنّ تجنيد الأطفال كان دوماً صعباً للغاية. لفترة طويلة، ومن أجل جذب الأطفال وتشجيع الأسر على تسليم بناتها لنا، اضطررنا إلى توزيع الخبز والملابس، ومع ذلك لم يتجاوز عدد التلميذات 35 إلى 40. وفي عام 1880؛ أي بعد ثلاثين عاماً من إنشاء مدرسة قسنطينة بلغ العدد 76 تلميذة، ينتمي معظمهنّ إلى أسر فقيرة للغاية في المدينة، وكانت الأخريات يتيمات، وقد تمّ تجنيدهنّ واحدة تلو الأخرى من قبل المديرة ومساعدتها"⁴.

¹ - يمينة بشي، المرجع السابق، ص223.

² - لطالما دقّ غلاة المستوطنين ناقوس الخطر فيما يتعلّق بتعليم الأهالي، لقد اعتبروه المعول الذي سيهدم أركان الوجود الفرنسي في الجزائر، وكان كلّ تلميذ جزائري متفوّق وذكيّ في المدارس العربية؛ يمثّل بالنسبة لهم عدواً مستقبلياً للحضارة الغربية، وتهديداً حقيقياً لمشروعهم الاستيطاني بالجزائر.

³ - شارل روبيير أجرون، المرجع السابق، ص954.

⁴ - Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, p.38.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

تجب الإشارة إلى أن السياسة الفرنسية الثقافية في الجزائر لم تكن واضحة المعالم، وقد خضعت للمتغيرات السياسية والاقتصادية في فرنسا والجزائر، "لقد اختفت فكرة تعليم البنت 'الأهلية' كهدف ثقافي وحضاري منذ وصول المستوطنين إلى الحكم في عام 1870م، وانصبّ الاهتمام على تحقيق الريع الاقتصادي فقط، ولم يعد يدور الحديث عن تعليم الفتيات المسلمات في نهاية القرن التاسع عشر، ومن المفارقات أن سياسة الجمهورية الفرنسية الثالثة كانت تسير نحو تحقيق المزيد من العدالة في ميدان التعليم بين الجنسين ولصالح البنات الفرنسيات، بينما تمّ إهمال تعليم بنات المستعمرات تماماً، لنجد في مطلع القرن العشرين نسبة 0,7% بالمائة فقط من الفتيات المسلمات متمدرسات"¹.

يمكننا أن نسوق مثلاً واقعياً عن معارضة المستوطنين لأي سياسة لصالح تعليم 'الأهالي' الجزائريين؛ في اعتماد المجلس العام للجزائر العاصمة مذكرة احتجاج ضد مرسوم 1892م بعد أربعة أيام من صدوره، بدعوى أنه سيُثقل ميزانية البلديات بأعباء جديدة، وفي أكتوبر 1894م رفض المجلس نفسه دون نقاش وبالإجماع؛ مشروع اعتمادات مخصصة لمدرسة بوزريعة للتعليم الابتدائي، ورفض التصويت على المخصصات المالية للتعليم الأهلي، كما أن المجلس الأعلى للحكومة العامة بالجزائر قرّر تخفيض ميزانية التعليم من 400 ألف إلى 300 ألف فرنك².

ويؤكد "مصطفى بن الخوجة" في نهاية القرن التاسع عشر، على الغياب شبه التام للتعليم الموجّه للبنات منذ وصول الاحتلال الفرنسي، وكذا السياسة الاستعمارية التمييزية المطبّقة على الجزائريين، قائلاً: "إن التعليم الابتدائي عند المسلمين خاص بأطفالهم دون بناتهم، وعند الفرنسيين يشمل أطفالهم وبناتهم...". أما أحمد توفيق المدني فيرى: "أنه ليس هناك أدنى اهتمام بأمر البنات المسلمات في الجزائر، ماعدا فئة قليلة وجدت مقاعد في

¹- Rebecca Rogers, Op.cit, p.214.

²- Ali Ajgou, Op.cit, pp.41-42.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

المدارس الحكومية، ولكنّ هذه الأخيرة لا تلقنهنّ شيئاً من العربية أو علوم الدين، لذا فكل البنات المسلمات مجبورات على الرضا بالجهل والأمية"¹.

واستمرّ الوضع على ما هو عليه، فاستشرت الأمية، وكانت البنات والنساء أولى ضحايا الجهل والتخلف، وهو ما دفع 'ماري بوجيجا' إلى انتقاد السياسة التعليمية بحدّة، حين استهجنّت غياب مدارس حقيقية لأبناء وبنات 'الأهالي': "خلال تسعين سنة من الاحتلال أجهضت كلّ مشاريع الرجال بعيدي النظر للنهوض بالتعليم الأهلي، وهكذا تمالكت المدارس الأكواخ؛ التي لم يبق منها إلا الأنقاض حيث تصفّر الرياح، وتمّ إهمال توظيف معلّمين جيّدين، كما أنّ المدارس الأكواخ كانت موجّهة للذكور بينما تمّ تناسي الفتيات". ونبّهت 'بوجيجا' إلى التأثير المهمّ والعظيم للمرأة المسلمة، التي هي محور المشروع الفرنسي بالجزائر، كما يمكن أن تكون الحُصم العنيد لتطوّر الجمهور الأهلي، ودعت إلى تعليم المسلمات لأنّ ذلك يدخل في صلب مصلحة فرنسا؛ لأنّ الأفكار التي نعطيها لهنّ، سيتفاسمنها مع أزواجهنّ وأبنائهنّ وكل من يعيشون بجانبهنّ"².

ويبدو أنّ نظرة الإدارة الفرنسية إلى الجزائريين لم تتغيّر طيلة عقود الاحتلال، فقد كتبت المناضلة الشيوعية 'لوسات حاج علي': "كانت المدرسة الابتدائية إلزامية للأطفال الأوربيين؛ ولكن ليس للجزائريين، في بداية أكتوبر من كلّ عام كان السيناريو نفسه يتكرّر؛ قبول كلّ طفل أوروبي في المدرسة، لكن الصغار الجزائريين لا يستطيعون الدخول إلا حسب الأماكن المتاحة، والغالبية يتمّ استبعادهم خاصة في الرّيف، لم يبق لهم إلا المدارس القرآنية التي يرتادها أيضا الأطفال المتمدربين في المدارس الفرنسية خارج ساعات

¹ - يمينة بشي، المقال السابق، ص221.

² - Marie Bugéja: «Il faut que l'évolution des musulmans et musulmanes soit parallèle», La Voix des Humbles, n°56, Janvier 1928, pp.30-31.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

الدراسة وخلال العطل، أمام مداخل المدارس كنا نرى في بداية العام الدراسي طواير من الأطفال بصحبة أوليائهم في وقت مبكر، لكن لا أتذكر رؤية العديد من الفتيات هناك"¹.

ومن التقارير التي صدرت عن نخب جزائرية موالية للاحتلال، ذلك المشروع الذي عرضه الشيخ 'بوعزيز بن قانا' حول 'التعليم العام والتعليم المهني في المناطق الحضرية والريفية'، وقد عبّر عن النقص الفادح في عدد المدارس الموجهة لأبناء 'الأهالي'؛ مما يجعل مصير مئات الآلاف من الأطفال (المسلمين) الشارع، أما تعليم البنات فحالته أسوأ فأغلب البنات يتركن المدرسة قبل الحصول على الشهادة الابتدائية، ولتعويض هذا الرحيل السابق لأوانه، يقترح 'بن قانا' إعطاء أهمية للمدارس-الورشات في المدن الكبرى: "لم يتم فعل الكثير للفتاة المسلمة، وهذا ما قلناه عن المدارس-الورشات من شأنها خدمة التعليم المهني، وهذا يتطلب تعليم الفتاة المسلمة كلّ ما تحتاج إليه لتكون الزوجة المستقبلية والأمّ. فنّ الطهي، رعاية الأطفال، الخياطة، التطريز، النسيج، يجب أن تكون المواد الأساسية التي تدرّس في هذه المؤسسات، التي هي مدعوة لتقديم أكبر خدمة. تطوّر المسلمة الجزائرية لن يكون حقاً ممكناً؛ إلا إذا تمّ من خلال تطوير جادّ وصحيح للمرأة المسلمة"².

وهو الطرح نفسه الذي قدّمته 'ودادية الباشاغوات والآغوات والقياد لمقاطعة قسنطينة' أمام لجنة التحقيق البرلمانية الفرنسية، حيث طالبت بتوسيع التعليم للجنسين، واعتبرت ذلك من المسائل المستعجلة التي يجب معالجتها من أجل المسلمين الجزائريين، ومن أجل مستقبل العمل الفرنسي في الجزائر، فهناك أكثر من 900 ألف طفل 'أهلي' في سنّ

¹ - Lucette Hadj Ali (Née Larribère), Op.cit, p.35.

² - ANOM, GGA 12H 13: Projet présenté par M. Le Cheikh El Arab Bouaziz ben Gana sur le diffusion de l'instruction publique et de l'enseignement professionnel dans les populations musulmanes urbaines et rurales, 1945.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

التمدرس الذين ما يزالون محرومون من التعليم الفرنسي، كما أنّ الميزانية اللازمة لبناء أكثر من 22 ألف إلى 23 ألف قسم يستحيل توفيرها¹.

ومن خلال نسبة التمدرس في أوساط الفتيات الأهليات والحقّ في الانتخاب للنساء المسلمات، يمكننا اختبار مدى جدية الفرنسيين في تعليم و'تحرير المرأة الجزائرية'، ففيما يخصّ التمدرس، كانت قوانين جول فيري المتعلقة بإجبارية التعليم 1881 ومجانيتها 1882م غير مجدية، وإلى غاية سنوات 1950م، هناك فقط 4% من الفتيات في سن التمدرس؛ كنّ يذهبن إلى المدرسة (10% بالنسبة لكل الأطفال الجزائريين، مقابل 97% للأطفال الأوربيين)، وعليه فلا يوجد أي مخطط تمدرس، سوى الذي جاء به مرسوم 27 نوفمبر 1944م، وبعض مراكز التكوين التي فتحت بمناسبة مئوية الاحتلال في 1930م، ومع بزوغ فجر استقلال الجزائر سنة 1962م، كانت 90% من الجزائريات أميات².

في الحقيقة أنّ فرنسا الاستعمارية طبّقت 'سياسة تجهيل' في الجزائر، وهي السياسة التي سارت جنباً بجنب مع سياسية 'التفجير'، وكانت هي منهج الاستيطان الفرنسي، فالإحصائيات المتعلقة بعدد التلاميذ الجزائريين الذين كانوا يرتادون المدارس الفرنسية، تؤكد على أنّه لم يزد بأي حال من الأحوال عن نسبة 10% طيلة فترة الاستعماري الفرنسي للجزائر، وقد كانت هذه النسبة أقلّ من ذلك بكثير بين الإناث.

لم يقتصر الأمر على التعليم فحسب، فالمرأة الجزائرية المسلمة لم تنل بعض الحقوق السياسية ومن بينها الحقّ في الانتخاب إلاّ في أواخر العهد الفرنسي بالجزائر، وضمن أطر ضيقة ولفئات محدّدة، وبأعداد محدودة جدّاً من النساء، فبعد أن وافقت وزارة الداخلية الفرنسية على قرار الحاكم العام بالجزائر عام 1949 بتسجيل النساء المسلمات ضمن

¹- ANOM, GGA 12H 13: Rapport présenté par l'Amicale des bachaghas, Aghas et Gaidis du département de Constantine, 1945.

²- Feriel Lalami, Op.cit, p19.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

القوائم الانتخابية، تطبيقاً للمادة الرابعة من 'دستور الجزائر' لعام 1947م؛ لم يزد عدد اللواتي تتوفر فيهنّ الشروط اللازمة لذلك عن 300 امرأة مسلمة في كامل القطر الجزائري، وهنّ من حاملات الشهادات والموظّفات¹.

إنّ الحرمان من التعليم للجنسين ومن منابع الثقافة؛ ومن كافة الحقوق السياسية والمدنية، كانت السّمة البارزة للاحتلال في الشقّ الثقافي على الأقل، وبالتالي لم يكن بالإمكان الحديث عن التقارب والانصهار بين ثقافتين متناقضتين؛ ولا عن الاندماج بأي شكل من الأشكال في ظلّ هذا الواقع، الذي غدّته الأفكار النمطية التي رسمها كلّ طرف عن الطرف الآخر، فالجزائري ينظر إلى الأوربي على أنّه ذلك الغازي الذي لا يعرف الرحمة، ولا يُحسن غير لغة العنف والاضطهاد، في حين حزم المستوطن الأوربي بأنّ الفرد الجزائري هو ذلك 'الأهلي' غير القابل للتحضّر، أو الذي سيمثّل خطراً على الوجود الفرنسي بالجزائر، إذا ما فتحت له أبواب التعليم والثقافة، أو نال فرصة الارتقاء.

1-3- سياسة الغزو عن طريق البيت (الأسرة): أي مصير؟

ركّزت السياسة الفرنسية -في جانبها النظري- تجاه المجتمع الجزائري والمرأة 'الأهلية'؛ على ضرب مواطن القوة في الكيان الجزائري المتماسك؛ فكانت الأسرة هدفاً رئيساً لها، وتمّ السماح بالحملات التبشيرية التي اتّخذت الأطفال والنساء وسيلة وهدفاً لها، لتحقيق أهداف التجنيس والإدماج، وجعل المرأة محور العملية كلّها. لقد تبلورت شيئاً فشيئاً قناعة وإيمان لدى قادة الفكر الاستعماري بأنّ عملية التغيير لن تتمّ ما لم يبدأ التغيير بتحرير المرأة، فيتمّ سلخها عن أصولها، يقول أحدهم: "مكانة الأم داخل الأسرة عند المسلمين عظيمة جداً، فهي التي تتولّى الأطفال، إنّها هي التي تربّيهم وتعلّمهم؛ لذلك يجب

¹- ANOM, 81 F 1218: Rapport au GGA: La condition de la femme musulmane en Algérie- Aspects politique, Juillet 1957.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

علينا أن نبثّ الروح الفرنسية بداخل أمهات العائلات المسلمة، حتى تتحول هذه 'الروحانية العذراء' لأطفالهن الصغار"¹.

كتب 'شارل رويير غارنيي' (C.R Garnier) سنة 1911م في كتابه: 'احتلال الإسلام عن طريق النساء' (La conquête de l'islam par les femmes)، مُتسائلاً عمّن باستطاعته (ها) الاقتراب من النساء المسلمات وتعليمهنّ، وتأدية هذه المهمة 'الوطنية والقومية'! ليجيب: " أنتن فقط سيداتي الفرنسيات قادرات على تنفيذ هذه المهمة؛ لأنكنّ تمتلكن الشجاعة والكرم والإخلاص، أنتن فقط اللواتي باستطاعتكن التأثير على أخواتكن التبعسات بسبب الإسلام، وإيجاد الطريق إلى قلوبهن، وجعلهن مرتبطات بكنّ بفضل أعمالكن الحيرة"².

وكان 'هـ. هافيون' يعتقد أنّه: "في غضون سنوات قليلة، فإنّ المرأة في الجزائر الأهلية؛ وعن طريق الأهمية التي ستأخذها في الأسرة، ومن خلال المكان الذي يمكن أن يُحجز لها في مختلف مواقع المجتمع، ومن خلال عملها على تغيير الأعراف، سوف تتقدّم بدورها في مسارات تحرّرها، وبالتالي تصبح في أفريقيا، واحدة من أنشط العناصر ضمن حضارة عرقها"³.

وهو ذات الطرح الذي قدّمه بعض المتفرنسين - كما رأينا سابقاً- على غرار 'محمد صوالح' و 'شريف قاضي'؛ أي ضرورة فتح المجال للفرد الجزائري المسلم للاستفادة من مزايا الحضارة الغربية، والارتقاء ضمن ثقافته ودينه وبيئته، حيث نجد 'صوالح' يأمل في أن يتمّ الإدماج عن طريق الزواج المختلط بين رجال فرنسيين ونساء مسلمات 'أهليات'، الذي سيحقّق 'الاندماج الثقافي' للأهالي والانصهار بين مختلف الأعراق"⁴.

¹ - Naima Kitouni-dahmani, Op.cit, p.p 42,43.

² - Ibid.

³ - H. Lavion, Op.cit, p.112.

⁴ - Mohamed Soualah, Op.cit, 3^{ème} partie, p.513.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

في حين اعتبر 'ب. بيشار' (P. Pichard) أنّ الزواج المختلط هو السبيل الأنجع لتحقيق الاندماج الكلي بين المجتمعين: "فالتغيير الثقافي والمعنوي لن يتأتى إلا بانتهاج نمط حياة مغاير تماما عن طريق المدرسة، التي لا تُخرِّج سوى نَقْلَةً لا إبداع لهم أو طرّازات لا يَجِدْنَ أي مكان لممارسة الطرز، من المفروض أن لا يهدف التعليم سوى إلى تسهيل الزواج بالأوروبيين؛ لأن انصهار الجنسين كفيل وحده بإنقاذ الجنس الأدنى من الانحطاط"¹. لقد أعلن 'ساباتيبي' أنّ: "الاستحواذ على روح الشعب وذاته إنّما يتأتى عن طريق المرأة"، وقد كان غرضه من هذا القول؛ تحضير القبائل للتفرنس بل للانصهار الإثني².

كما لم يفقد أتباع الكاردينال لافيغيري الأمل في تحقيق أهدافهم؛ بالغزو عن طريق المدارس الكاثوليكية الداخلية ثم البيت، حيث انصبّت جهودهم في استقطاب الفتيات اليتيمات بمنطقة القبائل والتكفل بهنّ ماديا ومعنويا؛ بغرض إعدادهنّ لهذه المهمة المستقبلية، ثم إعادة دمجهنّ في مجتمعاتهنّ الأصلية، بعد أن بصرن مسيحيات، وهكذا سوف يرى الشبان 'المسلمون' مع مرور الوقت؛ ذلك التحوّل الحاصل في ذهنية المرأة المنتصرة خريجة المدرسة الفرنسية، وينتهي بهم الأمر إلى تقدير العمل الذي قام به الآباء والأخوات البيض، وستأخذ المرأة المنتصرة المكانة اللائقة بها داخل بيتها³.

تشير التقارير الإدارية التي أعقبت الاستشارة التي أجرتها الحكومة العامة الفرنسية بمنطقة القبائل بين عامي 1924 و1926م إلى رفض السكّان والأعيان على إبداء رأيهم بخصوص مشروع قانون إصلاح وضع المرأة القبائلية (مشروع موران)، أو تحفّظ بعضهم على المواد المتعلقة بتحديد سنّ الزواج والميراث، وتعزو هذه التقارير أسباب ذلك إلى تمسّك الجزائريين المسلمين بعبادات وأعراف الأجداد، والقوانين المحلية التي سنّتها جماعات

¹ - أجرون، المرجع السابق، ص525.

² - المرجع نفسه، ص.ص528-530.

³ - Congrégation des sœurs missionnaires de Notre-Dame d'Afrique: **La femme kabyle**, Typographie Jules Carbonel, Alger, 1926, p.23.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

القرى والدواوير (تجمعت) قبل قرون، والأمر لا يقتصر هنا على حقوق المرأة فقط؛ بل حتى القوانين الفرنسية الخاصة بالجنايات والأحوال المدنية لا تجد غالباً طريقها إلى التطبيق، حيث تحلّ محلها القوانين المحلية المتعارف عليها¹.

وبعد قرابة قرن من الاحتلال، وأمام التعتت الذي قوبل به الساسة الفرنسيون في الجزائر في قضايا المرأة وغيرها، وأمام تبلور الوعي لدى النخب السياسية الجزائرية، وانبعثت الحركة الإصلاحية، حيث صار تأثير الاتجاه الاستقلالي كبيراً في الأوساط العمالية والشعبية في الجزائر والمهجر، بدأ تظهر بعض المشاريع الإصلاحية الفرنسية، ومنها مشروع الحاكم العام 'موريس فيوليت' الذي ترجمه في كتابه: هل ستعيش الجزائر؟ (Vivra-t-elle L'Algérie)، وغيره من المشاريع التي كانت تدعو الحكومة الفرنسية إلى تغيير سياستها تجاه عموم الجزائريين، وتطبيق إستراتيجية 'ذكية' تعمل على استقطاب النخبة أولاً، ووضع سياسة اجتماعية محورها المرأة المسلمة والأسرة الجزائرية، بهدف غزو المجتمع المحلي عن طريق البيت.

لقد استطاع 'فيوليت' تحديد مكانم الضعف في المجتمع الجزائري، وجعل من استقطاب النخبة المتفرنسة، وغزو المجتمع 'الأهلي' بواسطة المرأة والبيت؛ منطلقاً لنجاح لسياسة الإدماج التدريجي؛ بهدف خلق طبقة اجتماعية موالية تماماً للإدارة الفرنسية في الجزائر، وضمان استمرار الاحتلال الفرنسي، بعد أن بدأت معالم زوال هذا الأخير تظهر مع مطلع عقد الثلاثينات من القرن العشرين.

يبدو أنّ كل من 'موريس فيوليت' و'أبير تروفموس' كانا أكثر صدقاً وموضوعية، وحرصاً على مصالح فرنسا الاستعمارية، حين طالبا بضرورة إحداث مدارس لتعليم البنات ودمجهن في 'الحضارة الفرنسية'؛ حيث صرّح هذا الأخير بتاريخ 5 فيفري 1927: "إنّ

¹- ANOM, 915 64: Amélioration de la condition de la femme kabyle, sous-préfet de Tizi-Ouzou, Rapports: 10 Juillet 1924/ 20 Avril 1926.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

المرأة الأهلية التي لم يتم قبولها بعد في حضارتنا، تُفسد عندها مع أطفالها وحتى مع زوجها أحسن ما علمناه لهم، لقد يتم عقابنا دائما من حيث أخطاؤنا (كذا)¹. وهكذا لم يجد استشراف 'فيوليت' بقرب زوال الجزائر فرنسية؛ إن لم تبادر الحكومة الفرنسية إلى إصلاح عميق؛ من يستوعبه في بداية ثلاثينيات القرن العشرين، سيما بسبب تعنت المستوطنين.

بالمقابل؛ نلمس أيضاً تلك التحوّلات التي حدثت في الجزائر نتيجة الوعي الذي اكتسبه المجتمع الجزائري؛ في ردّة فعل بعض الكاتبات الفرنسيات؛ إذ شَعَرَ بالخَطر الذي صار مُحدَقاً بالثقافة الفرنسية في الجزائر، نتيجة انكماش التعليم الفرنسي، والتحاق الجزائريات بالمدارس العربية الحرّة، فصارت مُرافعاتهنّ مستمرة من أجل تحقيق تدرّس جادّ للبنات المسلمات. وهو الطرح الذي قدّمه 'محمد صوالح'؛ حين دقّ ناقوس الخطر، ونبه إلى خطورة التعليم لصالح الجنسين الذي يقدمه 'الوهايون الجدد' ويروّج له العلماء (Ulémas)²، بعد اتّساع نشاط المدارس العربية الحرّة.

1-4- فشل التقارب بين المُستعمر والمُستعمر عن طريق المرأة:

كان تطلّع بعض الفرنسيين؛ لأن تكون المرأة هي أداة التقارب بين المجتمعين الأوربي والجزائري 'الأهلي'، ووسيلة استيعاب المجتمع الأصلي، وبتعليمها ستكون قادرة على تعليم أبنائها، لكن المقاومة كانت من المرأة 'الأهلية' قبل الرجل، ربما هي أساليب المقاومة 'السلمية'، التي ظهرت تجليتها بعد أكثر من قرن من الاحتلال، كتبت 'زينابيد تسوريكوف': "باعتبار المجتمع الأهلي يختلف تماما عن نظيره الأوربي، يجب اتّخاذ الاحتياطات اللازمة لتحقيق المثل العليا للحضارة الفرنسية، لكن عامل مقاومة تعليم الفتيات لم يأت من المجتمع الرجالي فحسب، حتى المجتمع النسوي 'الأهلي' يحمل بذور المقاومة، إنّهنّ يؤمنّ بالقدرية التي تُلغي روح المبادرة ونظرتهمّ للحياة ضيقة جدا، إنّهنّ

¹ - مسعودة يجايوي، المرجع السابق، مج.1، ص246.

² - Mohamad Soualah, Op.cit, 3ème partie, p.330.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

يقنعن بالقليل ويعشن يوماً بيوم، وهو ما يكون سبباً لبؤس كبير، حياهنّ الروتينية تجعلهنّ ينظرن بشبهة إلى 'الغريب الكافر'؛ لذلك نحن في حلقة مفرغة، فمن خلال النساء نريد أن نمدّ اليد إلى كتلة الرجال ونثقفهم، ولكن مزيد من النساء هنّ اللواتي يعارضن عملنا في هذا المجال، ومع ذلك ندرك بوضوح أنّه من خلال نساء الشعوب الأصلية يمكن الاضطلاع بالعمل الحضاري الذي تسعى إليه فرنسا، ولا يمكن تحقيق أيّ تقدّم أخلاقي أو اجتماعي رغماً عن المرأة أو من دونها¹.

لقد اعتقد الكثير من الأكاديميين الفرنسيين باستحالة التمازج بين المجتمعين، وعدم جدوى الحديث عن الاندماج، كتب 'ب.برنارد' في نهاية القرن التاسع عشر: "على أيّ حال؛ صفات وتركيبه السكان الأصليين ليست متطابقة لصفاتنا أو حتى شبيهة لنا، لديهم صفاتهم الخاصة ولدينا صفاتنا، دعونا نحاول أن نعيش كجيران جيدين، هذا هو بيت القصيد. لقد بلغ عدد الفرنسيين في الجزائر 320 ألف و الأجناب 210 آلاف، والمواطنين الأصليين 4 ملايين، الأوروبيون مع مرور الوقت سوف يكونون قادرين على الاندماج في العرق الفرنسي، لكن من الواضح أنّ 'الأهالي' في كلّ الأحوال سيقون خارج هذا المزيج، وتحت دافع الضرورة سوف يدخلون مع الجالية الأوروبية في علاقات أوثق، إنّها أرضية وفاق يجب إعدادها وطريقة عمل يجب أن تُقام"².

والحقّ أنّ الهوة كانت سحيقة بين السكان الأصليين الجزائريين ونظرائهم من الجالية الأوروبية المستوطنة بالجزائر، ولعلّ من بين أسباب هذا التباعد هو السياسة الفرنسية المطبّقة في مجال التعليم بشكل خاص، لقد قامت فلسفة التعليم التي تبنتها الإدارة الفرنسية على الفصل بين أبناء الجاليتين، "وفي الفترة من عام 1892 إلى عام 1948، كان نظام التعليم الفرنسي في الجزائر يتألف من نظامين فرعيين؛ الأول يجمع الأوروبيين وبعض أبناء

¹ - Zénaïde Tsourikoff, Op.cit, p.p.36-37.

² - P. Bernard, Op.cit, p.p.13-14.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

السكان الجزائريين البارزين، والثاني المدارس الخاصة للسكان، التي لا توفر سوى تعليم باللغة الفرنسية؛ فكان هذا التدريس موضوع سلسلة من الانتقادات من عدد من المعلمين والمربين الذين اعتبروه تعليمًا أقل قيمة، حيث تم اختزال تدريس الفرنسية في تعلم اللغة، واعتبرها الكثيرون غير فعّالة، وكان هدفها هو تأهيل القوى العاملة الجزائرية من السكان الأصليين لتلبية احتياجات الاستعمار"¹.

كما كتب 'لويس رين' عن حالة الجهل التي تميّز شريحة كبيرة من المجتمع الأوربي عن نظيره المجتمع الأصلي الجزائري وخصوصاً المرأة: "وهكذا ظلت الكتلة الكبيرة من الأوروبيين جاهلة، ليس فقط بعقلية المرأة الأصلية، ولكن أيضاً وقبل كل شيء أهمية دورها في الأسرة والمجتمع المسلمين. هذا الجهل جعل الرأي العام الأوربي ينظر إلى المرأة 'الأهلية' كمخلوق غير واعٍ؛ بئس وأمّي، وأحياناً كجسد للمتعة... هذا الرأي تمّت صياغته وفق بعض المزاجات، ولا يمكن القول، أنّه نقيض الحقيقة، لا؛ لأنه توجد نساء مضطهدات أو تعيسات أو بائسات أو حقيرات بين السكان الأصليين، ولكن ليس عندهم ولا عندنا فقط، هذه هي القاعدة و السّمة التي تميّز مصير المرأة"².

هناك من الساسة الفرنسيين من عمل على إحداث التغيير المطلوب عن طريق تسخير المرأة الفرنسية لهذه المهمة العسيرة، ففي سنة 1897م، أسّس كل من 'جوزيف شايلي' (Joseph Chailley) من الحزب الكولونيالي، والكونت 'دوهوسفيل' (d'Hausseville) من الحزب الملكي، مؤسسة مساعدة النساء على الهجرة إلى المستعمرات الفرنسية، بدعمهنّ مالياً وتوطينهن، وقد تقدّمت ما بين 400 و500 مرشحة للهجرة (معلّّات، قابلات، وموظّفات...)، وكان الهدف إيجاد عمل لهنّ وتحقيق

¹-Kamel Kateb: « Les séparations scolaires dans l'Algérie coloniale », in. *Insaniyat*, n°25-26, 2004, CRASC, Oran. Voir le lien :

<http://journals.openedition.org/insaniyat/6242> Consulté le: 13 avril 2020, à 19:03.

²- Louis Rinn: « la femme berbère dans l'ethnologie... », Op.cit, p.462.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

الاستقرار، ولكن الأهم هو إيجاد أزواج لهنّ؛ إذ سيكون دورهنّ مهماً في القضاء على الاحتشام الذي يميّز المجتمع الأهلي المسلم، وعزّة النفس والكرامة التي تطبع الحياة في المستعمرات، وبالأخص الرّفيع من نسبة المواليد ذوو الأصل الفرنسي بالبلاد المستعمرة¹.

ومع أنّ دور المرأة الأوربية في الجزائر أصبح أكثر فعالية وحضوراً بتوالي سنوات الاحتلال، وأخذت مكانة أكثر أهمية في تثبيت ركائز الاستيطان؛ إلا أنّ حضورها ونشاطها بقي مقتصرًا على مجال الاستيطان الأوربي، ولم يكن يُفترض بها التداخل في العلاقات مع 'الأهالي' المستعمرين، ومع ذلك أرادت بعض النساء الأوربيات المساهمة في هذه 'المهمّة الحضارية'، وقمن بمبادرات في هذا السياق، وطيلة عهد الاحتلال وجدن نساء أوربيات؛ حاولن السعي لتحسين أحوال النساء الجزائريات، في مجال التعليم والرعاية الصحية والمساعدة الاجتماعية؛ لكن الدولة الفرنسية لم ترَ فائدة من الاهتمام بالنساء 'الأهليات'، ولم يكن من الضروري الاشتغال بالعلاقات مع السّكان المحليين والتداخل في مجاهم الخاص لتفادي تسميم العلاقة مع المستعمرين²؛ لذلك رأينا كيف فشلت بعض الأصوات النسوية بدءاً بالسيدة 'أليكس' ووصولاً إلى 'هيريّتين أوكلير' و 'ماري بوجيجا' التي نادت بإعطاء البنات 'الأهليات' فرصة التعليم، والسماح للمرأة 'الأهلية' بالارتقاء في مصاف الحضارة الغربية، ولم تجد نداءهنّ آذان صاغية.

لقد مثلت المرأة 'الأهلية' في قسم كبير من الخطاب الكولونيالي الفرنسي مؤشراً سلبياً على استحالة التقارب بين المجتمعين، وعكست صورة واضحة عن مدى التباعد بين الهويتين الثقافيتين الجزائرية والأوربية؛ بسبب موقف المعمّرين الأوربيين أولاً الرافض لمنح

¹ - Naima kitouni-dahmani, Op.cit., p44.

² - Claudine Guiard: «La place des européennes dans la colonisation de l'Algérie (1830-1939): place impartie, place occupée», *Colonialismes in. Sextant*, N°25, 2008, Université libre de Bruxelles p.p.134-135.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

أدى قدر من الحقوق للفرد الجزائري الذي حُكم عليه بأنه 'عنصر منحط'، لقد أصبحت المرأة عندهم بمثابة 'شعار' على عدم قابلية المجتمع المسلم في الجزائر للرقى الحضاري¹.

ويبدو أنّ المشكلة كانت أعمق مما نتصور، هي تتعلق قبل كل شيء بالذهنية الكولونيالية التي تتسم بالعنصرية تجاه 'الأهالي'، لقد أحدث المستعمرون فجوة ثقافية بينهم وبين المستعمرين؛ اتسعت بمرور توالي سنوات الاحتلال؛ نتيجة السياسة التعسفية ونظرة التكبر والاحتقار تجاه الجزائريين؛ لذلك كان من المستحيل سدّ هذه الفجوة الهائلة، وإزالة الشعور لدى المستوطنين بأنّهم العنصر 'المتفوق'، وفي كلّ الأحوال فإنّ منطق القوة الاستعمارية هو الذي حكم العلاقة بين الطرفين، وهو الذي يحدّد العلاقة بين الأعراق، لقد كانت النساء في قلب المشكلة مباشرة، لقد كان وضع المرأة 'الأهلية' مؤثّر بالنسبة للفرنسيين على تفوقهم الحضاري، والغريب في الأمر أنّ النساء الأوربيات كنّ أيضاً ضحية لهذه النظرة المتعالية إلى نهاية القرن التاسع عشر على الأقل؛ لأنّ المرأة الأوربية والفرنسية تحديداً كانت تعاني أيضاً سيطرة الرجال (المستوطنون)²، الذين نقلوا الأحكام المسبقة عن المرأة في أوروبا إلى البلاد المستعمرة، ولم تنل جزء من حقوقها المدنية إلا قبيل الحرب العالمية الثانية. بموجب قانون 18 فيفري 1938م³.

¹ - Julia Clancy-Smith, Op.cit, p.p. 27, 33.

² - Simon KATZENELLENBOGEN: «Femmes et racisme dans les colonies européennes», Clio. Histoire, femmes et sociétés, N°9/1999, <http://journals.openedition.org/cli/290> Consulté le 11 octobre 2018 à 18:53.

³ - انتظرت السيدات الفرنسيات (المتزوجات) حتى صدور قانون 18 فيفري 1938م؛ ليتمتعن بـ'الأهلية القانونية'، ويصبح لديهن نوع من الحرية في التصرف في شؤونهن الخاصة. للمزيد يُنظر:

Charmotte Billion: **La capacité civile de la femme mariée d'après la loi du 18 février 1938 et son influence sur les régimes matrimoniaux**, Thèse Doctorat, Faculté de droit, Université de Bordeaux, juillet 1939.

Voir aussi: Mm. Coste-Floret: «Des droits nouveaux de la femme mariée», La femme Algérienne, N°57, Mars 1939.

كتبت 'جرمان تيون': "كانت المرأة (الفرنسية) المتزوجة والمعتبرة شرعياً قاصرة، تجد نفسها اتجاه زوجها في وضع الطفل اتجاه أبيه، ولا يمكنها المطالبة بجواز سفر، ولا بحساب بنكي من دون رخصة الزواج". للمزيد يُنظر: جرمان تيون، المرجع السابق، 163.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

يقرّ الأب 'مارشال' (R.P. Marchal) بالبون الشاسع والهوة السحيقة من جميع النواحي بين العائلة الأوربية والعائلة الجزائرية؛ العرق، الدين، الأخلاق، الحالة الاجتماعية، فلا يمكن تحقيق أي نوع من التقارب بينهما، فالأسرة الفرنسية رغم إقرار بعض التدابير في القانون المدني، وبعض الأخلاق بقيت مسيحية، بينما الأسرة 'الأهلية' بقيت في الإسلام الوثني! . ورغم اشتغال القرآن على نصوص جميلة تخصّ العائلة والمرأة على وجه التحديد، إلا أنه كعقيدة ربانية تضمّن؛ ليس فقط تبعية جنس للآخر؛ ولكن الحالة الدونية للمرأة ووضعها تحت وصاية لا ترحم. وعلى العموم باستثناء القانون العقاري والملكية الشخصية للصدّاق، فالمرأة المسلمة بقيت في وضع جدّ متدنّي¹. وحتى المرأة الفرنسية لم تسلم من هذه الأحكام، فإن هي اختارت الارتباط برجل جزائري، يتمّ تنزيلها إلى مستوى زوجها 'الأهلي'، وتصبح مواطنة من الدرجة الثانية في دستور 1947م².

كتب رئيس محكمة سكيكدة عن: "الاختلاف الواضح بين الفرنسيين والمسلمين الجزائريين؛ في العادات والتقاليد، والدين الذي يعكس حالة من العداء بين الطرفين، وهو ما يضع سياج أمام يصعب اختراقه أمام تحقيق الاتحاد عن 'الزواج المختلط'، خاصة وأنّ الرجل الجزائري مازال يعتقد بفكرة عدم المساواة بين الجنسين التي ورثها عن المجتمعات العربية القديمة، وبالتّسبة للأهالي فالقانون والدين مندمجين لا ينفصلان، فهل يمكنه التخلّي عن قناعاته الدينية والالتزام بنصّ القانون الفرنسي؟ ما هو الدين الذي سيعتقه الزوجان والأولاد؟ المسيحية التي تتزوّج مسلماً تصير غالباً مسلمة، والأطفال يجب أن يكونوا مسلمي، وعليه لا يجب أن نشجّع هذا النوع من الزواج؛ لأنّه يتناقض مع مؤسساتنا الليبرالية، وسيكون مضاداً لسياستنا التي تميل إلى التقريب بين الفرنسيين والمسلمين الجزائريين، وغني عن القول أنّ هذا التقارب يجب أن يكون لصالح حضارتنا، وخير مثال

¹ - R.P. Marchal, Op.cit, p.17.

² - Gilbert Meynier: «L'Algérie et les algériens sous le système colonial. Approche historico historiographique», *Insaniyat*, N°65-66, Juillet-Décembre 2014, p.p.13-70.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

ما حدث في إسبانيا خلال العصور الوسطى، حينما فرضت الحضارة العربية؛ حضارة المنتصر؛ لأنّ المسلمين كانوا هم الفاتحين مثلما نحن الآن في شمال إفريقيا"¹.

يمكن أن ننقل شهادة المناضلة الجزائرية من أصول فرنسية: 'لوسات حاج علي' التي تذكر: "إنّ سيطرة الجالية الأوربية على مدينة وهران جعل عدد قليل من بنات 'الأهالي' يلتحقن بالمدارس الفرنسية، حيث لم تكن معها أي تلميذة جزائرية 'مسلمة' في الصف الابتدائي، وفي المرحلة الثانوية عرفت طالبة واحدة كانت تتابع دروسها، ولا أحتفظ لها بأي ذكريات، لم يكن لي أي احتكاك بالشعب الجزائري، يجب القول أنّ التمايز الطبقي بين ساكنة وهران كان يتجلّى في الأحياء التي تقطنها كل جالية"².

في هذا السياق؛ كتبت المجاهدة 'زهرة ظريف' في مذكراتها: "في المدرسة الابتدائية، ولمدّة خمس سنوات، كنت الطفلة 'العربية' الوحيدة بصفيرتها الضخمتين الطويلتين، وتنانيرها الطويلة التي تتجاوز الركبتين بكثير؛ بين حشد من الأوربيات الصغيرات، بدا لي عددنّ ضخماً جداً، بشعرهن القصير، وتنانيرهن التي لا يتجاوز طولها الركبتين (...). كان الاختلاف بين هذا الحشد وبينني يصل إلى طبيعة اللّمحة التي تتناولها على الساعة العاشرة في ساحة المدرسة: يُخرجن حلويات من نوع 'البريوش' و 'الكرواسان' ورغائف خبز بالشوكوطة، وبالتّسبة للأقل ثراء، يتناولن خبزاً باريسياً بالمرّبّي أو بأنواع أخرى من التحليات المنبثة من نموذج الاستهلاك الأوربي. أما فيما يخصّني فأخرج حلويات من نوع 'المقروط' أو 'المبرجة' أو 'المسمّنة'..."³.

¹ - ANOM, GGA 40 G 100: Des mariages entre femmes françaises et indigènes musulmans algériens, Philippeville, 28 Septembre 1918.

² - Lucette Hadj Ali (Née Larrière), Op.cit, p.7.

³ - زهرة ظريف: مذكرات مجاهدة من جيش التحرير الوطني: منطقة الجزائر المستقلّة، تر. محمد ساري، منشورات الشهاب، الجزائر، 2014، ص28.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

وتحدّث عن الظروف العسيرة التي مرّت بها في إقامتها الداخلية بالثانوية، وهي "العربية الوحيدة في مرقد فرنسي، حيث الجميع، التلميذات والمراقبات، كنّ فرنسيات، بطريقتهنّ الخاصة في العيش والتعامل، والتي تختلف جذرياً عن عاداتنا وكيفية تعاملنا"¹.

كما يمكن أن ندعم هذا الرأي بشهادة² المناضلة في الحزب الشيوعي الفرنسي السيدة 'ميشيل فولكويي' (Michelle Foulquier)³، التي تؤكد أنّ التمايز الاجتماعي كان موجوداً بين السّكان الأوربيين أنفسهم؛ بين الأثرياء من كبار المعمّرين والتجّار، والطبقة المتوسّطة (الموظّفين، المحامين، المعلّمين...)، ولا تتذكّر زمالة أي فتاة 'عربية مسلمة' لها في المدرسة الابتدائية الفرنسية، بينما كانت هناك قلة من الفتيات 'العربيات' في طور المتوسّط، وهنّ من بنات كبار التجّار المسلمين وأصحاب المناصب وبعض المحامين والعائلات الثرية بمدينة وهران.

وتضيف أنّ النقاش هيئة التدريس في المدرسة الفرنسية لم يكن يدور حول تعليم أبناء وبنات 'الأهالي'؛ وإنّما كانت قضيتهم الأولى التي يناضلون في سبيلها هي 'لائكية المدرسة' وتطبيق مبدأ فصل الدّين عن الدولة، وتؤكد أنّ الفتيات الجزائريات (المسلمات) كنّ يتزوّجن في سنّ السابعة عشر على الأكثر، وأنّ السيطرة الذكورية لم تكن خاصة بالمجتمع المسلم؛ بل حتى لدى الجاليات غير العربية بالجزائر، حيث أنّ والدها منع والدها من العمل بحجّة أنّه قادر على تأمين متطلّبات الأسرة، كما أنّه وافق على مفضض على التحاق أختها (Ghislaine) للدراسة بجامعة الجزائر عام 1958م. وقد بقيت العلاقات

¹ - المصدر نفسه، ص40.

² - مقابلة شخصية جرت بمدينة أكس أون بروفانس (Aix en Provence) بضاحية مرسيليا جنوب فرنسا بتاريخ: 04 أوت 2020.

³ - هي من 'الأقدام السوداء'، والدها فرنسي، كان يعمل ضمن سلاح البحرية الفرنسية، وأمها إسبانية، ولدت في الحى الأوربي بمدينة وهران في شهر جويلية عام 1942م؛ بالتزامن مع إنزال الحلفاء، وعاشت طفولتها وبداية شبابهما هناك، وتحتفظ بالكثير من الذكريات عن تدرّسها بالمدرسة الفرنسية وانضمامها للكشافة... وغيرها.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

وديّة بين مختلف الجاليات التي تقطن مدينة وهران خلال السنوات الأولى من الثورة إلى غاية مجيء منظمة الجيش السري (OAS) وأعمالها التخريبية.

يمكن الجزم أنّ العلاقات الاجتماعية التي ربطت المستوطنين بالسكان الجزائريين، كانت مبنية أساساً على مبدأ النفعية المادية فقط¹، فلا مجال للحديث هنا عن الحاجة المتبادلة، فلا يوجد هناك اتصال اجتماعي ذو نزعة إنسانية، ولكن هناك علاقة مادية بحتة، تجمع بين المستعمر والمستعمّر، فالأول قائد والثاني مقود ووسيلة للإنتاج فقط²، في حين بقيت مظاهر التواصل بين الجاليتين نادرة في المدن وفي الأرياف.

إذن فمنطق الغالب والمغلوب كان هو السائد والمسيطر، والعلاقة بين الطرفين كانت علاقة اقتصادية بما يخدم مصلحة المستوطن الأوربي أكثر منها علاقة اجتماعية، والعلاقات ذات الطابع الإنساني بين المستوطن والمواطن الجزائري كالزواج والمصاهرة كانت قليلة؛ إلا في حالات الزواج المختلط بين شبّان جزائريين مثقفين ثقافة فرنسية ونساء أوروبيات، حيث اعتبر 'شريف قاضي' أنّ مثل هذه الزيجات مازالت نادرة؛ بسبب ضعف التعليم الفرنسي الموجه لأبناء الأهالي المسلمين، وحتى الرجال الكاثوليك (الأوروبيين) غير مستعدّين لاتّخاذ النساء المسلمات كزوجات بسبب وضعهنّ المنحط³.

يذكر 'هـ. لافيون': "لقد أعربت عن دهشتي لواحد من السكان الأصليين من أصحاب الخيمة الكبيرة، والذي يتميّز بفكر واسع؛ كيف لإخوانه في الدّين لم يسعوا قطّ إلى تقليد الأوروبيين الذين يثقون بزواجهم ويعتبرونهم نصفهم الآخر؟ لقد جعلته جزءاً من

¹ - حتى بين أفراد الجالية الأوربية (المستوطنون) بالجزائر قامت العلاقات على الاعتبار النفعي (البراغماتي)؛ فالدّافع الأول لهجرة الفرنسيين، الإسبان، الإيطاليين والمالطيين... وغيرهم نحو الجزائر؛ البحث عن الرفاهية وفرص عيش أفضل، وحبّ المغامرة لدى البعض، قبل عوامل اللّغة والدّين والمصير المشترك.

² - Voir: Antoine Argoud: **La Décadence, l'Imposture et la Tragédie**, édition Fayard, Paris, (S.D).

³ - Hadj Cherif Cadi, Op.cit, p.134.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

هذه الفكرة التي كنت قد سمعت عنها عدّة مرات التي تقول: 'يمكن مقارنة الأسرة بجسم الإنسان الذي يمثّل رأسه الرجل والقلب منه المرأة'. لقد وافقني محدّثي؛ لكنّه بيّن لي أنّ القلب الذي هو محور المقارنة قد يتجزأ في الأسرة العربية بسبب تعدّد الزوجات، والمرأة العربية المرتبطة بزوجها تبقى في حالة خوف وغيره من زوجاته الأخرى ومن تشويهاها أمامه، إنّها ضحيّة لكل أنواع المظالم. لكن هذا لا ينفي أنّ من العائلات العريقة يتّخذون في العادة زوجة واحدة¹.

هذا الحكم لن يبقى مُطلقاً، حيث بدأت ذهنية الجزائري تتغيّر منذ ثلاثينيات القرن العشرين على الأقل، فانتشر الزواج المختلط وحبّ التمظهر بالمظهر الأوربي، لقد شرعت الفتيات المسلمات في تقليد نظيراتهن الأوربيات، وتخلّت الفتاة الجزائرية المتعلّمة عن الحجاب وارتدت الزيّ العصري. لقد صارت تخشى فقدان فرصتها في الزواج، بينما كان الشاب الجزائري المثقّف (المتفرنس خاصة) يرنو للزواج بأوربية، تذكر 'جرمان تيون': 'قبل 1940 تعرّفت على بعض المثقّفين الجزائريين الشباب، الذين بدأوا الاحتجاج ضد إلزامية الزواج بابنة العمّ المختارة من طرف العائلة منذ الولادة، البعض منهم، وهم قلة، من تمرّدوا على رغبة العائلة، بعد 1945 كفّ الشباب بعدد ملحوظ عن الخضوع للعائلة، وتزوّجوا بحسب اختيارهم - فأصبحت الشكوى صادرة من العائلة؛ لأنّ الفتيات المربيات أحسن تربية، مهدّات دائماً بعدم الزواج 'خطيبنهنّ' (المتزوّج ثانياً من باريسية) هؤلاء المهجورات لا يملكن الفرصة على الزواج بآخرين حتى'².

إنّ الوجه الآخر لمعاناة الفتاة الجزائرية، فلا هي لا تملك زمام أمرها بيدها، وخضعت لتربية عائلية صارمة، وكان تحرّرها من العادات والأعراف أمر شبه مستحيل في

¹ - H. Lavion, Op.cit, p.p.112-113.

² - جرمان تيون، المرجع السابق، ص.ص 129-130.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

تلك الفترة على الأقل، وهكذا فقد كانت مُرغمة على الخضوع والالتزام بقرار الأب أو الأخ الأكبر أو العمّ دون نقاش.

إنّ حالات الزواج المختلط القليلة، أو مظاهر التلاقي في الأماكن العامة ومحلات العمل، وعقوداً طويلة من الاحتلال الفرنسي للجزائر؛ لم جميعها تستطع تحقيق التقارب بين المجتمعين 'الأهالي' و 'الأوربي'، وبقيت العلاقات بطابع السيّد والمُسود، لقد كانت عوامل التنافر أكثر حضوراً من أسباب الائتلاف، وهكذا لم تستطع تلك الفئة القليلة من الفرنسيين المتعاطفين مع 'الأهالي' تحقيق مشروع الانصهار بواسطة المرأة والبيت والمدرسة.

2- خيبة المتفرنسين في ارتقاء المرأة 'الأهلية' بفضل الحضارة الغربية:

لم يكن المتفرنسون يتصوّرون أيّ ارتقاء للمجتمع المحليّ والفرد الجزائري بما في ذلك المرأة 'الأهلية' خارج أطر الحضارة الفرنسية، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا عن طريق المدرسة الفرنسية، وتجسيد سياسة الإدماج. ومن هذا المنطلق فقد تجاوزوا واقع المرأة الجزائرية وظروفها المزرية الناجمة عن السياسة الاستعمارية الجائرة، وندّدوا أحياناً بموقف المعمّرين ونظرهم تجاه 'الأهالي'، وبيعض القرارات الصادرة عن إدارة الاحتلال بالجزائر؛ لذلك وجدوا أنفسهم بين مطرقة السياسة الفرنسية وسندان العادات والتقاليد المحلية، وفي مواجهة النخبة العربية 'التقليدية' التي سعت للحفاظ على الموروثات والتنديد بالتحرّير الذي بدأ يدبّ في الأوساط النسوية الجزائرية.

2-1- تغاضي المتفرنسين عن وضع المرأة الجزائرية في ظلّ الاحتلال الفرنسي:

هناك العديد من الكتابات الفرنسية التي ظهرت بمناسبة الاحتفال المئوي، التي اهتمت بالجانب الخارجي والظاهري للمرأة في الجزائر المستعمرة، دون عناية كبيرة بجوهرها، ومشاكلها الحقيقية ومعاناتها اليومية من الفقر والحرمان والجهل والمرض تحت حكم المستعمر الفرنسي، وقد ركّز أصحاب هذه الأعمال بمناسبة المئوية، على إبراز

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

'إنجازات' الحكومة الفرنسية في الجزائر خلال، وتمجيد مآثر الاحتلال؛ باعتبارها عملاً عاد بفائدة عظيمة على الجزائريين طيلة قرن من الاستعمار.

يمكننا أن نقرأ هنا ضمن 'دفاتر المئوية' (les cahiers du centenaire de l'Algérie)، التقرير الذي قُدم تحت إشراف 'جان ميرانت' (Jean Mirante) مدير الشؤون الأهلية بالجزائر آنئذٍ، هذا الكُتيب الذي جاء تحت عنوان: فرنسا والأعمال الأهلية في الجزائر (la France et les œuvres indigènes en Algérie)، تضمّن استعراضاً لما أنجزه الفرنسيون خلال مائة عام من الاحتلال في مختلف المجالات، واهتمّ بالمرأة الأهلية وشؤونها، من لباس وحليّ وكذلك عاداتها وسط المجتمع الأهلي، كما عُقدت في ثنايا الكتاب نفسه، مقارنات عديدة بين المرأة العربية (La femme arabe) والمرأة القبائلية أو البربرية (La femme berbère)¹.

ويرى 'أبو القاسم سعد الله' أنّ المرأة 'الأهلية' بقيت بعيدة عن تأثير المفكرين والمنظرين الفرنسيين، وعن أي تغيير فعلي وجذري في وضعيتها، وكلّ ما قام به المستعمر هو أنّه "حاول إحداث هذا التغيير بفتح ورشات لتكون وسيلة احتكاك بين المرأة الأوربية والمرأة المسلمة الجزائرية، وقد بدأت عملية التعرّف والاتصال، ومحاولة تكسير الحواجز بين 'المتقدّمات' السافرات المتحرّرات القادمات من أوروبا، وبين المتخلّقات المغلوبات على أمرهن في الجزائر"².

مع ذلك نجد من النخبة الجزائرية من تبني هذا الخطاب؛ ليروج لفكرة مفادها أن اعتناق المرأة 'الأهلية' سيكون على يد أخواتها الأوربيات، ولن يخرج بأي حال من الأحوال عن أطر السياسة الفرنسية وقيم الحضارة الغربية، كما تزعم الكتابات الكولونيالية

¹ - Jean Mirante : **La France et les œuvres indigènes en Algérie**, (cahiers du centenaire de l'Algérie), Publications du comité nationale métropolitain du centenaire de l'Algérie, 1930.

² - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ج.6، ص338.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

أنّ الحياة الاجتماعية للمرأة الجزائرية ستتطورّ بفضل نظيرتها الأوروبية، التي جاءت لتُدخل الحس الحضاري على حياتها، وتحسّن من وضعيتها التعليمية والصحية والثقافية عموماً، مثلما جاءت فرنسا إلى الجزائر لنشر الحضارة. ويُشير بعضها الآخر إلى نظرة الاحتقار التي كان ينظر بها المستعمر إلى المستعمر على أنّه متخلف وشهواني، وإلى المرأة الجزائرية على أنّها قليلة الأدب، فاطمة!. أو 'موريسك' وأقل من ذلك استعمالاً عبارة 'موكيرا'¹.

هناك من المتفرنسين من عاتب المثقفين الفرنسيين على الحكم المطلق الذي أطلقوه على النساء المسلمات الجزائريات؛ واعتبارهن جاهلات يعشن في وضعية من العبودية، مسجونات يرزحن تحت وطأة التخلف والجهل. لقد حاول المتجنسون أن يبيّنوا أنّ نظرة المثقفين الفرنسيين فيها شيء من المبالغة وسوء الفهم؛ لأنّهم لم يأخذوا بعين الاعتبار العادات والتقاليد أو لم يفهموها على حقيقتها، ولم يدركوا أنّ المرأة تعيش ضمن محيط اجتماعي مختلف عن ذلك التي تعيش فيه المرأة الأوروبية، فضلاً عن جهل أغلبهم باللهجات المحلية لا سيما في منطقة القبائل وبالتاريخ العميق للمنطقة، وهم بذلك يطلقون أحكامهم بناء على نظرهم إليه من الخارج؛ دون معايشة هذا المجتمع من الداخل.

مع نبرة يطبعها التأسّف كتب أحد المتفرنسين منتقداً إحدى روايات 'فرديناند دوشان': "... حسناً! لا. نساؤنا وأمهاتنا وأخواتنا لسنّ عبيداً، ولم نسمعهنّ قطّ يقلنّ ذلك حتى في القرى الأكثر تخلفاً (...). في مجتمعاتنا؛ المرأة عندنا موجودة في حالة متواضعة، لكنها تتبع في هذا نفس مصير والدها وأخيها وزوجها، وهي ليست أكثر سوءاً من الرجل (...). ولا يجب مقارنتها بالمرأة الأوروبية؛ لأنّهما يعيشان في محيطين مختلفان تماماً"².

¹ - أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996، ص.59.
² - Le bibliophile: «Mouna, cachir et couscous (F. Duchène): Réflexions d'un lecteur», La Voix des Humbles, n°91, 13 septembre 1930, pp.7-11.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

لقد استمرت هذه اللغة الممجّدة لأعمال الاحتلال تارة؛ والمندّدة بنظرته إلى المرأة والمجتمع تارة أخرى، من طرف المتفرنسين إلى 'الربع ساعة الأخير' من الاحتلال، نجد 'نفيسة سيد قارة' على سبيل المثال؛ تعتبر أيام شهر ماي من سنة 1958م بمثابة 'ثورة' ولحظة تحوّل تاريخية بالنسبة للمرأة الجزائرية المسلمة، والبداية الفعلية لحركة 'تحرير المرأة الأهلية' التي بقيت أسيرة العادات والتقاليد لعقود طويلة، لقد عبّرت الآنسة 'سيد قارة' عن تأثيرها بتلك اللحظة؛ التي رأت فيها الآلاف من النساء، شابات وعجائز، مستضعفات فقيرات وبرجوازيات، متعلّقات وأمّيات، يمزّقن حجاب الصمت الذي عشن خلفه منذ سنوات، مثلما عاشت أمهاتهن وجدّاتهن منذ قرون.

تقول: "هذه الدراما من الصمت التي كانت عليها المرأة المسلمة، صمت أمام الرجل؛ أب أو زوج أو أخ، صمت تجاه المرأة من أصل أوريي. المسلمة التي عاشت ضمن قيود التقاليد، وكانت خاضعة لقواعد تركز على العادات، التي غالباً ما تكون محرّفة عن المقاصد الحقيقية للقرآن، نساء الجبل، نساء أميات وفقيرات، كنّ عبيدات لحياة كلّها مادية دون أفق، نساء المدن، جاهلات ومتعلّقات، هنّ أيضاً عشن منذ سنّ 12 ، 13 أو 14 سنة معزولات عن العالم الخارجي، منغلقات على أنفسهن، محجوبات حتى يزوّجن، يغمهنّ الصمت، يحلمن بحياة حرّة كتلك التي يشاهدنها عند احتكاكهنّ بزميلاتهنّ الأوربيات، وبعدها وقعت أحداث التمرد المفجعة (لثورة)؛ صار الصمت أكثر وطأة، وأكثر من أي مضي. المرأة المسلمة والمرأة الأوربية يميّن جنباً إلى جنب دون رؤية بعضهن البعض، تتجاهل إحداهن الأخرى، تتخندق كلّ منهنّ في أنانيتهن أو خجلها. المعجزة أحدثت أملاً مشتركاً صنعه الجنرال ديغول، هؤلاء النسوة كسرن فجأة السلاسل الثقيلة

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

لماضي مظلم، وانخرطن في اتجاه واحد؛ ليظهروا للرجال، لفرنسا، وللعالم أجمع هذا المخلوق المجهول: المرأة المسلمة في الجزائر"¹.

هذا العبد (تقصد المرأة الجزائرية) الذي ظلّ لعقود بل لقرون طويلة أسير العادات والتقاليد والمفاهيم المنحرفة لنصوص الشرع الإسلامي، و"حتى بعض الأسر المسلمة التي تجاوزت العادات وسمحن لبناتهنّ بمتابعة دراستهنّ؛ فإن هؤلاء البنات بقيت يعانين الكثير من الصعوبات بداية من وسطهنّ العائلي، حيث بقيت يكافحن ضد عدوانية المرأة المسنّة، الجدّات والعمّات اللواتي لم يردن رؤيتهن يذهبن للمدرسة؛ لأنّ التعليم كان هو التحرّر، والقطيعة مع العادات، وبالتالي مع العائلة مثلما كنّ يعتقدن. كما كافحن ضد عدوانية الجيران الكثر والغيورين، كونهم لم يستطيعوا تحقيق الشيء نفسه، وهذا طبع إنساني، وحتى من الجانب الأوربي كانت البنات المسلمات يكافحن ضد المظاهر، حيث لم يتقبل الأوروبيون الفوارق بين البنت المسلمة والبنت الأوربية اللواتي يتابعن دراستهن على المقعد نفسه، الفوارق في الزيّ مثلاً، وفي المستوى الاجتماعي"².

كنا قد ذكرنا سابقاً ما أورده 'زهرة ظريف' في مذكراتها عن التمايز الحضاري بينها وبين البنات الأوربيات في المدرسة الابتدائية الفرنسية، حتى في اللباس وفي تسريحة الشعر، وفي نوعية اللّمجة اليومية. هذه المظاهر التصقت بيوميات الفتيات المتمدرسات طيلة عهود الاحتلال.

لقد مثل شهر ماي من عام 1958م لـ'نفيسة سيد قارة' ثورة البنت والمرأة الجزائرية ضد العادات والتقاليد، وضد الحجاب، فقد وصفت في إحدى خطبها ما حدث من تحوّل في مسار المرأة المسلمة في الجزائر؛ بعد مجيء ديغول للسلطة بـ 'ثورة

¹- A.N.Paris, AJ 103/1- AJ 103/11: Nafissa Sid Cara: Projet de statuts Mouvement de solidarité féminine.

²- A.N.Paris, AJ 103/1- AJ 103/11: Nafissa Sid Cara: Allocution prononcée par Mademoiselle SID CARA, secrétaire d'état devant les membres des équipes d'Amitié A.F.N le 25 Mai 1959.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

الحجاب'¹. لكنها تناست أنّ ما حدث ما هو في الحقيقة إلا 'مسرحية' صنعتها زوجات جنرالات فرنسا المتمسّكين بالجزائر، ومنهن السيّدة 'ماسو'، وأوكلت الأدوار فيها إلى نساء 'أهليات'؛ بهدف إقناع الجنرال 'ديغول' والرأي العام الفرنسي والأوروبي؛ بإمكانية التعايش بين المجتمعين المحلي والأوروبي، وبجدوى بقاء 'الجزائر فرنسية' إلى الأبد، لكن دعوات تحرّر المرأة الجزائرية، كانت ردّة فعلها تجاهها معاكسة غالباً؛ بارتداء 'الحايك'².

2-2- ضياع المتفرنسين بين الثقافة الفرنسية والانتماء لبيئة محافظة:

إنّ المتتبّع لقضية 'تحرير المرأة الأهلية' في أدبيات النخبة المتفرنسة، يجد أنّ التأثير الغربي عليها؛ بلغ ذروته إلى غاية بداية ثلاثينيات القرن العشرين، وكان مصدره بالأساس الكتابات الفرنسية التي تناولت الموضوع، فضلاً عن المقالات في الصحافة الناطقة باللغة الفرنسية، والتي مثّلت فضاءً للنخبة المسلمة المثقّفة بالثقافة الفرنسية من النواب والمعلّمين وغيرهم، للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، وطرح وجهة نظرهم بخصوص المرأة وقضاياها في الجزائر، وفي ظلّ السيادة الفرنسية عليها.

إنّ النخبة المتفرنسة نصيرة تحرير المرأة 'الأهلية' في الجزائر والإدماج بقي صوتها خافتاً و غير مسموع بشكل واضح؛ لسببين جوهريين:

- أولاً: رفض إدارة الاحتلال التجاوب الجادّ والفعال مع مطالبها بحق التعليم للجميع على قدم المساواة، تحت تأثير وضغط المستوطنين، وفلسفة الاحتلال لإبقاء السيطرة.

- ثانياً: إعراض غالبية النساء الجزائريات المسلمات المتمسّكات بالحجاب؛ وبالعوادات الاجتماعية والتقاليد والأعراف عن التماهي مع خطاب المتفرنسين المثقّفين ثقافة فرنسية،

¹ - «Mlle Sid CARA parle devant le conseil départemental des femmes de la gironde de la révolution des voiles», *Journal Sud-ouest*, 6 Juillet 1959.

² - يُنظر: فرانس فانون، المصدر السابق، ص 56، 57.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

وقد نظرن إليه على أنه خطاباً يدعو إلى الانحلال والتخلّي عن القيم، وقد يفتح أبواب الانحلال الخلقي والوقوع في الرذائل والفساد.

إنّ مهمّة القلة القليلة من الفرنسيين المقتنعين بضرورة ترقية المرأة الأهلية؛ لم تكن بتلك السهولة المتصوّرة؛ من أجل إحداث هزّة ثقافية وفكرية في المجتمع الجزائري، فلم يقتصر رفض التعليم الفرنسي على العامة؛ بل إنّ هناك حتى من خاصة الجزائريين والأعيان المقربّين من الإدارة الفرنسية، الذين كانوا يشغّلون مناصب إدارية وسياسية تحديداً، كانوا هم أيضاً متردّدين في إرسال بناتهم إلى المدرسة الفرنسية، ربما بسبب قناعتهم بعدم جدوى التعليم الفرنسي الموجه للأهالي في ذلك الوقت أو محدوديته، أو تفادياً لانتقاد المجتمع المحلي، ونظرته المريية إلى تعليم البنت الجزائرية في مدرسة 'الرومي'.

تذكر 'كلود أوليفي' (Claude Olivier) في روايتها 'معلّمة في الجزائر'، أنّ رئيس أحد المجالس البلدية المحلية في الجزائر، أدخل ابنته ذات التسع سنوات إلى المدرسة، موضحاً للمعلّمة أنّه فعل ذلك ليعطي المثال للدوّار فقط، وأنّه سيسحبها "بمجرد ما يكون لديكم عشرون بنتاً تقريباً في القسم"، وحتى أحد المتجنّسين المعروفين، والمساهمين في الجريدة الأهلية 'صوت المتواضعين' (المستضعفين) (La Voix des humbles): المعلّم ليشاني (Lechani)، يعترف سنة 1930م أنّه لم يُرسل بناته للمدرسة، "وتكلّف (كذا) شخصياً بتربيتهن وتعليمهن في الدار"¹.

نجد التناقض أيضاً في خطاب النخبة المتفرنسة 'المتطوّرة' في إحجام بعض أفرادها عن إرسال بناته إلى المدرسة، سيما في التجمعات الحضرية الصغيرة والمناطق الريفية، حيث تكون الرقابة المجتمعية حاضرة بقوة ووطأة العادات المسيطرة على تصرفات وقرارات الأفراد، وكذلك الحال في مسائل المرأة الأخرى، على سبيل المثال كان بعض الشبان من

¹ - مسعودة بجاوي، المرجع السابق، مج. 2، ص 284.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

المتجنّسين في منطقة القبائل يساندون قرار منعها من الميراث ويرفضون إعطاءها حقّها من التركة، رغم أنّهم يدعون إلى تحريرها وعيشها على الطريقة الفرنسية (à la française)، لكن حينما يتعلّق الأمر بالعرف الاجتماعي والعادات فهم يعودون إلى أصولهم ويغلبون رأي 'الجماعة' (تاجماعت). لقد عاشت هذه فئة المتجنّسين مشتتة بين حضارتين؛ فلا هي استطاعت تحقيق الاندماج الكلّي ضمن المجتمع الأوربي، والتمتّع بمزايا الحضارة الأوربية، ولا هي بقيت متمسّكة بأصولها؛ مُدافعة عن قيم أمّتها، مؤمنة بإمكانية العيش في ظلّ الواقع الجزائري المؤلم آنذاك.

ومن بين القضايا الاجتماعية الحسّاسة التي واجهت المتجنّسين قضية 'الزواج المختلط'، لقد ضاع هؤلاء بين رغبتهم في الحياة مع زوجة أوربية مثقّفة ومتفتّحة، وبين إكراهات المجتمع وحتمية العادات والتقاليد التي تجبرهم على اختيار شريكة من بنات جلدتهم، حتى وإن كانت غير متعلّمة، وهكذا وجد الشاب المتفرنس نفسه بين عدّة متناقضات، مثلما نقرأ عن ذلك الشاب الجامعي 'علي'، الذي كان مجبرا على الاختيار بين الارتباط بامرأة أوربية والانفصال عن مجتمعه وبيئته، أو الزواج بفتاة مسلمة مع ما يمثّله ذلك من وأد لطموحاته في الارتقاء و العيش بطريقة عصرية¹. ومع ذلك هناك من اهتدى منهم إلى حلّ ثالث وهو الارتباط بفتاة نصف متعلّمة من بيئته ومجتمعه، والعمل على استكمال تعليمها وتدريبها على محاكاة الحياة العصرية وفق الطريقة الأوربية التي كانت هاجس الشبان المتجنّسين.

من ناحية أخرى؛ حاولت جرائد النخبة المتفرنسة؛ الدفاع عن موقفهم في قضية تحرير المرأة 'الأهلية'، وعادة ما يستنجد بعض كتّابها بالتاريخ والماضي لإثبات صحة رأيهم، ففي جريدتهم 'صوت المستضعفين' مقالا مطوّلاً نقلاً عن جريدة 'الإسلام' الصادرة

¹- Candide: «L'idéal d'un jeune: Le progrès par le mariage mixte», La Voix des humbles, n°67, Novembre 1928, pp.17-19 / n°70, janvier 1929, pp.15-18.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

بباريس، اعتبر صاحبه أنّ العرب هم الشعب الوحيد من بين شعوب العالم الذي لم يُدرك أو يحاول أن يخفي حقيقة تطوّر وضع المرأة ماديا ومعنويا، وعندما كان العرب هم أسياد العالم كانت النساء متساويات مع الرجال، أو في مرتبة أعلى منهم، وحتى لدى العرب القدامى كانت للمرأة أهمية معتبرة، حيث كانت النساء كلمتهنّ مسموعة، وهنّ من فرضن السلم بين قبيلتي 'عبس' و 'ضبيان'، وكذلك كان حال المرأة في ظلّ الإسلام إلى غاية القرن السادس الهجري، حيث تؤدي وظيفتها الاجتماعية بكلّ حرية¹.

وبحسب 'علي مراد' فإنّ "النخبة المتفرنسة ودعاتها من الذين تبنّوا السلوكيات الفرنسية؛ بدا موضوع 'تحرير المرأة المسلمة' أمراً ضرورياً لا يُناقش، ورغم قلة عدد المؤيّدات (الجزائريات) لهذا التوجّه، مقارنةً بالأغلبية المناهضة للأفكار الداعية إلى تحرير المرأة؛ فإنّ دُعاة تطوير المرأة الأهلية، كانوا يتوفّرون على صحافة تسمح لهم بنشر أفكارهم بين الجمهور الإسلامي ذي اللسان الفرنسي، وقد حمّس هذا الأمر عدد من النساء؛ طالبات، مدرّسات وأديبات من أصول مسلمة أو أوروبية على الانخراط بعزم في الحركة المطالبة النسوية في الجزائر، وكان نشاط هؤلاء يرمي إلى الإبانة عن الوضع المزري للمرأة الأهلية، وتحسيس الفرنسيين كما الأهالي بالضرورة المستعجلة لتشجيع تحرّر المرأة المسلمة عن طريق التربية والتعليم والتكوين المهني، وتحسين ظروف المعيشة، والمساعدة الطّبية والحماية القانونية للمرأة"².

لقد انساق أغلب دعاة الإدماج والفرنسة وراء الخطاب الكولونيالي حول المرأة المسلمة في الجزائر، وعملوا على نسخ ونقل آراء وموقف المثقفين الفرنسيين، وإعادة نشرها عبر صفحات جرائدهم، كما أشادوا بمواقف النسويات الفرنسيات وعبروا عن إعجابهم بـ 'ماري بوجيجا' من خلال دورها في التقريب بين المجتمعين، والسيدة 'فيوليت'

¹ - AITAMEUR Ahmed: «La femme dans l'islam (traduction)», La Voix des Humbles, n°96-97, Février-Mars 1931, pp.7-10.

² - علي مراد، المرجع السابق، ص 384-385.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

التي ستحمل الفرج والخلاص للمرأة الجزائرية؛ بل ذهب البعض إلى اعتبار الجزائريين مدينين لـ'ماري بوجيجا'؛ نظير الجهود التي تقدّمها لتحسيس العناصر الأوربية بأهمية تحرير المرأة المسلمة، ونضالها أمام الإدارة الفرنسية لصالح النساء المسلمات في الجزائر، وعادة ما عملت صحافتهم على الإشهار عبر صفحاتها للأعمال التي قدمتها، ومنها كتابها: 'رؤى الجزائر' (Visions d'Algérie)¹. كما أشادت بروايتها: 'من الفضيلة إلى الرذيلة' (Du vice à la vertu)، واعتبرت صاحبته تلك المرأة الفرنسية النبيلة التي لطالما كانت قريبة من 'أخواتها المسلمات'، حيث ولجت عالمهنّ وشعرت بآلامهنّ وآمالهنّ².

ونقلت 'صوت المستضعفين' مقالاً عن جريدة 'الفرنسية' (La française)، حوصلة لما خرج به 'مؤتمر النساء المتوسطيات' الذي جرى في قسنطينة، حيث قارنت وضع المرأة المسلمة في الأقطار المغاربية مع التحوّل الكبير التي جرى في تركيا، ومع الخط المتصاعد الذي كانت تسير فيه الحركة النسوية المصرية والفلسطينية والسورية لنيل الحقوق والمساواة التامة، لكن المؤسف والمخزن هو أنّ الدول الاستعمارية لا تسير في نفس الاتجاه بخصوص تحرير المرأة في البلدان المستعمرة، والدول الأوربية التي تحمل شعلة الحضارة الراقية، عليها تدرك أولاً أنّ الحضارة الحقيقية هي إعطاء المرأة كما الرجل فرصة تطوير شخصيتها في كلّ المجالات وبالنسبة لكل الأعمال³.

إنّ النخبة المتفرنسة لم تعاني في الجانب السياسي فحسب؛ بل ظلّت رهينة خلفيتها الاجتماعية بين سندان الحضارة الفرنسية ومطرقة العادات والتقاليد المحلية، هذا الوضع فرض عليها محاولة تقليد الأوربي 'المتحضّر المنفتح' في تفكيره ونمط عيشه؛ ومع ذلك فهي

¹- B. : «Visions d'Algérie: par Mme Bugéja», La Voix des Humbles, n°83, Janvier 1930, pp.17-18.

²- Salah Bouregda: «Du vice à la vertu, par Mm Marie Bugéja», La Voix des Humbles, n°129, Octobre 1933, pp.21-24.

³- Germaine Malaterre-Sellier: «La libération des femmes musulmanes», La Voix des Humbles, n°127, Juillet-Aout 1933, pp.7-8.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

لم تستطع تحرير ذاتها كلياً من الواقع الذي فرضه وقوع الجزائر تحت الاحتلال، وفرضته عليها السياسة الاستعمارية تجاه بني جلدتها، ولئن كانت فئة من هؤلاء قد رفضت التخلي عن أحوالها الشخصية الإسلامية، وأبقت على الأواصر الاجتماعية والدينية لمجتمعها الأصلي؛ فإن شريحة منهم (المتجنسون) آثرت الجنسية الفرنسية، ومع ذلك فلا هي تمتعت بمزايا المواطنة الفرنسية، ولا هي حافظت على انتمائها الحضاري لأمتها.

2-3- السّجال الفكري بين النخبة الجزائرية في قضية 'تحرير المرأة':

منذ نهاية العشرينيات؛ تبنى المتجنسون الخطاب الفرنسي في مسألة الحجاب بشكل كامل، واعتبروا رفعه عن وجه المرأة خطوة نحو تحريرها وتعليمها وإعطائها روح المبادرة، ولم يكتفوا بالإشادة بالنموذج الأتاتوركوي؛ بل راحوا يروجون لنماذج من دول وشعوب إسلامية أخرى تخلّصت من رمز التخلف وسمت عن الظلامية وطابع الجمود الذي يميّز المرأة المسلمة، فذكروا بالسيّدة 'حبّية منشاري' في تونس، واعتبروا ما أقدمت عليه خطوة نحو ارتقاء المرأة التونسية، وأشادوا بالإصلاح الذي يقوده ملك أفغانستان 'أمان خان' وزوجته الملكة 'صورية' للنهوض بالمرأة الأفغانية¹.

هذه المواقف جعل المتجنّسين في مواجهة النخبة الديّنية المحافظة أو التقليدية، التي نددت بالداعين إلى التخلي عن الحجاب، ونادت إلى الالتزام بالعادات والتقاليد الاجتماعية والأعراف، ومن هنا كالتجنّسون الاتهامات للمحافظين بأنّ موقفهم هو سبب تخلف المرأة 'الأهلية'، بينما تبنت النخبة الإصلاحية في جيلها الثاني (العلماء بقيادة ابن باديس) موقفاً عصرياً إلى حدّ ما في قضية المرأة، جعلهم يكسبون ودّ وصدقة المتجنّسين أحياناً، ويتواجهون معهم أحياناً أخرى في قضايا تخصّ المرأة كان العلماء يعتبرونها من المعلومات بالضرورة في الشرع الإسلامي.

¹ - Charles Géniaux: «L'Hidjab», *La Voix des Humbles*, n°72, Mars 1929, pp.14-16.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

نقرأ مقالاً ساخراً في جريدة 'النجاح' القسنطينية، جاء عقب نشر 'صوت المستضعفين' لقصيدة بالفرنسية بامضاء 'جنات': "في الحنين إلى السفور.. وهي قصيدة تنطوي على معاني تندفق أسفاً على السفور وتترقق بمياه الأشجان من الحجاب¹، الذي عبّرت عنه بالسّجن، غير أنّا لا ندري هل الرواية خيالية يُقصد بها ترويح فكرة السفور وهجران الخدور، أم هي جنّات حقيقية في اسمها، سئمت من المكث بمثلها، وتريد الانطلاق حرة تذهب حيث شاءت ومتى شاءت. إنّ فكرة السفور فكرة عليم المسلمون اليوم أنّها لا تنطبق مع نصوص الدين الإسلامي، وحسبك أنّ المسألة بها نص لا يقبل التأويل، فلا نظنّ أنّ كلام الستّ جنّات يكون له اعتبارٌ يُذكر"².

ويعتبر أحد كتّاب 'النجاح' أنّ الدعوة لـ 'تحرّر المرأة المسلمة' وفق المنظور الغربي ستكون لها نتائج وخيمة جداً على المجتمع المسلم؛ لأنّ مقصودها وفق الكاتب هو تسهيل مخالطة النساء للرجال، مفنّداً هذا الرأي بقوله: "يقولون أنّ الحجاب يصدّ المرأة عن التعليم وهو إدّعاء يكذّبه العيان (...). وهذه مدارس البنات يوجد فيها كثير من المحتجبات يذهبن إلى المدرسة بالتّقاب، فإذا وصلن إليها خلعهن وتلقين دروسهن سافرات، فإذا أتمنّ النهار رجعن إلى دورهنّ محتجبات.."³.

لقد أصرّ المتجنّسون على طرح وجهة نظرهم كلما أتاحت لهم الفرصة، والدفاع عن مواقفهم من خلال صحافتهم، وأثناء لقاءاتهم ومحاضراتهم، وجاءت آراؤهم في مسائل المرأة بالتحديد مناقضة غالباً لآراء نظرائهم من العلماء الإصلاحيين، ومهاجمة بحدّة لمواقف

¹ - غالباً ما تأخذ كلمة 'حجاب' معنى الاحتجاب في أدبيات النخبة المعرّبة؛ و حجب النساء سمة بارزة في المجتمعات العربية والإسلامية، وفي المنطقة المغاربية تحديداً، قد ربطت 'جرمان تيون' هذه الظاهرة بالتمدّن: "إنّ حجاب النساء المغاربيات له علاقة بظاهرة التمدّن، لا يحتجبن إلّا عندما يُقمن في مدينة ما، أما القرويات فإنّهنّ يتحركن ووجوههنّ سافرة". يُنظر: جرمان تيون، المرجع السابق، ص31.

² - "ما وراء الحجاب"، النجاح، ع.1510، الأربعاء 6 ديسمبر 1933، ص2.

³ - يحيى بن محمد الدراجي: "المرأة المسلمة والحجاب"، النجاح، ع.279، الجمعة 9 مارس 1926.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

النخبة المحافظة، متهمين هذه الأخيرة بالرجعية والتخلف والانغلاق؛ لذلك لا نجد مجالاً للتقارب بين النخبة المتفرنسة والنخبة المعربة في القضايا التي تخص المرأة الجزائرية المستعمرة؛ باستثناء المطالبة بتعليم البنات المسلمات (الأهليات)، مع الاختلاف كذلك في نوعية التعليم المطلوب ومراميه، أما غيرها من القضايا فظلت محل خلاف حاد، وصل إلى حدّ التنازب أحيانا عبر صفحات الجرائد.

لعلّ من أبرز المسائل التي أثارت حفيظة المتفرنسين قضية السّفور، فعلى سبيل المثال عندما هاجم الإصلاحيون في تونس والجزائر حادثة السّفور التي وقعت في تونس، حين خطبت السيّدة 'حبيبة منشاري' سافرة أمام جمع غفير، نجد المتفرنسون يهّلون لهذا الحدث، ويحيّون الفعل الذي أقدمت عليه هته السيّدة التونسية، ويصفونه بالعمل الشجاع، وهي التي لم تتجنّس بالجنسية الفرنسية قانوناً؛ لكنّها فرنسية بقلبها، وبالتّسبة لأحد هؤلاء: "مسألة الحجاب بالتّسبة للمرأة المسلمة المثقّفة ثقافة فرنسية لم تعد مطروحة بتاتاً؛ لأنّها تعيش مثل المرأة الفرنسية، على نقيض ذلك؛ بالتّسبة للمرأة التونسية حتى وإن كانت متطوّرة ومتعلّمة، ستكون مُحرجة مقيّدة بكلّ الظروف والاعتبارات المحيطة بها (...). أما المرأة المتجنّسة فلن تعرف هذه العيوب، ومن هذا المنطلق يمكننا البحث عن تحرّرها ودفع الآخرين إلى تغيير وضعها، ولا يجب الاعتقاد أن التجنّس سيدفع المرأة المسلمة إلى الانفصال عن كلّ ماضيها، فالحقوق الجيّدة التي ستحصل عليها لا تتضمّن أي إجبار على القطيعة (...). والحرية الحقيقية بالتّسبة للمرأة هي في نيل حقوقها كاملة"¹.

كما دافع دعاة التحرّر عن نظرتهم العصرية، واعتبروا الحجاب والاحتجاب بمثابة انتحار وموت بطيء للمرأة المسلمة ولشعب وعرق بأكمله، مندّدين بموقف المدافعين عن الحجاب، ورافضين حجج وخوف المحافظين من تحرّر المرأة الذي سيؤدّي إلى روبنتها

¹- A. Kebaili: «L'émancipation de la femme musulmane», La Voix des Humbles, n°71, Février 1929, pp.14-15.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

(l'europanisation)، ورأوا أنه "من واجب فرنسا تضع كل ثقلها في هذه القضية الجهورية، كما يجب مساعدة الفرنسيين أصحاب النوايا الحسنة الذين يرغبون في مد يد العون للمرأة للتخلص من هذا الحجاب الذي يغطي وجهها مثل الكفن"¹.

بالمقابل عبّر أبو اليقظان عن غضبه مما نشرته الصحيفة الاستعمارية 'ليكو دالجي' (L'écho d'Alger)، حين دعا صاحب مقال فيها؛ المرأة الجزائرية إلى نزع حجابها، والالتحاق بركب الحضارة والحياة المعاصرة. فردّ عليه أبو اليقظان بتهمك: "إنه يقترح على الجزائريين أن يلبسوا زوجاتهم القبعة الأوربية، فهي 'أحسن' للمرأة و'أنسب' لها، حتى تستطيع الذهاب إلى المسرح، وإلى غير المسرح (...). إن مسألة السفور والحجاب، ليست مسألة جمود وحركة، ورقّي وانحطاط، وعلم وجهل، بل هي مسألة تدين وتجرّد، عفاف وتهتك، عقل وطيش، وجملة هذه فتنة من فتن أوروبا خدعت بها أغرار المسلمين، لينصرفوا عن واجباتهم الدينية والوطنية الحقيقية"².

وفي الوقت الذي كان فيه الإندماجيون يقودون حملة واسعة للمطالبة بالحقوق السياسية للمرأة الجزائرية؛ نجد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يعترض على منح المرأة حق الانتخاب مثلاً، ويعتبر أنه: "سيعمّق الخلاف لا أكثر، وأن المساواة الحقيقية لا تعتمد على الاستخدام 'الموجّه' لورقة الانتخاب، لكن في عمومها على فتح المجال أمام الجميع لولوج التعليم والعمل، والمسلمات لن ينلن شيئاً من اهتمامهنّ بالمسائل الانتخابية، وأولئك الذين يدعون إلى الإصلاح المزعوم سيندمون بعد أن يروا خطأهم، بمحاولتهم 'فغزال الصحراء لا يتحول إلى أسد غابات'"³.

¹ - Mohamed Zemerli: «Une opinion sur la voile», *La Voix des Humbles*, n°77, Aout 1929, pp.4-6.

² - "المرأة والحجاب"، الشهاب، ج.8، ربيع الثاني، 1351هـ.

³ - ANOM, 81 F 1218: Presse musulmane: Le vote des femmes musulmanes, Rapport du GGA, 28 février 1950.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

لقد أطلق أنصار 'تحرير المرأة الأهلية' وفق النموذج الذي تقدّمه المدرسة الغربية؛ دعواتهم الصريحة والعلنية الموجهة للمرأة الأهلية للاقتداء بنظيرتها الفرنسية والسّير على خطاها، وللتخلّص من التخلّف والجهل والعادات البالية، فكان هؤلاء المتجنّسون يُبدون امتعاضهم من تقاليد المجتمع الأهلي ومن ممارسات رجال الطرق والزوايا تجاه المرأة، كما كان بعضهم يعتقد أنّ أحكام الدين الإسلامي لم تكن لتسمح للمرأة بالارتقاء والتطور، وكانوا من أشدّ المتحمّسين لمنظومة الفكر الغربي؛ كونها داعمة لانفتاح المجتمع وحرية المرأة، وضامناً أساسياً لنجاح أفكار المتجنّسين وتصوّراتهم بخصوص كفاءات تحرير المرأة.

3- النخبة المعرّبة وقضية تحرير المرأة: الاتفاق والاختلاف:

إذا كان بعض الباحثين في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية قد عبّر عن مواقفها من القضايا السياسية والاجتماعية المطروحة آنذاك بكلمة 'الانقسام' أو 'الانشطار'؛ فإنّ هذا التعبير قد يكون صالحاً للتعبير أيضاً عن مواقف النخبة الجزائرية المعرّبة من قضية المرأة في الجزائر، سيما خلال عقدي العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، والتي جعلت مواقفهم تتباين عندما يتعلّق الأمر بمسألة جوهرية وحسّاسة مثل مسألة 'تحرير المرأة'.

لم يكن الانقسام بخصوص مسألة تحرير المرأة بين النخبتين المعرّبة والمتفرنسة فحسب؛ بل امتدّ هذا الخلاف ليصل إلى النخبة العربية الإصلاحية التي عرفت اتّجاهين: أحدها محافظ أو يدّعي المحافظة والتمسك بالعادات والتقاليد؛ يرفض كلّ أشكال التحرّر المطروحة للنقاش آنذاك، والآخر إصلاحي إسلامي تقدّمي؛ لا يرى مانعاً في تحرّر الفتاة المسلمة ورقّيها ضمن أطر شرعية محدّدة سلفاً. ومع ذلك نعتقد أنّ أسباب الخلاف الجوهرية بين النخبة الإصلاحية بعيدة كلّ البعد عن موضوع المرأة؛ بل حكمتها اعتبارات أخرى، منها مدى ولاء البعض لإدارة الاحتلال الفرنسي، وما قضية المرأة إلا ذريعة للطرفين للتدابير والاختلاف.

3-1- التأثير المشرقي على دعاة الإصلاح في الجزائر:

عرفنا أنّ تأثير الأفكار الغربية الوافدة على دعاة تحرير المرأة في الجزائر من النخب المثقفة ثقافة فرنسية كان كبيراً، أما بالنسبة للنخبة العربية أو الإصلاحية الإسلامية، فمن المؤكّد أنّ حركة التجديد التي قادها 'جمال الدين الأفغاني' في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ظهرت آثارها في الجزائر في العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين، فقد ذاع صيت زعماء القومية الإسلامية المشرقية في الجزائر، وخاصة منهم الأفغاني و'محمد عبده' و'شكيب أرسلان'، وكانت أفكارهم عن الإصلاح الديني معروفة في الجزائر.

كانت بعض الجرائد مثل: 'المغرب' و'جريدة 'ذو الفقار' ثم مجلة 'الشهاب' تنشر آراءهم في الشؤون الإسلامية، كما كانت الكتب والصحف التي تصدر في الشرق تصل الجزائر رغم الطوق الذي فرضته فرنسا؛ ومنها جريدة 'المنار' للشيخ رشيد رضا¹. كما ثبت أنّ 'جمال الدين الأفغاني' قد زار الجزائر أثناء تواجده بباريس، ورأى بعينه بعض ما يلاقيه أهلها من الفرنسيين، وجاء في حديث صحافي له نشرته مجلة: 'Le Correspondance Parisienne'، وهي لسان الحزب الجمهوري المستقل، وفيه أنّ جمال الدين قد صرّح لصحافي أنجلو سكسوني: "بأنّه قد رأى الجزائر والحكومة الفرنسية لها فيها شرطة ترتكب أعمالاً تستنكر ويلامون عليها، وحتى المكاتب العربية تبلغ وحشية الإنجليز"². لكننا لا ندرى تاريخ الزيارة، ولا حجم التأثير الذي تركته هذه الزيارة في نفوس دعاة الإصلاح الإسلامي بالجزائر، مقارنة بزيارة محمد عبده عام 1903م.

¹ - حنفي بن عيسى: تأثير جمال الدين الأفغاني على الفكر الجزائري المعاصر، مجلة الثقافة، ع.38، ماي 1977، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، صص 113-114.

² - أحمد حماني: "دور الأفغاني في يقظة الشرق ونهضة المسلمين"، مجلة الثقافة، ع.38، ماي 1977، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر، صص 99.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

ومما لا شكّ فيه أنّ الصحافة المشرقية، ولا سيما المصرية منها قد قدّمت بين أيدي رواد الإصلاح الجزائريين من أمثال 'محمد بن مصطفى بن الخوجة' و 'عبد الحليم بن سماية' و 'عبد القادر المجاوي' نموذجًا حيًا راحوا ينسجون على منواله؛ فصلة هؤلاء الكتاب بالصحف الشرقية كانت وثيقة، وقد عبّروا عن إحساسهم تجاه 'المنار' للشيخ 'محمد عبده' يوم زار الجزائر قائلين: إنّنا نعدّه (المنار) مدد الحياة لنا، فإذا انقطع انقطعت الحياة¹.

وظهر هذا التأثير المشرقي على وجهات نظر العلماء بخصوص قضايا المرأة، فقد تبوّأ وجهه النظر الإصلاحية المصرية التي كان يمثّلها 'محمد عبده' ثم 'رشيد رضا'، بخصوص المساواة بين الجنسين، والدليل علة ذلك هو نقل 'الشهاب' عن 'المنار'، فصول المناظرة التي جرت الشيخ 'رشيد رضا' و 'محمود عزمي' بكلية الحقوق - جامعة القاهرة -، بكلّ تفاصيلها معلّقة على ذلك: "وقعت هذه المناظرة بالصفة المبيّنة في المقالة الأولى من المقالات الآتية، فكان لها تأثير عظيم في جميع الطبقات المصرية في العاصمة وسائر البلاد"².

ونجد جريدة 'الشّهاب' الباديسية، تنشر سلسلة مقالات 'المنار' التي عالج فيها الشيخ 'رشيد رضا' جميع أوجه المسألة النسوية³، وتستعيد الحجج التي عرضها خلال محاضرة مشفوعة بالمناقشة التي جرت يوم 8 جانفي 1930م، بجامعة القاهرة بين محمود عزمي المدافع عن وجهة النظر النسوية، و رشيد رضا المدافع عن وجهة النظر السّنية⁴، هذه المناظرة بين الرجلين، نشرتها 'الشّهاب' كلّ تفاصيلها على عدّة حلقات نقلًا عن 'المنار'⁵.

¹ - محمد بن صالح ناصر، المرجع السابق، ص ص 9-10.

² - محمد رشيد رضا: "مناظرة في مساواة الرجل للمرأة في الحقوق والواجبات"، الشّهاب، ج.7، صفر 1349هـ.

³ - الشّهاب، جويلية 1930.

⁴ - علي مراد، المرجع السابق، ص ص 393-394.

⁵ - محمد رشيد رضا، المقال السابق.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

كما نشرت عدّة مقالات لكتّاب آخرين كتبوا حول المرأة المسلمة وهضتها بجريدة 'المنار'، عبّروا من خلالها عن حذرهم وتشاؤمهم بخصوص النهضة النسائية في مصر¹.

يبدو أنّ الإصلاحيين سعوا لإقناع المسلمين بعدم جدوى التدابير التحرّرية للمرأة؛ نظراً لرداءة الظروف الأخلاقية والفكرية الخاصة بالبلدان الإسلامية، ولكي يحصل السعي الجادّ لصالح التحرّر المستقبلي للمرأة المسلمة، يكفي في نظرهم العمل على نشر التربية والتعليم بين المسلمين. فالتحرر يكون على أساس عقيدتنا وشخصيّتنا الوطنية، إنّها الخلاصة نفسها التي بلغها 'ابن باديس' في 'الشّهاب'، كان قد بلغها 'رشيد رضا' في 'المنار'، التحرّر لا يعتدّ فيه عند الرجلين إلاّ بالوجه الثقافي من القضية؛ لذلك دعا الرجلان إلى نشر التعليم وسط الشّباب دون تمييز بين الجنسين².

لقد استمرّ التأثير المشرقي على دعاة إصلاح المرأة في الجزائر من العلماء إلى عقد الخمسينيات من القرن العشرين، وأثر في مواقفهم في القضايا التي تتعلّق بالمرأة، نجد ذلك مثلاً في خطاب الشيخ 'زمّوشي' أحد رجال جمعية العلماء؛ أمام جمع من النساء (حوالي 30 امرأة) بمستغانم، حيث دعاهنّ إلى الاهتمام بالحياة الاجتماعية والسياسية للجزائر، كما هو الحال مع النساء المصريات، التونسيات والمغربيات، مع أنّ الرّجل لم يتخلّ كذلك عن المنهج الباديسي حين خاطب هؤلاء النسوة عبر مكبّر الصوت من خلف ستار³.

نقول هذا الكلام؛ لنبيّن أنّ الجزائر كانت عرضة لموجات من الأفكار القادمة من المشرق ومن الغرب، وكما هو الحال على انبهار المتفرنسين بالحضارة الغربية، فالإصلاحيون تأثروا أيضاً بالأفكار المشرقية، وقد يكون لها على مواقفهم بخصوص قضية 'تحرير المرأة' في الجزائر.

¹ - أحمد جميل الراجعي: "المرأة المسلمة وهضتها الحاضرة"، الشّهاب، ع.170، السنة الرابعة.

² - أنظر: الشّهاب، ماي 1939.

³ - ANOM, 81 F 1218: Rapport du GGA: Ouléma-Mostaganem, 29 février 1952.

3-2- تذبذب الموقف الإصلاحى فى قضية تحرير المرأة الجزائرية:

لابد أن ننتقل مما ذكرناه آنفاً بخصوص التأثير القادم من المشرق على دعاة إصلاح المرأة فى جزائر القرن العشرين، فمن جهة نجدهم يتبنون أفكار 'جمال الدين الأفغانى' والشيخ 'رشيد رضا' وبصفة خاصة فتاوى الشيخ 'محمد عبده' التى كانت تنسجم غالباً مع ما طرحه 'قاسم أمين' فى مصر، ومن جهة أخرى وجدناهم ينددون ويستنكرون كتاب 'الطاهر الحداد' فى بداية ثلاثينات القرن العشرين بتونس؛ هل لخصوصية التجربة التونسية فى تحرير المرأة، أم أن العلماء فى الجزائر أخذوا بعين الاعتبار المعطيات فى تونس المشابهة للواقع الجزائرى، من حيث طبيعة الاستعمار المشتركة وسياسته فى البلدين.

يرى 'على مراد' أن المواقف الإصلاحية إزاء 'مسألة تحرير المرأة المسلمة' كانت محافظةً ودفاعية فى الوقت نفسه، فبدل إسهام رجال الإصلاح فى تحسين الوضع الاجتماعى للمرأة، سخروا جهودهم لمحاربة التيار التحديثى، الذى اتهموه بالسعى إلى جعل المجتمع المسلم يتبنى السلوكيات الأوروبية، وزرع بذور الانحلال الأخلاقى فى صلبه، ومن ثمّ القضاء على الطابع الإسلامى للمجتمع الجزائرى. فالدعاية الإصلاحية كانت ترمى إلى حماية المميزات الأخلاقية والثقافية التى تعبر عن الأصالة الإسلامية؛ ولذلك أشهرَ الإصلاحيون بانتظام تهديد مسخ الشخصية (العربية الإسلامية) عن طريق الفرنسة والتقييد بالسلوكيات الغربية... إلخ¹.

يحدّر الشيخ 'محمد البشير الإبراهيمى' الشباب الجزائرى المسلم من الزواج من المرأة الفرنسية (الزواج المختلط): "... فحذار أن يكون شبابنا فرائس هذا الاستعمار الضعيف القوى"². وأسدى تعليمات إلى قادة جمعية العلماء فى الداخل عقب اندلاع الثورة

¹ - على مراد، المرجع السابق، ص398.

² - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمى...، ج.3، مصدر سابق، ص296.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

التحريرية بضرورة استقطاب البنات لمدارس الجمعية و للجمعيات الرياضية؛ بغرض تكوينهنّ السياسي؛ لأنّ المرأة تمثّل النصف الآخر للرجل، والنساء أثبتنّ في طرابلس والمغرب وتونس، كيف يمكنهنّ أن يساعدن الرجال في معركة الكفاح¹.

خالفت آراء العلماء حول موضوع السّفور والحجاب، دعاة تحرّر المرأة 'المتفرنسين'، خالفتهم في الشّكل وليس في الجوهر؛ فهي تُعارض السّفور كعلامة (رمز) للتحرّر، وترى بأنّ التعليم، والتعليم الوطني والديني على الخصوص، هو المدخل الأوّل لتحرّر المرأة، وأنّ الحجاب لا يقف عائقاً أمام تطوّرها. وفي الواقع أنّ الحركة الإصلاحية، كانت حذرةً تجاه الدعوة إلى 'تحرّر المرأة الجزائرية' التي انطلقت من الفئات المتفرنسة، والتي كانت تتجاهل بحكم موقعها السياسي والاجتماعي، التراث الديني والقومي للمرأة العربية في الجزائر؛ فدعوة المتفرنسين كانت تشدّد على تبني طريقة الحياة الأوربية².

يمكننا أن نقف عند الحدود التي رسمها 'العمودي' (وهو صاحب التعليم الفرنسي والثقافة المزدوجة) في دعوته لتحرير المرأة وهي: أنّ حرية المرأة لا تعني البتّة تقليد المرأة الأوربية، كما يذهب المتفرنجون، إنّ حرية تعليم المرأة وتربيتها، يجب أن تخضع إلى ضوابط الشّرع والأخلاق والحياة العامة، وبتعبير موجز: المرأة ربّة بيت متعلّمة³. وهو الرأى نفسه الذي كان يراه رائد الإصلاح 'عبد الحميد ابن باديس'؛ فالعمودي لم يجد في هذا الموضوع عن موقف رائد الإصلاح الأوّل قيد أنملة.

أما الشيخ 'محمد البشير الإبراهيمي' فكان يرى أنّ المرأة حرّرها الإسلام حينما حرّر العقل قبل أن يفكّر الغرب في تحريرها، ففي محاضرة له بعنوان 'الرقّ في الإسلام' كتب: "حرّر الإسلام المرأة من ظلم الرّجال وتحكّمهم، فقد كانت المرأة في العالم كلّ في

¹- ANOM, 91 1K 1170: Préfecture d'Alger: Association des Oulama réformistes, 31 Décembre 1954.

²- أحمد الخطيب، المرجع السابق، ص232. أنظر أيضا: علي مراد، المرجع السابق، ص316.

³- نور الدين ثنيو، المرجع السابق، ص109.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

متزلة بين الحيوانية والإنسانية؛ بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكّم فيها أهواء الرجال وتتصرّف فيها الاعتبارات العادية المجرّدة من العقل، فهي حيناً متاع يُتخطّف، وهي تارة كرة تتلقّف، تعتبر أداة للنسل أو مطيّة للشّهوات"¹.

لقد مثّلت قضية 'تحرير المرأة' إحدى القضايا التي شغلت رجال جمعية العلماء إلى ما بعد اندلاع الثورة التحريرية عام 1954م، وقد كانت هذه المسألة محور خطبة الجمعة التي ألقاها مدير مدرسة 'الإرشاد' بالبليدة عام 1957م، فقال: "عليكم بتعليمها إلى الحدّ الذي يسمح لها بمعرفة حقوقها حتى تعرف كيف تؤدي واجباتها (...). أعطوا للمرأة حقوقها الشرعية (المادية والاجتماعية)، وهذا لا يتأتى إلى بترية وتحرير المرأة"².

وتحدّث تقرير فرنسي عن الحضور الكثيف للنساء في كلّ الاحتفالات التي تقيمها الجمعية، وربّات البيوت الحريصات على التعليم القرآني لأبنائهنّ، وهنّ الراعيات الشرسات للأسرة والتقاليد الإسلامية. وبالمقابل فالنساء الجزائريات اللواتي احتككن بالثقافة الأوروبية وتخلّين عن الحجاب لا يعدن لارتدائه أبداً؛ لذلك يجب مواجهة الدعاية الإصلاحية لجمعية العلماء؛ بتعليم الفتيات المسلمات تعليماً متقدّماً، ومواجهة نشاط العلماء في هذا المجال بسرعة، لتحقيق الاندماج الحقيقي وحلّ المشكلة من جذورها، ولهذا الغرض يجب تسخير الدعاية له عن طريق الكتاب والصورة والمذياع (الراديو) والسينما"³.

3-3- الانشطار بين النخبة التقليدية ودعاة تحرير المرأة الجزائرية:

لقد عملت النخبة المحافظة على المحافظة على علاقة الودّ التي تربطها بإدارة الاحتلال الفرنسي بالجزائر؛ لذلك لم تكن مواقفها بتلك الحدة تجاه الخطاب الفرنسي

¹ - آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، المصدر السابق، ص360.

² - ANOM, 91 1K 1170: P.R.G Blida: l'émancipation de la femme musulmane, 27 Mai 1957.

³ - ANOM, GGA 8 X 393: Note au sujet de l'association des ouléma, Alger 04 Octobre 1954.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

الرسمي وغير الرسمي حول المسائل التي تخصّ حال ووضع المرأة الجزائرية، سيما بعد أن ساءت علاقتها بالنخبة الإصلاحية (العلماء)، عقب خلافها الشهير مع رجال 'جمعية العلماء'، وهكذا غير المحافظون آراءهم تدريجياً، ومالوا في اتجاه التملق للاحتلال ومهاجمة العلماء منذ سنة 1931م، وكانت قضايا المجتمع الجزائري إحدى مداخل هذا الهجوم الذي عبّر عن حالة الانشطار التي حدثت كذلك بين النخب العربية في الجزائر، والتي كان جوهرها سياسي وظهرها قضايا اجتماعية ودينية بالدرجة الأولى.

نقرأ في افتتاحية 'النجاح' تعليقاً مطوّلاً يتّهم العلماء بنشر الفساد بين الشباب، حيث أعادت الجريدة نشر مقال صادر بمجلة 'الشهاب' لسان حال جمعية العلماء، والذي يطرح قضية الشباب المسلمون والزواج¹. وتعود الجريدة و تطرح موضوع 'استئذان المخطوبة'، حيث تمّاجم الشيخ 'عبد الحميد ابن باديس' متهمّة إياه بعدم معرفة الدين الصحيح في هذه المسألة، وعدم أخذه بنواميس الحياة وحقيقة الاجتماع من خلال حديث النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في هذه المسألة².

ووصل النجاح تعليقا مطوّلاً على محاضرة كان قد ألقاها الشيخ 'أبو يعلى الزواوي' حول المرأة المسلمة، وحول مسألة الحجاب والسّفور، ومن بين ما قاله صاحبه: "إنّ فكرة تحرير المرأة المسلمة ليست من تعاليم الإسلام في شيء، ولم نسمع لها في تاريخ الإسلام ذكراً، إلى أن أصبحنا كما قال الأستاذ 'محمد فريد وجدي' نندفع وراء المدنية الأروباوية (كذا) بغير حساب، بحكم قانون التقليد الذي هو بعض ما تُمنى به الأمم الضعيفة المغلوب على أمرها حيال الأمم حيال الأمم القوية، فقد أصبح لدينا شيء يُقال له

¹ - عبد الحفيظ الهاشمي: "الزواج بالفيانصاي: مجلة رئيس العلماء تنشر الدعاية بين الشباب"، النجاح، ع. 1840، 25 محرم 1355هـ/17 أبريل 1936، ص2.

² - عبد الخبير الخولي: "علامة الرضا: هذا هو الدين الصحيح يا -عبد الحميد-"، النجاح، ع. 1841، 27 محرم 1355هـ/19 أبريل 1936، ص2.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

مسألة المرأة! (...). أجل إن الإسلام أعلن حرية المرأة وحوّنها كلّ حقوق الرجل، و لكن رسم لها خطة فلا تتعداها حفظا لناموس الأخلاق"¹.

ونقلت النجاح مقالا عن جريدة (écho de Tlemcen) للشيخ 'دلي يحي محمد' المدرّس بمدرسة ترشيح المعلمين بتونس، وكان يعتقد أنّ 'تحرير المرأة' يكون عن طريق تعليمها كتب: "فيجب قبل العمل لتحرير المرأة التحرير الذي نفهمه ونُريده، أن نعلّمها قبل كلّ شيء لتفكّر تفكيرا صحيحا وترى صوابا، ولنريها واجباتها وحقوقها، وباختصار نصيّرُها إنسانا، وعندما تصير شاعرة بوظيفتها في هذا المجتمع وعالمة بشرفها (كذا) إذ ذاك يمكننا بسهولة أن نحررها، وتُظهر للرجل أنّها قادرة وأهل لأن تساويه. لكن إذا كان الشبان المتنوّرون متّفقون على أن لا رقي لأمة إلا بتعليم المرأة وتحريرها فإنّ هذه الفكرة ليست عامة في بقية الأصقاع الإسلامية، فإنّ الأغلبية الساحقة تعارض في تعليم المرأة"².

وفي مليانة ألقى السيد 'بوزار' (الترجمان الشرعي) محاضرة موضوعها المرأة المسلمة، تحت إشراف جمعية التعليم، التي يرأسها السيد 'م. دارافار'، " وكان عدد النساء أكثر من عدد الرجال، وقد شكر المحاضر فرنسا عن سياستها تجاه المسلمين وانتشار اللغة الفرنسية في أوساطهم، كما تناول التاريخ النسائي في تلمسان والجزائر، وشكر سكّان القرى لاعتنائهم بنسائهم، وأعلن أنّ تعليم المرأة أصبح اليوم أمرا مقدّسا، ورغب من الحاضرات الفرنسيات أن يمدّدن يد المساعدة لأخواتهنّ المسلمات؛ لعلّهن يخرجنها من بئر الجهل"³.

¹ - يحي رشدي: "المرأة المسلمة الجزائرية: تعليق على محاضرة"، النجاح، ع.780، الجمعة 30 أوت 1929. صاحب المقال هو من عائلة 'حشلاف' ووالده كان قاضيا، دخل امتحان الوكلاء الشرعيين عام 1920م، وكان الأول من اثني عشر فائزا. أنظر: النجاح، العدد نفسه.

² - دلي يحي محمد: "رقي العالم الإسلامي بتعليم المرأة"، النجاح، ع.500، الأربعاء 5 أكتوبر 1927.

³ - "المرأة المسلمة"، النجاح، ع.923، الأحد 27 أبريل 1930، ص.3.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

وفي ردّها على دعاة التجديد والانفتاح؛ تنقل 'النجاح' مقالا بعنوان: 'رأي في المرأة المسلمة'؛ ترجمته 'مجلة الذخائر' عن جريدة 'الاسيري' (La série) الفرنسية صدر بتاريخ 4 سبتمبر 1928م، وفيه موقف امرأة فرنسية قالت فيه: "لم يستلقت نظري شيء أكثر من المرأة المسلمة بترع حجابها واقتحام المصائب في مشاطرتها الرجل أعماله، فإذا لم تكن الغاية في ذلك مشاركة الرجل في العمل؛ فأى فائدة إذن من سفورها وتبرّجها في الساحات العمومية، وجعلها ضحية لسافلي الأخلاق؟ أرى أنّه لم يكن الوقت الذي يجرّم على المرأة المسلمة أن ترفض الحجاب وترفض معه مبدأ تقسيم الأعمال بين الرجل والمرأة، والبرهان على ذلك هو أنّ المحيط الاقتصادي والصناعي ليس بحاجة ماسة لمساعدة المرأة المسلمة للرجل... والخلاصة أنني أعتقد أنّه من الخطأ الفادح دفع المرأة إلى السفور"¹.

وبالتسبب للنخبة المحافظة فإنّ التأثير المشرقي على دعاة تحرير المرأة واضح، وهو سبب الأفكار التي صاروا ينادون بها: "إنّ فكرة تحرير المرأة المسلمة من القيود القديمة- على زعمهم- قد اختمرت في عقول بعض النشء الحديث منذ تأليف كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، الذي كان داعية فوضى وتدمير لأخلاق، ومما زاد الطين بلة عبث الكمالين بأحكام الشريعة، فانتشرت هذه الفكرة في الشرق إلى أن وصل صداها إلينا، (...). أقول والدين نصيرنا إنّ تحرير المرأة ليس هو سوى الإحسان إليها في المعاشرة، وأخذها بصادق التربية وتعليمها علما صحيح"².

لقد تحوّلت 'قضية المرأة' إلى سجال بين العلماء الإصلاحيين ونظرائهم المحافظين، نقرأ ردّاً للشيخ 'أبو يعلى الزواوي' على مقالين لأحد المحافظين هو 'يحيى بن محمد الدراجي': "إنّ مسألة الحجاب والسفور مفروغ منها عند إخواننا في مصر والشام والترك تناولوها منذ تأليف كتاب 'تحرير المرأة' للمرحوم قاسم أمين بك منذ نحو ستة وعشرون

¹ - الإقبال: "امرأة إفريقية تسخر من السفوريين"، النجاح، ع.768، الاثنين 29 جويلية 1929.

² - يحيى رشدي: "المرأة المسلمة الجزائرية: تعليق على محاضرة"، النجاح، ع.781، الاثنين 02 سبتمبر 1929.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

سنة، فلا أتعب نفسي، و لا الشيخ الدراجي يتعب نفسه فإنها مفروغ منها والعادة غلبت حججي وحججه فليرتح وأرتاح معه"¹، وكأنّ الزواوي يقول أنّ المسألة منتهية بالنسبة لعلماء المسلمين وفقهائها في ذلك العصر أو أنّ باب الاجتهاد والأخذ والردّ قد أغلق منذ كتاب قاسم أمين المذكور، ونحن نعلم أنّ عقدي العشرينات والثلاثينات من القرن العشرين عرفا بعث النقاش حول مسائل المرأة المسلمة ومنها مسألة الحجاب من طرف كتاب فرنسا ومفكرها ودعاة 'تحرير المرأة' في الجزائر المستعمرة.

وفي سياق هجوم المحافظين على العلماء؛ نقلت 'النجاح' عن 'البلاغ' نبأ الاختلاط بين الجنسين في الدروس في إحدى المدن الكبيرة؛ حيث هناك من يجمع بين الرجال والنساء في حلقة الدرس، وقد عبّر صاحب المقال عن دهشته وحيرته من هذا الواقع "لأنّ الدروس وخاصة الدروس الدينية تقتضي أنّ من توفّرت فيه أهلية الدراسة في الدين، أن لا يقدم على هذه الرذيلة والفعلة القبيحة وسنة الجوس الذين يجوزون نكاح المحارم كالبنات والأخوات والأمّهات، وهم طائفة لا دين لهم، إنّما هم يختلطون كاختلاط البهائم أو أشدّ، على أنّ الحيوانات فيهم من تأخذ الغيرة على أئنا... ومع ذلك فلا غرابة؛ فإنّ الجهل والإعراض وحبّ الذات والتظاهر بمظهر الدين والصلاح والإصلاح، تفعل (؟) بصاحبها أعظم وأكثر من ذلك..."، واستطرد صاحب المقال في استهجان هذا الفعل، واعتبره جناية على الدّين وعلى العلم والعلماء وعلى الطّهر ومكارم الأخلاق². وعاد صاحب المقال في عدد آخر للموضوع، وواصل فيه هجومه على 'بدعة الاختلاط'¹.

¹ - الزواوي: "المرأة المسلمة والحجاب: تعليق جملة"، النجاح، ع. 269، الثلاثاء 2 فيفري 1926م.

² - المولود بن الصديق الحافظي: "بدعة اختلاط النساء بالرجال في الدروس"، النجاح، ع. 1698، الأربعاء 22 محرم 1354هـ/26 أفريل 1935، ص3.

من الواضح أنّ المقصود هو الشيخ 'عبد الحميد ابن باديس' ودروسه في مدينة قسنطينة، ونحن نعلم أنّ هذه الجريدة وغيرها دأبت على مهاجمة العلماء؛ سيما بعد انشقاق جمعية علماء السنة عن جمعية العلماء المسلمين =

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

مع ذلك لم يكن العلماء ولا المحافظين وحدهم من استشعر خطورة الخطاب المتفرنس بخصوص 'قضية تحرير المرأة' وتأثيره على المجتمع الجزائري ومستقبله، حيث تذكر مراسلة فرنسية أنّ نشطاء من حزب الشعب-حركة انتصار الحريات الديمقراطية بمنطقة معسكر؛ طلبوا من جمعية العلماء والإصلاحيين إصدار فتوى تدين الزواج المختلط، واعتبروا الزواج بين المسلمين والأوروبيات يناقض التربية الإسلامية للطفل، وأبدوا تخوّفهم بأن يقود ذلك الاندماج على المدى الطويل².

لقد عبّرت مواقف النخبة العربية باتجاهيها المحافظ والإصلاحي عن حالة الانشطار الذي كانت تعيش في ظلّه؛ في قضايا المرأة وغيرها من القضايا التي تخصّ المجتمع الجزائري، هذا الانشطار الذي تعمّق بعد الخلاف الشهير بين الطرفين سنة 1932م ليتحوّل إلى صراع، تجلّت فصوله على صفحات الجرائد، وكتابات كل طرف الناقدة بشكل لاذع لموقف الطرف الآخر في قضايا المرأة وغيرها من القضايا المطروحة آنذاك.

* خلاصات الفصل السادس:

تكاد النخبة الجزائرية إصلاحية معرّبة و متفرنسة؛ تتفق على تدني وضع المرأة في الجزائر، لكنها تختلف في تشخيص مسبباته، كما تختلف أيضا في مناهج وسبل الإصلاح للرقىّ بها، فالنخب العربية الإصلاحية رأت في تعليم البنات أصول الشريعة ومبادئ اللغة العربية؛ مُبتدأ كل إصلاح للمرأة وصالح للمجتمع، بينما دعا المتفرنسون إلى نبذ العادات والتقاليد البالية، وإلى تعليم البنات 'الأهليات' تعليماً فرنسياً، ودمجهن في الحضارة الغربية.

=الجزائريين، وهي تدخل في سياق الحملة الشعواء التي شنتها الإدارة الفرنسية وأعوانها ضد التعليم العربي الحرّ، وضد نشاط العلماء المصلحين ي قسنطينة والجزائر بأكملها.

¹ - المولود بن الصديق الحافظي: "بدعة اختلاط النساء بالرجال في الدروس"، النجاح، ع.1699، الجمعة 28 أفريل 1935، ص3.

² - ANOM, GGA 40 G 100: PRG: Activité du P.P.A.-M.T.L.D, 7 Avril 1954.

الفصل السادس 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية

بالنسبة للمتفرنسين؛ لم ولن يتمّ 'تحرير المرأة الأهلية' إلا عن طريق المدرسة الفرنسية، والمعلّمة الأوربية وحدها ستكون قادرة لا محالة على الرفع من مستوى البنت والمرأة الجزائرية، والرقّيّ بها في مصاف الحضارة الغربية؛ بما تحمله من قيم ومبادئ سامية، ستخرج بالمرأة المسلمة في الجزائر من براثن التخلف والجهل والانغلاق.

كان لمنابع العلماء الجزائريين الفكرية المشرقية، ورحلاتهم إلى بلاد مصر والشام والحجاز؛ تأثيرها المباشر على مواقفهم المتعلقة بقضايا المرأة في الجزائر، وقد استمدوا الكثير من الأفكار الإصلاحية من مصلحي الشرق، كجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، لكن طروحاتهم في مسائل المرأة أخذت بعين الاعتبار ظروف المجتمع الجزائري في ظلّ الاحتلال الفرنسي، كما أخذوا بأسباب الحداثة والعصرنة ضمن خططهم الإصلاحي.

تحوّل موقف النخبة التقليدية (المحافظة) من الدعوة إلى تعليم البنات، وانتقاد سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر المستعمرة؛ إلى توجيه سهام نقدهم إلى العلماء وأتباعهم بالتسبب في تمييع المجتمع وفساد أخلاق البنات؛ بسبب فتح أبواب التعليم المختلط بين الجنسين. ويُفسّر موقفهم هذا بالخلاف الذي حدث بين الطرفين مطلع عقد الثلاثينيات، وهذا ما جعلهم يرمون في أحضان الإدارة الفرنسية، ويتبنّون خطاباً موالياً للاحتلال، تجسّد في مديحهم لكلّ الأعمال الفرنسية التي قامت بها لصالح المرأة 'الأهلية'.

خاتمة

انطلقنا في دراستنا لـ"قضية 'تحرير المرأة الأهلية' بين الخطاب التاريخي الفرنسي ومواقف النخبة الجزائر 1919-1954م"، من قناعة مفادها أنّ هذه القضية ما كانت لتُطرح في الجزائر المُستعمرة بتلك الصورة ولا بذلك الشّكل؛ لولا السياسة الاستعمارية الفرنسية التي أدّت إلى حالة من التردّي العام، الذي شمل جميع المستويات الحياتية لغالبية السّكان الجزائريين، وجعلت مكانة عموم الجزائريين تنحدر إلى الحضيض؛ فكرياً وثقافياً وحضارياً واجتماعياً واقتصادياً، ويرزح لعقود طويلة تحت وطأة الجهل والفقر والتخلف.

إنّ الباحث في هذا الموضوع يلمس جملة من التناقضات في الخطاب الكولونيالي تجاه المرأة المسلمة في الجزائر، وهو خطاب غامض ميزته الجدل العقيم؛ غير واضح المعالم ولا الأهداف، ولم يُرسم له خطّ واحد، لا سيما في ظلّ الفشل الذريع الذي مُنيت به سياسة التّجنيس، التي اقتصرت على فئة صغيرة من الجزائريين، وبالتالي لم تستطع تحقيق الانصهار المنشود بين السّكان الأصليين والحالية الأوربية المستوطنة في الجزائر. كما أنّ هذا الخطاب بقي يتراوح بين سعيه لجعل المرأة أداة لاختراق المجتمع 'المحلّي'، وبين إهمال تعليمها وتمدينها، واقتصاره على استغلالها اقتصادياً، ومحاولة غزوها دينياً.

لقد صوّرت أغلب الكتابات الكولونiale؛ المرأة الجزائرية على أنّها تلك المخلوقة المحرومة من ضوء الشمس، والمنعزلة داخل 'عالم الحرّيم' الضيق والمغري في الوقت نفسه؛ الضّعيفة التي لا حول ولا إرادة لها، الخاضعة خضوعاً مطلقاً لسلطة ذكورية متوارثة أب عن جدّ، تعيش في ظلّ البؤس والشقاء والتخلف والانغلاق على الذات. هذا الحكم المُطلق في عمومها، دأبت على ترديده الكتابات التاريخية الفرنسية؛ وحتى الجزائرية، رغم أنّ وضع المرأة في الجزائر المُستعمرة؛ ارتبط غالباً بمكانتها داخل الأسرة، وذهنية بيتها ومحيطها الاجتماعي، فلم تكن كلّ النساء الجزائريات يعشن في الحضيض كما ادّعت هذه الكتابات، بل هناك من كانت لهنّ أدواراً اجتماعية وثقافية-دينية وحتى سياسية هامة.

كان الخطاب الفرنسي تجاه المرأة 'الأهلية' في الجزائري نظرياً لا يستند على الواقع، ولم يراع خصوصيات المرأة المسلمة وخلفيتها الثقافية والدينية، فعجز عن ترجمة مضامينه النظرية إلى مشاريع إصلاحية ترفع من مستوى المرأة الجزائرية. فالسياسة التعليمية الفرنسية بقيت مُرتبكة، ولم توضع خطة جادة لتربية ولتعليم البنات في الجزائر. لقد تُركت شريحة واسعة من الجزائريات؛ يُمثلن نصف المجتمع 'الأهلي'؛ مغيبات عن الواقع، بين منظومة الاستعمار، بما تحمله من قوانين تعسفية وسياسة قمعية، وبين عادات وأعراف المجتمع الجزائري بما شأها من انحرافات عن تعاليم الشرع الإسلامي.

مع مرور سنوات الاحتلال؛ أدركت فئة من النخب الفرنسية المثقفة أن 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر؛ لم ولن يتم دون تغيير الذهنيات السائدة في المجتمع، بما في ذلك ذهنية النساء أنفسهن، فدعا بعض المنظرين الفرنسيين إلى ضرورة تفكيك المجتمع 'الأهلي' الرجعي؛ الخاضع لأساليب التفكير التقليدية، والذي يحتكم إلى الدين وما امتزج به من عادات وتقاليد بالية وأعراف متوارثة جيل عن جيل، وإعادة بنائه على أسس الحضارة الغربية، وتهيئته لتقبل أفكار الجديدة.

لكن هذا التوجّه ضمن الخطاب التاريخي الفرنسي حول المرأة 'الأهلية' في الجزائر؛ لقي المصير نفسه الذي لقيته كل المشاريع السياسية التي طُرحت من قبل بعض السياسيين الذين مرّوا على الجزائر، من المتعاطفين مع الأهالي (Les indigénophiles)، وكان مصيرها جميعاً الفشل الذريع أمام تعنت المستوطنين. ورغم بقاء الاحتلال الفرنسي لعقود طويلة من الزمن؛ إلا أنه فشل في إيجاد 'امرأة جزائرية جديدة'؛ مُنبهرة بنظيرتها المرأة

خاتمة.....

الأوربية. إذ أنّ التحرّر الحقيقي للمرأة 'الأهلية' ما كان ليتمّ إلا بتحرّر الثقافة الجمعية، وهذا لا يتمّ بجرة قلم مع بقائها (هذه الثقافة) مستقرّة في الوعي الجمعي والشعور العميق¹.

ومن المفارقات؛ أنّ الخطاب التاريخي الفرنسي تجاه المرأة الجزائرية 'الأهلية' سيما في شقّه القانوني والتشريعي، كان يدعو إلى اعتماد القانون المدني النابليوني لعام 1804م ليحلّ محلّ القانون الإسلامي، وإلى 'تحرير المرأة الأهلية' ضمن أطر هذا التشريع، وجعلها ترتقي في مصاف الحضارة الغربية اللاتينية، وتحرّر من ظلم المجتمع الذكوري والعادات والأعراف المجتمعية، لقد حاول هؤلاء فرض أطروحتهم في بيئة مليئة بالتناقضات بين اللاتينية والتدين، هذا الوضع كان محلّ انتقاد حتى من النساء الفرنسيات الناشطات ضمن الحركة النسوية الفرنسية؛ لأنّه لم يستطع أن يحقق للمرأة الفرنسية مطالبها وتطلّعاتها، وتركها لعقود من الزمن تحت سلطة الرجل؛ مقيدة في تصرفاتها وفي حرّيتها الشخصية.

لقد حاول المشرّع الفرنسي فرض التشريعات الفرنسية في مجال الأحوال الشخصية؛ دون الأخذ بعين الاعتبار الأعراف والعادات المتجذّرة، ولا الذهنيات السائدة في المجتمع، والتي صارت تحكم حياة الفرد الجزائري، فسعى الفرنسيون لإحلال المنظومة الأخلاقية والقانونية الغربية محلّ الثقافة العربية الإسلامية السائدة في الجزائر.

ولم يقتصر امتهان المرأة الجزائرية على السياسيين ورجال القانون؛ بل إنّ نظرة الاحتقار التي أبدتها بعض المثقفين الفرنسيين تجاه المرأة الجزائرية بشكل عام، والمرأة الريفية (البدوية) بشكل خاص، عكست الروح العنصرية تجاه البدو المتخلفين؛ غير القابلين للتطور، واندرجت ضمن توجّه لدى المدرسة الكولونيالية؛ غداه بعض المؤرخين

¹ - يُنظر: محمد الحداد: البركان الهائل في آليات الاجتهاد الإصلاحي وحدوده، دار مرايا الحدائة، (د.م)، 2006، ص.ص 99-100 (بتصرّف).

خاتمة.....

والمستشرقين من أمثال 'إميل فيليكس غوتبي'؛ الذين يتّهمون 'الأهالي' بأنهم عديمون¹. وهكذا فقد اتّسم خطاب شريحة من المثقّفين الفرنسيين بالتمييز العنصري، ونظرة الازدراء تجاه المرأة المسلمة، حيث ميّزوا بين المرأة الحضرية والبدوية، ورسموا صورة سوداوية عنها.

إنّ المسؤولين السياسيين الفرنسيين؛ لم يوفّروا الظروف الملائمة والأرضية الخصبة لتحرير المرأة 'الأهلية' في الجزائر، لا من حيث الاهتمام بتعليم البنات، ولا بتحسين المستوى المعيشي لمجموع السّكان الجزائريين، وهكذا بقيت المقترحات التي قدّمتها في بداية الاحتلال المعلّمة 'أليكس' بالغزو عن طريق النساء حبراً على ورق، ولم تجد نداءات رائدات 'تحرير النساء المسلمات' كـ 'هيرتين أوكلير' و 'ماري بوجيجا'... ولا مشاريع الإصلاح التي قدّمها 'موريس فيوليت' وغيره؛ صداها أمام الآذان الصمّاء لقادة الاحتلال الفرنسي، سيما بعد سيطرة المستوطنين على مقاليد إدارة شؤون الجزائر المستعمرة.

لقد تحول الخطاب الكولونيالي بخصوص 'تحرير المرأة الأهلية' منذ العقد الثالث في القرن العشرين؛ من نظرتة إلى المرأة (المسلمة) على أنّها 'شيء' أو 'وسيلة' (Un Objet) إلى كونها موضوع (Un Sujet)، وتطوّر الخطاب الرّسمي بعد الحرب العالمية الثانية إلى إقرار بعض الحقوق السياسية للنساء 'المسلمات' ضمن دستور 1947م، علماً أنّ هذه التشريعات وغيرها؛ لم تجد طريقها للتنفيذ شكلياً إلاّ عام 1958م، كما اتّسم هذا الخطاب بالمركزية؛ كونه صار كان يصدر عن الحكومة العامة في الجزائر.

إنّ قضية 'تحرير المرأة' في الجزائر المستعمرة قد طُرحت في أغلب الأوقات من طرف رجال، وإذا كان حضور بعض النساء من جانب الخطاب الفرنسي يبدو لافتاً خاصة في فترة الثلاثينيات الذي تصدرته الكاتبة 'ماري بوجيجا'، فإنّ أدبيات وخطاب النخبة الجزائرية المعرّبة والمتفرنسة؛ يعجّ بالآراء الذكورية في المسألة منذ نهاية القرن التاسع

¹ - يُنظر: محمد الشريف ساحلي: تخلص التاريخ من الاستعمار، تر. محمد الشريف بن دالي حسين؛ محمد هناد، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، (د.ن)، الجزائر، (د.ت)، ص53.

عشر إلى منتصف القرن العشرين، وقد كان للنخبة الإصلاحية بجيلها الأول والثاني بقيادة الشيخ عبد الحميد ابن باديس؛ النصيب الأكبر من هذا الخطاب، مُستغلةً مدارس التعليم العربي الحرّ، والصحافة والوعظ في المساجد والنوادي؛ لتمرير الرسائل الإصلاحية التي تُعنى بتربية المرأة وإصلاح شؤون الأسرة الجزائرية المسلمة، بينما ظهر موقف النخبة المتفرنسة عن طريق كتاباتها الصحفية في: 'صوت الأهالي' و 'صوت المستضعفين' (الصوت الحر فيما بعد)، كما استغلّت النخبة المحافظة صحافتها: 'البلاغ' و 'النجاح'؛ للدفاع عن أطروحتها الداعية إلى تعليم البنات، والتنديد بالتبرّج وفساد الأخلاق، بينما مثلّ النخبة الثقافية المفكّر 'مالك بن نبي' الذي عالج قضية المرأة على أنّها مشكلة.

أصبحت قضايا المرأة من القضايا الهامّة في أدبيات النخبة الجزائرية المثقّفة، فتبلور نقاش حول وضع المرأة في عقد العشرينات من القرن العشرين؛ ليصل أوجّه في عقد الثلاثينيات، ومع أنّ هذا الخطاب كان يأتي عموماً ضمن إبداء المواقف تجاه الخطاب الفرنسي، أو كردّ فعل تجاه بعض قضايا المرأة التي طُرحت بجدّة في تونس آنذاك، إلّا أنّ خطاب النخبة المثقّفة، لم يعد مقتصرًا على رجال الصفّ الأول ضمن أحزاب الحركة الوطنية الجزائرية، وإنّما شمل النساء الجزائريات المتعلّقات أيضاً، اللواتي صرّنَ يُدركن أهمية الدّفاع عن حقوقهنّ، وكيفية التعبير عن آرائهن ومطالبهنّ، باستغلال المنابر الإعلامية والنشاط الجمعي والسياسي، الذي أتاح لهنّ فرصة إثبات وجودهنّ.

لقد عكست مواقف النخبة الجزائرية في قضية 'تحرير المرأة الأهلية' قناعاتها التي كانت تصدر انطلاقةً من منابعها الفكرية وخلفيتها الاجتماعية والثقافية، وتجسّدت في أدبياتها التي حاولت تقديم الحلول والبدائل للارتقاء بالمرأة 'الأهلية'، وإخراجها من التخلف والجهل. لكن هذه المواقف لم تكن بمنأى عن الخلاف والشقاق والانشطار، الذي وصل إلى حدّ التنازع أحياناً، هذا الأخير غدّته التطلّعات السياسية لكلّ طرف، وحتى الطموحات الشخصية أحياناً، وقراءتها للواقع الجزائري كلّ من موقعه.

خاتمة.....

فالنخبة المحافظة أو التقليدية؛ جَنحت إلى التمسك بالعادات والتقاليد، والتّنديد بالمفاسد التي أصابت المرأة المسلمة، ومثّلت -حسبها- خطراً مُحدقاً بتماسك المجتمع الجزائري المسلم، بينما جزم المتفرنسون بأنّ تدني وضع المرأة سببه العادات والأعراف البائدة نفسها، ووصل بهم الحدّ إلى اتّهام المحافظين بأنّهم المتسبّب فيما آل إليه وضع المرأة، ورأوا أنّ الحلّ يكمن في التعليم الرسمي الفرنسي، الذي من شأنه تحقيق المساواة مع المستوطنين، والوصول بالمرأة 'الأهلية' إلى الانعتاق والرقّيّ مثلها مثل نظيرتها الأوروبية، لكن هذه الأدبيات بقيت على مستوى التنظير، دون أن تقدّم حلولاً عملية لمشكلة المرأة.

بين هذا وذاك؛ حاول الخطاب الإصلاحي الجزائري تبني موقفاً وسطاً، حيث عمل على محاربة الخرافات والعادات والتقاليد البالية، والطُرقية المنحرفة، وعمل على تعليم البنات 'المسلمات' تعليماً عصرياً، يشمل جميع العلوم والفنون بما فيها اللغة الفرنسية، لا يجيد عن تعليم الدين الإسلامي ومنهج السلف الصالح، ويحقّق للبنات الجزائرية الرقيّ الفكري والحضاري، ويخرجها من دائرة الجهل والتخلّف الذي فرضه الاحتلال، هذا المشروع الذي عمل 'العلماء' على تجسيده منذ عام 1930م، بتبني طرق ومناهج التعليم العصرية، فلم يكونوا يُمانعون في تعلّم أبناءهم للغة المستعمر الفرنسي نفسه.

مثّل موضوع تحرير المرأة 'طابو' وسط مجتمع جزائري متخلّف ومنغلق، يزرع تحت الجهل المُطبّق ونسبة أميّة عالية جداً خاصة في أوساط النساء الجزائريات. وقد بدأ التحوّل الحقيقي في هذه المسألة مع مطلع عقد الثلاثينيات، بالتّزامن مع تغلغل 'حزب الشعب' في الوسط الشعبي، وتأسيس 'جمعية العلماء'، حيث رأى قادتها أنّ الخوض في قضية المرأة أصبح ضرورة ملحة، أمام تصاعد حدّة الخطاب الفرنسي والمتفرنس الداعي إلى تحرير المرأة الأهلية وفق النموذج الذي تقدّمه الحضارة الغربية المسيطرة.

لا يمكن أن نُهمل أيضا التحوّلات التي طرأت على المجتمع الجزائري، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث اقتحمت المرأة الجزائرية ميدان العمل تدريجياً، وبدأت بنات المُدن من الشريحة المثقفة ثقافة فرنسية في التخلّي عن الحجاب، الذي انتقل ارتداؤه إلى النساء ساكنات الأرياف، وظهرت موجة من التحرّر والسّفور، وتقليد النساء الأوربيات في اللباس والزّيّ، وحتى في نمط الحياة بشكل عام.

والحقّ أنّ المرأة الجزائرية لم تخض معركة تحريرها ولم تأخذ قضيتها بيدها إلاّ عقب الحرب العالمية الثانية، أين برزت 'نخبة نسوية جزائرية مثقفة'؛ هنّ من النساء الاستثنائيات في تاريخ الجزائر المعاصر، على غرار 'شامة بوفجّي'، 'نفيسة حمّود'، 'مامية شنتوف'، 'باية العوشيش'، 'زهور وّيسي' و 'أنيسة بومدين'... وغيرهنّ، اللواتي انخرطن في العمل السياسي والنشاط الجمعي، وجعلن من قضايا المرأة إحدى أولى أولوياتهنّ إلى جانب قضية تحرير الوطن من الاحتلال، فجاءت مواقفهنّ معبرة عن تطلّعات وآمال جيل من البنات الشابات الجزائريات للحرية والعيش الكريم، ونيل الحقوق السياسية والمدنية، وعلى رأسها الحقّ في التعليم، وهو ما مثّل ميلاداً لحركة نسوية جزائرية؛ ساهمت بفاعلية في مسار الحركة الوطنية، مُتخذة من الصحافة والجمعيات وسيلة لذلك، وعن طريق مبادرات العمل الجمعي والنشاط النقابي والسياسي.

إنّ الدارس لموضوع 'تحرير المرأة الأهلية' في الجزائر؛ يدرك أنّ الصراع كان صراع إيديولوجياً وهوية، وقضية المرأة مثّلت أحد أوجهه، فأصبحت ميداناً للتناكف الفكري والسّجال الثقافي بين إيديولوجيتين مُتباينتين من حيث الخلفيات والمرامي والأهداف، فعمل الاتجاه الإصلاحية الإسلامي على حماية الأخلاق من الانحلال، والقيم الدّينية والمجتمعية، وحماية الشخصية الجزائرية من الدّوبان، عن طريق توجيه الفرد والمجتمع للحفاظ على أخلاق المرأة بتربيتها وتعليمها، بينما سعى أنصار الحداثة والتفتّح والعصرنة، إلى تحرير النساء من العادات البالية والممارسات الاجتماعية المترسّبة، ولم يجدوا أمامهم سوى

خاتمة.....

النموذج الغربي، مع التمثّل بالمرأة التركية المسلمة، دونما عناية بأوضاع المرأة الجزائرية السيئة على جميع الأصعدة، التي لم تكن تسمح لها بالسير في هذا المسار المخوف بالعقبات. باندلاع ثورة نوفمبر؛ وظّفت 'جبهة التحرير الوطني' المرأة ضمن مشروعها التحرّري، وجعلت من الآمال المعقودة من طرف الشعب في الحرّية؛ مرتبطة بتطلّع شريحة من النساء الجزائريات للتحرّر الاجتماعي والثقافي.

وبالمقابل؛ عملت الإدارة الفرنسية على وضع إستراتيجية للتأثير على النساء، ومحاولة منعهنّ من الانخراط في العمل النضالي، وهكذا انقلبت المعادلة؛ وصارت السّلطة الاستعمارية في موقع ردّ الفعل، بعدما كانت هي المبادرة، فالمستعمر الذي كان يدفع بالمرأة نحو السّفور؛ ستكون المرأة السّافرة إحدى أدوات الثورة في وجهه، وفي مواجهة الخطاب الثوري اتجاه المرأة، سعت إدارة الاحتلال إلى بعث مشاريع التعليم والصحة، ومنحت النساء حق الاقتراع، ووظّفت آلتها الدعائية والتّفسية للتأثير عليهنّ، وطرحت مشروع إصلاح، الذي لم يكن ليخرج بأي حال من الأحوال عن إطار 'سياسة التهدئة'.

نعتقد أنّ ميلاد وتطوّر 'الحركة النسوية' في الجزائر المُستقلّة؛ لا يعني أنّها استطاعت ملامسة كلّ هموم المرأة الجزائرية، فخطابها بقي ضمن فضاءات محدّدة، وعلى مستوى نخبها النسوية المثقّفة، ولم يتزل إلى شرائح واسعة من النساء اللواتي عشنّ الظلم والفقر والأميّة، سيما في الأرياف، ولم تحظ المرأة الجزائرية بفرصتها كاملة للعب أدوارها في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية؛ إلى نهاية الألفية الماضية على الأقل. هذا الموضوع الذي يحتاج إلى دراسة أكاديمية مستقلّة.

ملاحق الدراسة

ملحق رقم 01: لوحة الفنان دولاكروا 'نساء الجزائر في مخدعهن' 1834م.

لوحة الفنان الفرنسي 'دولاكروا' (de Lacroix): 'نساء الجزائر في مخدعهن' أو عزلتهن، التي رسمها سنة 1834م بالجزائر العاصمة، تُظهر ثلاث نساء جزائريات متكآت على وسائد، أمامهن أداة للتبغ، وتقف بجوارهن خادمة إفريقية، يرتدين لباساً مزركشاً، وقد عبّرت عن ولع الفنّانين المستشرقين بـ 'عالم الحرّيم' الشرقي، وعكست نظرة الفنّ الاستشراقي للمرأة المسلمة في الجزائر.



المصدر: مكتبة موقع غوغل للصور على الإنترنت.

www.images.google.com

ملحق رقم 02: وثيقة رسمية عن الاتحاد الفرنكو-إسلامي لنساء الجزائر

الصفحة الأولى من تقرير للحكومة العامة الفرنسية عن 'الاتحاد الفرنكو-إسلامي لنساء الجزائر'؛ نُشر في 10 جوان سنة 1948م؛ أي بعد 11 سنة من تأسيس هذا الاتحاد بالجزائر العاصمة، والذي ضمّ نساء من أوربيات وجزائريات (مسلمات) من النخبة المتفرنسة.

DOCUMENTS ALGÉRIENS

Service d'Information du Cabinet du Gouverneur Général de l'Algérie

SERIE SOCIALE

N° 21 — 10 JUN 1948

ASSOCIATIONS
UNION FRANCO-MUSULMANEL'UNION FRANCO-MUSULMANE
DES FEMMES D'ALGÉRIE

L'Union Franco-Musulmane des Femmes d'Algérie a été créée il y a onze ans. Sur les pentes du Haut-Télemly s'élève aujourd'hui sa maison. Elle est la maison commune des femmes et des enfants musulmans du quartier ; là, ils trouvent amitié et secours en toutes circonstances.

Les premières adhérentes qui, en Avril 1937, ont donné leur accord enthousiaste, étaient au nombre de 36. 18 femmes européennes et 18 musulmanes. Dès son origine, l'Union Franco-Musulmane (U.F.M.) porte l'empreinte de cet élan des deux populations de l'Algérie attirées par une œuvre commune dont les femmes de ce pays sentaient le besoin et prévoyaient la fécondité.

Le premier rapport moral de leur association rend compte de l'esprit qui les animait :

« L'U.F.M. est un rapprochement entre les femmes européennes et musulmanes, groupes jusqu'ici « distants, gardant chacun sa réserve, s'interdisant toute manifestation de curiosité sympathique à l'égard l'un de l'autre. Un élan de sincérité, de fraternité humaine, peut et doit un jour briser l'artificielle barrière dressée par l'indifférence ou les préjugés.

« Le premier pas fait, nous avons constaté que nous n'étions pas impénétrables et que les préoccupations matérielles, familiales ou sociales, nous étaient communes. Tout de suite nous nous sommes entendues sur l'assistance à apporter aux femmes musulmanes déshéritées, afin de leur communiquer « dans un esprit d'amitié ce que nous savons et qu'elles désirent apprendre. En retour, il se trouve que beaucoup de choses nous sont révélées : la délicatesse et la générosité peuvent partout s'exprimer, et en dépit de circonstances matérielles capables d'écraser la dignité humaine, dans de pauvres « gourbis par exemple, la propreté reste maîtresse là où il nous paraîtrait impossible de la maintenir.

« Dans cette Union, aucun prosélytisme religieux ou politique ne peut gêner notre action éducative. »

EVOLUTION DE L'ŒUVRE

1937 - 1938

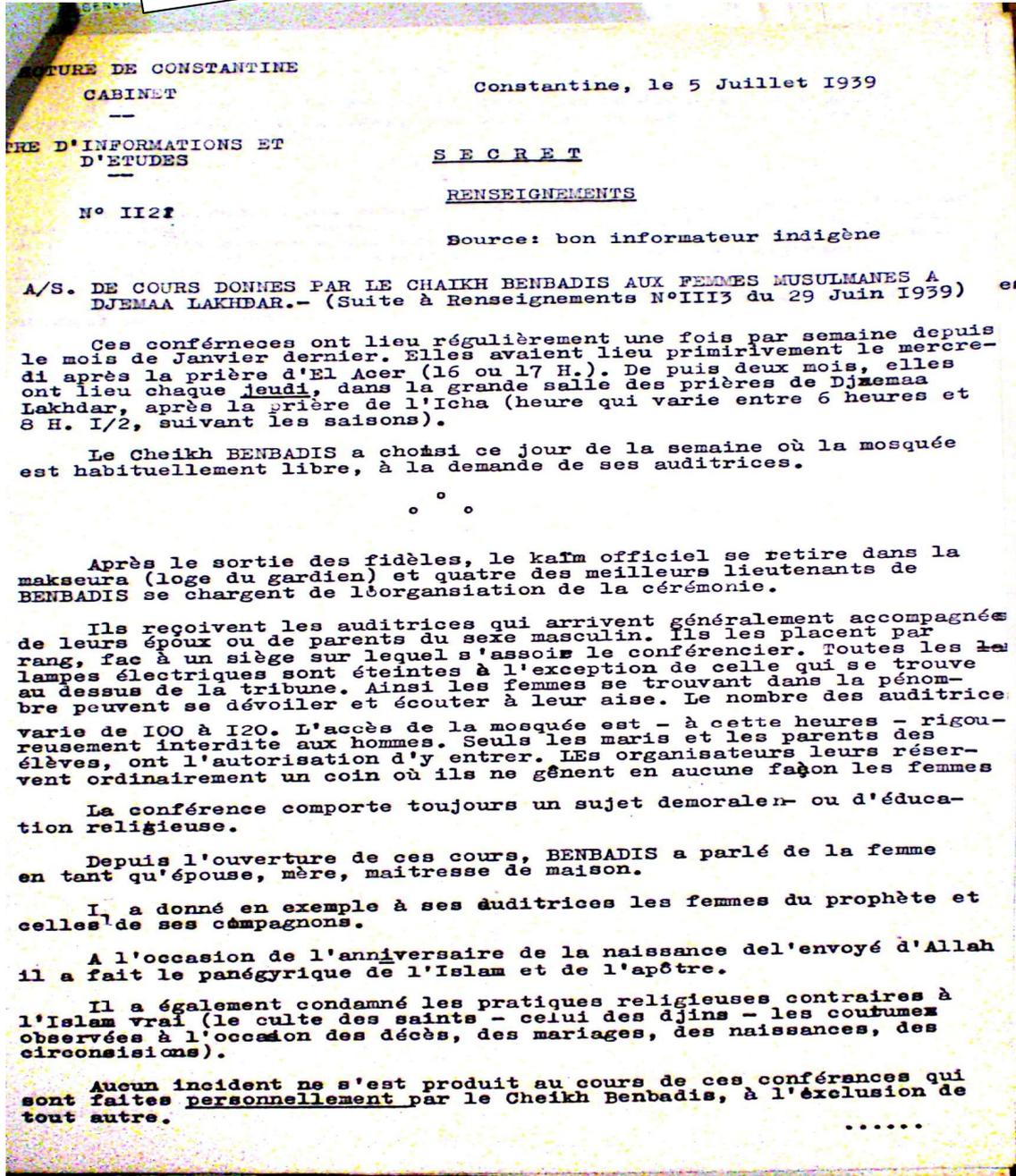
Au début de son existence, l'Union crée un dispensaire rattaché aux GROUPES LAIQUES et de petits ouvriers à domicile, chez des adhérentes de bonne volonté, au Télemly, à Belcourt, à Saint-Eugène. Deux petites pièces louées rue Horace-Vernet suffisaient à son action ; l'une était réservée à l'assistance médicale. L'animatrice de ce petit foyer était alors Mme GAUTHIER, et il faut associer cette amie, aujourd'hui disparue, aux premiers efforts et aux premiers élans d'une petite équipe enthousiaste et pleine de ferveur.

En même temps que le dispensaire se crée, un ouvrier qui réunit jeunes filles et jeunes femmes chaque après-midi.

La composition et le dynamisme de ce groupe naissant, l'esprit qui l'anime retiennent l'intérêt de l'Administration. Soutenue et conseillée par M. le Gouverneur Général et M. le Directeur de la Santé Publique, l'Union acquiert en l'année 1938 une maison, rue Eugène-Etienne, qui lui assure la solidité indispensable à une action d'envergure.

ملحق رقم 03: تقرير سرّي حول حضور النساء دروس ابن باديس 1939م.

تقرير سرّي فرنسي عن الدروس التي يلقّيها الشيخ عبد الحميد ابن باديس على النساء بالجامع الأخضر بقسنطينة بعد صلاة العصر، وسط حضور يتراوح بين 100 و 120 امرأة، وكانت تتناول موضوعاً في الأخلاق أو التربية الدّينية، كما كان ابن باديس يستنكر الممارسات الدينية المنافية للإسلام الحقّ؛ المنتشرة في أوساط النساء.



CS Scanné avec CamScanner

المصدر: أرشيف ما وراء البحار - أكسس أون بروفانس: ANOM: ALG GGA 3CAB39

ملحق رقم 04: مقال للمفكر الجزائري مالك بن نبي: 'من أجل نسوية إسلامية'.

مقال للمفكر الجزائري 'مالك بن نبي' في جريدة 'الجمهورية الجزائرية' صادر بتاريخ 26 فيفري 1954م، ينظر لفكرة 'نسوية إسلامية'، والرجل قد يكون أول من نظر لقضية تحرير المرأة في المشرق والغرب؛ على أنها 'مشكلة'؛ تتطلب التفكير لإيجاد حلول ناجعة وعملية لها.



MI NOTE 8 PRO UAD CAMERA Scanné avec CamScanner

المصدر: جريدة الجمهورية الجزائرية (La république Algérienne)، عدد 26 فيفري 1954.

ملحق رقم 05: خطاب الدكتور الطيب سماري بمدرسة الممرضات - سطيف 1947م.

نصّ الخطاب الذي ألقاه الطبيب 'بن سماري' أمام طالبات 'مدرسة الممرضات المسلمات للنظافة العمومية' بسطيف، وكان ذلك في 30 جوان 1947م؛ بمناسبة توزيع جوائز التخرّج عليهنّ، وقد تضمّن توجيهات ونصائح لهنّ؛ للقيام بمهامهنّ على أكمل وجه، وإعطاء صورة إيجابية عن الفتاة المسلمة في الجزائر.

ECOLE D'INFIRMIERES VISITEUSES
MUSULMANES
D'HYGIENE SOCIALE

SET IF

Allocution prononcée par Monsieur
le Docteur SMATI
à l'occasion de la
distribution des prix du 30 Juin 1947.

Mesdames,
Mesdemoiselles,
Messieurs,

Je tiens d'abord à remercier tous les donateurs qui, par leur générosité, nous ont permis de récompenser par des prix le travail de nos élèves.

J'ai la joie, aujourd'hui, d'être entouré d'amis de l'École et de vous voir vous-mêmes, mes chères enfants, entourées de vos parents et de vos aînées. Pourtant c'est à vous tout spécialement que je m'adresse, car c'est autour de vous que cette réunion est faite.

Cette heureuse journée marque, malgré sa simplicité, un événement important : la première distribution des prix du premier internat de jeunes filles musulmanes en Algérie.

Une première année d'études s'achève pour vous ce soir, année bien courte, puisqu'elle a commencé que le 10 Janvier, mais, je crois, bien féconde.

Vous avez tenu vos promesses, vous avez beaucoup travaillé, vous avez bien travaillé, et vous vous êtes efforcées, dans la mesure de vos jeunes possibilités, de donner satisfaction à tous vos maîtres, et à vos malades.

Avant de vous decerner les récompenses méritées et de vous laisser repartir avec vos parents pour goûter des vacances en famille, je désire vous retenir quelques instants pour vous rappeler certaines recommandations que je considère comme très importantes pour votre avenir :

D'abord, vous savez maintenant ce que nous attendons de vous; Dites-vous bien que, dans la profession d'infirmière, le

.../...

principal est : la vocation. Si vous faites votre travail de mauvais coeur, si vous n'acceptez pas entièrement et librement la discipline du métier, si vous ne vous appliquez pas à votre perfectionnement personnel, vous ferez de mauvaises infirmières. Or une mauvaise infirmière est non seulement inutile mais nuisible à la Société.

Vous avez maintenant 3 longs mois devant vous, 3 mois durant lesquels vous allez vous interroger, vous examiner en toute conscience de façon à vous répondre franchement si vous êtes décidées à poursuivre en dépit des difficultés qui vous attendent. Si elles vous effraient si vous les sentez au-dessus de vos forces, n'hésitez pas à le dire à vos familles et à nous-mêmes : il n'y a aucune raison pour que quiconque songe à vous en faire le moindre reproche. Vous ne devez pas être les esclaves de votre profession qui exige beaucoup d'efforts et un grand esprit de sacrifice. Vous n'aurez souvent, sachez-le bien, d'autre satisfaction que celle du devoir accompli.

De toute façon, d'ores et déjà, vous avez un rôle à jouer, grâce aux connaissances déjà acquises - et j'ai pu m'apercevoir qu'elles sont nombreuses. Soyez comme les colombes de l'arche pour annoncer une ère nouvelle de progrès chez nos laborieuses populations. Constituez une équipe de petites messagères d'hygiène. Dans le cadre restreint de votre famille et de vos voisins, vous serez appelées à donner des conseils faites-le chaque fois que vous pourrez, sans orgueil, sans forfanterie, mais attention : ne sortez jamais de votre rôle et n'allez pas vous croire médecin et prescrire des traitements. Quand vous ne savez pas, n'inventez pas, vos monitrices vous l'ont dit mainte fois en cours d'année, je vous le répète au seuil des vacances, car c'est d'une importance capitale.

Soyez aussi de petites messagères de la bonne éducation et de la bonne humeur.

Vous avez encore un autre genre de responsabilité : c'est celle de l'évolution de la femme musulmane. Elle est entre vos mains. Vous allez être des exemples pour beaucoup. Tâchez de faire que ces exemples soient de bons exemples. Par votre conduite, votre tenue, montrez à tous que la femme musulmane est susceptible d'émancipation morale et intellectuelle. Vous avez donc la grande responsabilité de l'avenir heureux ou malheureux de vos soeurs.

Pour les générations suivantes d'élèves infirmières aussi vous allez être des exemples. L'an prochain déjà vous allez élargir votre cercle; tâchez de les édifier par votre application car, si vous avez appris beaucoup de choses et fait déjà beaucoup de progrès, il vous reste encore beaucoup de choses à apprendre et beaucoup de progrès à faire: le progrès est quelque chose d'infini.

Vous êtes ici dans les meilleures conditions pour travailler : vous avez le confort, l'aisance, une nourriture saine et abondante, de bonnes distractions et enfin un personnel dévoué et patient pour s'occuper de vous constamment.

A cette occasion, je tiens à remercier en votre nom et en mon nom personnel tous ceux qui ont facilité ma tâche à des titres divers. J'ai nommé M. le Directeur et son personnel, mes confrères de

.../...

d'hôpital, les Religieuses; je dois rendre un hommage particulier à Melles Wolters, vos monitrices. Melle Adeline Wolters est la véritable animatrice, l'âme de cette maison. Pour mieux diriger votre instruction, votre éducation, votre tenue, vos loisirs, elle vit de votre vie, alors qu'elle n'y était pas obligée par ses fonctions; c'est ainsi que, partageant aussi votre alimentation, elle a été victime de l'intoxication qui a failli lui coûter la vie. Elle a été parfois amenée à être sévère avec vous; mais toujours, cette sévérité a été de bon aloi et ne l'a jamais fait se départir de la justice qui est un de ses principaux soucis.

Vous allez repartir chez vous mais j'estime qu'il serait bon que, durant ces vacances, vous gardiez contact avec vos monitrices : écrivez-leur, cela vous sera profitable et, quant à elles, je suis sûr qu'elles auront plaisir à recevoir de bonnes nouvelles, datées de France (puisque 2 d'entre vous auront la joie d'aller y passer 2 mois), de Constantine, de Colbert, de Kabylie, des plages du département, de Sétif; pour ces dernières, elles pourront même se regrouper de temps en temps à l'Ecole et organiser des réunions ou des promenades.

Je ne veux pas maintenant vous retenir plus longtemps car j'ai eu votre âge et je sais bien que vous êtes impatientes de recevoir vos récompenses et de regagner vos foyers. Pourtant, je crois que c'est aussi un peu à regret que vous quittez cette seconde famille que vous avez su vous créer.

Laissez moi pour finir vous donner à méditer la pensée d'un maître de la Médecine française, le Dr Victor Pauchet :

"le monde est un miroir dans lequel tu te réfléchis toi-même : si tu souris, il te sourit; si tu lui montres un visage désagréable, il te fait grise mine."

ملحق رقم 07: شامة بوفجّي أول معلّمة جزائرية تفتح مدارس للبنات.

صورتان للمعلّمة والجاهدة 'شامة بوفجّي'؛ الأولى خلال سنوات الثورة التحريرية، والثانية قبل وفاتها بسنوات قليلة، وهي أول معلّمة جزائرية تفتتح مدارساً لتعليم البنات بالجزائر العاصمة، كما واصلت نشاطها التعليمي ونضالها الوطني بعد سنة 1952م، بحسب رأسها مدينة برج بوعريج إلى غاية وفاتها.



المصدر: مكتبة موقع غوغل للصور على الإنترنت.

www.images.google.com

ملحق رقم 08: مقال لـ 'فضيلة أحمد' في جريدة المنار.

مقال تحت عنوان: 'حق المرأة الجزائرية في النهضة' للكاتبة 'فضيلة أحمد'، صدر ضمن ركن المنير الحرّ في جريدة 'المنار' الجزائرية لصاحبها محمود بوزوزو سنة 1953م، حيث عبّرت عن تطلّع المرأة للتحرّر من الاحتلال ومن العادات البالية.

المنير المحمّد المرأة الجزائرية في النهضة

اقتحموا عنا باب مستظلم قلوبا هذا المعتقل لما بقي الاستعمار يبيح من حمائنا الى الآن. اتركونا نعلم كل لغة وتمارس كل فن ونفوس في كل امر يهم مجتمعتنا اقتحموا الطريق لنصف امتمك يجاهد معكم حتى تتصروا كما اتصرا اجدادكم الاولون بفضل اشراكهم لناهم في جوادهم. اتركوا عنكم العادات القبيحة التي حدتكم عن تعليم البنت اتيدوا المنظار الاسود الذي تنظرون به الى ابنتكم عند بلوغها سنا معينة فتحرمونها من اتمام مطلوماتها واذا كانت تمارس مهنة من المهن لكي تواجه بها تكليات المستقبل سددهم الابواب امامها. وويل للتي تكسر هذه الابواب من ثماين الانسانية وذئاب المجتمع قانها لا تنجو من سموم السنتهم يسمرون بها في مجالسهم وينظرون اليها والى اسرتها بعين الازدراء والاحتقار كأن الجريمة مكتوبة على جبينها.

فضيلة احمد

اذا تكلمت على النساء في بلادنا فاني اخشى من التوار الذين يستخفون وراء حجاب النفاق يرقبون امثال هذا الكلام وغيره لكي يضاخوا خبثتهم التي يفرغ لها من في القبور ويرتطم منها الاحياء لان كلتهم ذات صدى جيد عند المهلثة والمرزقة والمتابعين السخرين يجعلون كل همهم نزع النساء وتغيبهن واستغلالهن كاداة لهم وتسلية ومتعة. فلو كنت قاضية وراقبت الي قضية هؤلاء الناس لحكمت عليهم كما احكم على النشالين وقطاع الطريق بل ان هؤلاء اخطر من قطاع الطريق لانهم يفتون حبر صرة في سبيل نمو شعبنا وارتخائه. فنحن نساء الجزائر لنا معتقلان معتقل الاستعمار الذي يهد يث الافكار المسمومة حول المرأة الجزائرية المهلثة ومعتقل الجامدين الذي شيدوه بالعادات والتقاليد الموروثية عن آباؤهم الجاهلين لاعن الاسلام. والمعتقل الثاني اخطر من الاول لانه تكاة ووسيلة للمعتقل الثاني

ملحق رقم 09: احتجاج 600 امرأة بالجزائر العاصمة عام 1947م.

مقال صحفي بجريدة 'جزائر جمهورية' صادر في عدد 31 أوت و 1 سبتمبر 1947م، حول خروج 600 امرأة أغلبهن من الأهالي في مظاهرة بالجزائر العاصمة، دعا لها 'اتحاد نساء الجزائر' فرع الحزب الشيوعي الجزائري؛ للاحتجاج على غلاء المعيشة، وطلب فتح مدارس لأبنائهن، والمطالبة بالحق في الانتخاب للنساء الجزائريات المسلمات، وهو المطلب الذي صار ملحقاً في تلك الفترة.

"ALGER REPUBLICAIN" des 31 AOUT & 1er SEPTEMBRE 1947

SAMEDI SOIR A ALGER

600 femmes d'Algérie protestent contre la vie chère demandent des écoles et revendiquent le droit de vote pour les musulmanes

L'« Union des Femmes d'Algérie » n'est pas un vain titre. Pour en être assurée, il suffisait de se trouver samedi après-midi dans la salle du Casino Music-Hall, à Alger, où les femmes étaient conviées à affirmer leur désir d'union et de lutte.

600 femmes, en majorité musulmanes (l'appel lancé s'adressait particulièrement à elles) se pressaient dans la salle pour entendre exposer les problèmes qui pour elles se posent quotidiennement.

La séance s'ouvre sous la présidence de Mmes Tabli et Garoby. Mme Djelmane prend la parole en français. Mme Halimi traite ensuite, en arabe, de questions identiques.

C'est d'abord une véhémence protestation contre la hausse du prix de la vie ne concordant nullement avec la hausse des salaires. C'est ensuite la scolarisation de tous les enfants sans distinction qui est réclamée avec énergie ; tous les petits doivent avoir droit à l'instruction, et également aux soins en cas de maladie. Nous retenons la suggestion d'écoles de plein air que le climat de l'Algérie rend si facilement réalisables. L'utilisation de baraques militaires étant envisagée pour les jours de mauvais temps. Les femmes, d'esprit pratique par nature, se rendent parfaitement compte que l'édification de belles écoles solidement bâties demanderait de longues années, or le temps presse.

La position des femmes sur le statut de l'Algérie est ici nettement affirmée : que nos compagnes musulmanes, nous en avons la certitude, sauront dans un délai très court, faire leur instruction civique de telle sorte qu'elles pourront voter avec tout le discernement et la finesse qu'apportent les femmes en toutes choses.

La triste situation tant au point de vue légal qu'au point de vue social de la femme en général et de la musulmane en particulier est ici évoquée, et l'assemblée sait montrer qu'elle comprend et approuve la question débattue, qui est celle de sa vie même.

A l'issue de cette intéressante réunion, un télégramme est adressé au président du Conseil de la République, au président de la Commission de l'Intérieur du Conseil de la Ré-

publique et au président Ramadier, ainsi qu'au ministre de l'Intérieur.

Un autre télégramme ira exprimer à Mme Alice Sportisse la reconnaissance des « Femmes d'Algérie » pour l'action qu'elle suit mener en leur faveur à la Tribune de la Chambre.

Une partie concert, vivement appréciée présente des chanteuses et des danseuses accompagnées d'un remarquable orchestre musulman, et l'assistance se sépare enchantée de cette belle journée qui marque encore un point dans l'évolution de la femme en Algérie.

Y. L.

ملحق رقم 10: تصريح باية العوشيش قبيل سفرها إلى الصين.

تصريح صحفي للسيدة 'باية العوشيش' قبل سفرها إلى عاصمة الصين بكين؛ للمشاركة في أشغال 'مؤتمر نساء آسيا وإفريقيا'، بصفتها مندوبة 'الفيدرالية الديمقراطية الدولية للنساء'، وقد أكدت أنها ستنتقل للنساء الآسيويات معاناة المرأة الجزائرية، ونضالها ضد الاستعمار والإمبريالية، وكفاحها لتحسين ظروف معيشتها، ومن أجل الحرية والسلام، ومناهضتها للحرب، وعن قضايا العمال الجزائريين...

*A la veille de son départ pour Pékin
Baya Allaouchiche nous dit :*

“ Je vais parler aux femmes d'Asie de nos souffrances et de nos luttes contre le colonialisme et la guerre ”

Déléguée par la Fédération démocratique internationale des femmes, notre amie Baya Allaouchiche part pour Pékin participer aux travaux de la Conférence des femmes d'Asie et d'Afrique.

A « Liberté » qui est allé l'interviewer voilà ce que la messagère de notre pays a déclaré :

Je suis très heureuse d'avoir été désignée par le Comité algérien de la Fédération démocratique internationale des femmes pour assister aux travaux de la Conférence des femmes d'Asie et d'Afrique.

Mais aussi très émue par les responsabilités qui m'incombent.

Pendant plusieurs jours, je vais me trouver en contact avec des femmes venant des Républiques socialistes soviétiques, avec des femmes qui luttent encore les armes à la main aux côtés de leurs maris pour libérer leur pays. Telles les Vietnamiennes, les Indoné-

siennes, les femmes de Birmanie. Avec des femmes de Chine qui, grâce à leur action, viennent de conquérir leurs droits à la vie.

On ne peut s'empêcher de comparer la situation des femmes de Chine il y a quelques années à la nôtre et à nous en particulier femmes musulmanes.

Pendant des siècles en Chine, des centaines de millions de femmes vivaient dans l'esclavage. En proie aux épidémies, à la famine qui décimait périodiquement la population. Beaucoup ne pouvaient voir grandir leurs enfants.

En Algérie, dans les campagnes, dans les quartiers populeux de la Kasbah, de Mahieddine, les femmes ne connaissent-elles pas une situation identique ?..

Pour la première fois au cours de l'histoire de l'Asie, des femmes vont se réunir, mettre en commun

(Suite page 2, 4^{me} col.)

المصدر: جريدة ليبرتي (Liberté) 10 نوفمبر 1949م.

ملحق رقم 11: المجلس الإداري لجمعية الفتاة العربية الجزائرية

صورة لعضوات المجلس الإداري لجمعية الفتاة العربية الجزائرية، يظهرن بالزيّ التقليدي الجزائري (الحايك والتقاب)، وعلى اليمين دعوة إلى النساء الجزائريات للانضمام للجمعية حتى يكنّ عوناً لها، وأسفلها بيتين شعريين في الحثّ على تعليم البنات الأخلاق وأصول الدين.



المصدر: أرشيف ما وراء البحار- أكس أون بروفانس: ANOM: 91 4I 185

ملحق رقم 12: شعار جمعية الفتاة العربية الجزائرية.

شعار 'جمعية الفتاة العربية الجزائرية'، وقد تضمن في أعلاه آية قرآنية من سورة 'المجادلة'؛ تحضّ على الإيمان والعلم؛ لأنها سبباً للرفعة، وفي منتصفه أبيات شعرية وسط كتاب مفتوح، وفي أسفل الشعار اسم الجمعية وغايتها.



المصدر: أرشيف ما وراء البحار- أكس أون بروفانس: ANOM: 91 4I 185

بييليو غرافيا الدراسة

أولاً- المصادر والمراجع باللغة العربية:

1- الصحف والجرائد:

- الأسبوع (التونسية): ع. 15 أوت 1948 / ع. 15 أوت 1949 / ع. 26 ديسمبر 1949. ع. 23 جانفي 1950 / ع. 20 ماي 1951.
- الإقدام: ع. 12، 18 ربيع الثاني 1339هـ / 3 نوفمبر 1920. - الأمة، ع. 29، ديسمبر 1934.
- البصائر: ع. 139، 11 نوفمبر 1938 / ع. 93، 31 أكتوبر 1949 / الأعداد: 158-159-162-163-164-168-170-171-177 لعام: 1951 / ع. 192، 2 جوان 1952 / ع. 298، 24 ديسمبر 1954 / ع. 319، 20 ماي 1955 / ع. 301، 20 جمادى الأولى 1374هـ / 14 جانفي 1955. ع. 201، 15 سبتمبر 1952 / الأعداد: 288-291-297-303-304-309-315-309-349-359-276-288-291-297-303-304-309-327، 1954-1956م / الأعداد: 343-359-356، 1955-1956.
- البلاغ: ع. 246، 5 فيفري 1932 / ع. 247، الجمعة 19 فيفري 1932 / ع. 248، الجمعة 26 فيفري 1932 / ع. 251، 18 مارس 1932 / ع. 256، (د.ت).
- الجزائر الجديدة: ع. 17، نوفمبر 1947 / ع. 37، ربيع الثاني 1368 هـ / فيفري 1949 / ع. 43، جانفي - فيفري 1950 / ع. 44، مارس 1950.
- الشهاب: ع. 17، 4 مارس 1926م / ع. 170، السنة الرابعة / ج. 5، محرم 1350هـ / ج. 7، صفر 1349هـ / ج. 9، جمادى الأولى 1348هـ / مج. 5، ج. 10، نوفمبر 1929. ع. جويلية 1930. ع. ماي 1939. ج. 8، ربيع الثاني، 1351هـ / ج. 9، جمادى الأولى 1348هـ. - الفاروق: ع. 38، 28 نوفمبر 1913.
- المغرب: ع. 30، 21 جويلية 1903. - المنار: ع. 8، 31 أوت 1951 / ع. 7، 15 أوت 1951 / ع. 51، 1 جانفي 1954.
- النجاح (القسنطينية): ع. 114، 22 جوان 1923 / ع. 134، 23 نوفمبر 1923 / ع. 155، 8 أبريل 1924 / ع. 185، 5 ديسمبر 1924 / ع. 190، 9 جانفي 1925 / ع. 222، 14 أوت 1925 / ع. 264، 15 جانفي 1926 / ع. 266، 22 جانفي 1926 / ع. 268، 29 جانفي 1926 / ع. 269، 2 فيفري 1926 / ع. 279، 9 مارس 1926 / ع. 500، 5 أكتوبر 1927 / ع. 563، 2 مارس 1928 / ع. 768، 29 جويلية 1929 / ع. 780، 30 أوت 1929 / ع. 781، 02 سبتمبر 1929 / ع. 795، 4 أكتوبر 1929 / ع. 796، 7 أكتوبر 1929 / ع. 803، 23 أكتوبر 1929 / ع. 817، 25 نوفمبر 1929 / ع. 833، 7 جانفي 1930 / ع. 861، 8 فيفري 1930 / ع. 918، 22 أبريل 1930 / ع. 923، 27 أبريل 1930 / ع. 941، 23 ماي 1930 / ع. 942، 25 ماي 1930 / ع. 1058، 22 أكتوبر 1930 / ع. 1059، 23 أكتوبر 1930 / ع. 1089، 4 نوفمبر 1930 / ع. 1129، 13 مارس 1931 / ع. 1210، 25 سبتمبر 1931 / ع. 1258، 16 جانفي 1932 / ع. 1288، 1 أبريل 1932 / ع. 1297، 27 أبريل 1932 / ع. 1415، 15 فيفري 1933 / ع. 1444، 5 ماي 1933م / ع. 1497، 3 نوفمبر 1933 / ع. 1508، 1 ديسمبر 1933 / ع. 1510، 6 ديسمبر 1933 / ع. 1540، 9 مارس 1934 / ع. 1591، 25 جويلية 1934 / ع. 1698، 26 أبريل 1935 / ع. 1699، 28 أبريل 1935 / ع. 1759، 27 سبتمبر 1935 / ع. 1840، 17 أبريل 1936 / ع. 1841، 19 أبريل 1936.

2- المصادر العربية والمعرّبة:

- ابن الخوجة، محمد بن مصطفى: الاكتراث في حقوق الإناث، تع. زهير قوتال، دار الكتب العلمية، بيروت، 2007.
- ابن الخوجة، محمد بن مصطفى: اللّباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب، دار ابن حزم، لبنان، 2005.
- الأمير، عبد القادر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تع. ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، دمشق، 1960.
- برنارد، ب. P. Bernad: علي وعائشة، رسم: V. Fulconis، مطبعة: P. Perrier، وهران، 1906.
- بن بريهمات، عمر بن حسن: النهج السوي في الفقه الفرنسي، مطبعة بيبير فونتانا، الجزائر، 1325هـ/1908م.
- بن حبيلس، الشريف: الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، تر. عبد الله حمادي؛ وآخرون، دار بهاء الدين، قسنطينة، 2009.
- بن عبد القادر، الأمير محمد: تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر، ج. 2: سيرته القلمية، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903.
- بن نبي، مالك: شروط النهضة، تر. عمر كامل مستقاوي؛ عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986.
- تشرشل، شارل هنري: حياة الأمير عبد القادر، تر. أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974.
- الجزائري، أحمد: كيف دخل الفرنسيون الجزائر: وصف شاهد عيان، تق. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1962.
- خوجة، حمدان بن عثمان: المرأة، تر. محمد العربي الزبيري، ANEP، الجزائر، 2005.
- دسبارمي، جوزيف: كتاب الفوائد في العوائد والقواعد والعقائد، مطبعة السيد موقان، البليدة، 1905.
- دسبارمي، جوزيف: الطريق المستقيمة لتعليم لغة العامة، مطبعة جوردان، الجزائر، 1907.
- ظريف زهرة: مذكرات مجاهدة من جيش التحرير الوطني: منطقة الجزائر المستقلة، تر. محمد ساري، منشورات الشهاب، الجزائر، 2014.
- عباس، فرحات: الشباب الجزائري، تر. أحمد منور، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
- غوتيه، أ. ف.: ماضي شمال إفريقيا، تع. هاشم الحسيني، دار الفرجاني للنشر، طرابلس، ليبيا، 1970.
- فانون، فرانتز: العام الخامس للثورة الجزائرية، تر. ذوقان قرقوط، دار الفارابي - Anep، الجزائر، 2004.
- قواشون، أميلي ماري: الحياة النسوية في مزاب = La vie féminine au Mزاب 1927، تر. سامية نور الدين شلّاط، دار نزهة الألباب، غرداية، 2019.
- مكّي، الشّباح: مذكرات مناضل أوراسي، تق. عبد الحميد بن الزين، مطبعة بن الزين، الجزائر، 1986.
- المليي، مبارك بن محمد: رسالة الشرك ومظاهره، تع. أبي عبد الرحمن محمود، دار الراية، السعودية، 2001.
- ونيسي، زهور: عبر الزهور والأشواك: مسار امرأة، دار القصبة، الجزائر، 2012.

3- المراجع باللغة العربية:

أ- الكتب العربية والمعرّبة:

- الإبراهيمي، أحمد طالب: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج. 4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997.
- أجرون، شارل روبرت: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871-1919، ج. 2، تر. م. حاج مسعود؛ أ. بكلي، دار الرائد، الجزائر، 2007.

- احميده، عميرواي وآخرون: آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (1830-1954)، (سلسلة المشاريع الوطنية للبحث)، منشورات م.و.د.ب.ح.و.ث.ن. 1954، الجزائر، 2007.
- احميده، عميرواي: من تاريخ الجزائر الحديث، ط.2، دار الهدى، الجزائر، 2004.
- الأزرق، مغنية: نشوء الطبقات في الجزائر: دراسة في الاستعمار والتغيير الاجتماعي-السياسي، تر. سمير كرم، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1980.
- بركات درار، أنيسة: نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985.
- بعلي، حفناوي: صورة الجزائر في عيون الرحالة وكتابات الغربيين، دروب للنشر، القاهرة، 2019.
- بقطاش، حديجة: الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر 1830-1871، منشورات دحلب، الجزائر، 2007.
- بلوزاع، براهيم: نظرة على الجزائر بين 1947 و 1962 من خلال كتابات الجزائريين في الصحافة التونسية (الزهرة، الأسبوع، الصباح: نموذجاً)، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2015.
- بوصفصاف، عبد الكريم: الفكر العربي الحديث والمعاصر: "محمد عبده" و"عبد الحميد بن باديس" نموذجاً، ج.1، دار الهدى، الجزائر، 2005.
- بوطالب، محمد نجيب: سوسولوجيا القبيلة في المغرب العربي، (سلسلة أطروحات الدكتوراه رقم 41)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2002.
- بوعزيز، يحيى: المرأة الجزائرية وحركة الإصلاح النسوية العربية، دار الهدى، الجزائر، 2000.
- بيرك، حاك: "في مدلول القبيلة بشمال إفريقيا"، ضمن كتاب: الأنثروبولوجيا والتاريخ: حالة المغرب العربي، تر. عبد الأحد السبتي؛ عبد اللطيف الفلطي، توبقال للنشر، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1988.
- التيجاني، عبد الرحمان بن أحمد: الكتابات القرآنية بندرومة من 1900 إلى 1977، د.م.ج، الجزائر، 1983.
- تيران، إيفون: المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة: المدارس والممارسات الطبية والدين 1830-1880، تر. محمد عبد الكريم أوزغلة، دار القصة، الجزائر، 2007.
- تيون، جرمان: الحريم وأبناء العم: تاريخ النساء في مجتمعات المتوسط، تر. عز الدين الخطابي؛ إدريس كثير، دار الساقى، بيروت، 2000.
- ثورتون، لين: النساء في لوحات المستشرقين، تر. مروان سعد الدين، (البحث عن الشرق)، دار المدى للنشر، دمشق، 2007.
- جفلول، عبد القادر: تاريخ الجزائر: دراسة سوسولوجية، ط.3، تر. فيصل عباس، دار الحدائث، بيروت، 1983.
- الجيلالي، عبد الرحمان: تاريخ الجزائر العام، ج.3-4، د.م.ج، الجزائر؛ دار الثقافة، بيروت، 1982.
- حلوش، عبد القادر: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010.
- الحداد محمد: البركان الهائل في آليات الاجتهاد الإصلاحي وحدوده، دار مرايا الحدائث، (د.م)، 2006.
- الخطيب، أحمد: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1985.
- دنيس، جون جيمس: حركة المدارس الحرة بالمغرب، تر. السعيد المعتصم، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1991.
- ساحلي، محمد الشريف: تخلص التاريخ من الاستعمار، تر. محمد الشريف بن دالي حسين؛ محمد هناد، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، (د.ن)، الجزائر، (د.ت).
- سعد الله، أبو القاسم: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج.4، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.
- سعد الله، أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي، ج.6: 1830-1954، دار البصائر، الجزائر، 2007.

- سعد الله، أبو القاسم: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال، ط.3، (د.ن)، الجزائر، 1982.
- سعيدوني، ناصر الدين: عصر الأمير عبد القادر الجزائري، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود، المملكة العربية السعودية، 2000.
- الطالبي، عمار: آثار ابن باديس، مج.1: تفسير وشرح أحاديث، ط.3، الشركة الجزائرية، الجزائر، 1997.
- غطاس، عائشة: الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830: مقارنة اجتماعية-اقتصادية، ANEP، الجزائر، 2012.
- فراد، محمد أرزقي: إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- قداش، محفوظ؛ صاري، جيلالي: الجزائر صمود ومواقف: 1830-1962، تر. خليل أوزاينية، د.م.ج، الجزائر، 2012.
- كارتلج، بول: ما التاريخ الاجتماعي الآن؟، ضمن كتاب: ما التاريخ الآن؟، (سلسلة المشروع القومي للترجمة)، تر. قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2006.
- مراد، علي: الحركة الإصلاحية الإسلامية في الجزائر من 1925 إلى 1940: بحث في التاريخ الديني والاجتماعي، تر. محمد يحياتن، دار الحكمة، الجزائر، 2007.
- مريوش، أحمد: بوادر الانشطار في فكر النخبة الليبرالية وانعكاساتها على القضية الوطنية: 1919-1943، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر.
- مساعدي، سكيينة: أخواتنا المسلمات أو أسطورة تحرير المرأة الجزائرية...، تر. حضرية يوسف، موفم للنشر، الجزائر، 2012.
- الملي، محمد: ابن باديس وعروبة الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
- ناصر، محمد بن صالح: الصحف العربية الجزائرية من 1847 إلى 1954، ط.2، ألفا ديزاين، الجزائر، 2006.
- هوارى، عدّي: الاستعمار الفرنسي في الجزائر: سياسة التفكيك الاقتصادي والاجتماعي 1830-1960، تر. جوزيف عبد الله، دار الحداثة، بيروت، 1983.
- وعلي، محمد الطاهر: التعليم التبشيري في الجزائر من 1830 إلى 1904، منشورات دحلح، الجزائر، 2009.
- يحيوي، مسعودة: المجتمع المسلم والجماعات الأوربية في جزائر القرن العشرين: حقائق وإيديولوجيات وأساطير وغطيات، مج.1-2، تر. محمد المعراجي، دار هومة، الجزائر، 2010.
- ب- مقالات الدوريات:**
- بتقة، سليم: "حوارية النص والصورة، آسيا جبار قارئة لدولاكروا (نساء الجزائر في مخدعهن)"، مجلة المخبر، ع.10، 2014، جامعة بسكرة، الجزائر.
- بشي، يمينة: 'مآثر المرأة الجزائرية خلال قرن من الاحتلال'، مجلة المصادر، ع.3، 2000، م.و.د.ب.ح.و.ث.ن، دار الحكمة، الجزائر.
- بن حسين، كريمة: "المتجنسون: مواقفهم، أفكارهم وطموحاتهم"، مجلة العلوم الإنسانية، ع.30، مج.أ، ديسمبر 2008، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة.
- بن عيسى، حنفي: تأثير جمال الدين الأفغاني على الفكر الجزائري المعاصر، مجلة الثقافة، ع.38، ماي 1977، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر.
- بن مهدي، رياض: "الجهادة شامة بوفجي"، مجلة أول نوفمبر، ع.180، محرم 1437هـ/نوفمبر 2015م، المنظمة الوطنية للمجاهدين، الجزائر.
- حماني، أحمد: "دور الأفغاني في يقظة الشرق وهضنة المسلمين"، مجلة الثقافة، ع.38، ماي 1977، وزارة الإعلام والثقافة، الجزائر.

- خيراني، ليلي: 'دراسة في ثروات النساء في مجتمع مدينة الجزائر في العهد العثماني'، مجلة الدراسات التاريخية، ع.13، 2011، جامعة الجزائر2.
- شيدخ، حجبية: "المرأة في آثار محمد البشير الإبراهيمي"، مجلة الوعي، ع.2، 1431هـ/ نوفمبر 2010، دار الوعي، الجزائر.
- عويمر، مولود: "أقلام نسوية في جريدة البصائر"، مجلة البصائر، ع.694، 01-07 جمادى الأولى 1435هـ/03-09 مارس 2014، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الجزائر، ص12.
- غطاس، عائشة: 'إسهام المرأة في الأوقاف في مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني'، المجلة التاريخية المغربية، ع.85-86، 1997.
- غطاس، عائشة: "الصدّاق في مجتمع مدينة الجزائر 1672-1854م"، إنسانيات، ع.4، 1998، Crasc، وهران.
- الرابط: <https://journals.openedition.org/insaniyat/11645>
- الفاسي، علّال: "إسهام المرأة المغربية في الكفاح الوطني"، مجلة عيون المقالات، ع.9-10، 1987.
- قاسمي، عمار: "رؤية مالك بن نبي لمشكلة المرأة"، مجلة دراسات وأبحاث، مج.07، ع.18، مارس 2015، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر.
- كعوان، فارس: "الإثنوغرافيا الكولونiale واختراق الفضاء القبلي للشرق الجزائري من خلال أعمال بعض العسكريين الفرنسيين 'شارل فيرو' نموذجاً"، مجلة المعيار، مج.24، ع.50، جوان 2020.
- نونو، إيمان محمد علي: "دور زعماء الإصلاح تجاه المرأة في الجزائر في العصر الحديث"، دورية كان، ع.12، جوان 2011.
- معماش، النوّي: "موقف المتجنّسين الجزائريين من المرأة خلال النصف الأول من القرن العشرين"، مجلة الحوار الفكري، ع.6، 2004، جامعة قسنطينة.
- ما برو، جودي: "تصوّرات الرحّالة الغربيين عن النساء في الشرق الأوسط"، تر.ثائر ديب، مجلة الآداب الأجنبيّة، ع.111، جويلية 2002، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
- مريوش، أحمد: "مساهمة الحركة الإصلاحية في بناء المجتمع الجزائري المعاصر: 1900-1952"، مجلة الحكمة، ع.6، 2004، جامعة قسنطينة.
- هرباش، زاجية: "الصحراء الجزائرية في كتابات المستشرقين الفرنسيين: دوامس أمموذجاً"، مجلة عصور الجديدة، ع.6 (عدد خاص)، 2012، جامعة وهران.
- واضح، شهرزاد؛ كوسة، نور الدين: "مظاهر الهيمنة الذكورية على المرأة في المجتمع الجزائري الحديث في ضوء الكتابات الكولونiale"، مجلة عصور الجديدة، مج.10، ع.1، مارس 2020.
- يوسف، صرهودة: "النساء والملكية في مدينة قسنطينة أواخر الحكم العثماني 1787م-1837م"، مجلة العلوم الإنسانية، ع.40، ديسمبر 2013، جامعة قسنطينة.
- ج- الرسائل والأطروحات:**
- بزيان، سعدي: السياسة الاستعمارية الفرنسية في منطقة القبائل ومواقف السّكان منها (1871-1914)، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2008-2009.
- بلقاسم، محمد: الواقع الثقافي لمنطقة تلمسان في الفترة الاستعمارية، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تلمسان، 2018-2019.

- بن حمودة، مراد: النخب التقليدية في الجزائر ودورها السياسي والاجتماعي (1830-1919)، أطروحة دكتوراه، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، 2018-2019.
- حماش، خليفة: الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني، دكتوراه دولة تاريخ الحديث، جامعة قسنطينة، 2006.
- حمداني، مالية: ميراث المرأة القبائلية بين التحدي للأعراف والحاجة المادية، رسالة ماجستير، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2009-2010.
- حمري، ليلي: الجمعية الجزائرية وقضايا الجزائريين فيما بين 1948 و 1956، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2014-2015.
- ساحل، عبد الحميد: الفكر الإصلاحي لعمر بن قنور الجزائري: دراسة تحليلية لمقالاته الصحفية 1906-1927، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر3، 2011-2012.
- سحولي بشير: مواقف النخبة الجزائرية المفرنسة من القضايا الوطنية: 1900-1939، أطروحة دكتوراه، جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس، 2014-2015.
- عمري، الطاهر: النخبة الوطنية الجزائرية ومشروع المجتمع 1900-1940، أطروحة دكتوراه، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2003-2004.
- قريشي، محمد: الأوضاع الاجتماعية للشعب الجزائري منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى 1945-1954، مذكرة ماجستير، جامعة الجزائر، 2002.
- منحرفيس، يمينة: صورة المرأة الجزائرية في الفن الاستشراقي، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر3، 2011-2012.
- لحر، كمال: صورة المجتمع الجزائري في المجلة الإفريقية (La revue Africaine) 1856-1962م، أطروحة دكتوراه، قسم علم الاجتماع، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، 2010-2011.
- نقادي، سميرة: واقع تعليم الجزائريين في ظل التشريعات الفرنسية ما بين 1919-1954، رسالة ماجستير، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2007-2008.
- الواعر، صبرينة: محمد بن رحال ودوره السياسي والثقافي (1856-1928)، رسالة ماجستير، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2002-2003.
- د- أعمال الملتقيات والندوات:**
- ثنيو، نور الدين: "المرأة في الخطاب الإصلاحي خلال الثلاثينيات"، (المؤتمر العالمي السابع عشر لمنتدى الفكر المعاصر حول دور المغاربة في حركة تحرير وبناء الدولة)، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، ماي 2007.
- كواقي، مسعود: "المرأة الجزائرية والاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر"، ضمن ملتقى (كفاح المرأة الجزائرية: دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول كفاح المرأة) / م.و.د.ب.ح.و.ث.ن. 1954، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1998.
- هـ- المواقع الإلكترونية العربية:**
- تعريف بشخصية عبيرة سلام الخالدي، موقع كتاب بي دي أف: <https://book-pdf.com/writer/anbara-salam-khalidi/>
- زهية منصر: "المجاهدة صفية بلمهدي تروي قصة أول احتفال بالثامن مارس في الجزائر". موقع صوت النساء، أنظر: <https://voixdefemmesdz.com/ar/2015/03/page/2/>
- موقع إسلام ويب: <http://www.islamweb.net/ahaji/index.php?page=article&lang=A&id=33292>
- و- المقابلات الشخصية:**

- مقابلة شخصية مع السيدة: 'ميشيل فولكيي' (Michelle Foulquier) بتاريخ: 04 أوت 2020.
- مقابلة علمية مع الباحث : أوغستين جومي (Augustin Joumier) بتاريخ: 18 ديسمبر 2020.

ثانياً- المصادر والمراجع باللغات الأجنبية:

1- وثائق دور الأرشيفات الفرنسية:

1- Documents Archivistiques :

أ – أرشيف ما وراء البحار –أكس أون بروفانس

- ANOM, GGA 40 G 100 / ANOM, 81 F 1218 / ANOM, 81 F 1219 / ANOM, 91 4I 184 / ANOM, 91 4I 185 / ANOM, 926 66-67 / ANOM, 915 64 / ANOM, GGA, 2 I 50 / ANOM, GGA 12H 13 / ANOM, 14H 32 / ANOM, 81 F 1137 / ANOM, 91 4I 189 / ANOM, 2 I 44 / ANOM, 67 APC/ ANOM, GGA 8 X 235 / ANOM, GGA 8 X 393 / ANOM, GGA 40 G 100 / ANOM, 91 4I 190 / ANOM, 91 1 K 137 / ANOM, 91 1K 1170 / ANOM, GGA 9 X 165 / ANOM 9 X 299/ ANOM, GGA, 915 90 / ANOM, 9140 60 / ANOM, 73 APOM 2 / ANOM 81 F 760.

ب- أرشيف الوطني الفرنسي –باريس

- AJ103/1-AJ103/11 - AJ 103/1- AJ 103/11: Archives Nafissa Sid Cara.

ج- أرشيف ولاية وهران:

- MECUDAD: «Activité des réformistes», R.G, N°822, Tlemcen 28 décembre 1944.

2- Bulletins historiques:

2- النشريات:

- Bugéja, Marie: «Aperçus sur le caractère de la femme Kabyle», Bulletin de la société géographie d'Alger et de l'Afrique du nord, N° 97 à 100, 1^{er} septembre 1924, Imprimerie Algérienne, Alger.
- Congrégation des sœurs missionnaires de Notre-Dame d'Afrique: **La femme kabyle**, Typographie Jules Carbonel, Alger, 1926.
- D. marcel : **Annuaire algérien pour l'an 1842**, 1^{er} partie.
- «**Le problème de la formation professionnelle de la femme musulmane**», Bulletin économique et juridique, N°161, Avril 1953, Office Algérien d'action économique et tourisme.
- Rinn, Louis: «**La femme berbère dans l'ethnologie et l'histoire de l'Algérie**», Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du nord, Deuxième Année, 1^{er} trimestre, 1905.

3- Les Journaux historiques:

3- الجرائد والمجلات التاريخية بالفرنسية:

- **La revue indigène**: n°17 septembre 1907/ n°19 novembre 1907/ n°21, Janvier 1908/ n°34, février 1909/ n°25, mai 1908/ n°26, juin 1908.
- **Revue Algérienne, Tunisienne et marocaine de législation et de jurisprudence**: T.XLVIII, 1932.
- **La Voix indigène**: n°195-196, 06 et 13 Avril 1933/ n°232, 2 Novembre 1933/ n°239, 21 Décembre 1933/ n° 261, 24 Mai 1934/ n°268, 12 Juillet 1934/ n°328, 07 Mai 1935/ n°387, 5 Novembre 1936/ n°392, 17 Décembre 1936/ n°393, 26 Décembre 1936/ n ?, 25 mars 1937.
- **La Voix des Humbles**: n°6, Octobre 1922 / n°10-11, Février- mars 1923/ n°39, Novembre 1925/ n°41, Janvier 1926/ n°45, Aout-Septembre 1926/ n°47, Novembre 1926/ n°49, Janvier 1927/ n°56, Janvier 1928/ n°66, Novembre 1928/ n°67, Novembre 1928/ n°70, janvier 1929/ n°71, Février 1929/ n°72, Mars 1929/ n°76, juillet 1929/ n°77, Aout 1929/ n°83, Janvier 1930/ n°91, 13 septembre 1930/ n°92, 15 Octobre 1930/ n°96-97, Février-Mars 1931/ n°99, 1-20 Mai 1931/ n°100, juin 1931/ n°101,

-
- Juillet 1931/ n°112, Aout-Septembre-Octobre 1932/ n°127, Juillet-Aout 1933/ n°129, Octobre 1933/ n°132, Décembre 1933/ n°133, Décembre 1933/ n°168, Mai 1936/ n°181-182, Juin-Juillet, 1937.
- **La République Algérienne**: n°140, 27 Août 1948/ Numéros : 3 septembre 1948/ 9 septembre 1948/ 17 septembre 1948/ 12 Septembre 1952/ 7 Novembre 1952/ 11 septembre 1953/ 23 Octobre 1953/ 30 Octobre 1953/ 6 Novembre 1953/ 15 Janvier 1954/ 19 Janvier 1954/ 5 février 1954/ 25 Février 1954/ 19 Mars 1954.
 - **L'Algérie Libre**: n°1, 18 Aout 1949 / n°3, 19 Novembre 1949 / n°4, 1 Décembre 1949 / n°6, 1 Janvier 1950 / n°7, 15 Janvier 1950 / n° spécial, 11 Mars 1950 / n° 21, 1 Septembre 1950 / n°59, 15 Décembre 1952 / n°101, 5 Mars 1954.
 - **Journal Liberté**: 26 Mai 1949 / 10 Novembre 1949.
 - **Femmes de demain**: n°1, 14 Novembre 1935/ n°2, 21 Novembre 1935/ n°3, 28 Novembre 1935/ n°4, 5 décembre 1935/ n°5, 12 Décembre 1935/ n°6, 19 Décembre 1935/ n°8, 4 Janvier 1936/ n°11, 15-29 Février 1936/ n° spécial, 20 Avril 1936/ n°16, 1-15 Mai 1936/ n°18, 1 Juin 1936/ n°19, 15 Juin 1936/ n°30, 15 Janvier 1937/ n°32, 15 Février 1937/ n°33, 1 Mars 1937/ n°34, 15 Mars 1937/ n°35, 1 Avril 1937.
 - **L'Action = العمل**: n°1, 25 Septembre 1947/ n°5, Février 1948/ n°6, Mars 1948/ n°7, Avril 1948.
 - **Revue Africaine**: Vol.56, n°281, 1912 / Vol.87, 1943 / Vol.106, 1962
 - **La femme Algérienne**: n°1, 14 Novembre 1933 / n°8, Juillet-Aout 1934 / n°26, Mai 1936 / n°50, février 1939 / n°57, Mars 1939.
 - **La revue des études littéraires**: Paris, 1921.
 - **Revue ELLE**: n°41, 15 Novembre 1935.
 - **Journal France-outré mer**: 3-4 janvier 1956.
 - **Dépêche Quotidienne**: 18 Mars 1952 / 13 Septembre 1952/ 25 Novembre 1953
 - **Alger républicain**: n° (S.D) / 13 Aout 1947/ 1 Septembre 1947/ 2 décembre 1948/ 23 Mai 1949/ 29-30 Juillet 1951/ 28 Octobre 1952/ 20 Novembre 1953.
 - **Journal d'Alger**: 11 Octobre 1947/ 23 Janvier 1948/ n°6 et 7, Septembre 1949.
 - **Questions Nord-Africaines**: n°10, 15 Janvier 1938.
 - **L'Echo d'Alger**: 11 Juillet 1937.
 - **Revue des deux mondes**: 49^e année, Paris, 1879.
 - **Journal Sud-ouest**: 6 Juillet 1959.

4- les sources historiques

4- الكتب المصادر:

- A. Bel, Marguerite: **Les arts indigènes féminins en Algérie**, GGA, (S.L), 1939.
- Aït Mansour Amrouche, Fathma: **Histoire de ma vie**, préf. Vincent Monteil ; Kateb Yacine, La découverte, Paris, 2000.
- Argoud, Antoine: **La Décadence, l'Imposture et la Tragédie**, édition Fayard, Paris, (S.D).
- Auclert, Hubertine: **Les femmes arabes en Algérie**, Société d'éditions littéraires, (S.L), 1900.
- Auclert, Hubertine: **Le Vote des femmes**, V. Giard et E. Brière librairies-éditeurs, Paris, 1908.
- Barbet, Charles: **La femme musulmane en Algérie**, Typographie Adolphe Jordan, Alger, 1903.
- Bellemare, Alex.: **Abdelkader: sa vie politique et militaire**, Librairie de L. Hachette et Cie, Paris, 1863.
- Bernard, P.: **Les écoles indigènes devant l'opinion publique**, Adolphe Jardin Librairie, Alger, 1897.
-
- Bugéja, Marie: **Femmes voilées, hommes de même**, récits et impressions de l'extrême sud algérien, imp. Baconnier frères, Alger, 1935.
- Bugéja, Marie: **Visions d'Algérie**, Baconnier Frères Editeurs, Alger, 1929.
- Cadi, Hadj Cherif: **Terre de l'islam**, Charles Lavauzelle Editeurs, Paris, (S.D).
- Celarié, Henriette: **La vie mystérieuse des harems**, Librairie Hachette, Paris, 1927.

- Celarié, Henriette: **Nos sœurs musulmanes: scènes de la vie du désert**, L-Hachette, Paris, 1926.
- Celarié, Henriette: **Un mois en Algérie et en Tunisie**, Librairie Hachette, Paris, 1924.
- Daumas, (Le Général) E.: **La femme arabe**, Typographie Adolphe Jordan, Alger, 1912.
- Daumas, (Eugène) ; M. Fabar, **La grande Kabylie-études historiques**, L-Hachette, Paris, 1847.
- Daumas, E.: **La vie arabe et la société musulmane**, Michel Lévy frères Editeurs, (S.L), 1869.
- Daumas, E.: **Mœurs et Coutumes de l'Algérie: Tell- Kabylie- Sahara**, L-Hachette, Paris, 1853.
- Dorothee Chellier: **Notes d'un médecin envoyé en mission chez les femmes arabes**, (Voyages dans l'Aurès), imp. Nouvelle J. Chellier, Tizi Ouzou, 1895.
- Doutté, Edmond: **Magie et Religion dans l'Afrique du nord**, Typographie Adolphe Jardin, Alger, 1909.
- Dr. Perron: **Femmes Arabes avant et depuis l'islamisme**, Librairie Nouvelle, Paris ; Tessier-librairie, Alger, 1858.
- Duchesne, Edouard: **De la prostitution dans la ville d'Alger depuis la conquête**, Garnier Frères Librairie, Paris, 1853.
- Duvivier, Franciades-Fleurus: **Solution de la question de l'Algérie**, Gaultier-Laguionie, Paris, 1841.
- Emir Khaled: **Réflexions sur le rapprochement Franco-arabe en Algérie**, Imp. Gojosso, Alger, 1913.
- Eudel, Paul: **D'Alger à Bou-Saada**, ill. H. Audel, Augustin Challamel Editeurs, Paris, 1904.
- Eudel, Paul: **Dictionnaire des bijoux de l'Afrique du nord : Maroc, Algérie, Tunisie, Tripolitaine**, Ernest Leroux éditeur, paris, 1906.
- Eudel, Paul: **Hivernage en Algérie**, ill. Craponne Audel, Paris, 1909.
- Eudel, Paul: **L'Orfèvrerie Algérienne et Tunisienne**, Typographie et lithographie Adolphe Jourdan, Alger, 1902.
- Faucon, Narcisse: **Le livre d'or de l'Algérie**, T.1^{er} : biographies 1830-1889, Challamel et Cie Editeurs, Paris, 1889.
- Gadant, Monique: **Le nationalisme algérien et les femmes**, (Histoire et perspectives méditerranéennes), L'Harmattan, Paris, (S.D).
- Gastineau, Benjamin: **Les femme et les mœurs de l'Algérie**, 2ed., Librairie de Michel Lévy frères, Paris, 1861.
- Gaudry, Mathéa : **La femme Chaouia de l'Aurès: étude de sociologie berbère**, librairie orientaliste Paul Ghauthner, (S.L), 1929.
- Gautier, E.F.: **Un siècle de colonisation: étude au microscope**, (1830-1930 collection du centenaire de l'Algérie), Librairie Félix Alcan, Paris, 1929.
- Goichon, A-M.: **La vie féminine au Mزاب: Etude de sociologie musulmane**, Librairie Orientaliste Paul Ghauthner, Paris, 1927.
- Goichon, A-M.: **La vie féminine au Mزاب: Etude de sociologie musulmane**, T.2, Librairie Orientaliste Paul Ghauthner, Paris, 1931.
- Guerroudj, Jacqueline: **Des douars et des prisons**, édition Bouchene, Alger, 1993.
- Hadj Ali, Lucette (Née Larribère): **Itinéraire d'une militante Algérienne: 1945-1962**, Edition Tell, Blida, 2011.
- Hacoun-Campredon, Pierre: **Etude sur l'évolution des coutumes kabyles, l'exhérédation des femmes et la pratique du hobous**, Bastide-Jourdan lib. imp., Alger, 1921.
- Hamet, Ismail: **Les musulmans français du Nord de l'Afrique**, Librairie Armand Colin, Paris, 1906.

- Hanafi, Khacer: **La femme indigène à la maternité d'Alger**, Thèse de Doctorat en médecine, Université d'Alger, Juin 1936.
- Hanoteau A. ; Letourneux A.: **La Kabylie et les coutumes kabyles**, 3 T., Imprimerie Nationale, Paris, (S.D).
- Klein, H.: **L'enseignement à Alger depuis la conquête**, (feuillet d'El-djezair), Imprimerie Orientale Fontana frères, Alger, 1920.
- Laloe, G. : **Enquête sur le travail des femmes indigènes**, Alger, typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1910.
- Laoust Chantréaux, Germaine: **Kabylie coté femmes : La vie féminine à Ait Hachem 1937-1939**, Edisud, Aix en Provence, 1990.
- Larcher, Emile ; Rectenwald, Georges : **Traité élémentaire de législation algérienne**, T.1, Librairie Arthur Rousseau, Paris, 1923.
- Lavion, H.: **L'Algérie musulmane dans le passé, le présent et l'avenir**, Augustin Challamel éditeur, Paris, 1914.
- Leclerc, A.: **De la condition de la femme musulmane dans nos possessions du nord de l'Afrique**, Typographie et Lithographie DODIVERS, Besançon, 1907.
- Lefèvre, Laure: **Recherches sur la condition de la femme kabyle (La coutume et l'œuvre française)**, imp. Le Typo-Litho ; Jules Carbonel, Alger, 1939.
- Lehéreaux, Léon: **Musulmans 1938: Un mariage arabe dans Le sud Algérien**, Editions Baconnier, Alger, 1938.
- Maistre, Jules: **Mœurs et coutumes Kabyles**, Imprimerie de la manufacture, Montpellier, 1905.
- Marchal, R.P.: **La Condition de la femme indigène**, (Cours professé à la semaine social de Marseille aout 1930), imp. Express, Lyon, (S.D).
- Maurin, Amédée: **La Saison d'hiver en Algérie**, G. Masson éditeur, Paris, 1873.
- Méliá, Jean: **Le triste sort des musulmans indigènes d'Algérie**, Paris, Mercure de France, 1935.
- Milliot, Louis : **la femme musulmane au Maghreb**, « Maroc, Algérie et Tunisie », Paris, 1909.
- Mirante, Jean: **La France et les œuvres indigènes en Algérie**, (cahiers du centenaire de l'Algérie), Publications du comité nationale métropolitain du centenaire de l'Algérie, 1930.
- Mme Gael, A.: **En Algérie**, Librairie centrale des publications populaires, (S.L), 1881.
- Morand, Marcel: **Contribution à l'étude des reformes concernant la situation politique et économique des indigènes algériens**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1916.
- Morand, Marcel: **La famille Musulmane**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1903.
- Morand, Marcel: **Le droit musulmane algérien (rite malékite): ses origines**, Typographie Adolphe Jourdan, Alger, 1913.
- Morand, Marcel: **Le statut de la femme kabyle**, Librairie Orientaliste Paul Ghauthner, Paris, 1927.
- Morand, Marcel et Autres: **L'œuvre législative de la France en Algérie**, (collection du centenaire de l'Algérie 1830-1930), Librairie Félix Alcan, Paris, 1930.
- Municipalité de Constantine: **Rapport de la commission d'instruction publique au conseil municipal de Constantine au sujet de la réorganisation des écoles primaires de cette ville**, Typographie L. Arnolet, Constantine, 1871.
- Pesle, Octave: **La femme musulmane dans le droit, la religion et les mœurs**, éditions la porte, Rabat, 1946.
- Régis, Louis: **Constantine: Voyages et séjours**, Galmann Lévy éditeur, Paris, 1880.

- Rinn, Louis: **Marabouts et khouans: étude sur l'islam en Algérie**, Adolphe Jourdan Libraire-éditeur, Alger, 1884.
- Roche, Léon: **Trente-deux ans à travers l'Islam (1832-1864)**, T.1: Algérie-Abdelkader, librairie de Firmin-didot, Paris, 1884.
- Sisbane, Chérif: **Notes sur les réformes désirées par la fédération des élus des indigènes du département de Constantine**, imp. P. Braham, Constantine, 1931.
- Soualah, Mohamed: **La Société indigène de l'Afrique du Nord (Algérie, Tunisie, Maroc, Sahara)**, Trois parties, La Typo-Litho et Jules Carbonel Editeurs, Alger, 1937.
- Tedjini, Abulqacim: **L'évolution de la femme musulmane**, éditions Afkar, Alger, 1948.
- Tsourikoff, Zénaïde: **L'enseignement des filles en Afrique du nord**, A. Pedone éditions, Paris, 1935.
- Vidal, Edmond: **Rapport sur l'exercice de 1908-1909**, (assemblée générale du 2 juin 1909 Croix Rouge Française ; Union des Femmes de France), Imp. Orientale Pierre Fontana, Alger, 1909.
- Villot, Charles (Capitaine): **Mœurs, Coutumes et Institutions des indigènes de l'Algérie**, Ed.2, L.Arnolet, Constantine, 1875.

5- Les Références :

5- الكتب المراجع باللغات الأجنبية:

- Alloula, Malek: **Le Harem Colonial: images d'un sous-érotisme**, Séguier éditions, Paris, 2001.
- Brac de la perrière, Caroline: **Derrière les héros... les employées de maison musulmanes en service chez les européens à Alger pendant la guerre d'Algérie (1954-1962)**, (histoire et perspectives méditerranéennes), L'harmattan, Paris, 1987.
- Charnay, Jean-Paul: **La vie Musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la première moitié du XXe siècle**, Presses Universitaires de France, Paris, 1965.
- El Hassar, Benali: **Les jeunes algériens et la mouvance moderniste au début du XXe siècle: Les frères Larbi et Bénali Fekkar**, Edilivre, France, 2013.
- Et- lakhdar, Saadia: **L'aliénation coloniale et la résistance de la famille algérienne**, (contribution), La cité éditeurs, Lausanne, 1961.
- Fredj, Clair: **Femme médecin en Algérie : journal de Dorothée Chellier (1895-1899)**, éd. Belin, Paris, 2015.
- **Ben Cheneb, Mohamed: Florilège**, Casbah éditions, Alger, 2007.
- Rogers, Rebecca: **A Frenchwoman's imperial story: Madame Luce in nineteenth-century Algeria**, Stanford University press, California, 2013.
- Sambron, Diane: «**La politique d'émancipation du gouvernement français à l'égard des femmes algériennes pendant la guerre d'Algérie**», in. Jean-Charles Jauffret, *Des hommes et des femmes en guerre d'Algérie*, Autrement « Mémoires/Histoire », 2003. Voir : <http://www.cairn.info/des-hommes-et-des-femmes-en-guerre-dalgerie--9782746704213-page-226.htm>.
- Surkis, Judith: **Sex, Law, and Sovereignty in French Algeria, 1830-1930**, Cornell university press, Ithaca and London, 2019.
- Taraud, Christelle : **La prostitution coloniale: Algérie, Tunisie, Maroc (1830-1962)**, éditions Payot, Paris, 2003.
- Taraud, Christelle: «**La réglementation de la prostitution, instrument de domination raciale**», in. (Abderrahmane Bouchène et al., Histoire de l'Algérie à la période coloniale), La Découverte, 2014.

6- Articles des revues:

6- المقالات باللغات الأجنبية:

- Amira, Nora: «**Le point de vue de Malek Bennabi Sur les femmes**», *NAQD*, N°11, 1998/1, p.p.69-83. Voir: <https://www.cairn.info/revue-naqd-1998-1-page-69.htm>

- André, Marc: « **Algériennes : Quelle citoyenneté? (années 1930- années 1960)**», Clio, Femmes, Genre, Histoire, n°43, 2016/1.
- Andrew Heggoy, Alf: "**Algerian women and the right to vote: some colonial anomalies**", The Muslim World, Vol.64, Issue 3, July 1974.
- Capdevilla, Luc: «**Christelle Taraud, La prostitution coloniale: Algérie, Maroc, Tunisie (1830-1962)**», Clio, Femmes, Genre, Histoire, N° 33/2011. Le lien <http://journals.openedition.org/clio/10128>
- Chalabi, El-hadi: «**Un juriste en quête de modernité : Benali fekkar**», Revue NAQD, N°11, 1/1998, p.p.41-58. Voir: <https://www.cairn.info/revue-naqd-1998-1-page-41.htm>
- Clancy-Smith, Julia: «**Le regard colonial: Islam, genre et identités dans la fabrication de l'Algérie française, 1830-1962**», Nouvelles Questions Féministes, Vol.25, n° 1, (Sexisme et racisme: le cas français), 2006, p.29. Voir le lien: <https://www.jstor.org/stable/40620339>
- Fontaine J. ; Gilgenkrantz S.: **Portraits de trois femmes médecins de la faculté de Montpellier au tournant du XIXème siècle**, in. (Histoire des sciences médicales), T. XLIX, n°3/4, 2015.
- Fredj, Claire: «**Encadrer la naissance dans l'Algérie coloniale. Personnels de santé et assistance à la mère et à l'enfant 'indigènes' (XIXe-début du XXe siècle)**», Annales de démographie historique, 2011/2, n°122.
- Gaouar, Badia: «**Les femmes Algériennes et le 1^{er} novembre 1954: de Lalla fatma N'soumer à Djamila Bouhired...**», Le jeune musulman, n°12, nov-déc 2013, Alger.
- Guiard, Claudine: «**Être féministe en contexte colonial dans l'Algérie des années 1930: Les militantes de l'Union française pour le suffrage des femmes**», Revue Historique, N°673, 2015/1, p.p.125-148. Voir: <https://www.cairn.info/revue-historique-2015-1-page-125.htm>
- Guiard, Claudine: «**La place des européennes dans la colonisation de l'Algérie (1830-1939): place impartie, place occupée** », Colonialismes in. Sextant, N°25, 2008, Université libre de Bruxelles.
- Joumier, Augustin: «**Des perles dans leur coquillage? Les femmes et la réinvention du patriarcat dans l'Algérie coloniale (1882-1962)**», Journal of women of the middle east and the islamic world, n°17, 2019.
- Kateb, Kamel: « **Les séparations scolaires dans l'Algérie coloniale** », in. Insaniyat, n°25-26, 2004, CRASC, Oran. <http://journals.openedition.org/insaniyat/6242>
- KATZENELLENBOGEN, Simon: «**Femmes et racisme dans les colonies européennes**», Clio, Histoire, femmes et sociétés, N°9/1999, <http://journals.openedition.org/clio/290>
- Kimble, Sara: «**Emancipation through secularization: French feminist views of muslim women's condition in interwar Algeria**», French Colonial History, Vol. 7, 2006, pp. 109-128. Voir: <http://www.jstor.org/stable/41938268>
- Kitouni-Dahmani, Naïma: «**Femmes dans la tourmente coloniale**», Confluences méditerranée, n°19, 1996.
- Lembré, Stéphane: «**L'enseignement technique et professionnel dans l'Algérie coloniale, du territoire à l'atelier (1866-1958)**», Histoire de l'éducation, N°147/2017. Voir : <http://journals.openedition.org/histoire-education/3293>.
- Messaoudi, Alain: «**Renseigner, enseigner. Les interprètes militaires et la constitution d'un premier corpus savant « algérien (1830-1870)**», Revue d'histoire du XIXe siècle, n°41, 2010. Voir: <http://journals.openedition.org/rh19/4049>
- Meynier, Gilbert: «**L'Algérie et les algériens sous le système colonial. Approche historico historiographique**», Insaniyat, N°65-66, Juillet-Décembre 2014.
- Seferdjeli, Ryme: «**La politique coloniale à l'égard des femmes 'musulmanes'**», In. (Abderrahmane Bouchène et al., Histoire de l'Algérie à la période coloniale), La Découverte, 2014, p.p.359-363. Voir: <https://www.cairn.info/histoire-de-l-algerie-a-la-periode-coloniale--9782707178374.htm>.
- Sidi Moussa, Nedjib: «**Les visages de l'émancipation: l'action des femmes messalistes durant la révolution algérienne**», Le Mouvement Social, N° 255, 2016/2, p.p.103-118. Voir: <https://www.cairn.info/revue-le-mouvement-social-2016-2-page-103.htm>

- Surkis, Judith: «**Propriété, polygamie et statut personnel en Algérie coloniale, 1830-1873**», *Revue d'histoire du XIXe siècle*, 41 | 2010. Voir : <http://journals.openedition.org/rh19/4041>

7- Conférences et Séminaires:

7- الملتقيات والمؤتمرات:

- Debèche, Djamila: «**L'enseignement de la langue arabe en Algérie et le droit de vote aux femmes algériennes**», conférence fait à Alger le 8 juin 1951.
- Laalami, Fériel: «**Généalogie du mouvement féministe en Algérie: Commencements et identité**», (Séminaire Genre, Politique, Sexualité(s). Orient/Occident), Octobre 2015, Fondation Maison des sciences de l'homme, Paris.
- Ramdani, Karima: «**L'Histoire sociale des femmes 'indigènes' algériennes avant 1954 à travers l'évolution d'un concept clé: l'Emancipation**», Dans (actes du 5^{ème} colloque international : « Rôle de la femme algérienne durant la révolution 1954-1962 », 25-26 octobre 2010, Université de Skikda), O.P.U, Constantine, septembre 2011.
- Renucci, Florence: «**La doctrine coloniale en république. L'exemple de deux juristes algériens: Marcel Morand et Emile Larcher**», (Colloque international : la république et son droit, Besançon, 18-19-20 Novembre 2008).
- Renucci, Florence: «**Citoyennes, sujets et mariages mixtes en Algérie (1870-1919)** », in. (Colloque international 'Oublier les colonies'), 21-23 Mars 2007, CIRCE, Université Paris3.

8- Thèses :

8- أطروحات باللغات الأجنبية:

- Abadie-Feyguine, Hélène: **De l'assistance médicale des femmes indigènes en Algérie**, Thèse de doctorat, Faculté de médecine de Montpellier, juillet 1905.
- Ajgou, Ali: **L'enseignement primaire indigène en Algérie de 1892 à 1949: Essai d'une histoire éducatif et culturelle**, Thèse de doctorat, Université de Provence Aix-Marseille, 1989/1990.
- Billion, Charmotte: **La capacité civile de la femme mariée d'après la loi du 18 février 1938 et son influence sur les régimes matrimoniaux**, Thèse Doctorat, Faculté de droit, Université de Bordeaux, juillet 1939.
- Grangaud, Isabelle: **La ville imprenable : Histoire sociale de Constantine au 18ème siècle**, Vol.1-2, Thèse de doctorat, Ecole des hautes études en sciences sociales, France, 1998.
- Renucci, Florence: **Le statut personnel des indigènes: comparaison entre les politiques juridiques française et italienne en Algérie et en Libye (1919-1943)**, Thèse de doctorat, Faculté de droit et de science politique, Université Paul Sézanne d'Aix Marseille, 2005/2006.
- Saï, Fatima Zohra: **Le statut politique et le statut familial des femmes en Algérie**, Thèse du doctorat d'état en droit public, Université d'Oran, 2007.
- Sekfali, Abderrahim: **Le rôle des instituteurs dans la Vie politique et sociale du département de Constantine de 1930 à 1939**, Thèse de Doctorat, Université de Provence Aix-Marseille, Octobre 1982.
- Taouchichet, Sofiane: **La presse satirique illustrée française et la colonisation (1829-1990)**, Thèse de doctorat en histoire de l'art, Université Paris ouest Nanterre ; Université de Montréal, 2015.

9- Internet :

9- المكتبة الإلكترونية الأجنبية:

- <https://data.bnf.fr/fr>

- قاعدة بيانات المكتبة الوطنية الفرنسية:

- <https://www.louisdarcussia.com/le-comte-d-attanoux-1>

- http://algerroi.fr/Alger/documents_algeriens/social/pages/21_union_franco_musulmane.htm

- <https://amb-algerie.fr/932/disparition-deces-moudjahida-lucette-hadj-ali/>

- <https://mondesfrancophones.com/espaces/maghebs/djamila-debeche-1915-2010-premiere-journaliste-feministe-dalgerie/>

فهرس الأعلام

- ابتهاج قذورة: 325
 أبو الزهرة: 287
 أبو القاسم تيجاني: 274
 أبو القاسم سعد الله: 378، 103، 73، 62، 49
 أبو يعلى الزواوي: 400، 398، 261، 243، 66
 أبو اليقظان: 390
 أحمد آيت علي: 280
 أحمد باي: 21،
 أحمد بن ذياب: 341
 أحمد توفيق المدني: 21، 344، 359،
 أحمد حسين: 244
 أحمد حمان: 244
 إدموند دوتتي (Edmond Doutté): 113
 إدموند فيدال (Edmond Vidal): 74
 إدوارد ديشان (Edouard Duchesne): 23
 إدوارد سعيد: 93
 إدوارد فيو (Edouard Villot): 122
 آرديون (Ardéon): 81
 إرنست ميرسيي (Ernest Mercier): 111، 117، 233، 267
 إستوبلون (Estoblon): 163
 إسماعيل حامت: 282
 إسماعيل مامي: 252، 253
 آسيا جبار: 94
 ألبان روزي (Albin Rozet): 70
 ألبير تروفموس: 366
 ألفرد شاتو (Alfred Chataud): 96
 ألكسندر ماري بلمار (Alexandre Marie Bellemare): 32
 أ. لوكليرك (A. Leclerc): 113
 آليس أسبورتيس (Alice Sportisse): 316، 317، 333، 334، 336، 338
 إليسا رايس: 146
 أمان خان: 387

- أميديي لافونت (Amédée Laffont): 76 ، 77
 أميديي موران (Amédée Maurin): 111
 أميلي ماري غواشون (Amélie-Marie Goichon): 138 ، 139
 الأمير خالد: 293 ، 351
 الأمير عبد القادر: 30 ، 31 ، 32 ، 33 ، 70 ، 127 ، 311 ،
 آنا (Mlles Anna): 64
 آنا كولنا: 143
 أنطوان آرنو (Antoine Arnaud): 119
 أنيت غودين: 143
 أنيسة بومدين: 336 ، 343 ، 344 ، 411
 أوجين دوماس (Eugène Daumas): 32 ، 37 ، 70 ، 110 ، 111 ، 117 ، 126 ، 127 ، 128 ، 129 ، 130 ،
 131 ، 132 ، 133 ، 267
 أوجين فرومنتان (Eugène Fromentin): 97
 أوجيني لوس (Eugénie Luce): 38 ، 39 ، 79 ، 148 ، 370 ، 408
 أوغيست روبير (August Robert): 96
 أوغسطين برنارد (Augustin Bernard): 127
 أوغسطين جومبي (Augustin Joumier): 140
 أوكتاف باسل (Octave Pesle): 115
 إيتيان (نصر الدين) دينيه (Etienne Dinet): 97
 إيزابيل إيرهاردت: 146
 إيفون تيران (Ivon Turin): 55 ، 353
 إيميلي بيسكوانت: 290 ، 309
 إميل فيلكس غوتيه (Emile Félix Gautier): 115 ، 407
 إميل لارشي (Emile Larcher): 52 ، 171
 آيت سعادة (Mme Ait Saada): 322
 آيني نايت عمارة (Aîni Naît Amara): 124

- ب -

- بابلو بيكاسو (Pablo Ruiz Picasso): 98
 باية خليفة: 345
 باية العوشيش: 317 ، 318 ، 337 ، 338 ، 411
 برتراند (Bertrand): 72
 بروس (Mme Bruce): 80

- ب برنارد (P. Bernard): 368، 355
 ب. برنارد (Mme P. Bernard): 107
 ب. بيشار (P. Pichard): 365
 برنارد بوتي (Bernard boutet): 96
 بشير حاج علي: 334
 بوزار: 399
 بول-إيلي دييوا (Paul-Elie Dubois): 95
 بنت سيدي عيسى: 340
 بنت النيل: 310
 بن جلول: 299
 بنجامين غاستينو (benjamin Gastineau): 109
 بن حرة (قاضي): 292
 بن عابن (مستوطنة): 50
 بن علي فكّار: 283
 بن (النقيب): 118
 بواسوني (Poissonnier): 117
 بوغلة: 69
 بوتيني (Mme Boutini): 287
 البوحميدي: 31
 بوشاكور (Mme Bouchakour): 311
 بوغزيز بن فانة: 361، 84
 بول أودال (Paul Eudel): 100، 99
 بيار بورد (Pierre Bordes): 44
 بيجو (Bugeaud): 27
 بيار هاكون-كامبريدون (Pierre Hacoun-Campredon): 114

- ت -

- تامزالي (Mme Tamzali): 328، 193
 تاي تي ليان (Thai Tei Lien): 337
 توماس شو (Thomas Shaw): 37

- ج -

- جاكلين قروج (Jacqueline Guerroudj): 339
 جان دارك: 69

- جان ميرانت (Jean Mirante): 378
 جبالي بلقاسم: 305
 جبالي (معلمة): 286
 جلول (الباشاغا): 145
 جلول بن حمزة: 70
 ج. لالوي (Mademoiselle G. Laloe): 40
 جمال الدين الأفغاني: 392، 395، 403
 جميلة بوباشا: 98
 جميلة بو حيرد: 37
 جميلة دباش: 199، 200، 204، 222
 جنات (Djennat): 288، 388
 ج- هـ بوسكي (G-H Bousquet): 175
 جوان (جنرال): 339
 جوزيف دسبارمي (Joseph Desparmet): 103، 104، 106، 107
 جوزيف شايلى (Joseph Chailley): 369
 جون بول شارني (Jean-Paul Charnay): 170
 جون سيلاس (Jean Scelles): 220
 جون موريل (John Morel): 80
 جون مير (John mir): 57، 58
 جيرمان تيون (germaine tillon): 376
 جيرمان لاواست شانتريو (Germaine Laoust Chantréaux): 141
 جيسترابو (Mme Justrabo): 325
 جيل تويان (Jules Taupin): 97
 جيل مونييه (Jules Muenier): 96
 جيل ميستر (Jules Maistre): 110

- ح -

- الحاجة الزهرة: 70، 119
 حاج محمد (الطبيب): 124
 حبيبة منشاري: 389
 حسان (معلم): 275، 294
 الحسن بن بريهمات: 263
 حسيبة بن بو علي: 37

حليمة بن عابد: 201

حليمة مهدي: 343

حليمي (Mme Halimi): 333

حمدان خوجة: 21

حمزة بوباكور: 291

حمزة (الخليفة): 70

حورية داوود: 344

- خ -

خاصر حنفي: 276

خضرة بوفجي: 321

خيرة بوعياض: 323

خيرة زروزرو: 344

- د -

درقيني (Mme Derguini): 291

درية شفيق: 310

دلفو (Mme Delfau): 63

دلو (الطبيب): 71

دلي يحي محمد: 399

دوروثي شيلبي (Dorothee Chellier): 75

دوقا (الأب): 109

دو لاکروا (De la Croix): 95، 93

دو لاموريسيير (De Lamoricière): 28، 22

دوهوسفيل (d'Hausseville): 369

دي بورمون (De Bourmont): 20

ديركل (الطبيب): 73

دي نوفو (De neveux): 117

دييغو دي هايدو (Diego de Haido): 28

- ر -

رابح زناقي: 290، 288

راندون (Randon): 69، 54

ر.ب. مارشال (R.P. Marchal): 372، 210

رشيد رضا: 395، 394، 393

- روبير بيار (Robert Pierre): 295
 روني ستيب (René Stipe): 325
 ريسي (Mme Reisser): 194
 ريشاردو (Mme Rechardeaux): 183
 ريفيار (Mme Rivière): 137
 ريني مونبي (René Maunier): 170

- ز -

- زبيدة ساكر: 331
 زكال فاطيمة: 311
 زليخاء إبراهيم عثمان: 346
 زموشي (الشيخ): 394
 زهرة صمغوني: 344
 زهرة ظريف: 381، 373
 زهور بن شريف: 321
 زهور ونيسي: 411، 346، 341
 زوينة بوفجي: 321
 زيناييد تسوريكوف (Zénaïde Tsourikoff): 367، 358، 60، 57
 زينب فضلاء: 344
 زينب.ك: 314
 زينب الهاملية: 37

- س -

- ساباتيي (Sabatier): 365
 سانت آرنو (Saint Arnaud): 26
 سانت ماري (Sainte Marie): 43
 ستيق (Steeg): 208
 س. جوايو (S. Gwaou): 353
 سكينه آيت سعادة: 344
 سميرة عبد القادر حمزة: 324
 سيدي عامر بوضرة: 120
 سيرتي أرشيماد (Certy Archimede): 337
 سيروكا (الرائد): 117
 سيسيل برونشفيك (Cécile Brunschvicg): 195، 194، 189، 182

سيمون بيرنارد داطانو (Simone-Bernard d'Attanoux): 135

سيمون ديوفوار (Simone De Beauvoir): 302

- ش -

شارل باربي (Charles Barbet): 166

شارل ديغول (Charles De gaulle): 180

شارل روبير أجيرون (Ch.R. Agéron): 358، 164، 39، 26

شارل روبير غارنيي (C.R Garnier): 364

شارل فيرو (Charles feraud): 117، 37

شارل هنري تشرشل: 31

شاشة سفير: 344

شامة بوفجّي: 411، 347، 321، 320

شام (فّنان) (Cham): 96

شايب فيفي (Chaieb Fifi): 321

ش. دوماس (Ch. Daumas): 285

الشريف بن حبيلس: 289

الشريف محمد بن عبد الله: 120، 119، 70

شريفة بن مرادي: 321

شكيب أرسلان: 392

- ص -

صغير حسن: 197

صفية بلمهدي: 324

صفية قصباجي: 344

صورية (الملكة): 387

صونيا فؤاد: 309، 308

- ط -

طاهرات (معلم): 286

الطاهر الحداد: 395، 302، 252

الطليعة بنت رايح: 70

الطيب سماتي: 291

الطيب العقبي: 242، 25

- ع -

العالية لعلّي بوعلّي: 346

عبّاسية فوضيل (Abassia Fodil): 323

عبد الحفيظ بن الهاشمي: 260

عبد الحليم بن سماية: 393

عبد الحميد ابن باديس: 240، 241، 299، 341، 394، 396، 398، 409.

عبد السلام (Mme Abdeslam): 44

عبد القادر قروج: 339

عبد القادر المجاوي: ر، 228، 229، 393

عبد الرحمان الثعالبي: 21،

عبد الرحمان الجليلي: 20، 68

عبد الرحمان فارس: 218

عبد الرحمان عزيز: 328

علجية بنت بو عزيز: 200

علجية بن علاق نور الدين: 82

علي (القايد): 71

علي مرّاد: 385، 395

عمر بوضربة: 21

عمر بن قدور الجزائري: ر، 236، 237، 238

العمرية.ل: 53

عمّور طاهر: 208

عنبرة سلام الخالدي: 310، 314

عيسى عبدلي: 329

عيشة بومدين: 337

عيشة دالي باي: 335، 339

- غ -

غاييل (Mme. A Gaël): 110

غبريال إستيفال: 143

غنية شالح: 344

غويو (الكونت): 80

- ف -

فاتحة مازيغي: 344

فاطمة بن عصمان: 323

فاطمة رشدي: 87

- فاطمة الزهراء رميلة: 344
فاطمة الزهراء محفوظي: 344
فاطمة زهرة تيزراوي: 331
فاطمة منصور آيت عمروش: 64
فاطمة.هـ: 53
فاطمي باهي عومار (Fatmi Bahi Omar): 321
فتيحة القورصو: 346
فرحات عباس: 306، 304، 303، 299
فرديناند دوشان (Ferdinand Douchain): 379، 114
فروخي (نائب): 312
فرونسياد فلوريس ديفيفي (Franciade Fleurus Duvivier): 118
فرومتان (Fromentin): 153
فطيمة بن علي: 331
فطيمة سحنون (Sahnoune Fatima): 321
فضيلة أحمد: 326
فلاندين (Flandin): 163
فلورنس رينوتشي (Florence Renucci): 175
فورشو: 69
فيار (Viard): 84
فيكري (Mme Fikri): 205
فيليكس جاكوي مولان (Félix Jacques Moulin): 94
فيوليت (Mm Viollette): 385، 290
فيونت (Mme Fuentes): 186

– ق –

- قاروي (Mme Garauby): 337، 334، 323
قاسم أمين: 401، 400، 395، 233، 228
القاضي عياض: 232
قدور بن غبريط: 274، 273، 272، 271
القرطي: 232

– ك –

- كامبون (Campon): 75
كاميل كورو (Camille Corot): 95

الكاهنة: 119، 120

كريستال تارو (Christelle Taraud): 22، 23

كلود ألفونس ديلانغل (Claude Alphonse Delangle): 163

كلود أوليفي: 143، 383

كولون: 81

- ل -

لاباسي (Lapasset): 55

لافيجري (Lavigerie): 62، 63، 365

لافونت (Mme Lafiontes): 295

لالا حضرة: 120

لالا فاطمة نسومر: 69، 120

لالة الزهرة: 31

لالا عيشوش: 200

لالة خيرة: 31

لالة عيشة: 204

لالا شويكرة: 200

لوتورنو: 35، 122، 123، 166

لور لوفافر (Laure Lefevre): 143، 211، 212

لوسات لاريبار حاج علي (Lucette Larribère Hadj Ali): 335، 336، 360، 373

لوسيان جان داروي (Lucienne Jean-Darrouy): 186، 187، 189، 192

لوسيان سيمون (Lucien Simon): 97

لوسيان فافر: 146

لويزة عمور: 338

لويس ريجيس (Louis Régis): 101

لويس رين (Louis Rinn): 31، 66، 120، 121، 369

لويس لوكوك (Louis Lecocq): 114

لويس ماسينيون (Louis Massignon): 164

لويس ميو (Louis Milliot): 79، 81

ليشاني (Lechani): 383

ليلي بن ذياب: 341، 342، 346

ليون روش (Léon Roche): 68

ليون لوهيرو (Léon Leheraux): 122

-م-

- ماتيا غودري (Mathéa Gaudry): 198، 196، 141
- مادلين إيبازين (Madeleine Ibazizen): 78
- مادلين دي لبي دي بيلو (Madeleine de Lyée de Belleau): 102
- مارسيل آكين (Marcel Ackein): 96
- مارسيل بوريل (Marcel Bourrel): 77
- مارسيل موران (Marcel Morand): 169، 171، 172، 173، 176، 178، 179، 180، 207، 208، 257، 365
- مارغريت بل (Marguerite A. Bel): 142
- مارغريت شواب (Marguerite Schwab): 185
- ماريا فيرون (Maria Veron): 186، 356
- ماري بوجيجا (Marie Bugéja): 134، 143، 144، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 180، 197، 360، 370، 385، 386، 408
- ماري سايتون (Marie Saeton): 64
- ماري-هيلين لوفوشو (Marie-Hélène Lefaucheux): 216، 318
- مازلين لوسيان (Mazlin Lucienne): 337
- ماسو (Mme Massu): 382
- ماكماهون (Mc Mahon): 69
- مالاتير-سولبي (Malaterre-Sellier): 195، 196
- مالك بن نبي: ر، 245، 246، 247، 248، 249، 250
- مالك علولة: 93، 94
- مامان سليمان: 140 مبارك الميلي: 67
- مامية شتوف: 310، 312، 313، 323، 324، 327، 328، 329، 330، 331، 334، 339، 411
- مترف (معلم): 287
- محمد الأمين العمودي: 244، 396
- محمد البشير الإبراهيمي: 241، 242، 322، 390، 395، 396
- محمد بن رحال: 256
- محمد بن شنب: ر، 229، 231، 232، 233
- محمد بن مصطفى بن الخوجة: ر، 233، 234، 235، 359، 393
- محمد بن يوسف: 204
- محمد الحسن فضلاء: 343، 344
- محمد شريف قاضي: 268، 270، 284، 364، 375

- محمد عبده: 392، 393، 395، 403
 محمد صوالح: 266، 267، 268، 284، 364، 367
 محمد فريد وجردي: 398
 محمود عزمي: 393
 محي الدين باشطرزي: 87، 327
 محيو (معلم): 285
 م. دارافار (M. Darafar): 399
 م. روفبي (M. Rouvier): 76
 مسعود بن طلعة: 330
 مصطفى كمال أتاتورك: 293
 مغالي بواسنار: 143، 144 مصالي الحاج: 290، 299، 309، 311، 329، 334
 مليكة مفتي: 327، 334
 مليكة بن عامر: 340، 341
 مليكة بن عمور (Malika Benameur): 244
 مندوز (Mme Mandouze): 335
 منصوره.ب: 53
 موريس فيوليت (Maurice viollette): 177، 215، 285، 356، 366، 367، 408
 المولود بن الموهوب: 266
 مونتانيك (Montagnac): 27
 مونيك غادون (Monique Gadant): 302
 ميرانس (Mme Merens): 335
 ميسوم (الرائد): 218
 ميسوم (Mme Missoum): 219
 ميشيل فولكبي (Michelle Foulquier): 374
 ميمي لحول: 323
 مينسكي إيفلين (Minsky Evelyne): 337

– ن –

- نابليون بونابرت (Napoléon Bonaparte): 92
 نادية بن بية: 204
 نفيسة حمود: 312، 323، 324، 327، 330، 331، 411
 نفيسة سيد قارة: 206، 380، 381
 نيكولاس بيرون (Dr Nicolas Perron): 173

- ه -

هانوتو: 35، 123، 124، 166

هاينريش فون مالتسن: 37،

هدى شعراوي: 195

هنريات سيلاربي: 143، 145

هنري إيفينيوال (Henri Evenepoel): 95

هنري فيلكوني (Henri Fulconis): 77

هـ. لافيون (H. Lavion): 121، 354، 375

هـ. هافيون: 364

هوبرتين أوكلير (Hubertine Auclert): 134، 144، 147، 148، 149، 150، 151، 155، 158، 370،

408

هيقونوت (النقيب): 117

هيلين أباديي فايغوين (Hélène Abadie-Feyguine): 112

- و -

وليام شالر (William Shaler): 49

- ي -

يحي بوعزيز: 301

يحي بن محمد الدراجي: 400

يحي عيشة (Yahia Aiicha): 321

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات:

إهداء	
شكر و عرفان	
الاختصارات	
مقدمة	أ- ظ

الفصل الأول: السياسة الاستيطانية الفرنسية وآثارها على المرأة الجزائرية:

1- العنف الاستعماري في حقّ النساء الجزائريات.....	19
1-1- وضع المرأة عقب الحملة الفرنسية على الجزائر.....	20
1-2- العنف النفسي والأخلاقي في حقّ المرأة والمجتمع.....	22
1-3- البطش بالنساء خلال عمليات الغزو والتوسّع.....	26
2- أوضاع المرأة الجزائرية تحت سلطة الاحتلال الفرنسي.....	28
1-2- الأدوار الاجتماعية والاقتصادية للمرأة الجزائرية قبل الاحتلال.....	28
2-2- مكانة المرأة في دولة الأمير عبد القادر الجزائري.....	30
2-3- مكانة المرأة الجزائرية داخل الأسرة والمجتمع المحلي.....	33
2-4- الاستغلال الاقتصادي للنساء الجزائريات	38
3- الوضع الثقافي والديني للمرأة الجزائرية زمن الاحتلال الفرنسي.....	49
1-3- توجيه الفتيات الجزائريات نحو التعليم المهني.....	49
2-3- حالة التعليم الرسمي الفرنسي الخاص بالفتيات 'الأهليات'.....	54
3-3- الحملات التنصيرية ومحاولات استقطاب المرأة.....	62
3-4- وقوع المرأة الجزائرية تحت تأثير الخرافات والبدع.....	65
4- مقاومة المرأة الجزائرية للسياسة الاستيطانية الفرنسية.....	67
1-4- المرأة الجزائرية ترفض التعايش مع الغازي الأجنبي.....	68
2-4- الامتناع عن التداوي لدى الطبيب الأوربي (الرومي).....	70
3-4- تعليم البنات الجزائريات بين المنع والإهمال.....	78
4-4- المسرح.. ميدان آخر لمقاومة المرأة للاحتلال.....	86
* خلاصات الفصل الأول.....	87

الفصل الثاني: صورة المرأة 'الأهلية' في ضوء الكتابات الكولونiale الفرنسية:

- 1- المرأة الجزائرية في الفن الاستشراقي الاستعماري والرحلة..... 91
- 1-1- مجتمع 'الحريم' الجزائري موضوعاً للاستشراق الكولونالي..... 92
- 1-2- النساء الجزائريات في الفن الكولونالي الاستشراقي..... 95
- 1-3- المرأة الجزائرية في أدب الرحلة والاستكشاف الكولونالي..... 99
- 2- نظرة النخبة الفرنسية المثقفة للمرأة 'الأهلية' في الجزائر..... 103
- 1-2- حضور البنت والمرأة الجزائرية في كتب العربية الدارحة..... 103
- 2-2- المثقفون الفرنسيون والمرأة 'الأهلية' في جزائر القرن 19م..... 108
- 3-2- الكتابات الكولونiale حول المرأة الجزائرية منذ مطلع القرن 20م..... 112
- 3- صورة المرأة 'الأهلية' في الإثنوغرافيا العسكرية الكولونiale..... 116
- 1-3- الضباط الفرنسيون و حياة المرأة 'الأهلية' في الجزائر..... 117
- 2-3- صورة المرأة 'الأهلية' في ضوء كتابات 'هانوتو' و 'لوتورنو'..... 123
- 3-3- المرأة الجزائرية بأعين الضابط 'أوجين دوماس'..... 126
- 4- قضايا المرأة 'الأهلية' في الكتابات النسوية الفرنسية..... 134
- 1-4- اهتمام الكاتبات الأوربيات بالمرأة الجزائرية منذ مطلع ق 20..... 135
- 2-4- المرأة الجزائرية في الأعمال الروائية النسوية الفرنسية..... 143
- 3-4- هوبرتين أوكلير وقضايا المرأة 'الأهلية' في الجزائر..... 147
- 4-4- ماري بوجيجا والدفاع عن حقوق المرأة 'الأهلية'..... 151
- * خلاصات الفصل الثاني..... 159

الفصل الثالث: تجليات الخطاب الكولونالي في قضية 'تحرير المرأة 'الأهلية':

- 1- مكانة المرأة 'الأهلية' ضمن منظومة القوانين الاستعمارية..... 161
- 1-1- المرأة الجزائرية والقوانين الكولونiale التعسفية..... 162
- 2-1- الازدواجية القانونية وتداعياتها على المرأة 'الأهلية'..... 169
- 3-1- المشرع الفرنسي ومحاولة إصلاح وضع المرأة الزواوية..... 172
- 4-1- الوضع القانوني للمرأة الجزائرية بعد قرن من الاحتلال..... 179
- 2- الحركة النسوية الفرنسية وقضية 'تحرير المرأة 'الأهلية' في الجزائر..... 182
- 1-2- موقف الاتحاد النسوي الفرنسي في قضايا المرأة 'الأهلية'..... 182
- 2-2- قضية تحرير المرأة 'الأهلية' في الصحافة النسوية الفرنسية..... 188

- 194..... 3-2 مؤتمّر النساء المتوسّطات وقضايا المرأة 'الأهلية'
- 198..... 4-2 تحرير المرأة 'الأهلية' عند النساء المتفرنسات
- 206..... 3- مآلات الخطاب الكولونيالي في قضية 'تحرير المرأة الأهلية'**
- 206..... 1-3 التشريعات الخاصة بالمرأة 'الأهلية': بين التنظير والواقع
- 214..... 2-3 التماطل في إقرار الحقوق السياسية للمرأة في الجزائر
- 217..... 3-3 إمكانية تطوّر المرأة الأهلية في إطار المشروع الاستعماري؟
- 221..... 4-3 مآل الدعاية السياسية الفرنسية لاستقطاب المرأة الجزائرية
- 224..... * خلاصات الفصل الثالث**

الفصل الرابع: قضايا المرأة في فكر ومواقف النخبة الجزائرية:

- 227..... 1- قضايا المرأة في الفكر الإصلاحى الجزائرى المعاصر**
- 228..... 1-1 روّاد الإصلاح: التربية والتعليم سبيل النهوض بالمرأة
- 236..... 2-1 عمر بن قّدور الجزائري: محاربة الخرافات وتعليم البنات
- 239..... 3-1 تربية البنات وتهذيب النساء أساس الإصلاح عند العلماء
- 245..... 4-1 مشكلة المرأة عند مالك بن نبي
- 251..... 2- مسائل المرأة عند النخبة المحافظة (التقليدية) في الجزائر**
- 251..... 1-2 تعليم البنات الجزائريات مع المحافظة على الأصول
- 255..... 2-2 التحذير من الجهل والتنديد بالترجّح وتردّي أخلاق النساء
- 257..... 3-2 النخبة المحافظة ومسائل الأحوال الشخصية للمرأة
- 259..... 4-2 مكانة ووظيفة المرأة في المجتمع من منظور النخبة المحافظة
- 262..... 3- مسائل المرأة الجزائرية في أدبيات النخبة المتفرنسة**
- 263..... 1-3 موقف النخبة الوسيطة من مسائل المرأة في الجزائر
- 271..... 2-3 النخبة الموالية للاحتلال وقضية المرأة: قدور بن غبريط
- 275..... 3-3 العادات والأعراف البالية سبب تخلف المرأة الأهلية
- 282..... 4-3 التعليم الفرنسى للبنات سبيل الانصهار الحضارى
- 293..... 5-3 المرأة التركية نموذج المتفرنسين لتحرير المرأة 'الأهلية'
- 296..... * خلاصات الفصل الرابع**

الفصل الخامس: تحرير المرأة في أدبيات ونضال الحركة الوطنية الجزائرية:

- 299..... 1- مكانة المرأة ضمن مسار الحركة الوطنية الجزائرية**
- 300..... 1-1 المرأة الجزائرية في أدبيات أحزاب الحركة الوطنية

303.....	2-1- الاتجاه الإدماجي وقضية تحرير المرأة الجزائرية.
309.....	3-1- الاتجاه الاستقلالي ومطلب تحرّر المرأة الجزائرية.
316.....	4-1- الحزب الشيوعي الجزائري ومبدأ التحرير الشامل.
320.....	2- صعود النضال النسوي الوطني الجزائري.....
320.....	1-2- شامة بوفجّي: رائدة تعليم البنات في الجزائر المُستعمرة.
323.....	2-2- ميلاد جمعية النساء المسلمات الجزائريات (AFMA).
333.....	3-2- تأسيس اتحاد نساء الجزائر (UFA).
341.....	4-2- طالبات جمعية العلماء: الكتابة الصحفية والنشاط الإصلاحي.
348.....	* خلاصات الفصل الخامس.....
	الفصل السادس: 'تحرير المرأة الأهلية': غموض الخطاب الكولونيالي وانشطار النخبة الجزائرية:
351.....	1- ماذا حقّق الخطاب الكولونيالي الفرنسي للمرأة 'الأهلية'؟
351.....	1-1- مآل فكرة تحقيق الانصهار الحضاري عن طريق المرأة.
357.....	2-1- جدوى وجدّية التعليم الفرنسي للبنات الجزائريات.
363.....	3-1- سياسة الغزو عن طريق البيت (الأسرة): أي مصير؟
367.....	4-1- فشل التقارب بين المُستعمر والمُستعمر بواسطة المرأة.
377.....	2- خيبة المتفرنسين في ارتقاء المرأة 'الأهلية' بفضل الحضارة الغربية:
377.....	1-2- تعاظمي المتفرنسين عن وضع المرأة في ظلّ الاحتلال الفرنسي.
382.....	2-2- ضياع المتفرنسين بين الثقافة الفرنسية والانتماء لبيئة محافظة.
387.....	3-2- السّجال الفكري بين النخبة الجزائرية في قضية 'تحرير المرأة'.
391.....	3- النخبة المعرّبة وقضية تحرير المرأة: الاتفاق والاختلاف.
392.....	1-3- التأثير المشرقّي على دعاة الإصلاح في الجزائر.
395.....	2-3- تذبذب الموقف الإصلاحي في قضية تحرير المرأة.
397.....	3-3- الانشطار بين النخبة التقليدية ودعاة تحرير المرأة الجزائرية.
402.....	* خلاصات الفصل السادس.....
405.....	خاتمة.....
414.....	ملاحق.....
428.....	بيبلوغرافيا.....
442.....	فهرس الأعلام.....
456.....	فهرس المحتويات.....

ملخص الدراسة:

تبحث دراستنا موضوعاً مهماً كان محلّ اهتمام النخبة المثقّفة من الفرنسيين والجزائريين في الجزائر المستعمرة؛ وقضية من القضايا الهامة في التاريخ الاجتماعي للمرأة الجزائرية؛ هي: قضية 'تحرير المرأة' 'الأهلية' بين الخطاب التاريخي الفرنسي ومواقف النخبة الجزائرية: 1919-1954". وقد انطلقنا في بحثنا من إشكالية مفادها أن التفسيرات والقراءات التي قُدمت لوضع المرأة الجزائرية في ظلّ الهيمنة الفرنسية، لم تكن بتلك البساطة التي قد يتصوّرها البعض، وإنما كان لكلّ طرف منطلقاته الفكرية وقناعاته ورؤيته للمسألة. وتوصّلنا إلى أنّ الخطاب الفرنسي حول تحرير المرأة كان يندرج ضمن مشروع كولونيالي وظّف الإيديولوجيا والسياسة والفكر لخدمة أهدافه، بينما كانت مواقف النخبة الجزائرية المثقفة نابعة من خلفياتها الفكرية والثقافية، لكنها تميّزت بالانشطار والاختلاف غالباً.

الكلمات المفتاحية: المرأة الجزائرية - تحرير المرأة الأهلية - خطاب تاريخي فرنسي - نخبة جزائرية.

Résumé:

Notre étude examine un sujet important qui intéressait l'élite éduquée Français et Algériens dans l'Algérie coloniale. L'un des enjeux importants de l'histoire sociale des femmes algériennes ; C'est : **La question de la «l'émancipation de la femme indigène» entre le discours historique français et les attitudes des élites algériennes : 1919-1954.** L'hégémonie n'était pas aussi simple que certains pourraient l'imaginer, mais chaque parti avait ses bases intellectuelles, ses convictions et sa vision de la question ; servir ses objectifs, tandis que les attitudes de l'élite algérienne instruite découlaient de leurs origines intellectuelles et culturelles, mais étaient souvent caractérisées par la fragmentation et le désaccord.

Mots clés: femme algérienne- émancipation de la femme indigène – discours colonial – élite algérienne.